تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلّامة

محمّد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشّافعي

المدرّس بدار الحديث الخيريّة في مكّة المكرّمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمّد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكّة المكرّمة

المجلد الثلاثون

دار طوق النجاة

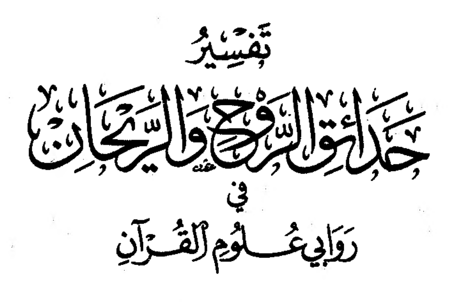
الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان


تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على إفضاله، والشكر له على نواله، والصلاة والسلام على نبيه وآله وأصحابه وجميع أتباعه، وكل مرشد إلى دينه، إلى يوم جمعه وجزائه.

أما بعد: فيقول العبيد الفقير ـ أيدهُ الله المفيض القدير ـ: إني لما فرغت ـ بعون الله سبحانه ـ من تفسير الجزء الثامن والعشرين.. تفرغت بتوفيقه لتفسير الجزء التاسع والعشرين مستمداً من فيوضاته الهاطلة ومستمطراً من سحائب جوده الماطرة، فقلت، وهذا قولي:

سورة الملك

سورة الملك مكيّة، قال القرطبي: نزلت بعد سورة الطور.

التسمية: تسمى: سورة الواقية والمنجية؛ لأنها تقي وتنجي قارءها من عذاب القبر، وتسمى سورة تبارك، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّه كان يسميها المجادلة؛ لأنّها تجادل عن قارئها في القبر، وتدعى في التوراة المانعة.

وآيها: ثلاثون آية. وكلماتها: ثلاث مئة وخمسٌ وثلاثون كلمة. وحروفها: ألفٌ وثلاث مئة وثلاثة عشر حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها[1]: أنّه سبحانه لمَّا ضرب مثلاً للكفّار بتينك المرأتين اللتين قدر لهما الشقاء وإن كانتا تحت عبدين صالحين، ومثلاً للمؤمنين بآسية ومريم، وقد كتب لهما السعادة وإن كان أكثر قومهما كفّاراً، وكان ذلك تصرفاً في ملكه على ما سبق قضاؤه.. افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطة علمه عزَّ وجلَّ وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه، فقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم رحمه الله تعالى: سورة الملك كلُّها محكمة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها[2]: وممّا ورد في فضلها: ما أخرجه أحمد، وأبو داوود، والترمذي،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

والنسائي، وابن ماجه، وابن الضريس، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ سورة من كتاب الله ما هي إلاّ ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» قال الترمذي هذا حديث حسن.

وما أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وابن مردويه، والضياء في «المختارة»، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾».

وما أخرجه الترمذي، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، وابن نصر، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب بعض أصحاب النبيّ ﷺ خباءه على قبر، وهو لا يحسب أنّه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر»، قال الترمذي بعد إخراجه: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

ومنه: ما أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر»، وأخرجه أيضاً النسائي وصحَّحه، والحاكم رحمهم الله تعالى.

ومنه: ما أخرجه ابن مردويه عن رافع بن خديج وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «أنزلت عليَّ سورة تبارك، وهي ثلاثون آيةً جملةً واحدةً، وهي المانعة في القبور».

ومنه: ما أخرجه عبد بن حميد في مسنده، والطبرانيّ، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّه قال لرجلٍ: ألا أتحفك بحديث تفرح به؟ قال: بلى، قال: اقرأ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك؛ فإنها المنجية والمجادلة، تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له أن ينجيه الله من عذاب النار، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي».

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة

تقدّم لك بيان مناسبة هذه السورة لما قبلها، ثم إن الله سبحانه بدأ هذه السورة بأنْ مجد نفسه، وأخبر بأن بيده الملك والتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل؛ لقهره وحكمته وعدله، وهو القدير على كل شيء. ثم أخبر بأنه قدر الموت والحياة ليبلوكم فينظر من منكم أخلص له عملاً، وهو ذو العزة الغالب على أمره الغفور لمن أذنب ذنباً ثم تاب وأقلع عنه، ثم أردف ذلك بأنه خلق سبع سموات بعضها فوق بعض لا خلل فيها ولا عيب، فانظر أيها الرائي أترى فيها شقًّا أو عيباً؟ ثم أعد النظر وحدق بالبصر، لتستيقن تمام تناسبها واستواء خلقها. وقد زينا أقرب السموات إليكم بالكواكب يهتدي بها الساري، ويعلم بها عدد السنين والحساب، وعليها تتوقف حياة الحيوان والنبات، وهي أيضاً سبب الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس والجنّ، وهؤلاء قد استمدوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة بوساطة الحرارة والضوء من الكواكب، وبذا أعد لها عذاب السعير جزاء ما اقترفوا في حياتهم الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] أنّ شياطين الإنس والجنّ قد أعد لهم عذاب السعير.. أردف ذلك ببيان أن هذه النار قد أعدها لكل جاحد بوحدانيته مكذّبٍ رسله منكر للبعث واليوم الآخر، ثم وصف هذه النار بأوصاف تشيب من هولها الولدان، وتصطك لسماعها الأسنان، منها:

١ ـ أنه يسمع لها شهيق حين يلقى الكافرون فيها.

٢ ـ أنها تفور بهم كما يفور ما في المرجل حين يغلي.

٣ ـ أنها تكون شديدة الغيظ والحنق على من فيها.

٤ ـ أن خزنتها يسألون داخليها: ألم تأتكم رسل منكم فتبعدكم عن هذا العذاب.

٥ ـ أن أهلها يعترفون بأن الله ما عذبهم ظلماً بل قد جاءهم الرسل، فكذبوهم

---

(١) المراغي.

وقالوا لهم: أنتم في ضلال بعيد.

٦ ـ دعاء الملائكة عليهم بالبعد من رحمة الله وألطافه وكرمه وإحسانه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لمّا أوعد[1] الكفّار بما أوعد، وبالغ في ترهيبهم بما بالغ. . وعد المؤمنين بالمغفرة والأجر الكريم، ثم عاد إلى تهديد الكافرين بأنّه عليم بما يصدر منهم في السرّ والعلن، وأقام الدليل على ذلك بأنّه هو الخالق فلا يخفى عليه شيء من أمرهم، بل يصل علمه إلى ظواهر أمورهم وبواطنها، ثم عدد نعماءه عليهم فذكر أنه عبّد لهم الأرض وذللها لهم، وهيّأ لهم فيها منافع من زروع وثمار ومعادن، فليتمتعوا بما أوتوا ثم إلى ربهم مرجعهم وإليه بعثهم ونشورهم.

قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما أعدّه للكافرين من نار تلظّى، ووصف هذه النار بما تشيب من هوله الولدان. . أردف ذلك بترهيبهم وتخويفهم بأنهم لا يأمنون أن يحل بهم في الدنيا ما حل بالمكذبين بالرسل من قبلهم من: خسف عاجل تمور به الأرض موراً، أو ريح حاصب تهلك الحرث والنسل ولا تبقي منهم ديّاراً ولا نافخ نار، ثم ضرب لهم المثل بما حل بالأمم قبلهم من ضروب المحن والبلاء، فقد: أهلكت ثمود بصاعقة لم تبق ولم تذر، وأهلكت عاد بالريح الصرصر العاتية التي سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ـ متتابعة ـ وأهلك فرعون وقومه بالغرق في بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ. ثم لفت أنظارهم إلى باهر قدرته وعظيم منته على عباده، فطلب منهم أن يروا الطير وهي تبسط أجنحتها في الجو تارةً، وتضمها أخرى بتسخير الله وتعليمه ما هي في حاجة إليه.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم . . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا أبان للمشركين عجائب قدرته فيما يشاهدونه من أحوال الطير، ووبخهم على ترك التأمل فيها. . أردفه بتوبيخهم على

(١) المراغي.

عبادتهم غيره تعالى يبتغون منه نصراً ورزقاً، منكراً عليهم ما اعتقدوه، مبيناً لهم أنهم لا يصلون إلى ما أمَّلوه، وإلا فليبينوا هذا الناصر والمعين والرازق إذا هو أمسك رزقه. أما وقد وضح الحق لذي عينين.. فهم في لجاج وعناد بعد وضوح الحجة وتبين المحجة، ثم ضرب مثلاً يبين حالي المشرك والموحد: فمثل حال الأول بحال من يمشي منحنياً إلى الأمام على وجهه فلا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؛ فيكون حائراً وضالاً، ومثل حال الثاني بحال من يمشي منتصب القامة على الطريق الواضح فيرى ما أمامه ويهتدي إلى ما يريد، ثم أعقب هذا بذكر الدلائل على تفرده بالألوهية، بذكر خلق الإنسان في الأرض وإعطائه نعمة السمع والبصر، وأرشد إلى أن القليل من الناس شكور لهذه النعم. ثم أردف هذا بذكر سؤال المشركين للرسول ﷺ عن ميقات البعث استهزاء به وإجابته إياهم بأن علمه عند الله وليس له من علمه شيء، وإنما هو نذير مبين، وذكر أنه حين تقوم الساعة ويعرف المشركون قرب وقوع ما كانوا ينكرون تعلو وجوههم غبرة ترهقها قترة، ويقال لهم: إن ما كنتم تستعجلون قد وقع ولا مرد له، فماذا أنتم فاعلون؟

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا ...﴾ الآيات، روي: أنّ كفّار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، كما حكى الله عنهم في آية أخرى بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾، وقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.. فنزلت الآية، ثم أمره أن يقول لهم: إنا آمنا بربنا وتوكلنا عليه وستعلمون غداً من الهالك. ثم أمره أن يقول لهم: إن غار ماؤكم في الأرض ولم تصل إليه الدلاء فمن يأتيكم بماء عذب زلال تشربونه؟!

التفسير وأوجه القراءة

﴿تَبَٰرَكَ﴾؛ أي: تعالى عن النقائص في ذاته وصفاته وأفعاله، واتصف بالكمالات فيها، فهو تعالى الإله ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ والسلطنة والتصرف العام. وتبارك تفاعل من البركة، والبركة: النماء والزيادة: حسّيّة أو عقليّة، ونسبتها إلى الله

تعالى باعتبار تعاليه عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله، يعني: أنّ البركة تتضمن معنى الزيادة، وهي تقتضي التعالي عن الغير، كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: في ذاته لوجوب وجوده، وفي صفاته وأفعاله لكماله فيهما. وأما قوله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله» فباعتبار اللوازم وبقدر الاستعداد، لا باعتبار الحقيقة والكنه؛ فإن الاتصاف بها بهذا الاعتبار مخصوص بالله تعالى، فأين إحياء عيسى عليه السلام الأموات من إحياء الله تعالى؟ فإنّه من الله بدعائه؛ فالمعجزة استجابة مثل هذا الدعاء ومظهريته له بقدر استعداده، وبهذا التقرير ظهر معنى قول بعض المفسّرين: تزايد في ذاته؛ فإن التزايد في ذاته لا يكون إلا باعتبار تعاليه بوجوده الواجب، وتنزهه عن الفناء والتغير.

وصيغة ﴿تَبَارَكَ﴾ بالدلالة على غاية الكمال وإنبائها عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها في غيره تعالى، ولا استعمال غيرها من الصيغ في حقه تبارك وتعالى. وإسنادها إلى الموصول للاستدلال بما في حيز الصلة على تحقق مضمونها. والموصولات معارف، ولا شك أن المؤمنين يعرفونه بكون الملك بيده، وأما غيرهم... فهم في حكم العارفين؛ لأنّ الأدلة القطعية لما دلت على ذلك كان في قوة المعلوم عند العاقل.

وقال الحسن: ﴿تَبَارَكَ﴾ تقدس، وصيغة التفاعل للمبالغة، واليد مجاز عن القدرة التامة والاستيلاء الكامل؛ لما أن أثرها يظهر في الأغلب من اليد، يقال: فلان بيده الأمر والنهي والحل والعقد.

والمعنى: أي تقدس الذي له القدرة الغالبة والتصرف العام والحكم النافذ.

وفي «عين المعاني»: واليد صلةٌ. انتهى. والباء بمعنى اللام؛ أي: تبارك الذي له الملك.

والمذهب الأسلم الذي عليه السلف ونلقى عليه الرب: أن اليد صفة ثابتة له تعالى بلا تأويل ولا تكيف ولا تمثيل، نثبتها ونعتقدها بلا تمثيل ولا تعطيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. والملك بمعنى التصرف والسلطنة كما مر. واللام فيه للاستغراق، والمعنى: تعالى وتعاظم بالذات عن كل ما سواه ذاتاً وصفةً وفعلاً الذي بقبضة يده التصرف الكليّ في كل الأمور لا بقبضة غيره، فيأمر وينهى، ويعطي ويمنع، ويحيي

ويميت، ويعز ويذل، ويفقر ويغني، ويمرض ويشفي، ويقرب ويبعد، ويعمر ويخرب، ويفرق ويصل، ويكشف ويحجب، وإلى غير ذلك من شؤون العظمة وآثار القدرة الإلهية والسلطنة الأزلية والأبدية.

وقال بعضهم: البركة: كثرة الخير ودوامه؛ فنسبتها إلى الله تعالى باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته من فنون الخيرات، والمعنى أي: تكاثر خير الذي بيده الملك، وتزايد إنعامه وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

قال الراغب: البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمبارك: ما فيه ذلك الخير. ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر.. قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مبارك، وفيه بركة، وإلى هذه الزيادة أشير بما روي: «لا ينقص مال من صدقة».

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى وحده ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء، وعلى كل مقدور من الإنعام والانتقام وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: مبالغ في القدرة عليه، ومنته إلى أقصاها، يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة. والجملة معطوفة على الصلة، مقررة لمضمونها، مفيدة لجريان أحكام ملكه تعالى في جلائل الأمور ودقائقها.

قال بعضهم: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ما يمكن أن تتعلق به المشيئة من المعدومات الممكنة؛ لأن الموجود الواجب لا يحتاج في وجوده إلى شيء ويمتنع زواله أزلاً وأبداً، والموجود الممكن لا يراد وجوده؛ إذ هو تحصيل الحاصل، والمعدوم الممتنع لا يمكن وجوده فلا تتعلق به المشيئة. فتعلق القدرة بالمعدوم بالإيجاد، وبالموجود بالإبقاء. والتحويل من حال إلى حال.

ومعنى الآية[1]: تعالى ربنا الذي بيده ملك الدنيا والآخرة، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويرفع أقواماً ويخفض آخرين وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة، لا يمنعه مانع ولا يحول بينه وبين ما يريد عجز، فله التصرف التام في الموجودات

---

(١) المراغي.

على مقتضى إرادته ومشيئته بلا منازع ولا مدافع.

والخلاصة: تعاظم عن صفات المخلوقين من بيده الملك والتصرف في كل شيء، وهو قدير يتصرف في ملكه كيف يريد؛ مِن انتقامٍ ورفعٍ ووضعٍ وإعطاءٍ ومنعٍ.

ثم شرع يفصل بعض أحكام الملك وآثار القدرة، ويبين ابتناءهما على الحكم والمصالح، وأنهما يستتبعان غايات جليلة، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ وقدم الموت على الحياة، لأنّه[1] هو المخلوق أوّلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأن الموت في عالم الملك ذاتي، والحياة عرضية؛ يعني: أن الموت أسبق؛ لأن الأشياء كانت أمواتاً ثم عرضت لها الحياة، كالنطفة على ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ إلخ؛ ولأنه أدعى إلى إحسان العمل، وأقرب إلى قهر النفوس؛ فمن جعله نصب عينيه أفلح، وفي الحديث: «لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه: الفقر والمرض والموت».

قيل[2]: الموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته له. والحياة: تعلق الروح بالبدن واتصاله به، وقيل: هي ما يصح بوجوده الإحساس، وقيل: ما يوجب كون الشيء حيّاً. وقيل: المراد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة. وقال مقاتل: خلق الموت يعني: النطفة والمضغة والعلقة، والحياة يعني: خلقه إنساناً، وخلق الروح فيه. وقيل: خلق الموت على صورة كبش لا يمر على شيء إلا مات، وخلق الحياة عل صورة فرس لا تمر بشيء إلا حيي، قاله مقاتل والكلبي. وقد ورد في التنزيل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، وغير ذلك من الآيات. وفي «الإرشاد»: (الأقرب أنَّ المراد بالموت: الطارىء، وبالحياة: ما قبله وما بعده لظهور مداريتهما كما ينطق به ما بعد الآية ﴿لِيَبْلُوَكُمْ...﴾ إلخ؛ فإن استدعاء ملاحظتها لإحسان العمل مما لا ريب فيه، مع أن نفس العمل لا يتحقق بدون الحياة الدنيوية) انتهى.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

ثم إن الألف واللام في ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ عِوَضٌ عن المضاف إليه، أي: موتكم وحياتكم أيها المكلفون؛ لأن خلق موت غير المكلفين وحياتهم لابتلاء المكلفين لا معنى له.

واللام في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: خلق الموت والحياة ليعاملكم معاملة من يختبركم ليعلم أيكم أحسن عملاً، فيجازيكم على ذلك.

وظاهر هذه اللام يدل على أنّ أفعال الله معللة بمصالح العباد، وأنه تعالى يفعل الفعل لغرض كما ذهب إليه المعتزلة، وعند أهل السُّنَّة ليس هي على ظاهرها، بل معناها: أن الله تعالى فعل فعلاً لو كان يفعله من يراعي المصالح.. لم يفعله إلا لتلك المصلحة والغرض فمثل هذه اللام لام العلة عقلاً، ولام الحكمة والمصلحة شرعاً. و﴿أَيُّكُمْ﴾ مبتدأ، و﴿أَحْسَنُ﴾ خبره. و﴿عَمَلًا﴾ تمييز، والجملة الاسمية سادة مسد المفعول الثاني لفعل البلوى، عدي إليه بلا واسطة؛ لتضمنه معنى العلم باعتبار عاقبته، وإلا فهو لا يتعدى بلا واسطة إلا إلى مفعول واحد، فليس هو من قبيل التعليق المشهور الذي يقتضي عدم إيراد المفعول أصلاً ـ وقد ذكر المفعول الأول هنا وهو (كُمْ) مع اختصاصه بأفعال القلوب، ولا من التضمين المصطلح عليه بل هو مستعار لمعنى العلم، والبلوى: الاختبار، وليس هنا على حقيقته؛ لأنّه إنّما يتصور ممن تخفى عليه عواقب الأمور، فالابتلاء من الله أن يظهر من العبد ما كان يعلم منه في الغيب.

والمعنى كما مر: الذي قدر الموت وقدر الحياة، وجعل لكل منهما مواقيت لا يعلمها إلا هو؛ يعاملكم معاملة من يختبر حاله، وينظر أيكم أخلص في عمله، فيجازيكم بذلك بحسب تفاوت مراتبكم وأعمالكم، سواء أكانت أعمال القلب أم كانت أعمال الجوارح.

وقد ورد في تفسير الآية عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعته عزّ وجلّ»؛ يعني: أيكم أتم فهماً لما يصدر من حضرة القدس وأكمل ضبطاً لما يؤخذ من خطابه، وأيكم أبعد عن ملابسة الكبائر، وأسرع في إجابة داعي الله. وفيه ترغيب في الطاعات، وزجر عن المعاصي

كما لا يخفى على ذوي الألباب.

ثم إن المراد أيكم عمله أحسن من عمل غيره، وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح، لا إلى الحسن والأحسن فقط، للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصليَّ من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقق أصل الإيمان والطاعة في الباقين أيضاً.

وقال بعضهم: أحسن الأعمال ما كان أخلص بأن يكون لوجه الله خالصاً، وأصوب بأن يكون موافقاً للسنة؛ أي: وارداً للنهج الذي ورد عن الشارع، فالعمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً لم يقبل؛ ولذا قال ﷺ للأعرابيّ: «قُمْ صَلِّ فإنّك لم تُصلِّ»، وكذا إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل أيضاً؛ ولذا جعل الله أعمال أهل الرياء والنفاق هباء منثوراً. وقول بعضهم: «حُسْنُ العمل: نسيان العمل ورؤية الفضل»: هو من مراتب الإخلاص، فإن الإخلاص سر عظيم من أسرار الله تعالى لا يناله إلا الخواص.

ولم يقل: أيكم[1] أكثر عملاً؛ لأنّه لا عبرة بالكثرة مع القبح، قالوا: والحسن إنما يدرك بالشرع؛ فما حسنه الشرع فهو حسن، وما قبحه فهو قبيح. وقال بعضهم: ليبلوكم أيكم أحسن أخذاً من حياته لموته، وأحسن أهبة في دنياه لآخرته.

﴿وَهُوَ﴾ أي: والحال أنه وحده ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يغالب، ولا يفوته من أساء العمل ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب وأناب ممن شاء منهم بالتوبة، وكذا بالفضل.

قال بعضهم: ولما كان العزيز منا يهلك كل من خالفه إذا علم بمخالفته... قال ـ مرغباً للمسيء في التوبة حتى لا يقول: «مثلي لا يصلح للخدمة لمالي من القاطعة» قال: «هو الغفور الذي يستر ذنوب المسيء، ويتلقى من أقبل إليه أحسن تلقٍّ»، كما قال في الحديث القدسي: «ومَنْ أتاني يَمْشِي أتَيتُه هَرْولةً».

والمعنى[2]: وهو القوي الشديد الانتقام ممن عصاه وخالف أمره، الغفور لذنوب من أناب إليه وأقلع عنها. وقد قرن سبحانه الترهيب بالترغيب في مواضع

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

كثيرة من كتابه كقوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾. وإثبات العزة والغفران له يتضمن كونه قادراً على كل المقدورات، عالماً بكل المعلومات؛ ليجازي المحسن والمسيء بالثواب والعقاب؛ ويعلم المطيع من العاصي؛ فلا يقع خطأ في إيصال الحق إلى من يستحقه، ثواباً كان أو عقاباً.

ثم ذكر دلائل قدرته، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ الموصول[1] يجوز أن يكون تابعا للعزيز الغفور، نعتاً أو بياناً أو بدلاً، وأنْ يكون منقطعاً عنه على أنّه خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح؛ أي: هو سبحانه وتعالى الإله الذي خلق وأوجد وأبدع السموات السبع على غير مثال سبق حالة كونهن ﴿طِبَاقًا﴾؛ أي: بعضها فوق بعض في جو الهواء، بلا عماد ولا علاق ولا رابط يربط بعضها ببعض، مع اختصاص كل منها بحيز معين ونظم ثابتة لا تتغير بل بنظام الجاذبية البديع بين أجرام الأرضين والسموات كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾.

وقوله: ﴿طِبَاقًا﴾ يجوز[2] أن يكون صفة لسبع سموات، وقولهم: الصفة في الأعداد تكون للمضاف إليه كما في قوله سبحانه: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ لا يطرد، ويجوز جعله حالاً؛ لأنّ ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ معرفة لشمولها الكل، وهو مصدر بمعنى الفاعل، يقال: طابقه مطابقة، وطباق الشيء مثل كتاب مطابقة بكسر الباء، وطابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو واحد وألزقتهما، والباب يدل على وضع شيء مبسوط على مثله حتى يغطيه؛ والمعنى: مطابقة بعضها فوق بعض، وسماء فوق سماء، غلظ كل سماء خمس مئة عام، وكذا جوها بلا علاقة ولا عماد ولا مماسة؛ السماء الدنيا موج مكفوف؛ أي: ممنوع من السيلان، والثانية من درة بيضاء، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس أو صُفْر، والخامسة من فضة، والسادسة من ذهب، والسابعة من ياقوتة حمراء، وبين السابعة وما فوقها من الكرسي، والعرش بحار من نور، ولكن ما ورد فيه نقل.

قال الجمهور: إنّ الأرض مستديرة كالكرة، وإن السماء الدنيا محيطة بها من

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

كل جانب إحاطة البيضة بالمح، فالصفرة بمنزلة الأرض، وبياضها بمنزلة الماء، وقشرها بمنزلة السماء، غير أن خلقها ليس فيه استطالة كاستطالة البيضة، بل هي مستديرة كاستدارة الكرة المستديرة الخرط حتى قال مهندسوهم: لو حفر في الوهم وجه الأرض.. لأدى إلى الوجه الآخر، ولو ثقب مثلاً بأرض الأندلس.. لنفذ الثقب بأرض الصين، وأنَّ السماء الثانية محيطة بالدنيا، وهكذا إلى أن يكون العرش محيطاً بالكل، والكرسي الذي هو أقربها إليه بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة، فما ظنك بما تحته وكل سماء في التي فوقها بهذه النسبة، والله أعلم.

وجملة قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ صفة ثانية لسبع سموات أو مستأنفة لتقرير ما قبلها، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب. ووضع ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ موضع الضمير؛ إذ المقام مقام أن يقال: (في خلقه) وهي السموات على أن يكون بمعنى المخلوق، والإضافة بمعنى اللام للإشعار بأنه تعالى خلقها بقدرته القاهرة رحمةً وتفضّلاً. و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي؛ أي: ما ترى فيه شيئاً من اختلاف واضطراب في الخلقة وعدم تناسب بل هو مستوٍ مستقيم.

قال الفاشاني: سلب التفاوت عنها بساطتها واستدارتها ومطابقة بعضها بعضاً وحسن انتظامها وتناسبها، وهو من الفوت؛ فإن كلًّا من المتفاوتين يفوت منه بعض ما في الآخر، فلا يناسبه ولا يلائمه. انتهى. وقيل: معنى ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي: من خلل وعيب، وإلا فالتفاوت بين المخلوقات بالصغر والكبر وغيرهما كثير. وجعل بعض العلماء ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عامّاً، فسئل بأن المخلوقات بأسرها على غاية التفاوت؛ لأنَّ الليل غير النهار إلى غير ذلك من الأضداد. ثم أجاب بأن ليس فيها تناقص أو زيادة غير محتاج إليها أو نقصان محتاجٌ إليه، بل لكل مستقيمة مستوية دالة على أن خالقها عالم انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ بألف مصدر تفاوَتَ من باب تفاعل. وقرأ عبد الله، وعلقمة، والأسود، وابن جبير، وطلحة، والأعمش، وحمزة، والكسائي بشد الواو تفوُّت مصدر تفوَّت من باب تفعل، وهما لغتان كالتعاهد والتّعهد

---

(١) البحر المحيط.

والتحامل والتجمّل. وحكى أبو زيد عن العربي ﴿تفاوُتاً﴾ بضمّ الواو وفتحها وكسرها، والفتح والكسر شاذّان.

والمعنى على كلا القراءتين[1]: ما ترى في خلق الرحمن من تناقض ولا تباين ولا تخالف ولا اعوجاج ولا تناقص، بل هي مستقيمة دالة على خالقها، وإن اختلفت صورها وصفاتها.. فقد اتفقت من هذه الحيثية.

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾؛ أي: رد بصرك أيها الرائي إلى رؤية السماء ونظرها حتى يتضح ذلك بالمعاينة، ولا يبقى عندك شبهة ما. و(رجع) يجيء[2] لازماً ومتعدّياً كما هنا، يقال: رجع بنفسه رجوعاً، وهو العود إلى ما منه البدء، مكاناً كان أو فعلاً أو قولاً، بذاته كان رجوعه أو بجزءٍ من أجزائه أو بفعل من أفعاله ورجعه غيره رجعاً أي: رده وأعاده.

﴿هَلْ تَرَىٰ﴾ فيها ﴿مِن فُطُورٍ﴾؛ أي: من شقوق وصدوع وخروق لامتناع خرقها والتئامها، قاله الفاشاني. ولو كان لها فروج.. لفاتت المنافع التي رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها، أو كمالها كما في المناسبات. فإذا لم ير في السماء فطور وهي مخلوقة؛ فالخالق أشد امتناعاً من خواص الجسمانيات.

والمعنى[3]: اردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة، أخبر أوّلاً بأنه لا تفاوت في خلقه، ثم أمر ثانياً بترديد البصر في ذلك لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة. قال مجاهد والضحاك: الفطور: الشقوق، جمع فطر؛ وهو الشق. وقال قتادة: هل ترى من خلل. وقال السدي: هل ترى من خروق، وأصله: من التفطر والانفطار، وهو التشقق والانشقاق، ومنه قول الشاعر:

بَنَى لَكُمُ بِلاَ عَمَدٍ سَمَاءً ... وزيَّنَهَا فما فِيهَا فُطُورُ

وقول الآخر:

شَقَقْتُ القَلْبَ ثُم ذَرَرْتُ فِيهِ ... هَوَاكَ فَلِيْطَ فَالْتَأمَ الفُطُورُ

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

وحاصل معنى الآية[1]: لا ترى أيها الرائي تفاوتاً وعدم تناسب؛ فلا يتجاوز شيء منه الحد الذي يجب له زيادة أو نقصاً على نحو ما قيل:

تَنَاسَبَتِ ٱلأَعْضَاءُ فِيهِ فَلاَ تَرَى ... بِهِنَّ ٱخْتِلافاً بَلْ أَتَيْنَ عَلى قَدْرِ

فإن كنت في ريب من هذا فارجع البصر والنظر حتى تتضح لك الحال، ولا يبقى لك شبهة في تحقق ذلك التناسب والسلامة من الاختلاف والشقوق بينها، وإنّما قال: ﴿فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ دون أن يقول: (ما ترى فيها) تعظيماً لخلقهن وتنبيهاً إلى سبب سلامتهن من التفاوت بأنهن من خلق الرحمن، وأنه خلقهن بباهر قدرته وواسع رحمته تفضّلاً منه وإحساناً، وأنَّ هذه الرحمة عامة في هذه العوالم جميعاً كما مرَّ آنفاً.

ثم أمره بتكرير البصر في خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع هل يجد فيه عيباً وخللاً؟ فقال: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ والنظر إلى السماء ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ أي: رجعتين أخريين وأعد النظر مرة بعد مرة في طلب الخلل والعيب فيها.

والمراد بالتثنية[2]: التكرير والتكثير كما في (لبّيك وسعديك) يعني: إجابات كثيرة وإعانات وفيرة بعضها في إثر بعض؛ وذلك لأنَّ الكلال الآتي لا يقع بالمرّتين، أي: رجعةً بعد رجعةٍ وإن كثرت، وانتصاب ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ على المصدر، قال الحسن: لو كررته مرة بعد مرة إلى يوم القيامة لم تر فيه فطوراً، وقال الواسطي: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: قلباً وبصراً؛ لأنَّ الأول كان بالعين خاصة. ووجه[3] الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى، ولا في الثانية، ولهذا قال أوّلاً؛ ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ ثمّ قال ثانياً: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ ثم قال ثالثاً: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾؛ فيكون ذلك أبلغ في إفادة الحجة وأقطع للمعذرة.

﴿يَنقَلِبْ﴾ وينصرف ويرجع ﴿إِلَيْكَ﴾ أيها الرائي ﴿ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: ذليلاً صاغراً بعيداً محروماً من إصابة شيء مما التمسه من العيب والخلل؛ كأنه يطرد عن

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

ذلك طرداً بالصغار والذلة، يقال: خسأت الكلب أي: أبعدته وطردته.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَنقَلِبْ﴾ جزماً على أنه جواب الأمر، وقرأ الخوارزمي عن الكسائي برفع الباء على الاستئناف؛ أي: فهو ينقلب، على حذف الفاء، أو على أنّه في موضع حال مقدرة. و﴿خَاسِئًا﴾ حال من ﴿ٱلْبَصَرَ﴾. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل وبالغ غاية الإعياء؛ لطول المعاودة وكثرة المراجعة، وهو فعيل بمعنى الفاعل، من الحسور الذي هو الإعياء. والجملة حال من البصر، أو من الضمير المستتر في ﴿خَاسِئًا﴾ فيكون من قبيل الأحوال المتداخلة.

والمعنى[2]: أنَّك إذا كررت النظر.. لم يرجع إليك البصر بما طلبته من وجود الخلل والعيب، بل يرجع إليك صاغراً ذليلاً لم ير ما يهوى منهما حتى كأنّه طرد، وهو كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة.

وبعد أن بين خلو السماوات من العيب، ذكر أنها الغاية في الحسن والبهاء؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: وعزّتي وجلالي.. لقد زيّنّا أقرب السموات إلى الأرض وإلى الناس، وجملناها ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي[3]: بكواكب مضيئة بالليل إضاءة السّراج، من السيّارات والثوابت، تتراءى كلّها مركوزة في السماء الدنيا، مع أنّ بعضها في سائر السموات، لأنَّ السموات إذا كانت شفّافةً وأجراماً صافية.. فالكواكب ـ سواء كانت في السماء الدنيا أو في سموات أخرى ـ لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا وتلوح منها؛ فعلى التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح، ودخل في المصابيح القمر؛ لأنّه أعظم نيّر يضيء بالليل. وسمّيت الكواكب مصابيح؛ لأنّها تضيء كإضاءةِ السراج. وصدر[4] الجملة بالقسم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها. والمصابيح: جمع مصباح، وهو السراج، وتنكيره للتعظيم والمدح.

فائدة: وإذا جعل الله سبحانه الكواكب زينة السماء التي هي سقف الدنيا فليجعل العباد المصابيح والقناديل زينة سقوف المساجد والجوامع ولا سرف وفي الخير، وذكر أن مسجد الرسول ﷺ كان إذا جاء العشاء يوقد فيه بسعف النخل، فلما قدم تميم الداري رضي الله عنه المدينة صحب معه قناديل وحبالاً وزيتاً، وعلق

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

تلك القناديل بسواري المسجد وأوقدت، فقال عليه السلام: نورت مسجدنا نور الله عليك، أما والله لو كان لي ابنة.. لأنكحتكها، وسمّاه سراجاً، وكان اسمه الأول فتحاً، ثم أكثرها عمر رضي الله عنه حين جمع الناس على أبي بن كعب رضي الله عنه في صلاة التراويح، فلمّا رآها عليٌّ رضي الله عنه تزهر قال: نورت مسجدنا نور الله قبرك يا بن الخطاب.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾؛ أي: المصابيح المعبر بها عن النجوم؛ أي: بعضها كما في تفسير أبي الليث. ﴿رُجُومًا﴾ يرجم بها الشياطين. جمع رجم بالفتح، وهو ما يرجم به ويرمى للطرد والزجر، أو جمع راجم كـ (سجودٍ) جمع ساجدٍ. ﴿لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ هم كفار الجن يخرجون الإنس من النور إلى الظلمات. وجمع الشياطين على صيغة التكثير لكثرتهم في الواقع.

والمعنى[1]: وجعلنا لها فائدة أخرى هي رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المقتبسة من الكواكب عند استراق السمع، لا بالكوكب نفسها؛ فإنّها قارّة في الفلك على حالها؛ منهم من يقتله الشهاب، ومنهم من يفسد عضواً من أعضائه أو عقله. والشهاب: شعلة ساطعة من نار، وهو ههنا شعلة نارٍ تفصل من النجم، فأطلق عليها النجم ولفظ المصباح ولفظ الكوكب. ويكون معنى ﴿جعلناها رجوماً﴾ جعلنا منها رجوماً؛ وهي تلك الشهب، ومما يؤيد أنّ الشعلة منفصلة من النجوم، ما جاء عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: أن النجوم كلها كالقناديل معلقة في السماء الدنيا كتعليق القناديل في المساجد، مخلوقة من نار. وقالت الفلاسفة: إنّ الشهب إنما هي أجزاء نارية تحصل في الجوّ عند ارتفاع الأبخرة المتصاعدة واتصالها بالنار التي دون الفلك، وقد سبق بيان هذا المقام مفصّلاً في أوائل الصافّات والحجر، فلا عود ولا إعادة. والذي يلوح أن مذهب الفلاسفة قريب في هذه المادّة من مذهب أهل الحقائق، وقد مرّ بيان مذهبهم في الصافات، والله أعلم بالخفيات.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾؛ أي: هيّأنا لهؤلاء الشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: عذاب جهنم الموقدة المشعّلة؛ فالسعير بمعنى مفعول كما سيأتي.

---

(١) روح البيان.

وحاصل معنى الآيات: ولقد زيّنا السماء القربى من الأرض؛ وهي التي يراها الناس بكواكب مضيئة بالليل كما يزين الناس منازلهم ومساجدهم بالسرج، ولكن أنى لسرج الدنيا أن تكون كسرج الله تعالى.

والخلاصة: أن نظام السموات لا خلل فيه، بل هو أعظم من ذلك؛ فقد زينت سماؤه القريبة منا بمصابيح هي بهجة للناظرين وعبرة للمعتبرين. ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾؛ أي: وهذه الكواكب لا تقف عند حدّ الزينة بل بضوئها يكون ما في الأرض من رزق وحياة وموت بحسب الناموس الذي سنناه والقدر الذي أمضيناه، ويكون في العالم الإنساني، وعالم الجن نفوس تتقاذفها الأهواء، وتتجاذبها اللذات والشهوات التي تتنجم من العناصر المتفاعلة بسبب الأضواء المشعلة النازلة من عالم الكواكب المشرقة في السماء.

وقصارى القول: أنّ هذه الكواكب كما هي زينة الدنيا، وأسبابٌ لرزقِ ذوي الصلاح من الأنبياء والعلماء والحكماء، هي أيضاً سبب لتكون الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس والجنّ؛ فهذا العالم قد اختلط فيه الضر بالنفع، وأعطي لكلّ ما استعد له، فالنفوس الفاضلة والنفوس الشريرة استمدت من هذه المادة المسخرة المقهورة؛ فصارت سبباً لثواب النفوس الطيّبة وعذاب النفوس الخبيثة من مظاهر الطبيعة الناشئة من الحرارة والضوء.

ويرى بعض المفسرين: أن المراد أن المصابيح التي زيَّن الله بها السماء الدنيا لا تزول عن مكانها ولا يرجم بها؛ بل ينفصل من الكواكب شهاب يقتل الجنّي أو يخبله؛ فالشهاب كقبس يؤخذ من النار والنار باقية لا تنقص.

والظاهر: أن الشياطين هم مسترقوا السمع وأن الرجم حقيقة - يرمون بالشهب - قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوم للشيطاين، وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم وتعدّى وظلم. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: وهيأنا لهؤلاء الشياطين في الآخرة عذاب النار الموقدة كفاء ما اكتسبوا من اللذات، وانجذبوا من الشهوات، وغفلوا عن جمال هذه العوالم التي لم يعرفوا منها إلاّ شهواتهم، أمّا عقولهم فقد احتجبت عنها.

والخلاصة[1]: أنّ السماء قد أضاءت على البر والفاجر؛ فالفجّار حصروا أنفسهم في شهواتهم؛ فلم ينظروا إليها نظر فكرٍ وعقلٍ، بل نظروا إليها باعتبار أن بها تقوم حياتهم، وهؤلاء أعتدنا لهم عذاب السعير في الآخرة؛ لأنَّ هذا يشاكل حالهم في الدنيا؛ إذ هم فيها قد حبسوا أنفسهم في نيران البخل والحقد والطمع؛ فتحولت إلى نار مبصرة يرون عذابها في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ والسعير: اسم للدركة الرابعة من دركات النار السبع؛ وهي جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، ولكن كلاً من هذه الأسماء يطلق على الآخر؛ فيعبّر عن النار تارةً بالسَّعير، وتارةً بجهنم وأخرى بآخر.

واعلم[2]: أنَّ في كل دركة منها فرقة من فرق العصاة، كعصاة أهل التوحيد والنصارى واليهود والصابئة والمجوس والمشركين والمنافقين، ولم يذكروا الشياطين في واحدة من الدركات السبع، ولعلهم يقسمون على مراتب إضلالهم؛ فيدخل كل قسم منهم مع قسم تبعهُ في إضلاله، فكان سبباً لدخوله في دركة من الدركات الست التحتانية جزاء لضلاله وإضلاله وأذيّةٍ لمن تبعه فيما دعا إليه بمصاحبته ومقارنته، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: مع شياطينهم.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ من كفّار بني آدم، أو من كفّار الإنس والجنِّ والشياطين، وقال سعدي المفتي: الأظهر حمله على الكفرة غير الشياطين، كما يشعر به ما بعده، ولئلا يلزم شبه التكرار. ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي: الدركة النارية التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة، يقال: رجل جهم الوجه: كالح منقبض، وفيه إشارة إلى أنّ عذابه تعالى وانتقامه خارج عن العادة لكونه ليس بسيف ولا سوط ولا عصا ولا نحوها، بل بالنار الخارجة عن الانطفاء، وليس للكافر المعذّب من الخلاص رجاء. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع لهم. والمخصوص بالذم جهنم. وقال بعضهم: جهنم من الجهنام، وهي بئر بعيدة القعر.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾ بالرفع، والوقف على ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ تامٌّ. وقرأ الضحاك، والأعرج، وأُسيد بن أسيد المزني، والحسن في رواية هارون عنه بالنصب عطفاً على ﴿عذاب السعير﴾ كما أنّ ﴿للذين﴾ عطف على ﴿لهم﴾؛ أي: وأعتدنا للذين كفروا عذاب جهنم، والكلام حينئذٍ من عطف المفرد على المفرد، وعلى هذا فالوقف على ﴿السعير﴾ جائز.

قال في «فتح الرحمن»: تضمّنت هذه الآية أنَّ عذاب جهنم للكافرين المخلدين، وقد جاء في الأثر: أنه يمر على جهنم زمن تخفق أبوابها قد أخلتها الشفاعة؛ فالذي في هذه الآية يحمل على جهنم بأسرها؛ أي: جميع الطبقات، والتي في الأثر هي الطبقة العليا؛ لأنها مقر العصاة. انتهى. وهو مراد من قال من الكبار: يأتي زمان تبقى جهنم خالية من أهلها، وهم عصاة الموحدين، ويأتي على جهنم زمان ينبت في قعرها الجرجير، وهي بقلة معروفة.

ومعنى الآية: قد سبق قضاؤنا وجرت سنتنا أن من أشرك بنا، وكذب رسلنا؛ فقد استحق عذاب جهم وبئس المآل والمنقلب.

ثم ذكر فظائع أحوال هذه النار، فقال: ﴿إِذَآ أُلۡقُوا۟ فِيهَا﴾ أي: إذا ألقي الذين كفروا في جهنم، وطرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة. وفي[2] إيراد الإلقاء دون الإدخال إشعار بتحقيرهم وكون جهنم سفلية. ﴿سَمِعُوا۟﴾؛ أي: سمع الكفّار ﴿لَهَا﴾؛ أي: لجهنم نفسها، وهو متعلق بمحذوف وقع حالاً مِنْ قوله سبحانه: ﴿شَهِيقًا﴾؛ لأنَّه في الأصل صفة، فلما قدمت صارت حالاً؛ أي سمعوها كائنا لها شهيقاً. أي: صوتاً كصوت الحمير الذي هو أنكر الأصوات وأفظعها غضباً عليهم، وهو حسيسها المنكر الفظيع كما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾.

قالوا: الشهيق في الصدر، والزفير في الحلق، أو شهيق الحمار آخر صوته، والزفير أوّله، والشهيق: رد النفس، والزفير إخراجه. ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي: والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل بما فيها من شدة التّلهب والتسعر؛ فهم لا يزالون صاعدين

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

هابطين كالحبّ إذا كان الماء يغلي به لا قرار لهم أصلاً، والفور: شدّة الغليان كما سيأتي، ويقال ذلك في النار وفي القدر، ومنه: قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

تَرَكْتُمْ قِدْرَكُمْ لاَ شَيءَ فِيْهِ وَقِدْرُ ٱلْقَوْمِ حَامِيَةٌ تَفُوْرُ

قال بعضهم: نطقتِ الآيةُ بأنَّ سماعهم يكون وقتَ الإلقاء؛ على ما هو المفهوم من ﴿إذا﴾، وعلى المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أن يكون بعده اللهم إلا أن تغلي بما فيها كائناً ما كان، ويؤول ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟﴾ بـ إذا أريد الإلقاء أو إذا قربوا من الإلقاء بناءً على أنّ صوت الشهيق يقتضي أن يسمع قبل الإلقاء انتهى.

وجملة قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ خبرٌ آخر لـ (هي). ﴿تَمَيَّزُ﴾ أصله: تتميز: بتاءَين. والتميز: الانقطاع والانفصال بين المتشابهات. والغيظ: أشد الغضب.

والمعنى: تكاد جهنم تتفرّق وتنقطع من شدّة الغضب عليهم؛ أي: يقرب أن يتمزق تركيبها، وينفصل بعضها عن بعض. شبّه اشتعال النار بهم في قوة تأثيرها فيهم. وإيصال الضرر إليهم باغتياظ المغتاظ على غيره المبالغ في إيصال الضرر إليه، فاستعير اسم الغيظ لذلك الاشتعال استعارة تصريحيَّة. قال الإمام: لعل سبب هذا المجاز أنّ دم القلب يغلي عند الغضب، فيعظم مقداره، فيزداد امتلاء العروق حتى يكاد يتمزّق.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَمَيَّزُ﴾ بتاء واحدة مخففة، والأصل: تتميز بتاءين، وقرأ طلحة ﴿تتميّز﴾ بتاءين على الأصل وقرأ البزّيُّ عن ابن كثير بتشديدها، بإدغام إحدى التاءين في الأخرى، وقرأ أبو عمرو بإدغام الدال في التاء، وقرأ الضحاك ﴿تمايز﴾ على وزن تفاعل، وأصله: تتمايز بتاءين. وقرأ زيد بن عليّ، وابن أبي عبلة (تَمِيْزُ) من مازَ مِنَ الغيظِ يَمِيْزُ من باب باعَ جعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم، ومثل هذا في التجوز قول الشاعر:

فِي كَلْبٍ يَشْتَدُّ فِي جَرْيِهِ يَكَادُ أنْ يَخْرُجَ مِنْ إِهَابِهِ

---

(١) البحر المحيط.

وجملة قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٌ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال أهلها بعد بيان حال نفسها، أو في محل نصب على الحال من فاعل ﴿تميز﴾. والفوج: الجماعة الكثيرة من الناس؛ أي: كلّما ألقي وطرح فيها؛ أي: في جهنم فوج؛ أي: جماعة من الكفرة بدفع الزبانية لهم؛ الذين هم أغيظ عليهم من النار. ﴿سَأَلَهُمۡ﴾؛ أي: سأل الفوج سؤال توبيخ وتقريع، وضمير الجمع باعتبار المعنى. ﴿خَزَنَتُهَآ﴾؛ أي: خزنة النار؛ وهي مالك وأعوانه من الزبانية، ليزدادوا عذاباً فوق عذاب وحسرة؛ أي: ليزدادوا العذاب الروحاني على العذاب الجسمانيّ، والخزنة: جمع خازن بمعنى الحافظ والموكّل؛ أي: سألت الخزنة لهم عن سبب دخولهم النار، وقالوا لهم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ أيها الكفرة الفجرة في الدنيا ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: منذر يتلو عليكم آيات ربكم، وينذركم لقاء يومكم هذا، ويحذركم منه. والإنذار: الإبلاغ، ولا يكون إلا في التخويف.

وجملة قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ اعترافاً بأنّه تعالى قد أزاح عللهم بالكلية ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه، مستأنفة[1] واقعة في جواب سؤال مقدّر كأنّه قيل: فماذا قالوا بعد هذا السؤال؟ فقال: قالوا: بلى قد جاءنا نذير فأنذرنا وخوّفنا وأخبرنا بهذا اليوم، فكذّبنا النذير. ﴿بَلَىٰ﴾ لإيجاب نفي إتيان النذير. ﴿قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ جمعوا بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغةً في الاعتراف، وتحسّراً على فوت سعادة التصديق، وتمهيداً لبيان التفريط الواقع منهم؛ أي: قال كلُّ فوج من تلك الأفواج: قد جاءنا نذير؛ أي: واحدٌ حقيقةً أو حكماً كأنبياء بني إسرائيل؛ فإنهم في حكم نذير واحد، فأنذرنا وتلا علينا ما نزل الله عليه من آياته. روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد». ﴿فَكَذَّبۡنَا﴾ ذلك النذير في كونه نذيراً من جهته تعالى. فإن قلت[2]: هذا يقتضي أن لا يدخلها الفاسق المصر؛ لأنّه لم يكذب النذير.

قلت: قد دلّت الأدلة السمعية على تعذيب العصاة مطلقاً، والمراد بالفوج هنا بعض من ألقي فيها، وهم الكفرة كما سبق. ﴿وَقُلۡنَا﴾ في حق ما تلاه علينا من الآيات إفراطاً في التكذيب وتمادياً في الكبر بسبب الاشتغال في الأمور الدنيوية

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

والأحكام الرسومية الخلقية: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ على أحد ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء فضلاً عن تنزيل الآيات عليكم. وقال بعضهم: ما نزل الله من كتاب ولا رسول. ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؛ أي: ما أنتم يا معشر الرسل في ادّعاء أن الله تعالى نزل عليكم آيات تنذروننا بما فيها ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾؛ أي: بعيد عن الحق والصواب، وجمع ضمير الخطاب مع أن مخاطب كل فوج نذيره لتغليبه على أمثاله، مبالغة في التكذيب وتمادياً في التضليل، كما ينبىء عنه تعميم المنزل مع ترك ذكر المنزل عليه؛ فإنه ملوح بعمومه حتماً.

والمعنى[1]: أنه قال كل فوج من تلك الأفواج حاكياً لخزنة جهنم ما قاله لمن أرسل إليه: ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنتم أيها الرسل فيما تدعون أنَّ الله نزل عليكم آيات تنذروننا بها إلا في ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب كبير لا يقادر قدره.

ثم حكى عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة؛ فقال: ﴿وَقَالُواْ﴾ أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل: ﴿لَوْ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَسْمَعُ﴾ كلاماً ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ شيئاً، وفيه دليل على أنّ العقل حجة التوحيد كالسمع، وقدم السمع لأنه لا بد أولاً من سماع ثم تعقل المسموع. ؛ أي: لو كنا نسمع ما خاطبنا به الرسل أو نعقل شيئاً من ذلك ﴿مَا كُنَّا﴾ اليوم ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: في عداد أهل النار الموقدة وأتباعهم، ومن جملة من يعذب بالسعير، وهم الشياطين لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾. وكأن الخزنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ ألم تسمعوا آيات ربكم من ألسنة الرسل، ولم تعقلوا معانيها حتى لا تكذّبوا بها فأجابوا بذلك. وفي «التأويلات النجمية»: لو كنا نسمع بأسماع قلوبنا أو نعقل بعقول أرواحنا.. ما كنّا اليوم في أصحاب السعير، ولكنّا سمعنا بأسماع مختومة وعقول معلولة مقفولة.

والمعنى[2]: وقالوا: لو كانت لنا عقول ننتفع بها، أو آذان تسمع ما أنزل الله من الحقّ.. ما كنّا على ما نحن عليه من الكفر بالله والاغترار باللذات التي كنا منهمكين بها في دنيانا؛ فبُؤنا بسخط ربنا وغضبه، وحل بنا عقابه الأليم، وقد نفوا عن أنفسهم السماع والعقل تنزيلاً لما عندهم منهما منزلة العدم حين لم ينتفعوا بهما.

---

(١) الشوكاني.   (٢) المراغي.

وقصارى ما سلف: أنهم قالوا لو كنّا سمعنا كلام النذير، وقبلناه اعتماداً على ما لاح من صدقه، وفكّرنا فيه تفكير المستبصر، وعملنا به.. ما كنّا في زمرة المعذّبين، ولكن هيهات هيهات؛ فلا يجدي الاعتراف بالذنب، ولا يفيد الندم، فقد فات أوانه وسبق ما حُمَّ به القضاء.

صَاحِ هَلْ رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعٍ رَدَّ فِي الضَّرْعِ ما قَرَى فِي الحِلَابِ

ومن ثم أحل بهم سبحانه نقمته؛ فقال: ﴿فَاعْتَرَفُوا﴾؛ أي: أقروا اضطراراً حين لا ينفعهم الاعتراف، وهو إقرار عن معرفة. ﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ اختياراًبصرف قواهم إلى سوء الاقتراف، وهو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ورسله. وقال بعضهم[1]: أفرد الذنب؛ لأنّه يفيد فائدة الجمع، بكونه اسم جنس شامل للقليل والكثير، أو أريد به الكفر؛ وهو وإن كان على أنواع فهو ملّة واحدة في كونه نهاية الجرم واقتضاء الخلود الأبديّ في النار. ﴿فَسُحْقًا﴾ مصدرٌ مؤكدٌ، إما لفعل متعدٍّ من المزيد بحذف الزوائد؛ أي: فأسحقهم الله؛ أي: أبعدهم من رحمته سحقاً؛ أي: إسحاقاً وإبعاداً بسبب ذنبهم أو لفعل مرتّب على ذلك الفعل؛ أي: فأسحقهم الله فسحقوا؛ أي: بعدوا سحقاً؛ أي: بعداً، ويقال: سحق الشيء مثل: كرم فهو سحيق، أي: بعد فهو بعيد، قيل: هو تحقيق، وقيل: هو على الدعاء، وتعليم من الله لعباده أن يدعوا عليهم به، كما في التيسير، وقال بعضهم: هو دعاء عليهم من الله إشعاراً بأن المدعو عليهم مستحقون لهذا الدعاء، وسيقع عليهم المدعو به من البعد والهلاك، وقال سعيد بن جبير وأبو صالح: هو وادٍ في جهنم، يقال له: السحق.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فسحقا﴾ بسكون الحاء، وقرأ عليٌّ، وأبو جعفر، والكسائي بخلاف عن أبي الحارث عنه بضمها؛ وهما لغتان مثل: السحت والرعب.

واللام في قوله: ﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للبيان كما في هيت لك، والمراد بهم الشياطين والداخلون من الكفرة، وفيه إشارة إلى أنّ الله تعالى بعد أهل الحجاب من

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

جنة القرب وقربهم من جهنم البعد.

والمعنى[1]: فاعترفوا بما كان منهم من تكذيب الرسل، وأنى يفيدهم ذلك؛ فبعداً لهم من رحمتي جحدوا أو اعترفوا؛ فهو ليس بمغن عنهم شيئاً؛ فقد وقعت الواقعة وحلَّ بهم من بأسي ما ليس له من دافع. روى أحمد عن أبي البحتري الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم» وجاء في حديث آخر: «لا يدخل أحدٌ النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة».

ولما فرغ سبحانه وتعالى من ذكر أحوال أهل النار ذكر أهل الجنّة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: يخافون عذابه، وهو عذاب يوم القيامة ويوم الموت، ويوم القبر؛ خوفاً وراء عيونهم حال كون ذلك العذاب غائباً عنهم ولم يعاينوه بعد على أن ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حالٌ من المضاف المقدر أو غائبين عنه تعالى؛ أي: عن معاينة عذابه وأحكام الآخرة، أو عن أعين الناس لأنهم ليسوا كالمنافقين الذين إذا لقوا المؤمنين قالوا: ﴿ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ على أنه حال من الفاعل، وهو ضمير ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾، أو خائفين بما خفي منهم، وهو قلوبهم، فالباء للاستعانة متعلقة بـ ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾، والألف واللام اسم موصولٌ.

وعبارة الشوكاني: قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إما حال من الفاعل أو من المفعول؛ أي: غائبين عنه أو غائباً عنهم.

والمعنى: أنهم يخشون عذابهم ولم يروه فيؤمنون به خوفاً من عذابه، ويجوز أن يكون المعنى: يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس، وذلك في خلواتهم، أو المراد بالغيب كون العذاب غائباً عنهم؛ لأنهم في الدنيا، وهو إنما يكون يوم القيامة، فتكون الباء على هذا سببية. انتهى.

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة تشمل جميع ذنوبهم، ولما كان السرور إنَّما يتم بالإعطاء قال: ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾؛ أي: ثواب عظيم في الآخرة فضلاً منه تعالى، يكون لهم به

---

(١) المراغي.

من الإكرام ما ينسيهم ما قاسوه في الدنيا من شدائد الآلام، وتصغر في جنبه لذائذ الدنيا؛ وهو الجنة ونعيمها.

ومعنى الآية[1]: أنّ الذين يخافون مقام ربهم فيما بينهم وبينه إذا كانوا غائبين عن أعين الناس، فيكفون أنفسهم عن المعاصي، ويقومون بطاعته حيث لا يراهم إلا هو، مراقبين له في السر والعلن، واضعين نصب أعينهم ما جاء في الحديث الشريف «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» يكفر عنهم ما ألموا به من الذنوب والآثام، ويجزيهم جزيل الثواب، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، كفاء ما أسلفوا في الأيام الخالية، وقد ورد في الحديث: «سبعةٌ يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

ثم نبه إلى أنه مطلع على السرائر، فقال سبحانه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تساوي الإسرار والجهر بالنسبة إلى علم الله سبحانه.

والمعنى: إنْ أخفيتم كلامكم أو جهرتم به في أمر رسول الله ﷺ فكل ذلك يعلمه الله سبحانه؛ لا تخفى عليه خافية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء في شأن رسول الله ﷺ فيظهر الله رسوله عليها، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم كيلا يسمع رب محمد فيخبره بما تقولون، فقيل لهم أسروا ذلك أو اجهروا فإن الله يعلمه، وإسرار الأقوال وإعلانها مستويان عنده تعالى في تعلق علمه، والأمر للتهديد لا للتكليف، وتقديم[2] السر على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرون من أول الأمر والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط بجميع المعلومات، كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية، فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كلّ شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى، أو لأنَّ مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر؛ إذ ما

---

(١) المراغي.	(٢) روح البيان.

من شيء يجهر به إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب يتعلق به الإسرار غالباً، فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية.

وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل[1] للاستواء المذكور، وذات الصدور: هي مضمرات القلوب؛ أي: أنه تعالى مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم، بحيث لا تكاد تفارقها أصلاً، فكيف يخفى عليه ما تسرونه وتجهرون به؟ ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب التي في الصدور.

والمعنى: أنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها، ولم يقل[2]: ذوات الصدور لإرادة الجنس و(ذات) هنا تأنيث ذي بمعنى صاحب، حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه؛ أي: عليم بالمضمرات صاحبة الصدور، وهي الخواطر القائمة بالقلب من الدواعي والصوارف الموجودة فيه، وجعلت صاحبة الصدور بملازمتها لها وحلولها فيها كما يقال لِلّبن: ذو الإناء، ولولد المرأة وهو جنين: ذو بطنها.

والخلاصة[3]: أنه تعالى محيط بمضمرات النفوس وأسرارها الخفية المستكنة في الصدور، فكيف لا يعلم ما تسرون وما تجهرون به؟!.

ثم نصب الأدلة على إحاطة علمه بجميع الأشياء، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ أي: ألا يعلم السر والجهر من خلق وأوجد بحكمته جميع الأشياء التي هما من جملتها، والاستفهام فيه للإنكار والنفي لعدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر، فالموصول عبارة عن الخالق، وهو فاعل يعلم، ويجوز أن يكون عبارة عن المخلوق، وهو حينئذٍ منصوب على المفعولية ليعلم والفاعل ضمير يعودِ على الله، أي: ألا يعلم الله سبحانه المخلوق الذي هو من جملة خلقه؛ فإن الإسرار والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه.

وجملة قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ في محل النصب على الحال من فاعل

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

﴿يَعْلَمُ﴾؛ أي: والحال أنّه تعالى وحده اللطيف؛ أي: العالم بدقائق الأشياء يرى أثر النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، ﴿الْخَبِيرُ﴾ أي: العالم ببواطنها. قال الفاشاني: هو المحيط ببواطن ما خلق وظواهره، أي: هو الذي لطف علمه بما في القلوب، الخبير بما تسرّه وتضمره من الأمور، لا تخفى عليه من ذلك خافية.

والحاصل: أنّ الاستفهام للإنكار لا للنفي في قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾؛ أي: كيف لا يعلم السرّ والجهر من أوجد بحكمته وواسع علمه وعظيم قدرته جميع الأشياء، وهو النافذ علمه إلى ما ظهر منها وما بطن، وكأنّه سبحانه يقول: ألا يعلم سركم وجهركم من يعلم الدقائق والخفايا جملها وتفاصيلها؟!.

فإن قلت:[1] ذكر الخبير بعد اللطيف تكرار.

قلت: لا تكرار فيه، فإنه كما قال الغزالي رحمه الله: إنّما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دق منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح على سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطف، ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلاّ لله تعالى، والخبير هو الذي لا يعزب عنه الأخبار الباطنة، فلا يجري في الملك والملكوت شيءٌ، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن، إلا ويكون عنده خبرها، وهو بمعنى العليم، لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة يسمى خبرةً، ويسمى صاحبها خبيراً.

واعلم: أنه سبحانه وتعالى لطيف بعباده، ومن لطفه بهم أنه يوصل إليهم ما يحتاجون إليه بسهولة، فمن قوته رغيف، لو تفكر فيه يعلم كم عين سهرت فيه من أول الأمر حتى تم وصلح للأكل، من الحارث والباذر للبذر والحاصد والدائس والمذري والطاحن والعاجن والخابز، ويتشعب من ذلك الآلات التي تتوقف عليها هذه الأعمال من الأخشاب والحجارة والحديد والحبال والدّواب بحيث لا تكاد تنحصر، وهكذا كل شيء ينعم به على عبده من مطعوم ومشروب وملبوس فيه

(١) روح البيان.

مقدمات كثيرة لو احتاج العبد إلى مباشرتها بنفسه لعجز عن ذلك.

ومن سنة الله سبحانه حفظ كل لطيفة في طي كل كثيفةٍ، كصيانة الودائع في المواضع المجهولة؛ ألا ترى أنه جعل التراب الكثيف معدن الذهب والفضة وغيرهما من الجواهر، والصدف معدن الدر، والنحل معدن الشهد، والدود معدن الحرير، وكذا جعل قلب العبد محلاً ومعدناً لمعرفته ومحبته، وهو مضغة لحم؛ فالقلب خلق لهذا لا لغيره؛ فعلى العبد أن يطهره من لوث التعلق بما سوى الله تعالى، فإنّ الله تعالى لطف به بإيجاده ذلك القلب في جوفه، ووصف نفسه بأنّه لطيف خبير مطلع على ما في الباطن، فإذا كان هو المنظر الإلهي وجب تخليته عن الأفكار والأغيار، وتحليته بأنواع المعارف والعلوم والأسرار، نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينيلنا نواله ويرينا جماله.

ثم نبه إلى نعمه على عباده، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وحده الإله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ أي: لمنافعكم ﴿ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: ليّنةً منقادة غاية الانقياد لما تفهمه صيغة المبالغة، يسهل عليكم السلوك فيها لتصلوا إلى ما ينفعكم، ولو جعلها صخرة خشنة تعسَّر المشي عليها، أو جعلها لينة منبتة يمكن فيها حفر الآبار وشق العيون والأنهار وبناء الأبنية وزرع الحبوب وغرس الأشجار، ولو كانت صخرة صلبةً لتعذر ذلك، ولكانت حارّةً في الصيف جدّاً وباردةً في الشتاء؛ فلا تكون كفاتاً للأحياء والأموات، وأيضاً ثبتها بالجبال الراسيات كيلا تتمايل وتنقلب بأهلها، ولو كانت مضطربة متمايلة لما كانت منقادة لنا، فكانت على صورة الإنسان الكامل في سكوتها وسكونها.

والحاصل: أنَّ الله تعالى جعل الأرض بحيث ينتفع بها، وقسمها إلى سهول وجبال وبرار وبحار وأنهار وعيون، وملح وعذب، وزرع وشجر، وتراب وحجر ورمال، ومدر وذات سباعٍ وحيات، وفارغة، وغير ذلك بحكمته وقدرته. قال سهل رحمه الله: خلق الله الأنفس ذلولاً، فمن أذلّها بمخالفتها فقد نجّاها من الفتن والبلاء والمحن، ومن لم يذلها واتبعها أذلته نفسه وأهلكته. انتهى.

واختلفوا في مبلغ الأرض وكميتها، فروي عن مكحول أنّه قال: ما بين أقصى الدنيا إلى أدناها مسيرة خمس مئة سنة؛ مئتان من ذلك في البحر، ومئتان ليس

يسكنها أحد، وثمانون فيها يأجوج ومأجوج، وعشرون فيها سائر الخلق. وعن قتادة أنه قال عن الدنيا: إنّ بسيطتها من حيث يحيط بها البحر المحيط: أربعة وعشرون ألف فرسخٍ، فملك السودان منها: اثنا عشر ألف فرسخ، وملك الروم: ثمانية آلاف فرسخ، وملك العجم والترك: ثلاثة آلاف فرسخ، وملك العرب: ألف فرسخ. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّه قال: ربع من لا يلبس الثياب من السودان أكثر من جميع الناس، والله أعلم بحقيقتها وقدرها.

والفاء في قوله: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ لترتيب الأمر بالمشي على الجعل المذكور، والأمر للإباحة عند بعض أي: فاسلكوا في جوانبها، وخبر في صورة الأمر عند آخرين؛ أي: تمشون في أطرافها. قال مجاهد والكلبيّ ومقاتل: مناكبها: طرقها وأطرافها وجوانبها، وقال قتادة وشهر بن حوشب مناكبها: جبالها، وأصل المنكب: الجانب، ومنه منكب الرجل وهو مجتمع ما بين العضد والكتف، ومنه استعير للأرض هنا؛ يعني أن الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنّ الله سبحانه جعلها لكم ذلولاً لانتفاعكم بها، وأردتم بيان كيفية الانتفاع بها.. فأقول لكم: فامشوا في نواحيها وأطرافها، والتمسوا من نعم الله فيها من الحبوب والفواكه ونحوها. ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ سبحانه؛ أي: وكلوا مما خلقه الله رزقاً لكم. والأمر فيه إن كان أمر إباحة فالرزق ما يكون حلالاً، وإن كان خبراً في صورة الأمر بمعنى (تأكلون).. فيجوز أن يكون شاملاً للحرام أيضاً؛ فإنه من رزقه أيضاً وإن كان التناول منه حراماً؛ لأنّ الرزق عند أهل السنة ما ينتفع به ولو محرّماً كما قال أحمد بن رسلان في زبده:

يَرْزُقُ مَنْ شَاءَ وَمَنْ شَا أَحْرَمَا وَٱلرِّزْقُ ما يُنْفَعُ وَلَوْ مُحَرَّمَا

﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي: وإلى الله وحده لا إلى غيره ﴿ٱلنُّشُورُ﴾؛ أي: المرجع بعد البعث، فبالغوا في شكر نعمه، فيسألكم عن شكر هذه النعمة عليكم، وفي هذا وعيد شديد.

والمعنى[1]: أنّ ربكم هو الذي سخر لكم الأرض وذللها لكم، فجعلها قارة

---

(١) المراغي.

ساكنة لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأوجد فيها من العيون لسقيكم وسقي أنعامكم وزروعكم وثماركم، وسلك فيها السبل، فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أرجائها لأنواع المكاسب والتجارات، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق. والسعي في الأرزاق لا ينافي التوكل على الله، روى أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم توكّلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»، فأثبت لها غدوّاً ورواحاً لطلب الرزق مع توكلها على الله عزّ وجلّ، وهو المسخر الميسر المسبب.

وأخرج الحكيم الترمذي عن معاوية بن قرّة قال: مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون، قال: بل أنتم المتأكلون، إنما المتوكل رجل ألقى حبه في بطن الأرض وتوكل على الله عز وجل. وجاء في الأثر: «إنّ الله يحبّ العبد المؤمن المحترف».

وفي الآية: إيماء إلى ندب التجارة والتكّسب بجميع ضروبه، وفيها تهديد للكافرين؛ كأنّه قال لهم: إني عالم بسركم وجهركم فاحترسوا من عقابي، فهذه الأرض التي تمشون في مناكبها أنا الذي ذللتها لكم وجعلتها سبباً لنفعكم، وإن شئت.. خسفتها بكم، وأنزلت عليها ألواناً من المحن والبلاء. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: وإليه المرجع يوم القيامة؛ فينبغي أن تعلموا أنَّ مكثكم في الأرض وأكلكم مما رزقكم الله فيها مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله ويستيقن أن مصيره إليه؛ فاحذروا الكفر والمعاصي في السر والعلن.

والهمزة الأولى[1] في قوله: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ للاستفهام التوبيخيّ، والثانية فاء الكلمة؛ أي: هل أمنتم أيها المشركون ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى قال في «فتح الرحمن»: هذا المحل من المتشابه الذي استأثر الله بعلمِهِ، ونؤمن به ولا نتعرضُ لمعناه، ونكل العلم فيه إلى الله. (قلت): والمذهب الأسلم الذي عليه السلف أن نثبت الظرفية في السماء لله تعالى، فإذاً نقول الكون في السماء صفة ثابتة لله تعالى نثبتها ونعتقدها، ولا نكيّفها، ولا نمثّلها، كما أن الاستواء على

(١) روح البيان.

العرش صفة ثابتة له نثبتها ونعتقدها. وقيل: على تأويل من في السماء أمره وسلطانه وقضاؤه وهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾. وحقيقته[1] أأمنتم خالق السماء ومالكها.

وفي «الأسئلة المقحمة»: خصّ السماء بالذكر إشعاراً بأنّ الأصنام التي في الأرض ليست بآلهة، لا لأنّه تعالى في جهة من الجهات؛ لأنّ ذلك من صفات الأجسام، وأراد أنه فوق السماء والأرض فوقيّة القدرة والسلطنة لا فوقية الجهة انتهى. على أنّه لا يلزم من الإيمان بالفوقية الجهة، فقد ثبت، لأنّ فوقيته ليست كفوقية المخلوق لا نمثّلها ولا نكيّفها كما أنّ ظرفيته في السماء ليست كظرفية بعض المخلوقات في بعض، تعالى الله سبحانه عن صفات المخلوقين علوّاً كبيراً. وقيل: خصّ السماء بالذكر؛ لأنّها مسكن ملائكته، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه. وقيل: الظرفية باعتبار زعم العرب حيث كانوا يزعمون أنّه تعالى في السماء؛

أي: أأمنتم من تزعمون أنّه في السماء، وأنّه متعال عن المكان، وأمّا رفع الأيدي إلى السماء في الدعاء؛ فلكونها محلّ البركات، وقبلة الدعاء كما أنّ الكعبة قبلة الصلاة وجناب الله قبلة القلب، وقيل: المراد بمن في السماء الملائكة الموكّلون بتدبير هذا العالم. وقيل: المراد بمن في السماء جبريل عليه السلام؛ لأنّه يأتي بالخسف والعذاب. والقول الأسلم الأرجح الذي عليه أهل السنة القول الأوّل كما ذكرناه سابقاً، وقال ابن عباس[2]: أأمنتم عذاب من في السماء، وهو الله عزّ وجلّ.

أي: هل أمنتم أيّها المشركون الإله الذي في السماء إن عصيتموه ﴿أَن﴾ ﴿يَخْسِفَ﴾ ويقلع ﴿بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ ويغيّبكم فيها، بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها، وتأكلون من رزقه لكفرانكم تلك النعمة؛ أي: يقلبها متلبسة بكم فيغيّبكم فيها كما فعل بقارون، وهو بدل اشتمال من ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أي: أأمنتم من في السماء خسفه بكم الأرض إن عصيتموه، أو على حذف (مِنْ) الجارَّة؛ أي: مِنْ أن يخسف بكم، والباء للملابسة، وفي «القاموس»: خسف الله بفلان الأرض غيبه

---

(١) روح البيان. (٢) زاد المسير.

فيها، وخسفها ذهابها في السفل. والمشهور أنّ الباء في مثل هذا الموضع للتعدية؛ أي: يدخلكم ويذهبكم فيها. ﴿فَإِذَا﴾ فجائية ﴿هِيَ﴾ أي: الأرض ﴿تَمُورُ﴾ أي: تضطرب وتتحرّك ذهاباً ومجيئا على خلاف ما كانت عليه من الذلّ والاطمئنان، أو تذهب كما يذهب التراب في الريح. وقال بعضهم: معناه: فإذا الأرض تدور بكم إلى الأرض السفلى، وبعضهم قال: تتكّشف تارة للخوض فيها وتلتئم أخرى للتعذيب بها. والاستفهام للتوبيخ المضمَّن للإنكار، أي: لا تأمنوا مكره وخسفه بكم إن عصيتموه. وقال الخازن: المعنى: أنّ الله تعالى يحرّك الأرض عند الخسف بهم حتى تقلبهم إلى أسفل، وتعلو الأرض عليهم وتمور فوقهم؛ أي: تجيء وتذهب.

قرأ نافع وأبو عمرو والبزّي[1]: ﴿أأمنتم﴾ بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية، وأدخل أبو عمرو وقالون بينهما ألفاً. وقرأ قنبل بإبدال الأولى واواً لضمة ما قبلها، وعنه وعن ورش أوجه غير هذه، والكوفيون وابن عامر بتحقيقهما.

والمعنى: أأمنتم أن يخسف ربكم بكم الأرض كما خسفها بقارون؛ فإذا هي تتحرك بكم حين الخسف، وتبتلعكم وتمور فوقكم جيئة وذهاباً.

ثم انتقل سبحانه من التهديد بهذا إلى التهديد بوجه آخر، فقال: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أم منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أضرب بها عن التهديد بما سبق إلى التهديد بأمر آخر؛ أي: بل هل أمنتم الإله الذي في السماء أن يرسل وينزل عليكم أيها المشركون حاصباً؛ أي: حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوطٍ وأصحاب الفيل؛ أي: أم أمنتم من في السماء إرساله عليكم حاصباً على أنّ قوله: ﴿أَن يُرْسِلَ﴾ بدل اشتمال من ﴿مَنْ﴾ أيضاً.

والمعنى[2]: هل جعل لكم من هذين أمان، وإذ لا أمان لكم، فما معنى تماديكم في شرككم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ألبتة ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾؛ أي: كيف كان إنذاري بالعذاب عند مشاهدتكم للمنذر به أهو واقع أم لا أم شديد أم ضعيف؟!

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

يعني: حين حقَّقْتم المنذر به تعلمون أنه لا خلف لخبري، وأنّ عذابي لشديد، وأنه لا دافع له، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذٍ. فالنذير وكذا النكير الآتي مصدران بمعنى الإنذار والإنكار، وأصلهما: نذيري ونكيري بياء الإضافة، فحذفت اكتفاء بكسر ما قبلها، قال في «برهان القرآن»: خوفهم بالخسف أوّلاً لكونهم على الأرض، وأنها أقرب إليهم من السماء ثم بالحاصب من السماء، فلذلك جاء ثانياً.

وقال القاضي في «كشف ما التبس من القرآن»: هذه الآية ليست تكراراً مع الآية التي قبلها؛ لأنَّ الأولى في تخويفهم بخسف الأرض بهم، والثانية في تخويفهم بالحصب من السماء، وقدم الأولى؛ لأن الأرض التي جعلها الله مقرّاً لهم وعبدوا فيها غيره تعالى أقرب إليهم من السماء البعيدة عنهم. فإن قلت: كيف قال: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؟ مع أنّه تعالى ليس فيها ولا في غيرها؟ بل هو تعالى منزه عن كل مكان.

قلت: المعنى: من ملكوته في السماء التي هي مسكن ملائكته ومحل عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ والقلم، ومنه تنزل أقضيه كتبه. انتهى.

وأثبت[1]: ورش ياء (نذيري) و(نكيري)، وحذفها باقي السبعة. والمعنى أي: بل أأمنتم أن يرسل عليكم ريحاً فيها حصباء حجارة صغار كما فعل بقوم لوط، وحينئذٍ تعلمون كيف يكون عقابي إذا شاهدتموه، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذٍ.

والخلاصة[2]: كيف تأمنون من في السماء أن يصب عليكم العذاب من فوقكم أو من تحت أرجلكم، وقد ذلّل لكم الأرض وزيّن لكم السماء بمصابيح، فإذا لم تشكروا النعم فأنتم جريون بأن يرسل عليكم النقم، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

ثم لفت أنظارهم إلى ما حل بالأمم قبلهم، لعله يكون فيه مزدجر لهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: وعزّتي وجلالي لقد كذّب الذين من قبلهم؛ أي: من قبل كفّار مكة من كفّار الأمم السابقة، كقوم نوح وعاد وأضرابهم، والالتفات إلى الغيبة لإبراز الإعراض عنهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: إنكاري عليهم بإنزال العذاب؛ أي: كان على غاية الهول والفظاعة، وهذا مورد التأكيد القسمي لا

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

تكذيبهم فقط، وإنكار الله تعالى على عبده أن يفعل به أمراً صعباً وفعلاً هائلاً لا يعرف. وفي الآية تسليةٌ للرسول ﷺ وتهديد لقومه.

والمعنى[1]: ولقد كذب من قبلهم من الأمم السالفة والقرون الغابرة من أرسلناهم من رسلنا، فحاق بهم من سوء العذاب ما لا مرد له، وحل بهم من اليأس ما لم يجدوا له دافعاً على شدة هوله وعظيم فظاعته.

والخلاصة: أنّ الكفار قبلهم شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون.

ولما حذرهم[2] ما يمكن إحلاله بهم من الخسف وإرسال الحاصب.. نبههم على الاعتبار بالطير وما أحكم من خلقها، وعلى عجز آلهتهم عن شيء من ذلك، وناسب ذلك الاعتبار بالطير، إذ قد تقدمه ذكر الحاصب، وقد أهلك الله أصحاب الفيل بالطير، والحاصب الذي رمتهم به؛ ففيه إذكار قريش بهذه القصة، وأنه تعالى لو شاء لأهلكهم بحاصب ترمي به الطير كما فعل بأصحاب الفيل؛ فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ﴿الهمزة﴾ فيه للاستفهام التوبيخي المضمن للتقرير، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾ عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفل أهل مكة عن التفكر والنظر في مصنوعات الله تعالى ودلائل قدرته، ولم يروا وينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ فالرؤية[3] بصريّة لأنّها تتعدى بـ ﴿إلى﴾، وأمّا القلبية فتعديتها بـ (في)، والطير يطلق على جنس الطائر ـ وهو كلّ ذي جناح يسبح في الهواء كما سيأتي ـ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً ليروا، وأن يكون حالاً من الطير؛ أي: حالة كونها كائنات فوقهم ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من الطير. والصف: أن يجعل الشيء على خط مستو كالناس والأشجار، ومفعول ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ وكذا ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ إنّما هو أجنحة الطير لا أنفسها.

والمعنى: ألم يروا إلى الطير فوقهم حالة كونهن صافات وباسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن، فإنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفّاً؛ وقوادم الطير: مقاديم ريشه؛ وهي عشر في كل جناح، والواحدة قادمه. ﴿و﴾ حالة كونهن

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

﴿يقبضن﴾ أجنحتها؛ أي: يضممنها إلى جنوبهن إذا ضربنها بها حيناً فحيناً للاستظهار والاستعانة به على التحرك والطيران، قال ابن الشيخ: ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ معطوف على صافاتٍ، لأنّه معنى وقابضات، وإلا لما عطف الفعل على الاسم.

فإن قلت: لِمَ لَمْ يعبّر[1] باسم الفاعل ابتداء فيقال: وقابضات؟

قلت: لأن الأصل في الطيران هو وصف الأجنحة؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارىءٌ على البسط للاستظهار به على التحرك؛ فجيء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل الدال على التجدد على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح، قاله الزمخشري. اهـ، خطيب. وقيل: إن معنى ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ قبضهن لأجنحتهن عند الوقوف من الطيران لا قبضها حال الطيران. وجملة قوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾: في محل[2] النصب على الحال من فاعل ﴿يقبضن﴾ أو مستأنفة لبيان كمال قدرة الله سبحانه وتعالى. والمعنى: أنّه ما يمسكهن في الهواء، وما يمنعهن عن السقوط عند الصف والقبض، على خلاف مقتضى الطبع الجسماني؛ فإنه يقتضي الهبوط إلى السفل.

﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ الواسع رحمته كل شيء القادر على كل شيء بأن برأهن على أشكال وخصائص، وهيأهن للجري في الهواء. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ كائناً ما كان، يعلم إبداع المبدعات وتدبير العجائب، والبصير هو الذي يشاهد ويرى، لا يعزب عنه ما تحت الثرى، وهو في حقه تعالى عبارة عن الوصف الذي ينكشف به كمال نعوت المبصرات؛ فالبصر صفة زائدة على علمه تعالى خلافاً للقدريّة؛ فمن عرف هذه الصفة كان المراد به دوام المراقبة ومطالبة النفس بدقيق المحاسبة والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان. وقرأ الجمهور[3] ﴿ما يُمْسِكُهُنّ﴾ مخفّفاً.

ومعنى الآية: أغفلوا عن قدرتنا ولم ينظروا إلى الطير فوقهم وهي باسطات

---

(١) الفتوحات.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

أجنحتهن في الجو حين طيرانها تارة، وقابضات لها تارةً أخرى، وما يمسكهن في الجو حين الصف والقبض على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانجذاب إليها إلا واسع رحمة من برأهن على أشكال وخصائص هو العليم بها، وألهمهن حركات تساعد على الجري في الهواء، المسافات البعيدة لتحصيل أقواتهن والبحث عن أرزاقهن.

ثم بين علة هذا فقال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ أي: إنه سبحانه عليم بدقيق الأشياء وجليلها، فيعلم كيف يبدع خلقها على السنن التي هو عليم بفائدتها لعباده.

والخلاصة: أنكم رأيتم بعض العجائب التي أبرزناها، والحِكَمِ التي أظهرناها؛ فهل أنتم آمنون أن ندبّر بحكمتنا عذاباً نصبه عليكم صبًّا؟ ولا معقّب لحكمنا ولا دافع لقضائنا.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ ﴿أَمَّنْ﴾ أصله[1]: ﴿أم مَنْ﴾ على أنّ ﴿أمْ﴾ منقطعة مقدرة بـ ﴿بل﴾ المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمّل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله إلى التبكيت بما ذكر. والالتفات فيه للتشديد في ذلك، والاستفهام متوجه لتبكيتهم بإظهار عجزهم عن تعيينه، ولا سبيل هنا إلى تقدير الهمزة مع بل؛ لأنّ ما بعدها (مَنْ) الاستفهامية، ولا يدخل الاستفهام على الاستفهام. و(مَن) مبتدأ، و﴿هذا﴾ خبره، والموصول مع صلته صفته، وإيثار لفظ هذا لتحقير المشار إليه. و﴿يَنصُرُكُم﴾ صفة لجند باعتبار لفظه، و(الجند): جمع معد للحرب.

والمعنى: بل من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم وعسكر وعون من آلهتكم وغيرها ينصركم عند نزول العذاب والآفات حال كونه ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: متجاوزاً نصر الرحمن. فـ ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ حال من فاعل ﴿يَنصُرُكُم﴾ و﴿دُونِ﴾ بمعنى غير، أو ينصركم نصراً كائناً من دون نصره تعالى، على أنّه نعت لمصدره. أو ينصركم من عذاب كائن من عند الله على أنّه متعلق بـ ﴿يَنصُرُكُم﴾ وقد تجعل ﴿مَنْ﴾ موصولة مبتدأ، و﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ ثانياً، والموصول مع صلته خبره، والجملة صلة

(١) روح البيان.

﴿مَنْ﴾ بتقدير القول و﴿ينصركم﴾ و﴿أمْ﴾ منقطعة أو متصلة، والقرينة محذوفة بدلالة السياق، على أن يكون المعنى: الله الذي له هذه الأوصاف الكاملة والقدرة الشاملة ينصركم وينجيكم من الخسف والحصب إن أصابكم أم الذي يشار إليه ويقال في حقه هذا الذي تزعمون أنّه جندٌ لكم ينصركم من دون الله سبحانه؟ وإيثار الرحمن للدلالة على أنّ رحمة الله هي المنجية من غضبه لا غير.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَمَّنْ﴾ بإدغام ميم (أم) في ميم (مَنْ) إذ الأصل: أَمْ مَنْ، وقرأ طلحة (أَمَنْ) بتخفيف الميم.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿إنْ﴾ نافية بمعنى ما؛ أي: ما هم في زعمهم أنّهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط، أو أنّ آلهتهم تحفظهم من بأس الله. ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ عظيم أو ضلالٍ فاحشٍ من جهة الشيطان، ليس لهم في ذلك شيء يعتد به في الجملة. وجملة قوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلخ، معترضة مقررة لما قبلها، ناعيةً عليهم ما هم فيه من الضلال، والالتفات[2] إلى الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم، والإظهار في موضع الإضمار لذمّهم بالكفر وتعليل غرورهم به.

والمعنى: بل مَنْ هذا الذي يعينكم في دفع العذاب عنكم إذا أراد بكم سوءاً؟ فما أنتم في زعمكم أنكم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتكم لا بحفظ الله لكم إلاّ في ضلال مبين، وقد أغواكم الشيطان، وغرّكم بهذه الأمانيّ الباطلة. وفي قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إشارةٌ إلى أنه برحمته أبقى الناس في الأرض مع ظلمهم وجهالتهم؛ إذ رحمته وسعت كل شيء، فوسعت البر والفاجر والطير في السماء والأنعام في الأرض.

ثم انتقل من توبيخهم على دعوى ناصر سواه إلى توبيخهم على دعوى رازقٍ غيره، فقال: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ أي: بل من هذا الذي يعطيكم الرزق ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ الرحمن، وحبس ﴿رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر ومباديه، ولو كان الرزق موجوداً أو كثيراً وسهل التناول فوضع الأكلة في فمه فأمسك الله عنه قوة الابتلاع لعجز أهل

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

السموات والأرض عن أن يسوغوه تلك اللقمة. وإعرابه كإعراب ما سبق.

والمعنى[1]: على تقدير كون (من) موصولة: الله الرازق ذو القوة المتين يرزقكم أم الذي يقال في حقه: هذا الحقير المهين الذي تدعون أنّه يرزقكم؟ وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه. أي: إن أمسك رِزقَهُ فمن يرزقكم غيره.

قال بعض المفسرين: كان الكفّار يمتنعون عن الإيمان، ويعاندون الرسول ﷺ معتمدين على شيئين.

أحدهما: اعتمادهم على مالهم وعددهم.

والثاني: اعتقادهم أنّ الأوثان توصل إليهم جميع الخيرات، وتدفع عنهم جميع الآفات؛ فأبطل الله عليهم الأوّل بقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ . . .﴾ إلخ، ورد عليهم الثاني بقوله: ﴿أمّن هذا الذي يرزقكم. . .﴾ إلخ.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ إضراب عن مقدر يستدعيه المقام كأنّه قيل؛ إثر التبكيت والتعجيز لم يتأثروا بذلك ولم يذعنوا للحق ﴿بَل لَّجُّواْ﴾ وتمادوا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي: عنادٍ واستكبار وطغيان ﴿وَنُفُورٍ﴾ أي: شراد عن الحق، وتباعد وإعراض عنه لمضادتهم الحق بالباطل الذي أقاموا عليه. فاللجاج: التمادي في العناد في تعاطي الفعل المزجور عنه. والعتو: التجاوز عن الحد. والنفور: الفرار من الحق. ففيه تحقير لهم، وإشارةٌ إلى أنهم ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

والمعنى[2]: بل من هذا الذي يرزقكم إن منع ربكم عنكم أسباب رزقه من الأمطار وغيرها، أو وقف الهواء فلم تجر الرياح، أو جعل ماء البحر غوراً.

والخلاصة: أنه لا جند لكم ينصركم إن هو عذبكم، ولا رازق يرزقكم إن هو حرمكم أرزاقكم. وبعد أن حصحص الحق قال مبيناً عتوهم وطغيانهم ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: إنهم يعلمون ذلك حق العلم ويعبدون غيره، فما هذا منهم إلا عنادٌ واستكبارٌ ونفورٌ عن قبول الحق، وما جرأهم على هذا إلا الشيطان الذي غرهم بوسوسته، فظنوا أن آلهتهم تنفعهم تدفع الضر عنهم، وتقربهم إلى ربهم زلفى.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

ثم ضرب مثلاً يبين به الفارق بين حالي المشرك والموحد، جعل فيه المعقول بصورة المحسوس، ليكون أبين للحجة وأوضح لطريق المحجة؛ فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، والفاء[1] لترتيب ذلك على ما ظهر من سوء حالهم، وتقديم الهمزة عليها لفظاً إنما هو لملازمتها الصدارة، وأما بحسب المعنى.. فالأمر بالعكس حتى لو كان مكان الهمزة (هل) لقيل: فهل من يمشي مكباً... إلخ. والمُكِبُّ: الساقط على وجهه، وهو حالٌ من فاعل ﴿يَمْشِى﴾. ويقال في المعنى: الفاء فاء الفصيحة لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت سوء حال المشركين وحسن حال المؤمنين، وأردت ضرب المثل لحال الفريقين؛ فأقول لك: من يمشي وهو يعثر في كلّ ساعة ويخر على وجهه في كلّ خطوةٍ لتوعر طريقه واختلال قواه ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ أي: أشدّ هداية ورشداً إلى المقصد الذي يؤمه ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ أي: أهو أهدى أمن يمشي قائماً سالماً من الخبط والعثار ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق مستوي الأجزاء، لا عوج فيه ولا انحراف. أي: أيّهما أهدى هل الأوّل أم الثاني؟ فالجواب: الثاني هو المهتدي، والأوّل هو الضال. وقيل: المكب هو الذي يكب رأسه فلا ينظر يميناً ولا شمالاً ولا أماماً فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه. وقيل: أراد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه. وقال قتادة: المكبّ هو الكافر أكب على معاصي الله في الدنيا، فحشره الله على وجهه إلى النار في العقبى، والمؤمن استقام على أمر الله في الدنيا فحشره الله على قدميه إلى الجنة في الآخرة.

والحاصل: أنه سبحانه شبه المؤمن[2] في تمسّكه بالدين الحق ومشيه على منهاجه بمن يمشي في الطريق المعتدل الذي ليس فيه ما يتعثّر به، وشبه الكافر في ركوبه ومشيه على الدين الباطل بمن يمشي في الطريق الذي فيه حفر وارتفاع وانخفاض؛ فيتعثر ويسقط على وجهه، كلما تخلص من عثرة وقع في أخرى. فالمذكور في الآية هو المشبه به، والمشبه محذوف لدلالة السياق عليه. و﴿مَنْ﴾ الثانية معطوفة على ﴿مَنْ﴾ الأولى، لأنّ ﴿أم﴾ هنا متصلة معادلة للهمزة؛ فيكون

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات.

عطف مفردٍ على مفرد، ووحّد الخبر لأنّ ﴿أم﴾ لأحد الشيئين.

ومعنى الآية[1]: أفمن يمشي وهو يتعثر في كل ساعة ويخر على وجهه في كل خطوة لتوعر طريقه واختلاف أجزائها انخفاضا وارتفاعاً أهدى سبيلاً وأرشد إلى المقصد الذي يؤمّه أم من يمشي سالماً من التخبط والعثار على الطريق السويّ الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، فهذا المكب على وجهه هو المشرك الذي يمشي على وجهه في النار يوم القيامة، والذي يمشي سويّاً هو الموحد الذي يحشر على قدميه إلى الجنة.

وبعد أن امتن على عباده بما آتاهم من زينة السماء وتذليل الأرض وإمساك الطير في الهواء أخذ يذكر ما هو أقرب إلينا، وهو خلق أنفسنا فقال آمراً رسوله: أن يبين لهم ذلك ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى وحده الإله ﴿الَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أيها الكفار، كما دل السباق والسياق، ويندرج فيه الإنسان الغافل أيضاً؛ أي[2]؛: أنشأكم إنشاء بريعاً بديعاً لا مثيل له، وابتدأ خلقكم على أحسن خلق بأن صوركم وأحسن صوركم. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ وأعطى لكم الأذن لتسمعوا آيات الله التنزيلية، وتعملوا بموجبها. وقدم السمع؛ لأنه شرط النبوّة، ولذلك ما بعث رسولاً أصم، وأفرده دون الأبصار؛ لأنّه مصدر يطلق بلفظه على القليل والكثير. ﴿و﴾ جعل لكم ﴿الأبصار﴾ لتنظروا بها إلى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله تعالى، ولتبصروا جميع مظاهره تعالى في غاية الكمال ونهاية الإتقان. ﴿و﴾ جعل لم ﴿الأفئدة﴾ والقلوب لتتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية، وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة. والأفئدة: جمع فؤاد وهو القلب. وخصَّ[3] هذه الثلاثة بالذكر لأنّ العلوم والمعارف بها تحصل، كما في كشف الأسرار؛ ولأنّ القلب كالحوض حيث ينصب إليه ما حصل من طريق السمع والبصر، فذكر سبحانه هنا أنّه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات، إيضاحاً للحجة وقطعاً للمعذرة وذمّاً لهم على عدم شكر نعم الله، ولهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ باستعمالها فيما خلقت لأجله من الأمور المذكورة.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

و﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمحذوف، و﴿مَّا﴾ مزيدة لتأكيد القلّة؛ أي: شكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تشكرون، وقيل: القلّة عبارة عن العدم، قال سعدي المفتي: القلّة بمعنى النفي إن كان الخطاب للكفرة، أو بمعناها المعروف إن كان للكلّ، يقال: قلّما أفعل كذا أي: لا أفعله. قال بعض أهل المعرفة:

لَوْ عِشْتُ أَلْفَ عَامٍ فِيْ سَجْدَةٍ لِرَبِّي ... شُكْراً لِفَضْلِ يَوْمٍ لَمْ أَقْضِ بِٱلتَّمَامِ

وَٱلْعَامُ أَلْفُ شَهْرٍ وَٱلشَّهْرُ أَلْفُ يَوْمٍ ... وَٱلْيَومُ أَلْفُ حِيْنٍ وَٱلْحِيْنُ أَلْفُ عَامِ

قال بعضهم: من وظائف السمع في الشكر: التعلم من العلماء والحكماء الإصغاء إلى الموعظة، ومن وظائف الأبصار فيه: النظر إلى المصاحف وكتب الدين ومعابد المؤمنين ومسالك المسلمين، وإلى وجوه العلماء والصالحين والفقراء والمساكين بعين الرحمة، ومن وظائف الأفئدة: الفكر في جلال الله وكماله وجماله ونواله، والخوف والرجاء منه والمحبة والاشتياق إلى لقائه والمحبّة لأنبيائه وأوليائه والبغض لأعدائه، والنظر في المسائل والدلائل، والاهتمام في حوائج العيال، ونحو ذلك مما فيه فائدة.

والمعنى[1]: قل لهم يا محمد: إنّ ربكم هو الذي برأكم وجعل لكم السمع لتسمعوا به المواعظ، والأبصار لتنظروا بها بدائع صنع الخالق، والأفئدة لتتفكروا في كلّ هذا، وتستفيدوا منه الفوائد العقلية والمادّية.

ثم أبان أنّ الإنسان لنعمة ربّه لكنود، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم بها ربكم عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره، وذلك هو شكرانها.

ثم لخص هذا كله بقوله آمراً رسوله: ﴿قُلْ﴾ لهم أيّها الرسول ﴿هُوَ﴾ سبحانه وحده الإله ﴿ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ وخلقكم وكثّركم وبثكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وفرقكم فيها ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى لا إلى غيره اشتراكاً أو استقلالاً ﴿تُحْشَرُونَ﴾ حشراً جسمانياً، أي: تجمعون وتبعثون للحساب والجزاء شيئاً فشيئاً إلى البرزخ دفعةً واحدة يوم البعث، فابنوا أموركم على ذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ فبين أن جميع الدلائل

---

(١) المراغي.

المذكورة إنما هو لإثبات هذا المطلوب.

والمعنى: قل لهم يا محمد منبهاً على خطئهم: إن ربكم هو الذي برأكم في الأرض وبثكم في أرجائها على اختلاف ألسنتكم وألوانِكم وأشكالكم وصوركم، ثم يجمعكم كما فرقكم، ويعيدكم كما بدأكم للحساب والجزاء، فيجزي كل نفس بما كسبت إنه سريع الحساب.

وبعد أن ذكر أن إليه المرجع والمآب.. أردفه بذكر مقالة الكافرين المنكرين لذلك، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: ويقول المشركون من فرط عنادهم واستكبارهم، أو بطريق الاستهزاء كما دل عليه لفظ ﴿هذا﴾ في قوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: متى الحشر الموعود؟ كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، فالوعد بمعنى الموعود، والمشار إليه: الحشر، وقيل: ما خوفوا به من الخسف والحاصب، واختيار[1] لفظ المضارع في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إما لأن المقصود بيان ما يوجد من الكفار من هذا القول في المستقبل، وإما لأن المعنى: وكانوا يقولون. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تخبرونه من الحشر، يخاطبون به النبي ﷺ والمؤمنين، حيث كانوا مشاركين له ﷺ في الوعد وتلاوة الآيات المتضمّنة له، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم صادقين فيما تخبرونه من مجيء الساعة والحشر فبينوا وقته. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقته كائن ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ الذي قدر الأشياء، ودبر الأمور، لا يطلع عليه غيره. ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوف ظاهر بلغة تعرفونها، ومظهر للحق كاشف عن الواقع، أنذركم وقوع الموعود لا محالة، وأما العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الإنذار، قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: أخفى علمه في عباده وعن عباده، وكل يتبع أمره على جهة الاشتباه لا يعلم ما سبق له، وبماذا يختم له، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ.

ومعنى الآيتين[2]: ويسألون الرسول استهزاء وتهكُّماً متى يقع ما تعدنا به مِنَ الخسف والحاصب في الدنيا والحشر والعذاب في الآخرة، إن كنت صادقاً فيما تدّعي وتقول، فأمر رسوله أن يجيبهم بأن علم ذلك عند بارىء النسم، فقال: قل يا محمد: إنما علم ذلك على وجه التعيين عند ربي لا يعلمه إلا هو، وقد أمرني أن

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

أخبركم بأن ذلك كائن لا محالة، فاحذروه. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ثم بين وظيفة الرسول، فقال: وإنما أنا منذر من عند ربي، أبين لكم شرائعه ما حلل منها وما حرم، لتكونوا على بينةٍ من أمركم، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم.

ثم بين حالهم حين نزول ذلك الوعد الموعود، فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الفاء عاطفة لجملة ﴿لما﴾ على جملتين محذوفتين، والرؤية بصرية، وعبّر[1] بصيغة الماضي عمّا في المستقبل تنزيلاً لغير الواقع منزلة الواقع لتحققه، والتقدير: وأتاهم الحشر والعذاب الموعود فرأوه، فلما رأوه ﴿زُلْفَةً﴾ حال من مفعول رأوا؛ لأن رأى بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، كما ذكرناه آنفاً إما بتقدير مضاف، أي ذا زلفة وقرب، أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل؛ أي: مزدلفاً قريباً. معنى قرب الحشر هو قرب ما أعد لهم فيه، أو ظرف؛ أي: رأوه في مكان ذي زلفة. قال مجاهد: فلما رأوه زلفةً أي: قريباً. وقال الحسن: عياناً، قال أكثر المفسرين: المراد به عذاب يوم القيامة. وقال مجاهد: المراد عذاب بدر. وقيل: فلما رأوا ما وعدوا به من الحشر قريباً منهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. وقيل: فلما رأوا عملهم السيء قريباً ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ واسودت، وعبست ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وعلتها الكآبة، ورهقها القتر، وغشيتها الذلة. قال الزَّجَّاج: المعنى: تبين فيها السوء والحزن؛ أي: ساءهم ذلك العذاب؛ فظهر عليهم بسببه في وجوههم ما يدل على كفرهم؛ وهو السواد والقتر والذلة كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

وخص الوجوه بالذكر؛ لأنّ الوجه هو الذي يظهر عليه أثر المسرّة والمساءة، ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمّهم بالكفر وتعليل المساءة به، وأصل الكلام: ساءت رؤية الموعود وجوههم، فكانت كوجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب، من ساءه الشيء يسوؤه سَوءاً ومساءةً، ضد سره، ثم بني للمفعول، والفعل في الحقيقة مسند إلى أصحاب الوجوه بمعنى ساؤُوا وقبحوا.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ بكسر السين بدون إشمام، أي: أخلصوا كسرتها. وأشمها الضم أبو جعفر، والحسن، وأبو رجاء، وشيبة، وابن وثاب، وطلحة، وابن

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

عامر، ونافع، والكسائي، وابن محيصن.

﴿وَقِيلَ﴾ لهم توبيخاً لهم وتشديداً لعذابهم بالنار الروحانية قبل الإحراق بالنار الجسمانية، والقائلون هم الزبانية، وإيراد[1] المجهول لكون المراد بيان المقول لا بيان القائل. ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، أشير به إلى ما رأوه زلفة، وخبره قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: أي: هذا العذاب المشاهد لكم هو الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه، إنكاراً واستهزاءاً، على أنه تفتعلون من الدعاء، والباء على هذا صلة الفعل، يقال: دعا بكذا، إذا استدعاه، وقيل: هو من الدعوى؛ أي: كنتم بسبب ذكر النبي ﷺ والمؤمنين العذاب لكم يوم القيامة تدعون أن لا بعث ولا حشر، فالباء للسببية.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَدَّعُونَ﴾ بشد الدال مفتوحة، والمعنى: أنهم يدعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار. وقرأ قتادة، وابن أبي إسحاق ويعقوب والضحاك والحسن وعبد الله بن مسلم وسلام ﴿تَدْعُون﴾ بسكون الدال، وهي قراءة ابن أبي عبلة وأبي زيد وعصمة عن أبي بكر والأصمعيّ عن نافع. قال قتادة: هو قولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾، وقال الضحاك: هو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية. قال النَّحَّاس: ﴿تَدَّعُونَ﴾ و﴿تَدْعُون﴾ بمعنى واحدٍ؛ كما تقول: قدر واقتدر، وغدا واغتدى.

والمعنى[3]: فلما رأوا العذاب الموعود قريباً - وكل آت قريب وإن طال زمنه - ساءهم ذلك، وعلت وجوههم الكآبة والخسران، وغشيتها القترة والسواد؛ إذ جاءهم من أمر الله ما لم يكونوا يحتسبون، ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: هذا الذي كنتم تستعجلون وقوعه وتقولون لرسوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وروي[4]: أنّ الكفار كانوا يدعون على الرسول ﷺ وأصحابه بالهلاك، وقيل:

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

كانوا يتآمرون بينهم بأن يهلكوهم بالقتل ونحوه، فأمره أن يقول لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني خبراً أنتم في الوثوق به على ما هو كالرؤية، قال بعضهم: لمّا كانت الرؤية سببا للإخبار عبَّر بها عنه، وقال بعضهم: لما كان الإخبار قويّاً بالرؤية شاع أرأيت في معنى أخبر؛ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بموت أو قتل؛ أي: إن أماتني الله ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين، وحصل مقصودكم، والتعبير[1] عن الموت بالإهلاك ما كانوا يدعون عليه ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، ويتربّصون به ريب المنون، ويقولون: إنّ أمر محمد لا يتم ولا يبقى بل يزول عن قريب. ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا، وحصل مقصودنا فنحن في جوار رحمته، متربّصون لإحدى الحسنيين إما أن نهلك فننقلب إلى الجنة أو نرحم بالنصرة والإدالة للإسلام، كما نرجو فأنتم ما تصنعون؟ وأيُّ راحة لكم في موتنا؟ وأيُّ منفعة؟ وغايتكم إلى العذاب كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ وينجي، وينقذ ويخلص ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم شديد الإيلام؛ أي: لا ينجيكم أحد من عذابه إذا نزل بكم سواءً متنا أو بقينا، إنما النجاة بالإيمان والعمل الصالح.

ووضع[2] الكافرين موضع ضمير هم للتسجيل عليهم بالكفر وتعليل نفي الإنجاء به، وقال بعضهم: كيف قال: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ، بعد أن علم أنه تعالى لا يهلك الأنبياء والمؤمنين؟

قلت: فيه مبالغة في التخويف كأنه قيل: نحن معاشر الأنبياء والمؤمنين، نخاف الله أن يأخذنا بذنوبنا فمن يمنعكم من عذابه وأنتم كافرون؟ وكيف لا تخافون وأنتم بهذه المشابة من الإجرام؛ فيكون معنى أهلكنا عذبنا بعذاب، ومعنى ﴿رَحِمَنَا﴾ غفر لنا، كما في الجلالين.

والحاصل: أنه تعالى[3] أجاب عن تمني المشركين موته ﷺ وموت من معه بوجهين:

بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ، يعني: قل لهم موبخاً: أخبروني

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

عن فائدة موتي لكم سواء أماتني الله ومن معي أو أخّر أجلنا؛ فأي راحة لكم في ذلك؟ وأي منفعة لكم فيه؟ ومن ذا الذي يجيركم من عذاب الله إذ نزل بكم؟ أتظنون أن الأصنام أو غيرها تجيركم؟ وهلا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب فتقروا بالتوحيد والنبوة والبعث؟!

وخلاصة هذا: أنه لا مجير لكم من عذاب الله بسبب كفركم الموجب لهذا العذاب، سواء هلكنا كما تتمنون ففزنا برحمة الله، أو انتصرنا عليكم ورفعنا شأن الإسلام كما نرجو، فكلا الأمرين فيه ظفر بما ينبغي، ونيل لما نحب ونهوى، وفي هذا إيماء إلى أمرين:

١ ـ حثهم على طلب الخلاص بالإيمان الخالص لله والإخبات إليه.

٢ ـ أنّه كان ينبغي أن يكون ما هم فيه شاغلاً لهم عن تمنّي هلاك النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هُوَ﴾؛ أي: الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الرحيم مولي النعم كلها، وموصلها إلى الخلق كلهم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وحده لما علمنا أن كل ما سواه فإما نعمة أو مُنْعَمٌ عليه، ولم نكفر به كما كفرتم، على أن يكون وقوع ﴿آمنا﴾ مقدماً على ﴿به﴾ تعريضاً للكفّار، حيث ورد عقيب ذكرهم. ﴿وَعَلَيۡهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلۡنَاۖ﴾؛ أي: اعتمدنا؛ أي: فوّضنا أمورنا إليه لا إلى غيره أصلاً كما فعلتم أنتم حيث توكّلتم على رجالكم وأموالكم، لعلمنا بأن ما عداه كائناً ما كان بمعزل من النفع والضرّ؛ فوقوع ﴿عليه﴾ مقدّماً يدل على الاختصاص، قال الزمخشري: فإن قلت: لِمَ أخَّر مفعول ﴿ءَامَنَّا﴾ وقدم مفعول ﴿تَوَكَّلۡنَاۖ﴾؟

قلت: لوقوع ﴿ءَامَنَّا﴾ تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم؛ كأنّه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصاً لم نتوكل على ما أنتم متوكلون عليه من رجالكم وأموالكم. . كرخي. ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ يا كفّار مكة عن قريب ألبتة عند معاينة العذاب ﴿مَنۡ﴾ استفهامية أو موصولة ﴿هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ منّا ومنكم، أي: خطأ ظاهر. أي: قل لهم: آمنّا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكّلنا في جميع أمورنا، وهو سيجيرنا من عذاب الآخرة، وفي هذا تعريض بهم حيث اتّكلوا على أولادهم وأموالهم ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾

وإشارة إلى أنهم لا يرحمون في الدارين؛ لأنهم كفروا بالله وتوكلوا على غيره، ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما قبله فقال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فسيتبين لكم من الضال منا ومن المهتدي، ولمن تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة. وقرأ الجمهور ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ بتاء الخطاب، نظراً إلى الخطاب في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾. وقرأ الكسائي بالتحتية على الخبر نظراً إلى قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ولما ذكر أنه يجب التوكل عليه لا على غيره.. أقام الدليل على ذلك؛ فقال آمراً رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ﴾ أي: إن صار ماؤكم الذي تشربونه وتنتفعون به. وكان ماء أهل مكة من بئرين: بئر زمزم، وبئر ميمون الحضرمي. ﴿غَوْرًا﴾ خبر أصبح، وهو مصدر وصف به؛ أي: غائراً في الأرض بالكلية ذاهباً ونازلاً فيها، وقيل: بحيث لا تناله الدلاء، ولا يمكن لكم نيله بنوع حيلة، كما يدل عليه الوصف بالمصدر. ﴿فَمَن يَأْتِيكُم﴾ على ضعفكم حينئذٍ ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾؛ أي: بماء جار على وجه الأرض من عان الماء من باب باع أو من معن، كلاهما بمعنى جرى، وقيل: معن بمعنى كثر، وعان بمعنى جرى، والمعنيان متقاربان. أوظاهر للعيون سهل المأخذ، يعني: تناوله الأيدي، فهو على هذا اسم مفعول من العين بمعنى الباصرة كمبيع من البيع.

ولعل تكرير الأمر بـ ﴿قُلْ﴾ لتأكيد المقول، وتنشيط المقول له. فإن قلت: كيف خص ذكراً لنعمته بالماء من بين سائر نعمه؟ قلت: لأن الماء أهون موجود وأعز مفقود؛ كما في «الأسئلة المقحمة»، روي: أن هذه الآية تليت عند بعض المستهزئين، فقال: تجيء به الفؤوس والمعاويل فذهب ماء عينيه، نعوذ بالله من الجراءة على الله وبيناته وترك حرمة القرآن وآياته، وإنّما عوقب بذهاب ماء عينيه؛ لأنّ الجزاء من جنس العمل. وقرأ ابن عباس ﴿فمن يأتيكم بماء عذب﴾.

والمعنى: قل لهم يا محمد: أخبروني يا أهل مكة إن ذهب ماؤكم في الأرض ولم تصل إليه الدلاء فمن يأتيكم بماء جار تشربونه عذباً زلالاً، ولا جواب لكم إلا أن تقولوا هو الله سبحانه، وإذاً فلم تجعلون ما لا يقدر على شيء شريكاً في العبادة لمن هو قادر على كلّ شيء؟! وفي هذا طلب إقرار منهم ببعض نعمه ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر.

وقصارى ذلك: أنه تعالى فضلاً منه وكرما أنبع لكم المياه، وأجراها في سائر الأقطار، بحسب حاجتكم إليها قلة وكثرة، فلله الحمد والمنّة على جميع النعمة.

الإعراب

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى﴾ فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿بِيَدِهِ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول؛ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُوَ﴾ الواو عاطفة، ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة الصلة مقررة لمضمونها، ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من الموصول الأوّل، ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ والجملة صلة الموصول، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ اللام حرف جرّ وتعليل، ﴿يبلوكم﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿أَيُّكُمْ﴾ مبتدأ، ﴿أَحْسَنُ﴾ خبر، ﴿عَمَلًا﴾ تمييز محوّل عن المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ وجملة ﴿يبلوكم﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لبلائه إياكم، الجار والجرور متعلق بخلق من حيث تعلقه بـ ﴿الحياة﴾؛ إذ هي محل الاختبار والتكليف، وأما الموت فلا شيء من ذلك فيه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ خبر ثان، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل خلق.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾ بدل ثان من الموصول الأول، وقيل: بدل من ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ وقيل: نعت لهما، أو أنه في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف أو منصوب على المدح. ﴿خَلَقَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ مفعول به ﴿طِبَاقًا﴾ صفة لسبع

سموات أو حال منه؛ لأنّه تخصص بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ ما نافية، ﴿تَرَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد أو على كل من يصلح للخطاب ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ﴾ متعلق بـ ﴿تَرَىٰ﴾، ﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾ من زائدة، ﴿تَفَاوُتٍ﴾ مفعول به لـ ﴿تَرَىٰ﴾، وترى بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وجملة النفي مستأنفة مسوقة لتأكيد استقامة خلقه تعالى. ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت عدم التفاوت في خلق الرحمن، وأردت الاستثبات فيه والعيان بعد الإخبار. فأقول لك: ارجع البصر. ﴿ارجع﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ﴿الْبَصَرَ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام ﴿تَرَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿مِنْ﴾ زائدة، ﴿فُطُورٍ﴾ مفعول به والجملة الفعلية في محل نصب مفعول لفعل محذوف تقديره: فانظر هل ترى من فطور؟ ولكنّه علّق عنها بحرف الاستفهام. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿ارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة في محل نصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾. ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنّه بمعنى رجعتين، وهو وإن كان مثنّى لفظاً لا يقصد به معنى التثنية، بل المقصود به التكثير؛ أي: كرّات ﴿يَنقَلِبْ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به ﴿الْبَصَرُ﴾ فاعل، ﴿خَاسِئًا﴾ حال من ﴿الْبَصَرُ﴾، والجملة جملة جوابية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية، ﴿هو حسير﴾ مبتدأ وخبر، والجملة حال من ﴿الْبَصَرُ﴾ أيضاً، أو من الضمير المستكن في ﴿خَاسِئًا﴾، فتكون حالاً متداخلة.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾، استئنافية واللام موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿زَيَّنَّا﴾ فعل، وفاعل ﴿السَّمَاءَ﴾ مفعول به، ﴿الدُّنْيَا﴾ صفة للسماء، ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ متعلق بـ ﴿زَيَّنَّا﴾، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة مسوقة لبيان دلائل أخرى على كمال قدرته تعالى. ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ فعل، وفاعل، ومفعول أوّل، ﴿رُجُومًا﴾ مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿زَيَّنَّا﴾،

﴿لِلشَّيَٰطِينِۖ﴾ متعلق بـ ﴿رُجُومًا﴾، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ فعل، وفاعل معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾. ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أعتدنا﴾، ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ مفعول به، ﴿وَلِلَّذِينَ﴾ الواو عاطفة، ﴿للذين﴾ خبر مقدم، ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة معطوفة على جملة القسم. ﴿وَبِئْسَ﴾ الواو عاطفة، ﴿بئس﴾ فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية خبر عن المخصوص بالذمّ، وهو محذوف تقديره: هي، وجملة المخصوص معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة مسوقة لإنشاء الذمّ.

﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿أُلْقُواْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعل، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿أُلْقُواْ﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿سَمِعُواْ﴾ فعل وفاعل، ﴿لَهَا﴾ حال من ﴿شَهِيقًا﴾: لأنّه صفة نكرة قدّمت عليها، ﴿شَهِيقًا﴾ مفعول ﴿سَمِعُواْ﴾، وجملة ﴿سَمِعُواْ﴾ جواب إذا، وجملة ﴿إِذَآ﴾ مستأنفة. ﴿وَهِىَ﴾ الواو حالية، ﴿هي﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَفُورُ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الهاء في ﴿لَهَا﴾. ﴿تَكَادُ﴾ فعل مضارع، وهي من أفعال المقاربة تعمل عمل ﴿كَانَ﴾، واسمها ضمير مستتر يعود على جهنم، ﴿تَمَيَّزُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، وأصله: تتميز، حذفت إحدى التاءين للتخفيف، ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِۖ﴾ متعلق بـ ﴿تَمَيَّزُ﴾، وجملة تميّز في محل النصب خبر تكاد، وجملة تكاد مستأنفة. ﴿كُلَّمَآ﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿أُلْقِىَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، ﴿فَوْجٌ﴾ نائب فاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿كُلَّمَآ﴾ في محل جر بالإضافة، ﴿سَأَلَهُمْ﴾ فعلٌ ماض، ومفعول به، ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ فاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿كُلَّمَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَآ﴾ مستأنفة. ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريريّ التوبيخي، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿يَأْتِكُمْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لم﴾، والكاف مفعول به، ﴿نَذِيرٌ﴾ فاعل، والجملة الاستفهامية في محل نصب مفعول ثان لسأل.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنّه قيل: ماذا قالوا بعد السؤال؟ فقال: قالوا. ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب لإثبات النفي مبني على السكون ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، ﴿جَآءَنَا﴾ فعل، ومفعول به ﴿نَذِيرٌ﴾ فاعل، والجملة في محل نصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿جَآءَنَا﴾، ﴿وَقُلْنَا﴾ فعل، وفاعل، معطوف على كذّبنا، ﴿مَا﴾ نافية، ﴿نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ فعل، وفاعل، ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من زائدة، ﴿شَيْءٍ﴾ مفعول به، والجملة في محل نصب مقول لـ ﴿قلنا﴾، ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ خبر المبتدأ، ﴿كَبِيرٍ﴾ صفة ضلال، والجملة الاسمية في محل نصب مقول ﴿قلنا﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿نَسْمَعُ﴾ خبره، ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ معطوف على ﴿نَسْمَعُ﴾، وجملة كان فعل شرط لـ﴿لَوْ﴾، لا محل لها من الإعراب، و﴿مَا﴾ نافية، ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ خبره، والجملة الناقصة جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية في محل نصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿فَٱعْتَرَفُواْ﴾ الفاء عاطفة، ﴿اعترفوا﴾ فعل وفاعل، ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قالوا﴾، ﴿فَسُحْقًا﴾ الفاء عاطفة، ﴿سحقاً﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً تقديره: فسحقهم الله سحقاً؛ أي: أبعدهم الله من رحمته بعداً، ويجوز أن يكون مفعولاً به لفعل محذوف تقديره: ألزمهم الله سحقاً، والجملة معطوفة على جملة اعترفوا، ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿سحقاً﴾ أو صفة له، واللام فيه للبيان كاللام في سقياً لك وجدعاً له.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ فعل وفاعل، ومفعول به،

والجملة صلة الموصول، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الواو في ﴿يَخْشَوْنَ﴾، أو من ﴿رَبَّهُم﴾، ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم، ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿وَأَجْرٌ﴾ معطوف على مغفرة، ﴿كَبِيرٌ﴾ صفة ﴿أجر﴾، والجملة الاسمية في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ مستأنفة.

﴿وَأَسِرُّواْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿أسرّوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، ﴿قَوْلَكُمْ﴾ مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿أَوِ﴾ حرف عطف، ﴿ٱجْهَرُواْ﴾ فعل أمر، وفاعل، معطوف على أسرّوا، ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿اجهروا﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿عَلِيمٌۢ﴾ خبره، ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾، وجملة إنّ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بتساوي السرّ والجهر بالنسبة إلى علمه تعالى. ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، و﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل، ومفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ محذوف تقديره: سرّكم وجهركم، وجملة ﴿خَلَقَ﴾ صلة الموصول، ومفعول ﴿خَلَقَ﴾ محذوف أيضاً تقديره: ألا يعلم سرّكم وجهركم من خلقهما، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَهُوَ﴾ الواو حالية، ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ خبره، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ خبر ثانٍ له، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿ذَلُولًا﴾، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ مفعول أوّل لـ ﴿جَعَلَ﴾، ﴿ذَلُولًا﴾ مفعول ثان له، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿فَٱمْشُواْ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنَّ الله جعل لكم الأرض ذلولاً لتنتفعوا بها، وأردتم بيان كيفية الانتفاع بها.. فأقول لكم: ﴿امشوا في مناكبها﴾. ﴿امشوا﴾ فعل أمر، وفاعل، ﴿فِى مَنَاكِبِهَا﴾ متعلق بـ ﴿امشوا﴾، والجملة الفعلية في محل نصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدّرة مستأنفة. ﴿وَكُلُواْ﴾ فعل، وفاعل، معطوف على ﴿فَٱمْشُواْ﴾، ﴿مِن رِّزْقِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿كلوا﴾، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ خبر مقدم ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿كلوا﴾؛ أي: حالة كون نشوركم إليه، أو مستأنفة.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ

أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ءَأَمِنتُم﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿أَمِنتُم﴾ فعل، وفاعل، ﴿مَّن﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به، و﴿مَّن﴾ عبارة عن الله تعالى، ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ جار ومجرور صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ ناصب وفعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿بِكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿يَخْسِفَ﴾، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ مفعول به، والجملة في تأويل مصدر منصوب على أنّه بدل اشتمال من الموصولة؛ أي: أأمنتم خسفه بكم الأرض، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿فَإِذَا﴾ الفاء عاطفة، ﴿إذا﴾ حرف فجاءة، ﴿هِيَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَمُورُ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ على أنها بدل اشتمال؛ أي: أأمنتم خسفه بكم الأرض فمورها بكم. ﴿أَمْ﴾ عاطفة بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكاري، ﴿أَمِنتُم﴾ فعل وفاعل، ﴿مَّن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ صلة لـ ﴿مَّن﴾ الموصولة، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَأَمِنتُم﴾، وجملة ﴿أَن يُرْسِلَ﴾ في تأويل مصدر منصوب على أنّه بدل اشتمال مِنْ ﴿مَّن﴾ الموصولة؛ أي: أأمنتم إرساله عليكم حاصباً. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿يُرْسِلَ﴾، ﴿حَاصِبًا﴾ مفعول به، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ الفاء استئنافية، والسين حرف استقبال، ﴿تعلمون﴾ فعل وفاعل، مرفوع بالنون، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لبيان التخويف بعذاب الآخرة، ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم، ﴿نَذِيرِ﴾ مبتدأ مؤخّر مرفوع بضمّة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بكسرة المناسبة، وهو مضاف، وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب سادّة مسدّ مفعولي ﴿تعلمون﴾، وقد علّق عنها الفعل بالاستفهام.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾،

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، واللام موطئة للقسم، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ صلة الموصول، ﴿فَكَيْفَ﴾ الفاء عاطفة، ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل نصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿نَكِيرِ﴾ اسم كان مرفوع، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة،

وهو مضاف، والياء المحذوفة مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة القسم. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، داخلة على محذوف تقديره: أغفلوا ولم يروا. والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. والواو: عاطفة على تلك المحذوفة، ﴿لم يروا﴾ جازم وفعل وفاعل، معطوف على تلك المحذوفة، ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ متعلق بـ ﴿يروا﴾، ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ظرف متعلّق بصافات، و﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من الطير، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ الواو عاطفة، ﴿يقبضن﴾ فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون النسوة فاعل، ومفعول ﴿يقبضن﴾ و﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ محذوف تقديره: أجنحتهنّ، وجملة يقبضن في محل النصب على الحال، معطوفة على ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؛ أي: حالة كونهنّ صافّات أجنحتهنّ تارة وقابضات أجنحتهنّ أخرى. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾ فعل ومفعول به، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿بِكُلِّ شَىْءٍۭ﴾ متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾، و﴿بَصِيرٌ﴾ خبره، وجملة إنّ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمَّنْ﴾: أم حرف عطف بمعنى بل فقط، لا بمعنى بل وهمزة الاستفهام؛ لأنّ الاستفهام لا يدخل على الاستفهام، فهي منقطعة، ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من اسم الإشارة، أو نعت له، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿جُندٌ﴾ خبره، والجملة الاسمية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، ﴿لَّكُمْ﴾ صفة أولىٰ لـ﴿جُندٌ﴾ وجملة ﴿يَنصُرُكُم﴾ نعت ثان له أو حال منه، ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل ﴿يَنصُرُكُم﴾، ﴿إِنِ﴾ نافية مهملة، ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فِى غُرُورٍ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿أَمَّنْ﴾ أم منقطعة بمعنى بل فقط، عاطفة على ما تقدم، ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام مبتدأ، ﴿هَٰذَا﴾ خبره، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من اسم الإشارة، وجملة ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ صلة الموصول، ﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم، ﴿أَمْسَكَ﴾ فعل ماض في محل الجزم، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿رِزْقَهُۥ﴾ مفعول به، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله تقديره: إن أمسك الله

رزقه عنكم.. فمن يرزقكم من دونه، وجملة الشرط مستأنفة لا محل لها من الإعراب، ﴿بَل﴾ حرف عطف وإضراب على مقدر يستدعيه المقام تقديره: إنهم لم يتأثروا بذلك، ولم يذعنوا للحق بل لجّوا. ﴿لَّجُّواْ﴾ فعل ماض وفاعل، ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ متعلق به، ﴿وَنُفُورٍ﴾ معطوف على ﴿عُتُوٍّ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي المتضمن للإنكار، مقدمة على محلها للزومها الصدارة، وإلا فمحلها بعد الفاء، حتى لو كان بدل الهمزة هل لقيل: فهل من يمشي إلخ. والفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفت سوء حال المشركين وحسن حال المؤمنين، وأردت ضرب المثل لحال الفريقين.. فأقول لك: من يمشي. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ، وجملة ﴿يَمْشِي﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿مُكِبًّا﴾ حال من فاعل يمشي، ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ متعلق بـ﴿مُكِبًّا﴾، ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ خبر، ﴿أَمَّنْ﴾ ﴿أم﴾ حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام، ﴿مَنْ﴾ معطوف على ﴿مَنْ﴾ الأول، وجملة ﴿يَمْشِي﴾ صلتها، ﴿سَوِيًّا﴾ حال من فاعل ﴿يَمْشِي﴾، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَمْشِي﴾، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَنشَأَكُمْ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَجَعَلَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿أَنشَأَكُمْ﴾. ﴿لَكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿جعل﴾ إن كان بمعنى الخلق، أو في محل المفعول الثاني إن كان بمعنى التصيير، ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ مفعول به، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ معطوفان على ﴿ٱلسَّمْعَ﴾. ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: شكراً قليلاً، أو لزمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً. ﴿مَّا﴾ زائدة لتأكيد القلّة. ﴿تَشْكُرُونَ﴾

فعل وفاعل، والجملة في محل نصب حال مقدرة من ضمير ﴿لَكُمْ﴾. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على ﴿محمّد﴾، والجملة مستأنفة، ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿ذَرَأَكُمْ﴾. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿إليه﴾ متعلق بـ ﴿تُحْشَرُونَ﴾، و﴿تُحْشَرُونَ﴾ فعلٌ مضارعٌ، ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ذَرَأَكُمْ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ الواو استئنافية، ﴿يقولون﴾ فعلٌ، وفاعل مرفوع بالنون، والجملة مستأنفة ﴿مَتَىٰ﴾ ظرف زمان في محل نصب على الظرفية مبني على السكون، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ مؤخّر، ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ بدل منه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول؛ ﴿إِنْ﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص في محل جَزْمٍ بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، والتاء اسم كان، ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبرها، وجواب الشرط محذوفٌ تقديره: إن كنتم صادقين فيما تخبرونه من أمر القيامة والحشر. فبينوا وقته على وجه التحديد، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل نصب مقول القول. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، ﴿ٱلْعِلْمُ﴾ مبتدأ، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَإِنَّمَآ﴾ الواو عاطفة، ﴿إنّما﴾ أداة حصر، ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ، ﴿نَذِيرٌ﴾ خبره، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة لـ﴿نَذِيرٌ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها، ﴿فَلَمَّا﴾ الفاء: عاطفة على محذوف تقديره: وأتاهم الحشر والعذاب الموعود فرأوه فلما رأوه إلخ، ﴿لمّا﴾ اسم شرط غير جازم، ﴿رَأَوْهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول به، ورأى هنا بصرية تتعدى لمفعول واحد، ﴿زُلْفَةً﴾ حال من مفعول ﴿رَأَوْهُ﴾، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: ذا زلفة أو بتأويله بمشتقٍ؛ أي: مزدلفاً قريباً، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾ في محل جر بالإضافة، ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ﴾ نائب فاعل، ومضاف إليه، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على الجملة المحذوفة، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول. ﴿وَقِيلَ﴾ الواو عاطفة، ﴿قيل﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة،

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم﴾ إلخ، نائب فاعل محكيّ لـ ﴿قيل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿سِيٓـَٔتْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، ﴿ٱلَّذِى﴾ خبره، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قيل﴾، ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تَدَّعُونَ﴾، وجملة ﴿تَدَّعُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان صلة الموصول.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخيّ، ﴿رأيتم﴾ فعل، وفاعل، بمعنى أخبروني، والجملة الفعلية في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم ﴿أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ ﴿أهلك﴾ فعل ماض في محل جزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، والنون للوقاية، والياء مفعول به، ولفظ الجلالة فاعل ﴿وَمَن﴾، والواو عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب معطوف على الياء، ﴿مَّعِىَ﴾ ظرف متعلق بمحذوف، صلة من الموصولة، ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فلا فائدة لكم في ذلك ولا نفع يعود عليكم، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية سادّة مسدّ مفعولي ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾. ﴿فَمَن﴾ الفاء تعليلية، ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، والاستفهام إنكاري بمعنى النفي، ﴿يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾ متعلق بـ﴿يُجِيرُ﴾، ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة ﴿عَذَابٍ﴾، وجملة ﴿يُجِيرُ﴾ في محل رفع خبر ﴿مَنْ﴾ الاستفهامية، والجملة الاستفهامية جملة تعليلية مسوقة لتعليل الجواب المحذوف؛ أي: لا فائدة لكم في ذلك؛ لأنّه لا أحد ﴿يُجِيرُ﴾ الكافرين من عذاب أليم.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمرٍ، وفاعل مستتر والجملة مستأنفة ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل نصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنَّا﴾، والجملة خبر ثان لـ ﴿هُوَ﴾، ﴿وَعَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾، وجملة ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ معطوفة على ﴿ءَامَنَّا﴾، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب

شرط مقدر تقديره: إذا أبيتم عن الإيمان وأصررتم على الكفر، وأردتم معرفة من هو على الضلال منا ومنكم.. فأقول لكم ﴿ستعلمون﴾: السين حرف استقبال، ﴿تعلمون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ أول، ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المذكر الغائب في محل رفع مبتدأ ثان، ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة المبتدأ الثاني خبر للأول، وجملة الأول في محل النصب سادّة مسدّ مفعولي ﴿تعلمون﴾ المعلّقة بالاستفهام. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فعل، وفاعل، بمعنى أخبروني، والجملة في محل نصب مقول قل، ﴿إِنْ﴾ حرف شرط، ﴿أَصْبَحَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مَآؤُكُمْ﴾ اسمها، ﴿غَوْرًا﴾ خبرها، ﴿فَمَن﴾ الفاء رابطة الجواب وجوباً، ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، وجملة ﴿يَأْتِيكُم﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، ﴿بِمَآءٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَأْتِيكُم﴾، ﴿مَّعِينٍ﴾ صفة ﴿ماء﴾، وجملة إن الشرطية في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تَبَٰرَكَ﴾ تفاعل من البركة؛ وهي الزيادة والنماء حسّية أو معنوية. وقال بعضهم: البركة: كثرة الخير ودوامه، فنسبتها إلى الله تعالى باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته من فنون الخيرات؛ أي: تكاثر خير الذي بيده الملك، وتزايد نعمه وإحسانه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾. قال الراغب: البركة. ثبوت الخير الإلهيّ في الشيء. ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ والموت عند أهل السنة: صفة وجودية مضادة للحياة كالحرارة والبرودة، والحياة: صفة وجودية زائدة على نفس الذات مغايرة للعلم والقدرة مصحّحة لاتصاف الذات بهما.

﴿طِبَاقًا﴾ جمع طبقة كرحبة ورحاب، أو جمع طبق كجمل وجمال وجبل وجبال، وفي المصباح: وأصل الطبق الشيء على مقدار الشيء مطبقاً له من جميع جوانبه، وقيل: هو مصدر بمعنى الفاعل، يقال: طابقه طباقاً ومطابقة، وطباق الشيء مثل كتاب مطابقة بكسر الباء، وطابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو

واحد وألزقتهما، والباب يدل على وضع شيء مبسوط على مثله حتى يغطّيه، والمعنى: مطابقة بعضها فوق بعض وسماء فوق سماء.

﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ﴾ والإضافة فيه من إضافة المصدر إلى فاعله، والمفعول محذوفٌ تقديره: في خلق الرحمن لهن أو لغيرهن. ﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾ قال الراغب: التفاوت: الاختلاف في الأوصاف، كأنّه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف كلّ واحد منهما الآخر، وحكى أبو زيد: تفاوت الشيء تفاوتاً بضم الواو وفتحها وكسرها، والقياس هو الضم كالتقابل، والفتح والكسر شاذان. والتفاوت: عدم التناسب؛ لأن بعض الأجزاء يفوت الآخر.

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾؛ أي: ردّه إلى رؤية السماء. و﴿رَجَعَ﴾ يجيء لازماً ومتعدّياً يقال: رجع بنفسه رجوعاً، وهو العود إلى ما منه البدء، مكاناً أو فعلاً أو قولاً، بذاته كان رجوعه أو بجزء من أجزائه أو بفعل من أفعاله، ورجعه غير رجعاً؛ أي: رده وأعاده. ﴿مِن فُطُورٍ﴾ جمع فطر، كما في القاموس. وهو الشق، يقال: فطره فانفطر؛ أي: شقّه فانشقّ؛ والمعنى: من شقوق وصدوع لامتناع خرقها والتئامها. وفي المختار: والفطر: الشق، يقال: فطره فانفطر وتفطر الشيء: تشقق، وبابه نصر.

﴿كَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: رجعتين أخريين، والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما في لبيك، أي: أجبت لك إجابات كثيرة بعضها إثر بعض، وذلك لأنّ الكلال الآتي لا يقع بالمرّتين؛ أي: رجعة بعد رجعة وإن كثرت، وهو مصدر من كرَّ من باب ردَّ، يقال: كرّ على عدوّه بعد ما فرّ، كرّا وكرورا، والكرّة مرّة منه.

﴿خَاسِئًا﴾ اسم فاعل من خسَأ بمعنى تباعد وهرب، وفيه معنى الصغار والذلة، فإذا قيل: خَسَأَ الكلب خَسْأً فمعناه: تباعد من هوانه وخوفه كأنّه زجر وطرد عن مكانه الأول بالصغار، وخَسأ يجيء متعدّياً أيضاً يقال: خَسأت الكلب فخسأ؛ أي: باعدته وطردته وزجرته مستهيناً به فانزجر، وذلك إذا قيل له: اخسأ. قال الراغب: ومنه: خسأ البصر؛ أي: انقبض من مهانةٍ، وفي القاموس: الخاسيءُ من الكلاب والخنازير: المبعد لا يترك أن يدنو من الناس، ولا يكون ﴿خَاسِئًا﴾ في الآية من المتعدي إلا بأن يكون بمعنى المفعول؛ أي: مبعداً.

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾؛ أي: كليل، وهو فعيل بمعنى الفاعل من الحسور الذي هو الإعياء، وفي «المختار»: وحسر بصره: انقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك، فهو حسير ومحسور أيضاً، وبابه: جلس، وهو فعيل بمعنى فاعل من الحسور، وهو الإعياء.

﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ الياء فيه مبدلة من الألف في المفرد، لأنّه جمع مصباح لوقوعها بعد كسرة. ﴿رُجُومًا﴾ الرجوم: جمع رجم بالفتح، وهو مصدر سمّي به المفعول؛ أي: ما يرجم به ويرمى للطرد والزجر، ويجوز أن يكون باقياً على مصدريته، ويقدر مضاف؛ أي: ذات رجوم، وإنّما جمع المصدر باعتبار أنواعه أو جمع راجم، كسجود جمع ساجد.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: عذاب جهنم الموقدة المشعّلة، فالسعير فعيل بمعنى مفعول من سعرت النار إذا أوقدتها، ولذلك لم يؤت بالتاء في آخره مع أنّه اسم للدركة الرابعة من دركات النار السبع، وهي: جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية، ولكن كل من هذه الأسماء يطلق على الآخر، فيعبّر عن النار تارة بالسعير وتارة بجهنم وأخرى بآخر.

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ أصله: ألقيوا بوزن أفعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت ولما سكنت التقى ساكنان فحذفت الياء لذلك، وضمت القاف لمناسبة الواو. ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أصله: تفور بوزن تفعل، نقلت حركة الواو إلى الفاء فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مدّ. ﴿تَكَادُ﴾ أصله: تكود مضارع كود بكسر العين في الماضي وفتحها في المستقبل، نقلت حركة الواو إلى الكاف فسكنت، لكنّها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿تَمَيَّزُ﴾ أصله: تتميز حذفت منه إحدى التاءين كما تقدم.

﴿جَهَنَّمَ﴾؛ أي: الدركة النارية التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة، يقال: رجل جهم؛ أي: كالحٌ منقبض، وقال بعضهم: جهنم من الجهنام، وهي بئر بعيدة القعر. ﴿شَهِيقًا﴾؛ أي: صوتاً كصوت الحمير، وقيل: الشهيق في الصدر، والزفير في الحلق، أو شهيق الحمار آخر صوته، والزفير أوّله. وقيل: الشهيق رد النفس، والزفير إخراجه. ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ الفور: شدّة الغليان، ويقال ذلك في النار، وفي القدر

وفي الغضب، وفوارات الماء سميت تشبيهاً بغليان القدر، وفعلت كذا من فوري؛ أي: من غليان الحال، وفارة المسك تشبيهاً به في الهيئة كما في «المفردات». ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ والتميّز: الانقطاع والانفصال بين المتشابهات، والغيظ: أشد الغضب، يقال: يكاد فلان ينشقّ من غيظه إذا وصف بالإفراط في الغضب. ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ جمع خازن بمعنى الحافظ، والموكل بالشيء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أصله: يخشيون، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح فالتقى ساكنان: الألف والواو، فحذفت الألف. ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ﴾ أصله: أسرروا بوزن أفعلوا، نقلت حركة الراء الأولى إلى السين فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. ﴿ذَلُولًا﴾ هو فعول بمعنى مفعول؛ أي: مذلّلة مسخرة منقادة لما تريدون، يقال: دابة ذلول بينة الذل؛ أي: الانقياد. وهو ضد الصعوبة، وفي «القاموس»: الذل بمعنى ضد الصعوبة بالضم والكسر والذل بمعنى الهوان بالضم فقط، والذلول فعول بمعنى فاعل، ولذا عرى عن علامة التأنيث مع أن الأرض مؤنث سماعي.

﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أصل ﴿امشوا﴾ امشيوا بوزن افعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت للتخفيف ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، وضمّت الشين لمناسبة الواو ضمّاً عارضاً، ولذلك عند الابتداء به يبدأ بهمزة وصل مكسورة؛ لأن ضم الحرف الثالث عارض غير أصليّ، والعارض لا يعتد به في غالب الأحوال. ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ المناكب: جمع منكب، وهو مجتمع رأس الكتف والعضد، يقال: تشابهت منهم المناكب والرؤوس؛ أي: ليس فيهم مفضَّل، قال الراغب: المنكب: مجتمع ما بين العضد والكتف، ومنه: استعير للأرض في قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ كاستعارة الظهر لها في قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ انتهى، أو في جبالها وشبهت بالمناكب من حيث الارتفاع.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ يقال: نشر الله الميت نشراً: أحياه بعد موته، ونشر الميت بنفسه نشوراً فهو يتعدى ولا يتعدى كرجعه رجعاً ورجع بنفسه رجوعاً إلا أنّ الميت لا يحيى بنفسه بدون إحياء الله تعالى؛ إذ هو محال.

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ قال الجوهري: خسف المكان يخسف خسوفاً؛ ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسفاً: غاب به فيها. وفي «القاموس» أيضاً:

خسف الله بفلان الأرض: غيبه فيها. ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أصله: تمور بوزن تفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مدّ. قال في «القاموس»: المَوْر: الاضطراب والجريان على وجه الأرض والتحرك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ والطير يطلق على جنس الطائر، وهو كل ذي جناح يسبح في الهواء إما لكون جمعه في الأصل كركب وراكب أو مصدره جعل اسماً لجنسه، فباعتبار تكثره في المعنى وُصف بـ ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، وفي «المفردات»: إنه جمع طائر. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ والصف: أن يجعل الشيء على خط مستو كالناس والأشجار ونحو ذلك، كما مرّ. ﴿جُندٌ لَّكُمْ﴾ والجند: جمع معد للحرب.

﴿لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أصله: لججوا بجيمين بوزن فعلوا، أدغمت الجيم الأولى في الثانية. والعتو: التجاوز عن الحد، أصله: عتوو بوزن فعول بضم الفاء، أدغمت واو فعول في الواو لام الكلمة، والنفور: الفرار.

﴿مُكِبًّا﴾ اسم فاعل من أكب الرباعي، وأصله: مكبب، نقلت حركة الباء الأولى إلى الكاف فسكنت فأدغمت في الباء الثانية، والمكب: الساقط على وجهه، يقال: كببته فأكب وانكب، وقيل: هو الذي يكب رأسه فلا ينظر يميناً ولا شمالاً ولا أماماً، فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه، فهو اسم فاعل من أكب اللازم المطاوع لكبه، يقال: كبّه الله على وجهه في النار فأكبّ؛ أي: سقط، وهذا على خلاف القاعدة في أنّ الهمزة إذا دخلت على اللازم تصيّره متعدّياً وهذه قد دخلت على المتعدي فصيرته لازماً. ﴿سَوِيًّا﴾ أصله: سوييا بوزن فعيل، أدغمت ياء فعيل في الياء لام الكلمة.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ جمع فؤاد، قال في «القاموس»: من التفؤد، وهو التحرّك والتوقد، ومنه: الفؤاد للقلب مذكَّر، والجمع أفئدة انتهى. ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال في «القاموس»: ذرأ كـ ﴿جعل﴾: خلق، وذرأ الشيء: كثره، ومنه: الذرّيّة مثلثة لنسل الثقلين. ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من ساءه الشيء يسوؤه سوءاً ومساءة نقيض سره ثم بني للمفعول، وفي «القاموس»: ساءه فعل به ما يكره، فيكون متعدياً، ويجوز أن يكون لازماً بمعنى قبح، ومنه: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ وسيء إذا قبح. وأصل ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ سوىء بوزن فعل: مبني للمجهول، استثقل الانتقال من ضمة إلى

كسرة فنقلت كسرة الواو إلى السين فسكنت الواو إثر كسرة فقلبت ياءً، وهكذا كل فعل أجوف بني للمجهول، وكانت عينه واواً، وكذلك ما كانت عينه ياءً إلا أن هناك اختلافا يسيراً في التصريف. ﴿وَقِيلَ﴾ القول فيه كالقول في سِيْءَ.

﴿تَدَّعُونَ﴾ فيه إبدال تاء الافتعال دالا وإدغام الدّال فاء الكلمة فيها، فالأصل: تدتعيون، استثقلت الحركة على الياء فحذفت فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين وضمت العين لمناسبة الواو. ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وفي «القاموس»: أجاره إذا أنقذه وأعاذَهُ. ﴿غَوْرًا﴾ وهو مصدر وصف به؛ أي: غائراً في الأرض بالكلية ذاهباً ونازلاً فيها، يقال: غار الماء غوراً من باب قال إذا نضب، وفي المفردات: الغور: المنهبط من الأرض.

﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾؛ أي: ظاهر تتراءاه العيون، وأصله: معيون بوزن مفعول كمبيع أصله: مبيوع، فنقلت ضمة الياء إلى العين لتصح الياء، وقيل: هو من معن الماء؛ أي: كثر، فهو على هذا الاعتبار فعيل لا مفعول، والميم أصلية، أمّا على الأول فالميم زائدة؛ لأنّ الفعل عين. وصاحب القاموس يميل إلى الثاني، والراغب الأصفهاني إلى الأول.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: إسناد البركة إلى الموصول في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ للاستشهاد بما في حيّز الصلة على تحقّق مضمونها، والموصولات معارف، ولا شك أن المؤمنين يعرفونه بكون الملك بيده، وأمّا غيرهم فهم في حكم العارفين؛ لأنّ الأدلة القطعية لما دلت على ذلك كان في قوة المعلوم عند العاقل.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ وبين ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟﴾، وبين ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية التبعية في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾، حيث شبه حالهم في تكليفه تعالى إياهم بتكاليفه وخلق الموت والحياة لهم وإثابته لهم

وعقوبته بحال المختبر مع من جرَّبه واختبره، لينظر مدى طاعته أو عصيانه فيكرمه أو يهينه.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾؛ لأنّ مقتضى السياق أن يقال: في خلقه للإشعار بأنّه تعالى خلقها بقدرته القاهرة رحمةً وتفضلاً.

ومنها: زيادة ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ لتأكيد النفي. والمعنى: ما ترى فيه شيئاً من اختلاف واضطراب في الخلقة.

ومنها: الإطناب بتكرار الجملة مرتين زيادةً في التذكير والتنبيه في قوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾، ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، وكذلك قوله: ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

ومنها: تصدير الجملة بالقسم في قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾، حيث شبه الكواكب والنجوم بمصابيح، وحذف المشبه وأبقى المشبه به على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية؛ لأنَّ الناس يزينون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح، ولكنها مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءةً.

ومنها: تنكير ﴿مصابيح﴾ للتعظيم والتفخيم؛ أي: بكواكب مضيئة بالليل.

ومنها: إيراد الإلقاء في قوله: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ دون الإدخال إشعاراً بتحقيرهم وكون جهنم سفلية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿شَهِيقًا﴾، حيث شبه صوت جهنم بصوت الحمار، لأنّ الشهيق حقيقةٌ في صوت الحمار.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾، حيث شبه هيجان جهنم بغليان القدر وفورانها.

ومنها: الاستعارة المكنية التبعية في قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، حيث شبه جهنم في شدّة غليانها ولهبها بإنسان شديد الغيظ والحنق على عدوه يكاد يتقطع من

شدّة الغيظ، وحذف المشبّه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الغيظ الشديد، بطريق الاستعارة المكنية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، حيث شبه اشتعال النار بهم في قوة تأثيرها فيهم وإيصال الضرر إليهم باغتياظ المغتاظ على غيره المبالغ في إيصال الضرر إليه، فاستعير اسم الغيظ لذلك الاشتعال استعارةً تصريحية أصلية وفي هذه الآية أيضاً فنُّ حسن الإتباع فقد جرى الشعراء على نهجها، فولعوا بإسناد أفعال من يعقل إلى ما لا يعقل.

ومنها: الاستفهام الإنكاري، للتقريع والتوبيخ في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، قابله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وهي من المحسّنات البديعية.

ومنها: الجمع بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها، مبالغة في الاعتراف وتحسراً على فوت سعادة التصديق وتمهيداً لبيان التفريط الواقع منهم.

ومنها: جمع ضمير الخطاب في قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾ مع أنّ مخاطب كل فوج نذيره لتغليبه على أمثاله مبالغةً في التكذيب وتمادياً في التضليل كما ينبىء عنه تعميم المنزل في قوله: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ مع ترك ذكر المنزل عليه.

ومنها: تقديم السرّ على الجهر في قوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرون من أوّل الأمر، والمبالغة في بيان شمول علمه تعالى المحيط بجميع المعلومات، كأنّ علمه تعالى بما يسرّونه أقدم منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿ذَلُولًا﴾، شبّه الأرض المسخّرة للانتفاع بها بالدابّة المنقادة لراكبها بجامع السهولة في كلّ.

ومنها: استعارة المناكب للأرض في قوله: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾؛ لأنَّ المناكب جمع منكب حقيقة في الإنسان، فاستعير للجبال من الأرض بجامع الارتفاع في كلّ.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الخطاب إلى الغيبة، لإبراز الإعراض عنهم.

ومنها: الالتفات إلى الخِطاب في قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ للتشديد في تبكيتهم وتعجيزهم.

ومنها: إيثار الرحمن في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ للدلالة على أنَّ رحمة الله هي المنجية من غضبه لا غير.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ للدلالة على عظمه وفحشه لكونه من جهة الشيطان.

ومنها: الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿يَنصُرُكُم﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنّ الاسم الظاهر من قبيل الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم بالإعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم، وفيه أيضاً الإظهار في مقام الإضمار لذمّهم بالكفر وتعليل غرورهم به؛ لأنّ مقتضى السياق أن يقال: إنْ هم إلا في غرور.

ومنها: تخصيص الثلاثة المذكورة في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ بالذكر؛ لأنّ العلوم والمعارف بها تحصل كما مرّ.

ومنها: اختيار لفظ المضارع على الماضي في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ إمّا لأنّ المقصود بيان ما يوجد من الكفّار من هذا القول في المستقبل، وإمّا لأنّ المعنى: وكانوا يقولون.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾، حيث مثل للمؤمن والكافر. فالكافر أعمى لا يهتدي إلى الطريق بل يمشي متعسفاً فلا يزال يعثر وينكب على وجهه، والمؤمن صحيح البصر يمشي في طريق واضحة مستقيمة سالماً من العثور والخرور على وجهه، وهكذا تتجلى طريقة القرآن في التجسد.

ومنها: تخصيص الوجوه في قوله: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لكون الوجه هو الذي يظهر عليه أثر المسرَّة والمساءة.

ومنها: وضع الموصول فيه موضع ضميرهم لذمّهم بالكفر وتعليل المساءة به.

ومنها: إيراد صيغة المجهول في قوله: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ لكون المراد بيان القول لا بيان القائل.

ومنها: وضع الكافرين موضع ضميرهم في قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ للتسجيل عليهم بالكفر وتعليل نفي الإنجاء به.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ لأنّ تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر.

ومنها: تكرير الأمر بـ ﴿قُلْ﴾ في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ...﴾ إلخ، وفي قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ...﴾ إلخ، لتأكيد المقول وتنشيط المقول له.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١ ـ وصف السموات.

٢ ـ بيان أنّ نظام العالم لا عِوَج فيه ولا اختلاف.

٣ ـ وصف عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة.

٤ ـ التذكير بخلق الإنسان ورزقه وأشباه ذلك[١].

والله أعلم

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الملك، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين. في الليلة الرابعة عشرة قبيل صلاة العشاء من شهر صفر من شهور سنة ألفٍ وأربع مئة وستّ عشرة (١٤/ ٢/ ١٤١٦) من الهجرة الشريفة، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة ن

سورة القلم، وتسمّى سورة نَ: مكيّة[1] في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر. ورُوي عن ابن عباس وقتادة: أنّ من أولها إلى قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ مكيّ، وبعدِ ذلك إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مدنيّ، وباقيها مكيّ أيضاً، كذا قال الماورديّ.

وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورةٍ بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما نزل من القرآن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، ثم ﴿نٓ﴾ ثمّ ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ثم ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. وأخرج النحّاس وابن مردويه، والبيهقي عنه قال: نزلت سورة ﴿نٓ﴾بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله.

وآيها: اثنتان وخمسون آيةً، وكلماتها: ثلاث مئة كلمة، وحروفها: ألف ومئتان وستة وخمسون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ أنه ذكر في آخر الملك تهديد المشركين بتغوير مائهم في الأرض، وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك. وهو ثمر البستان الذي طاف عليه طائف، فأهلكه وأهلك أهله وهم نائمون.

٢ ـ أنه ذكر فيما قبل أحوال السعداء والأشقياء، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع، وأنه لو شاء. . لخسف بهم الأرض أو أرسل عليهم حاصباً. وكان ما أخبر به هو ما أوحى به إلى رسوله وكان المشركون ينسبونه في ذلك مرّةً إلى الشعر وأخرى إلى السحر وثالثة إلى الجنون، فبرّأهُ الله في هذه السورة مما نسبوه إليه، وأعظم أجره على صبره على أذاهم، وأثنى على خلقه.

وعبارة أبي حيّان[3]: مناسبتها لما قبلها: أنّه سبحانه ذكر فيما قبلها أشياء من

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

أحوال السعداء والأشقياء، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع، وأنّه تعالى لو شاء.. لخسف بهم أو لأرسل عليهم حاصباً. وكان ما أخبر تعالى به هو ما تلقفه رسول الله ﷺ بالوحْي، وكان الكفّار ينسبونه مرّةً إلى الشعر ومرّة إلى السحر ومرّة إلى الجنون. فبدأ سبحانه وتعالى هذه السورة ببراءته مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون وتعظيم أجره على صبره على أذاهم، وبالثناء على خلقه العظيم. انتهى.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة ﴿نٓ﴾ محكم كلّها إلا آيتين:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ نسخت بآية السيف.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ . . .﴾ الآية، نسخت أيضاً بآية السيف.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم قريباً بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، وقد بدأ سبحانه هذه السورة بأنّه أقسم بالقلم، وما يسطر به من الكتب، إنّ محمّداً الذي أنعم عليه بنعمة

النبوة، ليس بالمجنون كما تدّعون، وكيف يكون مجنوناً والكتب والأقلام أعدّت لكتابة ما ينزل عليه من الوحي؟. وقد أقسم سبحانه بالقلم والكتب فتحاً لباب التعليم بهما، ولا يقسم ربّنا إلا بالأمور العظام، فإذا أقسم بالشمس والقمر والليل والفجر، فإنّما ذلك لعظمة الخلق وجمال الصنع، وإذا أقسم بالقلم والكتب فإنما ذاك ليعم العلم والعرفان، وبه تتهذّب النفوس، وترقى شؤوننا الاجتماعية والعمرانية، ونكون كما وصف الله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثم وعد رسوله بما سيكون له من جزيل الأجر على صبره على احتمال أذى المشركين، وأردف هذا بوصفه بحسن الخلق ورفقه بالناس امتثالاً لأمره ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن.

ثم هدد المشركين وتوعدهم بما سيَتَبَيَّنُ لهم من عاقبة أمره وأمرهم، وأنّه سيكون العزيز المهيب في القلوب وسيكونون الأذلاء، وأنه سيستولي عليهم ويأسر فريقاً منهم ويقتل آخر، وسيعلمون حينئذٍ من المجنون، والله هو العليم بالمجانين الذين ضلوا عن سبيله، والعقلاء الذين اهتدوا بهديه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر مقالة المشركين في الرسول بنسبته إلى الجنون مع ما أنعم الله به عليه من الكمال في الدين والخلق، أردفه بما يقوّي قلبه ويدعوه إلى التشدد مع قومه مع قلة العدد، وكثرة الكفار؛ إذ هذه السورة من أوائل ما نزل كما مرّ، فنهاهم عن طاعتهم عامةً. ثم أعاد النهي عن طاعة المكذبين الذين اتصفوا بالأخلاق الذميمة التي ذكرت في هذه الآيات خاصة دلالة على قبح سيرتهم، وضعة نفوسهم وتدسيتهم لها بعظيم الذنوب والآثام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف أن ذا المال والبنين كفر وعصى وتمرّد لما آتاه الله من النعم أردف هذا ببيان أنّ ما أوتيه إنما كان ابتلاء وامتحاناً، ليرى أيصرف ذلك في طاعة الله وشكره، فيزيد له في النعمة أم يكفر بها، فيقطعها عنه ويصبّ عليه ألوان البلاء والعذاب، كما أنّ أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعاصي دمَّر الله جنتهم، فما بالك بمن حاد الله ورسوله وأصر على الكفر والمعصية؟.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوه، وخالفوا أمره، أعقب هذا ببيان أن لمن اتقاه وأطاعه جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفنى في الدار الآخرة، ثم رد على من قال من الكفار: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد وأصحابه لم يفضلونا، بل نكون أحسن منهم حالاً؛ لأن من أحسن إلينا في الدنيا يحسن إلينا في الآخرة بأنكم كيف تسوون بين المطيع والعاصي فضلاً أن تفضلوا العاصي عليه؟.

ثم أخذ يقطع عليهم الحجة فقال: أتلقيتم كتاباً من السماء، فقرأتم فيه أنكم تختارون ما تشاؤون، وتكونون وأنتم مجرمون كالمسلمين الصالحين؟ أم أعطيناكم عهوداً أكّدناها بالإيمان فاستوثقتم بها، هي ثابتة لكم إلى يوم القيامة؟ أم لكم أناس يذهبون مذهبكم في هذا القول. وإن صح أن لكم ذلك فلتأتوا بهم يوم يشتد الأمر، ويصعب الخطب، وتدعونهم حينئذٍ إلى السجود فلا يستطيعون، وتكون أبصارهم خاشعة ذليلة وقد كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود وهم سالمون أصحاء، فيأبون كل الإباء.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا خوف الكفّار من هول يوم القيامة، خوفهم مما في قدرته من القهر، فقال لرسوله ﷺ مؤنباً لهم وموبخاً: خل بيني وبين من يكذب بهذا القرآن، فإني عالم بما ينبغي أن أفعل بهم، فلا تشغل قلبك بهم وتوكل عليَّ في الانتقام منهم،إنا سندنيهم من العذاب درجةً فدرجةً، ونورطهم فيه بما نوليهم من النعم، ونرزقهم من الصحة والعافية فتزداد معاصيهم من حيث لا يشعرون، فكلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها. ثم قال لرسوله: ماذا ينقمون منك؟ أأنت تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة يثقل عليهم فامتنعوا عن إجابة دعوتك؟ أم عندهم علم الغيب المكتوب في اللوح المحفوظ، فهم يكتبون منه ما يحكمون به؟ كلاً، لا هذا ولا ذاك، إذاً فالقوم معاندون فلم يبق إلا أن تصبر لحكم ربك، وقد حكم بإمهالهم، وتأخير نصرتك، وهم إن أمهلوا فلن يهملوا.

ثم نهى رسوله أن يكون كيونس عليه السلام حين غضب على قومه، فارقهم ونزل في السفينة، فابتلعه الحوت، ودعا ربه وقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهو مملوء غيظاً وحنقاً. ثم أخبر رسوله بأن الكافرين ينظرون إليه شزراً حين يسمعون منه القرآن، ويقولون حسداً على ما آتاه الله من النبوة: إنك لمجنون تنفيراً منه ومن دعوته. وما القرآن إلاّ عظة للجنّ والإنس جميعاً لا يفهمها إلا من كان أهلاً لها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ سبب نزوله[1]: ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: إنه مجنون ثم شيطان، فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾ سبب نزوله: ما أخرجه أبو نعيم في الدلائل، والواحدي بسند رواه عن عائشة قالت: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته، إلا قال: لبيك، فلذلك أنزل الله سبحانه هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ سبب نزوله: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدّي قال: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق، وأخرج ابن المنذر عن الكلبيّ مثله، وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نزلت في الأسود بن عبد يغوث، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت على النبيّ ﷺ ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١﴾ فلم نعرفه حتى نزل بعد ذلك ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ سبب نزوله: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن جريج أنّ أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً فاربطوهم في الحال، ولا تقتلوا منهم أحداً، فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ ...﴾ يقول في قدرتهم عليهم كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة.

---

(١) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿نٓ﴾؛ أي: هذه السورة[1] نون أو بحق ﴿نٓ﴾، وهي هذه السورة أقسم الله بها على سبيل التأكيد في إثبات الحكم الآتي على ما عليه عادة الخلق مع ما فيه من بيان شأن المقسم به، وإلا فكما أنه تعالى لا يليق القسم بشأنه العالي فكذا لا يصح لغيره أن يكون مقسماً به.

واختلف في معنى النون. قيل: إنه اسم لهذه السورة، وقيل: إنه مقتطع من اسمه تعالى الرحمن أو النصير أو الناصر أو النور، وقيل: اسم للحوت الذي جعل الله على ظهره الأرض، وقيل: المراد به الدواة التي يكتب بها، وقيل: اسم للقرآن. والأرجح كما مر غير مرة أنه من المتشابه الذي اختص الله بعلمه كسائر حروف الهجاء التي افتتح بها كثير من السور. وفي المراغي: إنَّ أرجح الآراء في معنى الحروف المقطعة التي وقعت في أوائل السور أنها حروف تنبيه، نحو: ألا وأما. وقرأ الجمهور أبو بكر، وورش، وابن عامر، والكسائي، وابن محيصن، وابن هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها في واو ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ بغنّة، وقوم بغير غنّة. وقرأ الباقون[2]: حمزة، وأبو عمرو، وابن كثير، وقالون، وحفص بالإظهار. وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحاق، والحسن، وأبو السمال، ونصر بكسر النون لالتقاء الساكنين، أو بإضمار حرف قسم.

وقرأ سعيد بن جبير، وعيسى بخلاف عنه بفتحها، فاحتمل أن تكون حركة إعراب بإضمار فعل. وقرأ محمّد بن السميفع وهارون بضمّها على البناء.

والواو في قوله: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ واو القسم، أقسم الله سبحانه بالقلم لما فيه من البيان، وهو واقع على كلّ قلم يكتب به. وقال جماعة من المفسرين: المراد به القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ، أقسم الله به تعظيماً له.

وفي «الخطيب»: تنبيه: في القلم المقسم به قولان:

أحدهما: أنَّ المراد به جنس القلم الشامل للأقلام التي يكتب بها في الأرض والسماء. قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾، لأنه ينتفع به كما

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

ينتفع بالمنطق قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾، فالقلم يبينك ما يبين اللسان في المخاطبة بالمكاتبة للغائب والحاضر، ولهذا قيل: القلم أحد اللسانين.

والثاني: أنه القلم الذي جاء في الخبر عن ابن عباس: «أول ما خلق الله القلم ثم قال له: اكتب، قال: ما أكتب، قال: اكتب ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: ثم ختم فم القلم فلم ينطق، ولا ينطق إلى يوم القيامة، وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض». وروى مجاهد: أول ما خلق الله تعالى القلم، قال: اكتب المقادير، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، وما يجري بين الناس، فهو أمر قد فرغ منه انتهى.

وقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ معطوف على القلم، و﴿ما﴾ موصول اسميّ، والواو عائد على أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره، لأنَّ ذكر آلة الكتابة يدل على الكاتب.

والمعنى: وبالكتاب الذي يسطره الكاتبون من الملائكة وغيرهم؛ أي: وبما تكتبه الملائكة في صحفهم التي يكتبون فيها المقادير التي تقع في العالم ينتسخون ذلك من اللوح المحفوظ، أو المراد به ما تكتبه الحفظة الموكلون ببني آدم من أعمالهم، كذا في القرطبي. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: وبسطرهم وكتابتهم. فأقسم أوّلاً بالقلم، ثم بسطر الملائكة أو بمسطورهم، فالمقسم به شيئان على ثلاثة أشياء: نفي الجنون عنه، وثبوت الأجر له، وكونه على دين الإسلام اهـ شيخنا.

والمعنى: أقسم بالقلم وبما يكتب به من الكتب. قال الزمخشري: ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه، ويكون الضمير في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ لهم، كأنّه قيل: أقسم بأصحاب القلم ومسطوراتهم أو تسطيرهم انتهى. فيكون كقوله تعالى: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾؛ أي: وكذا ظلمات، ولهذا عاد عليه الضمير في قوله: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾. وقيل: إن الضمير في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة وإجرائها مجرى العقلاء. كأنّه قيل: أقسم بالقلم وما يسطره القلم. والسطر: الصفّ

من الكتابة، ومن الشجر المغروس، ومن القوم الوقوف. وسطر فلان كذا؛ أي: كتبه سطراً سطراً. وعن بعض الحكماء[1]: قوام أمور الدين والدنيا بشيئين: القلم والسيف، والسيف تحت القلم لولا القلم ما قام دين ولا صلح عيش. قال بعضهم:

إن يَخْدُمِ ٱلْقَلَمُ ٱلسَّيْفَ ٱلَّذِيْ خَضَعَتْ ... لَـهُ الـرِّقَـابُ وَدَانَـتْ خَـوْفَـهُ ٱلأُمَـمُ

كَـذَا قَـضَـىٰ الـلَّـهُ لـلأقْـلَامِ مُـذْ بُـرِيَـتْ ... أنَّ ٱلـسُّـيُـوفَ لَـهَـا مُـذ أُرْهِـفَـتْ خَـدَمُ

وقال بعضهم:

إِذَا أَقْـسَـمَ ٱلأَبْـطَـالُ يَـوْمـاً بِـسَـيْـفِـهِـمْ ... وَعَـدُّوهُ مِـمَّـا يَـجْـلِـبُ ٱلْـمَـجْـدَ وَٱلْـكَـرَمْ

كَـفَـىٰ قَـلَـمَ ٱلْـكُـتَّـابِ فَـخْـراً وَرِفْـعَـةً ... مَـدَىٰ ٱلـدَّهْـرِ أنَّ الله أَقْـسَـمَ بِـٱلْـقَـلَـمْ

وجواب القسم قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ ﴿مَآ﴾ نافية، و﴿أَنتَ﴾ اسمها، و﴿بِمَجۡنُونٖ﴾ خبرها، والباء: في ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ متعلقة بمحذوف هو حال من الضمير في خبر ﴿مَآ﴾ وهو ﴿مجنون﴾، والعامل فيها معنى النفي، كأنّه قيل: انتفى عنك الجنون يا محمد، وأنت بريء منه متلبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرياسة العامة. والمراد تنزيهه عليه السلام عما كانوا ينسبونه إليه ﷺ من الجنون حسداً وعداوةً ومكابرةً مع جزمهم بأنه ﷺ في غاية الغايات من حصافة العقل، ورزانة الرأي، والجنون حائل بين النفس والعقل، كما سيأتي.

قال أبو حيّان[2]: قوله: ﴿بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ قسم اعترض به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التأكيد، والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميم عنه ﷺ، وذهب إلى القسم أيضاً الشيخ نجم الدين في «تأويلاته». والمعنى؛ أي: وما أنت ونعمة ربك بمجنون. وقيل: النعمة هنا الرحمة، والآية رد على الكفار حيث قالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾.

ومعنى الآية: أنك لست بالمجنون كما يزعمون، فقد أنعم الله عليك بالنبوة وحصافة العقل وحسن الخلق.

ثم بين بعض نعمه عليه، فقال:

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

١ ـ ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا محمد بمقابلة مقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم وتحملك لأعباء الرسالة ﴿لَأَجْرًا﴾؛ أي: لثواباً عظيماً. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ولا منقوص مع عظمه، كقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. ومنه قيل: المنون للمنيَّة؛ لأنها تنقص العدد، وتقطع المدد، يقال: مننت الحبل إذا قطعته. وقال مجاهد: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير محسوب. وقال الحسن: غير مكدَّر بالمن. وقال الضحاك: أجراً بغير عمل. وقيل: غير مقدر، وقيل: غير ممنون به عليك من جهة الناس. ويقال: أجر النبي مثل أجر الأمة قاطبة غير منقوص. وقال بعضهم: أجره قبول شفاعته، وهي غير منقطعة عن أهل الكبائر من أمّته، لا يخيب الله رجاءه ﷺ في غفرانهم جميعاً بلا عتاب ولا عذاب.

والمعنى: أي وإنّ لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على الأذى ومقاساة الشدائد.

٢ ـ ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: إنك على طبع كريم. قال الماوردي: وهذا هو الظاهر. وحقيقة الخلق في اللغة: ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب؛ أي: خلقت على خلق عظيم لا يدرك شأوه أحد من الخلق، ولذلك تحتمل من جهتهم ما لا يكاد يحتمله البشر. قال بعضهم: لكونك متخلقاً بأخلاق الله وأخلاق كلامه القديم ومتأيّداً بالتأييد القدسي، فلا تتأثر بافترائهم، ولا تتأذى بأذاهم، إذ بالله تصبر لا بنفسك، كما قال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، ولا أحد أصبر من الله. وكلمة ﴿على﴾ للاستعلاء فدلت على أنه ﷺ مشتمل على الأخلاق الحميدة، ومستول على الأفعال المرضية حتى صارت بمنزلة الأمور الطبيعية له، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾؛ أي: لست متكلفاً فيما يظهر لكم من أخلاقي، لأنّ المتكلف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إليه الطبع. وقد ثبت في «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها: أنها سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن، أرادت به أنه ﷺ كان متحلياً بما في القرآن من مكارم الأخلاق ومحاسن الأوصاف، ومتخلّياً عما يزجر عنه من السيئات وسفاسف الخصال. وقد جمع الله سبحانه وتعالى فيه ما كان متفرّقاً في غيره من الأنبياء، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾. فهذه درجة عالية لم يتيسر لأحد من الأنبياء عليهم السلام، فلا جرم وقد وصفه الله تعالى بكونه على خلق

عظيم، كما قال بعضهم:

لِكُلِّ نَبِيٍّ فِي ٱلأَنَامِ فَضِيْلَةٌ   وَجُمْلَتُهَا مَجْمُوْعَةٌ لِمُحَمَّدِ

وهذه الجملة والتي قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم.

والمعنى: وإنَّك يا محمد قد بَرأك الله سبحانه وتعالى على الحياءِ والكرم، والشجاعة والصفح، والحلم، وكل خلق كريم. روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفّ قطّ، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته». وروى أحمد عن عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قطّ، ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قطّ، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين شيئين قطّ إلا كان أحبهما إليه أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلاّ أن تنتهك حرمات الله فينتقم له.

وفي الآية: رمز إلى أنّ الأخلاق الحسنة لا تكون مع الجنون، وكلما كان الإنسان أحسن أخلاقاً كان أبعد من الجنون.

ثم توعدهم بما يحل بهم من النكال، والوبال في الدنيا والآخرة فقال: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ يا محمد ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ أي[1]: ويبصر الكفّار إذا تبيّن الحقّ وانكشف الغطاء، وذلك يوم القيامة. يقال: أبصرته وبصرت به: علمته وأدركته، فالمعنى: فستعلم يا محمد، ويعلمون يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل.

وقال الفاشاني: فستبصر ويبصرون عند كشف الغطاء بالموت. وقال قتادة: هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر، والمعنى: سترى ويرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيّكم المفتون. وهذا هو الأوضح. ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾؛ أي: أيّكم الذي ابتلي بفتنة الجنون. ﴿فأيّكم﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ بمعنى المجنون خبره، والباء مزيدة في المبتدأ كما في بحسبك درهم. وقيل: الباء: ليست زائدة، والمفتون مصدر بمعنى الفتون، وهو الجنون، جاء على وزن مفعول كالمعقول والميسور والمجلود بمعنى العقل كما في قوله:

---

(١) روح البيان.

حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَتْرُكُوْا لِعِظَامِهِ   لَحْمَاً وَلاَ لِفُؤَادِهِ مَعْقُولاً

أي: عقلاً. والجلادة واليسر. وعلى هذا الباء إما للإلصاق نحو قولهم: به داء؛ أي: بأيّ الفريقين منكم المجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين؛ وقال الفرّاء: إنَّ الباء بمعنى في، والمفتون بمعنى المجنون مبتدأ مؤخّر. أي: في أيّكم المفتون أفي الفريق الذي أنت فيه أم في الفريق الآخر؟. ويؤيد هذا قراءة ابن أبي عبلة ﴿في أيكم المفتون﴾. وقال الأخفش: الكلام على حذف مضاف؛ أي: بأيكم فتن المفتون، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: المفتون: المعذب من قول العرب: فتنت الذهب بالنار إذا أحميته، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾. وقيل: المفتون هو الشيطان، لأنّه مفتون في دينه، والمعنى: بأيّكم المفتون، والأمة داخلة في خطاب ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ بالتبعية، لا يختص به ﷺ، وهو تعريض لصناديد قريش كأبي جهل وأضرابه.

والمعنى[1]: فستعلم أيها الرسول وسيعلم مكذّبوك من المفتون الضال منكم ومنهم؟. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: أصالح عليه السلام أم قومه؟ وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

والخلاصة: ستبصر ويبصرون غلبة الإسلام واستيلاءك عليهم بالقتل والأسر، وهيبتك في أعين الناس أجمعين، وصيرورتهم أذلاء صاغرين. وهذا يشمل ما كان في بدر وغيرها من الوقائع التي كان فيها النصر المبين للمؤمنين، والخزي والهوان وذهاب صولة المشركين مما كان عبرة ومثلاً للآخرين.

ثم أكد ما تضمنه الكلام السابق من الوعد والوعيد، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ...﴾ إلخ. وهذه الجملة تعليل للجملة التي قبلها، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم في العاجل والآجل، واختيارهم ما فيه ضررهم فيهما.

والمعنى: أي إنّ ربك يا محمد هو وحده أعلم ﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ سبحانه الذي هو التوحيد الموصل إلى سعادة الدارين، وهام في تيه الضلال متوجهاً

---

(١) المراغي.

إلى ما يفضيه إلى الشقاوة الأبدية. وهذا هو المجنون الذي لا يفرق بين النفع والضر، بل يحسب الضر نفعا فيؤثره والنفع ضرّاً فيهجره. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى سبيله الموصلة إلى السعادة العاجلة والآجلة، الفائزين بكل مطلوب الناجين من كلّ محذور. وهم العقلاء المراجيح، فيجزي كلّاً من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب والثواب، وإعادة ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ لزيادة التقرير. وفي[1] الآية إشعار بأنّ المجنون في الحقيقة هو العاصي لا المطيع.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما تقدم لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: لا تطع المكذبين؛ أي: دم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم فيما يدعونك إليه من الكفّ عنهم ليكفّوا عنك، وتصلب في ذلك. نهاه سبحانه عن ممايلة المشركين، وهم رؤساء كفار مكة؛ لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائهم، فنهاه الله عن طاعتهم. أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفّار. أو المراد بالطاعة مجرّد المداراة بإظهار خلاف ما في الضمير. فنهاه الله عن ذلك، كما يدل عليه قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾؛ أي: أحبوا لو تلاينهم وتسامحهم في بعض الأمور وترك الدعوة إلى الله سبحانه ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾؛ أي: فهم يداهنونك حينئذٍ ويلاينونك، ويسامحونك بترك الطعن في دينك، وترك رميك بالجنون والكهانة والسحر، فإنّ الإدهان هو الملاينة والمسامحة والمداراة، كذا قال الفرّاء والكلبي. وقال الضحاك والسدّي: ودّوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر. وقال الربيع بن أنس: ودّوا لو تكذب فيكذبون. وقال قتادة: ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك. وقال الحسن[2]: ودّوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك. وقال مجاهد: ودّوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحقّ فيما يلونك. قال ابن قتيبة: كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدّة، ويعبدوا الله مدة. و﴿لو﴾ مصدرية؛ أي: ودّوا ادهانك فهم الآن يدهنون لطمعهم في إدهانك. والفاء في ﴿يدهنون﴾ للعطف على ﴿تُدْهِنُ﴾، فيكون ﴿يدهنون﴾ داخلاً في حيّز ﴿لو﴾، ولذا لم ينصب ﴿يدهنون﴾ بسقوط النون جواباً للتمنّي. قال سيبويه: وزعم قالون أنّها في بعض المصاحف ﴿ودّوا لو تدهن

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

فيدهنوا﴾ بدون نون، والنصب على جواب التمنّي المفهوم من ﴿وَدُّواْ﴾.

وقال بعضهم: المعنى[1]: لا توافقهم في الظاهر كما لا توافقهم في الباطن. قال: موافقة الظاهر أثر موافقة الباطن وكذا المخالفة، وإلا كان نفاقاً سريع الزوال ومصانعة وشيكة الانقضاء، وأما هم فلانهماكهم في الرذائل وتعمقهم في التلون والاختلاف لتشعب أهوائهم، وتفرق أمانيهم يصانعون، ويضمون تلك الرذيلة إلى رذيلتهم طمعاً في مداهنتك معهم، ومصانعتك إيّاهم. قال بعضهم[2]: المداهنة يبيع الدين بالدنيا فهي من السيئات، والمداراة يبيع الدنيا بالدين فهي من الحسنات. ويقال: الإدهان: الملاينة لمن لا ينبغي له ذلك، وهو لا ينافي الأمر بالمداراة كما قال ﷺ: «أمرت بمداراة الناس كما أمرت بالتبليغ». وفرّق الإمام الغزالي بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء. فإن أغضيت لسلامة دينك، ولِمَا ترى فيه من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لنبشّ في وجوه أقوامٍ وإنّ قلوبنا لتلعنهم. وهذا معنى المداراة، وهو مع من يخاف شره.

ومعنى الآية: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾؛ أي: دم على ما أنت عليه من عدم طاعة المكذّبين عامّةً، وتشدد في ذلك. وفي هذا النهي إيماء إلى النهي عن مداراتهم، ومداهنتهم استجلاباً لقلوبهم وجذباً لهم إلى اتباعه. ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾؛ أي: ودَّ المشركون لو تلين لهم في دينك بالركون إلى آلهتهم فيلينون لك في عبادة إلهك. روى: أنَّ رؤساء مكة دعوه إلى دين آبائه، فنهاه عن طاعتهم.

وخلاصة ذلك[3]: ودّوا لو تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلون مثل ذلك، ويتركون بعض ما لا ترضى، فتلين لهم ويلينون لك، وترك بعض الدين أو كله كفر بواح. والمراد من هذا النهي التهييج والتشدّد في المخالفة، والتصميم على معاداتهم. ونحو الآية قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

ثم خص من هؤلاء المكذبين أصنافاً هانت عليهم نفوسهم، فأفسدوا فطرتها تشهيراً بهم، فقال:

١ ـ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾؛ أي: ولا تطع يا محمد المكثار من الحلف في الحق، وفي الباطل لجهله حرمة اليمين وعدم مبالاته من الحنث لسوء عقيدته، الكاذب الذي يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترىء بها على الله ضعفه ومهانته أمام الحق، وتقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخل في الزجر. قال في «الكشاف»: وكفى به مزجرةً لمن اعتاد الحلف، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ انتهى. ودخل[1] فيه الحلف بغير الله تعالى، فإنه من الكبائر. وأصل الحلف: اليمين الذي يأخذ بعضهم من بعض بها الحلف؛ أي: العهد. ثم عبر بها عن كل يمين.

٢ ـ ﴿مَّهِينٍ﴾ فعيل من المهانة، وهي القلّة والحقارة؛ أي: حقير الرأي والتدبير؛ لأنَّه لا يعرف عظمة الله سبحانه، ولذا أقدم على كثرة الحلف. ويجوز أن يراد به الكذّاب؛ لأنّه حقير عند الناس. والكذب أس كل شر ومصدر كل معصية.

٣ ـ ﴿هَمَّازٍ﴾؛ أي؛ عياب طعان مغتاب للناس، وهو مبالغة هامز من الهمز، وهو الضرب والطعن والكسر والعيب، فاستعير للمغتاب الذي يذكر الناس بالمكروه ويظهر عيوبهم ويكسر أعراضهم، كأنّه يضربهم بأذاه إيَّاهم. وقيل[2]: الهمَّاز الذي يذكر الناس في وجوههم، واللماز الذي يذكرهم في مغيبهم، كذا قال أبو العالية والحسن، وعطاء بن أبي رباح. وقال مقاتل عكس هذا. قال الحسن: يلوي شدقيه في أقفية الناس. وفي الحديث: «لا يكون المؤمن طعّاناً ولا لعّاناً، وفي حديث آخر: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس». يعني: من ينظر إلى عيب نفسه، فيكون ذلك مانعاً له عن النظر إلى عيب غيره وتعييبه به، وذلك لا يقتضي أن لا ينهى العاصي عن معصيته اقتداءً بأمر الله تعالى بالنهي عن المنكر لا إعجاباً بنفسه وازدراء لقدر غيره عند الله تعالى.

٤ ـ ﴿مَّشَّآءٍ﴾ أي: ساع بين الناس ﴿بِنَمِيمٍ﴾؛ أي: بنميمة. والنميم كالنميمة:

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

نقل كلام الناس من بعضهم إلى بعض على وجه الإفساد، وهو من الكبائر. ومنه: قول الشاعر:

وَمَولَى كَبَيْتِ ٱلنَّمْلِ لاَ خَيْرَ عِنْدَهُ ... لِمَوْلاَهُ إلاَّ سَعْيُهُ بِنَمِيْمِ

والمعنى: أي نقّال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم. أمّا[1] نقل الكلام بقصد النصيحة فواجب كقول من قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾. وفي الحديث: «لا يدخل الجنة نمام».

٥ ـ ﴿مَّنَّاعٍ﴾ مبالغة مانع ﴿لِّلْخَيْرِ﴾؛ أي: بخيل بالمال، والخير: المال؛ أي: بخيل بماله ممسك له لا يجود به لدى البأساء والضرّاء، فهو لا يدفع عوز المعوزين، ولا يساعد المحتاجين، ولا ينجد الأمّة إذا حزبها الأمر، وضاقت بها السبل كدفع عدوٍّ يهاجم البلاد أو دفع كارثة نزلت بها تحتاج إلى بذل المال. أو منّاع للناس من الخير الذي هو الإيمان، والطاعة. وكان للوليد بن المغيرة عشرة من البنين، وكان يقول لهم ولأقاربه: من تبع منكم دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً. وكان الوليد موسراً له تسعة آلاف مثقال فضة، وكانت له حديقة في الطائف.

٦ ـ ﴿مُعْتَدٍ﴾؛ أي: متجاوز لما حدّه الله سبحانه من أوامر ونواه. فهو يخوض في الباطل خوضه في الحقّ، ولا يتحرج عن ارتكاب المآثم والمظالم، وفي «التأويلات النجمية»: متجاوز في الظلم على نفسه بانغماسه في بحر الشهوات، وانهماكه في ظلمة المنهيات.

٧ ـ ﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: كثير الآثام، ديدنه ذلك، فهو لا يبالي بما ارتكب ولا بما اجترح، وفي «التأويلات النجمية»: كثير الآثام بالركون إلى الأخلاق الرديئة والرغبة في الصفات المردودة.

٨ ـ ﴿عُتُلٍّ﴾؛ أي: جاف غليظ القلب، يعامل الناس بالغلظة والفظاظة. من عتله إذا قاده بعنف وغلظة. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: هو بعد ما عدّ من مقابحه ومعايبه ﴿زَنِيمٍ﴾؛ أي: دعي ملصق بالقوم وملحق بهم بالنسب، وليس منهم. فالزنيم هو الذي تبنّاه أحد؛ أي: اتخذه ابنا وليس بابن له من نسبه في الحقيقة، قال تعالى:

---

(١) روح البيان.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾. قال الراغب: الزنيم والمزنّم: الزائد في القوم، وليس منهم؛ أي: المنتسب إلى قوم، وهو معلّق بهم لا منهم تشبيهاً بالزنمتين من الشاة، وهما المتدلّيتان من أذنها ومن الحلق. وفي «الكشاف»: الزنيم من الزنمة، وهي الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى معلقة في حلقها؛ لأنه زيادة معلقة بغير أهله. والظاهر من قول ابن عباس رضي الله عنهما الحقيقة حيث قال: إنه لم يعرف حتى قيل: زنيم فعرف أنه كان له زنمة في حلقه. ويقال: كان يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها. وقال مجاهد: كانت له ستة أصابع في يده في كل إبهام إصبع زائدة. والظاهر: أنّ هذه الأوصاف ليست لمعين. قال العتيبيُّ: لا نعلم أن الله سبحانه وصف أحداً، ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً. وفي قوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ دلالة على أن دعوته أشد معايبه وأقبح قبائحه. وكان الوليد دعيًّا في قريش، وليس من نسبهم وسنخهم؛ أي: أصلهم. ادعاه أبوه المغيرة بعد ثماني عشرة سنة من مولده. وقيل: بغت أم الوليد ولم يعرف، حتى نزلت هذه الآية. فمعنى ﴿زَنِيمٍ﴾ حينئذٍ: ولد الزنا. قال الشاعر:

زَنِيْمٌ لَيْسَ يُعْرَفُ مَنْ أَبُوهُ   بَغِيُّ ٱلأُمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيْمُ

وقال سعيد بن جبير: الزنيم: المعروف بالشرّ. وقيل: هو رجل من قريش، كان له زنمة كزنمة الشاة. وقيل: هو الظلوم. وقيل: نزلت الآية في الأخنس بن شريق، واسمه أبيّ، وكان ثقفيّاً مصطلقيّا في قريش، فلذلك قال: زنيم لا على جهة الذمّ لنسبه، ولكن على جهة التعريف به، ذكره السهيلي. قال ابن عطية: وظاهر اللفظ عموم من بهذه الصفة، والمخاطبة بهذا مستمرّة باقي الزمن لا سيّما لولاة الأمور. فقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ههنا نظير ﴿ثمّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من حيث إنها للتراخي رتبة.

ثم هذا الترتيب إنما هو في قول الواصف لا في حصول تلك الصفات في الموصوف، وإلا فكونه عتلاً هو قبل كونه صاحب خير يمنعه. وفي «برهان القرآن»: قوله: ﴿حَلَّافٍ﴾ إلى قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ أوصاف تسعة، ولم يدخل بينها واو العطف، ولا بعد السابع، فدل على أن ضعف القول بواو الثمانية صحيح. وقرأ الحسن ﴿عتل﴾ برفع اللام على الذمّ، والجمهور بجرّها.

ثم ذكر بعض ما ربما دعاه إلى طاعتهم، فقال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ على تقدير الجار؛ أي: لا تطع يا محمد من هذه مثالبه ومعايبه، لأنه كان مشمولاً ذا مال كثير مستظهراً بالبنين؛ أي: لا تطعه من جراء ماله وكثرة أولاده وتقويه بهم، فإن ذلك لا يجديه نفعاً عند ربه، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر، والمغيرة، وأبو حيوة ﴿آن كان﴾ بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام. وقرأ حمزة وأبو بكر والمفضل ﴿أأن كان﴾ بهمزتين مخففتين. وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر. وعلى قراءة الاستفهام يكون المراد به التوبيخ والتقريع، حيث جعل شكر نعمة الله الكفر به وبرسوله. وقرأ نافع في رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط.

ثم ذكر سبب النهي عن طاعته، فقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ استئناف جار مجرى التعليل للنهي؛ أي: إذا تقرأ عليه آيات كلامنا القديم. يعني: القرآن ﴿قَالَ﴾ ذلك الحلاف المهين هي ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: أحاديث لا نظام لها، اكتتبها الأقدمون كذباً فيما زعموه لقوله تعالى: ﴿ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾. قال السدي: أساجيع الأوّلين؛ أي: جعل مجازاة النعم التي خولناها من المال والبنين، وشكرها الكفر بآياتنا. قال المبرد: الأساطير جمع أسطورة نحو: أحدوثة وأحاديث.

والمعنى: أي إذا تلي عليه القرآن قال: ما هو إلا من كلام البشر، ومن قصص الأولين التي دونت في الكتب، وليس هو من عند الله تعالى.

وبعد أن ذكر قبائح أفعاله توعده، فقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: سنجعل له سمةً وعلامةً يعرف بها بالكيّ على أكرم مواضعه لغاية إهانته وإذلاله. وأصل[1] ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ سنوسمه، كما سيأتي. من الوسم، وهو إحداث السمة بالكسر؛ أي: العلامة بالميسم، والميسم بالكسر: المكواة؛ أي: آلة الكيّ. والخرطوم كزنبور: الأنف أو مقدمه. وفي التعبير عن الأنف بلفظ الخرطوم استهانة بصاحبه واستقباح له، لأنّه لا يستعمل إلاّ في الفيل والخنزير، وكلما كان الحيوان أخبث وأقبح كانت

---

(١) روح البيان.

الاستهانة والاستقباح أشد وأكثر. قيل: أصاب أنف الوليد جراحة يوم بدر، فبقيت علامتها. قال صاحب «الكشف»: هو ضعيف، فإنّ الوليد مات قبله فلم يوسم بوسم بقي أثره مدة حياته.

والمراد: أنَّا سنبين أمره بياناً واضحاً حتى لا يخفى على أحد كما لا يخفى ذو السمة على الخرطوم. وفي هذا إذلالٌ ومهانة له؛ لأنّ السمة على الوجه شين، فما بالك بها في أكرم موضع؟ وهو الأنف الذي هو مكان العزّة والحمية والأنفة، ومن ثم قالوا: الأنف في الأنف، وقالوا: حمي أنفه، وقالوا: هو شامخ العرنين. وعلى عكسه قالوا في الذليل: جدع أنفه ورغم أنفه. قال جرير:

لـمَّـا وَضَـعْـتُ عـلـى ٱلْـفَـرَزْدَقِ مَـيْـسِـمِـيْ وَعَلَىٰ ٱلْبُعَيْثِ جَدَعْتُ أَنْفَ ٱلأَخْطَلِ

وفي التعبير بلفظ الخرطوم، استخفاف به؛ لأنّه لا يستعمل إلا في الفيل والخنزير، كما مرّ. وفي استعمال أعضاء الحيوان للإنسان كالمشفر للشفة، والظلف للقدم دلالة على التحقير كما لا يخفى.

والخلاصة: سنذله في الدنيا غاية الإذلال، ونجعله ممقوتاً مذموماً مشهوراً بالشرّ، ونسمُهُ يوم القيامة على أنفه ليعرف بذلك كفره وانحطاط درجته؛ أي: سنُعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يعلم بها من سائر الكفرة بأن نسود وجهه غاية التسويد، إذ كان بالغاً في عداوة سيد المرسلين عليه وعليهم السلام أقصى مراتب العداوة. فيكون الخرطوم مجازاً عن الوجه على طريق ذكر الجزء وإرادة الكلّ.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: إنّا نحن ابتلينا وامتحنا كفار مكة بالقحط والجوع. والابتلاء: الاختبار. وهذا كلام مرتب على محذوف تقديره: أعطينا أهل مكة الأموال ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط سبع سنين بدعوة رسول الله ﷺ حتى أكلوا الجيف والجلود والعظام والدم لتمردهم وكفرانهم نعم الله تعالى. ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي[1]: ابتلاء مثل ابتلاء أصحاب الجنة المعروف. خبرها عندهم، واللام في الجنة للعهد، والكاف في موضع النصب على أنها نعت لمصدر محذوف، و﴿ما﴾ مصدرية. والجنة: البستان، وأصحاب الجنة: قوم من

---

(١) روح البيان.

أهل صنعاء اليمن، وذلك أنّها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدي حقَّ الله منها، فمات وصارت إلى أولاده فمنعوا الناس خيرها، وبخلوا بحق الله فيها. قال الواحدي: هم قوم من ثقيف، كانوا باليمن مسلمين، ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزروع ونخيل، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظّاً للمساكين عند الحصاد والصرام، فقال بنوه: المال قليل والعيال كثير، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا، وعزموا على حرمان المساكين، فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله سبحانه في كتابه. قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان، ابتلاهم الله تعالى أن حرق جنتهم. وقيل: هي جنة كانت بصوران وصوران على فراسخ من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير.

وقوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ وحلفوا. ظرف لبلونا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾؛ أي: والله ليصرمن ثمارها من الرطب والعنب، ويقطعنها، ويجمعن محصولها من الزرع وغيره ﴿مُصْبِحِينَ﴾؛ أي: حال كونهم داخلين في الصباح مبكرين إليها، وسواد الليل باق. و﴿يصرمنها﴾ جواب القسم، و﴿مُصْبِحِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يصرمنها﴾ وجاء جواب القسم على خلاف منطوقهم، ولو جاء على منطوقهم.. لقيل: لنصرمنها بنون التكلم. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: لا يقولون: إن شاء الله. وتسميته استثناء مع أنه شرط من حيث إن مؤداه مؤدى الاستثناء، فإن قولك: لأخرجن إن شاء الله، ولا أخرج إلا إن شاء الله بمعنى واحد، والجملة مستأنفة، أو حال بعد حال.

والأظهر أنَّ المعنى[1]: ولا يستثنون حصة المساكين، أي: لا يميزونها ولا يخرجونها كما يفعله أبوهم. وقال أبو حيان: ولا يثنون عما عزموا عليه من منع المساكين، ولعل إيراد الاستثناء بعد إيراد إقسامهم على فعل مضمر لمقصودهم مستنكر عند أرباب المروءة، وأصحاب الفتوة لتقبيح شأنهم بذكر السببين لحرمانهم، وإن كان أحدهما كافياً فيه، لكن ذكر الإقسام على أمر مستنكر أولاً، وجعل ترك الاستثناء حالاً منه ثانياً يفيد أصالته وقوته في اقتضاء الحرمان.

ومعنى الآية[2]: أنّا امتحنا كفار مكة بما تظاهر عليهم من النعم والآلاء وما رحمناهم به من واسع العطاء لنرى حالهم أيشكرون هذه النعم، ويؤدون حقها

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وينيبون إلى ربهم ويتبعون الداعي لهم إلى سبيل الرشاد؛ وهو الرسول ﷺ الذي بعثناه لهم هادياً وبشيراً ونذيراً، أم يكفرون به ويكذبونه فيجحدون حق الله عليهم فيبتليهم بعذاب من عنده، ويبيد تلك النعم جزاء كفرانهم وجحودهم كما اختبرنا أصحاب ذلك البستان الذين منعوا حق الله فيه، وعزموا على أن لا يؤدوا زكاته لبائس ولا فقير، فحق عليهم من الجزاء ما هم له أهل. ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾. . . إلخ؛ أي: حين حلفوا ليجدُّن ثمرها غدوة حتى لا يعلم بهم سائل ولا فقير فيتوافر لهم ما كان يأخذه هؤلاء الفقراء، ولم يثنوا عما همُّوا به.

ثم أخبر سبحانه عما جازاهم لكفرانهم بهذه النعم ومنعهم حق الفقراء فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على تلك الجنة؛ أي: أحاط بها ﴿طَآئِفٌ﴾؛ أي: بلاء طائف كقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾. وذلك إذ لا يكون الطائف إلا بالليل، وأيضاً دل عليه ما بعده من ذكر النوم. وكان ذلك الطائف ناراً نزلت من السماء، فأحرقتها. وقيل: الطائف جبريل اقتلعها. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: مبتدىء من جهته تعالى. قال الراغب: الطوف: الدّوران حول الشيء، ومنه: الطائف لمن يدور حول البيت حافظاً، ومنه: استعير الطائف من الجن والحبال والخادم وغيرها. قال تعالى: ﴿فَطَافَ﴾ إلخ، تعريضاً بما نالهم من النائبة انتهى. ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ في محل نصب على الحال؛ أي: وهم[1] غافلون عما جرت به المقادير، أو غافلون عن طوافه بالنوم الذي هو أخو الموت. والنوم: استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، أو أن يتوفى الله النفس من غير موت؛ أي: أن يقطع ضوء الروح عن ظاهر الجسد دون باطنه، أو النوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل. وكلّ هذه التعريفات صحيحة. ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾؛ أي: فصارت تلك الجنة بالاحتراق ﴿كَالصَّرِيمِ﴾؛ أي: شبيهة بالبستان الذي صرمت وقطعت ثماره بحيث لم يبق منها شيء؛ لأنَّ النار السماوية أحرقتها، أو صارت كالليل في اسودادها، لأنّ الليل يقال له: الصريم؛ أي: صارت سوداء كالليل لاحتراقها، أو كالنهار في ابيضاضها من فرط اليبس، والصريم فعيل بمعنى مفعول.

والمعنى[2]: فطرق تلك الجنة طارق من أمر الله ليلاً، وهم نيام، إذ أرسل

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

عليها صاعقة فاحترقت وصارت تشبه الليل البهيم في السواد. أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إيّاكم والمعصية، فإنَّ العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل، وإنّ العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيّئ له، ثم تلا ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾. . . الآية. قد حرموا خير جنتهم بذنبهم».

﴿فَتَنَادَوْا﴾؛ أي: نادى بعضهم بعضاً حال كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾؛ أي: داخلين في الصباح ﴿أَنِ ٱغْدُواْ﴾؛ أي:[1] أنّ اغدوا وبكروا على أن ﴿أَنِ﴾ مفسرة؛ لأنَّ في التنادي معنى القول، أو بأن اغدوا وبكّروا على أنها مصدرية؛ أي: اخرجوا غدوة وأول النهار. ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ وبستانكم وضيعتكم والمراد بالحرث: الثمار والزروع. يقول الفقير: فالحرث يجوز أن يراد به الحاصل مطلقاً، وأن يراد به الزرع خصوصاً؛ لأنّه أعزُّ شيء يعيش به الإنسان. وتعدية الغدو بعلى لتضمنه معنى الإقبال والاستيلاء. وقال بعضهم: إنه يتعدى بعلى كما في «القاموس»: غدا عليه غدوّاً وغدوة بالضم واغتدى: بكر. قال الراغب: الحرث: إلقاء البذر في الأرض وتهيئتها للزرع، ويسمى المحروث: حرثاً. قال تعالى: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾؛ أي: قاصدين للصرم وقطع الثمرة، وجمع المحصول. وجواب الشرط محذوف؛ أي: إن كنتم صارمين فاغدوا. وقيل: معنى ﴿صَٰرِمِينَ﴾ ماضين في العزم من قولهم: سيف صارم.

والمعنى[2]: فنادى بعضهم بعضاً عند طلوع الفجر؛ أي: هلموا واذهبوا إلى الثمار والزروع والأعناب فاصرموها؛ إن كنتم قاصدين للصرم، ولا تخبروا المساكين. وقد أحكموا التدبير، وأخذوا الأمر جد الخفية حتى لا يستمع لهم أحد، كما قال: ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾؛ أي: فمضوا وذهبوا إلى جنتهم وحرثهم ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال أنّهم ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ ويسرون الكلام بينهم؛ لئلا يعلم أحد بهم. وقيل[3]: المعنى: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد. والأوّل أولى لقوله: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

المساكين فضلاً عن أن يكثروا. لأنَّ ﴿أن﴾ هي المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول.

والمعنى: يسرّ بعضهم إلى بعض هذا القول، وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم.

والمعنى[1]: يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة والسر كي لا يسمع أحد بهم، ولا يدخل عليهم. وقرأ عبد الله وابن أبي عبلة ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ بإسقاط أن على إضمار يقولون. والمسكين: هو الذي لا شيء له، وهو أبلغ من الفقير، والمراد بنهي المسكين عن الدخول المبالغة في النهي عن تمكينه من الدخول كقولهم: لا أرينك ههنا، فإنّ دخول المسكين عليهم لازم لتمكينهم إيّاه من الدخول كما أنَّ رؤية المتكلم المخاطب لازم لحضوره عنده، فذكر اللازم لينتقل منه إلى الملزوم.

﴿وَغَدَوْا﴾؛ أي: مشوا بكرة مصممين ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾؛ أي: على منع المساكين وحرمانهم. والحرد: المنع عن حدة وغضب، يقال: نزل فلان حريداً، أي: ممتنعاً من مخالطة القوم، وحاردت السنة: منعت قطرها، والناقة: منعت درها، وحرد: غضب. وقرأ الجمهور ﴿حَرْدٍ﴾ بسكون الراء، وقرأ أبو العالية، وابن السميفع بفتحها. ﴿قَادِرِينَ﴾ حال مقدرة من فاعل ﴿غدوا﴾، فإنَّ القدرة مع الفعل عند أهل الحقّ.

والمعنى: أي وخرجوا أول الصباح مصممين على امتناع من أن يتناول المساكين من جنتهم حال كونهم قادرين على نفعهم أو على الاجتناء، والصرم بزعمهم، فلم يحصل إلاّ الكُد والحرمان، فهم قد تعجلوا الحرمان، وكان أولى بهم أنت تكون هممهم متوجهة إلى النفع الذي هم قادرون عليه. ولكن[2] واخيبة أملاه، وواضياع مسعاهم، ويا هول ما رأوه مما لا تصدقه العين، ولا يخطر لهم ببال بستان كان بالأمس عامراً زاخراً بالخير والبركة أصبح قاعاً صفصفاً قد تغيرت معالمه، ودرست رسومه حتى تشككوا فيه حين رأوه، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾؛ أي: فلما صاروا إلى جنتهم ورأوها محترقة أنكروها، وشكوا فيها، و﴿قَالُوٓا﴾؛ أي: قال بعضهم لبعضٍ: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ عن طريق جنتنا، وما هي بها لما رأوا من هلاكها، أي: قالوا: أبستاننا هذا أم نحن ضالون طريقه؟. ولكن بعد أن تبينت لهم معالمه

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

واستيقنوها عادوا على أنفسهم بالملامة، وقالوا مضربين عن قولهم الأوّل: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لسنا بضالين بل نحن قد حرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا بشؤم عزمنا على البخل، ومنع مساعدة البائسين والمعوزين، وندموا على ما فرط منهم حيث لا ينفع الندم، كما يرشد إلى ذلك قوله سبحانه حاكياً عنهم: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾؛ أي: أرجحهم رأياً وأحسنهم تدبيراً ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ يا قوم ﴿لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ أي: هلا تذكرون الله سبحانه بالتسبيح والتهليل والتكبير وغيرها، وتشكرونه على ما أولاكم من النعم، فتؤدّوا حق البائس الفقير، وتتوبون إليه من خبث نيتكم ليبارك لكم فيما أنعم وتفضل، ولكنكم أعرضتم عما أظهرتُ لكم به من الرأي، وضربتم به عرض الحائط، وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وانتقامه من المجرمين، وتوبوا إليه من هذه العزيمة الخبيثة من فوركم، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة، فعصوه فعيرهم.

وفي الآية[1]: دليل على أنّ العزم على المعصية مما يؤاخذ به الإنسان، لأنهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ والعزم: قوة قصد الفعل والجزم به، والمحققون على أنه يؤاخذ به. وأما الهم وهو ترجيح قصد الفعل فمرفوع.

وبعد اللتيا والتي[2] وبعد ضياع الفرصة تبين لهم خطأ ما كانوا عزموا عليه، واعترفوا بذنوبهم، كما حكى عنهم سبحانه بقوله: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾؛ أي: تنزيهاً لربنا عن أن يكون ظالماً فيما صنع بجنتنا؛ أي: قالوا معترفين بالذنب، والاعتراف به يعد من التوبة: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾؛ أي: تنزه مالك أمرنا عن كل سوء ونقصان سيما عن أن يكون ظالماً فيما فعل بنا. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسنا بقصد حرمان المساكين اتباعاً لشح النفس، كأنهم قالوا: نستغفر الله من سوء صنيعنا، ونتوب إليه من خبث نيتنا حيث قصدنا عدم إخراج حق المساكين من غلة بستاننا، ولو تكلموا بهذه الكلمة قبل نزول العذاب لنجوا من نزوله، لكنّهم تكلّموا بعد خراب البصرة، هيهات هيهات فقد ضاعت الفرصة، وحل مكانها الغصة. وهكذا شأن الإنسان.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

وبعد أن حدث ما حدث ألقى كلّ منهم تبعة ما وقع على غيره، وتشاحنوا وهذا ما أشار إليه بقوله سبحانه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ حالك كونهم ﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾؛ أي: يلوم[1] بعضهم بعضاً على ما فعلوا، فإنَّ منهم من أشار بذلك، ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكت راضياً به، ومنهم من أنكره. فيقول هذا لهذا: أنت الذي أشرت علينا بهذا الرأي، ويقول ذاك لهذا: أنت الذي خوفتنا الفقر، ويقول الثالث لغيره: أنت الذي رغّبتني في جمع المال.

ثم نادوا على أنفسهم بالويل والثبور، كما أشار إلى ذلك سبحانه حاكياً عنهم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ ويا هلاكنا أقبل إلينا لنتعجب منك؛ أي: قالوا: أقبل أيها الهلاك فلا نستحق غيرك. ثم بينوا علة هذا الدعاء بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾؛ أي: عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء. قال ابن كيسان أي: طغينا في نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل.

ثم رجعوا إلى الله، وسألوه أن يعوّضهم بخير منها، فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا﴾؛ أي: نترجَّى ربنا ﴿أَن يُبْدِلَنَا﴾ ويعطينا بدلاً ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: من جنتنا بتوبتنا من زلاَّتنا، ويكفر عنا سيئاتنا. قيل: إنهم تعاقدوا فيما بينهم، وقالوا: إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعن كما صنع أبونا، فدعوا الله وتضرّعوا إليه، فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها. قيل: إنَّ الله أمر جبريل أن يقتلع تلك الجنة المحترقة، ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها. وقرأ الجمهور[2] ﴿يُبْدِلَنَا﴾ بالتخفيف من الإبدال. وقرأ أبو عمرو وأهل المدينة بالتشديد من التبديل، وهما لغتان. والإبدال: رفع الشيء جملةً ووضع آخر مكانه. والتبديل: تغيير ذات الشيء أو تغيير صفته.

﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾؛ أي: راجون العفو منه، طالبون الخير منه، راجعون إليه تعالى. و﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الرغبة، لأنّ الله تعالى منتهى رجائهم، وطلبهم أو لتضمنها معنى الرجوع، وإلاّ فالمشهور أن تتعدى الرغبة بكلمة في أو عن دون إلى. روى عن مجاهد: أنّهم تابوا فأبدلهم الله تعالى خيراً منها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مقدم لإفادة القصر ﴿الْعَذَابُ﴾ مبتدأ مؤخر، والألف واللام فيه

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

للعهد؛ أي: مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة، وأصحاب الجنة المذكورة العذاب؛ أي: عذاب الدنيا النازل فيها على من طغى بمنع حقوق الله تعالى. وفي «كشف الأسرار»: كذلك أفعل بأمتك يا محمد إذا لم تعطف أغنياؤهم على فقرائهم بأن أمنعهم القطر، وأرسل عليهم الجوائح، وأرفع البركة من زروعهم وتجارتهم. ففيه وعيد لمانعي الزكاة والصدقة بإهلاك المال، وإنزال العذاب بأيّ طريق كان.

والمعنى[1]: وهكذا عذاب من خالف أمر الله تعالى، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق البائس الفقير، وإذا كانت هذه حال من فعل الذنب اليسير كأصحاب الجنة، فما بالكم بذنب من يعاند الرسول ويصر على الكفر والمعصية.

وبعد أن أبان لهم أن عذاب الدنيا كما سمعتم، ورأيتم أشار إلى عذاب الآخرة، فقال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ المعد للكفرة والطغاة ﴿أَكْبَرُ﴾؛ أي: أشدُّ وأعظم لبقائه ودوامه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لو كان المشركون يعلمون أنه أكبر وأعظم لاحترزوا عما يؤديهم إليه، ويطرحهم ويرميهم فيه، ولكنهم لا يعلمون ذلك، ولذلك أصروا على إشراكهم وتكذيبهم للنبي ﷺ. وجواب الشرط محذوف كما قدرنا.

والخلاصة: أنَّ عذاب الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا، فما عذاب هذه إلا هلاك الأموال والثمرات، وعذاب تلك نار وقودها الناس والحجارة، لو كانوا من ذوي العلم والمعرفة.. لارتدعوا عن غيّهم، وثابوا إلى رشدهم، وهذا نعي عليهم بالغفلة، وأنهم ليسوا من أرباب النهى والمعرفة.

ولما فرغ سبحانه وتعالى من ذكر حال الكفّار وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة.. ذكر حال المتقين، وما أعده لهم من الخير، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ سبحانه وتعالى في الدار الآخرة ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الخالص الذي لا يشوبه كدر، ولا ينغّصه خوف زوال. وذكر[2] ﴿عِندَ﴾ للتشريف والتكريم، وذلك لأنه لا ملك فيها حقيقة ولا صورة إلا لله تعالى، فكأنها حاضرة عنده تعالى يتصرف فيها كيف يشاء، وإلا فمحال كون عندية الجنة بالنسبة إلى الله تعالى مكانيةً، وهي ظرف معمول للاستقرار الذي تعلق به للمتقين.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف منصوب على الحالية من المنويّ في قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولا يجوز أن يكون حالاً من جنات لعدم العامل. والأظهر: أنّ معنى ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في جوار القدس، فالمراد عنديّة المكانة المنزهّة عن الجهة والتحيز لا عندية المكان، كما في قوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، إذ للمقرّبين قرب معنويّ من الله تعالى. ومعنى ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص عن شائبة ما ينغصه من الكدورات وخوف الزوال، كما عليه نعيم الدنيا. واستفيد الحصر من الإضافة اللامية الاختصاصية، فإنها تفيد اختصاص المضاف إليه.

وكان صناديد كفار قريش يرون وفور حظهم في الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها، فإذا سمعوا ذكر الآخرة، وما وعد الله المسلمين فيها قالوا: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا. فرد الله سبحانه عليهم مكذّباً لهم بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾... إلخ. والهمزة[1] فيه للاستفهام الإنكاري داخلة على مقدر يقتضيه المقام، والفاء: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنحيف في الحكم فنجعل المؤمنين كالكافرين في حصول النجاة والوصول إلى الدرجات، فنسوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء، كلا ورب الأرض والسماء. والمراد[2] بالمجرمين الكافرون على ما دل عليه سبب النزول، وهم المجرمون الكاملون الذين أجرموا بالكفر والشرك، وإلا فالإجرام في الجملة لا ينافي الإسلام نعم المسلم المطيع ليس كالمسلم الفاسق. ففيه وعظ للعاقل وزجر للمتبصر.

ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده: ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيها المجرمون ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج الأقبح، كأنَّ أمر الجزاء مفوض إليكم فتحكمون فيه بما شئتم. وهذا تعجيب من حكمهم، واستبعاد له، وإيذان بأنّه لا يصدر عن عاقل. و﴿مَا﴾ الاستفهامية في موضع رفع بالابتداء، والاستفهام للإنكار؛ أي: لإنكار أن يكون لهم وجه مقبول يُعْتدّ به في دعواهم حتى يتمسّك به، و﴿لَكُمْ﴾ خبرها.

والمعنى: أيّ شيء ظهر لكم حتى حكمتم هذا الحكم القبيح كأنَّ أمر الجزاء مفوّض إليكم فتحكمون فيه بما شئتم. ومعنى ﴿كَيْفَ﴾ في أيّ حال حكمتم أفي حال

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

العلم حكمتم أم في حال الجهل؟ فيكون ظرفاً أو أعالمين حكمتم أم جاهلين؟ فيكون حالاً.

والخلاصة: أي ماذا حصل لكم من فساد الرأي وخبل العقل حتى قلتم ما قلتم؟

ثم سد عليهم طريق القول، وقطع عليهم كلَّ حجة يستندون إليها فيما يدّعون، فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ﴾؛ أي: بل ألكم ﴿كِتَٰبٌ﴾ نازل من السماء. و﴿أَمْ﴾ فيه منقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الإنكار. ﴿فِيهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرؤون فيه ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الكتاب، أو في يوم القيام ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ وتشتهون؛ أي: بل ألكم كتاب نازل من السماء فيه تقرؤون أنّ لكم في ذلك الكتاب ما تشتهونه في الآخرة. وأصل الكلام: ﴿أنّ لكم﴾ بالفتح؛ لأنّه مدروس فيكون مفعولاً واقعاً مَوْقِعَ المفرد، وتكون لام الابتداء زائدة. فلا تكسر همزة ﴿إنّ﴾ ولكن لما جيءَ باللام كسرت، فإن لام الابتداء لا تدخل على ما هو في حيّز ﴿أنّ﴾ المفتوحة، وهذه اللام للابتداء، داخلة على اسم ﴿إنّ﴾.

والمعنى: تدرسون في الكتاب أنّ لكم في الآخرة ما تختارونه لأنفسكم، وأن يكون العاصي كالمطيع بل أرفع حالاً منه، فأتوا بكتاب إن كنتم صادقين. ويجوز أن يكون حكاية للمدروس كما هو كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾، فيكون الموضع من مواضع كسر همزة ﴿إنّ﴾ لعدم وقوعها موقع المفرد، حكاه الله في القرآن بصورته. والفرق بين الوجهين: أنّ المدروس في الأول ما انسبك من الجملة، وفي الثاني الجملة بلفظها. وقوله: ﴿فِيهِ﴾ لا يستغنىٰ عنه بفيه أوّلاً، فقد يكتب المؤلف في كتابه ترغيباً للناس في مطالعته أنّ في هذا الكتاب كذا وكذا.

قال سعديٌّ المفتي: لك أن تمنع كون الضمير للكتاب، بل الظاهر أنّه ليوم القيام المعلوم بدلالة المقام.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِنَّ لَكُمْ﴾ بكسر الهمزة، فقيل: هو استئناف قول على معنى: إنّ لكم كتاباً فلكم فيه متخيَّر. وقيل: ﴿أنَّ﴾ معمولة لتدرسون؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

تدرسون في الكتاب أنّ لكم لما تخيّرون؛ أي: تختارون من النعيم. وكسرت الهمزة من ﴿إنّ﴾ لدخول اللام في الخبر، وهي بمعنى ﴿أنّ﴾ بفتح الهمزة، قاله الزمخشريّ، وبدأ به، وقال: ويجوز أن تكون حكاية للمدروس كما هو كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ انتهى. وقرأ طلحة بن مصرف والضحاك ﴿أن لكم﴾ بفتح الهمزة، واللام في ﴿لَمَا﴾ زائدة كهي في قراءة من قرأ ﴿ألا أنهم ليأكلون الطعام﴾ بفتح همزة أنهم. وقرأ الأعرج ﴿أأنّ لكم﴾ على الاستفهام.

وحاصل معنى الآية[1]: أفبأيديكم كتاب نزل من السماء تدرسونه، وتتداولونه ينقله الخلف من السلف، يتضمن حكماً مؤكَّداً كما تدّعون أن لكم ما تختارون وتشتهون، وأنَّ الأمر مفوّض إليكم لا إلى غيركم.

وخلاصة هذا: أفسدت عقولكم حتى حكمتم بهذا؟ أم جاءكم كتاب فيه تخييركم، وتفويض الأمر إليه.

ثم زاد سبحانه في التوبيخ، فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ﴾؛ أي: بل ألكم أيّها المشركون ﴿أَيْمَانٌ﴾؛ أي: مواثيق وعهود مؤكّدة بالأيمان مضمونة لكم ﴿عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾ نهاية الصحة وغاية الجودة، لا نخرج من عهدتها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ على ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ وتشتهون. و﴿أَمْ﴾ منقطعة تقدر بـ(بل) الإضرابية وهمزة الإنكار، نظير ما مرّ. و﴿عَلَيْنَا﴾[2] صفة ﴿أَيْمَانٌ﴾، وكذا ﴿بَالِغَةٌ﴾؛ أي: متناهية في التوكيد والصحة؛ لأنّ كل شيء يكون في نهاية الجودة وغاية الصحة يوصف بأنّه بالغ، يقال لفلان عليَّ يمين بكذا إذا ضمنت وكفلت له به، وحلفت له على الوفاء به؛ أي: بل أضمنا لكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة، فثبت لكم علينا عهود مؤكدة بالأيمان مستمرة إلى يوم القيامة لا نخرج من عهدتها إلا بوفائها. وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ متعلّق بالمقدر في ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرج من عهدتها حتى نحكمكم يومئذٍ، ونعطيكم ما تحكمون، أو متعلق بـ﴿بَالِغَةٌ﴾؛ أي: أيمان تبلغ ذلك اليوم وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه الذي هو التحكيم واتباعنا لحكمهم.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وعبارة الخازن هنا: معناه: ألكم عهود ومواثيق مؤكّدة عاهدناكم عليها فاستوثقتم بها منا إلى يوم القيامة؛ أي: لا تنقطع تلك الأيمان والعهود إلى يوم القيامة إن لكم في ذلك العهد لما تحكمون لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله تعالى، انتهى.

وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جواب القسم، وقيل: قد تمّ الكلام عند قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بَالِغَةٌ﴾ بالرفع على النعت لـ﴿أَيْمَانٌ﴾. وقرأ الحسن وزيد بن علي بنصبها على الحال من ﴿أَيْمَانٌ﴾، لأنها قد تخصّصت بالوصف، أو من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، أو من الضمير في ﴿عَلَيْنَا﴾. وقرأ الأعرج ﴿إن لكم علي﴾ كالتي قبلها على الاستفهام.

والمعنى: أم معكم عهود منا مؤكدة لا نخرج من عهدتها إلى يوم القيامة على أنه سيحصل لكم كل ما تهوون وتشتهون.

وخلاصة ذلك: أم أقسمنا لكم قسما على أنَّ لكم كل ما تحبون.

ثم طلب إلى رسوله ﷺ أن يسألهم على طريق التوبيخ والتقريع، فقال: ﴿سَلْهُمْ﴾ أمر من[2] سأل يسأل بحذف العين وهمزة الوصل. وهو تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ بإسقاطهم عن درجة الخطاب؛ أي: سل يا محمّد هؤلاء المشركين مبكتاً لهم ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم الخارج عن المعقول ﴿زَعِيمٌ﴾؛ أي: كفيل متصدٍّ لتصحيحه كفيل لهم بأنَّ لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها. والزعيم: هو القائم بالدعوى وإقامة الحجة عليها؛ أي: قل لهم: من الكفيل لهم بتنفيذ هذا الحكم الخارج عن الصواب.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾؛ أي: بل ألهم ناس يشاركونهم في هذا الرأي والقول الفاسد، ويذهبون مذهبهم، وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين في الآخرة. وإن كان الأمر كذلك ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ وموافقيهم في هذا الرأي القبيح ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم، وقولهم هذا، إذ لا أقل من التقليد. وهو أمر تعجيز،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. يعني[1]: أنه كما ليس لهم دليل عقلي في إثبات هذا المذهب، وهو التسوية بين المحسن والمسيء كما قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾، ولا دليل نقلي، وهو كتاب يدرسونه، ولا عهود موثقة بالأيمان فليس لهم من يوافقهم من العقلاء على هذا القول حتى يقلدوهم، وإن كان التقليد لا يفلح من تشبث بذيله. فثبت أن ما زعموا باطل من كل الوجوه. وقيل: المعنى[2] أم لهم شركاء وآلهة يجعلونهم مثل المسلمين في الآخرة.

وقصارى هذا الحجاج[3]: نفي جميع ما يمكن أن يتعلقوا به في تحقيق دعواهم، فنبه أوّلاً إلى نفي الدليل العقلي بقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ ثم إلى نفي الدليل النقلي بقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ثم إلى نفي الوعد بذلك ووعد الكريم دين عليه بقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾ ثم إلى نفي التقليد الذي هو أوهن من حبال القمر بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ وقرأ عبد الله وابن أبي عبلة ﴿فليأتوا بشركهم﴾. قيل: والمراد في القراءتين الأصنام، أو ناس يشاركونهم في قولهم ويوافقونهم فيه؛ أي: لا أحد يقول بقولهم كما أنه لا كتاب لهم ولا عهد من الله، ولا زعيم بذلك فليأتوا بشركائهم. وهذا استدعاء وتوقيف وتعجيز.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ منصوب بـ(اذكر) المقدر، و﴿عَن سَاقٍ﴾ نائب فاعل لـ﴿يُكْشَفُ﴾، والمراد به يوم القيامة؛ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين ولسائر أمّتك أهوال يوم يكشف الله سبحانه عن ساقه، ويتجلى لعباده، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة. وقيل: الساق متعلق بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾ أي: فليأتوا بشركائهم، وآلهتهم يوم يكشف عن ساق ليشفعوا لهم. وقيل: التقدير: يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت، حذف للتهويل العظيم بما يكون فيه من الحوادث. ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ أي: ويُدعى الكفّار والمنافقون ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ له تعالى توبيخاً وتعنيفاً لهم على تركهم إيّاه في الدنيا، وتحسيراً لهم على تفريطهم في ذلك، لا على سبيل التكليف والتعبّد؛ لأنّ يوم القيامة ليس دار تعبّد وتكليف. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: الكفرة والمنافقون على

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

السجود لزوال القدرة الحقيقية عليه عنهم. وفيه دلالة على أنهم يقصدون السجود فلا يتأتى منهم ذلك. قال ابن مسعود رضي الله عنه: تعقم أصلابهم؛ أي: ترد عظاماً بلا مفاصل لا تنثني عند الرفع والخفض، فيبقون قياماً على حالهم حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على تفريطهم في الدنيا.

قال الواحدي: قال المفسرون: يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدةً، ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون، لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود. قال الربيع بن أنس: يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله في الدنيا فيسجدون له، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون، لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا.

فصل في الاختلاف في معنى الساق

وهذا التفسير الذي ذكرناه في بيان معنى الساق وإيضاح معنى الآية هو المذهب الأسلم الذي عليه السلف، ونلقى عليه الرب سبحانه. فساق الله صفة ثابتة له نثبتها، ونعتقدها لا نكيفها ولا نمثلها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. ومعنى كشف الساق رفع الحجاب بينه وبين عابده. وقد دلت على هذا المعنى أحاديث مرفوعة صحيحة.

وقد أخرج البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»، وهذا الحديث ثابت من طرق كثيرة في «الصحيحين» وغيرهما، وله ألفاظ في بعضها طول، وهو حديث مشهور معروف.

وأخرج ابن منده عن أبي هريرة رضي الله عنه في الآية قال: «يكشف الله عز وجل عن ساقه». وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن منده عن ابن مسعود في الآية قال: يكشف عن ساقه تبارك وتعالى. وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في «الأسماء والصفات»،وضعفه وابن عساكر عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «عن نور عظيم فيخرون له سجداً».

وقيل: معنى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يوم يشتد الأمر، ويصعب الخطب. وكشف الساق مثل في ذلك، ولا كشف ولا ساق ثمة كما تقول للأقطع الشحيح: يده

مغلولة ولا يد ثمة ولا غل، وإنما هو مثل في البخل بأن شبهت حال البخيل في عدم تيسر الإنفاق له بحال من غلت يده، وكذا شبهت هنا حال من اشتد عليه الأمر في الموقف بالمخدرات اللاتي اشتد عليهن الأمر، فاحتجن إلى تشمير سوقهن في الهرب بسبب وقوع أمر هائل بالغ إلى نهاية الشدة مع أنهن لا يخرجن من بيوتهن، ولا يبدين زينتهن لغير محارمهن لغاية خوفهن، وزوال عقلهن من دهشتهن، وفرارهن لخلاص أنفسهن، فاستعمل في حق أهل الموقف من الأشقياء ما يستعمل في حقهن من غير تصرف في مفردات التركيب، بل التصرف إنما هو في الهيئة التركيبية. فكشف الساق استعارةٌ تمثيلية في اشتداد الأمر وصعوبته.

ومعنى الآية على هذا القول: فليأتوا بهؤلاء الشركاء ليعاونوهم إذا اشتد الهول وعظم الخطب يوم القيامة، ويدعون إلى السجود توبيخاً لهم على تركهم إيّاه في الدنيا فلا يستطيعون، فتزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه حين دعوا إليه في الدنيا، وهم سالمون أصحاء فلم يفعلوا.

وقيل: الساق التي كشفت لهم عبارة عن أمر عظيم من أهوال يوم القيامة تقول العرب: كشفت الحرب عن ساقها إذا عظم أمرها، وتقول لمن وقع في أمر عظيم شديد يحتاج فيه إلى جهد ومقاساة؛ شمر عن ساقك، وكذلك التفت الساق بالساق؛ أي: دخلت الأهوال والأمور العظام بعضها إلى بعض يوم القيامة.

والمعنى عليه: يوم يكشف عن أمر عظيم من أهوال يوم القيامة. وتنكيره على هذا الوجه للتهويل؛ لأنَّ يوم القيامة يوم يقع فيه أمر فظيع هائل منكر خارج عن المألوف.

وقيل: ساق الشيء أصله الذي به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان، فإنَّ ساق الشجر مثلاً أصله والأغصان تنبت على ذلك الأصل وتقوم به.

والمعنى عليه: يوم يكشف عن ساق الأمور وأصولها وحقائقها بحيث تظهر وتصير عيانا. وعلى هذا فالتنوين للتعظيم. وقيل: يكشف عن ساق جهنم، وقيل: عن ساق العرش، وقيل: هو عبارة عن القرب، وقيل: يكشف الرب عن نوره. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فقال: إذا خفي عليكم شيء

من القرآن فابتغوه في الشعر، فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر:

سَنَّ لَنَا قَوْمُكَ ضَرْبَ ٱلأعْنَاقِ   وَقَامَتِ ٱلْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقِ

قال ابن عباس: هذا يوم كرب شديد، روي عنه نحو هذا من طرق أخرى، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ﷺ كما عرفت، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً، فليس كمثله شيء، ولقد أجاد من قال:

دَعُوا كُلَّ قولِ عِنْدَ قَوْلِ مُحَمَّدٍ   فَمَا آمِنٌ فِي دِيْنِهِ كَمُخَاطِرِ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُكْشَفُ﴾ بالتحتية مبنياً للمفعول. وقرأ ابن مسعود وابن عباس، وابن أبي عبلة ﴿تكشفَ﴾ بفتح الفوقية مبنياً للفاعل، أي: الشدّة والساعة. وقرأ ابن عباس وابن مسعود أيضاً، وابن هرمز بالنون. وقرىء بالفوقية مبنياً للمفعول. وقرىء ﴿يكشف﴾ بالياء المضمومة وكسر الشين من أكشف إذا دخل في الكشف، ومنه: أكشف الرجل: انقلبت شفته العليا.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال من ضمير ﴿يُدْعَوْنَ﴾ على أنَّ ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ مرتفع به على الفاعلية. ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها، وإلا فالأعضاء أيضاً خاشعة ذليلة متواضعة بل الخاشع في الحقيقة هو القلب لكونه مبدأ الخشوع. وذلك أن المسلمين إذا رفعوا رؤوسهم من السجود صارت بيضاء كالثلج، فلما نظر إليهم اليهود والنصارى والمنافقون، وهم الذين لم يقدروا على السجود حزنوا واغتموا واسودت وجوههم، كما قال تعالى: ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تلحقهم وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ شديدة تخزيهم وحسرة وندامة، كأنّه تفسير لخشوع أبصارهم. ﴿وَقَدْ كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ﴾ دعوة التكليف ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ أي: إليه. والإظهار[2] في موضع الإضمار لزيادة التقرير، أو لأنّ المراد به الصلاة أو ما فيها من السجود. وخص السجود بالذكر من حيث إنه أعظم الطاعات. قال بعضهم: يدعون بدعوة الله صريحاً مثل قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ أو ضمنا مثل قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فإن الدعوة إلى الصلاة دعوة إلى السجود، وبدعوة الرسول ﷺ صريحاً

---

(١) البحر المحيط.   (٢) روح البيان.

كقوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء». قالوا؛ أي: السجود. أو ضمناً كقوله ﷺ: «صلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم». وبدعوة علماء كل عصر ومن أعظم الدعوة إلى السجود أذان المؤذنين وإقامتهم، فإن قولهم: حي على الصلاة دعوة بلا مرية، فطوبى لمن أجاب دعوتهم بطوع لا بإكراه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾. والجملة حال من ضمير ﴿يُدْعَوْنَ﴾، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ حال من مرفوع يدعون الثاني؛ أي: أصحاء في الدنيا معافون من العلل، سلمت أعضاؤهم ومفاصلهم من الآفات والعلل، متمكنون من الفعل وأداء السجنة وقبول الدعوة أقوى تمكن؛ أي: فلا يجيبون إليه، ويأبونه. وإنما ترك ذكره ثقة بظهوره. وفي الآية وعيد لمن ترك الصلاة المفروضة أو تخلف عن الجماعة المشروعة. قال رجل لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مرافقتك في الجنة، فقال: أعني بكثرة السجود. وكان السلف يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتهم التكبيرة الأولى مع الإمام، وسبعة أيام إذا فاتهم الجماعة.

والمعنى[1]: يدعون إلى السجود، وتكون أبصارهم خاشعة وتغشاهم ذلة في ذلك اليوم، وقد كانوا في الدنيا متكبرين متجبرين، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه في الدنيا ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾؛ أي: إنهم لمّا دعوا إلى السجود في الدنيا، فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامة أبدانهم عوقبوا في الآخرة بعدم قدرتهم عليه، فإذا تجلى الرب سجد له المؤمنون ولم يستطع أحد من الكافرين والمنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، فكلّما همّ السجود خرّ لقفاه بعكس السجود في الدنيا. وقال النخعي، والشعبيّ: المراد بالسجود الصلوات المفروضة. وقال آخرون: إنّ المراد جميع العبادات.

والفاء في قوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حالهم في الدنيا والآخرة، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: ذرني ومن يكذب.. إلخ. و﴿مَنْ﴾[2] الموصولة في محل النصب على أنه معطوف على ضمير المتكلم أو على أنّه مفعول معه، وهو مرجوح

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

لإمكان العطف من غير ضعف؛ أي: إذا كان حالهم في الآخرة كذلك فذرني؛ أي: دعني واتركني ومن يكذب بالقرآن وخلّ بيني وبينه، ولا تشغل قلبك بشأنه، وتوكل عليّ في الانتقام منه، فإنّي عالم بما يستحقه من العذاب، ويطيق له وكافيك أمره. يقال: ذرني وإيّاه يريدون كله إلي فإني أكفيك. قال في «فتح الرحمن»: وعيد ولم يكن ثمّة مانع ولكنه كما تقول: دعني مع فلان؛ أي: سأعاقبه. والمراد بالحدبث هنا القرآن؛ لأنَّ كلَّ كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له: حديث.

والمعنى[1]: كِلْ أيها الرسول أمر هؤلاء المكذّبين بالقرآن إليَّ ولا تشغل قلبك بشأنهم، فأنا أكفيك أمرهم، وهذا كما يقول القائل لمن يتوعد رجلاً: **دعني وإياه** وخلّني وإياه، وأنا أعلم بمساءته والانتقام منه، وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ، وتهديد للمشركين، كما لا يخفى. والخلاصة: حسبك انتقاماً منهم أن تكل أمرهم إليّ، وتخليَ بيني وبينهم.

ثم بين كيف يكون ذلك التعذيب المستفاد إجمالاً من الكلام السابق، فقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ أي: سنتنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإحسان وإدامة الصحة وازدياد النعمة حتى نوقعهم فيه. فاستدراج[2] الشخص إلى العذاب عبارة عن هذا الاستنزال والاستدناء، يقال: استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة درجة حتى يورطه فيه. ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من الجهة التي لا يشعرون أنّه استدراج، وهو الإنعام عليهم، لأنّهم يحسبونه إيثاراً لهم وتفضيلاً على المؤمنين، وهو سبب لهلاكهم في العاقبة. وهذه الجملة[3] مستأنفة مسوقة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ والضمير عائد إلى ﴿مَنْ﴾ باعتبار معناها، والمعنى: سنأخذهم بالعذاب على غفلة، ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج؛ لأنّهم يظنونه إنعاماً ولا يفكرون في عاقبته وما سيلقون في نهايته. قال سفيان الثوري: يسبغ عليهم النعم، وينسيهم الشكر. وقال الحسن: كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

وكم من مغرور بالستر عليه. والاستدراج: ترك المعاجلة، وأصله: النقل من حال إلى حال.

وفي الحديث: «إذا رأيت الله ينعم على عبد، وهو مقيم على معصيته، فاعلم أنه مستدرج، وتلا هذه الآية. وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «من وسع عليه دنياه، فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع من عقله». قال بعض أهل المعرفة من المكر الإلهي بالعبد أن يرزق العلم ويحرم العمل به أو يرزق العمل ويحرم الإخلاص فيه، فمن علم اتصافه بهذا من نفسه فليعلم أنه ممكور به، وأخفى ما يكون المكر الإلهي في المتأولين من أهل الاجتهاد وغيرهم، ومن يعتقد أن كل مجتهد مصيب يدعو الناس على بصيرة وعلم قطعي. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين، فقال: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ﴾؛ أي: وأمهلهم بإطالة العمر، وتأخير الأجل ليزدادوا إثماً وهم يزعمون أنّ ذلك لإرادة الخير بهم. ﴿إِنَّ كَيْدِى﴾ بالإمهال المؤدّي إلى العذاب ﴿مَتِينٌ﴾ أي: قويّ شديد لا يطاق، ولا يدفع بشيء.

والمعنى: أمهلهم وأؤخرهم وأنسىء في آجالهم ملاوة ومدة من الزمان على كفرهم، وتمردهم عليَّ لتتكامل حجحي عليهم، وإنّ كيدي لأهل الكفر لقوي شديد. وسمى سبحانه إحسانه إليهم كيداً. والكيد: ضرب من الاحتيال لكونه في صورته من قبل أنه تعالى يفعل بهم ما هو نفع لهم ظاهراً، وهو يريد الضرر لما علم من حيث طويتهم، وسوء استمدادهم وتماديهم في الكفر وتدسيتهم أنفسهم بالآثام والمعاصي.

وفي «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

وفي «الكشاف»: سمي إحسانه وتمكينه لهم كيداً كما سمّاه استدراجاً لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للتورط في الهلكة، ووصفه بالمتانة لقوة أثر

إحسانه في التسبب للهلاك. قال بعضهم: الكيد: إظهار النفع وإبطان الضر للمكيد. وفي «التعريفات»: الكيد؛ إرادة مضرة الغير خفية. وهو من الخلق الحِيْلَةُ السيئة، ومن الله التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق من حيث لا يعرف.

قلت: والقول الأصح الأسلم الموافق لمذهب السلف. أن يقال في تعريف الكيد في حقه تعالى: إنه صفة ثابتة لله سبحانه وتعالى نثبتها ونعتقدها لا نكيفها ولا نمثلها بها مجازاة الخلق على أعمالهم السيئة في الدنيا.

ثم ذكر من الشبه ما ربما يكون هو المانع لهم عن قبول الحق فقال:

١ - ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ معطوف في المعنى على قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾؛ أي: بل أتسأل أيها الرسول هؤلاء المكذبين لك ﴿أَجْرًا﴾؛ أي: ثواباً دنيوياً وتلتمس منهم مكافاة على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله سبحانه. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾؛ أي: من غرامة ذلك الأجر وحملها ﴿مُّثْقَلُونَ﴾؛ أي: مكلّفون حملاً ثقيلاً فيعرضون عنك، أي: يثقل عليهم حمله لشحهم ببذل المال، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب. والاستفهام هنا كسابقه فيما مرّ للإنكار؛ أي: لا تسأل منهم ذلك فليس لهم عذر في إعراضهم وفرارهم منك. والمغرم مصدر ميميّ بمعنى الغرامة، والغرامة[1]: هي ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر بغير جناية منه.

والمعنى: بل أتسأل أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله على ما آتيتهم من النصيحة والدعوة إلى الحق أجراً دنيويّاً، فهم من غرم ذلك الأجر مثقلون بأدائه، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك، وتجنّبوا لعظم ما أصابهم من الغرم الدخول في الدين الذي دعوتهم إليه.

وخلاصة ذلك: أن أمرهم لعجيب، فإنك لتدعوهم إلى الله بلا أجر تأخذه منهم بل ترجو ثواب ذلك من ربك، وهم مع ذلك يكذّبونك فيما جئتهم به من الحق جهلاً وعناداً.

٢ - ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾؛ أي: اللوح المحفوظ، أو كل ما غاب عنهم ﴿فَهُمْ﴾ من ذلك الغيب ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ما يريدون من الحجج التي يزعمون أنها تدل على ما

---

(١) روح البيان.

يقولون من التسوية بين المؤمن والكافر، ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك، ويحكمون لأنفسهم بما يريدون، ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامتثال لما تقوله.

ولما بالغ في تزييف طريق الكافرين، وزجرهم عمّا هم عليه أمر رسوله بالصبر على أذاهم، فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾؛ أي: لقضائه الذي قد قضاه في سابق علمه. قيل: والحكم هو إمهالهم وتأخير نصرته عليهم. وقيل: هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة. قيل: وهذا منسوخ بآية السيف كما مرَّ في أول السورة عن ابن حزم.

والمعنى: فاصبر على قضاء ربك وحكمه فيك، وفي هؤلاء المشركين، وامض لما أمرك به ولا يثنك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم لك، وأذاهم إيّاك. روي: أنه ﷺ أراد أن يدعو على ثقيف لما آذوه حين عرض نفسه على القبائل بمكة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن﴾ أيها الرسول الكريم في التضجر والعجلة بعقوبة قومك ﴿كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ يونس بن متّى عليه السلام؛ أي: مثله. ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ صاحب الحوت داعياً إلى الله في بطن الحوت بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾؛ أي: مملوء غيظاً وغما، والجملة حال من فاعل ﴿نَادَىٰ﴾، وعليها يدور النهي، لأنّها عبارة عن الضجرة والمغاضبة المذكورة صريحاً في قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾. لا على النداء، فإنه أمر مستحسن، ولذلك لم يذكر المنادى. و﴿إِذۡ﴾ منصوب بمضاف محذوف؛ أي: لا يكن حالك كحاله وقت ندائه، أي: لا يوجد منك ما وجد منه من الضجرة والمغاضبة، فتبتلى ببلائه، وهو التقام الحوت أو بنحو ذلك. قال قتادة: إنّ الله سبحانه يعزي نبيه ﷺ، ويأمره بالصبر، ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت. وقد تقدّم بيان قصته في سورة الأنبياء، ويونس والصافات.

ومعنى الآية[1]: ولا تكن يا محمد كيونس بن متّى حين ذهب مغاضباً لقومه، فكان من أمره ما كان من ركوب البحر، والتقام الحوت له، وشروده به في البحار، فنادى ربه في الظلمات من بطن الحوت، وهو مملوء غيظاً من قومه إذ لم يؤمنوا

---

(١) المراغي.

حين دعاهم إلى الإيمان، وجاء في الآية الأخرى ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقال بعضهم: المعنى[1]: فاصبر لحكم ربك بسعادة من سعد وشقاوة من شقي ونجاة من نجا وهلاك من هلك، ولا تكن كصاحب الحوت في استيلاء صفات النفس عليه، وغلبة الطيش والغضب للاحتجاب عن حكم الرب حتى رد عن جناب القدس إلى مقر الطبع، فالتقمه حوت الطبيعة السفلية في مقام النفس، وابتلي بالاجتنان في بطن حوت الرحم انتهى.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ﴾؛ أي: ناله، وبلغه، ووصل إليه ﴿نِعْمَةٌ﴾؛ أي: رحمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ سبحانه، وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه. وحسن تذكير الفعل للفصل بالضمير، و﴿أن﴾ المصدرية مع الفعل في تأويل مصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره محذوف تقديره: ولولا تدارك نعمة من ربه حاصل ﴿لَنُبِذَ﴾؛ أي: طرح من بطن الحوت، فإن النبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: بالأرض الخالية من الأشجار. قال الراغب: العراء: مكان لا سترة به. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي مليم مطرود من الرحمة والكرامة، لكنّه رحم فنبذ غير مذموم بل سقيماً من جهة الجسد. والجملة حال من مرفوع ﴿نبذ﴾ عليها يعتمد جواب ﴿لَّوْلَآ﴾، لأنها هي المنفية لا النبذ بالعراء، كما في الحال الأولى، لأنه نبذ غير مذموم بل محمود. ومليم من ألام الرجل بمعنى أتى ما يلام عليه، ودخل في اللوم. **فإن قلت**: فسر المذموم بالمليم وقد أثبته الله تعالى بقوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

أجيب: عن ذلك التفسير: بأن الإلامة حين الالتقام لا تستلزم الإلامة حين النبذ، إذ التدارك نفاها، فالتفت على ما هو حكم لولا الامتناعية، كما أشير إليه في تصوير المعنى آنفاً.

والخلاصة: أي لولا أنْ تداركته نعمة الله بتوفيقه للتوبة وقبولها منه.. لطرح بالفضاء من بطن الحوت وهو مليم مطرود من الرحمة والكرامة.

وقرأ الجمهور: ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ فعلاً ماضياً، ولم تلحقه علامة التأنيث لتحسين

---

(١) روح البيان.

الفصل وقرأ أبي، وابن مسعود، وابن عباس ﴿تداركته﴾ بتاء التأنيث. وقرأ الحسن، وابن هرمز، والأعمش بتشديد الدال، والأصل: تتداركه بتاءين مضارعاً، فأدغم، وتكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية.

وقوله: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ معطوف على مقدّر، أي: فتداركته نعمة ورحمة من ربه، فاصطفاه وجمعه إليه، وقرّبه بالتوبة عليه بأن رد إليه الوحي، وأرسله إلى مئة ألف أو يزيدون. يقال: جببت الماء في الحوض: جمعته، والحوض الجامع له جابية، والاجتباء: الجمع على طرق الاصطفاء. وقيل: معناه: استنبأه إن صح أنه لم يكن نبيًّا قبل هذه الواقعة، ومن أنكر الكرامات والإرهاص لا بد أن يختار القول الأول؛ لأنّ احتباسه في بطن الحوت وعدم موته هناك لما لم يكن إرهاصاً ولا كرامة لا بد أن يكون معجزة، وذلك يقتضي أن يكون رسولاً قبل هذه الواقعة؛ أي: استخلصه واصطفاه واختاره للنبوة. ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي؛ من الكاملين في الصلاح بأن عصمه من أن يفعل فعلاً يكون تركه أولى. وقيل: رد إليه النبوة وشفعه في نفسه وفي قومه، وأرسله إلى مئة ألف أو يزيدون كما تقدم. رُوي: أنها نزلت بأحد حين همَّ رسول الله ﷺ أن يدعو على المنهزمين، فتكون الآية مدنية. وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف، كما مرّ. ودلت الآية على فضيلة الصبر، وعلى أن ترك الأولى يصدر من الأنبياء عليهم السلام، وإلا لما كان يونس عليه السلام مليماً، وعلى أن الندم على ما فرط من العبد والتضرع إلى الله لذلك من وسائل الإكرام، وعلى أن توفيق الله نعمة باطنة منه، وعلى أن الصلاح درجة عالية لا ينالها إلا أهل الاجتباء، وعلى أن فعل العبد مخلوق لله لدلالة قوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وعلى أن الصلاح إنما يكون بجعل الله وخلقه، وإن كان للعبد مدخل فيه بسبب الكسب بصرف إرادته الجزئية خلافاً للمعتزلة.

ثم بين سبحانه بالغ عداوتهم له ﷺ، فذكر أنها سرت من القلب إلى النظر، فقال: ﴿وَإِن﴾ مخففة من الثقيلة، واللام دليل عليها؛ أي: وإن الشأن والحال ﴿يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من كفّار مكة؛ أي: يقرب الذين كفروا ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ وينظرونك ﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ نظراً شديداً بمؤخر العين لشدة عداوتهم وبغضهم إياك، بحيث يصيبونك بعيونهم ويصرعونك على الأرض كالمغمى عليه. وقيل: معنى ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ ليأخذونك بالعين.

وقرأ الجمهور: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضم الياء من أزلقه إذا أزل رجله. وقرأ نافع وأهل المدينة بفتحها من: زلق عن موضعه إذا تنحى. وقرأ ابن مسعود وابن عباس، والأعمش، وعيسى، ومجاهد، وأبو وائل ﴿ليزهقونك﴾. أي: يهلكونك بأبصارهم، ذكره في البحر.

وذلك[1] أن الكفار أرادوا أن يصيبوا النبي ﷺ بالعين، فنظرت قريش إليه وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه. والمعنى: وإن يكاد الذين كفروا ليصيبونك بعيونهم عند سماع القرآن منك كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه لشدّة حسدهم وبغضهم إياك. وروي: أنّه كان في بني أسد عيّانون، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله ﷺ فعصمه الله، وأنزل عليه هذه الآية. قيل: كانت العين في بني أسد حتى إن كانت الناقة، أو البقرة لتمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول لجاريته: خذي المكتل والدراهم فائتنا بلحم من لحم هذه، فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر. وقيل: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط ما عناه، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ويفعل به مثل ذلك، فعصم الله نبيه ﷺ، وأنزل ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: ينفذونك ويطعنونك بأبصارهم لشدّة بغضهم إيّاك. وقيل: يصرعونك بأبصارهم على الأرض كالمغمى عليه. وقيل: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة.

وإنما أراد سبحانه أنهم ينظرون إليك إذا قرأت نظراً شديداً بالعداوة والبغض يكاد يسقطك على الأرض، ومنه: قولهم: نظر إليَّ نظراً: يكاد يصرعني أو يكاد يهلكني، يدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهو قوله: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ لأنهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، ويحدون النظر إليه بالبغضاء. ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول بعضهم لبعض: إذا سمعوه يقرأ القرآن: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن محمداً ﷺ ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ حيرةً في أمره وتنفيراً للناس منه.

أي: ﴿وَيَقُولُونَ﴾[2] لغاية حيرتهم في أمره ﷺ ونهاية جهلهم بما في القرآن من

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.

بدائع العلوم، لتنفير الناس منه، وإلا فقد علموا أنه أعقلهم: ﴿إِنَّهُ﴾ ﷺ ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ أي: مصابٌ بريح من الجن. والظاهر أنه مثل قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ أي: يأتيه رئي من الجن فيعلمه. ولما كان مدار حكمهم الباطل ما سمعوا منه ﷺ.. رد ذلك ببيان علو شأنه وسطوع برهانه، فقال: ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ من الجن والإنس. والجملة حال من فاعل ﴿يقولون﴾، مفيدة[1] لغاية بطلان قولهم، وتعجيب للسامعين من جراءتهم على التفوّه بتلك الجريمة العظيمة؛ أي: يقولون ذلك، والحال أنَّ القرآن ذكر للعالمين من الثقلين؛ أي: تذكير وعظة لهم، وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، فأين من أنزل عليه ذلك، وهو مطلع على أسراره طرًّا؟ ومحيط بجميع حقائقه خبراً مما قالوا في حقه من الجنون؛ أي: إن هذا القرآن من أولى الأمور الدالة على كمال عقله وعلو شأنه، فمن نسب إليه القصور فإنما هو من جهله وجنته، فإن الفضل لا يعرفه إلا ذووه.

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ عَيْنٌ صَحِيْحَةٌ   فَلاَ غَرْوَ أَنْ يَرْتَابَ وَٱلصُّبْحُ مُسْفِرُ

وقيل معناه: وما هو إلا فضل وشرف للعالمين لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾. وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ وكونه ذكراً وشرفاً للعالمين لا ريب فيه. وفيه إشارة إلى سادات أمته وأركان دينه.

خاتمة

وعن الحسن البصريّ قال: دواء من أصابته العين أن تقرأ عليه هذه الآية. وفي «الأسرار المحمدية» قيل: إنَّ في هذه الآية خاصية لدفع العين حملا وغسلاً وشرباً انتهى. وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حقّ»، زاد البخاري و«نهى عن الوشم». وأخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «العين حقّ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا».

وعن عبيد الله بن رفاعة الزرقي رضي الله عنه: أنّ أسماء بنت عميس كانت

(١) روح البيان.

تقول: يا رسول الله إنّ ولد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: نعم، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين» أخرجه الترمذي؛ أي: «لو كان شيء مهلكاً أو مضراً بغير قضاء الله وقدره.. لكان العين» أي: إصابتها لشدة ضررها. ومعنى «العين حقّ» أي: أثرها في المعين واقع، ولما كان ظهور القضاء بعد العين.. أضيف ذلك إليها.

وقد صح من عدة طرق حديث: «أنّ العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر». وروى أحمد عن أبي ذرّ مرفوعاً: «أن العين لتولع بالرجل بإذن الله حتى يصعد حالقاً ثم يتردى منه».

والأحاديث في هذه الباب كثيرة، وسرُّ هذا أنَّ من خصائص بعض النفوس أن تؤثر في غيرها بوساطة العين لما فيها من كهربية خاصة يكون بها تأثير فيما تنظر إليه، والله يختص ما شاء بما شاء، وشبيه بهذا تأثير بعض النفوس في بعض بوساطة التنويم المغناطيسي الذي أصبح الآن فنًّا له أساليب علمية لا يمكن إنكارها.

ولا تختص العين بالإنس بل تكون في الجن أيضاً. وقيل: عيونهم أنفذ من أسنة الرماح. وعن أمّ سلمة رضي الله عنها: أنَّ النبي ﷺ رأى في بيتها جارية تشتكي وفي وجهها صفرة، فقال: «استرقوا لها، فإن بها النظرة» وأراد بها العين «أصابتها من الجن». وورد في الرقية عنها أحاديث منها: حديث أم سلمة هذا.

ومنها: حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ في أوّل النهار، فرأيته شديد الوجع، ثم عدت إليه آخر النهار فوجدته معافى فقال: إن جبريل أتاني فرقاني، فقال: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ومن كل عين وحاسد، الله يشفيك، قال النبي ﷺ فأفقت. والرقية مصدر رقاهُ الراقي رقيا ورقية إذا عوذه ونفث في عوذته، فالرقية القراءة على المريض، وينفث عليه. وإنما تكره الرقية إذا كانت بغير لسان العرب، ولا يدرى ما هو ولعله يدخله سحر أو كفر. وأما ما كان بآي من القرآن، أو بشيء من الدعوات والأذكار، وأسماء الله تعالى فلا بأس به، كما في حديث عبادة بن الصامت.

ويجوز التعوذ والتحصن منها، فقد كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين، فيقول: أعوذ بكلمات الله التامة من كلّ شيطان وهامّة، ومن كلّ عين لامّة، ويقول:

هكذا كان يعوّذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق عليهم السلام. ويجوز الاحتراز منها، فقد كان يعقوب عليه السلام خاف على أولاده من العين، لأنهم كانوا أعطوا جمالاً وقوةً وامتداد قامة، وكانوا ولد رجل واحد، فقال: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾. فأمرهم أن يتفرقوا في دخولها لئلا يصابوا بالعين.

ومما يدفع العين ما روي: أنَ عثمان بن عفان رضي الله عنه رأى صبيًّا مليحاً فقال: دسموا نونته لئلا تصيبه العين؛ أي: سودوا نقرة ذقنه. قالوا: ومن هذا القبيل نصب عظام الرؤوس في المزارع والكروم، ووجهه أن النظر الشؤم يقع عليها أوّلاً فتكسر سورته فلا يظهر أثره.

ومن الشفاء من العين: أن يقرأ على ماء في إناء نظيف قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾، والفاتحة، وآية الكرسي، وست آيات الشفاء، وهي: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾. ويسقى المريض من ذلك الماء، ويغسل به.

ومن الشفاء: أن يؤمر العائن فيغتسل، أو يتوضأ بماء ثم يغتسل به المعين، كما ورد به الحديث.

قيل وجه إصابة العين: أن الناظر إذا نظر إلى شيء واستحسنه، ولم يرجع إلى الله، وإلى رؤية صنعه قد يحدث الله سبحانه في المنظور علة بجناية نظره على غفلة ابتلاء لعباده، ليقول المحق؛ إنه من الله وغيره من غيره، فيؤاخذ الناظر لكونه سببها.

ووجَّهها بعضهم[1]: بأن العائن قد ينبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد، كما قيل ذلك في بعض الحيّات، وبه يحصل الجواب عمن أنكر إصابة العين، كبعض المعتزلة وقال: إنها لا حقيقة لها، لأن تأثير الجسم في الجسم لا يعقل إلا بواسطة المماسة ولا مماسة هنا، فامتنع حصول التأثير انتهى.

وفائدة الرقي: أن الروح إذا تكيفت به، وقويت واستعانت بالنفث والتفل

---

(١) روح البيان.

قابلت ذلك الأثر الذي حصل من النفوس الخبيثة والخواص الفاسدة فأزالته.

والحاصل: أن الرقية بما ليس بشرك مشروعة، لكن التحرز من العين لازم، وأنه واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرك ويقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه، فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة، ومن عرف بإصابة العين منع مداخلة الناس دفعاً لضرره. وفي هذا المقام مباحث كثيرة نافعة جداً من المسائل الفقهية والطبية ضربنا عنها صفحاً خوفاً من الإطالة.

الإعراب

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣﴾.

﴿نٓۚ﴾: تقدم غير مرّة أنّ الأصح الأسلم في الحروف المقطعة في أوائل السور أنها من المشتبهات التي استأثر الله سبحانه بعلمها، فليس معناها معلوماً لنا، فإذاً لا إعراب لها؛ لأنّ الإعراب فرع عن إدراك المعنى. ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿القلم﴾ مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالقلم. وجملة القسم مستأنفة استئنافاً نحويًّا، أقسم تعالى به تعظيماً لشأنه. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية، معطوفة على ﴿القلم﴾، وجملة ﴿يَسۡطُرُونَ﴾ صلة للموصول الاسميّ، والعائد محذوف؛ أي: وما يسطرونه، والتقدير: أقسم بالقلم أوّلاً، ثم بمسطور الملائكة. أو صلة للموصول الحرفيّ، والتقدير: أقسم بالقلم، ثم بسطر الملائكة، فالمقسم به شيئان على ثلاثة أشياء: نفي الجنون عنه، وثبوت الأجر له، وكونه على الملة الحنيفية السمحاء. ﴿مَآ﴾ نافية حجازية، ﴿أَنتَ﴾ اسمها، ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمعنى النفي المدلول عليه بـ ﴿ما﴾، والباء سببية، ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾ خبر ﴿ما﴾ الحجازية، والباء زائدة في خبرها، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، والمعنى: انتفى عنك الجنون بسبب إنعام ربّك عليك بالنبوة. ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿لَكَ﴾ خبرها مقدم، ﴿لَأَجۡرًا﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿أجراً﴾ اسمها مؤخّر، ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ صفة ﴿أجراً﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿مَآ﴾ الحجازية على كونها جواب القسم.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

﴿وَإِنَّكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ﴾ جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾، واللام: حرف ابتداء، ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة ﴿خُلُقٍ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة أيضاً على جملة ﴿ما﴾ الحجازية على كونها جواب القسم. ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ الفاء: استئنافية والسين حرف استقبال، ﴿تبصر﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾. ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ اختلف المعربون في إعرابه اختلافاً كثيراً، ونورد أرجح الأقوال منها، وهي أربعة:

الأوّل: أنّ الباء مزيدة في المبتدأ، و﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ خبره، والتقدير: أيّكم المفتون. فزيدت الباء كزيادتها في نحو: بحسبك درهم.

والثاني: أنّ الباء بمعنى في الظرفية، وهي مع مجرورها خبر مقدم، ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ مبتدأ مؤخّر نظير قولك: زيد بالبصرة؛ أي: فيها. والمعنى أي: في أيّ فرقة وطائفة منكم المفتون.

والثالث: أنّه على حذف مضاف؛ أي: بأيّكم فتن المفتون، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وتكون الباء سببية.

والرابع: أنَّ المفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور، والتقدير: بأيّكم الفتون. والجملة على كل التقادير في محل النصب معمولة لما قبلها، لأنه معلق عنها باسم الاستفهام.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿أَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة الابتدائية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿بِمَن﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ وجملة ﴿ضَلَّ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ متعلق بضلّ، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ مبتد وخبر، والجملة في محل الرفع معطوفة على ما قبلها على كونها خبر لـ ﴿إِنَّ﴾، ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ ﴿فَلَا تُطِعِ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك من علم الله بحال كل من الفريقين، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: لا

تطع. ﴿لاَ﴾ ناهية جازمة، ﴿تُطِعِ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمّد مجزوم بلا الناهية، ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَدُّواْ﴾ فعل ماض، والواو: فاعل، ﴿لَوْ﴾ مصدرية، ﴿تُدْهِنُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة صلة لـ ﴿لو﴾ المصدرية، ﴿لو﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ودّوا إدهانك معهم. ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والفاء: عاطفة سببية، والجملة معطوفة على صلة ﴿لو﴾ المصدرية، والتقدير: تمنّوا إدهانك معهم فإدهانهم معك. فالمتمنىٰ شيئان، ثانيهما متسبب عن الأوّل. وجملة ﴿ودّوا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة على كونها معلّلة لجملة النهي قبلها.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ ناهية، ﴿تُطِعْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾. ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿مَّهِينٍ﴾ صفة أولى لـ ﴿حَلَّافٍ﴾ ﴿هَمَّازٍ﴾ صفة ثانية له، ﴿مَّشَّآءِۭ﴾ ثالثة، ﴿بِنَمِيمٍ﴾ متعلق بـ ﴿مَّشَّآءِۭ﴾، ﴿مَّنَّاعٍ﴾ رابعة، ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ متعلق بـ ﴿مَّنَّاعٍ﴾، ﴿مُعْتَدٍ﴾ خامسة، ﴿أَثِيمٍ﴾ سادسة، ﴿عُتُلٍّۭ﴾ سابعة، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿زَنِيمٍ﴾، و﴿زَنِيمٍ﴾ صفة ثامنة، وهذه البعدية في الرتبة؛ أي: هذا الوصف، وهو زنيم متأخر في الرتبة والشناعة عن الصفات السابقة. فـ﴿بَعْدَ﴾ هنا كـ ثمّ التي للترتيب والتراخي في الرتبة، كما مرّ. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل النصب بـ﴿أنْ﴾، واسمها ضمير يعود على كلّ حلاف، ﴿ذَا مَالٍ﴾ خبرها، ﴿وَبَنِينَ﴾ معطوف على مال، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: لكونه ذا مال وبنين. قال الزمخشري: الجار والمجرور متعلّق بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾: أي: لا تطعه مع هذه المثالب لكونه ذا مال وبنين. وقيل: متعلق بما دل عليه إذا تتلى؛ أي: كذّب بآياتنا لكونه ذا مال وبنين، ولا يصحُّ أن يكون معمولاً لـ﴿قال﴾ الذي هو جواب الشرط؛ لأنَّ ما بعد أداة الشرط لا يعمل

فيما قبلها، ولا أن يكون معمولاً لفعل الشرط؛ لأنّ إذا تضاف للجملة بعدها، والمضاف إليه لا يعمل فيما قبل المضاف. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿تُتْلَىٰ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ نائب فاعل لـ﴿تُتْلَىٰ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾ على كونه فِعْلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الحلاف، وجملة قال جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي أساطير الأوّلين، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ السين حرف استقبال، ﴿نسمه﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ متعلق بـ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والهاء: عائد إلى أهل مكة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿كَمَا﴾ الكاف حرف جرّ وتشبيه، و﴿ما﴾ مصدرية، ﴿بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، وجملة ﴿ما﴾ المصدرية مع مدخولها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: إنا بلوناهم بلاء كائناً كبلائنا أصحاب الجنة. ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، مجرّد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿بلونا﴾ الثاني، ﴿أَقْسَمُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ اللام موطئة للقسم ﴿يصرمن﴾ فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، أصله: ليصرموننها، والهاء مفعول به، ﴿مُصْبِحِينَ﴾ حال من فاعل ﴿يصرمنها﴾، وهو اسم فاعل من أصبح التامة بمعنى دخل في الصباح، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية أو استئنافية، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَسْتَثْنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل أقسموا أو مستأنفة، أي: لا يستثنون في أيمانهم. ويضعف كون الواو حالية من حيث إن المضارع المنفيّ بـ ﴿لا﴾ كالمثبت في عدم دخول الواو عليه، وإلا فبإضمار مبتدأ قبله حتى تكون الجملة اسمية.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَطَافَ﴾ الفاء عاطفة، ﴿طاف﴾ فعل ماض، ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق بطاف، ﴿طَآئِفٌ﴾ فاعل، ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ صفة لطائف، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَقْسَمُواْ﴾. ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ضمير عليها على تقدير صاحب الحال؛ أي: على جنتهم. ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ الفاء عاطفة، ﴿أصبحت﴾ فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على الجنة، تقديره: هي. ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة ﴿طاف﴾. ﴿فَتَنَادَوْاْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿تنادوا﴾ فعل ماض وفاعل، ﴿مُصْبِحِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تنادوا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَقْسَمُواْ﴾، ﴿أَنِ﴾ مفسرة؛ لأنّها مسبوقة بما فيه معنى القول دون حروفه، ويجوز أن تكون مصدرية، فتكون هي ومدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، والجار المقدر متعلق بـ ﴿تنادوا﴾، أي: تنادوا بالغدوّ ﴿ٱغْدُواْ﴾ فعل أمر، ﴿والواو﴾: فاعل، ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ متعلق به، الجملة مفسرة لـ ﴿تنادوا﴾، لا محل لها من الإعراب، ﴿إنْ﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية، ﴿صَٰرِمِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم صارمين فاغدوا على حرثكم، وجملة الشرط معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿تنادوا﴾، ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿انطلقوا﴾، ﴿أَن﴾ مفسّرة أو مصدرية ﴿لَّا﴾ نافية، ﴿يَدْخُلَنَّهَا﴾ ﴿يدخلن﴾ فعل مضارع في محل الرفع، أو في محل النصب مبنيّ على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والهاء: مفعول به على السعة، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿يدخلن﴾، ﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق به أيضاً، ﴿مِّسْكِينٌ﴾ فاعل، والجملة مفسرة لـ ﴿تنادوا﴾ أيضاً، لا محل لها من الإعراب. أو في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: فتنادوا بأن لا يدخلنها عليكم مسكين، أي: بعدم دخول مسكين فيها عليكم. ﴿وَغَدَوْاْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿انطلقوا﴾، ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ متعلق بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، و﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من فاعل ﴿غدوا﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ

﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾ اسم شرط غير جازم، في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان ﴿رَأَوْهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول به والجملة فعل شرط لـ ﴿لمّا﴾، في محل جر بالإضافة والرؤية هنا بصرية، ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل جواب لمّا، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لمّا﴾ معطوفة على جملة ﴿غدوا﴾. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَضَآلُّونَ﴾ خبره، واللام: حرف ابتداء، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿بَلْ﴾ حرف عطف وإضراب، ﴿نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريريّ، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿أَقُل﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على المتكلم مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿لَّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض بمعنى هلاّ، ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: تسبّحون الله. والجملة في محل النصب مقول ﴿أَقُل﴾، وإن شئت قلت: مقول محكيّ لـ﴿أَقُل﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿سُبْحَٰنَ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً تقديره: نسبّح ربّنا تسبيحاً، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، و﴿رَبِّنَآ﴾ مضاف إليه، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿فَأَقْبَلَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أقبل بعضهم﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ متعلق بـ ﴿أقبل﴾، وجملة ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿أقبل﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿ويلنا﴾ منادىٰ مضاف والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كُنَّا طَٰغِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿عَسَىٰ﴾ فعل ماض ناقص من أفعال الرجاء، و﴿رَبُّنَآ﴾ اسمها، ﴿أن﴾ حرف نصب ﴿يُبْدِلَنَا﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أن﴾، و﴿نا﴾ مفعول أوّل، وفاعله ضمير يعود على الربّ سبحانه، ﴿خَيْرًا﴾ مفعول ثان، ﴿مِّنْهَآ﴾ متعلق بـ

﴿خَيْرًا﴾، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع مدخولها في تأويل مصدر منصوب على كونه خبراً لعسى، ولكنّه في تأويل اسم الفاعل؛ أي: عسى ربنا إبدالنا؛ أي: مبدلاً إيّانا خيراً منها. وجملة ﴿عَسَىٰ﴾ في محل النصب مقول قالوا، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ متعلق بـ ﴿رَٰغِبُونَ﴾، و﴿رَٰغِبُونَ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول قالوا على كونها معلّلة لما قبلها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، واللام حرف ابتداء، ﴿عذاب الآخرة﴾ مبتدأ، ﴿أَكْبَرُ﴾ خبر، والجملة مستأنفة أيضاً. ﴿لَوْ﴾ حرف شرط، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف دل عليه سياق الكلام، تقديره: لو كانوا يعلمون أنّه أكبر لما فرط منهم ما سلف من ظلم وإحجام عن الاستثناء، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبرها مقدم، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من جنات أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخّر ومضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما أعدّ الله للمتقين يوم القيامة. ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالمجرمين، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿نجعل﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على تلك المحذوفة، ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ مفعول أوّل، ﴿كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في موضع المفعول الثاني، وهذا أوّل توبيخ وتقريع للكافرين، ستأتي بعده ستة توبيخات أخرى. وقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ هو التقريع الثاني. ﴿مَآ﴾ اسم استفهام، مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبر، والجملة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تَحْكُمُونَ﴾، و﴿تَحْكُمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب على الحال من ضمير ﴿لَكُمْ﴾، وهذا هو التقريع الثالث. ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل الإضرابيّة وهمزة الإنكار، وهذا هو التقريع الرابع، ﴿لَكُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ مؤخّر، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَدْرُسُونَ﴾، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿تَدْرُسُونَ﴾ فعل

وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿لكم﴾ أو مستأنفة.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب قائم مقام ﴿أنّ﴾ المفتوحة في كونه معمولاً لما قبله، ولكن كسرت همزته لمكان اللام بعدها، ﴿لَكُمْ﴾ خبرها مقدم، ﴿فِيهِ﴾ حال من ﴿ما﴾ الموصولة المذكورة بعده، ﴿لَمَا﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿مَآ﴾ اسم موصول في محل النصب اسمها مؤخر، وجملة ﴿تَخَيَّرُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مفعول ﴿تَدْرُسُونَ﴾، علق عنها باللام، لأنها هي المدروسة. ﴿أَمْ لَكُمْ﴾ هذا هو التقريع الخامس، ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل، وهمزة الإنكار، ﴿لَكُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿أَيْمَٰنٌ﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿عَلَيْنَا﴾ صفة أولى لـ ﴿أَيْمَٰنٌ﴾، ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ صفة ثانية، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر أعني: ﴿لَكُمْ﴾ أو بـ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾؛ أي: تبلغ إلى ذلك اليوم، وتنتهي إليه. وفي قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ...﴾ إلخ، معنى القسم كأنّه قيل: أقسمنا لكم أيماناً موثقة، وجملة قوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جواب القسم الملحوظ، فلا محل لها من الإعراب، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لَكُمْ﴾ خبرها مقدم، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿مَآ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخّر، وجملة ﴿تَحْكُمُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَآ﴾. ﴿سَلْهُمْ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول أوّل، والجملة مستأنفة. ﴿أَيُّهُم﴾ مبتدأ، ﴿بِذَٰلِكَ﴾ متعلق بزعيم، و﴿زَعِيمٌ﴾ خبر ﴿أَيُّهُم﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿سأل﴾، لأنّها تنصب مفعولين، علّقت عن العمل في لفظه بالاستفهام الذي هو التقريع السادس.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ هذا هو التقريع السابع، ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل، وهمزة الإنكار ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم، ﴿شُرَكَآءُ﴾ مبتدأ مؤخّر، وهذه الجملة معطوفة في المعنى على جملة ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾. ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان الأمر كذلك، وأردت بيان ما هو اللازم لهم.. فأقول لك: ﴿ليأتوا بشركائهم﴾. واللام لام الأمر، ﴿يأتوا﴾ فعل مضارع، مجزوم بلام

الأمر، والواو: فاعل، ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يأتوا﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ فعل ناقص واسمه، وخبره في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، تقديره: إن كانوا صادقين فليأتوا بشركائهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة. ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ اذكر مقدّراً؛ أي: واذكر لهم أهوال يوم يكشف عن ساق، أو متعلق بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾، ﴿يُكْشَفُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿عَن سَاقٍ﴾ نائب فاعل له، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿يدعون﴾ فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿يُكْشَفُ﴾، ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ متعلق بـ﴿يدعون﴾، ﴿فَلَا﴾ الفاء: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يدعون﴾، ﴿خَٰشِعَةً﴾ حال من ضمير ﴿يدعون﴾، ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فاعل ﴿خَٰشِعَةً﴾، ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ فعل مضارع ومفعول به، ﴿ذِلَّةٌ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب حال ثانية من ﴿واو﴾ ﴿يُدْعَوْنَ﴾، ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾ حرف تحقيق، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يُدْعَوْنَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾ في محل النصب حال ثالثة من ﴿واو﴾ ﴿يُدْعَوْنَ﴾ الأوّل، ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ متعلق بـ﴿يدعون﴾، ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم سالمون﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ﴿واو﴾ ﴿يدعون﴾ الثاني.

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَذَرْنِى﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا كانت أحوالهم كذلك، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: ذرني. وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿ذرني﴾ فعل أمر، ونون وقاية، ومفعول به، وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب، معطوف على الياء، أو في محل النصب مفعول معه، والأوّل أرجح كما مرّ. ﴿يُكَذِّبُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر والجملة صلة الموصول، ﴿بِهَٰذَا﴾ متعلق بـ ﴿يُكَذِّبُ﴾، ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ بدل من اسم الإشارة. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ السين حرف استقبال، ﴿نستدرجهم﴾ فعل مضارع وفاعل

مستتر ومفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الأمر السابق إجمالاً، والضمير لـ﴿مَن﴾، والجمع باعتبار معناها كما أنَّ الإفراد في ﴿يُكَذِّبُ﴾ باعتبار لفظها، ﴿مِّنْ حَيْثُ﴾ جار ومجرور متعلّق بـ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الجر بإضافة الظرف إليه، ﴿وَأُمْلِي﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أملي﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿كَيْدِى﴾ اسمها، ﴿مَتِينٌ﴾ خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ حرف عطف بمعنى بل وهمزة الاستفهام، ﴿تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعولان، والجملة معطوفة من حيث المعنى على قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾. ﴿فَهُم﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وسبب، ﴿هم﴾ مبتدأ، ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ متعلق بـ﴿مُّثْقَلُونَ﴾، و﴿مُّثْقَلُونَ﴾ خبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها مسبّبة عنها. ﴿أَمْ﴾ حرف عطف بمعنى بل وهمزة الاستفهام، ﴿عِندَهُمُ﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾، ﴿فَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَكْتُبُونَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿فَٱصْبِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: اصبر. ﴿اصبر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ ﴿اصبر﴾ ومضاف إليه، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَكُن﴾ فعل مضارع ناقص، مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، واسمها ضمير يعود على محمد، ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر ﴿تَكُن﴾، وجملة ﴿تَكُن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿اصبر﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمضاف محذوف تقديره؛ أي: ولا يكن حالك كحال يونس إذ نادى، وقصتك كقصته في وقت ندائه، والمعنى: لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائِهِ. ﴿نَادَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿هو مكظوم﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نادى﴾.

﴿لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لَوْلَآ﴾ حرف امتناع لوجود مضمّن معنى الشرط، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿تَدَارَكَهُۥ﴾ فعل ماض، ومفعول به في محل النصب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿نِعْمَةٌ﴾ فاعل، ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ صفة لنعمة، وذكر الفعل لأنَّ تأنيث النعمة غير حقيقي. والجملة الفعليّة مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ خبره محذوف وجوباً تقديره: لولا تدارك نعمة من ربّه موجود ﴿لَنُبِذَ﴾ اللام رابطة لجواب ﴿لولا﴾، ﴿نبذ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿يونس﴾، ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ متعلق بـ ﴿نبذ﴾. أي: بالأرض الفضاء الجرداء، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْلَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْلَآ﴾ مستأنفة. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هو مذموم﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من مرفوع ﴿نبذ﴾.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على مقدر معلوم من السياق تقديره: فأدركته نعمة من ربه فاجتباه. ﴿اجتبى﴾ فعل ماض، والهاء: مفعول به، ﴿رَبُّهُۥ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿جعله﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أوّل، ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في موضع المفعول الثاني، والجملة معطوفة على جملة ﴿اجتباه﴾. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِنْ﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: وإنّه، ﴿يَكَادُ﴾ فعل مضارع من أفعال المقاربة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿يزلقونك﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، ﴿والواو﴾: فاعل، الكاف: مفعول به، ﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ متعلق به، وجملة ﴿يزلقونك﴾ في محل النصب خبر ﴿كاد﴾، وجملة ﴿كاد﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة مستأنفة. ﴿لَمَّا﴾ ظرف بمعنى حين في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ ﴿يزلقونك﴾ ﴿سَمِعُوا۟﴾ فعل وفاعل، ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿لَمَّا﴾، أو ﴿لَمَّا﴾ شرطية وجوابها محذوف تقديره: لمّا سمعوا الذكر كادوا يزلقونك، والأوّل أولى بل هو المتعين من حيث المعنى. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ فعل،

وفاعل، معطوف على ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾، ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿مجنون﴾ خبره، الجملة في محل النصب مقول ﴿يقولون﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿ما﴾ نافية مهملة لانتقاض نفيها بـ ﴿إِلَّا﴾، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ذِكْرٌ﴾ خبر المبتدأ، ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ صفة لـ﴿ذِكْرٌ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يقولون﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ والقلم: ما يكتب به، وعن بعض الحكماء: قوام أمور الدين والدنيا بشيئين: القلم والسيف، والسيف تحت القلم ولولا القلم.. لما قام دين، ولا صلح عيش، كما مرّ. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾؛ أي: وما يكتبون. والسطر: الصفّ من الكتابة ومن الشجر المغروس، ومن القوم الوقوف. ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ والجنون: شيء حائل بين النفس والعقل، وجنّ فلان إذا أصابه الجنّ أو أصاب جنانه أو حيل بين نفسه وعقله، فجن عقله ذلك. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع، يقال: منه السير إذا أضعفه، والمنين: الضعيف. ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾﴾ يقال: أبصرته وبصرت به: علمته وأدركته، فإن البصر يقال للجارحة الناظرة ولقوة القلب المدركة، ولا يكاد يقال للجارحة: بصيرة. ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ المفتون إما اسم مفعول بمعنى المجنون، أو مصدر بمعنى الفتون، وهو الجنون كالمعقول بمعنى العقل. والمجنون: هو من لا يفرق بين ما يضره وينفعه، فيحسب الضر نفعاً والنفع ضراً، والضال كذلك.

﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿ضلّ﴾ أصله: ضلل بوزن فعل، أدغمت اللام الأولى في الثانية، وقوله: ﴿المهتدين﴾ فيه إعلال بالحذف، أصله: المهتديين بياءين: الأولى لام الكلمة، والثانية ياء الجمع، حذفت حركة الياء الأولى للتخفيف فسكنت فحذفت لالتقائها ساكنة مع ياء الجمع الساكنة. ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ أصله: تطوع، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت فالتقت ساكنة مع آخر الفعل المجزوم لدخول الجازم، وهو ﴿لا﴾ الناهية، فحذفت الواو لذلك. ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾ من الإدهان، والإدهان في الأصل مثل التدهين، واشتقاقهما من الدهن، لكن جعل عبارة عن الملاينة وترك الجد. وقال الليث: الإدهان: اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام. وقال المبرد: يقال: داهن الرجل في دينه، وداهن في أمره إذا

أظهر خلاف ما يضمر.

﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾؛ أي: كثير الحلف في الحقّ والباطل. ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير الرأي والتدبير، من المهانة، وهي الذلّة والحقارة. ﴿هَمَّازٍ﴾؛ أي: عيّاب طعّان مغتاب. وقيل: الهمّاز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، والهمّاز مبالغة هامز، والهمز: الطعن والضرب والكسر والعيب. وفي «المختار»: واللمز: العيب، وأصله: الإشارة بالعين ونحوها، وبابه: ضرب ونصر. وقرىء بهما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. ورجل لـمّازٌ لُمزة بوزن هُمزة أي: عيّاب، وفيه أيضاً، والهمز كاللمز وزناً ومعنى، يقال: رجل هُمزة وامرأة هُمزة، ومنه: المهمز والمهماز بكسر الميم: حديدة تطعن بها الدابّة، قيل لأعرابيّ: أتهمز الفأرة؟ قال: السنور يهمزها. ﴿مَّشَّآءِۭ﴾ صيغة مبالغة؛ أي: ساع بالكلام بين الناس على وجه الإفساد بينهم. ﴿بِنَمِيمٍ﴾ النميم قيل: هو مصدر كالنميمة، وقيل: هو اسم جنس لها كتمرة وتمر، وهو نقل الكلام الذي يسوء سامعه ويحرش بين الناس لتأريث نار البغضاء في الصدور. وفي «المصباح»: نمَّ الرجل الحديث نما من بابي قتل وضرب: سعى به ليوقع فتنة أو وحشة، فالرجل نم تسمية له بالمصدر، ونمّام مبالغة، والاسم: النميمة والنميم أيضاً. وقال الزمخشري: النميم والنميمة: السعاية بين الناس بالإفساد.

وقوله: ﴿مَّشَّآءِۭ﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: مشّاي، أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾؛ أي: بخيل بالمال، والخير هنا يراد به عموم ما يطلق عليه. ﴿عُتُلٍّ﴾؛ أي: غليظ جاف. قيل: في الطبع، وقيل: في الجسم. وقال أبو عبيدة: هو الفاحش اللئيم، وقيل: الغليظ الجافي اهـ. وقيل: الشديد الخصومة الفظّ الغليظ، ووزنه فعل بضمتين وتشديد اللام. ﴿مُعْتَدٍ﴾ والمعتدي الذي يتجاوز الحق ويسير في الباطل. ﴿أَثِيمٍ﴾ والأثيم: كثير الآثام والذنوب. قوله: ﴿عُتُلٍّ﴾ أيضاً من عتله إذا قاده بعنف وغلظة. قال الراغب: العتل: الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر كمثل البعير. وفي «القاموس»: العتل بضمتين مشددة اللام الأكول المنيع الجافي الغليظ. ﴿زَنِيمٍ﴾ والزنيم الذي يعرف بالشر واللؤم، كما تعرف الشاة بزنمتها «الجزء المسترخي من أذنها حين تشق، ويبقىٰ كالشيء المعلق». قال الراغب: الزنيم والمزنم: الزائد في القوم وليس منهم والدعي. قال حسان بن ثابت:

وَأَنْـتَ زَنِـيـمٌ نِـيْـطَ فِـي آل هَـاشِـمٍ   كَمَا نِيْطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ

يخاطب حسّان بهذا البيت الوليد بن المغيرة، فيقول: إنّه زنيم؛ أي: معلق في آل هاشم كالزنمة في الإهاب، وهي قطعة جلد صغيرة تترك معلقة بطرفه فشبهه بها، وشبهه بالقدح المنفرد الفارغ المعلق خلف الراكب. ويروى: أنه لما نزلت هذه الآية قال الوليد لأمه: إن محمداً وصفني بتسع صفات أعرفها غير التاسع منها، فإن لم تصدقيني الخبر ضربت عنقك، فقالت له: إن أباك عنين فخفت على المال، فمكنت الراعي من نفسي، فأنت منه.

﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ أصله: سنوسمه، من الوسم، وهو إحداث السمة بالكسر؛ أي: العلامة، والميسم بالكسر؛ المكواة؛ أي: آلة الكي، وفيه إعلال بالحذف أصله في القياس: «سنوسمه، لأنّه مضارع وسم المثاليّ، لكن فاؤه حذفت من المضارع اطراداً لوقوعها بين فتحة وكسرة. ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ الخرطوم: أنف السباع، وغالب ما يستعمل في أنف الفيل والخنزير. وفي «القاموس»: الخرطوم بوزن زنبور: الأنف أو مقدمه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾؛ أي: امتحنّاهم واختبرناهم. يقال: بلي الثوب بلياً؛ أي: خلق بلوته: اختبرته كأني أخلقته من كثرة اختباري له، والبلايا: اختبارات. ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ الصرام والصرم: قطع ثمار النخيل من صرمه إذا قطعه، يقال: صرم العذق عن النخلة، وأصرم النخل؛ أي: حان صرامه مثل: أركب المهر، وأحصد الزرع؛ أي: حان ركوبه وحصاده. وفي «المختار»: صرم النخل: جذه، وبابه: ضرب، وأصرم النخل: حان له أن يُصْرَمَ، والانصرام: الانقطاع، والتصارم: التقاطع، والتصرم: التقطع. وقوله: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ فيه إعلال بالحذف، أصله: ليصرمونها فدخلت نون التوكيد الثقيلة على الفعل فصار ليصرموننها، فاجتمع ثلاث نونات فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال فصار ليصرمونّها، فالتقى ساكنان فحذفت الواو، ولذلك الفعل هنا معرب لعدم مباشرة نون التوكيد، لأنَّ المحذوف لعلة صرفية مقدَّر.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ أصله: يستثنيون بوزن يستفعلون، استثقلت الضمّة على الياء، فحذفت للتخفيف فالتقى ساكنان فحذفت الياء، وضمت النون لمناسبة الواو. قال الراغب: الاستثناء: إيراد لفظ يقتضي رفع بعض ما يوجبه عموم لفظ متقدم أو

يقتضي رفع حكم اللفظ، كما هو فمن الأوّل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾، ومن الثاني قوله: «لأفعلن كذا إن شاء الله، وعبده عتيق وامرأته طالق إن شاء الله.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الراغب: الطوف: الدوران حول الشيء، ومنه: الطائف لمن يدور حول البيت حافظاً كما مرّ، وأصله: طوف قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. وقوله: ﴿طَآئِفٌ﴾ فيه إعلال بإبدال الواو همزة، أصله: طاوف أبدلت الواو همزة حملاً للوصف على الفعل في الإعلال.

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ جمع نائم، وأصله: ناوم من نام ينام، وأصل نام: نوم قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، وأصل ﴿نَآئِمُونَ﴾ على هذا: ناومون أبدلت الواو همزةً حملاً للوصف على الفعل في الإعلال. والنوم: استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، أو أن يتوفَّى الله النفسَ من غير موت إلى آخر ما تقدم. ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ فعيل بمعنى مفعول؛ أي: كالبستان الذي صرمت ثماره بحيث لم يبق فيها شيء. ﴿فَتَنَادَوْا۟﴾ أصله: تناديوا قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنة بواو الجماعة. ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أصله: اغدووا، حذفت حركة الواو لام الكلمة للتخفيف فلما سكنت وبعدها واو الجماعة الساكنة حذفت لام الكلمة، فوزنه: افعوا. قال الراغب: الحرث: إلقاء البذر في الأرض وتهيئتها للزرع، ويسمى المحروث حرثاً، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾. ﴿وَغَدَوْا۟﴾ أصله: غدووا، قلبت الواو الأولى ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنة بواو الجماعة، فوزنه: فعوا. ﴿مِّسْكِينٌ﴾ والمسكين: هو الذي لا شيء له، وهو أبلغ من الفقير. ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ الحرد: المنع عن حدة وغضب، يقال: نزل فلان حريداً؛ أي: ممتنعاً عن مخالطة القوم، وحاردت السنة: منعت قطرها، والناقة: منعت درّا، وحرد: غضب. وفي «المختار»: حرد قصد، وبابه: ضرب، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾؛ أي: على قصد وقيل: على منع، والحرد بالتحريك: الغضب. وقال أبو نصر صاحب الأصمعيّ: هو مخفف، فعلى هذا بابه: فهم. وقال ابن السكيت: وقد يحرك، وعلى هذا بابه: طرب، فهو حارد وحردان. ﴿قَٰدِرِينَ﴾ إما من القدرة، وهو الظاهر، وإما من التقدير وهو التضييق، أي: مضيقين على المساكين.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾؛ أي: يتسارُّون فيما بينهم، وخفي وخفت وخفد ثلاثتها في معنى الكتم. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أصله: رأيوها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ الأصل: لضاللون، أدغمت اللام الأولى في الثانية. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾؛ أي: أعدلهم وخيرهم من قولهم: فلان من وسطة قومه، وأعطني من وسطات مالك، ومنه: قوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾. قال الراغب: الوسط تارةً يقال فيما له طرفان مذمومان كالجود الذي بين البخل والسرف، فيستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط، فيمدح به، نحو: السواء والعدل، ونحو: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، وعلى ذلك ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾. وتارةً يقال فيما له طرف محمود، وطرف مذموم كالخير والشر، ويكنى به عن الرذل، نحو قولهم: وسط بين الرجال تنبيهاً على أنه قد خرج من حد الخير. ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أصله طاغيين بياءين، الأولى لام الكلمة، والثانية ياء الجمع، حذفت حركة الياء الأولى للتخفيف فالتقى ساكنان فحذفت الياء الأولى، فوزنه: فاعين.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال الراغب: ﴿عِندَ﴾ لفظ موضوع للقرب، فتارةً يستعمل في المكان، وتارةً يستعمل في الاعتقاد نحو: عندي كذا، وتارةً في الزلفى والقرب والمنزلة كقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وعلى ذلك قيل: الملائكة المقربون انتهى. ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أصله: تتخيرون فحذفت منه إحدى التاءين. تخيّر الشيء واختياره: أخذ خيره. قال الراغب: الاختيار: طلب ما هو خير فعله، وقد يقال ما يراه الإنسان: خيراً وإن لم يكن خيراً. ﴿كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ قال في «المفردات»: درس الشيء معناه: بقي أثره، ودرست العلم: تناولت أثره بالحفظ. ولما كان تناول ذلك بمداومة القراءة عبَّر عن إدامة القراءة بالدرس. ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ يقال: لفلان عليَّ يمين بكذا إذا ضمنت وكفلت له به وحلفت له على الوفاء. ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أمر من سأل يسأل بحذف العين وهمزة الوصل، قياس هذا الأمر أن يقال: اسألهم بهمزة الوصل وإثبات عين الكلمة الهمزة، لكن الهمزة في بعض الأحيان نقلت حركتها إلى السين، ثم حذفت تخفيفاً فاستغني عن همزة الوصل لتحرك الفاء، فقيل: سلهم بوزن فلهم. وفي بعض الأحيان يأتي الفعل على الأصل فيقال: اسأل، قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، لكن همزة الوصل حذفت من الخط في رسم المصحف مراعاةً لقراءة من

قرأ ﴿سَلْهُمْ﴾ بدون همزة. و﴿الزعيم﴾ بمعنى القائم بالدعوة وإقامة الحجة عليها. قال الراغب: قوله: ﴿زَعِيمٌ﴾ إمّا من الزعامة؛ أي: الكفالة أو من الزعم بالقول، وهو حكاية قول يكون مظنة للكذب. وقيل للمتكفل والرئيس: زعيم للاعتقاد في قولهم: إنه مظنة للكذب. ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ أصله: فليأتيوا استثقلت الضمة على الياء فحذفت فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين وضمّت التاء لمناسبة الواو. ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ والساق فيه إعلال بالقلب، فالألف فيه منقلبة عن واو، أصله: سوق، وساق الشيء: أصله الذي به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان كما مرّ.

﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ أصله: يدعوون بوزن يفعلون، قلبت الواو لام الكلمة ألفاً لتحركها بعد فتح ثمّ حذفت لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فيه إعلال بالنقل والتسكين والقلب، أصله: يستطوعون نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر كسرة فقلبت ياء حرف مدّ. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ والرهق: غشيان الشيء الشيء. ﴿ذِلَّةٌ﴾ يقال: ذلَّ يذلّ ذلا بالضم، وذلة بالكسر وهو ذليل يعني: خوار. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقال: استدرجه إلى كذا إذا استنزله درجة درجة حتى يورطه، واستدرجه إلى كذا: قربه إليه ورقاه من درجة إلى درجة وجعله يدرج على الأرض. قال الخطيب: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾؛ أي: سنأخذهم بعظمتنا على التدريج لا على غرّة في عذاب لا شك فيه. ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ قال بعضهم: الكيد: إظهار النفع وإبطان الضر للمكيد. وفي «المفردات»: الكيد ضرب من الاحتيال، وقد يكون محموداً ومذموماً، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر، وكذلك الاستدراج والمكر. ولكون بعض ذلك محموداً قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، قال بعضهم: أراد بالكيد العذاب والصحيح: أنه الإمهال المؤدّي إلى العذاب انتهى. وفي «التعريفات» الكيد: إرادة مضرّة الغير خفيةً، وهو من الخلق: الحيلة، ومن الله: التدبير بالحق في الخلق كما مرّ ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾؛ أي: مملوء غمًّا وكرباً. قال الماوردي: والفرق بينهما أن الغم في القلب، والكرب في الأنفاس. وقيل: مكظوم: محبوس، والكظم: الحبس، قال المبرد: إنه المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس، ويقال: كظم السقاء إذا ملأه وشدَّ رأسه. ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ والنبذ: إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الاعتداد به، والعراء: الأرض الخالية من الأشجار. قال الراغب: العراء: مكان لا سترة فيه، والهمزة فيه مبدلة من ياء أصله: العراي، أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة، كما تقدم أنَّ ذلك

مطرد في الواو والياء. ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ يقال: جبيت الماء في الحوض: جمعته، والحوض الجامع له: جابية، والاجتباء: الجمع على طريق الاصطفاء. ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أصل يكاد: يكود، قلبت حركة الواو إلى الكاف ثم أبدلت ألفا لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾؛ أي: ينظرون إليك نظراً شديداً يكاد يصرعك ويسقطك من مكانك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المناسبة اللفظيّة في قوله: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، وهي عبارة عن الإتيان بلفظات متّزنات مقّفات.

ومنها: الجناس الناقص بين لفظي ﴿مجنون﴾ و﴿مَمْنُونٍ﴾ لاختلاف الحرف الثاني.

ومنها: الوعيد والتهديد في قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾﴾ وحذف المفعول فيه للتهويل؛ أي: يوم القيامة.

ومنها: إعادة ﴿أَعْلَمُ﴾ في قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ لزيادة التقرير والتأكيد.

ومنها: التهييج للتصميم على مباينتهم ومخالفتهم في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾.

ومنها: صيغ المبالغة في قوله: ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ﴾ ﴿مَّنَّاعٍ﴾ ﴿أَثِيمٍ﴾ ﴿زَنِيمٍ﴾.

ومنها: المناسبة في مجيء هذه الصفات مسرودة على نمط عجيب خلاب، فجاء ﴿حَلَّافٍ﴾ وما بعده ﴿مَّهِينٍ﴾؛ لأنّ النون فيها مع الميم تراخ، ثم جاء ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ بصفتي المبالغة ثم جاء ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾، وبعد ما عد له من المثالب والنقائص أتى بصفتين من أشد معايبه.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿هَمَّازٍ﴾، لأنّه حقيقة في الضراب والطعان، فاستعير للمغتاب الذي يذكر الناس بالمكروه ويظهر عيوبهم ويكسر أعراضهم كأنّه يضربهم بأذاه إيّاهم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ لأنّه كناية عن الإهانة والإذلال والاستيلاد؛ إذ صار كالبهيمة لا يملك الدفع عن وسمه في الأنف، وإذا كان الوسم في الوجه شيناً فكيف به في أكرم عضو فيه؟ وقد قيل: الجمال في الأنف، قال بعضهم:

وَحُسْنُ ٱلْفتىٰ في ٱلأَنْفِ وَالأنفُ عَاطِلٌ   فَكَيْفَ إذَا مَا ٱلْخَالُ كَانَ لَهُ حَلْيا

وجعلها الرازي استعارة، استعار الخرطوم للأنف؛ لأنَّ الخرطوم حقيقة في أنف الفيل والخنزير، فاستعير لأنف الإنسان. وفي «السمين»: وهو هنا عبارة عن الوجه كله من التعبير عن الكل باسم الجزء، لأنّه أظهر ما فيه وأعلاه، فيكون مجازاً مرسلاً.

ومنها: الطباق بين ﴿ضَلَّ﴾ و﴿المهتدين﴾، وبين ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ و﴿المجرمين﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾.

ومنها: تنكير ﴿طَآئِفٌ﴾ للإبهام تعظيماً لما أصاب جنّتهم.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

ومنها: التقريع والتوبيخ في قوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ والجمل التي بعدها.

ومنها: التشبيه المقلوب بجعل المشبه به مشبّهاً والعكس في قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾؛ لأنّ الأصل: أفنجعل المجرمين كالمسلمين في الأجر والمثوبة، فقلب التشبيه ليكون أبلغ وأروع.

ومنها: تقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ لإفادة الحصر.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ لتأكيد الرد وتشديده.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ على ما قالوا: شبهت حال من اشتد عليه الأمر في الموقف بالمخدّرات اللاتي اشتد عليهنّ الأمر، فاحتجن إلى تشمير سوقهنّ في الهرب بسبب وقوع أمر هائل بالغ إلى نهاية الشدّة مع أنّهنّ لا يخرجن من بيوتهنّ، ولا يبدين زينتهن لغير محارمهنّ لغاية خوفهنّ، وزوال

عقلهنّ من دهشتهن وفرارهن لخلاص أنفسهن، فاستعمل في حق أهل الموقف من الأشقياء ما يستعمل في حقهن من غير تصرف في مفردات التركيب، بل التصرف إنما هو في الهيئة التركيبية، فكشف الساق استعارةٌ تمثيلية في اشتداد الأمر وصعوبته. قال الفناري في تفسير سورة الفاتحة: فالساق التي كشفت لهم عبارة عن أمر عظيم من أهوال يوم القيامة.

ومنها: تنكير الساق لغرض الإبهام مبالغة في الدلالة على أنّه أمر مبهم في الشدّة منكر خارج عن المألوف المعتاد.

ومنها: المجاز العقلي، في قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾؛ لأنّ نسبة الخشوع إلى الأبصار مجاز عقلي، لأنّ ما في القلب يُعْرف من العين.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ لزيادة التقرير، أو لأن المراد بالسجود هنا الصلاة، وخص السجود حينئذٍ بالذكر؛ لأنّه أعظم أركانها.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾، سمى إمهاله إياهم ومرادفة النعم والآلاء عليهم كيداً، لأنّه سبب التورط والهلاك؛ لأنّ الكيد إيصال الضرر إلى الغير بطريق خفي.

ومنها: المجاز المرسل أيضاً في قوله: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: مملوء، لأنَّ اللوم في الحقيقة سبب للذم، فالعلاقة السببية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

تضمنت هذه السورة المقاصد التالية:

١ ـ محاسن الأخلاق النبوية إلى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

٢ ـ سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم من قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ إلى قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾.

٣ ـ ضرب المثل لهم بأصحاب الجنة من قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

٤ ـ تقريع المجرمين وتوبيخهم وإقامة الحجج عليهم.

٥ ـ تهديد المشركين المكذّبين بالقرآن بقوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ﴾ إلخ.

٦ ـ أمره ﷺ بالصبر على أذى المشركين حتى لا يكون كصاحب الحوت.

وصلى الله سبحانه وتعالى، وسلم على سيّدنا ونبينا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين[1].

والله أعلم

* * *

(١) قد تم الفراغ من تفسير هذه السورة الكريمة في تمام الساعة الخامسة من يوم السبت الرابع والعشرين من شهر صفر من شهور سنة ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة، في تاريخ: ٢٤/٢/١٤١٦ هـ.

سورة الحاقّة

سورة الحاقّة مكيّة، قال القرطبي: في قول الجميع، نزلت بعد سورة الملك. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس: نزلت سورة الحاقّة بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

مناسبتها لما قبلها من وجوه:

١ ـ أنّه[1] وقع في ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ ذكر يوم القيامة مجملاً، وهنا فصّل نبأه وذكر شأنه العظيم.

٢ ـ أنّه ذكر فيما قبلها من كذّب بالقرآن وما توعّده به، وهنا ذكر أحوال أمم كذبوا الرسل، وما جرى عليهم ليزدجر المكذّبون المعاصرون له ﷺ.

وعبارة أبي حيّان: مناسبتها لما قبلها[2]: أنه لما ذكر شيئاً من أحوال السعداء والأشقياء وقال: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، ذكر حديث القيامة، وما أعد الله تعالى لأهل السعادة، وأهل الشقاوة، وأدرج بينهما شيئاً من أحوال الذين كذّبوا الرسل: كعاد، وثمود، وفرعون. ليزدجر بذكرهم، وما جرى عليهم الكفّار الذين عاصروا رسول الله ﷺ. وكانت العرب عالمةً بهلاك عاد وثمود وفرعون، فقص عليهم ذلك.

وآياتها[3]: إحدى أو اثنتان وخمسون آية، وكلماتها: مئتان وستّ وخمسون كلمة، وحروفها: ألف وأربع مئة وثمانون حرفاً. وسميت الحاقة لذكر الحاقة فيها.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم: سورة الحاقة كلها محكم، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومما يدل على فضلها ما أخرجه الطبراني عن أبي برزة: أنّ النبيّ ﷺ كان يقرأ في الفجر بالحاقّة ونحوها.

والله أعلم

* * *

---

(١) المراغي.   (٢) البحر المحيط.   (٣) الخازن.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَآقَّةُ (١) مَا ٱلۡحَآقَّةُ (٢) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ (٣) كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ (٧) فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ (٨) وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ (١١) لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ (١٤) فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ (١٥) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ (١٦) وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ (١٧) يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ (١٨) فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ (٢٣) كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ (٢٥) وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ (٢٦) يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ (٣٤) فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ (٣٦) لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ (٣٧) فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ (٥٢)﴾.

المناسبة

تقدّم لك ذكر مناسبة هذه السورة لما قبلها، وذكر سبحانه في بدايتها أنّ[1] يوم

(١) المراغي.

القيامة حق لا شك فيه، وأن الأمم التي عصت رسلها، وكذّبتهم أصابها الهلاك والاستئصال بألوان من العذاب، فثمود أهلكت بالصاعقة، وعاد أهلكت بريح صرصر عاتية، سلّطها عليهم سبع ليال وثمانية أيّام متتابعة، فصاروا صرعى كأنّهم أصول نخل جوفاء، لم يبق منهم ديار ولا نافخ نار، وكذلك أهلك فرعون وقومه بالغرق، وقوم لوط بالزلزال الشديد الذي قلب قراهم، وجعل عاليها سافلها، وأهلك قوم نوح بالطوفان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما قص هذه القصص الثلاثة، ونبه بها على ثبوت القدرة والحكمة، وبها ثبت إمكان وقوع يوم القيامة.. شرع يذكر تفاصيل أحوال هذا اليوم، وما يكون فيه من أهوال.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنهم يعرضون على الله ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم.. فصَّل أحكام هذا العرض، فأخبر بأن من يؤتى كتابه بيمينه يشتد فرحه حتى يقول لكل من لقيه: خذ كتابي واقرأه، لأنه يعلم ما فيه من خير وفضل من الله، ويقول: إني كنت أعلم أنَّ هذا اليوم آت لا ريب فيه، وأني سأحاسب على ما أعمل، وحينئذٍ يكون جزاؤه عند ربه جنة عالية ذات ثمار دانية، ويقال له ولأمثاله: كلوا واشربوا هنيئاً مما قدمتم لأنفسكم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر سرور السعداء بصحائف أعمالهم ثم بين حسن أحوالهم في معايشهم ومساكنهم.. أردف ذلك بذكر غمّ الأشقياء الكافرين وحزنهم بوضع الأغلال والقيود في أعناقهم وأيديهم وإعطائهم الغسلين طعاماً، ثم أعقبه بذكر سبب هذا، وهو أنهم كانوا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحثّون على مساعدة ذوي الحاجة والبائسين.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا أقام الدليل على إمكان القيامة؛ ثم على وقوعها، ثم ذكر أحوال المؤمنين السعداء والكافرين الأشقياء.. أردف ذلك بتعظيم القرآن والرسول

المنزل عليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾...﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أثبت أن القرآن تنزيل من رب العالمين، وليس بشعر ولا كهانة... أكد هذا بأن محمداً لا يستطيع أن يفتعله؛ إذ لو فعل ذلك لأبطلنا حجته وأمتنا دعوته، أو سلبناه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب، أو قتلناه فلم يستطع نشر الأكاذيب، وقد جرت سنتنا بأن كل متكلف للقول لا يقبل قوله، ولا يصغي السامعون إلى كلامه، كما قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾. ولا يستطيع أحد بعدئذٍ أن يدافع عنه.

ثم ذكر أن القرآن عظة لمن يتقي الله ويخشي عذابه، وأنه حسرة على الكافرين حينما يرون ثواب المؤمنين، وإنه لحق لا ريب فيه. ثم أمر رسوله بأن يقدس ربه ويشكره على ما آتاه من النعم، وعلى ما أوحى به إليه من القرآن العظيم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾... إلخ، قال مقاتل: سبب نزول هذه الآيات: أنّ الوليد بن المغيرة قال: إنّ محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة: كاهن. فنزلت الآيات ردّا عليهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾﴾ هي من أسماء القيامة من حق الشيء إذا ثبت ووجب، أي: الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء. سمّيت الساعة حاقّة لوجوب مجيئها وثبوت وقوعها. وهو مبتدأ، و﴿مَا﴾ مبتدأ ثان ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾ خبر للمبتدأ الثاني، والجملة خبر للمبتدأ الأول، والرابط تكرير المبتدأ بلفظه، هذا ما ذكروه في إعراب هذه الجملة ونظائرها؛ أي: الحاقة أي شيء هي في حالها وصفتها تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها.

ومقتضى التحقيق: أن تكون ﴿ما﴾ الاستفهامية خبراً لما بعدها، فإن مناط الفائدة بيان أن الحاقة أمر بديع وخطب فظيع، كما يفيده كون ﴿ما﴾ خبراً، لا بيان

أن أمراً بديعاً، الحاقة كما يفيده كونها مبتدأ وكون الحاقة خبراً، كذا في الإرشاد.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾؛ أي: وأيُّ شيء أعلمك يا محمد ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾؛ أي: جواب أي شي هي، فلا علم لك بحقيقتها؛ إذ بلغت من الشدة والهول أن لا يبلغها علم المخلوقين. وقوله: ﴿مَآ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ خبرها، وجملة ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ معطوفة على جملة ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾، و﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في موضع المفعول الثاني لـ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾؛ والجملة[1] الكبرى تأكيد لهول الساعة وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علم المخلوقات على معنى، أن عظم شأنها ومدى هولها، وشدَّتها بحيث لا يكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه، وكيفما قدرت حالها، فهي أعظم من ذلك وأعظم، فلا يتسنى الإعلام. قال بعضهم: إنّ النبي ﷺ وإن كان عالماً بوقوعها ولكن لم يكن عالماً بكمال كيفيتها. ويحتمل أن يقال ذلك للنبي ﷺ إسماعاً لغيره.

قال المراغي[2]: وهذا أسلوب من الكلام يفيد التفخيم والمبالغة في الغرض الذي يساق له الكلام، فكأنه قيل: أي شيء هي في حالها وصفتها، فإن ﴿ما﴾ يسأل بها عن الصفة والحال لا عن الحقيقة. ثم زاد سبحانه في تفظيع شأنها وتفخيم أمرها وتهويل حالها، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾؛ أي: أي شي أعلمك ما هي، فهي خارجة عن دائرة علم المخلوقات لعظم شأنها، ومدى هولها وشدتها، فلا تبلغها دراية أحد، ولا وهمه، فكيفما قدرت حالها فهي فوق ذلك وأعظم؟. قال سفيان بن عيينة: كل ما في القرآن قال فيه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾، فإنه ﷺ أُخبر به، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾، فإنه لم يخبر به.

قال الواحدي[3]: الحاقة هي القيامة في قول كل المفسرين، وسمّيت بذلك؛ لأنّها ذات الحواق من الأمور، وهي الصادقة الواجبة الصدق، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود.

قال الكسائي والمؤرخ: الحاقة يوم الحقّ. وقيل: سميت بذلك؛ لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله، وقيل: سميت بذلك؛ لأنها أحقت لقوم النار

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

وأحقت لقوم الجنة.

ثم ذكر بعض الأمم التي كذبت بها، وما حاق بها من العذاب، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾؛ أي: قوم صالح، من الثمد، وهو الماء القليل الذي لا مادة له، لأنهم نازلون عليه. ﴿وَعَادٌ﴾؛ أي: قوم هود، وهي قبيلة أيضاً، وتمنع كما في «القاموس» ﴿بِالْقَارِعَةِ﴾؛ أي: بالقيامة، وهي من[1] جملة أسماء الساعة أيضاً. سميت بذلك؛ لأنها تقرع الناس؛ أي تضربهم بفنون الأفزاع والأهوال؛ أي: تصيبهم بها كأنها تقرعهم بها والسماء بالانشقاق والانفطار والأرض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار. ووضعت موضع ضمير الحاقة للدلالة على معنى القرع فيها زيادة في وصف شدتها، فإن في القارعة ما ليس في الحاقة من الوصف، يقال: أصابتهم قوارع الدهر؛ أي: أهواله وشدائده، قيل: منها قوارع القرآن للآيات التي تقرأ حين الفزع من الجن والإنس، لقرع قلوب المؤذين بذكر جلال الله والاستمداد من رحمته وحمايته، مثل: آية الكرسيّ ونحوها.

وفي الآية: تخويف لأهل مكة من عاقبة تكذيبهم بالبعث والحشر، وهذه الجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقّة.

ثم فصل ما نزل بكل أمة من العذاب، فقال:

١ - ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وكانوا عرباً، منازلهم بالحجر بين الشام والحجاز يراها حجاج الشام ذهاباً وإياباً. ﴿فَأُهْلِكُوا﴾؛ أي: أهلكهم الله سبحانه لتكذيبهم. فأخبر عن الفعل؛ لأنه المراد دون الفاعل؛ لأنه معلوم.

وقرأ الجمهور ﴿فَأُهْلِكُوا﴾ رباعياً مبنياً للمفعول. وقرأ زيد بن عليّ ﴿فهلكوا﴾ ثلاثياً مبنياً للفاعل، ذكره في البحر. ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾؛ أي: بالصيحة التي جاوزت عن حد سائر الصيحات في الشدّة، فرجفت منها الأرض والقلوب، وتزلزلت. فاندفع ما يقال من التعارض بين قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ والقصة واحدة.

٢ - ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾ وكانت منازلهم بالأحقاف، وهي الرمل بين عمان إلى

---

(١) روح البيان.

حضرموت واليمن، وكانوا عرباً أيضاً ذوي بسطة في الخلق، وكان أطولهم مئة ذراع، وأقصرهم ستين، وأوسطهم ما بين ذلك. وكان رأس الرجل منهم كالقبة يفرخ في عينيه ومنخره السباع. وتأخيره عن ثمود مع تقدّمهم زماناً من قبيل الترقّي من الضالّ الشديد إلى الأضلّ الأشدّ. ﴿فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ﴾ هي الدبور لقوله ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور» ﴿صَرْصَرٍ﴾؛ أي: شديدة الصوت، لها صرصرة في هبوبها. أو شديدة البرد تحرق ببردها النبات والحرث، فإن الصر بالكسر: شدة البرد. ولم يقل: صرصرة كما قال: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ مع أن الريح مؤنثة، لأن الصرصر وصف مختص بالريح، فأشبه باب: حائض وطامث وحامل، بخلاف عاتية فإنها غير الريح من الأسماء المؤنثة يوصف به، ذكره في مشتبه القرآن. ﴿عَاتِيَةٍ﴾؛ أي: مجاوزة للحد في شدّة العصيان؛ كأنها عتت على خزانها، فلم يتمكنوا من ضبطها. والرياح مسخرة لميكائيل تهب بإذنه وتنقطع بإذنه، وله أعوان كأعوان ملك الموت.

روي[1]: أنه ما يخرج من الريح شيء إلا بقدر معلوم، ولما اشتد غضب الله على قوم عاد أصابتهم ريح خارجة عن ضبط الخزّان، ولذلك سمّيت ﴿عَاتِيَةٍ﴾. أو المعنى: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ على عاد فلم يقدروا على ردّها بحيلة من استتار ببناء أو لياذ بجبل أو اختفاء في حفرة، فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ التسخير: سوق الشيء إلى الغرض المختصّ به قهراً، والمسخر هو المقيض للفعل. والمعنى: سلط الله تلك الريح الموصوفة على قوم عاد بقدرته القاهرة كما شاء.

والظاهر: أن هذه الجملة صفة أخرى لـ ﴿ريح﴾، ويجوز أن تكون حالاً منها لتخصّصها بالصفة. وقيل: هي مستأنفة لدفع ما يتوهم من كونها باتصالات فلكيّة مع أنه لو كان كذلك.. لكان بتسبّبه وتقديره، فلا يخرج من تسخيره تعالى. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ﴾ منصوب على الظرفية لقوله: ﴿سَخَّرَهَا﴾، وذكر اسم العدد لكون المعدود مؤنثاً؛ لأن الليالي جمع ليلة، وهي مؤنثة، وتجمع الليلة على الليالي بزيادة الياء على غير القياس، فيحذف ياؤها حالة التنكير بالإعلال، مثل: الأهالي والأهال في

(١) روح البيان.

جمع أهل، إلا في حالة النصب نحو قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ لأنّه غير منصرف، والفتح خفيف. ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أنّث اسم العدد لكون المعدود مذكّراً، لأنّ الأيام جمع يوم، وهو مذكر. وهو معطوف على ﴿سَبْعَ لَيَالٍ﴾. ﴿حُسُومًا﴾ جمع[1] حاسم كشهود جمع شاهد، وهو حال من مفعول ﴿سَخَّرَهَا﴾ بمعنى حاسمات. عبّر عن الريح الصرصر بلفظ الجمع لتكثرها باعتبار وقوعها في تلك الليالي والأيّام. وقال بعضهم: صفة لما قبله، والمعنى على الأول: حال كون تلك الريح متتابعات ما خفق هبوبها في تلك المدة ساعة حتى أهلكتهم تمثيلا لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكيّ على داء الدابة مرة بعد أخرى حتى ينحسم وينقطع الدم، فهو من استعمال المقيد في المطلق؛ إذ الحسم هو تتابع الكيّ. أو حسمات حسمت كل خير واستأصلته أو قاطعات قطعت دابرهم.

والحاصل: أن تلك الرياح فيها ثلاث حيثيات:

الأولى: تتابع هبوبها.

والثانية: كونها قاطعة لكل خير ومستأصلة لكل بركة أتت عليها.

والثالثة: كونها قاطعة دابرهم، فسميت حسماً بمعنى حاسمات إما تشبيهاً لها بمن يحسم الداء في تتابع الفعل؛ وإما لأن الحسم في اللغة: القطع والاستئصال وسمي السيف حساما لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته. وقرأ الجمهور ﴿حُسُومًا﴾ بضم الحاء. وقرأ السدّي: ﴿حَسُوْمَاً﴾ بفتحها، ومنه قول الشاعر:

فَأَرْسَلْتِ رِيْحَاً دَبُوْرَاً عَقِيْمَا ... فَدَارَتْ عَلَيْهِمْ فَكَانَتْ حَسُوْمَا

قال ابن زيد: أي حسمتهم فلم تبق منهم أحداً. واختلف في أولها فقيل: غداة الأحد، وقيل: غداة الجمعة، وقيل: غداة الأربعاء لثمان بقين من شوال، وقيل: آخر أسبوع من شهر صفر إلى غروب الأربعاء الآخر، وهو آخر الشهر.

وتلك الأيام هي التي تسميها العرب أيام العجوز. وإنّما سميت عجوزاً لأن عجوزاً من عاد توارت في سرب؛ أي: في بيت في الأرض، فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها. وقيل: هي أيام العجز، وهي آخر الشتاء ذات برد ورياح

---

(١) روح البيان.

شديدة. فمن نظر إلى الأول قال: برد العجوز، ومن نظر إلى الثاني قال: برد العجز. وفي «روضة الأخيار»: رغبت عجوز إلى أولادها أن يزوجوها، وكان لها سبعة بنين، فقالوا لها: إلى أن تصبري على البرد عارية لكل واحد منا ليلة، ففعلت. فلما كانت في السابعة ماتت، فسميت تلك الأيام أيام العجوز. وأسماء هذه الأيام الصن، وهو بالكسر: أول أيام العجوز كما في «القاموس»: والصنبر وهي الريح الباردة، والثاني من أيام العجوز كما في «القاموس»، والوبر وهو ثالث أيام العجوز، والمعلل لمحدث وهو الرابع من أيّامها، ومطفىء الجمر وهو خامس أيام العجوز، أو رابعها كما في «القاموس»: وقيل: مكفىء الظعن؛ أي: ممليها، وهم جمع ظعينة، وهو الهودج فيه امرأة أم لا، والآمر والمؤتمر. قال في «القاموس»: آمر ومؤتمر: آخر أيام العجوز، قال الشاعر:

كَسَعَ ٱلشِّتَاءُ بِسَبْعَةٍ غُبَرٍ ... أَيَّامَ شَهْلَتِنَا مِنَ الشَّهرِ

فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ شَهْلَتِنَا ... بِٱلصِنّ والصِّنْبَرِ وَٱلوَبَرِ

وَبَآمِرٍ وَأَخِيْهِ مؤتمر ... ومعللٍ وبمطفىء الجمرِ

ذهبَ الشتاءُ مُوليّاً هَربا ... وأَتَتْك موقدةٌ من الحرِ

قال في «الكواشي»: ولم يسم الثامن؛ لأنَّ هلاكهم وإهلاكهم كان فيه. وفي «عين المعاني»: إنّ الثامن هو مكفىء الظعن ثم قال في «الكواشي»: ويجوز أنها سميت أيام العجوز لعجزهم عما حل بهم فيها، ولم يُسمّ الثامن على هذا لإهلاكهم فيه، والذي لم يُسمّ هو الأول وإن كان العذاب واقعاً في ابتدائه، لأن ليلته غير مذكورة فلم يسم اليوم تبعاً لليلة؛ لأن التاريخ يكون بالليالي دون الأيام. فالصنُّ ثاني الأيام أول الأيام المذكورة لياليها انتهى.

يقول الفقير: وسرّ العدد أن عمر الدنيا بالنسبة إلى الإنس سبعة أيام من أيام الآخرة، وفي اليوم الثامن تقع القيامة ويعم الهلاك.

﴿فَتَرَى﴾ يا محمد أو يا من شأنه أن يرى ويبصر لو كنت حاضراً وقتئذٍ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾؛ أي: قوم عاد، فاللام للعهد. ﴿فِيهَا﴾ أي: في محال هبوب تلك الريح أو في تلك الليالي والأيام، ورجحه أبو حيان للقرب وصراحة الذكر. ﴿صَرْعَىٰ﴾؛ أي: موتى. جمع صريع كقتلى وقتيل، حال من القوم، لأنّ الرؤية بصرية. والصريع

بمعنى المصروع؛ أي: المطروح على الأرض الساقط عليها، لأن الصرع: الطرح، وقد صرعوا بموتهم. وجملة كأن في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في موضع الحال إما من القوم على قول من جوز حالين من ذي حال واحد أو من المنويّ في ﴿صَرْعَىٰ﴾ عند من لم يجوز ذلك؛ أي: ترى القوم حال كونهم مصروعين مشبهين بـ ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾؛ أي: بأصول نخل، كما قال في «القاموس». وأعجاز النخل أصولها انتهى. والنخل: اسم جنس مفرد لفظاً وجمع معنى، واحدتها: نخلة. ﴿خَاوِيَةٍ﴾؛ أي: متآكلة الأجواف خاليتها لا شيء فيها، بمعنى أنهم متساقطون على الأرض أمواتاً طوالاً غلاظاً كأنهم أصول نخل مجوفة بلا فروع. شبهوا بها من حيث إن أبدانهم خوت، وخلت من أرواحهم كالنخل الخاوية. وقيل: كانت الريح تدخل من أفواههم، فتخرج ما في أجوافهم من أدبارهم، فصاروا كالنخل الخاوية. وأصل الخوى: الخلاء، يقال: خوى بطنه من الطعام إذا خلا. وفيه إشارة إلى عظم خلقهم وضخامة أجسادهم، ولذا كانوا يقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وإلى أنّ تلك الريح أبلتهم فصاروا كالنخل الموصوفة. وقرأ أبو نهيك[1] ﴿أعجز﴾ على وزن أفعل كضبع وأضبع. وحكى الأخفش أنّه قرىء ﴿نخيل خاوية﴾. وقال ابن جريج: كانوا في سبعة أيام في عذاب ثم في الثامن ماتوا، وألقتهم الريح في البحر، فذلك قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ والاستفهام[2] لإنكار الرؤية. والباقية اسم كالبقية لا وصف والتاء للنقل إلى الاسميّة، و﴿مِّنۢ﴾ زائدة، و﴿بَاقِيَةٍ﴾ مفعول ترى. أي: ما ترى منهم بقية من صغارهم وكبارهم وذكورهم وإناثهم غير المؤمنين. ويجوز أن يكون صفة موصوف محذوف بمعنى نفس باقية أو مصدراً بمعنى البقاء كالكاذبة والطاغية. والبقاء: ثبات الشيء على الحالة الأولى، وهو يضاد الفناء.

ومعنى الآية: فترى قوم عاد في تلك السبع الليالي والثمانية الأيّام المتتابعة صرعى هالكين، كأنهم أصول نخل متآكلة الأجواف لم يبق منهم ولا من نسلهم أحد. وجاء في آية أخرى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾.

٣ - ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾؛ أي: فرعون موسى. أفرده بالذكر لغاية علوّه واستكباره.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾؛ أي: ومن تقدمه من الكفرة غير عاد وثمود. فهو من قبيل التعميم بعد التخصيص. و﴿مَنْ﴾ موصولة، و﴿قبل﴾ نقيض بعد.

وقرأ أبو رجاء[1] وطلحة، والجحدري، والحسن بخلاف عنه، وعاصم في رواية أبان، والنحويّان: أبو عمرو والكسائي، ويعقوب ﴿ومِنْ قِبَله﴾ بكسر القاف وفتح الباء بمعنى: ومن معه من القبط من أهل مصر. وقرأ باقي السبعة، وأبو جعفر، وشيبة، والسلمي ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ بفتح القاف وسكون الباء؛ أي: ومن تقدمه من القرون الماضية والأمم الخالية. واختار[2] أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود وأبي ﴿ومن معه﴾، وقراءة أبي موسى الأشعري ﴿ومن يَلْقَاه﴾.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾؛ أي: وجاءت المؤتفكات؛ أي: أهل قرى قوم لوط؛ لأنّها عطفت على ما قبلها من فرعون. ومن قبله من[3] ائتفكت البلدة بأهلها؛ أي: انقلبت، والله تعالى قلب قرى قوم لوط عليهم، فهي المنقلبات بالخسف. وهي خمس قريات: صعبه، وسعده، وعمرة، ودوما، وسدوم وهي أعظم القرى. ثم هذا من قبيل التخصيص بعد التعميم للتتميم؛ لأنَّ قوم لوط أتوا بفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين. وقرأ الجمهور ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ بالجمع. وقرأ الحسن والجحدري ﴿والمؤتفكة﴾ بالإفراد، واللام للجنس، فهي في معنى الجمع.

والمعنى: وجاءت المؤتفكات ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾؛ أي: بالفعلة الخاطئة، أو بالأفعال ذات الخطأ العظيم التي من جملتها تكذيب البعث والقيامة. فالخاطئة على هذين صفة لمحذوف، ويكون الكلام من المجاز العقليّ كشعر شاعر، قاله مجاهد. أو بالخطأ فيكون الخاطئة مصدراً جاء على وزن فاعله كالعاقبة والكاذبة، قاله الجرجاني. والباء للملابسة أو التعدية، وهو الأظهر. والمراد أنّ هؤلاء الأمم المذكورة جاؤوا بالخاطئة؛ أي: بالشرك وأنواع المعاصي.

﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها حين نهاهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح. فالرسول هنا بمعنى الجمع؛ لأن فعولاً وفعيلاً يستوي فيهما المذكر والمؤنث والواحد والجمع، فهو من مقابلة الجمع بالجمع

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

المستدعية لانقسام الآحاد على الآحاد، فالإضافة ليست للعهد بل للجنس.

﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ الله تعالى بالعقوبة، أي: أخذ كل قوم منهم ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾؛ أي: زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفّار، أو على القدر المعروف عند الناس لما زادت معاصيهم في القبح على معاصي سائرة الكفرة. والمعنى: فعاقبهم عقوبة شديدة أغرق من كذّب نوحاً، وهم كل أهل الأرض غير من ركب معه في السفينة، وحمل مدائن قوم لوط بعد أن نتقها من الأرض على متن الريح بواسطة من أمره بذلك من الملائكة، ثم قلبها وأتبعها بالحجارة، وخسف بها وغمرها بالماء المنتن الذي ليس في الأرض ما يشبهه. وأغرق فرعون وجنوده أيضاً في بحر القلزم أو في النيل، وهكذا عاقب كل أمة عاصية بحسب أعمالهم القبيحة، وجازاهم جزاء وفاقاً. وفي كل ذلك تخويف لقريش، وتحذير لهم عن التكذيب، وفيه عبرة موقظة لأولي الألباب.

والمعنى: وجاء فرعون ومن تقدمه من الأمم التي كفرت بآيات الله كقوم نوح وعاد وثمود، والقرى التي ائتفكت بأهلها، وصار عاليها سافلها بسبب خطيئتها ومعصيتها. ثم بين هذه الخطيئة بقوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: فعصى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم رسل الله الذين أرسلوا إليهم، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ وأذاقهم وبال أمرهم بعقوبة زائدة على عقوبة سائر الكفّار، كما زادت قبائحهم على قبائح غيرهم. ونحو الآية قوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ المعهود وقت الطوفان؛ أي: جاوز حدّه المعتاد حتى ارتفع على كلّ شيء خمس مئة ذراع، وقال بعضهم: ارتفع على أرفع جبل في الدنيا خمسة عشر ذراعاً. أو جاوز حدّه في المعاملة مع خزّانه من الملائكة بحيث لم يقدروا على ضبطه. وذلك الطغيان ومجاوزة الحدّ بسبب إصرار قوم نوح على فنون الكفر والمعاصي ومبالغتهم في تكذيبه فيما أوحي إليه من الأحكام التي من جملتها أحوال القيامة، فانتقم الله منهم بالإغراق. ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أيّها الناس، أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، فكأنّكم محمولون بأشخاصكم. وفيه تنبيه على المنّة في الحمل؛ لأنّ نجاة آبائهم سبب ولادتهم. ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ يعني: في سفينة نوح؛ لأنّ من شأنها أن تجري على الماء. والمراد بحملهم فيها رفعهم فوق الماء إلى انقضاء أيام الطوفان، لا مجرد رفعهم إلى السفينة كما يعرب عنه كلمة ﴿في﴾، فإنها ليست بعلّة

للحمل، بل متعلقة بمحذوف هو حال من مفعوله؛ أي: رفعناكم فوق الماء، وحفظناكم حال كونكم في السفينة الجارية بأمرنا، وحفظنا من غير غرق ولا خرق. وفيه تنبيه على أنّ مدار نجاتهم محض عصمته تعالى، وإنّما السفينة سبب صوري.

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾؛ أي: لنجعل الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿لَكُمْ﴾ أيتها الأمة المحمدية ﴿تَذْكِرَةً﴾؛ أي: عبرةً ودلالةً على كمال قدرة الصانع وحكمته وقوة قهره وسعة رحمته. فضمير ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ إلى الفعلة والقصة بدلالة ما بعد الآية من الوعي، وقد أدرك السفينة أوائل هذه الأمّة، وكان ألواحها على الجوديّ أو لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم يا أمة محمد عبرةً وعظةً، تستدلّون بها على عظيم قدرة الله وبديع صنعه.

﴿وَتَعِيَهَآ﴾؛ أي: وتعي هذه القصة، وتحفظها ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾؛ أي: أذن من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكره والتفكر فيه، ولا تضيعه بترك العمل به. والوعي: أن تحفظ العلم، يقال: وعيت ما قلته؛ أي: حفظت، ومنه قوله ﷺ: «لا خير في العيش إلاّ لعالم ناطق ومستمع واع» والإيعاء: أن تحفظه في غير نفسك من وعاء، يقال: أوعيت المتاع في الوعاء، ومنه قوله ﷺ لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «لا توعي فيوعي الله عليك أرضخي ما استطعت» قال الشاعر:

ٱلْخَيْرُ يَبْقَىٰ وَإِنْ طَالَ ٱلزَّمَانُ بِهِ ... وَٱلشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ

ويقال: الوعي فعل القلب، ولكن الآذان تؤدي الحديث إلى القلوب الواعية، فنعتت الآذان بنعت القلوب. والتنكير والتوحيد حيث لم يقل: الآذان الواعية للدلالة على قلّتها، وأن من هذا شأنه مع قلته يتسبَّبُ لنجاة الجم الغفير وإدامة نسلهم. يعني: أنّ من وعى هذه القصة إنّما يعيها، ويحفظها لأجل أن يذكرها للناس ويرغّبهم في الإيمان المنجي، ويحذّرهم عن الكفر المردي، فيكون سبباً للنجاة والإدامة المذكورتين.

قال في «الكشاف»: الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالي بهم وإن ملَؤُوا ما بين الخافقين. وفي الحديث: «أفلح من جعل الله له قلباً واعياً». وروي: أنَّ النبي ﷺ قال لعلي: «إني دعوت الله أن يجعلها أذنك يا علي». قال علي كرم الله وجهه: فما سمعت شيئاً

فنسيته، وما كان لي أن أنسى إذ هو الحافظ للأسرار الإلهية، وقد قال: ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة. وفي رواية: أخذ بأذن عليّ بن أبي طالب وقال: هي هذه ذكره النقاش، ولكن لا يصح هذا الحديث.

والمعنى[١]: لنجعل نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين عظة وعبرة لكم لدلالتها على كمال قدرة الصانع وحكمته وسعة رحمته، وتفهمها أذن حافظة سامعة عن الله، فتنتفع بما سمعت من كتابه، ولا تضيع العمل بما فيه، وتبلغها إلى من يأتي بعد.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ بكسر العين وفتح الياء مخفّفة. وقرأ طلحة بن مصرف، وحميد، والأعرج، وأبو عمرو في رواية هارون، وخارجة، وقنبل بخلاف عنه بإسكان العين وفتح الياء مخفّفة. وقرأ حمزة بإخفاء الحركة ووجه الإسكان التشبيه في الفعل بما كان على وزن فعل في الاسم والفعل، نحو: كبد وفخذ وعلم وسمع. وتعي ليس على وزن فعل، بل هو مضارع وعي فصار إلى فعل، وأصله: يفعل حذفت واوه. وروي عن عاصم عصمة وحمزة الأرزق ﴿وتعيها﴾ بتشديد الياء. قيل: وهو خطأ، وينبغي أن يتأوّل على أنه أريد شدة بيان الياء احترازاً ممن سكنها لا إدغام حرف في حرف، ولا ينبغي أن يجعل ذلك من باب التضعيف في الوقف، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف وإن كان قد ذهب إلى ذلك بعضهم. وروي عن حمزة وعن موسى بن عبد الله العنسي ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ بإسكان الياء. فاحتمل الاستئناف، وهو الظاهر، واحتمل أن يكون مثل قراءة ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ بسكون الياء.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾﴾ وهذا شروع[٣] في بيان الحاقّة وكيفية وقوعها بعد بيان عظم شأنها بإهلاك مكذّبيها. والنفخ: إرسال الريح من الفم. والصور: قرن من نور أوسع من السماوات، ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله، فيحدث صوت عظيم، فإذا سمع الناس ذلك الصوت يصيحون، ثمّ يموتون إلاّ من شاء الله تعالى. والمصدر المبهم هو الذي يكون لمجرد التأكيد، وإن كان لا يقام مقام الفاعل فلا يقال: ضرب ضرب؛ إذ لا يفيد أمراً زائداً على مدلول الفعل، إلاّ أنه حسن إسناد الفعل في الآية إلى المصدر وهو النفخة لكونها نفخاً مقيداً بالوحدة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

والمرة لا نفخاً مجرداً مبهماً.

والمراد بها ههنا: النفخة الأولى التي لا يبقى عندها حيوان إلاّ مات، ويكون عندها خراب العالم لما دل عليه الحمل والدك الآتيان. وفي «الكشاف»: فإن قلت: هما نفختان فلم قيل واحدة؟

قلت: معناه: أنها لا تثنى في وقتها انتهى. يعني. أنَّ حدوث الأمر العظيم بالنفخة، وعلى عقبها إنما استعظم من حيث وقوع النفخ مرة واحدة، لا من حيث إنه نفخ. فنبه على ذلك بقوله: «واحدة».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ بالرفع فيهما على أنَّ ﴿نَفْخَةٌ﴾ مرتفعة على النيابة، و﴿وَٰحِدَةٌ﴾ تأكيد لها. وحسن تذكير الفعل لوقوع الفصل؛ ولأنّ تأنيث النفخ مجازيٌّ. وقرأ أبو السمال بنصبهما على أن النائب هو الجار والمجرور، قال الزجاج: ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ يقوم مقام ما لم يسم فاعله.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾؛ أي: قلعت ورفعت من أماكنها بمجرد القدرة الإلهية أو بالريح العاصفة، فإن الريح من قوة عصفها تحمل الأرض والجبال كما حملت أرض وجود قوم عاد وجبال جمالهم مع هوادجها أو بواسطة الملائكة. وقرأ الجمهور ﴿وَحُمِلَتِ﴾ بتخفيف الميم، وابن أبي عبلة، وابن مقسم والأعمش، وابن عامر في رواية يحيى بتشديدها للتكثير أو للتعدية.

﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها، أو فضربت[2] الجملتان جملة الأرضين وجملة الجبال إثر رفعها بعضها ببعض ضربة واحدة بلا احتياج إلى تكرار الضرب وتثنية الدك حتى تندق وترجع كثيباًمهيلاً وهباء منبثاً. قال الفراء: ولم يقل: فدككن مع كونه مقتضى الظاهر لإسناد الفعل إلى الأرض والجبال، وهي أمور متعددة، لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة والأرض كذلك، فثنى الضمير نظيره.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ حيث لم يقل: كن. وقيل: ﴿دكتا﴾: بسطتا بسطةً واحدةً، ومنه: اندكّ سنام البعير إذا انفرش على ظهره.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: فحينئذٍ، وهو منصوب بقوله: ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾؛ أي: قامت القيامة. فالواقعة اسم من أسماء القيامة بالغلبة لتحقق وقوعها، وبهذا الاعتبار أسند إليه ﴿وَقَعَتِ﴾؛ أي: إذا كان الأمر كذلك قامت القيامة التي توعدون بها أو نزلت النازلة العظيمة التي هي صيحة القيامة. وهو جواب لقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل، من ﴿إذا﴾، كرّر لطول الكلام، والعامل فيهما ﴿وَقَعَتِ﴾. ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: تشققت وانفرجت لنزول الملائكة لأمر عظيم أراده الله تعالى كما قال في آية أخرى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾. أو بسبب شدّة ذلك اليوم، وهو معطوف على ﴿وَقَعَتِ﴾. ﴿فَهِىَ﴾؛ أي السماء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ انشقت ﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفة مسترخية ساقطة القوة جداً كالغزل المنقوض بعد ما كانت محكمة مستمسكة، وإن كانت قابلة للخرق والالتئام.

ومعنى الآيات: فإذا نفخ إسرافيل النفخة الأولى التي عندها خراب العالم، ورفعت الأرض والجبال مِنْ أماكنها، ولا ندري كيف رفعت؛ لأنّ ذلك من أنباء الغيب، فقد يكون ذلك بريح يبلغ من قوة عصفها أن تحملهما أو أنَّ ملكاً يحملهما أو بقدرة الله من غير سبب ظاهر، أو بمصادمة بعض الأجرام كذوات الأذناب، فتنفصل الجبال؛ وترتفع من شدّة المصادمة، وترتفع الأرض من حيّزها، فضرب بعضهما ببعض ضربة واحدة حتى تقطعت أوصالها وصارتا كثيباً مهيلاً وهباء منبثاً، لا يتميز شيء من أجزائهما عن الآخر، فحينئذٍ تقوم القيامة وتتصدع السماء؛ لأنها يومئذٍ ضعيفة المنة كالعهن المنفوش بعد أن كانت شديدة الأسر عظيمة القوة.

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾؛ أي: والملائكة ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾؛ أي: على جوانب السماء ينظرون إلى أهل الأرض، ولا ندري كيف ذلك، ولا الحكمة فيه؛ فندع تفصيل ذلك ونؤمن به، كما جاء في الكتاب ولا نزيد عليه.

ومعنى ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾؛ أي: الخلق المعروف بالملك، وهو أعم من الملائكة، ألا ترى إلى قولك: ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك: من ملائكة.

قال الزمخشري: فإن قلت[1]: ما الفرق بين قولك: والملك وبين أن يقال:

---

(١) الكشّاف.

والملائكة؟

قلت: الملك أعم من الملائكة ألا ترى أن قولك: ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك: ما من ملائكة انتهى. ولا يظهر[1] أن الملك أعم من الملائكة؛ لأن المفرد المحلى بالألف واللام الجنسية قصاراه أن يراد به الجمع المحلى بهما، ولذلك صح الاستثناء منه، فقصاراه أن يكون كالجمع المحلى بهما. وأما دعواه أنه أعم منه بقوله: ألا ترى إلخ، فليس دليلاً على دعواه؛ لأن (من ملك) نكرة مفردة في سياق النفي قد دخلت عليها (من) المخلصة للاستغراق، فشملت كل ملك، فاندرج تحتها الجمع لوجود الفرد فيه، فانتفى كل فرد فرد بخلاف من ملائكة فإن (من) دخلت على جمع منكر فعم كل جمع جمع من الملائكة، ولا يلزم من ذلك انتفاء كل فرد فرد من الملائكة. لو قلت: ما في الدار من رجال جاز أن يكون فيها واحد، لأن النفي إنما انسحب على جمع ولا يلزم من انتفاء الجمع أن ينتفي المفرد. والملك في الآية ليس في سياق نفي دخلت عليه ﴿مِنْ﴾، فيكون أعم من جمع دخلت عليه ﴿مِنْ﴾، وإنما جيء به مفرداً؛ لأنه أخف، ولأن قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ يدل على الجمع لأن الواحد بما هو واحد لا يمكن أن يكون على أرجائها في وقت واحد بل في أوقات. والمراد ـ والله تعالى أعلم ـ أن الملائكة على أرجائها، لا أنه ملك واحد ينتقل على أرجائها في أوقات.

أي: جنس[2] الملك على أطرافها وجوانبها، وهي جمع رجا مقصور وتثنيته رجوان مثل: قفا وقفوان.

والمعنى: أنها لما تشققت السماء وهي مناسكنهم لجؤوا إلى أطرافها. قال الضحاك: إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت، وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الرب فينزلون إلى الأرض، ويحيطون بالأرض ومن عليها. وقال سعيد بن جبير: المعنى: والملك على حافات الدنيا؛ أي: ينزلون إلى الأرض، وقيل: إذا صارت السماء قطعاً تقف الملائكة على تلك القطع التي ليست متشققة في أنفسها. قالوا: وقوفهم لحظة على أرجائها وموتهم بعدها، فإن الملائكة يموتون عند النفخة الأولى لا ينافي التعقيب المدلول عليه بالفاء في قوله: ﴿فَهِىَ﴾.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ يا محمد. وهو الفلك التاسع، وهو جسم عظيم لا يعلم عظمه إلا الله تعالى. والفائدة[1] في ذكر العرش عقيب ما تقدم أن العرش بحاله خلاف السماء والأرض، ولذلك لا يفنى. وعن عليّ بن الحسن رضي الله عنهما قال: إن الله خلق العرش رابعة لم يخلق قبله إلا ثلاثة: الهواء، والقلم، والنور ثم خلق العرش من أنوار مختلفة من ذلك نور أخضر منه اخضرت الخضرة، ونور أصفر منه اصفرت الصفرة، ونور أحمر منه احمرت الحمرة، ونور أبيض وهو نور الأنوار، ومنه ضوء النهار. ﴿فَوْقَهُمْ﴾؛ أي: فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء أو فوق الثمانية؛ أي: ويحملون العرش فوق أنفسهم، فالمحمول لا يلزم أن يكون فوق الحامل فقد يكون في يده، وقد يكون في جيبه، وكل واحد من قوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لقوله: ﴿يحمل﴾، وأما على التقدير الأول فالظاهر أن ﴿فَوْقَهُمْ﴾ حال من ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ قدمت عليها لكونها نكرة. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ من الملائكة. وعن النبي ﷺ: «هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيّدهم الله بأربعة أخرى فيكون ثمانية».

وفي «الشوكاني»: أي يحمله[2] فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك. وقيل: ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عددهم إلاّ الله عز وجل. وقيل: ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة، قاله الكلبي وغيره انتهى. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ العامل فيه قوله: ﴿تُعْرَضُونَ﴾ على الله؛ أي:[3] تسألون وتحاسبون. عبّر عنه بذلك تشبيهاً له بعرض السلطان العسكر لتعرّف أحوالهم، يقال: عرض الجند إذاأمرهم عليه ونظر ما حالهم. والخطاب عامّ للكلّ على التغليب؛ أي: يومئذٍ يعرض العباد على الله لحسابهم، ومثله قوله: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾. وليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالماً به، وإنما هو عرض الاختبار والتوبيخ بالأعمال.

روي: أن في يوم القيامة ثلاث عرضات. فأما عرضتان فاعتذار واحتاج وتوبيخ، وأمّا الثالثة ففيها تنشر الكتب، فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك بشماله. أخرجه أحمد والترمذي بلفظ آخر. وهذا العرض، وإن كان بعد النفخة الثانية لكن لما كان اليوم اسماً لزمان متسع يقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

وإدخال أهل الجنة الجنة، وإدخال أهل النار النار صح جعله ظرفاً للكل، كما تقول: جئت عام كذا، وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته.

وجملة قوله: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿تُعْرَضُونَ﴾، و﴿مِنكُمْ﴾ كان في الأصل صفة لـ ﴿خَافِيَةٌ﴾ فقدم للفاصلة، فتحول حالاً.

والمعنى: تعرضون على الله حال كونكم غير خاف عليه تعالى فعلة خفيّة منكم تخفونها عن غيركم؛ أي: سر من أسراركم، لأنّ العرض لإفشاء الحال والمبالغة في العدل، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾. فقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ يعلق بما قبله وبما بعده على التجاذب. قال في «الكشاف»: ﴿خَافِيَةٌ﴾؛ أي؛ سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا بستر الله عليكم، والسر والسريرة هو الذي يكتم ويخفى، فتظهر يوم القيامة أحوال المؤمنين، فيتكامل بذلك سرورهم وتظهر أحوال غيرهم فيحصل الحزن والافتضاح. ففي الآية زجر عظيم عن المعصية لتأديتها إلى الافتضاح على رؤوس الخلائق، فقلب الإنسان ينبغي أن يكون بحال لو وضع في طبق وأدير على الناس لما وجد فيه ما يورث الخجالة، وهو صفة أهل الإخلاص والنصيحة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لَا تَخْفَىٰ﴾ بتاء التأنيث. وقرأ عليّ، وابن وثّاب، وطلحة، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وابن مقسم عن عاصم، وابن سعدان بالياء.

والمعنى[2]: فيومئذٍ تحاسبون وتسألون لا يخفى على الله شيء من أمورك، فإنه تعالى عليم بكل شيء لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، كما جاء في آية أخرى ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾. وفي هذا تهديد شديد، وزجر عظيم، ومبالغة لا تخفى، وفضيحة للكافرين، وسرور للمؤمنين بظهور ما كان خفيًّا عليهم من أعمالهم، وبذلك يتكامل حبورهم وسرورهم. وفي هذا العرض إقامة للحجة، ومبالغة في إظهار العدل.

أخرج الإمام أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن ماجة، وابن مردويه

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله» وقال الترمذي: لا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ.

ولما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه، فقال: ﴿فَأَمَّا﴾ تفصيل لأحكام العرض ﴿مَنْ﴾ موصولة ﴿أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾؛ أي: أعطي مكتوبه الذي كتبت الحفظة فيه تفاصيل أعماله. ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ تعظيماً له؛ لأنّ اليمين يتيمن بها أخذاً وعطاء. والباء بمعنى في أو للإلصاق، وهو الأوجه، والمراد بهم الأبرار، فإن المقربين لا كتاب لهم، ولا حساب لهم لمكانتهم من الله سبحانه وتعالى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب، وله شعاع كشعاع الشمس، قيل له: فأين أبو بكر؟ فقال: هيهات زفته الملائكة إلى الجنة». يقول الفقير: لعل هذا مكافأة له حين أخذ سيفه بيده، وخرج من دار الأرقم وهو يظهر الإسلام على ملاء من قريش، فبسيفه ظهر الإسلام رضي الله عنه. دل الحديث على أن رتبة أبي بكر فوق رتبة غيره؛ لأن الصديقية تلي النبوة كما في حديث: «أثبت أحد فإنما عليك نبيّ وصديق وشهيدان» وكان عليه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فتحرك الجبل، فقال له ذلك.

﴿فَيَقُولُ﴾ فرحاً وسروراً، فإنه لما أوتي كتابه بيمينه.. علم أنه من الناجين من النار، ومن الفائزين بالجنة، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله. ﴿هَآؤُمُ﴾؛ أي: خذوا يا أهل بيتي وقرابتي وأصحابي كتابي، وتناولوه و﴿اقْرَءُوا كِتَٰبِيَهْ﴾ و«هاء» اسم فعل أمر بمعنى خذ، يقال: هاء يا رجل بفتح الهمزة وهاء يا امرأة بكسرها، هاؤما يا رجلان أو امرأتان، وهاؤم يا رجال وهاؤنّ يا نسوة بمعنى: خذ خذا خذوا خذي خذا خذن. وقد يكون فعلاً صريحاً لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها، وفيه ثلاث لغات كما هو معروف في علم الإعراب. ومفعوله هنا محذوف دل عليه مفعول ﴿اقْرَءُوا﴾ و﴿كتابي﴾ مفعول ﴿اقْرَءُوا﴾، لأنّه أقرب العاملين،

فهو أولى بالعمل في المذكور كما هو مذهب البصريّين لكونه بمنزلة العلة القريبة. وأصله: هاؤمو كتابي، واقرؤوا كتابي فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، نظيره قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾.

مبحث هاء السكت

والهاء في ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ للوقف والاستراحة والسكت، تثبت في الوقف وتسقط في الوصل، كما هو الأصل في هاء السكت؛ لأنّها إنّما جيء بها حفظاً للحركة؛ أي: لتحفظ حركة الموقوف عليه، إذ لولا الهاء لسقطت الحركة في الوقف، فتثبت حال الوقف، إذ لا حاجة إليها في حال الوصل، فلذلك كان حقَّها أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل. إلاّ أن القراء السبعة اتفقوا في كل المواضع على إثباتها وقفاً ووصلاً إجراء للوصل مجرى الوقف، واتباعاً لرسم الإمام، فإنها ثابتة في المصحف في كل المواضع. وهي ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ و﴿حِسَابِيَهۡ﴾، و﴿مَالِيَهۡۜ﴾، و﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾، و﴿مَا هِيَهۡ﴾ في القارعة. وما كان ثابتاً فيه لا بدّ أن يكون مثبتاً في اللفظ، إلا أن حمزة أسقط الهاء من ثلاث كلم وصلاً، وهي: ﴿مَالِيَهۡۜ﴾ و﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ و﴿مَا هِيَهۡ﴾، وأثبتها وقفاً على الأصل، ولم يعمل بالأصل في ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ و﴿حِسَابِيَهۡ﴾، وأثبتها في الحالين جمعاً بين اللغتين. وتبين من هذا التقرير أن المستحب إيثار الوقف إتباعاً للوصل، وأن إثباتها وصلاً أنما هو لاتباع المصحف.

قال في «القاموس»: هاء السكت هي اللاحقة لبيان حركة أو حرف نحو: ﴿مَا هِيَهۡ﴾، وها هناه، وأصلها أن يوقف عليها، وربما وصلت بنية الوقف انتهى. وهذه الهاء لا تكون إلا ساكنة، وتحريكها لحن؛ أي: خطأ، لأنه لا يجوز الوقف على المتحرك. وهاء[1] السكت في القرآن في سبعة مواضع: في ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾، وفي ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، وفي ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾، وفي ﴿حِسَابِيَهۡ﴾، وفي ﴿مَالِيَهۡۜ﴾، وفي ﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾، وفي ﴿مَا هِيَهۡ﴾. وأما الهاء التي في ﴿ٱلۡقَاضِيَةَ﴾، وفي ﴿هَاوِيَةٞ﴾، وفي ﴿خَاوِيَةٌ﴾ و﴿ثَمَٰنِيَةٞ﴾ و﴿عَالِيَةٖ﴾ و﴿دَانِيَةٞ﴾، وأمثالها فللتأنيث فيوقف عليهن بالهاء يوصلن بالتاء.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾؛ أي: علمت وأيقنت ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾؛ أي: حساب أعمالي.

---

(١) روح البيان.

والحساب بمعنى المحاسبة، وهو عد أعمال العباد في الآخرة خيراً وشرّاً للمجازاة؛ أي: علمت وأيقنت في الدنيا أني مصادف حسابي في ديوان الحساب الإلهي، وأني أحاسب على أعمالي في الآخرة. والظن هنا بمعنى العلم واليقين، فإن الظن قد أتى بمعنى اليقين في مواضع كثيرة من القرآن:

منها: هذا الموضع.

ومنها: قوله تعالى حكاية: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ وهم المؤمنون بالآخرة.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾؛ أي: علم وأيقن بالعلامة القوية، وقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾. ولعل التعبير عن العلم بالظن للإشعار بأنه لا يقدح في الاعتقاد، وما يهجس في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً. يعني: أن الظن استعير للعلم الاستدلالي، لأنه لا يخلو عن الخطرات والوساوس عند الذهول عما قاد إليه من الدليل للإشعار المذكور. وفي «الكشاف»: وإنما أجري الظن مجرى العلم؛ لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام، ويقال: أظن ظناً كاليقين أن الأمر كيت وكيت.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ و﴿حِسَابِيَهْ﴾ في موضعيهما، و﴿مَالِيَهْ﴾ و﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ وفي القارعة و﴿مَا هِيَهْ﴾ بإثبات هاء السكت وقفاً ووصلاً لمراعاة خط المصحف. وقرأ ابن محيصن بحذفها وصلاً ووقفاً وإسكان الياء، وذلك ﴿كتابي﴾ و﴿حسابي﴾ و﴿مالي﴾ و﴿سلطاني﴾، ولم ينقل ذلك فيما وقفت عليه في ﴿مَا هِيَهْ﴾ في القارعة وقرأ ابن أبي إسحاق والأعمش بطرح الهاء فيهما في الوصل لا في الوقف. وطرحها حمزة في ﴿مالي﴾ و﴿سلطاني﴾ و﴿ماهي﴾ في الوصل لا في الوقف وفتح الياء فيهن. وما قاله الزهراوي من أن إثبات الهاء في الوصل لحن لا يجوز عند أحد علته ليس كما قال، بل ذلك منقول نقل التواتر، فوجب قبوله.

ومعنى الآية[2]: أي فأما من أعطي كتابه بيمينه فيقول: تعالوا يا أصحابي اقرؤوا كتابي فرحاً به؛ لأنه لما أوتيه باليمين علم أنه من الناجين الفائزين بالنعيم؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

فأحب أن يظهره لغيره حتى يفرحوا بما نال. ثم ذكر العلة في حسن حاله فقال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: إني فرح مسرور الآن، لأنّي علمت في الدنيا أن ربي سيحاسبني حساباً يسيراً، وقد حاسبني كذلك، فالله عند ظن عبده به. قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك. وقال مجاهد: ظن الآخرة يقين، وظن الدنيا شك. وقال الحسن في الآية: إنّ المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل للآخرة، وإن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل لها.

ثم بين عاقبة أمره، فقال: ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: من أوتي كتابه بيمينه ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: في عيشة وحياة مرضية لا مكروهة، أو في عيشة ذات رضى يرضاها صاحبها؛ أي: من يعيش فيها. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾: هنيئة مريئة صافية عن شوائب الكدر طاهرة عن نوائب الحذر.

وقوله: ﴿فِي عِيشَةٍ﴾؛ أي: في نوع فخيم من العيش. والعيش[1] بالفتح وكذا العيشة والمعاش والمعيش: الحياة المختصة بالحيوان، وهو أخص من الحياة؛ لأن الحياة تقال في الحيوان وفي البازي وفي الملك، ويشتق منه المعيشة لما يتعيش منه. ﴿رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: ذات رضى يرضاها صاحبها على معنى النسبة بالصيغة، فإن النسبة نسبتان نسبة بالحرف كمكي ومدني، ونسبة بالصيغة كلابن وتامر بمعنى ذي لبن وذي تمر. ويجوز أن يجعل الفعل لها، وهو لصاحبها، فيكون من قبيل الإسناد المجازي. ومآل الوجهين كون العيشة مرضية.

وكون العيشة مرضية لاشتمالها على أمور ثلاثة:

الأول: كونها منفعة صافية عن الشوائب.

والثاني: كونها دائمة لا يترقب زوالها وانقطاعها.

والثالث: كونها بحيث يقصد بها تعظيم من رضي بها وإكرامه، وإلا يكون استهزاء واستدراجاً. وعيشة من أعطيَ كتابه بيمينه جامعة لهذه الأمور الثلاثة، فتكون مرضيًّا كمال الرضا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعيشون فلا يموتون،

---

(١) روح البيان.

ويصحون فلا يمرضون، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً.

والمعنى: فهو يعيش عيشة مرضية خالية مما يكدرها مع دوامها، وما فيها من إجلال وتعظيم.

ثم فصل ذلك بقوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: مرتفعة المكان؛ لأنها في السماء كما أن النار سافلة، لأنها تحت الأرض. أو مرتفعة الدرجات أو الأبنية والأشجار، فيكون عالية من الصفات الجارية على غير من هي له، وهو بدل من ﴿عِيشَةٍ﴾ بإعادة الجار. ويجوز كونه متعلقاً بـ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: يعيش عيشاً مرضيًّا في جنة عالية. ﴿قُطُوفُهَا﴾؛ أي: ثمرات تلك الجنة، جمع قطف بالكسر، وهو ما يقطف ويجتنى بسرعة، والقطف بالفتح مصدر. قال سعدي المفتي: اعتبار السرعة في مفهوم القطف محل خلاف، قال ابن الشيخ: معنى السرعة قطع الكل بمرّة. وفي «القاموس»: القطف بالكسر: العنقود، واسم للثمار المقطوفة انتهى. فلا حاجة إلى أن يقال: غلب هنا في جميع ما يجتني من الثمر عنباً كان أو غيره. ﴿دَانِيَةٌ﴾؛ أي: قريبة من مريدها وآخذها، ينالها القائم والقاعد والمضطجع من غير تعب ولا كدّ. وقيل معناه: لا يتأخّر إدراكها انتهى. وإذا أراد أن تدنو إلى فيه دنت بخلاف ثمار الدنيا، فإن في قطفها وتحصيلها تعباً ومشقة غالباً، وكذا لا تؤكل إلا بمزاولة اليد. يقول الفقير: أشجار الجنة على صورة الإنسان. يعني: أن أصل الإنسان رأسه، وهي في طرف العلو، ورجله فرعه مع أنها في طرف السفل، فكذلك أصول أشجار الجنة في طرف العلو، وأغصانها متدلية إلى جانب السفل، ولذا لا يرون تعباً في القطف على أن نعيم الجنة تابع لإرادة المتنعم به، فيصرف فيه كيف يشاء من غير مشقّة.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مقول لقول مضمر، والجمع بعد قوله: ﴿فَهُوَ﴾ باعتبار المعنى، والأمر أمر امتنان وإباحة لا أمر تكليف ضرورة أنَّ الآخرة ليست بدار تكليف. وجمع بين الأكل والشرب؛ لأن أحدهما شقيق الآخر فلا ينفك عنه، ولذا لم يذكر هنا الملابس، وإن ذكرت في موضع آخر. والمعنى؛ أي: يقال لمن أوتي كتابه بيمينه: كلوا من طعام الجنة وثمارها واشربوا من شرابها مطلقاً. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ أي: أكلاً وشرباً هنيئاً؛ أي: سائغاً لا تنغيص فيه في الحلقوم، وجعل الهنيء صفة لهما؛ لأن المصدر يتناول المثنى أيضاً، من هنؤ الطعام والشراب؛

أي: صار هنيئاً سائغاً. وإسناد الهناءة إلى الأكل والشرب مجاز للمبالغة، لأنّها للمأكول والمشروب. وقولهم: ﴿هَنِيٓـَٔا﴾ عند شرب الماء ونحوه بمعنى صحة وعافية؛ لأن السائغ محظوظ منه بسبب الصحة والعافية غالباً. ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾؛ أي: بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة أو بدله أو بسببه. ومعنى الإسلاف في اللغة: تقديم ما ترجو أن يعود عليك بخير، فهو كالإقراض، ومنه: يقال: أسلف في كذا إذا قدم فيه ماله، وأسلم. ﴿فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾؛ أي: الماضية في الدنيا. وعن مجاهد: أيام الصيام، فيكون المعنى: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله في أيام الصيام لا سيما في الأيام الحارة، وهو الأولى، لأن الجزاء لا بد وأن يكون من جنس العمل وملائماً له.

والمعنى: أي ويقول لهم ربهم جل ثناؤه: كلوا يا معشر من رضيت عنه فأدخلته جنتي من ثمارها وطيب ما فيها من الأطعمة، واشربوا من أشربتها أكلاً وشرباً هنيئاً، لا تتأذون بما تأكلون وما تشربون جزاء من الله وثواباً على ما قدمتم في دنياكم لآخرتكم من العمل بطاعتي.

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ﴾ وأعطي ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾؛ أي: كتاب أعماله ﴿بِشِمَالِهِۦ﴾ تحقيراً له، لأنّ الشمال يتشاءم بها بأن تلوى يساره إلى خلف ظهره، فيأخذه بها، ويرى ما فيه من قبائح الأعمال. ﴿فَيَقُولُ﴾ تحزّناً وتحسّراً وخوفاً مما فيه من السيئات، وهو من قبيل الألم الروحانيّ الذي هو أشدّ من الألم الجسمانيّ. ﴿يا﴾ هؤلاء يا معشر المحشر ﴿ليتني﴾ من التمني بالمحال؛ أي: أتمنّى أنّي ﴿لَمۡ أُوتَ﴾ مضارع مبني للمتكلم المجهول من الإيتاء بمعنى لم أعط. ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾؛ أي: كتابي هذا الذي جمع جميع سيئاتي. ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ﴾ مضارع مبني للمتكلم المعلوم من الدراية بمعنى العلم، أي: ولم أعلم ﴿مَا حِسَابِيَهۡ﴾؛ أي: أيّ شيء حسابي من ذكر العمل وذكر الجزاء عليه، لأن كله عليه. فـ﴿ما﴾ استفهامية علق بها الفعل عن العمل، ويجوز أن تكون موصولة بتقدير المبتدأ في الصلة. ﴿يَٰلَيۡتَهَا﴾ تكرير للتمني وتجديد للتحسر، أي: يا هؤلاء ليت الموتة التي متّها وذقتها ﴿كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾؛ أي: القاطعة لحياتي وأمري، ولم أبعث بعدها، ولم ألق ما ألقى. والمعنى: أنه تمنّى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب، فالضمير في ﴿ليتها﴾ يعود إلى الموتة التي قد كان ماتها، وإن لم تكن مذكورة، لأنها لظهورها كانت كالمذكورة.

قال قتادة: تمنى الموت ولم يكن في الدنيا شيء عنده أكره منه، وشر من الموت ما يطلب منه الموت. قال الشاعر:

وَشَـرٌّ مِـنَ ٱلْـمَـوْتِ ٱلَّـذِيْ إِنْ لَـقِـيْـتَـهُ   تَـمَـنَّـيْـتَ مِـنْـهُ ٱلْـمَـوْتَ وَٱلْـمَـوْتُ أَعْـظَـمُ

وقيل: الضمير يعود إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب.

والمعنى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت عليّ، يتمنى أن يكون بدل تلك الحالة الموتة القاطعة للحياة، لما أنه وجد تلك الحالة أمر من الموت، فتمناه عندها، وكان في الدنيا أشد كراهية للموت.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى﴾؛ أي: لم يدفع عنّي شيئاً من عذاب الآخرة على أنّ ﴿مَا﴾ نافية، والمفعول محذوف. ﴿مَالِيَهْ﴾؛ أي: الشيء الذي كان لي في الدنيا من المال والأتباع، على أنّ ﴿ما﴾ موصولة، واللام جارة داخلة على ياء المتكلم ليعم مثل الأتباع، فإنه إذا كان اسماً مضافاً إلى ياء المتكلم لم يعم. وفي «الكشاف»: ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ نفي واستفهام على وجه الإنكار؛ أي: أيّ شيء أغنى عنّي ما كان لي من اليسار انتهى. حتى ضيعت عمري فيه؛ أي: لم ينفعني ولم يدفع عنّي شيئاً من العذاب. فـ﴿مَآ﴾ استفهامية منصوبة المحل على أنها مفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾.

يقول الفقير: الظاهر أنَّ ﴿مَالِيَهْ﴾ هو المال المضاف إلى ياء المتكلم؛ أي: لم يغن عنّي المال الذي جمعته في الدنيا شيئاً من العذاب، بل ألهاني عن الآخرة وضرّني، فضلاً عن أن ينفعني. وذلك ليوافق قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾، وقوله: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾، وقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ وأنظار ذلك. فما ذهب إليه أكثر أهل التفسير من التعميم عدول عمّا ورد به ظاهر القرآن.

﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ والسلطان يطلق على الملك والتسلّط على الناس، ويطلق على الحجة. والمعنى على الأول: ذهب ملكي وتسلّطي على الناس، وبقيت فقيراً ذليلاً. وعلى الثاني: ضلّت عني حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا عليهم. ورجح هذا المعنى بأن من أوتي كتابه بشماله لا اختصاص له بالملوك بل هو عام لجميع أهل الشقاوة. يقول الفقير قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾ يدل على الأول على أنّ فيه تعريضاً بنحو الوليد من رؤساء قريش وأهل ثروتهم. ويجوز أن

يكون المعنى: ذهب عنّي تسلّطي على القوى والآلات، فعجزت عن استعمالها في العبادات، وذلك لأنّ كل أحد كان له سلطان على نفسه وماله وجوارحه، يزول في القيامة سلطانه فلا يملك لنفسه نفعاً.

وقوله: ﴿خُذُوهُ﴾ حكاية لما يقول الله سبحانه يومئذٍ لخزنة النار، وهم الزبانية الموكّلون على عذابه. والهاء راجع إلى ﴿من﴾ الثاني؛ أي: يقول سبحانه لخزنة جهنم: خذوا هذا العاصي الذي أعطي كتابه بشماله ﴿فَغُلُّوهُ﴾ بلا مهلة؛ أي: أجمعوا يديه إلى عنقه بالقيد والحديد وشدّوه بالأغلال، جمع غلّ، وهو بالضمّ: الطوق من حديد الجامع لليد إلى العنق المانع من تحرك الرأس. ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: أدخلوه الجحيم لا غيرها، وهي النار العظيمة. دل التقديم على التخصيص، والمعنى: لا تصلّوه؛ أي: لا تدخلوه إلا الجحيم، ولا تحرقوه إلا فيها، وهي النار العظمى، ليكون الجزاء على وفق المعصية حيث كان يتعظم على الناس. قال سعدي المفتي: فيكون مخصوصاً بالمتعظمين، وفيه بحث انتهى. وقد مر جوابه عند قولنا: بأن من أوتي كتابه بشماله لا اختصاص له بالملوك بل هو عام لجميع أهل الشقاوة.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ من نار، وهي حلق منتظمة كل حلقة منها في حلقة، والجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾، والفاء ليست بمانعة من التعلق. ﴿ذَرْعُهَا﴾؛ أي: ذرع تلك السلسلة؛ أي: قياسها وقدر طولها. والذراع ككتاب: ما يذرع به حديداً أو قضيباً. وفي «المفردات»: والذراع: العضو المعروف، ويعبر عن المذروع والممسوح، ويقال: ذراع من الثوب والأرض. وقوله: ﴿ذَرْعُهَا﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿سَبْعُونَ﴾ والجملة في محل الجر على أنها صفة لـ ﴿سِلْسِلَةٍ﴾، وقوله: ﴿ذِرَاعًا﴾ تمييز لاسم العدد، منصوب به. ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾؛ أي: فأدخلوه. فالسلك: هو الإدخال في الطريق والخيط والقيد وغيرها.

ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ الدلالة على تفاوت ما بين العذابين الغل وتصلية الجحيم وما بينهما، وبين السلك في السلسلة في الشدّة، لا على تراخي المدة. يعني: أن ﴿ثُمَّ﴾ أخرج عن معنى المهلة لاقتضاء مقام التهويل ذلك؛ إذ لا يناسب التوعد بتفرق العذاب. قال ابن الشيخ[1]: إن كلمتي: ثم والفاء، إن كانتا لعطف جملة ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾

(١) روح البيان.

لزم اجتماع حرفي العطف وتواردهما على معطوف واحد، ولا وجه له، فينبغي أن تكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لعطف مضمر على مضمر قبل قوله: ﴿خُذُوهُ﴾؛ أي: قيل لخزنة النار: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ ثم قيل لهم: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ فيكون الفاء لعطف المقول على المقول مع إفادة معنى التعقيب، وكلمة ثم لعطف القول على القول مع الدلالة على أن الأمر الأخير أشد وأهول مما قبله من الأوامر مع تعاقب المأمور بها من الأخذ، وجعل يده مغلولة إلى عنقه وتصلية الجحيم وسلكهم إياه السلسلة الموصوفة.

والمعنى: فأدخلوه فيها بأن تلقوها على جسده، وتجعلوه محاطاً بها، فهو فيما بينها مرهق مضيق عليه، لا يستطيع حراكاً مّا، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أهل النار يكونون في السلسلة كما يكون الثعلب في الجلبة. والثعلب: طرف خشبة الرمح الداخل في الجلبة. والجلبة: السنان. والسلسلة: الدرع. وذلك أنّما يكون رهقا؛ أي: غشية.

قال أبو حيان[1]: وأما ﴿ثُمَّ﴾ فيمكن بقاؤها على موضوعها من المهلة الزمانية، وأنه أولاً يؤخذ فيغل، ولما لم يعذب بالعجلة صارت له استراحة، ثم جاء تصلية الجحيم فكان ذلك أبلغ في عذابه، إذ جاءه ذلك وقد سكنت نفسه قليلاً، ثم جاء سلكه بعد ذلك بعد كونه مغلولاً معذّباً في النار، لكنه كان انتقال من مكان إلى مكان فيجد بذلك بعض تنفس، فلما سلك في السلسلة كان ذلك أشد ما عليه من العذاب حيث صار لا حراك له ولا انتقال وأنه يضيق عليه غاية التضييق، فهذا يصح فيه أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ على موضوعها من المهلة الزمانية انتهى.

وتقديم[2] السلسلة على السلك كتقديم الجحيم على التصلية في الدلالة على الاختصاص والاهتمام بذكر ألوان ما يعذب به، أي: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة؛ لأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم. ووصفها بسبعين ذراعاً لإرادة المبالغة في طولها، وإن لم تبلغ هذا العدد، كما قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ يريد مرات كثيرة لا خصوص العدد المذكور؛ لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد، فهو كناية عن زيادة الطول لشيوع استعمال السبعة والسبعين والسبع مئة في

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

التكثير. ويجوز أن يراد ظاهره من العدد. وقال ابن عباس وابن جريج، ومحمد بن المنكدر بذراع الملك. وقال نوف البكالي: كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان نوف في رحبة مسجد الكوفة. وهذا يحتاج إلى نقل صحيح. قال الحسن: الله أعلم بأيّ ذراع هي. وقيل: بالذراع المعروف عندنا، وإنّما خوطبنا بما نعرفه ونحصله. وعن كعب: لو جمع حديد الدنيا. ما وزن حلقة منها، ولو وضعت منها حلقة على جبل.. لذاب مثل الرصاص تدخل السلسلة في فيه وتخرج من دبره، ويلوى فضلها على عنقه وجسده، ويقرن بها بينه وبين شيطانه.

يقول الفقير: هذا يقتضي أن يكون ذلك عذاب الكافر؛ لأن جسده يكون في العظم مسيرة ثلاثة أيام، وضرسه مثل جبل أحد كما ورد في الحديث.

والمعنى[1]: أي فيقال لخزنة جهنم: خذوه فضعوا الغل في عنقه، ثم أدخلوه في النار الموقدة كفاء كفره بالله واجتراحه عظيم الآثام، ثم أدخلوه في سلسلة طولها سبعون ذراعاً تلف على جميع جسمه حتى لا يستطيع تحركاً ولا انفلاتاً، والعرب إذا أرادت الكثرة عبرت بالسبعة والسبعين والسبع مئة والمقصود إثبات أنها طويلة المدى.

ثم بين سبب استحقاق هذا العذاب، فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن هذا الكافر ﴿كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وصفه تعالى بالعظيم للإيذان بأنه المستحق للعظمة فحسب، فمن نسبها إلى نفسه استحق أعظم العقوبات. والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ما له يعذب بهذا العذاب الشديد؟ فأجيب: بأنه كان لا يؤمن بالله العظيم. والمعنى: افعلوا ذلك به جزاء له على كفره بالله في الدنيا وإشراكه به سواه وعدم القيام بحق عبادته وأداء فرائضه. ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: ولا يحثّ الناس على إطعام المسكنة والحاجة فضلاً عن بذل المال لهم. والحضّ: الحث على الفعل بالحرص على وقوعه. والمراد من الطعام[2] العين، ولا بد من تقدير مضاف مثل: إعطاء أو بذل، لأن الحث والتحريض لا يتعلق بالأعيان بل بالأحداث، وأضيف الطعام إلى المسكين من حيث أن له إليه نسبة. والمعنى: ولا يحث أهله وغيرهم على إعطاء طعام يطعم به الفقير فضلاً عن

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أن يعطي ويبذل من ماله. أو المعنى: ولا يحثهم على إطعامه على أن يكون الطعام اسماً وضع موضع الإطعام، كما يوضع العطاء موضع الإعطاء، كما قال الشاعر:

أَكُفْراً بَعْدَ رَدِّ ٱلْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ ٱلْمِئَةَ ٱلرِّتَاعَا

أي: بعد إعطائك. فالإضافة حينئذٍ إلى المفعول، وذكر الحضّ دون الفعل، ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل. يعني: يكون ترك الفعل أشد في أن يكون سبب المؤاخذة الشديدة. وجعل حرمان المسكين قرينة للكفر، حيث عطفه عليه للدلالة على عظم الجرم، فتخصيص الأمرين بالذكر لما أن أقبح العقائد الكفر، وأشنع الرذائل البخل. والعطف للدلالة على أن حرمان المسكين صفة الكفرة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾. فلا يلزم أن يكون الكفار مخاطبين بالفروع.

وقال ابن الشيخ[1]: فيه دليل على تكليف الكفار بالفروع على معنى أنهم يعاقبون على ترك الامتثال بها كعدم إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والانتهاء عن الفواحش والمنكرات، لا على معنى أنّهم يطالبون بها حال كفرهم، فإنهم غير مكلفين بالفروع بهذا المعنى لانعدام أهلية الأداء فيهم. لأن مدار أهلية الأداء هو استحقاق الثواب بالأداء، ولا ثواب لأعمال الكفّار، وأهلية الوجوب لا تستلزم أهلية الأداء، كما تقرر في الأصول انتهى.

والحاصل: أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة لا غير.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين، وكان يقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها الآخر بالإطعام والحضّ عليه؟

والمعنى[2]: أنّه لا يحث نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين، وفي جعل هذا قريناً لترك الإيمان بالله من الترغيب في الصدقة على المساكين، وسدّ

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

فاقتهم وحثّ النفس والناس على ذلك ما يدل أبلغ دلالة ويفيد أكمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم وأشد المآثم.

﴿فَلَيْسَ لَهُ﴾؛ أي: لذلك الكافر ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم، وهو يوم القيامة ﴿هَٰهُنَا﴾؛ أي: في هذا المكان، وهو مكان الأخذ والغلّ. ﴿حَمِيمٌ﴾؛ أي: قريب نسباً أو وداً يحيمه ويدفع عنه العذاب ويحزن عليه، لأنّ أولياءه يتحامونه ويفرون منه كقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾. وقال في «عين المعاني»: قريب يحترق له قلبه من حميم الماء. وقال الفاشانيّ: لاستيحاشه من نفسه فكيف لا يستوحش منه غيره وهو من تتمة ما يقال للزبانية في حقه إعلاماً بأنه محروم من الرحمة وحثًّا لهم على بطشه. ﴿وَلَا طَعَامٌ﴾ له ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ والغسلين فعلين من الغسل، وفي «القاموس»: الغسلين بالكسر: ما يغسل من الثوب ونحوه كالغسالة، وما يسيل من جلود أهل النار، والشديد الحرّ، وشجر في النار انتهى. والمعنى: وليس له طعام يأكله إلا من غسالة أهل النار وما يسل من أبدانهم من الصديد والدم بعصر قوة الحرارة الناريّة منهم.

روي: «أنه لو وقعت قطرة منه على الأرض.. لأفسدت على الناس معايشهم».

وقوله: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ صفة لـ ﴿غِسْلِينٍ﴾. والتعبير[1] بالأكل باعتبار ذكر الطعام؛ أي: لا يأكل ذلك الغسلين إلاّ الآثمون أصحاب الخطايا، وهم المشركون، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما. ويحتمل أن يراد بهم الذين يتخطون الحق إلى الباطل، ويتعدون حدود الله تعالى من خطىء الرجل من باب علم إذا تعمد الخطأ؛ أي: الذنب، فالخاطىء هو الذي يفعل ضدّ الصواب متعمداً لذلك، والمخطىء هو الذي يفعله غير متعمد؛ أي: يريد الصواب فيصير إلى غيره من غير قصد، كما يقال: المجتهد يخطىء وقد يصيب. وفي «عين المعاني»: الخاطئون طريق التوحيد. وقرأ الجمهور[2] ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ بالهمز اسم فاعل من خطىء، وهو الذي يفعل ضدّ الصواب متعمداً لذلك كما ذكرنا آنفاً. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، وطلحة، ونافع بخلاف عنه ﴿الخاطون﴾ بضمّ الطاء دون همز، فالظاهر اسم فاعل

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

من خطىء كقراءة من همز.

وقال الزمخشري: ويجوز أن يراد الذين يتخطّون الحق إلى الباطل، ويتعدون حدود الله انتهى. فيكون اسم فعل من خطا يخطو كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ من خطا إلى المعاصي يخطو.

فإن قلت: كيف التوفيق بين[1] قوله: ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وبين قوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾، وفي أخرى ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾، وفي أخرى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؟

قلت: لا منافاة إذ يجوز أن يكون طعامهم جميع ذلك، أو أن العذاب أنواع والمعذبون طبقاتٌ. فمنهم أكلة غسلين، ومنهم أكلة الضريع، ومنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة النار. لكل منهم جزء مقسوم.

وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: بما تشاهدونه من المبصرات ﴿و﴾ بـ ﴿ما لا تبصرون﴾؛ أي: بما لا تشاهدونه من المغيبات. ردّ لكلام[2] المشركين، كأنّه قال: ليس الأمر كما تقولونه من كون القرآن شعراً أو كهانة، فأقسم إنه لقول رسول كريم... إلخ. ﴿فَلَآ﴾ زائدة. قال قتادة: أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر، فيدخل في هذا جميع المخلوقات. وقيل: إنّ ﴿لا﴾ ليست زائدة بل هي لنفي القسم؛ أي: لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحق في ذلك. والأول أولى. وقال بعضهم: الكلام[3] جملتان، و﴿لا﴾ نافية لمحذوف والتقدير: وما قاله المكذبون فلا يصح إذ هو قول باطل ثمّ قال: أقسم بما تبصرون، وما لا تبصرون. يعني[4]: بما ترون وتشاهدون وبما لا ترون وما لا تشاهدون أقسم بالأشياء كلها، فيدخل فيه جميع المكوّنات والموجودات. وقيل: أقسم بالدنيا والآخرة، وقيل: بما تبصرون يعني: على ظهر الأرض وما لا تبصرون؛ أي: ما في بطنها. وقيل: بما تبصرون يعني: الأجسام وما لا تبصرون يعني: الأرواح. وقيل: بما تبصرون يعني: الإنس وما لا تبصرون يعني: الملائكة والجنّ. وقيل: بما تبصرون من النعم

---

(١) فتح الرحمن.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) الخازن.

الظاهرة وما لا تبصرون من النعم الباطنة. وقيل: بما تبصرون هو ما أظهره الله لملائكته من مكنون غيبه من الملكوت واللوح، والقلم وجميع خلقه وما لا تبصرون هو ما استأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه. والإقسام بغير الله إنّما نهي عنه في حقّنا، وأما هو تعالى فيقسم بما شاء على ما شاء.

ثم ذكر المقسم عليه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ هذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾؛ أي: لتلاوة نبيّ مرسل منّا إليكم ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى، وهو محمد ﷺ. فهو في غاية الكرم الذي هو البعد عن مساوىء الأخلاق، بإظهار معاليها لشرف النفس وشرف الإباء. وكرم الشيء اجتماع الكمالات اللائقة به فيه. يدل على هذا المعنى مقابلة رسول بشاعر وكاهن؛ لأنَّ المعنى على إثبات أنه رسول لا شاعر ولا كاهن، ولم يقولوا لجبريل: شاعر ولا كاهن. وقيل: المعنى: أنّه لتبليغ ملك مرسل منّا إلى محمد ﷺ كريم عظيم عند الله تعالى، هو جبريل عليه السلام، وما هو من تلقاء محمد كما تزعمون وتدعون أنه شاعر أو كاهن. ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾. وعلى كلا التقديرين فالقرآن ليس من قول محمد ﷺ، ولا من قول جبريل عليه السلام بل هو قول الله فلا بدّ من تقدير التلاوة أو التبليغ كما قدرنا.

فإن قلت[1]: قد توجه ههنا سؤال، وهو أن جمهور الأمّة، وهم أهل السنة مجمعون على أن القرآن كلام الله، فكيف يصح إضافته إلى الرسول؟.

قلت: أما إضافته إلى الله تعالى فلأنّه هو المتكلم به، وأما إضافته إلى الرسول؛ فلأنّه هو المبلغ عن الله تعالى ما أوحي إليه، ولهذا أكّده بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ليزول هذا الإشكال. قال ابن قتيبة: لم يرد أنّه قول الرسول وإنّما أراد أنّه قول الرسول المبلّغ عن الله تعالى، وفي ﴿الرسول﴾ ما يدل على ذلك، فاكتفى به عن أن يقول: عن الله تعالى.

﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: وما هذا القرآن ﴿بِقَوْلِ﴾ رجل ﴿شَاعِرٍ﴾ ولا هو من ضروب الشعر ولا تركيبه كما تزعمون ذلك تارةً. والشاعر: هو الذي يأتي بكلام مقفى

---

(١) الخازن.

موزون بقصد الوزن. ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إيماناً قليلاً تؤمنون بالقرآن وكونه كلام الله أو بالرسول، وكونه مرسلاً من الله تعالى، والمراد بالقلة: النفي، أي: لا تؤمنون أصلاً كقولك لمن لا يزورك: قلّما تأتينا وأنت تريد لا تأتينا أصلاً. يقول الفقير: يجوز عندي أن تكون قلة الإيمان باعتبار قلة المؤمن بمعنى أنّ القليل منكم يؤمنون، وقس عليه نظائره. وقال بعضهم[1]: المراد بالإيمان القليل إيمانهم واستيقانهم بأنفهسم، وقد جحدوا بألسنتهم لا معنى النفي. وقال بعضهم: إن كان المراد منه الإيمان الشرعي فالتقليل للنفي، وإن كان اللغوي فالتقليل على حاله؛ لأنهم كانوا يصدقون ببعض أحكام القرآن كصلة الرحم وإطعام الجائع والعفاف ونحوها، ويكذّبون ببعضها كالتوحيد والرسالة والبعث ونحوها، وعلى هذا التذكر.

والحاصل: أن القرآن كلام الله حقيقة أظهره في اللوح المحفوظ وكلام جبريل أيضاً من حيث إنه أنزله من السماوات إلى الأرض، وتلاه على خاتم النبين، وكلام سيد المرسلين أيضاً من حيث إنه أظهره للخلق، ودعا الناس إلى الإيمان به وجعله حجة لنبوته.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تدعون ذلك تارةً أخرى ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تتفكرون؛ أي: تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تتذكرون، و﴿ما﴾ زائدة؛ أي: لا تتذكرون أصلاً، فالقلة بمعنى النفي كسابقه. وقرأ الجمهور بالتاء في الفعلين لمناسبة ﴿تُبْصِرُونَ﴾. وقرأ ابن كثير[2] وابن عامر، ويعقوب بالياء فيهما التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة. قال مقاتل: سبب نزول هذه الآية أنّ الوليد بن المغيرة قال: إنّ محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة: كاهن. فردّ الله عليهم بذلك كما مر.

والكاهن[3]: هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان، ويدّعي معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب. وفي «كشف الأسرار»: الكاهن هو الذي يزعم أنَّ له خدماً من الجن يأتونه بضرب من الوحي، وقد انقطعت الكهانة بعد نبيّنا محمد ﷺ؛ لأنّ الجنَّ حبسوا ومنعوا من الاستماع انتهى.

وقال الراغب في «المفردات»: الكاهن هو الذي يخبر بالأخبار الماضية الخفية

---

(١) روح البيان. (٢) البيضاوي. (٣) روح البيان.

بضرب من الظنّ كالعرّاف الذي يخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك. ولكون هاتين الصناعتين مبنيتين على الظن الذي يخطىء ويصيب قال ﷺ: «من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدّقه بما قال.. فقد كفر بما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ». وفي «شرح المشارق» لابن الملك: العرّاف من يخبر بما أخفي من المسروق، ومكان الضالّة، والكاهن: من يخبر بما يكون في المستقبل. وفي «الصحاح»: العرّاف هو الكاهن.

فإن قلت: لِمَ خص ذكر الإيمان مع نفي الشاعريّة والتذكر مع نفي الكاهنيّة؟

قلت: إن عدم مشابهة القرآن الشعر أمر بين لكونه نثراً لا ينكره إلا معاند فلا مجال فيه لتوهم عذر لترك الإيمان، فلذلك وبخوا عليه وعجب منه بخلاف مباينته للكهانة، فإنها تتوقف على تذكر أحواله ﷺ ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعاني أقوالهم، فالكاهن ينصب نفسه للدلالة على الضوائع والإخبار بالمغيبات يصدق فيها تارة ويكذب كثيراً، ويأخذ جعلاً على ذلك ويقتصر على من يسأله، وليس واحد منها من دأبه ﷺ.

والحاصل: أنَّ[1] الكاهن من يأتيه الشياطين، ويلقون إليه من أخبار السماء، فيخبر الناس بما سمعه منهم، وما يلقيه ﷺ من الكلام مشتمل على ذم الشياطين وسبهم، فكيف يمكن أن يكون ذلك بإلقاء الشياطين، فإنهم لا ينزلون شيئاً فيه ذمهم وسبهم لا سيما على من يلعنهم ويطعن فيهم، وكذا معاني ما يلقيه ﷺ منافية لمعاني أقوال الكهنة، فإنهم لا يدعون إلى تهذيب الأخلاق وتصحيح العقائد والأعمال المتعلقة بالمبدأ والمعاد، بخلاف معاني قوله ﷺ. فلو تذكر أهل مكة معاني القرآن ومعاني أقوال الكهنة.. لما قالوا بأنّه ﷺ كاهن. وفي «برهان القرآن»: خص ذكر الشعر بقوله: ﴿مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ لأن من قال: القرآن شعر ومحمد شاعر بعد ما علم اختلاف آيات القرآن في الطول والقصر واختلاف حروف مقاطعه، فلكفره وقلة إيمانه، فإن الشعر كلام موزون مقفى. وخص ذكر الكهانة بقول: ﴿مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، لأن من ذهب إلى أن القرآن كهانة، وأن محمداً ﷺ كاهن فهو ذاهل عن ذكر كلام الكهان، فإنه أسجاع لا معاني تحتها، وأوضاع تنبو الطباع عنها، ولا يكون في

---

(١) روح البيان.

كلامهم ذكر الله انتهى. قال أبو السعود في «الإرشاد»: وأنت خبير بأن ذلك أيضاً مما لا يتوقف على تأمل قطعاً انتهى. أي: فتعليلهم بالفرق غير صحيح، وفيه أن الإنابة شرط للتذكر كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾. والكافر ليس من أهل الإنابة، وأيضاً ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: أولو العقول الزاكية والقلوب الطاهرة، والكافر ليس منهم فليس من أهل التذكر، ولا شك أن كون الشيء أمراً بينا لا ينافي التذكر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ مع أن شواهد الألوهية ظاهرة لكل بصير باهرة عندكل خبير على أنه يظهر من تقريراتهم أنه لا بد من التذكر في نفي الكهانة لخفاء أمرها في الجملة بالنسبة إلى الشعر، والعلم عند الله العلام.

وحاصل معنى الآيات: فأقسم لكم بالأشياء كلها ما يبصر منها، وما لا يبصر إن هذا القرآن كلام الله سبحانه ووحيه أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، وما هو بقول شاعر؛ لأنَّ محمداً لا يحسن قول الشعر. تؤمنون بذلك القرآن إيماناً قليلاً، والمراد أنهم لا يؤمنون أصلاً، أو يؤمنون بقلوبهم قليلاً، ثم يرجعون عنه سريعاً، ولا بقول كاهن كما تزعمون؛ لأنه سب الشياطين وشتمهم فلا يمكن أن يكون بإلهامهم، ولكنكم لما لم تستطيعوا فهم أسرار نظمه قلتم من كلام الكهّان.

ثم أكد ما تقدم بقوله: ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ أي: بل كتاب منزل ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وإله الأوّلين والآخرين، أنزله على لسان جبريل تربية للسعداء وتبشيراً لهم وإنذاراً للأشقياء، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾. فعبر عن اسم المفعول بالمصدر مبالغة.

وقرأ[1] ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو بخلاف عنهما، والجحدريّ، والحسن ﴿يؤمنون﴾، ﴿يذكرون﴾ بالياء فيهما، وباقي السبعة بتاء الخطاب. وقرأ أبيّ ﴿تتذكرون﴾ بتاءين كما مرّ بعضه قريباً نقلاً عن «البيضاوي». وقرأ الجمهور ﴿تَنزِيلٌ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو تنزيل. وأبو السّمال ﴿تنزيلا﴾ بالنصب على المصدرية بإضمار فعل؛ أي: نزل تنزيلاً. والمعنى: أنه لقول رسول كريم، وهو تنزيل من رب العالمين على لسانه.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ ذلك الرسول، وهو محمد ﷺ أو جبريل عليه السلام على ما تقدم. والتقوّل: تكلّف القول؛ أي: اختلق ﴿عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ كما يتقوله الشعراء؛ أي[1]: ولو ادعى محمد علينا شيئاً لم نقله كما تزعمون كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾. وفي ذكر البعض إشارة إلى أن القليل كاف في المؤاخذة الآتية فضلاً عن الكثير. سمّي الافتراء تقولا وهو بناء التكلف، لأنه قول متكلف كما قال صاحب «الكشاف»: التقول افتعال القول واختراعه من عند نفسه، لأنّ فيه تكلفاً من المفتعل. وسميت[2] الأقوال المفتراة أقاويل تحقيراً لها؛ لأنَّ صيغة أفعولة إنما تطلق على محقرات الأمور وغرائبها كالأعجوبة مما يتعجب منه، والأضحوكة لما يضحك منه، وكان الأقاويل جمع أقوولة من القول وإن لم يثبت عن نقلة اللغة، ولم يكن أقوولة مستعملاً لكن كونه على صورة جمع أفعولة كاف في التحقير. ويؤيد أنه ليس جمع الأقوال لزوم أن لا يعاقب بما دون ثلاثة أقوال، فالأقاويل ههنا بمعنى الأقوال لا أنه جمعه. وفي «حواشي ابن الشيخ»: الظاهر أن الأقاويل جمع أقوال كأناعيم جمع أنعام جمع نعم، وأبابيت جمع أبيات جمع بيت.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ بوزن تفعل مبنياً للفاعل. والتقول: أن يقول الإنسان عن آخر، إنه قال شيئاً لم يقله. وقرأ ذكوان وابن محمد ﴿يقول﴾ مضارع قال، وهذه القراءة معترضة بما صرحت به قراءة الجمهور، وقرىء ﴿ولو تُقُول﴾ مبنياً للمفعول، وحذف الفاعل، وقام المفعول مقامه، وهو ﴿بعض﴾ إن كان قرىء مرفوعاً، وإن كان قرىء منصوباً فـ﴿علينا﴾ قام مقام الفاعل.

والمعنى: ولو تقول علينا متقول ولا يكون الضمير في ﴿تقول﴾ عائداً على الرسول محمد ﷺ لاستحالة وقوع ذلك منه، فنحن نمنع أن يكون ذلك على سبيل الفرض في حقه ﷺ، ذكره في «البحر».

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ﴾ حال من قوله: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾؛ أي[4]: لأخذنا بيده اليمين منه. قال ابن جرير: إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب. وقال الفراء والمبرد والزجاج وابن قتيبة: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾؛ أي:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

(٤) الشوكاني.

بالقوة والقدرة. قال ابن قتيبة: وإنما أقام اليمين مقام القوة؛ لأنّ قوة كل شيء في ميامنه، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

إِذَا مَـارَايَـةٌ نُـصِـبَـتْ لِـمَـجْـدٍ تَـلَـقَّـاهَـا عَـرَابَـةُ بِـٱلْـيَـمِـيْـنِ

وقول الآخر:

وَلَـمَّـا رَأَيْـتُ ٱلـشَّـمْـسَ أَشْـرَقَ نُـوْرُهَـا تَـنَـاوَلْـتُ مِـنْـهَـا حَـاجَـتِـيْ بِـٱلْـيَـمِـيْـنِ

وفي «البحر»: والظاهر أن قوله: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ المراد به الجارحة، فقال الحسن: المعنى: قطعناه عيرةً ونكالاً، والياء على هذا زائدة، وقيل: الأخذ على ظاهره انتهى. وفي «المفردات»: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ أي: منعناه ودفعناه، فعبر عن ذلك بالأخذ باليمين كقولك: خذ بيمين فلان انتهى. وقيل: اليمين بمعنى القوة، فالمعنى: لانتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا. وقيل المعنى حينئذٍ: لأخذنا منه اليمين وسلبنا منه القوة والقدرة على التكلم بذلك، على أن الباء صلة؛ أي: زائدة. وعبر عن القوة باليمين؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه كما مر، فيكون من قبيل ذكر المحل، وإرادة الحال، أو ذكر الملزوم وإرادة اللازم.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: نياط قلبه بضرب عنقه. والنياط: عرق أبيض غليظ كالقصبة، علق به القلب تصادفه شفرة الناحر، إذا انقطع مات صاحبه. ولم يقل: لأهلكناه أو لضربنا عنقه؛ لأنه تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه، وهو أن يأخذ القتال بيمينه ويكفحه أي: يواجهه بالسيف، ويضرب عنقه. فإنه إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جيده؛ أي عنقه وأن يكفحه؛ أي: يواجهه بالسيف، وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه، فلذا خص اليمين دون اليسار.

قال الزمخشري: والمعنى: ولو ادعى مدعٍ علينا شيئاً لم نقله.. لقتلناه صبراً كما تفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معالجة بالسخط والانتقام، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول، وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته.

ومعنى الآية[1]: أي ولو افترى محمد علينا بعض الأقوال الباطلة، ونسبها

---

(١) المراغي.

إلينا.. لعاجلناه بالعقوبة وانتقمنا منه أشد الانتقام، والأخذ باليمين يكون عند ضرب الرقبة وإزهاق الروح، وقد جرى ذكر هذا على التمثيل بما يفعله الملوك بمن يتكذب عليهم، فإنهم لا يمهلونه بل يضربون رقبته على الفور، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، وهو عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر، والمراد أنه لو كذب علينا.. لأزهقنا روحه.. فكان كمن قطع وتينه.

﴿فَمَا مِنكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾؛ أي: عن القتل أو عن المقتول، وهو متعلق بقوله: ﴿حَٰجِزِينَ﴾؛ أي: دافعين. فهو وصف لأحد، فإنه عام لوقوعه في سياق النفي، إذ هو في معنى الجماعة، فيقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كما جاء في قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾، وقوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. فـ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾[1] في محل الرفع بالابتداء، و﴿مِّنْ﴾ زائدة لتأكيد النفي، و﴿مِنكُم﴾ خبره، و﴿حَٰجِزِينَ﴾ صفة لـ﴿أَحَدٍ﴾.

والمعنى: فما منكم قوم يحجزون؛ أي: يمنعون ويدفعون عن المقتول أو عن قتله وإهلاكه المدلول عليه بقوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: لا يقدر أحد على الحجز والدفع عنه، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم مع علمه أنه لو تكلف ذلك.. لعاقبناه ولا تقدرون على الدفع عنه. وهذا مبنيّ على أصل لغة بني تميم، فإنهم لا يعملون ﴿ما﴾ لدخولها على القبيلتين الاسم والفعل، وقد يجعل ﴿حَٰجِزِينَ﴾ خبراً لـ ﴿ما﴾ على اللغة الحجازية، ولعله أولى. فتكون كلمة ﴿ما﴾ هي المشبهة بليس، فـ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ اسم ﴿ما﴾، و﴿حَٰجِزِينَ﴾ خبرها، منصوب، و﴿مِنكُم﴾ حال مقدم وكان في الأصل صفة لـ﴿أَحَدٍ﴾. وفي الآية تنبيه على أنّ النبي ﷺ لو قال من عند نفسه شيئاً أو زاد أو نقص حرفاً واحداً على ما أوحي إليه.. لعاقبه الله، وهو أكرم الناس عليه، فما ظنك بغيره ممن قصد تغيير شيء من كتاب الله بتأويله أو قال شيئاً من قبل نفسه؟ كما ضل بذلك بعض الفرق الضالة.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن هذا القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: لموعظة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: للذين اتقوا الشرك والمعاصي وحب الدنيا، فإنه يتذكر بهذا القرآن وينتفع به بخلاف المشركين، ومن مال إلى الدنيا وغلبه حبها، فإنه يكذّب به ولا ينتفع به. ﴿وَإِنَّا

---

(١) روح البيان.

لَنَعۡلَمُ﴾ في الأول ﴿أَنَّ مِنكُم﴾ أيها الناس ﴿مُّكَذِّبِينَ﴾ بالقرآن، فنجازيهم على تكذيبهم. قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: ما أشد هذه الآية على هذه الأمة. وفي الآية وعيد شديد لا يخفى. والظاهر[1]: أن قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨﴾ وما بعده معطوف على جواب القسم، فهو من جملة المقسم عليه، وما بينهما اعتراض اهـ شيخنا.

والمعنى: أي وإنّ هذا القرآن.. لعظة وذكرى لمن يخشى عقاب الله فيطيع أوامره وينتهي عما نهى عنه. وخص المتقين بالتذكرة والعظة؛ لأنّهم هم الذين ينتفعون بها. ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩﴾ له بسبب حبكم للدنيا وحسدكم للداعي، وإنا لنجازيكم على ذلك بما تستحقون إظهاراً للعدل.

والخلاصة: أنّ منكم من اتقى الله فتذكر بهذا القرآن وانتفع به، ومنكم من مال إلى الدنيا فكذب به وأعرض عنه.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن هذا القرآن ﴿لَحَسۡرَةٌ﴾ وندامة ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ المكذبين له يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين المصدقين به، أو حسرة عليهم في الدنيا حين رأوا دولة المؤمنين أو حين لم يقدروا على معارضته عند تحديهم بأن يأتوا بأقصر سورة من مثله. ويجوز[2] أن يعود الضمير إلى التكذيب المدلول عليه بقوله ﴿مُّكَذِّبِينَ﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإن هذا القرآن ككونه من عند الله ﴿لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾؛ أي: للحق اليقين الذي لا يحول حوله ريب، ولا يتطرق إليه شك في أنه من عند الله، لم يتقوله محمد ﷺ. فالحق واليقين صفتان بمعنى واحد، أضيف أحدهما إلى الآخر إضافة الشيء إلى نفسه كحب الحصيد للتأكيد، فإن الحق هو الثابت الذي لا يتطرق إليه الريب، وكذا اليقين.

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾؛ أي: فسبح الله سبحانه وتعالى يا محمد ونزهه عما لا يليق به بذكر اسمه العظيم بأن تقول سبحان الله تنزيهاً له عن الرضى بالتقول عليه وشكراً له على ما أوحى به إليك من هذا القرآن الجليل الشأن. فمفعول سبح محذوف، والباء في ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ للاستعانة[3] كما في ضربته

---

(1) الفتوحات. (2) روح البيان. (3) روح البيان.

بالسوط، فهو مفعول ثان بواسطة حرف الجر على حذف المضاف، و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة الاسم، ويحتمل أن يكون صفة ﴿رَبِّكَ﴾، و﴿اسم﴾ مقحم، ويؤيده ما روى: أنّ رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «اجعلوها في ركوعكم». فالتزم ذلك بعض العلماء، كما في «فتح الرحمن». وفي «التأويلات النجمية»: نزه تنزيهاً وقدس عن التشبيه اسم ربك؛ أي: مسمى ربك؛ إذ الاسم عين المسمى عند أرباب الحق وأهل الذوق انتهى. وقيل: إن لفظة ﴿بِٱسْمِ﴾ زائدة. وعبارة «الخازن»؛ أي: نزه ربك العظيم، واشكره على أنْ جعلك أهلاً لأن يوحى إليك تأمل، انتهت.

الإعراب

﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾﴾ مبتدأ أوّل أو صفة لمحذوف؛ أي: القيامة الحاقة أو الساعة الحاقة. ﴿مَا﴾ اسم استفهام تعظيمي في محل الرفع مبتدأ ثان، ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾﴾ خبر لـ ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول جملة كبرى في ضمنها جملة صغرى مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ اسم استفهام للتعظيم أيضاً في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والكاف مفعول أول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ ﴿مَا﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مستأنفة. ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾﴾ خبر لـ ﴿مَا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني والثالث لـ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾، لأنّ أدرى بمعنى أعلم، ينصب ثلاثة مفاعيل، وقد علّقت ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ عن العمل بالاستفهام.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ فعل وفاعل، ﴿وَعَادٌۢ﴾ معطوف على ثمود، ﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾ متعلق بـ ﴿كَذَّبَتْ﴾ والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحوال الحاقة. ﴿فَأَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن ثمود وعاداً كذبتا، وأردت بيان عاقبة تكذيبهما فأقول لك. ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل، ﴿ثَمُودُ﴾ مبتدأ، ﴿فَأُهْلِكُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، واقعة في

غير موضعها؛ لأن موضعها موضع أما، حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿أهلكوا﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة ونائب فاعل، ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ متعلق بـ ﴿أهلكوا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أما﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانيًا، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل ﴿عَادٌ﴾ مبتدأ، ﴿فَأُهْلِكُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿أهلكوا﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿أمّا﴾ وجملة ﴿أمّا﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أمّا﴾ الأولى. ﴿بِرِيحٍ﴾ متعلق بـ ﴿أهلكوا﴾، ﴿صَرْصَرٍ﴾ صفة أولى لريح، ﴿عَاتِيَةٍ﴾ صفة ثانية لها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

• ﴿سَخَّرَهَا﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الله تعالى، ومفعول به، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿سَخَّرَهَا﴾، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثالثة لـ ﴿ريح﴾، ولكنها سببية، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿سَخَّرَهَا﴾، ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ معطوف عليه، ﴿حُسُومًا﴾ صفة لـ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ﴾. ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾؛ أي: متتابعات أو منصوب على المصدرية بفعل محذوف من لفظه؛ أي: تحسمهم حسوماً أو حال من مفعول ﴿سَخَّرَهَا﴾؛ أي: ذات حسوم. ﴿فَتَرَى﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ترى﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمّد ﷺ، أو على من يصلح للخطاب، ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿سَخَّرَهَا﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿ترى﴾، والضمير على الليالي والأيّام أو على الريح، ﴿صَرْعَىٰ﴾ حال من القوم؛ لأن الرؤية هنا بصرية ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ خبره ومضاف إليه، ﴿خَاوِيَةٍ﴾ صفة ﴿نَخْلٍ﴾، وجملة ﴿كأن﴾ في محل النصب حال ثانية من القوم. ﴿فَهَلْ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿هل﴾ حرف استفهام للاستفهام الإنكاري، ﴿تَرَىٰ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد أو على؛ أي مخاطب، ﴿لَهُم﴾ متعلق بـ ﴿تَرَىٰ﴾، ﴿مِّنۢ﴾ زائدة، ﴿بَاقِيَةٍ﴾ مفعول ﴿ترى﴾، أي: من نفس باقية، والجملة مستأنفة.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على سابقها، ﴿وَمَن﴾ معطوف على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، ﴿قَبْلَهُۥ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صلة من الموصولة، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ معطوف أيضاً على ﴿فِرْعَوْنُ﴾، ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ متعلق بـ ﴿جاء﴾، ﴿فَعَصَوْا۟﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿عصوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿جاء﴾، ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ مفعول به، ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، معطوف على ﴿عصوا﴾. ﴿أَخْذَةً﴾ مفعول مطلق، ﴿رَّابِيَةً﴾ صفة لـ ﴿أَخْذَةً﴾؛ لأنّها مصدر مّرة، وليست مصدر هيئة، وإنما يستفاد معنى الهيئة من الصفة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَّا﴾ اسم شرط غير جازم، أو ظرفية بمعنى حين، ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَمَّا﴾، ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب ﴿لَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، أو في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿لَمَّا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ متعلق بـ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾، ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ اللام حرف جرّ وتعليل، ﴿نجعلها﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة، ﴿لَكُمْ﴾ حال من ﴿تَذْكِرَةً﴾ لأنّها صفة نكرة قدمت عليها، ﴿تَذْكِرَةً﴾ مفعول ثان لـ ﴿نجعل﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المضمرة، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لجعلنا إيّاها تذكرة لكم، والضمير في ﴿نجعلها﴾ عائد على الفعلة، وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾، ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ فعل ومفعول به، معطوف على ﴿نجعلها﴾ ﴿أُذُنٌ﴾ فاعل ﴿وَٰعِيَةٌ﴾ صفة ﴿أُذُنٌ﴾، ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿نُفِخَ﴾ فعل ماض مجهول، ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ متعلق بـ ﴿نُفِخَ﴾ ﴿نَفْخَةٌ﴾ نائب فاعل، ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ صفة ﴿نَفْخَةٌ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بـ﴿وَقَعَتِ﴾ الآتي. ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ فعل ونائب فاعل في محل الجر، معطوف على ﴿نُفِخَ﴾، ﴿وَٱلْجِبَالُ﴾ معطوف على الأرض، ﴿فَدُكَّتَا﴾ الفاء عاطفة، ﴿دك﴾ فعل ماض مغير الصيغة، والتاء: علامة تأنيث نائب الفاعل، والألف نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿حملت﴾، ﴿دَكَّةً﴾ مفعول مطلق، ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ صفة ﴿دَكَّةً﴾.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾، ﴿يوم﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، وهو مضاف، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، والتنوين عوض عن جملة مكونة من جملتي ﴿نُفِخَ﴾ و﴿حملت﴾، والظرف متعلق بـ﴿وَقَعَتِ﴾ على كونه بدلاً من ﴿إذا﴾. ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿وَقَعَتِ﴾، ﴿فَهِيَ﴾ مبتدأ، والفاء: عاطفة ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ ظرف مضاف إلى مثله متعلق بـ﴿وَاهِيَةٞ﴾، و﴿وَاهِيَةٞ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿انشقت﴾. ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة ﴿انشقت﴾ أو حال من ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ﴾ فعل مضارع ومفعول به، ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ ظرف، متعلق بمحذوف حال من العرش؛ أي: حال كونه فوق الملائكة، ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ ظرف أضيف إلى مثله، متعلق بـ ﴿يحمل﴾، ﴿ثَمَٰنِيَةٞ﴾ فاعل يحمل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَقَعَتِ﴾، ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ ظرف متعلق بـ﴿تُعۡرَضُونَ﴾، و﴿تُعۡرَضُونَ﴾ فعل ونائب فاعل مرفوع بالنون، والجملة مستأنفة. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تَخۡفَىٰ﴾ فعل مضارع، ﴿مِنكُمۡ﴾ حال من ﴿خَافِيَةٞ﴾؛ لأنّه صفة نكرة تقدمت عليها، ﴿خَافِيَةٞ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿تُعۡرَضُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾.

﴿فَأَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنّكم تعرضون على الله وأردتم بيان حالكم بعد العرض.. فأقول لكم: ﴿أمّا﴾. ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ، ﴿أُوتِيَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَنۡ﴾، ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ مفعول ثان لـ ﴿أُوتِيَ﴾، لأنّه بمعنى أعطي. ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿أُوتِيَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَيَقُولُ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، واقعة في غير موضعها، ﴿يقول﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ، والخبر

جواب ﴿أمّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أمّا﴾ من فعل شرطها، وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿هَآؤُمُ﴾ ﴿ها﴾: اسم فعل أمر بمعنى خذوا، مبني على السكون، والهمزة حرف دالّ على خطاب جماعة الذكور مبني على الضمّ؛ لأنها عوض عن كاف الخطاب، والميم حرف دال على جمع الذكور، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين حرف متولّد من إشباع ضمة الميم، وجملة اسم الفعل في محل النصب مقول القول. ﴿اقْرَءُوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ مفعول به، تنازع فيه ﴿هَآؤُمُ﴾ و﴿اقْرَءُوا﴾، فأعمل الأول عند الكوفيين لسبقه، والثاني عند البصريين لقربه، وأضمر للآخر تقديره: هاؤم اقرأوه كتابيه، أو هاؤموه اقرأوا كتابيه، وأصله: (كتابي). ﴿كتابي﴾ مفعول منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، ﴿كتاب﴾ مضاف، وياء المتكلم في محل الجر مضاف إليه مبني على الفتح، وأدخلت عليه هاء السكت لتظهر فتحة الباء، وقد تقدم بحث هاء السكت، فراجعه.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿ظَنَنتُ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول القول، ﴿أَنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿مُلَٰقٍ﴾ خبره، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين منع من ظهورها الثقل، وجملة ﴿أنَّ﴾ المفتوحة في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿ظَنَنتُ﴾، ﴿حِسَابِيَهْ﴾ مفعول به لـ ﴿مُلَٰقٍ﴾، لأنّه اسم فاعل، والياء: مضاف إليه، والهاء: حرف زائد للسكت، ﴿فَهُوَ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم مقالته وأردتم بيان عاقبته.. فأقول لكم: فهو في عيشة راضية، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿هو﴾ مبتدأ، ﴿فِي عِيشَةٍ﴾ خبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، و﴿رَّاضِيَةٍ﴾ صفة لـ ﴿عِيشَةٍ﴾، ﴿فِي جَنَّةٍ﴾ جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿فِي عِيشَةٍ﴾، ﴿عَالِيَةٍ﴾ صفة لـ ﴿جَنَّةٍ﴾، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صفة ثانية لـ ﴿جَنَّةٍ﴾، ﴿كُلُوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، ﴿والواو﴾: فاعل، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف أي: يقال

لهم: ﴿كُلُواْ﴾. ﴿وَٱشۡرَبُواْ﴾ معطوف على ﴿كُلُواْ﴾، ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ حال من فاعل ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾؛ أي: مهنئين، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: أكلاً وشرباً هنيئاً، أو منصوب بفعل محذوف؛ أي: هنئتم هنيئاً، ﴿بِمَآ﴾: ﴿الباء﴾ حرف جرّ وسبب، ﴿ما﴾ موصولة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ أو بـ ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾، وجملة ﴿أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ صلة لـ ﴿مَآ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما أسلفتموه ﴿فِي ٱلۡأَيَّامِ﴾ متعلق بـ ﴿أَسۡلَفۡتُمۡ﴾، ﴿ٱلۡخَالِيَةِ﴾ صفة لـ ﴿أيام﴾.

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أمّا﴾ حرف شرط، ﴿مَنۡ﴾ مبتدأ، ﴿أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ فعل مغيّر ونائب فاعل ومفعول به ثان، والجملة صلة ﴿مَنۡ﴾ الموصولة، ﴿بِشِمَالِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿أُوتِيَ﴾، ﴿فَيَقُولُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿يقول﴾ خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿أمّا﴾ معطوفة على جملة ﴿أمّا﴾ الأولى، ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، والمنادى محذوف؛ أي: يا أهل المحشر ليتني... إلخ. وجملة النداء في محل النصب مقول القول أو ﴿يا﴾ حرف تنبيه، ﴿ليت﴾ حرف تمنّ ونصب، تعمل عمل ﴿إنّ﴾، والنون للوقاية، والياء اسمها، وجملة ﴿لَمۡ أُوتَ﴾ خبرها، و﴿ليت﴾ في محل النصب مقول القول، ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ مفعول به ثان، والأوّل نائب فاعل مستتر، ﴿وَلَمۡ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لم﴾ حرف نفي وجزم، ﴿أَدۡرِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر، ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿حِسَابِيَهۡ﴾ خبرها، ﴿والها﴾: للسكت، والجملة الاسمية سدّت مسدَّ مفعولي ﴿أَدۡرِ﴾، علقت عنها باسم الاستفهام، والاستفهام للتعظيم والتهويل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿لَمۡ أُوتَ﴾. ﴿يَٰلَيۡتَهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء أو حرف تنبيه كما تقدم آنفاً، ﴿ليت﴾ حرف تمنّ ونصب، والهاء اسمها، والضمير يعود على الموتة في الدنيا، وجملة ﴿كَانَتِ﴾ خبر ﴿ليت﴾، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول القول، واسم كان ضمير مستتر يعود على الموتة في الدنيا، ﴿ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ خبر ﴿كان﴾.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ

﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَغْنَىٰ﴾ فعل ماض، ﴿عَنِّي﴾ متعلق بـ ﴿أَغْنَىٰ﴾، ﴿مَالِيَهْ﴾ فاعل ﴿أَغْنَىٰ﴾، ومفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾ محذوف؛ أي: ما دفع عنّي العذاب، والجملة في محل النصب مقول القول، وإن شئت قلت: ﴿مَآ﴾ اسم استفهام للتوبيخ وبَّخ نفسه في محل النصب على المفعولية المطلقة لـ ﴿أَغْنَىٰ﴾، أي: أيّ إغناء أغنى عنّي ما كان في الدنيا من المال والأتباع، ويجوز في ﴿مَالِيَهْ﴾ أن تكون ﴿مَآ﴾ اسم موصول، هي فاعل أغنى، ﴿ليه﴾ جار ومجرور صلة لـ ﴿مَآ﴾ الموصولة؛ أي؛ الذي ثبت واستقر لي في الدنيا، والأوّل أرجح. ﴿هَلَكَ﴾ فعل ماض، ﴿عَنِّي﴾ متعلق بـ ﴿هَلَكَ﴾، ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾ فاعل ﴿هَلَكَ﴾، والجملة الفعلية مقول القول، ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾ مضاف والياء: ضمير المتكلم مضاف إليه، والهاء: للسكت. ﴿خُذُوهُ﴾ فعل أمر، والواو: فاعل، والهاء مفعول به، والجملة مقول لقول مقدر تقديره: ويقال للزبانية: خذوه، وجملة القول المقدر مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر كأنّه قيل: وما يفعل به بعد هذا التحسر الصادر منه؟ فقيل: يقال: خذوه. ﴿فَغُلُّوهُ﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول به، معطوف على خذوه، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع التراخي كما مرّ البحث عنه، ﴿الْجَحِيمَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية أو على أنه مفعول به على السعة، ﴿صَلُّوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَغُلُّوهُ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع التراخي، والمعطوف بها قول مقدر معطوف على قول مقدر فيما قبلها، تقديره: قيل لخزنة جهنم: خذوه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم قيل لهم: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ...﴾ إلخ. فتكون الفاء لعطف المقول على المقول، و﴿ثم﴾ لعطف القول على القول، ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿اسلكوه﴾، ﴿ذَرْعُهَا﴾ مبتدأ، ﴿سَبْعُونَ﴾ خبره، ﴿ذِرَاعًا﴾ تمييز، والجملة الاسمية في محل الجرّ صفة لـ ﴿سِلْسِلَةٍ﴾. ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿اسلكوه﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿صَلُّوهُ﴾.

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة إنّ

مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، واسم ﴿كَانَ﴾ ضمير مستتر يعود على هذا الكافر، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُؤْمِنُ﴾، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة للجلالة، ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على جملة ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾، ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ متعلق بـ ﴿يَحُضُّ﴾ ومضاف إليه، ﴿فَلَيْسَ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿ليس﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لَهُ﴾ خبر مقدم لـ ﴿ليس﴾، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ليس، ﴿هَٰهُنَا﴾ ﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿هنا﴾ اسم إشارة يشار به للمكان القريب في محل النصب على الظرفية المكانية متعلق بما تعلق به الظرف قبله أيضاً، ﴿حَمِيمٌ﴾ اسم ﴿ليس﴾ مؤخّر، وجملة ﴿ليس﴾ معطوفة مفرّعة على جملة ﴿لا يحض﴾، ﴿وَلَا طَعَامٌ﴾ معطوف على ﴿حَمِيمٌ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مِنْ غِسْلِينٍ﴾ صفة لـ ﴿طَعَامٌ﴾، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَأْكُلُهُۥ﴾ فعل ومفعول به، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ ﴿غِسْلِينٍ﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿فَلَآ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لا﴾ زائدة، ﴿أُقْسِمُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله والجملة مستأنفة. ﴿بِمَآ﴾ متعلق بأقسم، وجملة ﴿تُبْصِرُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما تبصرونه. ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ معطوف على ﴿ما تبصرون﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَقَوْلُ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿قول﴾ خبر ﴿إنّ﴾ ﴿رَسُولٍ﴾ مضاف إليه، ﴿كَرِيمٍ﴾ صفة ﴿رَسُولٍ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾، عاطفة، ﴿ما﴾ حجازية، ﴿هُوَ﴾ اسمها، ﴿بِقَوْلِ﴾ خبر ﴿مَا﴾ الحجازية، والباء زائدة، ﴿شَاعِرٍ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿مَا﴾ معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: إيماناً قليلاً، أو صفة لزمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً، ﴿مَا﴾ زائدة لتأكيد القلّة، ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معترضة. ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ معطوف على ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف، ﴿مَا﴾ زائدة، وجملة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ مستأنفة. ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو تنزيل، ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلق بـ

﴿تَنزِيلٌ﴾، ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾ حرف شرط، ﴿تَقَوَّلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلقان بـ﴿تَقَوَّلَ﴾ ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ مفعول به ومضاف إليه، ﴿لَأَخَذْنَا﴾ اللام رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿أخذنا﴾ فعل وفاعل، ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ ﴿أخذنا﴾. ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ مفعول به، والباء: زائدة، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، واللام رابطة مؤكّدة للأولى، ﴿لَقَطَعْنَا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿أخذنا﴾، ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ﴿لَقَطَعْنَا﴾، ﴿ٱلْوَتِينَ﴾ مفعول به.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾ نافية حجازية، ﴿مِنكُم﴾ حال ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾، لأنه كان في الأصل صفة لـ ﴿أَحَدٍ﴾، فلما تقدم عليه صار حالاً منه، ﴿مِّنْ﴾ زائدة، ﴿أَحَدٍ﴾ اسم ﴿مَا﴾ الحجازية، ﴿عَنْهُ﴾ متعلق بـ ﴿حَٰجِزِينَ﴾، و﴿حَٰجِزِينَ﴾ خبر ﴿مَا﴾ الحجازية؛ لأنّه هو محط الفائدة، والجملة معطوفة على جملة ﴿قطعنا﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنّه﴾ ناصب واسمه، ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾ خبره، واللام: حرف ابتداء، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ متعلق بـ ﴿تذكرة﴾ والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ لأنّه من جملة المقسم عليه، وما بينهما اعتراض. ﴿وَإِنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَنَعْلَمُ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿نعلم﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾؛ وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة أيضاً على جواب القسم أوّل السورة، ﴿أَنَّ﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿مِنكُم﴾ خبرها مقدم، ﴿مُّكَذِّبِينَ﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿نعلم﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَحَسْرَةٌ﴾ خبره. والجملة معطوفة على جواب القسم ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة لـ ﴿حسرة﴾ أو متعلق به، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ خبره، واللام حرف ابتداء، والجملة معطوفة على جواب القسم أيضاً. ﴿فَسَبِّحْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: ﴿سبح﴾. ﴿سبّح﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ﴿سبح﴾ أو الباء: زائدة، و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ ﴿رَبِّكَ﴾، وجملة التسبيح في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١﴾ من أسماء القيامة، اسم فاعل من حقّ الشيء يحقّ بالكسر إذا وجب وثبت؛ أي: الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء. وأصله: الحاققة أدغمت القاف الأولى في الثانية. ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾؛ أي: أيّ شيء هي تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾؛ أي: أيّ شيء أعلمك ما هي، فلا عِلْمَ لك بحقيقتها، إذ بلغت من الشدة والهول إلى ما لا يبلغها علم المخلوقين. و﴿أدراك﴾ من الدراية بمعنى العلم، يقال: دراه، ودرى به دراية من باب رمى، وأدراه: أعلمه. وأصله: أدريك بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤﴾ والقارعة هي الحاقّة؛ أي: الساعة. والقيامة سمّيت بالقارعة؛ لأنّها تقرع قلوب الناس وتفزعها بفنون الأفزاع والأهوال. والقرع في اللغة: نوع من الضرب، وهو إمساس جسم لجسم بعنف. وفي «المصباح»: وقرعت الباب من باب نفع: طرقته ونقرت عليه. ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾؛ أي: بالصيحة التي جاوزت حدَّ سائر الصيحات في الشدّة، فرجفت منها الأرض، والمراد بها الصاعقة. ﴿بِرِيحٍ﴾ والياء فيه منقلبة عن واو، وأصله: روح لجمعه على أرواح، فلمّا سكنت الواو في المفرد بعد الكسرة قلبت ياء، كما قلبت ياء في الجمع فقيل: الرياح لوقوعها بعد كسرة، وقبل ألف كصيام. ﴿صَرۡصَرٍ﴾ أي: شديدة الصوت التي لها صرصرة، أو شديدة البرد من الصرّ، وهو البرد. ﴿عَاتِيَةٍ﴾؛ أي: بالغة نهاية القوّة والشدّة، أو التي عتت عن الطاعة، فكأنّها عتت على خزّانها، فلم تطعهم، ولم يقدروا على ردّها لشدّة هبوبها، أو عتت على عادٍ، فلم يقدروا على دفعها بل أهلكتهم.

وفي قوله: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ إعلال بالقلب، أصله: عاتوة من عتا يعتو، فلما تطرفت الواو بعد كسرة قلبت ياء. ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: سلّطها عليهم، من التسخير، وهو سوق الشيء إلى الغرض المختصّ به قهراً. ﴿سَبۡعَ لَيَالٍ﴾ ذكر العدد؛ لأنَّ المعدود وهو ليلة مؤنّث، لأنّ الآحاد من أسماء العدد تجري على خلاف القياس لكون الليالي جمع ليلة، وهي مؤنّثة، وتجمع الليلة على الليالي بزيادة الياء على غير

القياس فتحذف ياؤها حالة التنكير بالإعلال مثل الأهالي، والأهال في جمع أهل، إلا في حالة النصب كقوله تعالى: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، لأنه غير منصرف، والفتح خفيف. ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أنث اسم العدد؛ لأنّ المعدود مذكّر، لأنّ الأيّام جمع يوم وهو مذكر. ﴿حُسُومًا﴾ جمع حاسم كشهود جمع شاهد، وهو حال من مفعول ﴿سَخَّرَهَا﴾ بمعنى حاسمات؛ أي: متتابعات أو مستأصلات، من الحسم، وهو القطع والاستئصال. وسمي السيف حساماً؛ لأنّه يحسم العدو عما يريد من عدواته. ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾؛ أي: موتى، جمع صريع كقتلى وقتيل، وصريع فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مصروع. أي مطروح على الأرض ساقط عليها، لأن الصرع: الطرح.

﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ جمع عجز، وهو الأصل. وفي «القاموس»: العجز مثلثة وكندس والندس بوزن عضد: الفرح وككتف مؤخر الشي، وأعجاز النخل: أصولها انتهى. والنخل اسم جنس مفرد لفظاً وجمع معنى، واحدتها نخلة. ﴿خَاوِيَةٍ﴾؛ أي: خالية الأجواف لا شيء فيها، وأصل الخوى: الخلاء، يقال: خوى بطنه من الطعام؛ أي: خلا. ﴿مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ والباقية اسم كالبقيّة، لا وصف، والتاء للنقل إلى الاسميّة، أو مصدر بمعنى البقاء كالكاذبة والعاقبة.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾؛ أي: المنقلبات، وهي قرى قوم لوط، جعل الله عاليها سافلها بالزلزلة، يقال: أفكه عن الشيء؛ أي: قلبه، وائتفكت البلدة بأهلها؛ أي: انقلبت. ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ مصدر بمعنى الخطأ كالعاقبة. ﴿رَّابِيَةً﴾؛ أي: زائدة في الشدّة على عقوبات سائر الكفّار. يقال: ربا الشي يربو إذا زاد، ومنه: الربا الشرعيّ، وهو الفضل الذي يأخذه آكل الربا.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أصله: عصيوا بوزن فعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. وقوله: ﴿رَّابِيَةً﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: رابوه من ربا يربو قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة. ﴿لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ تجاوز حدّه وارتفع، وفيه إعلال بالقلب، أصله: طغي بوزن فعل قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾؛ أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم. ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ وهي السفينة التي تجري في الماء. ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾؛ أي: تحفظها وتقول لكل ما حفظته في

نفسك: وعيته، وتقول لكل ما حفظته في غير نفسك: أوعيته. فيقال: أوعيت المتاع في الوعاء كما مرّ. ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ الأصل في تاء التأنيث المتصلة بالفعل الماضي السكون، لكنها إذا اتصل بها ألف كما هنا حركت بالفتح لمناسبة الألف. والدك أبلغ من الدق.

وفي «الصحاح»: الدكّ: الدقّ، وقد دكه إذا ضربه وكسره حتى سواه بالأرض، وبابه: ردّ. وفي «المفردات»: الدكّ: الأرض اللينة السهلة، ودكّت الجبال دكّا؛ أي: جعلت بمنزلة الأرض اللينة، ومنه: الدكّان. ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي: مسترخية ضعيفة القوّة، من قولهم: وهى السقاء إذا انخرق، ومن أمثالهم قول الراجز:

خَلِّ سَبِيْلَ مَنْ وَهَى سِقَاؤُهُ   وَمَنْ هُرِيْقَ بِالْفَلاَةِ مَاؤُهُ

يقال: وهى البناء يهي وهيا فهو واه إذا ضعف جداً. قال في «القاموس»: وهي كوعي وولي: تخرّق وانشق واسترخى رباطه. وفي «المفردات»: الوهي شقّ في الأديم والثوب ونحوهما. ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾؛ أي: على نواحي السماء وجوانبها، جمع رجا بالقصر، وفيه إعلال بالإبدال، أصله: أرجاو جمع رجا بمعنى الطرف والجانب، أبدلت الواو همزة لتطرّفها إثر ألف زائدة. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ﴾ أصله: أؤتي أبدلت الهمزة الساكنة حرف مدّ مجانسا لحركة الأولى. ﴿ملاق حسابيه﴾ الحساب بمعنى المحاسبة، وهو عدّ أعمال العباد في الآخرة خيراً أو شرّاً للمجازاة. قال الراغب: والظنّ اسم لما يحصل من أمارة، ومتى قويت أدّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدّاً لم تتجاوز حدّ التوهّم انتهى.

﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: راضوة من الرضوان، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة، أي: عيشةً مرضية لصاحبها، وهو مما جاء فيه فاعل بمعنى مفعول نحو قوله تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ بمعنى مدفوق بمعنى: أنَّ صاحبها يرضى بها، ولا يسخطها كما جاء مفعول بمعنى فاعل كقوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾؛ أي: ساتراً. ﴿عَالِيَةٍ﴾ فيه إعلال أيضاً بالقلب، أصله: عالوة من العلوّ، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة. ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قطف بالكسر، وهو ما يُقطف ويُجنى بسرعة، والقطف بالفتح مصدر. ﴿دَانِيَةٌ﴾ أصله أيضاً: دانوة، من الدنوّ قلبت الواو ياء

لتطرفها إثر كسرة. ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ أي: قدّمتم في الدنيا من الأعمال الصالحة. ومعنى الإسلاف في اللغة: تقديم ما يرجو أنْ يعود عليك بخير، فهو كالإقراض، ومنه يقال: أسلفت إليك هذه الدراهم في كذا وكذا إذا قدم إليك رأس مال السلم. ﴿فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ الخالية فيه إعلال أيضاً بالقلب، أصله: الخالوة من خلا يخلو واويّ اللام، قلبت الواو ياء لتطرّفها إثر كسرة.

﴿فَغُلُّوهُ﴾ يقال: غلّ فلان إذا وضع في عنقه أو يده الغلّ، وهو بالضمّ: الطوق من حديد الجامع لليد إلى العنق المانع عن تحرك الرأس. ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ أصله: صليوه، استثقلت الضمة على الياء فحذفت تخفيفاً فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمت اللام لمناسبة الواو. ﴿ذَرۡعُهَا﴾ أي: طولها. ﴿سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ والذراع ككتاب: ما يذرع به حديداً كان أو قضيباً. وفي «المفردات»: الذراع: العضو المعروف ويعبّر به عن المذروع والممسوح، يقال: ذراع من الثوب أو الأرض.

﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ السلك: هو الإدخال في الطريق أو الخيط أو القيد أو في غيرها. ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ أصله: يحضض بوزن يفعل، نقلت حركة الضاد الأولى إلى الحاء فسكنت فأدغمت في الضاد الثانية، من الحضّ وهو البعث والحثّ على الفعل والحرص على وقوعه، ومنه: حروف التحضيض المبوّب له في النحو، لأنّه يطلب به وقوع الفعل وإيجاده اهـ «سمين». ﴿إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ هو فعلين، من الغسل، فنونه وياؤه زائدتان. قال أهل اللغة: هو ما يجري من الجراح إذا غسلت، وفي كتب التفسير: هو صديد أهل النار، وقيل: هو شجر يأكلونه. وفي «الكواشي»: أو نونه غير زائدة، وهو شجر في النار، وهو من أخبث طعامهم.

﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه حذف إحدى التاءين، أصله: تتذكرون، وقرىء بتشديد الذال على أنّ التاء الثانية أدغمت في الذال. ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا﴾ التقول افتعال القول واختلاقه، لأنّ فيه تكلّفا من المفتعل. قال أبو حيان: التقوّل: أن يقول الإنسان عن آخر: إنّه قال شيئاً لم يقله. ﴿بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ الأقاويل جمع الجمع، لأنّه جمع أقوال وأقوال جمع قول كبيت وأبيات وأبابيت. قال الزمخشري: وسمّيت الأقوال المتقولة

أقاويل تصغيراً لها وتحقيراً. ﴿لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ وفي «المفردات» الوتين: عرق يسقي الكبد إذا انقطع مات صاحبه، وفي بعض كتب التفسير: الوتين: عرق في القلب يجري منه الدم إلى العروق كلّها، ويجمع على وتن وأوتنة اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإطناب بتكرار لفظ ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ للتهويل والتعظيم.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾. لأنَّ المراد بها الزمان الذي يحقّ أن يتحقق فيه ما أنكر في الدنيا من البعث، فيصير فيها محسوساً مشاهداً بالعيان على حدّ قولهم: نهاره صائم وليله قائم.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ تأكيداً لهولها، الأصل: ما هي؛ أي: أيّ شيء هي في حالها وصفتها؟.

ومنها: وضع القارعة موضع ضمير الحاقة في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ للدلالة على معنى القرع فيها زيادة في وصف شدتها فإن في القارعة ما ليس في الحاقة من الوصف؛ لأنَّ الأصل أن يقال: كذّبت ثمود وعاد بها.

ومنها: الإجمال في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ ثم التفصيل بقوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦...﴾ إلخ. لزيادة البيان والإيضاح، وفيه أيضاً من المحسنات البديعية اللفّ والنشر المرتب.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿حُسُومًا﴾، لأنّه من استعمال المقيّد، وهو الحسم الذي هو تتابع الكيّ في مطلق التتابع، وقيل: فيه استعارة تصريحية تبعية، فقد شبه تتابع الريح المستأصلة بتتابع الكيّ القاطع للداء، فاستعار له الاسم الدالّ على المشبه به على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ لذكر الأداة فيه مع حذف وجه الشبه، فقد شبههم بالجذوع لطول قاماتهم، وكانت الريح تقطع رؤوسهم كما تقطع رؤوس النخل المتطاولة خلال تلك الأيّام الثمانية والليالي

السبع.

ومنها: التعبير عن الريح الصرصر، وهو مفرد بلفظ الجمع، وهو ﴿حسوماً﴾ نظراً إلى تكثّرها باعتبار وقوعها في تلك الليالي والأيّام.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ بعد التعميم في قوله: ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ لغرض التتميم، لأنَّ قوم لوط أتوا بفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين.

ومنها: مقابلة الجمع بالجمع المستدعية لانقسام الآحاد على الآحاد في قوله: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾.

ومنها: المجاز العقليّ في قوله: ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾؛ أي: بالفعلة الخاطئة كقولهم: شعر شاعر.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، وهي من باب استعارة المعقول للمحسوس للاشتراك في أمر معقول، وهي الاستعارة المركّبة من الكثيف واللطيف، فالمستعار الطغيان، وهو الاستعلاء المنكر، والمستعار منه كلّ مستعل متكبّر متجبّر مضرّ، والمستعار له الماء، والطغيان معقول، والماء محسوس، والمستعار منه محسوس. وقيل: فيه استعارة تصريحية تبعيّة؛ لأنَّ الطغيان من صفات الإنسان، فشبّه ارتفاع الماء وكثرته بطغيان الإنسان بجامع العلّو في كلّ على طريق الاستعارة التصريحية التبعيّة.

ومنها: التنكير والتوحيد في قوله: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، حيث لم يقل الآذان الواعية للدلالة على قلتها، وأن من هذا شأنه مع قلته يتسبب لنجاة الجم الغفير، وإدامة نسلهم.

ومنها: التأكيد بذكر الواحدة في قوله: ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وفي قوله: ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾، لأنّ النفخة والدكّة لا تكون إلاّ واحدة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿نُفِخَ﴾ ﴿نَفْخَةٌ﴾ وقوله ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً﴾ وقوله: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾؛ أي: تسألون وتحاسبون، شبه المحاسبة عند الله بعرض العسكر على الملك لتعرف أحوالهم،

فاستعار اسم المشبّه به الذي هو العرض على الملك للمشبّه الذي هو المحاسبة عند الله، فاشتق منه تعرضون بمعنى تحاسبون على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: تقديم ﴿مِنكُمْ﴾ على ﴿خَافِيَةٌ﴾ مع كونه صفة لها لرعاية الفاصلة.

ومنها: المقابلة البديعة في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ...﴾ إلخ، حيث قابلها بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ إلخ.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ لأنّ العيشة إنّما تكون مرضية لا راضية، فهو من إسناد ما للفاعل إلى المفعول.

ومنها: إسناد الهناءة إلى الأكل والشرب في قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ مجازاً للمبالغة، لأنّ الهناءة إنّما تكون للمأكول والمشروب.

ومنها: تقديم الجحيم على ﴿صَلُّوهُ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾، وتقديم ﴿سِلْسِلَةٍ﴾ على ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ لغرض التخصيص والحصر والاهتمام بذكر ألوان ما يعذب به.

ومنها: تخصيص الطول بسبعين ذراعاً مبالغة في إرادة الوصف بالطول، كما قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ يريد مرّات كثيرة؛ لأنّها إذا طالت كان الإرهاق أشدُّ، فهو كناية عن زيادة الطول.

ومنها: ذكر الحض في قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ دون الفعل، حيث لم يقل: ولا يطعم المسكين للإشعار بأنّه إذا كان تارك الحضّ بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل؟.

ومنها: عطف حرمان المسكين على ترك الإيمان في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ للدلالة على أنّ حرمان المسكين صفة للكفرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

ومنها: تكرار لفظ القول في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾ وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ﴾ مبالغة في إبطال أقاويلهم الكاذبة على القرآن الحق والرسول الصادق الأمين ﷺ.

ومنها: زيادة ﴿ما﴾ في قوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا﴾ لتأكيد القلّة، أو لنفيها كما مر.

ومنها: إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول في قوله: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ لإفادة المبالغة.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥﴾ لأن اليمين مجاز عن القوة؛ لأنَّ قوة كل شيء في ميامنه، فيكون من قبيل ذكر المحل، وإرادة الحال أو ذكر الملزوم، وإرادة اللازم، لأنّ المعنى: سلبنا منه القوة والقدرة على التكلم بذلك.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾، لأنّه كناية عن إهلاكه وإماتته.

ومنها: الحذف والزيادة في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

خلاصة ما تضمّنته السورة الكريمة

تضمنت هذه السورة الكريمة خمسة مقاصد:

١ ـ هلاك الأمم المكذّبة لرسلها في الدنيا من أوّل السورة إلى قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

٢ ـ عذاب الآخرة جزاء على التكذيب في الدنيا.

٣ ـ إثبات أن القرآن العظيم وحي من عند الله تعالى، وليس بقول شاعر ولا بقول كاهن.

٤ ـ إهلاكه ﷺ لو تقول عليه شيئاً مّا من الأقاويل الباطلة الكاذبة على سبيل الفرض والتقدير.

٥ ـ أمره ﷺ بتنزيه ربه عما يقول المشركون، شكراً له على ما أوحي إليه من الوحي الكريم والقرآن العظيم[1].

والله أعلم

* * *

(١) بعون الله تعالى وتوفيقه تمّ تفسير سورة الحاقة في اليوم الخامس من شهر ربيع الأول، قُبَيْل الغروب من شهور سنة ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ١٤١٦/٣/٥ هـ، وصلى الله تعالى وسلم على سيّدنا ومولانا محمّد خاتم النبيّين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين.

سورة المعارج

سورة المعارج ويقال لها: سورة سأل سائل، مكيّة. قال القرطبي باتفاق نزلت بعد الحاقّة. وأخرج ابن الضريس والنحاس، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة سأل بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: أربع وأربعون، وكلماتها(١): مئتان وأربع وعشرون. وحروفها: تسع مئة وتسعة وعشرون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها(٢): أنّها كالتتمة لما قبلها في وصف القيامة وعذاب النار. وقال أبو حيان: مناسبة أولها لآخر ما قبلها أنّه لما ذكر فيما قبلها ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أخبر عما صدر عن بعض المكذبين بنقم الله، وإن كان السائل نوحاً عليه السلام، أو الرسول ﷺ، فناسب تكذيب المكذبين أن دعا عليهم رسولهم حتى يصابوا فيعرفوا صدق ما جاءهم، ذكره في «البحر».

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم: سورة المعارج كلها مكيّة، وجميعها محكم إلاّ آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ الآية (٤٢) نسخت بآية السيف.

والله أعلم

* * *

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (١) لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ (٣) تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (٤) فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا (٧) يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ (٩) وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ (١٣) وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ (١٨) ۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ (٣٦) عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ (٣٨) كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ (٣٩) فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ (٤١) فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ (٤٣) خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ (٤٤)﴾.

المناسبة

تقدم قريباً بيان مناسبة هذه السورة لما قبلها، وقد بدأ سبحانه وتعالى بأنّه كان أهل مكة يقول بعضهم لبعض: إنَّ محمداً يخوفنا بالعذاب فما هذا العذاب ولمن هو؟ فنزلت هذه الآيات إلى قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ (١٨)﴾ كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) . . .﴾ إلى قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ

مُكْرَمُونَ﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لما ذكر[1] أنه هو ذو المعارج والدرجات العالية والنعم الوفيرة التي يسبغها على عباده الأخيار، أردف هذا بذكر المؤهلات التي توصل إلى تلك المراتب، وتبعد عن ظلمة المادّة التي تدخل النفوس في النار الموقدة التي تنزع الشوى، وبين أنها عشر خصال تفكه من السلاسل التي تقيده بها غرائزه التي فطر عليها، وعاداته التي ألفها وركن إليها، وهي ترجع إلى شيئين: الحرص والجزع.

وهذه الخصال هي: (١) الصلاة. (٢) المداومة عليها في أوقاتها المعلومة. (٣) إقامتها على الوجه الأكمل بحضور القلب والخشوع للربّ ومراعاة سننها وآدابها. (٤) التصديق بيوم الجزاء بظهور أثر ذلك في نفسه اعتقاداً وعملاً (٥) إعطاء صدقات من أموالهم للفقراء والمحرومين. (٦) مراعاة العهود والمواثيق. (٧) أداء الأمانات إلى أهلها. (٨) حفظ فروجهم عن الحرام. (٩) أداء الشهادة على وجهها. (١٠) الخوف من عذاب الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وعد المؤمنين بجنات النعيم مع الكرامة والإجلال.. أردف ذلك بذكر أحوال الكافرين مع الرسول ﷺ، وأبان لهم خطأهم فيما يرجون من جنّات النعيم على ما هم عليه من كفر وجحود. ثم توعدهم بالهلاك، ولن يستطيع أحد دفعه عنهم. ثم أمر رسوله أن يدعهم وشأنهم حتى يوم البعث يوم يخرجون من قبورهم مسرعين، كأنّهم ذاهبون إلى معبوداتهم الباطلة من الأصنام والأوثان وقد كان من دأبهم أن يسرعوا حين الذهاب إليها. وهم في هذا اليوم تكون أبصارهم ذليلة، وترهق وجوههم قترةً لما تحقّقوا من عذاب لا منجاة لهم منه، وقد أوعدوه في الدنيا، فكذَّبوا به.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه[2] النسائي، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾

---

(١) المراغي. (٢) لباب النقول والمراح.

قال: هو النضر بن الحارث، حيث قال إنكاراً واستهزاءً: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فقتل يوم بدر صبراً هو وعقبة بن أبي معيط. وقال الربيع: هو أبو جهل، حيث قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وقيل: هو الحارث بن النعمان القهريّ، وذلك أنّه لما بلغه قول رسول الله ﷺ في عليّ رضي الله عنه: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» قال: اللهم إن كان ما يقول محمّد حقّاً.. فأمطر علينا حجارةً من السماء، فما لبث حتى رماه الله تعالى بحجر، فوقع على دماغه فخرج من دبره، فمات من ساعته، فنزلت هذه الآية.

وقال الحسن وقتادة: لما بعث الله محمداً ﷺ، وخوف المشركين بالعذاب قال المشركون بعضهم لبعض: سلوا محمداً لمن هذا العذاب؟ وبمن يقع؟. فأخبره الله عنهم بقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ حكاية لسؤالهم المعتاد على طريقة قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾. قال أبو السعود: ولعلّ هذا القول أقرب.

قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ...﴾ الآيات، سبب نزولها[1] ما روي: أنه ﷺ كان يصلي عند الكعبة، ويقرأ القرآن، وكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً حلقاً وفرقاً فرقاً يستمعون ويستهزئون ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد.. فلندخلنها قبلهم، فنزلت هذه الآيات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ من[2] السؤال بمعنى الدعاء والطلب، يقال: دعا بكذا استدعاه، وطلبه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾؛ أي: يطلبون في الجنة كل فاكهة.

والمعنى: دعا داع وطلب طالب من الله تعالى ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾؛ أي: بنزول عذاب واقع؛ أي: نازل لا محالة، سواء طلبه أو لم يطلبه لسبق نزوله في علم الله تعالى؛ أي: استدعاه وطلبه.

ومن التوسّعات الشائعة في «لسان العرب» حمل النظير على النظير، وحمل

(١) المراح.
(٢) روح البيان.

النقيض على النقيض، فتعدية ﴿سَأَلَ﴾ بالباء من قبيل التعدية بحمل النظير على النظير، فإنه نظير دعا وهو يتعدى بالباء، لا من قبيل التعدية بالتضمين بأن ضمن سأل معنى دعا، فعدى تعديته كما زعمه «صاحب الكشاف»، لأنّ فائدة التضمين على ما صرح به ذلك الفاضل في تفسير سورة النحل إعطاء مجموع المعنيين، ولا فائدة في الجمع بين معنى سأل، ودعا؛ لأنّ أحدهما يغني عن الآخر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ بالهمزة، فهي اللغة الفاشية، فهو على هذا إمّا مضمّن معنى الدعاء كما قاله الزمخشري، فلذلك عدّى بالباء، والمعنى عليه: دعا داع على نفسه بعذاب واقع. وإمّا على أصله، و(الباء) بمعنى (عن) كقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، والمعنى على هذا: بحث باحث واستفهم عن عذاب واقع. وقرأ نافع وابن عامر ﴿سال﴾ بالألف بغير همزة، فهو إما من التخفيف بقلب الهمزة ألفاً، فيكون معناها معنى قراءة الجمهور، وإمّا من السيلان، والمعنى عليه: سال سائل: وادٍ في جهنم يقال له: سائل، كما قال زيد بن ثابت، ويؤيّده قراءة ابن عباس ﴿سال سيل﴾. وقيل: إنَّ سال بمعنى التمس، والمعنى عليه: التمس ملتمس عذاباً للكفار، فتكون الباء زائدة كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾. والوجه الأوّل هو الظاهر. وقر[2] أبيٌّ وعبد الله بن مسعود ﴿سال سالٌ﴾ مثل: مال مالٌ، على أنّ الأصل: سائل فحذفت العين تخفيفاً كما قيل: شاكٌ في شائك السلاح. والمراد بهذا السائل على ما روي عن ابن عباس واختاره الجمهور: هو النضر بن الحارث من بني عبد الدار، حيث قال إنكاراً واستهزاءً: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. وعبر[3] بصيغة الماضي، وهو ﴿وَاقِعٍ﴾ دون سيوقع للدلالة على تحقّق وقوعه إمّا في الدنيا، وهو عذاب يوم بدر، فإنَّ النضر قتل يومئذٍ صبراً، وإما في الآخرة، وهو عذاب النار.

وعن معاوية رضي الله عنه أنّه قال لرجل من أهل سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة، قال الرجل: أجهل من قومي قومك، حيث قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحقّ: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك.. فأمطر علينا حجارة

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) البحر الميحط.
(٣) روح البيان.

من السماء، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له. وقيل: السائل هو نوح عليه السلام، دعا على الكافرين بالعذاب. وقيل: السائل هو الرسول ﷺ، استعجل بعذابهم كما يدل عليه قوله فيما بعد: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾. وسأل أن يأخذهم الله أخذاً شديداً، ويجعله سنين كسني يوسف فاستجاب الله دعوته، وأن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ يكون حكاية لسؤالهم المعهود على طريقة قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ ونحوهما، إذ هو المعهود بالوقوع على الكافرين لا ما دعا به النضر. فالسؤال بمعناه، وهو التفتيش والاستفسار؛ لأنّ الكفرة كانوا يسألون النبي ﷺ وأصحابه إنكاراً واستهزاءً عن وقوعه وعلى من ينزل، ومتى ينزل. والباء بمعنى (عن) كما في قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾؛ أي: فاسأل عنه؛ لأنَّ الحروف العوامل يقوم بعضها مقام بعض باتفاق العلماء.

وعن الإمام الواحدي[1]: أنّ الباء في ﴿بِعَذَابٖ﴾ زائدة للتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾؛ أي: سأل سائل عذاباً واقعاً كقولك: سألته الشيء وسألته عن الشيء.

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ إمّا بمعنى (على)؛ أي واقع على الكافرين كقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾؛ أي: فعليها، أو بمعنى (الباء)؛ أي: واقع بهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: إلاّ بأن يعبدوا الله، أو على معناها، أي: نازل لأجل كفرهم. ومتعلق اللام على التقادير الثلاثة هو لفظ ﴿واقع﴾. وجملة قوله: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك العذاب ﴿دَافِعٞ﴾ صفة أخرى لـ ﴿عذاب﴾ أو حال منه أو مستأنفة. والمعنى: أنّه لا يدفع ذلك العذاب الواقع بهم أحد. وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إمّا متعلق بـ﴿وَاقِعٖ﴾؛ أي: واقع من جهته تعالى، أو بـ﴿دَافِعٞ﴾؛ أي: ليس له دافع من جهته تعالى إذا جاء وقته، وأوجبت الحكمة وقوعه. ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ صفة للجلالة، لأنّه من الأسماء المضافة مثل: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ﴾ ونحوهما. والمعارج جمع معرج بفتح الميم هنا بمعنى مصعد، وهو موضع الصعود. والمعنى: ذي المصاعد والدرجات التي تصعد فيها الملائكة؛ أي: خالق المعارج ومالكها. والمراد[2] بها

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الأفلاك التسعة المرتّبة بعضها فوق بعض، وهي السموات السبع والكرسيّ والعرش. وقال الكلبيّ: هي السماوات، وسمَّاها معارج لأن الملائكة تعرج فيها. وقيل: المعارج مراتب نعم الله تعالى على الخلق. وقيل: المعارج العظمة، وقيل: هي الغرف جعلها لأوليائه في الجنة.

وقرأ ابن مسعود[1]: ﴿ذي المعاريج﴾ بزيادة الياء، يقال: معارج ومعاريج، وحكمهما واحد، مثل: مفاتح ومفاتيح.

والمعنى[2]: أي طلب طالب عذاباً واقعاً لا محالة سواء طلب أم لم يطلب، لأنّه نازل بالكافرين في الآخرة، لا يدفعه عنهم أحد، فلماذا هم يطلبونه استهزاءً. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾؛ أي: ليس لذلك العذاب الصادر من الله دافع من جهته إذا جاء وقته، فإذا اقتضت الحكمة وقوعه امتنع أن لا يفعله، وهو ذو النعم التي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة ودرجات متفاوتة.

والخلاصة: أنَّ العذاب الذي طلبه السائلون واستبطؤوه واقع لا محالة؛ وهو سبحانه لم يفعل ذلك إلاّ لحكمة، وهي وضعهم في الدركات التي هم أهل لها بحسب استعدادهم وما دسوا به أنفسهم من سيء الأعمال والخطايا التي أحاطت بهم من كل صوب. وقد نظم سبحانه العوالم فجعل منها مصاعد ومنها دركات، فليكن هؤلاء في الدركات، وليكن المؤمنون والملائكة في الدرجات طبقاً عن طبق على نظم ثابتة اقتضتها الحكمة والمصلحة.

ثم بين مقدار ارتفاع تلك الدرجات، فقال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المأمورون بالنزول والعروج دون غيرهم من المهيّمين ونحوهم؛ لأنَّ من الملائكة من لا ينزل من السماء إلى الأرض أصلاً، ومنهم من لا يعرج من الأرض قطعاً. ﴿وَٱلرُّوحُ﴾؛ أي: جبريل عليه السلام، أفرده بالذكر إظهاراً لشرفه وفضله، فهو من عطف الخاص على العام، كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ فقد ذكر مع نزولهم في آية وعروجهم في أخرى، وأخّره هنا وقدّم في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾، لأنّ المقام هنا يقتضي تقديم الجمع على الواحد من حيث إنه مقام تخويف وتهويل اهـ

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

كرخي. ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي يعرجون إليه من مسقط الأمر، وعلم العروج إليه تعالى مغيب عنا نعتقده ونثبته ولا نكيفه ولا نمثله ولا نؤوله. وهذا المعنى هو الأصح الأسلم الذي عليه السلف، أو إلى عرشه أو إلى مهبط أمره تعالى. أي: يعرجون من مسقط الأمر إلى المحل الذي ينزل إليه أمره تعالى وتتلقاه منه الملائكة الموكلون بالتصرف في العالم. وعبارة الكرخي: إلى مهبط أمره؛ أي: إلى الموضع الذي لا يجري لأحد سواه فيه حكم.

وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ متعلق[1] بـ ﴿تعرج﴾ كـ ﴿إلى﴾، و﴿في﴾ بمعنى ﴿إلى﴾، وعبّر عنها بـ ﴿إلى﴾ فراراً من ثقل تكرار حرفين متحدي المعنى واللفظ، والكلام على حذف مضاف والتقدير: تعرج وتصعد الملائكة المأمورون بالنزول والعروج وكذا الروح من مسقط أمره إليه تعالى مدّة دوام الدنيا إلى مجيء يوم ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مما يعدّه الناس في الدنيا. وذلك اليوم هو يوم القيامة، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والقرطبيّ. وهذا هو مقدار يوم القيامة من وقت البعث إلى أن يفصل بين الخلق.

وقيل: يتعلق قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ بقوله[2]: ﴿دَافِعٌ﴾؛ أي: ليس له دافع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. وقيل: يتعلق بـ﴿وَاقِعٍ﴾، والمعنى سأل سائل بعذاب واقع للكافرين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. وعلى هذين المعنيَيْن يكون في الكلام تقديم وتأخير؛ أي: ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه. وقيل: المعنى تصعد الملائكة من أسفل الأرض إلى عرشه في قدر يوم من أيّامكم لو صعده غيرهم قطعه في خمسين ألف سنة، وهذا معنى قول مجاهد. وقيل: متعلق بمحذوف دلَّ عليه قوله: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي: يقع ذلك العذاب في يوم كان مقداره في علم الله تعالى خمسين ألف سنة ممّا تعدّون، وهو يوم القيامة. وعلى هذا فلا تقديم ولا تأخير، كما في «الجلالين».

وقرأ الجمهور[3]: ﴿تَعْرُجُ﴾ بالتاء الفوقية على التأنيث نظراً للفظ الملائكة. وقرأ عبد الله، والكسائيّ، وابن مقسم، وزائدة عن الأعمش بالياء التحتانية بالتذكير

---

(١) روح البيان. (٢) زاد المسير. (٣) البحر المحيط.

لتذكير الملائكة على الأصل كقراءة ﴿نَادَتْهُ﴾، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ اهـ كرخي.

وقال مجاهد: المراد بالملائكة هم ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم، لا تراهم الحفظة كما لا نرى نحن حفظتنا. وقال الجمهور: والروح هو جبريل عليه السلام، وقيل: ملك غير جبريل عظيم الخلقة. وقال أبو صالح: خلق كهيئة الناس وليسوا بالناس. وقال قبيصة بن ذؤيب: روح الميت حين تقبض. والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد إلى الله تعالى؛ أي: إلى عرشه، أو حيث يهبط منه أمره تعالى. وقيل: ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى المكان الذي هو محلّهم، وهو في السماء، لأنّها محل بره وكرامته.

والظاهر: أنَّ المعنى: أنّها تعرج في يوم من أيامكم هذه، ومقدارالمسافة أن لو عرجها آدميّ خمسون ألف سنة، قاله ابن عباس وابن إسحاق، وجماعة من الحذّاق منهم: القاضي منذر بن سعيد. قال مجاهد: إن كان العارج ملكاً فالمسافة من قعر الأرض السابعة إلى العرش، ومن جعل الروح جنس أنواع الحيوان. قال وهب: المسافة هي من وجه الأرض إلى منتهى العرش. وقال عكرمة والحكم: أراد مدّة الدنيا، فإنها خمسون ألف سنة لا يدري أحد ما مضى منها وما بقي؛ أي: تعرج الملائكة إليه في مدة الدنيا، وبقاء هذه الدنيا التي هي يوم مقداره خمسون ألف سنة. وقال ابن عباس أيضاً: هو يوم القيامة. وقيل: طوله ذلك العدد، وهذا ظاهر ما جاء في الحديث في مانع الزكاة قال: في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. وقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري: قدره في رزاياه وهوله وشدّته للكفار ذلك العدد. وفي الحديث: «يخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة». وقال عكرمة: في يوم كان مقدار ما ينقضي فيه من الحساب قدر ما يقضى بالعدل في خمسين ألف سنة من أيّام الدنيا، وقال الحسن: نحوه. وقيل: لا يراد حقيقة العدد إنما أريد به طول الموقف يوم القيامة، وما فيه من الشدائد. والعرب تصف أيام الشدّة بالطول، وأيّام الفرح بالقصر.

والظاهر: أن قوله: ﴿فِى يَوْمٍ﴾ يتعلق بـ ﴿تَعْرُجُ﴾، وقيل: بـ ﴿دَافِعٌ﴾، والجملة من قوله: ﴿تَعْرُجُ﴾ اعتراض، ذكره أبو حيان في «البحر».

وقد قدمنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله في سورة السجدة: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ

﴿مِقۡدَارُهُۥ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ بأنّ ما هناك باعتبار موطن من مواطن يوم القيامة، وما هنا باعتبار جميع المواطن؛ لأن مواطنه متعددة، أو بأن اليوم يختلف باختلاف أحوال الناس، فإنه على الكافر بقدر خمسين ألف سنة، وعلى المؤمن المطيع بقدر ما بين الظهر والعصر، وعلى المؤمن العاصي بقدر ألف سنة، فراجع ما هنالك. وقد قيل في الجمع: إنه من أسفل العالم إلى العرش خمسون ألف سنة، ومن أهل سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة؛ لأن غلظ كل سماء خمس مئة عام، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمس مئة. فالمعنى: أنّ الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة، وإن عرجوا من هذه الأرض التي نحن فيها إلى باطن هذه السماء التي هي سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة.

والمعنى: أي تعرج وتصعد في تلك المعارج الملائكة، وجبريل عليه السلام إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها.. لبقي في ذلك الصعود خمسين ألف سنة، لكنّهم يصعدون إليها في الزمن القليل، وليس المراد من ذكر الخمسين تحديد العدد بل المقصد أنّ مقام القدس الإلهي بعيد المدى عن مقام العباد، فهم في المادة مغموسون، وهناك عوالم ألطف وألطف درجات بعضها فوق بعض، وكل عالم ألطف مما قبله، كلما لطف العالم العلوي كان أشد قوة، وهكذا ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾.

ولما كانوا قد سألوا استعجال العذاب، وكان السؤال على سبيل الاستهزاء والتكذيب، وكانوا قد وعدوا به، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالصبر، فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد على استهزائهم ﴿صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾؛ أي: صبراً لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله، فإن العذاب يقع في هذه المدة المتطاولة التي تعرج فيها الملائكة والروح. وعن الحسن: الصبر الجميل: هو المجاملة في الظاهر، وعن ابن بحر: انتظار الفرج بلا استعجال. وهو متعلق بـ﴿سَأَلَ﴾، لأنّ السؤال كان عن استهزاء وتعنت وتكذيب بالوحي، وذلك مما يضجره ﷺ.

والمعنى: أي إذا عرفت يا محمد تعنّتاتهم في السؤال، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبراً جميلاً، لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله تعالى. وهذا معنى الصبر الجميل.

وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى بأنّه مصاب. قال ابن زيد وغيره: هذه الآية منسوخة بآية السيف.

﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن أهل مكة ﴿يَرَوْنَهُ﴾؛ أي: يرون العذاب الواقع بهم أو يرون يوم القيامة؛ أي: يزعمونه في رأيهم ﴿بَعِيدًا﴾؛ أي: غير كائن لأنهم لا يؤمنون به؛ أي: يستبعدونه بطريق الإحالة، كما كانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الآية، ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، فلذلك يسألون به وسبب استبعادهم عدم علمهم باستحقاقهم إياه كما يقول المرء لخصمه: هذا بعيد ردّاً لوقوعه وإمكانه. ﴿وَنَرَىٰهُ﴾؛ أي: نعلم ذلك العذاب الواقع بهم ﴿قَرِيبًا﴾؛ أي: كائناً قريباً؛ لأنّ ما هو آت قريب لعلمنا باستحقاقهم إيّاه بحسب استعدادهم. وقيل: المعنى: ونراه هينا في قدرتنا غير متعسر ولا متعذر علينا، فالمراد بالبعد هو البعد عن الإمكان، وبالقرب هو القرب منه. والجملة تعليل للأمر بالصبر. وقال سهل رحمه الله تعالى: إنهم يرون المقضيّ عليهم من الموت والبعث والحساب بعيداً لبعد آمالهم ونراه قريباً، فإن كل كائن قريب والبعيد ما لا يكون. وفي الحديث: «ما الدنيا فيما مضى وما بقي إلا كثوب شق باثنين، وبقي خيط واحد، ألا وكان ذلك الخيط قد انقطع». قال الشاعر:

هَلِ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا جَمِيْعاً ... سِوَىٰ ظِلٍّ يَزُوْلُ مَعَ ٱلنَّهَارِ

وقال الآخر:

وَمِنْ عَجَبِ ٱلأَيَّامِ أَنَّكَ قَاعِدٌ ... عَلَىٰ ٱلأَرْضِ فِيْ ٱلدُّنْيَا وَأَنْتَ تَسِيْرُ

فَسَيْرُكَ يَا هَذَا كَسَيْرِ سَفِيْنَةٍ ... بِقَوْمٍ قُعُوْدٍ وَٱلْقُلُوْبُ تَطِيْرُ

والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يقع بهم ذلك العذاب يوم تكون السماء ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ أو متعلق بمحذوف مقدّر بعده تقديره: تكون السماء كالمهل يوم يكون من الأحوال والأهوال ما لا يوصف، والأوّل أولى. والمهل هنا: خبث الحديد، ونحوه مما يذاب على مهل وتدريج، أو درديُّ الزيت لسيلانه على مهل لثخانته. وعن ابن مسعود: كالفضة المذابة في تلونها أو كالقير والقطران في سوادهما.

وجملة قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ معطوفة على ما قبلها؛ أي: تصير

الجبال كالصوف المصبوغ ألواناً، وإنما وقع التشبيه به؛ لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش أي: المصبوغ إذا تطيرته الريح. قال في «كشف الأسرار»: أول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهنا منفوشاً ثم تصير هباء منثوراً. وقال الحسن: تكون الجبال كالعهن، وهو الصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف، كما ذكر في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نَزَل بهم من شدة الأهوال التي أذهلت القريب عن قريبه، والخليل عن خليله، كما قال سبحانه: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾. وقيل: الأصل، ولا يسأل حميم عن حيمم، فحذف الحرف، ووصل الفعل؛ أي: لا يسأل قريب قريباً عن أحواله ولا يكلمه لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك. وإذا كان الحال بين الأقارب هكذا، فكيف يكون بين الأجانب؟ والتنكير فيه للتعميم.

وقرأ الجمهور ﴿وَلَا يَسْئَلُ﴾ مبنياً للفاعل، قيل: والمفعول الثاني محذوف والتقدير؛ أي: لا يسأله نصره ولا شفاعته ولا منفعة لعلمه أنه لا يجد ذلك عنده. وقال قتادة: لا يسأله عن حاله؛ لأنّها ظاهرة. وقيل: لا يسأله أن يحمل عنه من أوزاره شيئاً ليأسه عن ذلك. وقرأ أبو حيوة، وشيبة، وأبو جعفر، والبزي بخلاف عن ثلاثتهم، وابن كثير في رواية عنه على البناء للمفعول؛ أي: لا يسأل إحضاره كل من المؤمن والكافر له سيماء يعرف بها. وقيل: عن ذنوب حميمه ليؤخذ بها بل كل إنسان يسأل عن نفسه، وعن عمله.

ومعنى هذه الآيات: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾؛ أي: إذا سألوا استعجال العذاب على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالوحي، وكان هذا يورث ضجرك أيها الرسول فاصبر صبراً جميلاً بلا جزع ولا شكوى؛ لأنّه أمر محقّق، وكل آتٍ قريب. ثم بين أن هذا اليوم لا شك فيه، فقال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ﴾ إلخ؛ أي: إنّ هؤلاء المشركين يرون هذا اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة بعيداً محالاً غير ممكن، ونحن نراه قريباً هيّناً غير بعيد علينا، ولا متعذّر. ثم ذكر وقت حدوثه فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾؛ أي: إنَّ العذاب واقع بالكافرين يوم تكون السماء كأنّها عكر الزيت، والمراد أنّها تكون واهية ضعيفة غير متماسكة. ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ

﴿٩﴾؛ أي: وتكون الجبال هشّة غير متلاحمة، كأنها الصوف المنفوش إذا طيرته الريح. رُوي عن الحسن: أنها تسير مع الرياح ثم تنهد ثم تصير كالعهن، ثم تنهد فتصير هباء منثوراً. ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: ولا يسأل قريب مشفق قريباً عن حاله، ولا يكلمه لابتلاء كل منهما بما يشغله، كما جاء في قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

وقوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ مستأنف أو صفة لقوله: ﴿حَمِيمًا﴾؛ أي: يبصر كل حميم حميمه لا يخفى منهم أحد عن أحد، وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه، ولا يتساءلون، ولا يكلم بعضهم بعضاً لاشتغال كل منهم بنفسه. وهذه الجملة مستأنفة كما مرّ آنفاً، واقعة في جواب سؤال مقدر كأنّه قيل: لعله لا يبصره فكيف يسأل عن حاله؟ فقيل: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾. والضمير الأوّل[1] للحميم الأول، والثاني للثاني، وجمع الضميرين لعموم الحميم لكل حميمين لا لحميمين اثنين، لأنّهما نكرتان في سياق النفي. قال في «تاج المصادر»: التبصير: التعريف والإيضاح، ويعدى إلى المفعول الثاني بالباء، وقد تحذف الباء، وعلى هذا جاء ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ انتهى. يعني: عدّى ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ بالتضعيف إلى ثان وقام الأول مقام الفاعل. والمعنى: يبصر الأحماء فلا يخفون عليهم ولا يمنعهم من التساؤل إلا تشاغلهم بأحوال أنفهسم، فيبصر الرجل أباه وأخاه وأقرباءه وعشيرته، ولكن لا يسأله ولا يكلمه لاشتغاله بما هو فيه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يتعارفون ساعة ثم يتناكرون ويفر بعضهم من بعض بعد ذلك.

وقال ابن زيد[2]: يبصر الله الكفار في النار الذين أضلوهم في الدنيا، وهم الرؤساء المتبوعون عبرةً وانتقاماً وحزناً. وقيل: إن قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾. يرجع إلى الملائكة؛ أي: يعرفون أحوال الناس، لا يخفون عليهم. وقرأ قتادة[3]: ﴿يُبْصِرونهم﴾ مخففاً مع كسر الصاد؛ أي: يبصر المؤمن الكافر في النار، قاله مجاهد.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾؛ أي: يتمنّى الكافر، وقيل: كلّ مذنب. ﴿لَوْ﴾ بمعنى التمنّي،

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) البحر المحيط.

فهو حكاية لودادتهم. ﴿يَفْتَدِي﴾ من الافتداء، وهو حفظ الإنسان عن النائبة بما يبذل عنه. ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾؛ أي: من العذاب الذي ابتلوا به يوم إذ كان ما ذكر، وهو بكسر الميم لإضافة العذاب إليه. وقرىء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بالفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن. وقرأ الجمهور[1] ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ بإضافة عذاب إلى يومئذٍ. وقرأ أبو حيوة بتنوين ﴿عذابٍ﴾ وقطع الإضافة. وقرأ الجمهور ﴿يومئذ﴾ بكسر الميم. وقرأ نافع، والكسائي، والأعرج، وأبو حيوة بفتحها. ﴿بِبَنِيهِ﴾ أصله: ببنين سقطت نونه للإضافة، وجمعه؛ لأن كثرتهم محبوبة مرغوب فيها. ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾؛ أي: صاحبته التي يصاحبها ﴿وَأَخِيهِ﴾ الذي كان ظهيراً له ومعيناً.

وجملة قوله: ﴿يَوَدُّ﴾ مستأنفة[2] مسوقة لبيان أنَّ اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حيث يتمنّى أن يفتدى بأقربهم إليه وأعلقهم بقلبه ويجعله فداء لنفسه حتى ينجو هو من العذاب، فضلاً عن أن يهتم بحاله ويسأل عنها، كأنّه قيل: كيف لا يسأل مع تمكنه من السؤال؟ فقيل: ﴿يَوَدُّ﴾... إلخ.

﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣)﴾؛ أي: وعشيرته الأقربين الذين يضمونه في النسب أو عند الشدائد، ويأوي إليهم فيلوذ بهم. قال أبو عبيد: الفصيلة دون القبيلة. وقال ثعلب: هم آباؤهم الأدنون، وهي في الأصل القطعة المفصولة من الجسد، وتطلق على الآباء الأقربين، وعلى الأولاد؛ لأنَّ الولد يكون مفصولاً من الأبوين، فلمّا كان الولد مفصولاً منهما كانا مفصولين منه أيضاً، فسمّي فصيلة لهذا السبب، والمراد بالفصيلة في الآية هو الآباء الأقربون والعشيرة الأدنون لقوله: ﴿وبنيه﴾. وقوله: ﴿تُؤْوِيهِ﴾ من آوى إلى كذا انضمّ إليه، وآواه غيره كما قال تعالى: ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾؛ أي: إلى نفسه.

﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين والخلائق. و﴿مَنْ﴾ للتغليب. ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ معطوف على ﴿يَفْتَدِي﴾؛ أي: يَوَدُّ لو يفتدى ثم ينجيه الافتداء. و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء. يعني: لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ثمّ ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه. وقرأ[3] الزهريّ ﴿تؤويه﴾ و﴿تنجيه﴾ بضمّ الهاءين.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

والمعنى: أي يتمنى الكافر لو ينفع أعز الناس إليه فديةً. لينجيه من ذلك العذاب، فيود لو كان أبناؤه أو زوجته أو أخوه أو عشيرته التي تضمه إليها، أو أهل الأرض جميعاً فداء له ليخلص من ذلك العذاب.

والخلاصة: يتمنى الكافر لو كان هؤلاء جميعاً في قبضة يده.. ليبذلهم فدية عن نفسه ثم ينجيه ذلك هيهات.

﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم عن الودادة والتمنّي، وتصريح بامتناع إنجاء الافتداء؛ أي: لا يكون كما يتمنّى فإنّه بهيئته الظلمانية الحاصلة من الإجرام استحق العذاب، فلا ينجو منه. وفي الحديث: «يقول الله عزّ وجلّ لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أنَّ لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدى به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي». وعن «القرطبي»: أنّ ﴿كَلَّآ﴾ يكون بمعنى الردع والزجر وبمعنى حقًّا، وكلا الوجهين جائزان هنا، فعلى الثاني يكون تمام الكلام ﴿يُنجِيهِ﴾، فيوقف عليه، ويكون ﴿كَلَّآ﴾ من الجملة الثانية التي تليه. والمحقّقون على الأول، ومن ذلك وضع السجاوندي علامة الوقف على ﴿كَلَّآ﴾. ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: إنَّ النار المدلول عليها بذكر العذاب، والمراد جهنم. ﴿لَظَىٰ﴾ علم للنار، أو للدرك الثاني منها، منقول من اللظى بمعنى اللهب الخالص الذي لا يخالطه دخان، فيكون في غاية الإحراق لقوة حرارته النارية بالصفاء. وهو خبر ﴿إن﴾ بمعنى إن النار التي أعدت لعذابه مسماة بهذا الاسم. ويجوز أن يراد بـ ﴿لَظَىٰ﴾: اللهب الخالص على الأصل، فيكون خبراً بلا تأويل؛ أي: إنَّ النار التي يعذّب بها لهب خالص ليس فيه دخان. ﴿نَزَّاعَةً﴾ خبر ثان لـ﴿أنّ﴾؛ أي: قلاعة ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾؛ أي: للأعضاء التي في أطراف الجسد كالأيدي والأرجل؛ أي: مزيلة للأعضاء عن أماكنها لقوّة حرارتها ثم تعود الأعضاء كما كانت، وهكذا أبداً، فلا تترك لحماً ولا جلداً، إلا أحرقته. من نزع الشيء إذا جذبه، وأزاله من مقرّه وموضعه. و﴿الشوى﴾: الأطراف؛ أي: الأعضاء التي ليست بمقتل كالأيدي والأرجل. أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس. يعني: أنَّ النار تنزع جلود الرأس وتقشّرها عنه، وذلك لأنّهم كانوا يسعون بالأطراف للأذى والجفاء، ويصرفون عن الحق الأعضاء الرئيسية التي تشتمل عليها الرأس خصوصاً العقل الذي كانوا لا يعقلون إلا به في الرأس.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَزَّاعَةٌ﴾ بالرفع على أنه خبر ثان لـ ﴿أنّ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي، أو تكون ﴿لَظَىٰ﴾ بدلاً من الضمير المنصوب، و﴿نزّاعة﴾ خبر ﴿إنّ﴾، أو على أنّ ﴿نزّاعة﴾ صفة لـ ﴿لَظَىٰ﴾ على تقدير عدم كونها علما، أو يكون الضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ للقصة، ويكون ﴿لَظَىٰ﴾ مبتدأ، و﴿نزاعة﴾ خبره، والجملة خبر ﴿إنّ﴾. وقرأ حفص عن عاصم، وأبو عمرو في رواية عنه، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة والزعفرانيّ، وابن مقسم، واليزيدي في اختياره ﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنصب على الحال المؤكدة أو المبينة، والعامل فيها ﴿لَظَىٰ﴾، وإن كان علماً لما فيه من معنىٰ التلظي كما عمل العلم في الظرف في قوله:

أَنَا أَبُو ٱلْمِنْهَالِ بَعْضَ ٱلأَحْيَانِ

أي: المشهور بعض الأحيان. أو بالنصب على الاختصاص للتهويل، قاله الزمخشري.

﴿تَدْعُواْ﴾ تلك النار ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ومعرفته، وهو مقابل أقبل. ومعنى ﴿تَدْعُواْ﴾: تجذب إلى نفسها، وتحضر، فهو مجاز عن إحضارهم كأنها تدعوهم فتحضرهم وتقول لهم: إلي إلي يا كافر، ويا منافق، ويا زنديق فإني مستقرك. أو تدعو الكافرين، والمنافقين بلفظ فصيح بأسمائهم، ثم تلتقطهم كالتقاط الطير الحب. ويجوز أن يخلق الله فيها كلاماً كما يخلقه في جلودهم وأيديهم وأرجلهم وكما خلقه في الشجرة. أو تدعو زبانيتها على حذف المضاف أو على الإسناد المجازي حيث أسند فعل الداعي إلى المدعوّ إليه، من باب إسناد ما هو للحال إلى المحل. وقيل: هو تمثيل وتخييل، ولا دعاء في الحقيقة. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: أعرض عن الطاعة؛ لأنّ من أعرض يولّي وجهه. وفي «التأويلات النجمية»: من أدبر عن التوجه إلى الحق بموافقات الشريعة ومخالفات الطبيعة، وتولى عن الإقبال على الآخرة والإدبار عن الدنيا. ﴿وَجَمَعَ﴾ المال حرصاً وحبًّا للدنيا ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾؛ أي: فجعله في وعاء وكنزه، ولم يؤد زكاته وحقوقه الواجبة فيه، وتشاغل به عن الدين، وتكبر باقتنائه. وذلك لطول أمله وانعدام شفقته على عباد الله، وإلا ما ادخر بلْ بذل. وفي جمع الجمع مع الإدبار والتولي تنبيه على قباحة البخل وخساسة البخيل، وعلى أنه لا يليق بالمؤمن.

---

(١) البحر المحيط.

والمعنى: أي كلا لا يقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض جميعاً أو بأعز ما يجده من مال ولو بملء الأرض ذهباً أو بولده الذي كان حشاشة كبده في الدنيا، أو بزوجته وعشيرته. ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ...﴾ إلخ؛ أي: إنها النار الشديدة الحرارة التي تنزع جلدة الرأس، وتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه. وأنشدوا قول الأعشى:

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَالَهُ   قَدْ جُلِّلَتْ شَيْباً شَوَاتُهُ

وهذه النار تجذب إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر أنها في الدنيا يعملون عملها من بين أهل المحشر، فدسوا أنفسهم إذ كذبوا بقلوبهم وتركوا العمل بجوارحهم، وجمعوا المال بعضه على بعض وكنزوه، ولم يؤدوا حق الله فيه، وتشاغلوا به عن فرائضه من أوامر ونواهٍ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: جنس الإنسان ﴿خُلِقَ﴾ حال كونه ﴿هَلُوعًا﴾؛ أي: شديد الحرص سيّىء الجزع وأفحشه، مبالغة هالع من الهلع، وهو سرعة الجزع عند مسّ المكروه بحيث لا يستمسك، وسرعة المنع عند مسّ الخير، يقال: ناقة هلوع: سريعة السير، وهو من باب علم، وقد فسره أحسن تفسير على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما. قوله تعالى: ﴿إِذَا﴾ ظرف لـ﴿جَزُوعًا﴾ ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: أصابه الشر، ووصل إليه الفقر، أو المرض أو نحوهما ﴿جَزُوعًا﴾ أي: كثير الجزع، مبالغة في الجزع مُكْثِراً منه لجهله بالقدر، وهو ضد الصبر. وقال ابن عطاء: الهلوع الذي عند الموجود يرضى، وعند المفقود يسخط. وفي الحديث: «شر ما أعطي ابن آدم شح هالع، وجبن خالع» فالهالع المحزن، والخالع الذي يخلع قلبه. قال بعضهم: إنما كرهت نفوس الخلق المرض؛ لأنّه شاغل لهم عن أداء ما كلفوا به من حقوق الله تعالى؛ إذ الروح الحيواني حين يحس بالألم يغيب عن تدبير الجسد الذي يقوم بالتكليف، وإنما لم تكره نفوس العارفين الموت لما فيه من لقاء الله تعالى، فهو نعمة ومنة، ولذلك ما خير نبيٌّ في الموت إلا اختاره.

﴿وَإِذَا﴾ ظرف لـ﴿مَنُوعًا﴾ ﴿مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾؛ أي: السعة أو الصحة أو غيرهما ﴿مَنُوعًا﴾؛ أي: مبالغاً في المنع والإمساك لجهله بالقسمة وثواب الفضل. وللصحة مدخل في الشحّ، فإن الغني قد يعطي في المرض ما لا يعطيه في الصحة، ولذا كانت الصدقة حال الصحة أفضل. والأوصاف الثلاثة، وهي: ﴿هَلُوعًا﴾ و﴿جَزُوعًا﴾ و﴿مَنُوعًا﴾ أحوال مقدرة؛ لأنَّ المراد بها ما يتعلق به الذمّ والعقاب، وهو ما يدخل

تحت التكليف والاختيار، وذلك بعد البلوغ. أو محقّقة لأنها طبائع جبل الإنسان عليها، كما قال المتنبي:

ٱلظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوسِ فإنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

ولا يلزم أن لا تفارقه بالمعالجات المذكورة في كتب الأخلاق، فإنها كبرودة الماء ليست من اللوازم المهيئة للوجود، بل إنما حصولها فيه بوضع الله تعالى وخلقه، وهو يزيلها أيضا بالأسباب التي سببها إذا أراد. قال الراغب: فإن قيل: ما الحكمة في خلق الإنسان على مساوي الأخلاق؟

قلنا: الحكمة في خلق الشهوة أن يمانع نفسه إذا نازعته نحوها، ويحارب شيطانه عند تزيينه المعصية، فيستحق من الله سبحانه مثوبة وجنة انتهى.

والمعنى: أي إنّ الإنسان جُبِلَ على الهلع، فهو قليل الصبر شديد الحرص، فإذا افتقر أو مرض أخذ في الشكاة والجزع، وإذا صار غنيًّا أو سليماً معافىً منع معروفه، وشحّ بماله، وما ذاك إلا لاشتغاله بأحواله الجسمانية العاجلة، وقد كان من الواجب عليه أن يكون مشغولاً بأحوال الآخرة، فإذا مرض، أو افتقر رضي بما قسم له علماً بأن الله يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، وإذا وجد المال والصحة صرفهما في طلب السعادة الأخروية.

والخلاصة: أنه إذا أصابه الفقر والحاجة أو المرض أو نحو ذلك.. فهو جزوع؛ أي: كثير الجزع، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك فهو كثير المنع والإمساك.

وقد استثني من هذه الحال من اتصفوا بالصفات الآتية، فقال:

١ - ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ استثناء من الإنسان، لأنّه جنس في معنى الجمع، وهذا الاستثناء باعتبار الاستمرار؛ أي: إنّ المطبوعين على الصفات الرذيلة مستمّرون عليها إلا المصلين؛ أي: المقيمين للصلاة، فإنهم بدلوا تلك الطبائع واتصفوا بأضدادها. وقيل: المراد بهم: أهل التوحيد. يعني: أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع، وأنهم على صفات محمودة وخلال مرضيّة؛ لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد ودين الحق يزجرهم عن الاتصال بتلك الصفات، ويحملهم على الاتصاف بصفات الخير.

ثم بينهم سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ تقديم ﴿هم﴾ يفيد تقوية الحكم وتقريره في ذهن السامع كما في قولك: هو يعطي الجزيل قصداً إلى تحقيق أنّه يفعل إعطاء الجزيل. ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ لا يشغلهم عنها شاغل، ولا يصرفهم عنها صارف، فيواظبون على أدائها، وليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبداً. وقال الحسن، وابن جريج: هو التطوع منها. وقال النخعي: المراد بالمصلين الذين يؤدّون الصلاة المكتوبة. وقيل: الذين يصلونها لوقتها. والمراد[1] بالآية جميع المؤمنين. وقيل: الصحابة خاصّة، ولا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين. وقدم الصلاة على سائر الخصال لشرفها على غيرها بعد الإيمان لقوله ﷺ: «أوّل ما افترض الله على أمتي الصلوات الخمس، وأول ما يرفع من أعمالها الصلوات، وأوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته» فإن صلحت. . فقد أفلح، وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر. ولذا ختم الله الخصال بها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾. وكان آخر ما أوصى به النبي ﷺ الصلاة، وما ملكت أيمانكم. وقرأ الجمهور ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ بالإفراد، والحسن جمعاً.

والمعنى[2]: أي إنّ الإنسان بطبعه متصف بصفات الذمّ، خليق بالمقت إلاّ من عصمهم الله ووفقهم، فهداهم إلى الخير، ويسّر لهم أسبابه، وهم المصلون الذين يحافظون على الصلوات في أوقاتها، لا يشغلهم عنها شيء من الشواغل. وفي هذا إيماء إلى فضيلة المداومة على العبادة.

أخرج ابن حبان عن أبي سلمة قال: حدّثتني عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خذوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتى تملوا»، قالت: فكان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ ما داوم عليه، وإن قل، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها». وقرأ أبو سلمة ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾.

٢ - ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أي: وإلا الذين ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: نصيب معين يستوجبونه على أنفهسم تقرباً إلى الله تعالى، وإشفاقاً على الناس من الزكاة المفروضة، كما قاله قتادة ومحمد بن سيرين. وقال مجاهد: سوى الزكاة. وقيل: صلة الرحم. والظاهر: أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوماً ولجعله قريناً للصلاة.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾؛ أي: الذي يسأل. ومن[1] كان له قوت يوم لا يحل له السؤال، وأما حكم الدافع له عالماً بحاله، فكان القياس أن يأثم؛ لأنه إعانة على الحرام، لكنه يجعله هبة، ولا إثم في الهبة للغني وله أن يرده برد جميل مثل أن يقول: آتاكم الله من فضله. ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي: الذي لا يسأل إما حياء أو توكلاً، فيظن أنه غني فيحرم.

والمعنى[2]: أي والذين في أموالهم نصيب معين لذوي الحاجات، والبائسين تقرَّباً إلى الله وإشفاقاً على خلقه سواء سألوا، واستجدوا أو لم يسألوا تعففاً منهم، والمراد بهذا الحق المعلوم ما يوظّفه الرجل على نفسه فيؤديه كل جمعة، أو كل شهر أو كلما جدت حاجة تدعو إلى بذل المال كإغاثة فرد أو إغاثة أمة طرأ عليها ما يستدعي البذل لمصلحة هامة لها كالدفاع ضدّ عدوّ أو دفع مجاعة أو ضرورة ملحّة مفاجئة.

٣ - ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، لا يشكون فيه ولا يجحدونه بل يصدّقونه بأعمالهم، حيث يتعبون أنفسهم في الطاعات البدنيّة والمالية طمعاً في التوبة الأخروية، بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء. فمجرد التصديق بالجنان واللسان، وإن كان ينجي من الخلود في النار، لكن لا يؤدي إلى أن يكون صاحبه مستثنى من المطبوعين بالأحوال المذكورة.

والمعنى: أي والذين يوقنون بالمعاد والحساب، فيعملون عمل من يرجو الثواب، ويخاف العقاب، وتظهر آثار ذلك في أفعالهم وأقوالهم ومعتقداتهم، فينيبون إلى الله ويخبتون إليه.

٤ - ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: خائفون على أنفسهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة استقصاراً لها، واستعظاماً لجنابه تعالى. وتقديم ﴿مِّنْ﴾ على متعلقه وإن كان للفاصلة يجوز أن يكون للحصر امتثالاً لأمره تعالى ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ مع جواز أن يكون للتقوية؛ أي: والذين هم خائفون وجلون من تركهم الواجبات وإقدامهم على المحظورات، ومن يدم به الخوف والإشفاق فيما كلف به يكن حذراً

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

من التقصير حريصاً على القيام بما كلف به من علم وعمل. ونحو الآية قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

ثم ذكر الداعي لهم إلى هذا الخوف، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨)﴾ وهو اعتراض مؤذن بأنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذابه تعالى، وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد بل يكون بين الخوف والرجاء؛ لأنّه لا يعلم أحد عاقبته، ومِنْ ثم أثر عن السلف الصالح أنهم كانوا كثيري الخوف والوجل، كما يشعر بذلك قول بعضهم: لَيْتَ أمي لم تَلِدْنِي، وقول آخر: ليتني شجرةً تعضد، إلى أشباه ذلك مما يعبر عن شديد الوجل والخشية.

٥ - ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ﴾ فرج الرجل والمرأة سوءاتهما؛ أي: قبلهما. عبّر به عنها رعايةً للأدب في الكلام، وأدب المرء خير من ذهبه، والجار متعلق بقوله: ﴿حَافِظُونَ﴾ من الزنا؛ أي: متعفّفون عن مباشرة الحرام، كافون لها عن الحرام، فإن حفظ الفرج كناية عن العفة. ﴿إِلَّا عَلَىٰ﴾ بمعنى (من) كما في كتب النحو. ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾ الأربع؛ أي: نسائهم المنكوحات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الجواري من غير حصر في أوقات حلها كالطهر من الحيض والنفاس ومضيّ مدة الاستبراء. وعبر عنهن بـ ﴿ما﴾ إجراءً لهن لمملوكيتهن مجرى غير العقلاء أو لأنوثتهن المنبئة عن القصور. وإيراد ما ملكت الأيمان يدل على أن المراد من الحافظين هنا الذكور، وإن كان الحفظ لازماً للإناث أيضاً، بل أشد؛ لأنه لازم عليهن على عبيدهن، وإن كانوا مما ملكت أيمانهن ترجيحاً لجانب الذكور في صيانة عرضهم. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: فإن الحافظين ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ على عدم حفظها منهنّ؛ أي: غير معيوبين شرعاً فلا يؤاخذون بذلك في الدنيا والآخرة. وفيه إشعار بأن من لم يحفظ تكفيه ملامة اللائمين، فكيف العذاب؟.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ﴾ وطلب لنفسه الاستمتاع ﴿وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: وراء ما ذكر من الأزواج والمملوكات. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المبتغون ﴿هُمُ الْعَادُونَ﴾؛ أي: المتجاوزون لحدود الله، الكاملون في العدوان المتناهون فيه؛ لأنّه من عدا عليه إذا تجاوز الحد في الظلم، ودخل فيه حرمة وطْءِ الذكران والبهائم والزنا، وقيل: يدخل فيه الاستمناء أيضاً. روي: أنَّ العرب كانوا يستمنون في الأسفار، فنزلت الآية. وفي

الحديث: «ومن لم يستطع ـ أي: التزوج ـ فعليه بالصوم». استدل به بعض المالكية على تحريم الاستمناء؛ لأن ﷺ أرشد عند العجز عن التزوج إلى الصوم الذي يقطع الشهوة، فلو كان الاستمناء مباحاً.. لكان الإرشاد إليه أسهل. وقد أباح الاستمناء طائفة من العلماء، وهو عند الحنابلة وبعض الحنفية جائزٌ لأجل تسكين الشهوة. وفي بعض حواشي البخاري: والاستمناء باليد حرام بالكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾؛ أي: الضالون المتجاوزون من الحلال إلى الحرام. قال البغوي: الآية دليل على أنَّ الاستمناء باليد حرام.

٦ ـ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾؛ أي: لما ائتمنوا عليه من الدين والدنيا. ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ فيما بينهم وبين ربهم أو فيما بينهم، وبين الناس ﴿رَاعُونَ﴾؛ أي: حافظون بالوفاء. يعني: إذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا.

قرأ الجمهور ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ بالجمع. وقرأ ابن كثير وابن محيصن ﴿لأمانتهم﴾ بالإفراد، والمراد به الجنس، أي: فالأمانة اسم لجنس ما يؤتمن عليه الإنسان سواء من جهة البارىء سبحانه، وهي أمانات الدين التي هي الشرائع والأحكام أو من جهة الخلق، وهي الودائع ونحوها. والجمع بالنظر إلى اختلاف الأنواع، وكذا العهد شامل لعهد الله وعهد الناس، وهو ما عقده الإنسان على نفسه لله أو لعباده، وهو يضاف إلى المعاهد والمعاهد فيجوز هنا الإضافة إلى الفاعل والمفعول.

٧ ـ ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ الباء: متعلقة بقوله: ﴿قَائِمُونَ﴾ سواء كانت للتعدية أم للملابسة، والجمع باعتبار أنواع الشهادة؛ أي: والذين هم يقيمون الشهادة، ويؤدونها على من كانت عليه قريب أو بعيد رفيع أو وضيع، ولا يكتمونها ولا يغيّرونها. قال النبي ﷺ: «إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع». وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات لإبانة فضلها؛ لأن في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها، وفي كتمها وتركها تضييعها وإبطالها، وفي «الأشباه» إذا كان الحقُّ يقوم بغيرها، أو كان القاضي فاسقاً أو كان يعلم أنها لا تقبل.. جاز الكتمان.

وقرأ الجمهور ﴿بشهادتهم﴾ بالإفراد. وقرأ حفص ويعقوب، وهي رواية عن ابن كثير بالجمع. قال الواحدي: والإفراد أولى، لأنّه مصدر، ومن جمع ذهب إلى

اختلاف الشهادات. قال الفراء: ويدل على قراءة التوحيد قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾.

والمعنى: أي والذين يقومون بأداء الشهادة عند الحكام، ولا يكتمونها ولا يغيّرونها. والشهادة من جملة الأمانات، وخصَّها بالذكر لعظم شأنها؛ إذ بها تحيا الحقوق وبتركها تموت.

٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ تقديم ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ يفيد الاختصاص الدال عل أن محافظتهم مقصورة على صلاتهم، لا تتجاوز إلى أمور دنياهم؛ أي: يراعون شرائطها، ويكملون فرائضها وسننها ومستحباتها وآدابها، ويحفظونها من الإحباط باقتران الذنوب. فالدوام المذكور أوّلاً يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها. قال أبو حيان: وأقول: إنَّ الديمومة على الشيء والمحافظة عليه شيء واحد، لكنّه لما كانت الصلاة هي عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها، فذكرت أوّل خصال الإسلام المذكورة في هذه السورة وآخرها ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني الإسلام عليها. وقال الشوكاني: والمراد يحافظون على أذكارها وأركانها وشرائطها، لا يخلون بشيء من ذلك. قال قتادة: على وضوئها وركوعها وسجودها. وقال ابن جريج: المراد: التطوع، وكرر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أوّلاً، وما وصفهم به ثانياً، فإن معنى الدوام هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل كما سلف، ومعنى المحافظة: أن يراعي الأمور التي لا تكون صلاةً بدونها. وقيل: المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها، وكرر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقل بموصوف منفرد.

والإشارة: بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات؛ أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات الفاضلة. ﴿فِى جَنَّـٰتٍ﴾؛ أي: مستقرون في جنات لا يقادر قدرها، ولا يدرك كنهها. ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ بالثواب الأبدي والجزاء السرمدي؛ أي: سيكونون كذلك، فكأنّ الإكرام فيها واقع لهم الآن. وهو خبر ثان أو هو الخبر، و﴿فِى جَنَّـٰتٍ﴾ متعلق به، قدم عليه لمراعاة الفواصل، أو بمضمر هو حال من الضمير في الخبر؛ أي: مكرمون حال كونهم كائنين في جنات.

والمعنى: هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال في بساتين يكرمون فيها بأنواع اللذات والمسرات، وإلى ذلك أشار الحديث: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر».

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ﴾؛ أي: فما بال الذين ﴿كَفَرُواْ﴾ وحرموا من الاتصاف بالصفات الجليلة المذكورة. و﴿ما﴾ استفهامية للإنكار في موضع رفع بالابتداء، ولـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبرها، واللام الجارة كتبت مفصولة اتباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه. ﴿قِبَلَكَ﴾ حال من المنوي في ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: فما لهم ثابتين حولك ﴿مُهْطِعِينَ﴾ حال من المستكن في ﴿قِبَلَكَ﴾. من الإهطاع، وهو الإسراع؛ أي: مسرعين نحوك؛ أي: أيّ شيء ثبت لكفّار مكة مسرعين جهتك، مادي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك. وقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ متعلق بـ ﴿عِزِينَ﴾، لأنّه بمعنى مفترقين أو بـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾، و﴿عِزِينَ﴾ حال بعد حال من المنوي في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي: فرقاً شتّى، جمع عزة، وهي الفرقة من الناس. وأصلها[1]: عزو من العزو بمعنى الانتماء، والانتساب، فعوضوا عن اللام الهاء كأن كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى إما في الولادة، أو في المظاهرة، فهم مفترقون. كان المشركون يتحلقون حول رسول الله ﷺ حلقاً حلقاً وفرقاً فرقاً، ويستهزئون بكلامه ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم. فنزلت هذه الآية وما بعدها، كما مرّ في الأسباب.

والمعنى[2]: فما بال كفار مكة؟ يسرعون إليك ويجلسون حواليك عن يمينك، وعن شمالك جماعات متفرقة، نافرين منك لا يلتفتون إلى ما تلقيه عليهم من رحمة الله وهديه ونصحه وإرشاده وما فيه سعادتهم في معاشهم ومعادهم. ونحو الآية قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

أخرج مسلم وغيره عن جابر قال: دخل علينا رسول الله ﷺ المسجد ونحن حلق متفرقون، فقال: «ما لي أراكم عزين؟ ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟» قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأول

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ويتراصون في الصف». وقد كانت عادتهم في الجاهلية أن يجلسوا حلقاً مجتمعين، قال شاعرهم:

تَـرَانَـا عِـنْـدَهُ وَٱللَّـيْـلُ دَاجٍ عَـلَـىٰ أَبْـوابِـهِ حِـلَـقَـاً عَـزِيـنَـا

ثم أيأسهم من نيلهم للسعادة التي يفوز بها من يسمعون القول، فيتبعون أحسنه، فقال: ﴿أَيَطْمَعُ﴾ ويرجو ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من هؤلاء المهطعين ﴿أَن يُدْخَلَ﴾ بالإيمان ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾؛ أي: جنة ليس فيها إلا التنعم المحض من غير تكدر ولا تنغص. والاستفهام فيه للتوبيخ المضمن للإنكار؛ أي: لا يطمع. والطمع: نزوع النفس إلى الشيء شهوة له، وأكثر الطمع من جهة الهوى. وقرأ الجمهور[1] ﴿أَن يُدْخَلَ﴾ مبنياً للمفعول من الإدخال. وقرأ الحسن، وزيد بن علي، وطلحة بن مصرف، والأعرج، ويحيى بن يعمر، وأبو رجاء، وعاصم في رواية عنه مبنياً للفاعل من الدخول.

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن ذلك الطمع الفارغ؛ أي: اتركوا هذا الطمع، واقطعوا مثل هذا الكلام؛ أي: لا يدخلها.

والمعنى: أيطمع هؤلاء المشركون وهم نافرون من الرسول ﷺ، معرضون عن سماع الحق أن يدخلوا جنتي كما يدخلها المؤمنون المخبتون الذين يدعون ربهم خوفاً وطمعاً؟ كلا لا مطمع لهم في ذلك مع ما هم عليه.

ولعل[2] وجه إيراد ﴿يُدْخَلَ﴾ مجهولاً من الإدخال دون يدخل معلوماً من الدخول مع أنه الظاهر في رد قولهم: ﴿لَنَدْخُلَنَّها﴾. إشعار بأنه لا يدخل من يدخل إلا بإدخال الله، وأمره للملائكة به، وبأنهم محرومون من شفاعة تكون سبباً للدخول، وبأن إسناد الدخول إخباراً وإنشاءً، إنما يكون للمرضي عنهم، والمكرمين عند الله بإيمانهم وطاعتهم كقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾.

وفي تنكير[3] ﴿جَنَّةَ﴾ إشعاراً بأنهم مردودون عن كل جنة، وإن كانت الجنان كثيرةً، وفي توصيفها بـ﴿نَعِيمٍ﴾ إشعار بأن كل جنة مملوءة بالنعمة، وأن من طرد من

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

راحة النعيم وقع في كدر الجحيم. وفي إيراد ﴿كُلُّ﴾ إشعار بأن من آمن منهم بعد قولهم هذا، وأطاع الله ورسوله حق له الطمع، وتعميم للردع لكل منهم كائناً من كان ممن لم يؤمن.

ثم ذكر السبب في تيئيسهم منها، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾؛ أي: أنشأناهم وأوجدناهم ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من النطفة القذرة التي يعلمونها، فكيف يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون: لندخلن الجنة قبلهم؟ فكيف يليق ويصح دخولهم الجنة، ولم يتصفوا بالإيمان والمعرفة. وهذا كلام مستأنف، ولذلك وضع السجاوندي علامة الطاء على ﴿كَلَّا﴾ لتمام الكلام عنده، قد سيق تمهيداً لما بعده من بيان قدرته تعالى على أن يهلكهم لكفرهم بالبعث والجزاء واستهزائهم برسول الله ﷺ، وبما نزل عليه من الوحي وادعائهم دخول الجنة بطريق السخرية، وينشيء بدلهم قوماً آخرين. فإن قدرته تعالى على ما يعلمون من النشأة الأولى من حال النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة حجة بينة على قدرته تعالى على ذلك.

وقيل المعنى[1]: إنّا خلقناهم من أجل ما يعلمون، وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة، فمن لم يكملها بذلك فهو بمعزل عن أن يتبوأ متبوأ الذين أخلصوا لله وحده، وبعدت نفوسهم عن دنس الشرك والمعاصي.

ثم توعدهم بأنهم إن لم يثوبوا إلى رشدهم أهلكوا، واستبدل بهم قوماً غيرهم خيراً منهم، فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾؛ أي: أقسم ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ جمع[2] المشارق والمغارب إما لأن المراد بها مشرق كل يوم من السنة ومغربه، فيكون لكل من الصيف والشتاء مائة وثمانون مشرقاً ومغرباً أو مشرق كل كوكب ومغربه. أو المراد بالمشرق ظهور دعوة كل نبيّ، وبالمغرب موته. أو المراد أنواع الهدايات والخذلانات. ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ جواب القسم. ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: نبدلهم. حذف المفعول الأول للعلم به، و﴿خَيْرًا﴾ مفعوله الثاني بمعنى التفضيل على التسليم؛ إذ لا خير في المشركين. أو نهلكهم بالمرة حسبما تقتضيه جناياتهم، ونأتي بدلهم بخلق آخرين ليسوا على صفتهم، ولم يقع هذا التبديل، وإنما ذكر الله ذلك تهديداً لهم، لكي يؤمنوا. وقيل: بدل الله بهم الأنصار والمهاجرين. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أي: بمغلوبين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا، لا يفوتنا شيء، ولا يعجزنا أمر، ولكن اقتضت حكمتنا البالغة، وعلمنا السابق تأخير عقوبة هؤلاء وعدم تبديلهم بخلق آخر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ على صورة ﴿لا﴾ النافية. وقرأ قوم ﴿فلأقسم﴾ بلام دون ألف. وقرأ الجمهور ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ بالجمع. وقرأ أبو حيوة وابن محيصن والجحدري وحميد ﴿المشرق والمغرب﴾ بالإفراد.

والمعنى[2]: أي أقسم برب الكواكب ومشارقها، ومغاربها إنا لقادرون على أن نخلق أمثل منهم، يستمعون دعوة الداعي ونصح الناصح، ونهلك هؤلاء، ولن يعجزنا ذلك لكن مشيئتنا اقتضت تأخير عقوبتهم.

والخلاصة: أنّ هؤلاء المشركين في تناقض واضطراب في الرأي فكيف ينكرون البعث ثم يطمعون في دخول الجنة؟ وكيف ينكرون الخالق وقد خلقهم أوّلاً مما يعلمون، وهو قادر على خلق مثلهم ثانياً. وفي هذا تهكّم بهم وتنبيه إلى تناقضهم في كلامهم، فإن الاستهزاء بالساعة ودخول الجنة مما لا يقبله إلا من عنده دخل في العقل ومجانفة لصواب الرأي.

ثم سلّى رسوله ﷺ عما يقولون ويفعلون، فقال: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾؛ أي: فخلهم وشأنهم ﴿يَخُوضُواْ﴾ ويشرعوا في باطلهم الذي من جملته ما حكي عنهم. وهو جواب الأمر، وهو تهديد لهم وتوبيخ كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾. ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ في الدنيا بالاشتغال بما لا ينفعهم، وأنت مشتغل بما أمرت به، فليس عليك إلا البلاغ. وهذه الآية منسوخة بآية السيف. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ ويعاينوا، من الملاقاة بمعنى المعانية. ﴿يَوۡمَهُمُ﴾ هو يوم البعث عند النفخة الثانية. وأضافه إليهم لأنّه يوم جمع كل الخلائق وهم منهم، أو لأن يوم القيامة يوم الكفار من حيث العذاب، ويوم المؤمنين من حيث الثواب، فكأنّه يومان: يوم للكافرين ويوم للمؤمنين. ﴿ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ الآن أو على الاستمرار. وهو من الوعد كقولهم: متى هذا الوعد، ويجوز أن يكون من الإيعاد. وقرأ الجمهور[3] ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ من الملاقاة. وقرأ أبو جعفر، وابن محيصن،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

وحميد، ومجاهد ﴿حتى يلقوا﴾ مضارع لقي.

والمعنى: دعهم في تكذيبهم وعنادهم إلى يوم البعث، وحينئذٍ يعلمون عاقبة وبالهم ويذوقون شديد نكالهم، حين يعرضون للحساب والجزاء يوم تجزى كل نفس بما عملت، يوم لا شفيع ولا نصير، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي الله بقلب سليم.

ثم فصل أحوالهم في هذا اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ بدل من ﴿يومهم﴾، ولذا حمل على يوم البعث. والأجداث: جمع جدث، وهو القبر. وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَخْرُجُونَ﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ السلميّ[2] والأعمش، والمغيرة، وعاصم في رواية مبنياً للمفعول. ﴿سِرَاعًا﴾ منتصب على الحال من ضمير ﴿يَخْرُجُونَ﴾. جمع سريع كظراف جمع ظريف، أي: مسرعين إلى جانب الداعي وصوته، وهو إسرافيل ينادي على الصخرة، كما سبق. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ حال ثانية[3] من الضمير المذكور، وهو كل ما نصب وعبد من دون الله. وعن أبي عمرو: هو شبكة يقع فيها الصيد فيسارع إليها صاحبها، واحد الأنصاب كعنق وأعناق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾. وكان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها. وقال الأخفش: جمع نصب كرهن ورهن، والأنصاب جمع الجمع. ﴿يُوفِضُونَ﴾؛ أي: يسرعون أيّهم يستلمه أوّلاً من الإيفاض، وهو الإسراع. وفيه تهجين لحالهم الجاهلة، وتهكم بهم بذكر جهالتهم التي اعتادوها من الإسراع إلى ما لا يملك نفعاً ولا ضرّاً.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿نصب﴾ بفتح النون وسكون الصاد. وأبو عمران الجوني ومجاهد بفتحهما، وابن عامر وحفص بضمّهما، والحسن وقتادة بضم النون وسكون الصاد. والنصب: ما نصب الإنسان فهو يقصده مسرعاً إليه من علم أو بناء أو صنم، وغلب في الأصنام حتى قيل: الأنصاب هي الأصنام.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يُوفِضُونَ﴾، و﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فاعلها على الإسناد المجازي. يعني: وصفت بالخشوع مع أنه وصف للكل لغاية ظهور آثاره فيها.

---

(1) الشوكاني.

(2) البحر المحيط.

(3) روح البيان.

(4) البحر المحيط.

والمعنى: ذليلة خاضعة لا يرفعونها مخافة ما يتوقعون من العذاب. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾؛ أي: تغشاهم ذلة شديدة وحقارة عظيمة. قال قتادة: هي سواد الوجوه، ومنه: غلام مراهق إذا غشيه الاحتلام. والجملة حال أيضاً من فاعل ﴿يُوفِضُونَ﴾.

والمعنى[1]: أي يوم يخرجون من قبورهم إذا دعاهم الداعي إلى موقف الحساب سراعاً، يسابق بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، يبتدرون أيهم يستلمه قبل مع خشوع الأبصار وذلتها لهول ما تحققوا من العذاب، تعلو وجوههم القترة لما أصابهم من الكآبة والحزن.

ثم ذكر أن ذلك العذاب الذي وقعوا فيه كانوا قد أنذروابه، ولم يأتهم بغتة، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم المذكور الذي سيقع فيه الأهوال الهائلة. وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾؛ أي: يوعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل، وهم يكذّبون به. فاندفع توهم التكرار؛ لأن الوعد الأول محمول على الآتي والاستمراريّ كما مرّ، وهذا الوعد محمول على الماضي بدلالة لفظ ﴿كان﴾.

والمعنى: أي ذلك اليوم وما فيه من أهوال عظام كانوا قد أنذروا في الدنيا أنهم ملاقوه، وكانوا به يكذّبون، فلا عذر لهم فيما سيموا به من سوء العذاب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ذِلَّةٌ﴾ منوناً، ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ﴾ برفع الميم، مبتدأ وخبر. وقرأ عبد الرحمن بن خلاد عن داود بن سالم عن يعقوب، والحسن بن عبد الرحمن عن التمّار ﴿ذلّة﴾ بغير تنوين مضافاً إلى ﴿ذلك﴾، و﴿اليوم﴾ بخفض الميم.

الإعراب

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق بـ ﴿سَأَلَ﴾، والباء بمعنى عن، و﴿وَاقِعٍ﴾ صفة لـ ﴿عذاب﴾، ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ متعلق بـ ﴿وَاقِعٍ﴾، واللام بمعنى على، ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿لَهُ﴾ خبرها مقدم، ﴿دَافِعٌ﴾ اسمها مؤخر،

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل الجرّ صفة ثانية لـ ﴿عذاب﴾، أو حال من ﴿عذاب﴾، لأنّه تخصّص بالوصف. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بواقع؛ أي: واقع من عنده ومن جهته، أو متعلق بـ ﴿دَافِعٌ﴾ بمعنى ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته. ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ صفة للجلالة، ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فعل مضارع وفاعل، ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ معطوف على الملائكة من عطف الخاص على العام، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَعْرُجُ﴾. ﴿فِى يَوْمٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف دلَّ عليه ﴿وَاقِعٍ﴾؛ أي: يقع العذاب بهم في يوم، أو متعلق بـ ﴿تَعْرُجُ﴾، ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿خَمْسِينَ﴾ خبره، ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ تمييز خمسين، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الجر صفة لـ ﴿يَوْمٍ﴾ ولكنها سببية.

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك، وتدبّرت فيه وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: اصبر. ﴿اصبر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لجواب (إذا) المقدرة، وجملة (إذا) المقدرة مستأنفة. ﴿صَبْرًا﴾ مفعول مطلق، ﴿جَمِيلًا﴾ صفة ﴿صَبْرًا﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ خبره، والضمير لـ ﴿عذاب﴾، ﴿بَعِيدًا﴾ مفعول ثان، لأنّ الرؤية علميّة. وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعولان، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، داخلة في حيّز الخبر. ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بمحذوف تقديره: يقع بهم العذاب يوم تكون السماء كالمهل، أو متعلق بـ ﴿قَرِيبًا﴾. ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ خبره، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾، ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ معطوف على الجملة السابقة، مماثلة لها في إعرابها، ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ فعل وفاعل ومفعول به ثان، والأوّل محذوف تقديره: شفاعته أو نصره. والجملة في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ فعل مضارع، مبني للمجهول، ﴿والواو﴾: نائب فاعل، ﴿والهاء﴾: مفعول به ثان، وعدّي بالتضعيف إلى المفعول الثاني، والجملة مستأنفة، أو حالية. ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو حالية ﴿لَوْ﴾ مصدرية، ﴿يَفْتَدِى﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿مِنْ عَذَابِ﴾ متعلق بـ ﴿يَفْتَدِى﴾ ﴿عَذَابِ﴾ مضاف، ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ ﴿يوم﴾ مضاف إليه، ﴿إذ﴾ مضاف إليه، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة تقديرها: يوم إذ تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن، وجملة ﴿لَوْ﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿يَوَدُّ﴾؛ أي: يودّ المجرم افتداءه من عذاب يومئذٍ ﴿بِبَنِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَفْتَدِى﴾ أيضاً، ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ﴾ معطوفات على ﴿بِبَنِيهِ﴾، ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة للفصيلة، وجملة ﴿تُـْٔوِيهِ﴾ صلة الموصول، ﴿وَمَن﴾ اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿بنيه﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صلة الموصول، ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير المستقرّ في الصلة، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف للتراخي لشدَّة الهول، ﴿يُنجِيهِ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الافتداء، ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَفْتَدِى﴾؛ أي: يود لو يفتدي ثم لو ينجيه الافتداء؛ أي: يودّ افتداءه بهؤلاء المذكورين جميعاً ثم إنجاءه. و﴿ثم﴾ لاستبعاد الإنجاء كما مر.

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع وزجر لودادتهم الافتداء، وتنبيه على أن ذلك التمنّي غير وارد، وليس بذي طائل. ﴿إِنَّهَا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَظَىٰ﴾ خبرها، والضمير للنار الدال عليها العذاب، ﴿نَزَّاعَةً﴾ حال مؤكدة أو مبيّنة، أو نصبت على الاختصاص للتهويل، وعلى الحال يكون العامل فيها ما دلت عليه ﴿لَظَىٰ﴾ من معنى الفعل؛ أي: تتلظى نزاعة. وقرىء بالرفع، فهو خبر ثان لـ ﴿إن﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي نزاعة. وقيل: ﴿لَظَىٰ﴾ بدل من اسم ﴿إنّ﴾، و﴿نَزَّاعَةٌ﴾ خبرها، ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ متعلق بـ ﴿نَزَّاعَةً﴾، ﴿تَدْعُوا۟﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿لَظَىٰ﴾، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة حال من الضمير في ﴿نَزَّاعَةً﴾، وجملة ﴿أَدْبَرَ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ معطوف على ﴿أَدْبَرَ﴾، ﴿وَجَمَعَ﴾ معطوف أيضاً على ﴿أَدْبَرَ﴾، ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ معطوف على ﴿جمع﴾، ومعنى ﴿أوعى﴾: جمع المال فجعله في وعاء وكنزه، ولم يؤد حقه تعالى فيه.

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿خُلِقَ﴾ في محل الرفع خبره، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ﴿هَلُوعًا﴾ حال مقدرة من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، لأنّه ليس متصفاً بهذه الصفات قبل ولادته ووقت خلقه. ﴿إِذَا﴾ ظرف مجرد عن معنى الشرط، متعلق بـ ﴿جَزُوعًا﴾، وجملة ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾ و﴿جَزُوعًا﴾ حال من الضمير في ﴿هَلُوعًا﴾ أو نعت له، أو حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ متعلق بـ ﴿مَنُوعًا﴾، و﴿مَنُوعًا﴾ حال من الضمير في ﴿هَلُوعًا﴾ أو نعت ثان له أو حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ مستثنى من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المراد به الجنس، فهو استثناء متصل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت لـ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿دَآئِمُونَ﴾، و﴿دَآئِمُونَ﴾ خبر ﴿هُمْ﴾، والجملة الاسمية صلة الموصول.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول على كونه نعتا لـ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ خبر مقدم، ﴿حَقٌّ﴾ مبتدأ مؤخّر، و﴿مَّعْلُومٌ﴾ نعت له، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ نعت ثان لـ ﴿حَقٌّ﴾، ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ معطوف على السائل، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول، وجملة ﴿يُصَدِّقُونَ﴾ صلة الموصول ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ متعلق بـ ﴿يُصَدِّقُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف أيضاً على الموصول الأوّل ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿مُّشْفِقُونَ﴾، و﴿مُّشْفِقُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معترضة مسوقة لتعليل الإشفاق، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول أيضاً، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿حَٰفِظُونَ﴾، و﴿حَٰفِظُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ من أعم الأحوال، ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿حَٰفِظُونَ﴾؛ أي: حافظون لفروجهم من المحرمات في جميع الأحوال إلا في حال استمتاعهم بأزواجهم الخ. ﴿أَوْ﴾ حرف

عطف، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾، ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما ملكته أيمانهم. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء تعليلية، ﴿إنّهم﴾ ناصب واسمه، ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الاستثناء.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَمَنِ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حكم هذا الاستثناء، وأردت بيان حكم من ابتغى وراء ذلك فأقول لك: من ابتغى. ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط أو هما، ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، فقد خرجت ﴿وَرَآءَ﴾ عن الظرفية؛ أي: طلب وراء الاستمتاع بالنكاح، أو بملك اليمين. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية وجوباً، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية جواب لـ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مقول لجواب (إذا) المقدرة، وجملة (إذا) المقدرة معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين المتعاطفين. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول أيضاً، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿رَٰعُونَ﴾، ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ معطوف على ﴿أماناتهم﴾، ﴿رَٰعُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول أيضاً، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿قَآئِمُونَ﴾، و﴿قَآئِمُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على الموصول الأول، ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يُحَافِظُونَ﴾، وجملة ﴿يُحَافِظُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ خبر المبتدأ، ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ خبر ثان، ولك أن تعلق ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ بـ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَمَالِ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ،

﴿للذين﴾ جار ومجرور خبر ﴿ما﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول ﴿قِبَلَكَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ أي: متوجهين قبلك أو متعلق بـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾، و﴿مُهْطِعِينَ﴾ حال من الموصول أيضاً؛ أي؛ مسرعين إليك. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ جار ومجرور، حال من الموصول؛ أي: كائنين في جهة يمينك. ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾. وقيل: الجار والمجرور متعلق بـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أو بـ ﴿عِزِينَ﴾، و﴿عِزِينَ﴾ حال من الموصول أيضاً. فالأربعة أحوال من الموصول. وقيل: غير ذلك. ﴿أَيَطْمَعُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ﴿يطمع﴾ فعل مضارع، ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ﴾ فاعل، ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة لـ ﴿ٱمْرِيٍٕ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾ حرف نصب، ﴿يُدْخَلَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة منصوب بـ ﴿أن﴾، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ﴾، ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ مفعول به ثان، منصوب على السعة، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: أيطمع في دخوله جنة نعيم ﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع وزجر عن طمعهم بدخول الجنة ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿خَلَقْنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة خبر ﴿إِنَّا﴾. ﴿مِّمَّا﴾ متعلقان بـ ﴿خَلَقْنَٰهُم﴾. ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَلَآ﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية؛ ﴿لا﴾ زائدة، ﴿أُقْسِمُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله سبحانه، والجملة مستأنفة، ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ متعلق بـ ﴿أُقْسِمُ﴾، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء، و﴿قادرون﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف جر، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿نُّبَدِّلَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾؛ أي: على تبديلنا. الجار والمجرور متعلق بـ ﴿قادرون﴾، ﴿خَيْرًا﴾ مفعول به، ﴿مِّنْهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿خَيْرًا﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿ما﴾ حجازية، ﴿نَحْنُ﴾ اسمها، ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ خبرها، و﴿الباء﴾: زائدة، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نُّبَدِّلَ﴾.

﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنهم لا يفوتوننا، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿ذرهم﴾. ﴿ذر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والهاء: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿يَخُوضُواْ﴾ فعل مضارع، مجزوم بالطلب السابق، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَخُوضُواْ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، ﴿يُلَٰقُواْ﴾ فعل مضارع منصوب بـ(أن) مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارة، و﴿الواو﴾: فاعل، ﴿يَوۡمَهُمُ﴾ مفعول به. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، تقديره: إلى ملاقاتهم يومهم الذي يوعدون، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿ذرهم﴾، ﴿ٱلَّذِي﴾ نعت لـ ﴿يَوۡمَهُمُ﴾، وجملة ﴿يُوعَدُونَ﴾ من الفعل المغيّر، ونائب فاعله صلة الموصول.

﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يَوۡمَ﴾ بدل من ﴿يَوۡمَهُمُ﴾، وجملة ﴿يَخۡرُجُونَ﴾ في محل الجر بإضافة الظرف إليه ﴿مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ متعلق بـ ﴿يَخۡرُجُونَ﴾، ﴿سِرَاعٗا﴾ حال من الواو في ﴿يَخۡرُجُونَ﴾، ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه، ﴿إِلَىٰ نُصُبٖ﴾ متعلق بـ ﴿يُوفِضُونَ﴾، وجملة ﴿يُوفِضُونَ﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر ﴿كأنّ﴾، وجملة ﴿كأنّ﴾ في محل النصب حال ثانية من الواو أيضاً، فتكون مترادفةً أو من الضمير في ﴿سِرَاعٗا﴾، فتكون متداخلة ﴿خَٰشِعَةً﴾ حال من فاعل ﴿يُوفِضُونَ﴾، أو من فاعل ﴿يَخۡرُجُونَ﴾، والأوّل أقرب، ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ فاعل بـ ﴿خَٰشِعَةً﴾، ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة حال ثانية من فاعل ﴿يُوفِضُونَ﴾، ولك أن تجعلها مستأنفة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلۡيَوۡمُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة أو مفسرة لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلَّذِي﴾ صفة لـ ﴿يوم﴾، ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يُوعَدُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة الموصول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ قرىء ﴿سَأَلَ﴾ بهمزة هي عين الفعل، وعليه فقوله: ﴿سَآئِلُۢ﴾ لا

إعلال فيه، اسم فاعل من سأل المهموز. وقرىء ﴿سال﴾ بألف ليّنة وتحتمل أوجهاً:

الأوّل: أن يكون من السؤال كالقراءة بالهمز، لكن الهمزة أبدلت ألفاً على غير القياس، لكنه مسموع عن العرب، ومنه: قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

سَالَتْ هُذَيْلٌ رَسُوْلَ ٱللَّهِ فَاحِشَةً ... ضَلَّتْ هُذَيْلُ بِمَا جَاءَتْ وَلَمْ تُصِبِ

فقوله: سَالَتْ يعني: سألت: ومنه: قول الفرزدق:

رَاحَتْ بِمَسْلَمَةَ البِغَالُ عَشِيَّةً ... فَارْعِيْ فَزَارَةَ لاَ هَنَاكَ المَرْتَعُ

فقوله: لا هنَّاك؛ أي: لا هنأك، فأبدل الشاعران الهمزة في البيتين ألفاً. ومن ذلك قراءة نافع وأبي عمرو البصري ﴿منساته﴾ بألف لينة. وعلى هذا فليس في ﴿سَآئِلٌ﴾ إعلال.

والوجه الثاني: أن الألف فيه مبدلة من واو كالألف في ﴿خاف﴾، وعليه فتكون الهمزة في ﴿سَآئِلٌ﴾ مبدلة من واو كما في خائف.

والوجه الثالث: أن تكون الألف فيه مبدلة من ياء، والأصل: سيل من السيل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح كالألف في كال، وعليه فتكون الهمزة في ﴿سَآئِلٌ﴾ بدلاً من ياء. وفسروه بأنه واد في جهنم اسمه سائل. فالمعنى: سال هذا الوادي الذي في جهنم بعذاب، وعليه فالباء هنا في موضعها، وإذا جعل من السؤال فالباء بمعنى عن.

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾؛ أي: المصاعد، والمعارج: جمع معرج بفتح الميم هنا بمعنى مصعد، وهو موضع الصعود. قال الراغب: العروج: ذهاب في صعود، والمعارج: المصاعد.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ﴾ أصله: يرأيونه، نقلت حركة الهمزة إلى الراء نقلاً مطرداً كما تقدم ثم حذفت للتخفيف، فصار اللفظ: يريونه فقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لما التقت ساكنة مع واو الجماعة. ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ أصله أيضاً: نرأيه فعل بالهمز ما فعل بهمزة ﴿يرونه﴾، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ولم تحذف لعدم التقاء الساكنين. ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ المهل: درديّ الزيت، وهو ما يكون في قعر الإناء منه

لسيلانه على مهل لثخانته، أو خبث الحديد ونحوه مما يذاب على مهل وتدريج. وعن ابن مسعود: كالفضة المذابة في تلونها أو كالقير والقطران في سوادهما.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ ﴿والعهن﴾: الصوف مطلقاً، وقيل: بقيد كونه أحمر، وقيل: بقيد كونه مصبوغاً، وقيل: بقيد كونه مصبوغاً بألوان شتّى اهـ سمين. وهذه الأقوال في معنى ﴿العهن﴾ في اللغة اهـ. ﴿حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ و﴿الحميم﴾: القريب. ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾؛ أي: يبصر الأحماء الأحماء، ويرونهم. ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾؛ أي: يتمنى الكافر، أصله: يودد مضارع ودد بكسر العين. وفي «المصباح»: نقلت حركة الدال إلى الواو، وهذا النقل غير معهود؛ إذ المعهود نقل حركة حرف اللين إلى الساكن الصحيح، وهنا بالعكس. فلما وقع هذا النقل سكنت الدال الأولى، وأدغمت في الثانية. ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ من الافتداء، والافتداء: حفظ الإنسان نفسه عن النائبة بما يبذل عنه. ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ الفصيلة؛ العشيرة، وقال ثعلب: الآباء الأدنون، فهي فعيلة بمعنى مفعولة؛ أي: مفصول منها. ﴿تُـْٔوِيهِ﴾ من أوى إلى كذا: انضم إليه، وآواه غيره، كما قال تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾؛ أي: ضمه إلى نفسه. فمعنى ﴿تُـْٔوِيهِ﴾: تضمه إليها في النسب، أو عند الشدائد، فيلوذ بها.

﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم عن الودادة، وتصريح بامتناع إنجاء الافتداء؛ أي: ليس الأمر كما يتمنى. ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ علم لجهنم، لأنها تتلظى؛ أي: تتلهب على من يصلاها. ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦﴾ يقال: نزع الشيء: جذبه من مقره وقلعه. والشوى: جمع شواة، وهي جلدة الرأس، وفيه إعلال بالقلب، أصله: الشوي قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ أوعى فيه إعلال بالقلب، أصله: أوعي بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿هَلُوعًا﴾ قال في «الصحاح»: الهلع في اللغة: أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه، يقال: هلع بالكسر من باب فرح، فهو هلع وهلوع على التكثير، والهلوع مبالغة هالع. وقال عكرمة: هو الضجور، وقيل غير ذلك، فالهلوع والجزوع والمنوع كل من الثلاثة صيغة مبالغة؛ لأنها على زنة فعول كضروب بمعنى: كثير الضرب. ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ أصله: المصليين بياءين، الأولى لام الكلمة والثانية ياء الجمع، حذفت حركة الياء الأولى للتخفيف، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ الأصل: داومون بالواو، أبدلت الواو همزة في الوصف حملاً له على فعله «دام» في الإعلال، فأصل دام

دوم، أعِلّ بقلب الواو ألفاً فحمل عليه الوصف فأعل بقلب الواو همزة. ﴿حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ﴾ والسائل: هو الذي يسأل ويظهر الفقر. ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ هو الذي لا يسأل إما حياء أو توكلا على الله، فيظن أنه غني فيحرم. ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ جمع فرج من الانفراج، وهو الفتحة، وفرج الرجل والمرأة سوءتهما؛ أي: قبلهما. ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ جمع ملوم، اسم مفعول من لام الثلاثي، وأصله: ملوومين نقلت حركة الواو إلى اللام فسكنت فالتقى ساكنان فحذفت واو مفعول على الصحيح. ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ جمع عاد من العدوان، يقال: عدا عليه إذا تجاوز في الظلم. ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين نحوك مادّي أعناقهم مقبلين بأبصارهم عليك، فهو من الكلمات التي يحتاج في تفسيرها إلى جمل. وفي «القاموس»: هطع كمنع هطعاً وهطوعاً: أسرع مقبلاً خائفاً، وأقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه، وهطع: مد عنقه وصوب رأسه كاستهطع وكأمير الطريق الواسع وكمحسن من ينظر في ذل وخضوع لا يقلع بصره، أو الساكت المنطلق إلى من هتف به، وبعير مهطع في عنقه: تصويبٌ خلقةً، وقد تقدم شرح هذه المادة في سورة إبراهيم.

﴿عِزِينَ﴾ جمع عزة. قال أبو عبيدة: جماعات في تفرقة، وقيل: الجمع اليسير كثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة. وقال الأصمعي: في الدار عزون؛ أي: أصناف من الناس. وعزين: جمع عزةٍ، والهاء فيه عوض عن لام الكلمة التي قيل: إنها واو، يقال: عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره، وقيل: إنها ياء يقال: عزيته بالياء أعزيه بمعنى: عزوته. وقيل: إنها هاء، والأصل: عزهة. والقولان الأولان أولى من الثالث، وعليه فلام الكلمة محذوفة، والياء الموجودة ياء الجمع، لأن هذا اللفظ من الألفاظ الملحقة بالجمع المذكر السالم، فوزنه: فعين. ﴿يَخُوضُواْ﴾ أصله: يخوضوا بوزن يفعلوا، نقلت حركة الواو إلى الخاء فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد. ﴿يُلَٰقُواْ﴾ أصله: يلاقيوا، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فسكنت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضمت القاف لمناسبة الواو، فوزنه: يفاعوا. ﴿نُصُبٍ﴾ تقدم القول فيه مفصلاً، ونضيف إليه هنا أنه قرىء ﴿نصب﴾ بالفتح والإسكان، وقراءتنا بضمّتين، وقرىء بفتحتين، وقرىء بضم فسكون، فالأول اسم مفرد بمعنى العلم المنصوب الذي يسرع الشخص نحوه. وقال أبو عمرو: هو شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته. وأما الثانية فتحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه اسم مفرد بمعنى الصنم المنصوب للعبادة.

والثاني: أنه جمع نصاب ككتب وكتاب.

والثالث: أنه جمع نصب كرهن في رهن وسقف في سقف، وجمع الجمع: أنصاب. وأما الثالثة ففعل بمعنى مفعول؛ أي: منصوب كالقبض بمعنى المقبوض، والرابعة تخفيف من الثانية. ﴿يُوفِضُونَ﴾ من الإيفاض، وهو الإسراع.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ وقوله: ﴿تَعْرُجُ﴾ و﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾.

ومنها: إيراد صيغة تدل على الماضي في قوله: ﴿وَاقِعٍ﴾ دون سيوقع، للدلالة على تحقق وقوعه إمّا في الدنيا كما في يوم بدر، وإمّا في الآخرة وهو عذاب النار.

ومنها: فن التمثيل والتشبيه في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾، فهذا من التمثيل، فليس المراد حقيقة ذلك العدد، بل المراد الإشارة إلى أنه يبدو وللكافر طويلاً لما يلقاه خلاله من الهول والشدائد، فلا تنافي مع آية السجدة ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. والعرب تصف أيام الشدة بالطول، وأيام الفرح بالقصر. قال الشاعر:

فَقِصَارُهُنَّ مَعَ ٱلْهُمُومِ طَوِيْلَةٌ ... وَطِوَالُهُنَّ مَعَ ٱلسُّرُوْرِ قِصَارُ

أو من باب التشبيه البليغ، والأصل كمقدار مدة خمسين ألف سنة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾، فالروح هو جبريل، أفرده بالذكر إظهاراً لشرفه وفضله.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ لحذف وجه الشبه، ووجه الشبه فيه التلون، وكذلك قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾، ووجه الشبه في هذا التطاير والتناثر. وقد رمق أبو العلاء هذه السماء العالية من البلاغة، إذ قال في رثاء أبيه:

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَخِفُّ وَقَارُهُ إذَا صارَ أُحْدٌ في ٱلْقِيامَةِ كَالعِهْن

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿بَعِيدًا﴾ و﴿قَرِيبًا﴾ وبين ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿الشمال﴾ وبين ﴿ٱلْمَشَرِقِ﴾ و﴿المغارب﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ إفادة للتعميم.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص في قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾، جاء بالتعميم في قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد التخصيص فيما قبله لبيان هول الموقف.

ومنها: إيراد لفظ ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تغليباً للعاقل على غيره.

ومنها: المجاز العقليّ في قوله: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾، فهو مجاز عن إحضارهم كأنها تدعوهم فتحضرهم، أو من مجاز الحذف؛ أي: تدعو زبانيتها، فهو على حذف مضاف، أو من الإسناد المجازي حيث أسند فعل الداعي إلى المدعوّ له.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾، قابله بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

ومنها: تقديم لفظ ﴿هم﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إفادة لتقوية الحكم، وتقريره في ذهن السامع كما في قولك: هو يعطي الجزيل قصداً إلى تحقيق أنّه يفعل إعطاء الجزيل.

ومنها: الطباق بين السائل والمحروم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

ومنها: التعبير عن سوءتي الرجل والمرأة؛ أي: قبلهما بلفظ الفروج في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾﴾، تعليماً للأدب في الكلام وأدب المرء خير من ذهبه.

ومنها: التعبير بـ﴿ما﴾ في قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الولائد إجراءً لهن لمملوكيتهن مجرى غير العقلاء، أو لأنوثتهن المنبئة عن القصور كما مرّ.

ومنها: تكرير الصلاة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ اهتماماً بشأنها وتنويهاً بفضلها، وفيه أيضاً تصدير الجملة بالضمير تقويةً للحكم وتقريراً له

في ذهن السامع.

ومنها: تقديم الجار والمجرور على الفعل إفادة للاختصاص الدال على أن محافظتهم مقصورة على صلاتهم، لا تجاوز إلى أمور دنياهم.

ومنها: فعلية الخبر، فتفيد الجملة الاسمية الدوام والاستمرار. وتفيد الجملة الفعلية التجدد مع الاستمرار. وهذا نمط عجيب انفرد به كتاب الله تعالى.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخيّ في قوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾.

ومنها: إيراد لفظ ﴿كُلُّ﴾ في قوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ﴾ إشعاراً بأن من آمن منهم بعد قولهم هذا، وأطاع الله ورسوله حق له الطمع، وتعميماً للردع لكل منهم كائناً من كان ممن لم يؤمن.

ومنها: تنكير ﴿جَنَّةَ﴾ إشعاراً بأنهم مردودون من كل جنة، وإن كانت الجنان كثيرة.

ومنها: توصيفها بنعيم إشعاراً بأن كل جنة مملوءة بالنعمة، وأن من طرد من راحة النعيم، وقع في كدر الجحيم، كما مرّ جميع ذلك.

ومنها: الكناية الفائقة الرائقة في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾، فإنّه كناية عن المنيّ القذر مع النزاهة التامّة في التعبير، وحسن الإيقاظ والتذكير بألطف عبارة وأبلغ إشارة.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، وفي هذا التشبيه تهجين لحالهم الجاهلية، وتهكّم بهم بذكر جهالتهم التي اعتادوها من الإسراع إلى ما لا يملك نفعاً ولا ضرًّا، وتعريض بسخافة عقولهم، وتسجيل عليهم بالجهل المشين، حيث أسرعوا إلى عبادة من لا يستحق العبادة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

خلاصة ما حوته السورة الكريمة من أغراض ومقاصد

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

(١) وصف يوم القيامة وأهواله.

(٢) وصف النار وعذابها.

(٣) صفات الإنسان التي أوجبت له الجحيم، وكيف يجتهد لإزالة ما به من النقص حتى يرتقي إلى المعارج، ويخرج من عالم المادّة.

(٤) وعيد الكافرين على ما يلاقونه في ذلك اليوم الرهيب من الأهوال العجيبة[١].

والله أعلم

* * *

---

(١) تم الفراغ من تفسير هذه السورة قبيل المغرب من اليوم الثاني عشر من شهر الربيع الأول من شهور سنة ١٤١٦/٣/١٢ هـ ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيّين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين، آمين يا ربّ العالمين.

سورة نوح عليه السلام

سورة نوح عليه السلام مكيّة، نزلت بعد سورة النحل. وأخرج ابن الضريس والنحاس، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت سورة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ بمكة.

وآياتها[1]: سبع أو ثمان وعشرون آية. وكلماتها: مئتان وأربع وعشرون كلمة. وحروفها: تسع مئة وتسعة وتسعون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها[2]:

١ـ أنّه قال في السورة السابقة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١﴾ وذكر هنا قصة نوح المشتملة على إغراقهم. إلا من قد آمن، وإبدالهم بمن هو خير منهم، فكأنَّها وقعت موقع الاستدلال على تلك الدعوى.

٢ ـ تواخي مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعود به الكفار.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها[3]: أنه تعالى لما أقسم على أن يبدل خيراً منهم، وكانوا قد سخروا من المؤمنين، وكذَّبوا بما وعدوا به من العذاب ذكر قصة نوح وقومه معه، وكانوا أشد تمرداً من المشركين، فأخذهم الله أخذ استئصال حتى إنه لم يبق لهم نسلاً على وجه الأرض، وكانوا عباد أصنام كمشركي مكة، فحذَّر تعالى قريشاً أن يصيبهم عذاب يستأصلهم إن لم يؤمنوا.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم: سورة نوح كلها محكم، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وسميت سورة نوح لذكر قصة نوح فيها.

والله أعلم

* * *

---

(١) البيضاوي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝٢٤ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ۝٢٥ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۝٢٨﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والسورة التي قبلها، وأخبر سبحانه في بداية هذه السورة أنه أرسل نوحاً إلى قومه، وأمره أن ينذرهم بأسه قبل حلوله بهم، فقال نوح: يا قوم إني لكم نذير، فعليكم أن تعبدوا الله وحده وتطيعوه، فإن فعلتم ذلك.. غفر لكم ذنوبكم، ومد في أعماركم، ودرأ عنكم العذاب، وأمر الله إذا جاء لا يرد ولا يدفع، فهو العظيم الذي قهر كل شيء العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما

قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن نوحاً أمر أن ينذر قومه قبل أن يحل بهم بأس ربهم وعظيم بطشه، وأنه لبى نداءه، فأنذرهم وأمرهم بتقواه وطاعته ليغفر ذنوبهم ويمد في أعمارهم.. أردف ذلك بمناجاته لربه وشكواه إليه أنه أنذرهم بما أمره به، فعصوه وردوا عليه ما آتاهم به من عنده، ولم يزدهم دعاؤه، إلا إدباراً عنه وهرباً منه، وأنه كان يدعوهم تارةً جهرةً وتارة سرّاً، وأمرهم أن يطلبوا من ربهم مغفرة ذنوبهم ليرسل المطر عليهم، ويمدهم بالأموال والبنين، ويجعل لهم الجنات والأنهار. ثم نبههم إلى عظمته تعالى وواسع قدرته، ولفت أنظارهم إلى خلقه تعالى لهم أطواراً. وخلقه للسموات طباقاً، وجعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً، وجعل الأرض كالبساط، يتنقلون فيها من واد إلى واد، ومن قطر إلى قطر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها[1]: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر فيما سبق إنذار نوح قومه.. أخبر هنا عن نوح أنه أعلم ربه العليم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرّة أنه مع ما استعمله من الوسائل، والأساليب المختلفة المشتملة على الترغيب طوراً، والترهيب طوراً آخر.. كذّبوه وعصوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر ربه ومتع بمال وولد، وقالوا: لا نترك آلهتنا التي عبدناها نحن وآباؤنا من قبل، ولا عجب فقد أضلت الأصنام خلقاً كثيراً، فدعا عليهم: رب اخذل هؤلاء القوم الظالمين ولا تزد هم إلا ضلالاً.

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟...﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر مقالة نوح، وشكواه إليه.. أردفه بما جازاهم به من الغرق والعذاب، وأنهم لم يجدوا من يدفعهما عنهم. ثم أخبر بدعاء نوح على قومه، وعلل هذا بأنهم يضلون الناس، وأنهم لو نسلوا لم يلدوا إلا الكفرة الفجرة. ثم دعا لنفسه ولوالديه ولمن دخل سفينته من المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة، ودعا على قومه بالتبار والهلاك.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ وبعثنا ﴿نُوحًا﴾ بالتوحيد والشرائع والأحكام ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ جميع

---

(١) المراغي.

أهل الأرض من الآدميّين أهل عصره. وروى[1] قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أوّل نبيّ أرسل نوح عليه السلام، وأرسل إلى جميع أهل الأرض، ولذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً». قال ابن عباس: وأرسل نوح وهو ابن أربعين سنة. وقال عبد الله بن شدّاد: وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة. وقال وهب: وهو ابن خمسين سنة اهـ خطيب. وقوله في الحديث: «أول نبي أرسل نوح» لعل المراد منه أنه أول نبي أرسل بالنهي عن عبادة غير الله؛ لأن عبادة غيره إنما حدثت في زمن نوح، وإلاّ فمن المعلوم أن قبله رسلاً آدم وشيث وإدريس اهـ شيخنا.

وفي «الشهاب»: ونوح أطول الأنبياء عمراً بل أطول الناس، وهو أوّل من شرعت له الشرائع، وأوّل رسول أنذر من الشرك وأهلكت أمته.

والمعنى[2]: أنّه أوّل من أرسل إلى من يعبد الأصنام، لأنّ عبادة الأصنام أوّل ما حدثت في قومه، وأرسله الله إليهم ينهاهم عن ذلك. وكان أكثر أهل الأرض في زمانه أولاد قابيل، وهم أوّل من عبدوا الأصنام، وأمّا آدم فأرسله الله سبحانه إلى أولاده بالإيمان وتعليم شرائعه، وكذا شيث وإدريس كلّ منهما أرسل إلى أولاده بالتوحيد والشرائع. وأمّا أولاد قابيل وكانوا أكثر أهل الأرض وعبدوا الأصنام، فأرسل الله إليهم نوحاً، فكانت رسالته عامّة لجميع أهل الأرض من أهل عصره.

فإن قلت: إذا كانت رسالة نوح عامّة لجميع أهل الأرض كانت مساويةً لرسالة نبيّنا محمد ﷺ؟

قلت: رسالة نوح عليه السلام عامّة لجميع أهل الأرض في زمنه، ورسالة نبيّنا محمد ﷺ عامّة لجميع من في زمنه، ومن يوجد بعد زمنه إلى يوم القيامة، فلا مساواة.

وهو[3] نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدريس بن برد بن مهلائيل بن أنوش بن فينان بن شيث بن آدم عليه السلام. ويقال له: شيخ المرسلين، وآدم الثاني. ونوح لقبه، واسمه عبد الغفّار، لقب به لكثرة نوحه على

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

نفسه أو على الناس بالدعوة إلى التوحيد، أو هو اسم سريانيّ معناه: الساكن؛ لأنّ الأرض طهرت به عن خبث الكفّار، سكنت إليه. وهو أوّل من أوتي الشريعة في قول، وأوّل أولي العزم من الرسل على قول الأكثرين، وأوّل نذير على الشرك، وكان قومه يعبدون الأصنام، وأوّل من عذَّبَتْ أمته.

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾؛ أي: بأن خوف قومك عن عبادة غير الله تعالى، فتكون ﴿أَنْ﴾ مصدرية، ويجوز أن تكون هي المفسرة؛ لأن في الإرسال معنى القول؛ أي: أنذر قومك. وقرأ ابن مسعود ﴿أنذر﴾ بدون أن، وذلك على تقدير القول؛ أي: فقلنا له: أنذرهم من قبل أن يأتيهم عذاب أليم؛ أي: خوّفهم بالنار على عبادة الأصنام كي ينتهوا عن الشرك ويؤمنوا بالله وحده.

والحاصل[1]: أن ﴿أَنْ﴾ على قراءة الجمهور يجوز أن تكون مفسرة لما في الإرسال من معنى القول كما مرّ آنفاً، ويجوز أن تكون مصدرية حذف منها الجار وأوصل إليها الفعل؛ أي: بأن أنذرهم، وجعلت صلتها أمراً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ لأنَّ مدار وصلها بصيغ الأفعال دلالتها على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبريّة والإنشائية ووجوب كون الصلة خبريّة في الموصول الاسميّ إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمل، وهي لا توصف إلا بالجمل الخبريّة، وليس الموصول الحرفي كذلك، وحيث استوى الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر استويا في صحة الوصل بها، فيتجرد عند ذلك كل منهما عن المعنى الخاص بصيغته، فيبقى الحدث المجرد عن معنى الأمر والنهي والمضيّ والاستقبال، كأنّه قيل: أرسلناه بالإنذار كذا في «الإرشاد».

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ من الله تعالى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عذاب شديد عاجل كالطوفان والغرق، أو آجل كعذاب الآخرة، لئلا يبقى لهم عذر ما أصلا، كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾. و﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى المؤلم أو المتألم مبالغة، والألم إمّا جسمانيّ وإما روحانيّ، والثاني أشدّ.

وجملة قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال

(١) روح البيان.

مقدر، كأنّه قيل: فماذا قال نوح؟ فقال: قال نوح لهم: يا قوم؛ أي: يا قومي. خاطبهم بإظهار الشفقة عليهم وإرادة الخير لهم وتطييباً لهم. ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾؛ أي: منذر مخوّف من عاقبة الكفر والمعاصي. وأفرد الإنذار بالذكر مع كونه بشيراً أيضاً؛ لأن الإنذار أقوى في تأثير الدعوة، لما أن أكثر الناس يطيعون أوّلاً بالخوف من القهر، وثانياً بالطمع في العطاء، وأقلهم يطيعون بالمحبة للكمال والجمال.

يقول الفقير: الظاهر[1] أن الإنذار أول الأمر، كما قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، والتبشير ثاني الأمر كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فالإنذار يتعلق بالكافرين، والتبشير يتعلق بالمؤمنين، وإن أمكن تبشير الكفّار بشرط الإيمان لا في حال الكفر، فإنهم في حال الكفر إنما يستحقون التبشير التهكمي كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿مُّبِينٌ﴾ موضح لحقيقة الأمر بلغة تعرفونها، أو بين الإنذار، أو مبين لما فيه نجاتكم.

والمعنى[2]: أي إنا أرسلنا نوحاً رسولاً إلى قومه، وقلنا له أنذرهم بأس الله وعذابه قبل أن يغرقهم الطوفان. ثم أخبر بأنه لما أمره بذلك امتثل الأمر فقال لقومه: يا قومي إني أنذركم عذاب الله فاحذروا أن ينزل بكم على كفركم به.

ثم فصّل ما أنذرهم به، فذكر ثلاثة أشياء:

١ - ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: آمركم بعبادة الله وحده. وهو متعلق بـ﴿نَذِيرٌ﴾، فـ﴿أَنْ﴾ هي المفسرة لـ﴿نَذِيرٌ﴾ أو هي المصدرية. والأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب والجوارح.

٢ - ﴿وَاتَّقُوهُ﴾؛ أي: وآمركم بتقواه وخوف عذابه بأن تتركوا محارمه وتجتنبوا مآثمه. والأمر بالتقوى يتناول الزجر عن جميع المحظورت والمكروهات.

٣ - ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: وانتهوا، إلى ما آمركم به، واقبلوا نصيحتي لكم. والأمر بالطاعة يتناول أمرهم بطاعته في جميع المأمورات والمنهيّات والاعتقاديّات والعمليّات. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: في أخلاقي وصفاتي

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وأفعالي وأعمالي وأقوالي وأحوالي انتهى. وهذا وإن كان داخلاً في الأمر بعبادة الله وتقواه إلا أنه خصه بالذكر تأكيداً في ذلك التكليف ومبالغة في تقريره.

قال بعضهم: وأصله[1]: وأطيعوني بالياء، ولم يقل: وأطيعوه بالهاء مع مناسبته لما قبله. يعني: أسند الإطاعة إلى نفسه لما أنّ إطاعة الرسول إطاعة الله كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾. فإذا كانوا مأمورين بإطاعة الرسول، فكان للرسول أن يقول: وأطيعون، وأيضا أنّ الإجابة كانت تقع له في الظاهر.

ولما كلفهم بهذه الأشياء الثلاثة وعدهم عليها بشيئين، فقال:

١ - ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم﴾ جواب الأمر ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾؛ أي: بعض ذنوبكم. وهو ما سلف في الجاهلية، فإنّ الإسلام يجب ما قبله لا ما تأخر عن الإسلام. فإنه يؤاخذ به، ولا يكون مغفوراً بسبب الإيمان، ولذلك لم يقل: يغفر لكم ذنوبكم بطيّ من التبعيضيّة، فإنه يعم مغفرة جميع الذنوب ما تقدم منها وما تأخّر. وقيل: المراد ببعض الذنوب بعض ما سبق على الإيمان، وهو ما لا يتعلق بحقوق العباد.

أي: إذا فعلتم[2] ما أمركم به وصدّقتم ما أرسلت به إليكم، غفر لكم ذنوبكم، وسامحكم فيما فرط منكم من الزلاّت. وفي هذا وعد لهم بإزالة مضارّ الآخرة عنهم وأمنهم من مخاوفها.

٢ - ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ﴾ بالحفظ من العقوبات المهلكة كالقتل والإغراق والإحراق ونحوها من أسباب الهلاك والاستئصال، وكان اعتقادهم أنَّ من أهلك بسبب من هذه الأسباب لم يمت بأجله، فخاطبهم على المعقول عندهم. فليس يريد أنّ الإيمان يزيد في آجالهم، كذا في بعض التفاسير. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ أي: معيّن مقدر عند الله. والأجل: المدّة المضروبة للشيء. قال في «الإرشاد»: وهو الأمد الأقصى الذي قدّره الله لهم بشرط الإيمان والطاعة. وهذا صريح في أنّ لهم أجلاً آخر لا يجاوزنه إن لم يؤمنوا به، وهو المراد بقوله الآتي: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

والمعنى: أي ويمدّ في أعماركم إلى الأمد الأقصى الذي قدّره الله إذا آمنوا وأطاعوا وراء ما قدّره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان. واستدل العلماء بهذه الآية على أن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة، كما جاء في الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر». ولا ريب أن التقوى والطاعة تؤثر هذا الأثر؛ إذ طهارة الأرواح ونقاء الأشباح تطيل العمر، فبها يحفظ الأمن وتكتب الفضائل وتجتلب المنافع المادّية.

والخلاصة[١]: أنَّ الأجل أجلان على ما قاله الزمخشري، وعبارته: فقد قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسع مئة سنة. فقيل لهم: آمنوا يؤخّر إلى أجل مسمّى، أي: إلى وقت سمّاه الله وضربه أمداً تنتهون إليه، وهو الوقت الأطول، وهو تمام الألف اهـ.

ثم أخبر أنّه إذا جاء ذلك الأجل الأقرب المشروط ببقائهم على الكفر لا يؤخر، فقال: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ وهو[٢] ما قدّر لكم على تقدير بقائكم على الكفر، وهو الأجل القريب المعلق غير المبرم، بخلاف الأجل المسمى فإنه البعيد المبرم. وأضيف الأجل هنا إلى الله؛ لأنّه المقدر والخالق أسبابه، وأسند إلى العباد في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ لأنهم المبتلون المصابون. ﴿إِذَا جَآءَ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتى لا يتحقق شرطه الذي هو بقاؤكم على الكفر، فلا يجيء، ويتحقق شرط التأخير إلى الأجل المسمى، فتؤخّروا إليه. فالمحكوم عليه بالتأخير هو الأجل المشروط بشرط الإيمان والطاعة، والمحكوم عليه بامتناعه هو الأجل المشروط بشرط البقاء على الكفر، فلا تناقض لانعدام وحدة الشرط. ويجوز أن يراد به وقت إتيان العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فإنه أجل مؤقّت له حتماً. قيل[٣]: المعنى: أنّ أجل الله وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان. وقيل: المعنى إذا جاء الموت لا يؤخّر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب.

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: شيئاً من العلم لسارعتم إلى ما أمركم به أو لعلمتم أنّ أجل الله إذا جاء لا تأخير فيه ولا إمهال. وفيه إشارة إلى أنّهم ضيّعوا أسباب

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

العلم وآلات تحصيله بتوغلهم في حب الدنيا، وطلب لذّاتهم حتى بلغوا بذلك إلى حيث صاروا كأنّهم شاكّون في الموت.

وقيل: المراد بأجل الله في قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ الأجل الأطول.

والمعنى عليه: أي إنّ أجل الله الذي كتبه على خلقه في أمّ الكتاب إذا جاء لا يؤخّر عن ميقاته لو كنتم من أهل العلم، لكنّكم لستم من أهله، ولذا لم تسارعوا إلى العمل بما أمركم به. وفي قوله: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ زجر لهم عن حبّ الدنيا والتهالك عليها والإعراض عن أوامر الدين ونواهيه، وكأنّهم قد بلغ بهم الأمر إلى أنّهم شاكّون في الموت.

﴿قَالَ﴾ أي: نوح مناجياً لربّه وحاكياً له، وهو أعلم بحال ما جرى بينه وبين قومه من القيل والقال في تلك المدد الطوال بعد ما بذل في الدعوة غاية المجهود، وجاوز في الإنذار كل حد معهود، وضاقت عليه الحيل، وعيت به العلل. ﴿رَبِّ﴾ أي: يا ربّي ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ أي: في الليل والنهار؛ أي: دائماً من غير فتور ولا توان، فهما ظرفان لدعوت، أراد بهما الدوام على الدعوة؛ لأنّ الزمان منحصر فيهما، وكان يأتي باب أحدهم ليلاً فيقرع الباب، فيقول صاحب البيت: من على الباب؟ فيقول: أنا نوح، قل: لا إله إلا الله. ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ مما دعوتهم إليه، وتباعداً عنه. فالاستثناء فيه مفرغ، فالمستثنى منه مقدر؛ أي: فلم يزدهم دعائي شيئاً من أحوالهم التي كانوا عليها إلا فراراً؛ أي: بعداً وإعراضاً عن الإيمان، كأنّهم حمر مستنفرة اهـ خطيب.

وفي «التأويلات النجمية»: إلاّ فراراً من متابعتي وديني، وما أنا عليه من آثار وحيك. وهو مفعول ثان لقولهم: ﴿لم يزدهم﴾، لأنّه يتعدّى إلى مفعولين يقال: زاده الله خيراً، والاستثناء مفرّغ. وإسناد[1] الزيادة إلى الدعاء مع أنها فعل الله تعالى لسببيته لها.

والمعنى: أنّ الله يزيد القرار عند الدعوة بصرف المدعو اختياره إليه. قرأ

---

(١) روح البيان.

الجمهور[1] ﴿دعائي﴾ بفتح الياء. وقرأ الكوفيّون ويعقوب والدوري عن أبي عمرو بإسكانها.

والمعنى[2]: أي قال نوح عليه السلام: ربّ إنّي أنذرت قومي ولم أترك دعاءهم ليلاً ولا نهاراً امتثالاً لأمرك، وكلّما دعوتهم ليقتربوا من الحق فرّوا منه وحادوا عنه.

ثم أخبر عن أحوال أخرى لهم، تدل على الفظاظة وجفاء الطبع، فقال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾؛ أي: إلى الإيمان. وفي «التأويلات النجمية»: كلّما دعوتهم بلسان الأمر مجرّداً عن انضام الإرادة الموجبة لوقوع المأمور، فإن الأمر إذا كان مجرّداً عن الإرادة لا يجب أن يقع المأمور به، بخلاف ما إذا كان مقروناً بالإرادة، فإنه لا بد حينئذٍ من وقوع المأمور به؛ أي: كلّما دعوتهم إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بك والطاعة ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببه ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا صوتي؛ أي: سدّوا مسامعهم من استماع الدعوة. فالجعل المذكور كناية عن هذا السدّ، ولا مانع من الحمل على حقيقته بأن يدخلوا أصابعهم في ثقب آذانهم قصداً إلى عدم الاستماع. ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾؛ أي:[3] غطّوا بها وجوههم؛ لئلا يروني، فإن المبطل يكره رؤية المحق للتضادّ الواقع بينهما. وقيل: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سدّ الآذان. وقيل: هو كناية عن العداوة، يقال: لبس فلان ثياب العداوة، والاستغشاء مأخوذ من الغشاء، وهو الغطاء. وفي الأصل اشتمال من فوق، ولما كان فيه معنى الستر استعمل بمعناه، وأصل الاستغشاء طلب الغشي؛ أي: الستر، ولكن معنى الطلب هنا ليس بمقصود بل هو بمعنى التغطي والستر، وإنّما جيء بصيغته التي هي السين للمبالغة، والثياب جمع ثوب سمّي به لثوب الغزل؛ أي: رجوعه إلى الحالة التي قدر لها. والمعنى: وبالغوا في التغطّي بثيابهم كأنهم طلبوا منها أن تغشاهم؛ أي: جميع أجزاء بدنهم آلة الإبصار وغيرها، لئلا يبصروه كراهة النظر إليه. ﴿وَأَصَرُّواْ﴾؛ أي: أكبّوا وأقاموا واستمروا على الكفر والمعاصي، ولم يقلعوا عنه، ولا تابوا منه. ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن قبول الحق وعن امتثال ما أمرهم به؛ أي: تعظموا

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

عن طاعتي واتباعي، وأخذتهم العزة في ذلك. ﴿اَسۡتِكۡبَارٗا﴾ شديداً، لأنهم قالوا: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾.

والمعنى: أي وإنّي كلّما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانيتك والعمل بطاعتك، والبراءة من عبادة كلّ ما سواك لتغفر لهم ذنوبهم سدّوا مسامعهم حتى لا يسمعوا دعائي، وتغطوا بثيابهم كراهة النظر إليّ، وأكبّوا على الكفر والمعاصي، وتعاظموا عن الإذعان للحق وقبول ما دعوتهم إليه من النصح.

ثم بين أنه ما ترك وسيلة في الدعوة إلا فعلها، قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ﴾ دعوة ﴿جِهَارٗا﴾؛ أي: بأعلى صوتي. والجهر: ظهور الشيء بإفراط لحاسة البصر أو حاسة السمع؛ أي: رفعت صوتي لهم بالدعوة رفعاً بليغاً بحيث يسمعه القريب والبعيد. ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ﴾ وأظهرت ﴿لَهُمۡ﴾ الدعوة مجتمعين ﴿وَأَسۡرَرۡتُ﴾ أي: أخفيت ﴿لَهُمۡ﴾ الدعوة منفردين ﴿إِسۡرَارٗا﴾؛ أي: إخفاء بحيث لا يسمعها غير المدعوّ.

وفي هذا إشارة إلى ذكر عموم الحالات بعد ذكر عموم الأوقات؛ أي: دعوتهم تارة بعد تارة ومرّة غبّ مرّة على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة. و﴿ثمّ﴾ لتفاوت الوجوه، فإنّ الجهر أشد من الإسرار، والجمع بينهما أغلظ من الإفراد. والإعلان ضدّ الإسرار، يقال: أسررت إلى فلان حديثاً: أفضيت به إليه في خفية؛ أي: من غير اطلاع أحد عليه. وجهرت به أظهرته بحيث اطلع عليه الغير. ويجوز أن يكون ﴿ثمّ﴾ لتراخي بعض الوجوه عن بعض بحسب الزمان بأن ابتدأ بمناصحتهم ودعوتهم في السرّ، فعاملوه بالأمور الأربعة، وهي: الجعل والتغطي والإصرار والاستكبار. ثمّ ثنى بالمجاهرة بعد ذلك، فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار؛ أي: خلط دعاءه بالعلانية بدعاء السرّ، فكما كلمهم جميعاً كلمهم واحداً واحداً سرّاً. فالجهر: النداء بالدعوة ورفع الصوت بها بلا دخول مجمعهم، والإعلان: إظهار الدعوة في مجامعهم، والإسرار: الدعوة لكل واحد منهم فرداً فرداً خفية بحيث لا يسمعه الغير.

وفي بعض التفاسير: أنّ نوحاً عليه السلام[1] لما آذوه بحيث لا يوصف حتى

---

(١) روح البيان.

كانوا يضربونه في اليوم مرّات عيل صبره، فسأل الله أن يواريه عن أبصارهم بحيث يسمعون كلامه، ولا يرونه فينالوه بمكروه، ففعل الله ذلك به، فدعاهم كذلك زماناً فلم يؤمنوا، فسأل الله أن يعيده إلى ما كان. وهو قوله: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

والمعنى[1]: أي ثم إني كنت أسر لهم بالدعوة تارةً، وأجهر لهم بها تارة أخرى، وطوراً كنت أجمع بين الإعلان والإسرار.

والخلاصة: أنّه عليه السلام لم يترك سبيلاً للدعوة إلا فعلها، فاستعمل طرقا ثلاثةً:

١ ـ بدأهم بالمناصحة في السر، فعاملوه بما ذكر في الآية السابقة من سدّ الآذان، والاستغشاء بالثياب والإصرار على الكفر والاستعظام عن سماع الدعوة.

٢ ـ جاهرهم بالدعوة، وأعلنهم على وجه ظاهر لا خفاء فيه.

٣ ـ جمع بين الإعلان والإسرار.

ثم بين ما كان يقول لهم، فقال: ﴿فَقُلْتُ﴾ لهم عقيب الدعوة، عطف على قوله: ﴿دَعَوْتُ﴾. ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾؛ أي: اطلبوا المغفرة منه لأنفسكم بالتوبة عن الكفر والمعاصي قبل الفوت بالموت.

والمعنى: أي فقلت لهم: سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم وعبادة ما سواه من الآلهة، ووحّدوه، وأخلصوا له العبادة.

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين بجعل ذنوبهم كأن لم تكن. والمراد[2] من كونه غفاراً في الأزل كونه مريداً للمغفرة في وقتها المقدّر، وهو وقت وجود المغفور له. والغفّار أبلغ من الغفور، وهو من الغافر، وأصل الغفر: الستر والتغطية، ومنه قيل لجنة الرأس: مغفر، لأنه يستر الرأس. والمغفرة من الله: ستره للذنوب وعفوه عنها بفضله ورحمته، لا بتوبة العباد وطاعتهم. وإنما التوبة والطاعة للعبودية وعرض الافتقار.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى: أي إنه تعالى كان غفاراً لذنوب من أناب إليه وتاب منها متى صدقت العزيمة، وخلصت النيّة وصحت التوبة فضلاً منه وجوداً وإن كانت كزبد البحر.

ولما كان الإنسان مجبولاً على محبّة الخيرات العاجلة، كما قال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ لا جرم أعلمهم أنّ إيمانهم بالله يجمع لهم إلى الحّظ الأوفر من الآخرة الخصب والغنى وكثرة الأولاد في الدنيا، ومن ثم وعدهم بخمسة أشياء:

١ - ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي: ينزل الله سبحانه المطر، كما قال الشاعر:

إِذَا نَزَلَ ٱلسَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ فَحُلُّوا حَيْثُمَا نَزَلَ ٱلسَّمَاءُ

وقال بعضهم؛ أي: ماء السماء، فحذف المضاف. ﴿عَلَيْكُم﴾ يا قومي حال كونه ﴿مِّدْرَارًا﴾؛ أي: كثير الدُّرور؛ أي: السيلان والانصباب. وفي الإرسال مبالغة بالنسبة إلى الإنزال، وكذا المدرار صيغة مبالغة، ومفعال مما يستوي فيه المذكّر والمؤنّث كقولهم: رجل أو امرأة معطار، ولذلك لم يؤنّثه مع كون السماء مؤنّثاً معنوياً. و﴿يُرْسِلِ﴾ جواب شرط محذوف؛ أي: إن تستغفروا يرسل السماء، وفي قول النحاة في مثله جواب الأمر، وهو ههنا استغفروا تسامح في العبارة اعتماداً على وضوح المراد، وكسر اللام في الوصل لالتقاء الساكنين.

كأن قوم نوح تعللوا وقالوا[1]: إن كنا على الحق فكيف نتركه؟ وإن كنا على الباطل فكيف يقيلنا بعد ما عكفنا عليه دهراً طويلاً؟. فأمرهم الله تعالى بما يمحق ما سلف منهم من المعاصي ويجلب عليهم المنافع، وهو الاستغفار، ولذلك وعدهم بالعوائد العاجلة التي هي أوقع في قلوبهم من المغفرة وأحب إليهم؛ إذ النفس حريصة بحب العاجل، ولذلك جعلها جواب الأمر بأن قال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ إلخ، دون المغفرة بأن قال: ﴿ويغفر لكم﴾ ليرغبوا فيها، ويشاهدوا أن أثرها وبركتها ما يقاس عليه المغفرة، فالاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات، كما أن المعصية سبب لخراب العالم بظهور أسباب القهر الإلهي. وقيل: لما كذّبوه بعد

---

(١) روح البيان.

تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام النساء أربعين سنة، وقيل: سبعين سنة. فوعدهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخصب، ويدفع عنهم ما كانوا فيه.

يقول الفقير: هذا القول هو الموافق للحكمة؛ لأنَّ الله تعالى يبتلي عباده بالخير والشر ليرجعوا إليه، ألا ترى إلى قريش حيث إنّ الله جعل لهم سبع سنين كسني يوسف بدعاء النبي ﷺ. . ليرجعوا عما كانوا عليه من الشرك، فلم يرفعوا له رأساً.

والمعنى[1]: أي يرسل المطر عليكم متتابعاً، فتزرعون ما تحبون، ويكثر الخصب والغلات النافعة لكم في معاشكم من حبوب وثمار، وتحدث لكم طمأنينة وأمن وراحة لتوافر ما تشتهون مما هو سبب السعادة والهدى.

٢ ـ ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ﴾؛ أي: ويكثر لكم الأموال والخيرات على سائر ضروبها واختلاف ألوانها.

٣ ـ ﴿وَبَنِينَ﴾؛ أي: ويكثر لكم الأولاد. فقد ثبت لدى علماء الاجتماع أن النسل لا يكثر في أمة إلا إذا استتب فيها الأمن، وارتفع منها الظلم، وساد العدل بين الأفراد، وتوافرت لهم وسائل الرزق.

٤ ـ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين ذوات أشجار وثمار؛ أي: ويوجد لكم بساتين عامرة تأخذون من ثمارها ما به تنتفعون، ولم يطمع الناس في الفاكهة إلا إذا وجدت لديهم الأقوات وكثرت الغلات.

٥ ـ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَارًا﴾ جارية بها يكثر الخصب والزرع بمختلف ألوانه وأشكاله، لا جرم أن الأمة الكثيرة البساتين والمزارع يعمها الرخاء وتسعد في حياتها الدنيوية، وتزينها بالنبات، وتحفظها عن اليبس، وتفرح القلوب وتسقي النفوس.

وكان الظاهر[2] تقديم الجنات والأنهار على الإمداد لكونهما من توابع الإرسال، وإنما أخرهما لرعاية رأس الآية، وللإشعار بأن كلا منهما نعمة الهبة على حدة. وعن الحسن البصريّ: إن رجلاً شكا إليه الجدب، فقال له: استغفر الله،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وشكا إليه آخر الفقر وقلة النسل، فقال له: استغفر الله، وشكا إليه ثالث جفاف بساتينه، فقال له: استغفر لله. فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فقال: ما قلت من نفسي شيئاً إنما اعتبرت قول الله عزّ وجلّ حكاية عن نبيّه نوح عليه السلام أنّه قال لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ الآية.

وبعد[1] أن أدبهم الأدب الخلقي بطلبه منهم تهذيب نفوسهم واتباعهم مكارم الأخلاق.. شرع يؤدِّبهم الأدب العلمي بدراسة التشريح وعلم النفس ودراسة أحوال العوالم العلوية والسفليّة، فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾، إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله تعالى وقاراً على أن الرجاء بمعنى الاعتقاد. والوقار: العظمة. و﴿مَّا﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي في محل الرفع مبتدأ، و﴿لَكُمْ﴾ خبرها، و﴿لَا تَرْجُونَ﴾ حال من ضمير المخاطبين، والعامل فيها معنى الاستقرار في ﴿لَكُمْ﴾، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿وَقَارًا﴾، ولو تأخر لكان صفة له.

والمعنى: أيُّ سبب حصل لكم واستقر حال كونكم غير معتقدين لله عظمةً موجبةً لتعظيمه بالإيمان والطاعة له؟ أي: لا سبب لكم في هذا مع تحقق مضمون الجملة الحالية. ومن[2] استعمال الرجاء بمعنى الخوف قول الهذيل: إذا لسعته النحل لم يرج لسعها. وقال سعيد بن جبير، وأبو العالية، وعطاء بن أبي رباح: ما لكم ترجون لله ثواباً، ولا تخافون منه عقاباً. وقال مجاهد والضحاك: ما لكم لا تبالون لله عظمةً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما لكم لا تخشون منه عقاباً، ولا ترجون منه ثواباً بتوقيركم إيّاه.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ في محل النصب على الحال من الجلالة؛ أي: والحال أنه سبحانه وتعالى قد خلقكم على أطوار مختلفة وصفات متفاوتة وحالات متنوّعة. والطور في اللغة: المرة، وقال ابن الأنباري: الطور: الحال، ويقال: فعل كذا طوراً بعد طور أي: تارة بعد تارة.

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

والمعنى[1]: والحال أنكم على حالة منافية لما أنتم عليه بالكلية، وهي أنكم تعلمون أنه تعالى خلقكم وقدركم تارات؛ أي: مرّات حالاً بعد حال عناصر ثمّ أغذيةً ثم أخلاطاً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم أنشأكم خلقاً آخر. فإنّ التقصير في توقير مَنْ هذه شؤونه في القدرة القاهرة الإحسان التامّ مع العلم بها مما لا يكاد يصدر عن العاقل.

وقال بعضهم[2]: هي إشارة إلى الأطوار السبعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾. فهذه التارات والأحوال السبع المترتّب بعضها على بعض كلّ تارة أشرف مما قبلها، وحال الإنسان فيها أحسن مما تقدمها. وقيل: خلقكم صبياناً وشبّاناً وشيوخاً. وقيل: طوالاً وقصاراً، وأقوياء وضعفاء مختلفين في الخلق والخلق. وقيل غير ذلك.

والخلاصة[3]: أي ما لكم لا تخافون عظمة الله وقد خلقكم على أطوار مختلفة، فكنتم نطفة في الأرحام ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم كسا عظامكم لحماً ثم أنشأكم خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. وقد ذكرت هذه الأطوار في سور كثيرة كسورة آل عمران وسورة المؤمنين وغيرهما.

وبعد أن ذكر النظر في الأنفس أتبعه بالنظر في العالم العلويّ والسفليّ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ يا قومي. والاستفهام للتقرير، والرؤية بمعنى العلم، لعلهم علموا ذلك بالسماع من أهله، أو بمعنى الإبصار، والمراد مشاهدة عجائب الصنع الدال على كمال العلم والقدرة. ﴿كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ حال كونها ﴿طِبَاقًا﴾؛ أي: متطابقاً، أي: بعضها فوق بعض ملتزقة الأطراف، كما سبق في سورة المُلك. ومعنى ﴿طِبَاقًا﴾؛ أي: بعضها فوق بعض كلّ سماء مطبّقة على الأخرى كالقباب. قال الحسن: خلق الله سبع سموات على سبع أرضين، بين كلّ سماء وسماء وأرض وأرض خلق وأمر، وقد تقدم تحقيق هذا في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

وانتصاب[1] ﴿طِبَاقًا﴾ على المصدرية، تقول: طابقه مطابقة وطباقاً أو على الحالية من سبع سموات لتخصّصه بالإضافة؛ أي: ذات طباق، فحذفت ذات وأقام طباقاً مقامه. وأجاز الفرّاء في غير القرآن جرّه على النعت.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾؛ أي: في السموات السبع. ونسبته[2] إلى الكل مع أنّه في السماء الدنيا؛ لأنّ كل واحدة من السموات شفّافة لا يحجب ما وراءها، فيرى الكل كأنها سماء واحدة، ومن ضرورة ذلك أن يكون ما في واحدة منها كأنّه في الكل على أنه ذهب ابن عباس وابن عمرو ووهب بن منبه رضي الله عنهم إلى أن الشمس والقمر النجوم وجوهها مما يلي السماء وظهورها مما يلي الأرض، وهو الذي يقتضيه لفظ السراج؛ لأنّ ارتفاع نوره في طرف العلو، ولولا ذلك.. لأحرقت جميع ما في الأرض بشدّة حرارتها، فجعلها الله نوراً وسراجاً لأهل الأرض والسموات. فعلى هذا ينبغي أن يكون تقدير ما بعده وجعل الشمس فيهنّ سراجاً على أنّه حذف لدلالة الأول عليه. ﴿نُورًا﴾ أي: منوّراً وجه الأرض في ظلمة الليل. ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ﴾ هي في السماء الرابعة، وقيل: في الخامسة. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: في الشتاء في الرابعة، وفي الصيف في السابعة. ولو أضاءت من الرابعة أو من السماء الدنيا لم يطق لها شيء، وهذا غريب جدّاً. ﴿سِرَاجًا﴾ من باب[3] التشبيه البليغ؛ أي: كالسراج والمصباح يزيل ظلمة الليل عند الفجر، ويبصر أهل الدنيا في ضوئها الأرض ويشاهدون الآفاق كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره، وليس القمر بهذه المثابة إنما هو نور في الجملة.

والمعنى[4]: أي ألم تروا كيف خلق السموات متطابقة بعضها فوق بعض، وجعل للقمر بروجاً ومنازل، وفاوت نوره فجعله يزداد حيناً حتى يتناهى ثم يبتدىء ينقص حتى يستتر ليدل ذلك على مضيّ الشهور والأعوام، وجعل الشمس كالسراج يزيل ظلمة الليل. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾؛ أي: إنباتاً عجيباً، وأنشأكم منها إنشاء غريباً بواسطة إنشاء أبيكم آدم منها، أو أنشأ الكل منها من حيث إنّه خلقهم من النطف المتولدة عن النبات المتولد من الأرض، استعير الإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكون من الأرض؛ لأنهم إذا كانوا نباتاً كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات.

ووضع[1] ﴿نَبَاتًا﴾ موضوع إنباتاً على أنه مصدر مؤكّد لأنبتكم بحذف الزوائد، ويسمّى اسم مصدر، دل عليه القرينة الآتية، وهي قوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾. وقال بعضهم: ﴿نَبَاتًا﴾ حال لا مصدر، ونبّه بذلك على أن الإنسان من وجه نبات من حيث إنّ بدأه ونشأته من التراب، وأنه ينمو نموّه، ويلدون ويموتون، وأيديهم وأرجلهم كأفرع النبات، وعروقهم المتشعبة في الجسم والتي يجري فيها الدم، وينتشر في الأطراف تشبه ما في الشجر، وأحوالهم مختلفة كأحوال النبات، فمنه: الحلو المرّ والطيّب والخبيث، واستعدادهم مختلف كاستعداد النبات. فلكلّ امرىء خاصّة كما أنّ لكلّ نوع من النبات خاصّةً، وإن كان له وصف زائد على النبات. والنبات: ما يخرج من الأرض، سواء كان له ساق كالشجر، أو لم يكن له كالنجم، لكن اختص في التعارف بما لا ساق له، بل اختصّ عند العامّة بما يأكله الحيوان.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأرض بالدفن عند موتكم. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿إِخْرَاجًا﴾ محققاً لا ريب، وذلك لمجازاة الأولياء ومحاسبة الأعداء، ولم يقل: ثم يخرجكم بل ذكر بالواو الجامعة إيّاها مع ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ رمزاً إلى أن الإخراج مع الإعادة في القبر كشيء واحد، لا يجوز أن يكون بعضها محقّق الوقوع دون بعض.

والمعنى: أي ثم يعيدكم في الأرض كما كنتم تراباً، ويخرجكم متى شاء أحياء كما كنتم بشراً.

---

(١) روح البيان.

ثم أخذ يعدّد النعم التي أعدّها للإنسان في الأرض، وذكر أنّ الأرض مهيّأة مسخّرةً لأمره كتسخير البساط للرجل يتقلّب عليه كما يشاء، ويظهر مواهبه لاستخراج ما في بطنها من المعادن المختلفة وخيراتها المتنوّعة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ كرّر الاسم الجليل للتعظيم والتيمّن به والتبرّك. ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ أي: لمنافعكم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ سبق بيانها في سورة الملك وغيرها. ﴿بِسَاطًا﴾؛ أي: مبسوطة متسعة كالبساط والفراش، تتقلّبون عليها تقلّبكم على بسطكم في بيوتكم.

قال أبو حيان: ظاهره أن الأرض ليست كروية بل هي مبسوطة. قال سعدي المفتي: وإنما هو في التقلب على ما فسروه انتهى. وقد مرّ مراراً أن كروية الأرض لا تنافي الحرث والغرس ونحوهما لعظم دائرتها كما يظهر الفرق بين بيضة الحمامة وبيضة النعامة.

﴿لِتَسْلُكُواْ﴾ من السلوك، وهو الدخول لا من السلك، وهو الإدخال. ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الأرض ﴿سُبُلًا﴾ جمع سبيل؛ أي: طرقاً ﴿فِجَاجًا﴾؛ أي: واسعة. جمع فجّ، وهو الطريق الواسع، فجرد هنا لمعنى الواسع فجعل صفة لـ ﴿سُبُلًا﴾. وقيل: هو المسلك بين الجبلين. و﴿مِن﴾ متعلقة بما قبلها لما فيه من معنى الاتخاذ؛ أي: لتسلكوا متخذّين من الأرض سبلا، فتصرفوا فيها ذهاباً وإياباً أو بمضمر هو حال من ﴿سُبُلًا﴾؛ أي: سبلاً كائنة من الأرض، ولو تأخّر.. لكان صفة لها، ثم جعلها بساطاً للسلوك المذكور لا ينافي غيره من الوجوه كالنوم والاستراحة والحرث والغرس ونحوها، ثم السلوك إمّا جسماني بالحركة الأينية الموصلة إلى المقصد، وإما روحاني بالحركة الكيفية الموصلة إلى المقصود، ولكل منهما فوائد جليلة كطلب العلم والحج والتجارة وغيرها وكتحصيل المحبة والمعرفة والأنس ونحوها.

والمعنى: أي والله بسط لكم الأرض، ومهدها، وثبتها بالجبال الراسيات، ثم بين حكمة هذا فقال: ﴿لِتَسْلُكُواْ مِنْهَا﴾؛ أي: لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها المختلفة. وقصارى ما سلف: أن نوحاً عليه السلام أمر قومه بالنظر في علوم الأنفس والآفاق من معدن ونبات وحيوان وإنسان وسماء وأرض وشموس وأقمار.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربه. فهو بدل من

﴿قَالَ﴾ الأوّل، ولذا ترك العطف. وفي «فتح الرحمن»: قاله هنا بلا واو، وقاله فيما بعد بواو، لأنَّ الأول استئناف والثاني معطوف عليه انتهى؛ أي: قال مناجياً له تعالى: ﴿رَبِّ﴾؛ أي: يا ربي ويا معبودي ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾؛ أي: داموا على عصياني ومخالفتي فيما أمرتهم به مع ما بالغت في إرشادهم بالعظة والتذكير. ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: استمروا على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم، وصارت تلك الأموال والأولاد سبباً لزيادة خسارتهم في الآخرة، فصاروا أسوة لهم في الخسار. وفي وصفهم بذلك إشعارٌ بأنهم إنما اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد، لما شاهدوا من شبهة مصححة للاتباع، كما قالت قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، فجعلوا الغنى سبباً مصححاً للاتباع.

ودل الكلام[1] على أن ازدياد المال والولد كثيراً ما يكون سبباً للهلاك الروحانيّ، ويورث الضلال في الدين أوّلاً والإضلال عن اليقين ثانياً. قال ابن الشيخ: المفهوم من نظم الآية أنّ أموالهم وأولادهم عين الخسار، وأن ازديادهما إنما ازدياد خسارهم، والأمر في الحقيقة كذلك، فإنهما وإن كانا من جملة المنافع المؤدّية إلى السعادة الأبدية بالشكر عليهما وصرفهما إلى وجوه الخير، إلا أنهما إذا أديا إلى البطر والاغترار وكفران حق المنعم بهما، وصارا وسيلتين إلى العذاب المؤبّد في الآخرة صارا كأنّهما محض الخسار؛ لأن الدنيا في جنب الآخرة كالعدم، فمن انتفع بهما في الدنيا خسر سعادة الآخرة، وصار كمن أكل لقمةً مسمومةً من الحلوى، فهلك، فإنّ تلك اللقمة في حقه هلاك محض؛ إذ لا عبرة لانتفاعه بها في جنب ما أدّت إليه.

﴿وَمَكَرُوا﴾ عطف على صلة ﴿مَن﴾، لأنّ المكر الكبار يليق بكبرائهم، والجمع باعتبار معناها. ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾؛ أي: مكراً كبيراً عظيماً في الغاية. والمكر: الحيلة الخفيّة. وقرىء ﴿كباراً﴾ بالتخفيف كما سيأتي، وهو أبلغ من الكبير نحو: طوّال وطوال وطويل. ومعنى مكرهم الكبار: احتيالهم في منع الناس عن الدين وتحريشهم لهم على أذيّة نوح عليه السلام. قال الشيخ: لمّا كان التوحيد أعظم المراتب كان

---

(١) روح البيان.

المنع منه: والأمر بالشرك أعظم الكبائر، فلذا وصفه الله تعالى بكونه مكراً كبّاراً.

وقرأ ابن الزبير[1] والحسن، والنخعيّ، والأعرج، ومجاهد، والأخوان الكسائي وحمزة، وابن كثير، وأبو عمرو، ونافع في رواية خارجة ﴿وولده﴾ بضمّ الواو وسكون اللام. وقرأ السلميّ والحسن أيضاً، وأبو رجاء، وابن وثّاب، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع، وعاصم، وابن عامر بفتحهما، وهما لغتان كبخل وبخل. وقرأ الحسن أيضاً، والجحدري، وقتادة، وزرّ، وطلحة وابن أبي إسحاق، وأبو عمرو في رواية بكسر الواو وسكون اللام. وقال أبو حاتم: يمكن أن يكون الولد بالضمّ جمع الولد كخشب وخشب، وقد قال حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

يَا بَكْرَ آمَنِةَ ٱلْمُبَارَكِ بِكْرُهَا ... مِنْ وُلْدِ مُحْصَنَةٍ بِسَعْدِ ٱلأَسْعَدِ

وقرأ الجمهور[2]: ﴿كُبَّارًا﴾ بتشديد الباء، وهو بناء فيه مبالغة كثيرة. قال عيسى بن عمر: هي لغة يمانيّة، ويقال: حسان وطوال وجمال. وقرأ عيسى، وابن محيصن، وأبو السمال بتخفيف الباء وهو بناء مبالغة. وقرأ زيد بن عليّ وابن محيصن فيما روى عنه أبو الأخيرط وهب بن واضح ﴿كِبَارا﴾ بكسر الكاف وفتح الباء. وقال ابن الأنباري: هو جمع كبير كأنه جعل مكراً مكان ذنوب أو أفاعيل انتهى. يعني: فلذلك وصفه بالجمع.

والمعنى: أي قال نوح: ربّ إنهم عصوني فيما أمرتهم به، وأنكروا ما دعوتهم إليه، واتبعوا رؤساءهم الذين بطروا بأموالهم واغتروا بأولادهم. فكان ذلك زيادة في خسرانهم وخروجاً عن محجة الصواب وبعداً من رحمة الله تعالى، ومكروا مكراً كبيراً، فاحتالوا في الدين، وصدوا الناس عنه بأساليب شتى، وأغروهم بأذى نوح عليه السلام.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: الرؤساء للأتباع والسفلة: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ أي: لا تتركوا عبادة آلهتكم، وتعبدوا رب نوح عليه السلام. ومن عطف ﴿مكروا﴾ على ﴿اتبعوا﴾ يقول: معنى ﴿وَقَالُوا۟﴾: وقال بعضهم لبعض، فالقائل ليس هو الجمع. وآلهتهم هي الأصنام والصور التي كانت لهم ثم عبدتها العرب من بعدهم، وبهذا قال الجمهور.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

ثم فصل تلك الآلهة بقوله: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ جرَّد[1] الأخيرين عن حرف النفي؛ إذ بلغ التأكيد نهايته، وعلم أن القصد إلى كل فرد فرد لا إلى المجموع من حيث هو مجموع، والمعنى: ولا تذرن عبادة هؤلاء خصوصاً، فهو من عطف الخاص على العام خصوصاً بالذكر مع اندراجها فيما سبق؛ لأنّها كانت أكبر أصنامهم وأعظم ما عندهم.

قال محمد بن كعب[2]: هذه أسماء قوم صالحين، كانوا بين آدم ونوح، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صورتم صورهم.. كان أنشط لكم وأسوق إلى العبادة، ففعلوا. ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس: إنّ الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم. فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء؛ لأنهم صوروها على صورة أولئك القوم الصالحين.

وقد انتقلت[3] هذه الأصنام بأعيانها عنهم إلى العرب، فكان ود لكلب بدومة الجندل بضم دال دومة، ولذلك سمت العرب بعبد ودٍّ. قال الراغب: الود: صنم سمي بذلك إما لمودتهم له أو لاعتقادهم أن بينه وبين الباريء تعالى مودّة، تعالى الله عن ذلك. وكان سواع لهمدان بسكون الميم قبيلة باليمن، ويغوث لمذ حجٍ كمجلس بالذال المعجمة، وآخره جيم، ومنه: كانت العرب تسمى عبد يوث. ويعوق لمراد، وهو كغراب أبو قبيلة، سمّي به لأنّه تمرّد. ونسر لحمير بكسر الحاء وسكون الميم بوزن درهم، موضع غربيّ صنعاء اليمن.

وقيل: انتقلت أسماؤها إليهم فاتخذوا أمثالها، فعبدوها إذ يبعد بقاء أعيان تلك الأصنام، كيف وقد خربت الدنيا في زمان الطوفان، ولم يضعها نوح في السفينة؛ لأنّه بعث لنفيها. وجوابه: أنّ الطوفان دفنها في ساحل جدة فلم تزل مدفونة حتى أخرجها اللعين لمشركي العرب. نظيره: ما روي أنَّ آدم عليه السلام كتب اللغات المختلفة في طين وطبخه، فلما أصاب الأرض الغرق بقي مدفوناً، ثم وجد كل قوم كتاباً فكتبوه، فأصاب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي. وقيل: هي أسماء قوم رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح. وقيل: من أولاد آدم، ماتوا

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

فحزن الناس عليهم حزناً شديداً، واجتمعوا حول قبورهم لا يكادون يفارقونها، وذلك بأرض بابل، فلما رأى إبليس فعلهم ذلك جاء إليهم في صورة إنسان، وقال لهم: هل لكم أن أصور لكم صورهم إذا نظرتم إليها ذكرتموهم واستأنستم وتبركتم بهم؟ قالوا: نعم. فصور لهم صورهم من صفر ونحاس ورصاص وخشب وحجر، وسمى تلك الصور بأسمائهم. ثم لما تقادم الزمن وانقرضت الآباء والأبناء وأبناء الأبناء قال لمن حدث بعدهم: إن من قبلكم كانوا يعبدون هذه الصور، فعبدوها في زمان مهلاييل بن فينان، ثم صارت سنة في العرب في الجاهلية.

وذلك إمّا بإخراج الشيطان اللعين تلك الصور كما سبق أو بأنه كان لعمرو بن لحي، وهو أول من نصب الأوثان في الكعبة فقال له تابع من الجن: اذهب إلى جدة وائت منها بالآلهة التي كانت تعبد في زمن نوح وإدريس، وهي ود إلخ. فذهب وأتى بها إلى مكة، ودعا إلى عبادتها، فانتشرت عبادة الأوثان في العرب. وعاش عمرو بن لحي ثلاث مئة وأربعين سنة، ورأى من ولده وولد ولد ولده ألف مقاتل، ومكث هو وولده في ولاية البيت خمس مئة سنة، ثم انتقلت الولاية إلى قريش، فمكثوا فيها خمس مئة أخرى، فكان البيت بيت الأصنام ألف سنة.

وفي «التكملة»: روى تقيُّ بن مخلد: أن هذه الأسماء المذكورة في هذه السورة كانوا أبناء آدم عليه السلام من صلبه، وأن يغوث كان أكبرهم، وهي أسماء سريانية. ثم رفعت تلك الأسماء إلى أهل الهند، فسموا بها أصنامهم التي زعموا أنها على صور الدراري السبعة، وكانت الجن تكلمهم من جوفها، فاقتدوا بها. ثم أدخلها إلى أرض العرب عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس بن مضر، فمن قبله سرت إلى أرض العرب. وقيل: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، وهو طائر عظيم، لأنّه ينسر الشيء ويقتلعه.

وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة بخلاف عنهم[1]: ﴿ودّا﴾ بضمّ الواو، والحسن والأعمش وطلحة، وباقي السبعة بفتحها. وقرأ الجمهور ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ بغير تنوين، فإن كانا عربيّين فمنع الصرف للعلمية ووزن الفعل، وإن كانا عجميّين

---

(١) البحر المحيط.

فللعجمة والعلمية. وقرأ الأشهب ﴿ولا يغوثا ويعوقا﴾ بتنوينهما. قال «صاحب اللوامح»: جعلهما فعولاً فلذلك صرفهما، وكذلك الأعمش صرفهما. وقال ابن عطية: وذلك وهم، والأولى حمله على التناسب؛ أي: صرفا لمناسبة ما قبلهما وما بعدهما، كما قالوا في صرف سلاسلاً وأغلالاً وقوارير كما سيأتي.

وأخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت هذه الأوثان في العرب بعد. فكان: ود لكلب. وسواع لهذيل، ويغوث لغطيف بالجرف عند سبأ، ويعوق لهمدان، ونسر لحمير آل ذي الكلاع.

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين[1]: اللات لثقيف بالطائف، العزّى لسليم وغطفان وجشم، ومناة لخزاعة بقديد، وإساف لأهل مكة، ونائلة لهم أيضاً، وهبل لهم أيضاً، وهو أكبر الأصنام وأعظمها عندهم، ومن ثم كان يوضع فوق الكعبة. وليس المراد أن أعيان هذه الأصنام صارت إليهم بل المراد أنهم أخذوا هذه الأسماء، وسموا بها أصنامهم.

وجملة قوله: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ﴾ حال[2] من فاعل ﴿قالوا﴾؛ أي: قال الرؤساء للأتباع: لا تذرون آلهتكم، والحال أنهم قد أضلوا ﴿كَثِيرٗاۖ﴾ من الناس بدعوتهم إلى الشرك. وقيل: الضمير راجع إلى الأصنام؛ أي: قد أضل الأصنام كثيراً من الناس؛ أي: ضل بسببها كثير من الناس، نظير قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾، وأجرى عليها ضمير جمع العقلاء لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل.

وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ﴾ يا ربّ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالإشراك؛ لأن الشرك ظلم عظيم، فأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فهل شيء أسوأ من وضع أخس المخلوق وعبادته موضع الخالق وعبادته؟ ووضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم. ﴿إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ وبعداً وطرداً من رحمتك، معطوف على ﴿رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾؛ أي: قال ربّ إنهم عصوني، وقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾. ومعنى ﴿إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ أي: عذاباً، وقيل: إلا خسراناً، وقيل: إلا فتنة بالمال والولد، وقيل:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

إلا ضياعاً وهلاكاً في تمشية مكرهم وترويجه مصالح دنياهم لا في أمر دينهم حتى لا يتوجه أنه إنما بعث ليصرفهم عن الضلال، فكيف يليق به أن يدعو الله عليهم في أن يزيد ضلالهم؛ وأنّ هذا الدعاء يتضمن الرضا بكفرهم، وذلك لا يجوز في حقّ الأنبياء، وإن كان يمكن أن يجاب بأنه بعد ما أوحي إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأنّ المحذور هو الرضا المقرون باستحسان الكفر. ونظيره: دعاء موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾. قالوا: دعا نوح الأبناء بعد الآباء حتى بلغوا سبعة قرون، فلمّا أيس من إيمانهم دعا عليهم. فيكون المعنى: ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً وغيًّا ليزدادوا عقاباً.

والمعنى: أي ولا تزد الظالمين لكفرهم بآياتك إلا ضلالاً وطبعاً على قلوبهم حتى لا يهتدوا إلى حقّ، ولا يصلوا إلى رشد. وقصارى ما قاله عليه السلام: أن دعا عليهم بالخذلان، وأن دعا لنفسه بالنصر وظهور دينه كما جاء في قوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾؛ أي:[1] من أجل خطيئات قوم نوح وأعمالهم المخالفة للصواب، وهي الكفر والمعاصي. و﴿ما﴾ مزيدة بين الجار والمجرور لتأكيد الحصر المستفاد من تقديم قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾، فإنه يدل على أنَّ إغراقهم بالطوفان لم يكن إلا من أجل خطيئاتهم تكذيباً لقول المنجمين من أن ذلك كان لاقتضاء الأوضاع الفلكية إياه، ونحو ذلك. فإنه كفر لكونه مخالفاً لصريح هذه الآية. ولزيادة ﴿ما﴾ الإبهامية فائدة غير التأكيد، وهي تفخيم خطيئاتهم؛ أي: من أجل خطيئاتهم العظيمة، ومن لم ير زيادتها جعلها نكرة، وجعل ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ بدلاً منها. والخطيئات: جمع خطيئة. وقرأ أبو عمرو ﴿خطاياهم﴾ بلفظ الكثرة، لأنّ المقام مقام تكثير خطيئاتهم؛ لأنهم كفروا ألف سنة. والخطيئات لكونه جمع السلامة لا يطلق على ما فوق العشرة إلا بالقرينة. والظاهر من كلام الرضيّ: أن كلا من جمع السلامة والتكسير لمطلق الجمع من غير نظر إلى القلة والكثرة فيصلحان لهما، ولذا قيل: إنهما مشتركان بينهما، واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾.

أي: من أجل خطيئاتهم وأعمالهم الخبيثة لا لما يقوله المنجمون من اقتضاء

---

(١) روح البيان.

الأوضاع الفلكية كثرة الماء ﴿أُغْرِقُواْ﴾ في الدنيا بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُواْ﴾ عقب ذلك ﴿نَارًا﴾ عظيمة هائلة. وفي هذا زجر لمرتكب الخطايا مطلقاً. وعبّر عن المستقبل بالماضي لتحقّقه. والمراد[1] إما عذاب القبر، فهو عقب الإغراق وإن كانوا في الماء، فإن من مات في ماء أو نار أو أكلته السباع أو الطير أصابه ما يصيب المقبور من العذاب. وعن الضحاك: أنهم كانوا يغرقون من جانب؛ أي: بالأبدان، ويحرقون من جانب؛ أي: بالأرواح. فجمعوا بين الماء والنار، كما قال الشاعر:

الـخَـلْـقُ مُـجـتَـمِـعٌ طَـوْراً ومُـفْـتَـرِقٌ وَٱلْـحَـادِثَـاتُ فُـنُـونٌ ذَاتُ أَطْـوَارِ

لا تَـعْـجَـبَـنَّ لأضْـدَادٍ إِذَا اجْـتَـمَـعَـتْ فَـالله يَـجْـمَـعُ بَـيْـنَ ٱلْـمَـاءِ وَٱلْـنَّـارِ

أو عذاب جهنم والتعقيب لتنزيله منزلة المتعقب لإغراقهم لاقترابه وتحقّقه لا محالة واتصال زمانه كما دل عليه قوله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته». على أنَّ النار إما نصف نار، وهي للأرواح في البرزخ، وإما تمام نار وهي للأرواح والأجسام جميعاً بعد الحشر. وقس على الجحيم النعيم.

﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم﴾؛ أي: لأنفسهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾؛ أي: لم يجد أحد منهم لنفسه واحداً من الأنصار ينصرهم على من أخذهم بالقهر والانتقام. وفيه[2] تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله، وبأنها غير قادرة على نصرهم، وتهكّم بهم. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حال متقدّمة من قوله: ﴿نَارًا﴾، والجملة الاستئنافية أعني قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾ إلى هنا من كلام الله سبحانه إشعاراً بإجابة دعوة نوح، وتسلية للرسول ﷺ وأصحابه، وتخويفاً للعاصي من العذاب وأسبابه.

والمعنى: أي من أجل معاصيهم وذنوبهم أغرقهم الله بالطوفان، وسيعذّبهم في قبورهم، ولا يجدون من آلهتهم أنصاراً ولا أعواناً يدفعون عنهم ما كتب عليهم، وبذا ضل سعيهم وخاب فألهم.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ جمعاً بالألف والتاء مهموزاً، وأبو رجاء كذلك، إلاّ أنه أبدل الهمزة ياءً وأدغم فيها ياء المد. والجحدري وعبيد عن أبي عمرو على الإفراد مهموزاً، والحسن وعيسى والأعرج بخلاف عنهم، وأبو عمرو

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

﴿خطاياهم﴾ جمع تكسير. وقرأ عبد الله ﴿من خطيئاتهم ما أغرقوا﴾ بزيادة ما بين ﴿أُغۡرِقُواْ﴾ و﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾. وقرأ الجمهور ﴿أُغۡرِقُواْ﴾ بالهمزة، وزيد بن عليّ ﴿غُرِّقُوا﴾ بالتشديد، وكلاهما للنقل.

﴿وَقَالَ نُوحٞ﴾ عليه السلام بعد ما قنط من اهتدائهم قنوطاً تامّا بالأمارات الغالبة وبأخبار الله تعالى: ﴿رَّبِّ﴾ أي: يا مالكي ﴿لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لا تترك على الأرض ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لك وبما جاء من عندك. حال متقدمة من قوله: ﴿دَيَّارًا﴾ أي: أحداً يدور في الأرض، فيذهب ويجيء. أي: فأهلكهم بالاستئصال. والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾، وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ اعتراض، وسّط بين دعائه عليه السلام للإيذان من أوّل الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيئاتهم التي عددها نوح.

وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع بن أنس وابن زيد وعطية[1]: إنّما قال هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم، وأعقم أرحام النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنةً، وقيل: بأربعين سنةً. قال قتادة: لم يكن فيهم صبيّ وقت العذاب. وقال الحسن وأبو العالية: لو أهلك الله أطفالهم معهم.. كان عذاباً من الله لهم وعدلاً فيهم، ولكن أهلك ذريتهم وأطفالهم بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب. و﴿دَيَّارًا﴾ من الأسماء المستعملة[2] في النفي العامّ، وهو فيعال من الدوران، فمعناه على هذا: لا تترك أحداً يدور في الأرض فيذهب ويجيء، أو من الدار فمعناه عليه: لا تذر أحداً ممن ينزل الدار ويسكنها، وأنكر بعضهم كونه من الدوران، وقال: لو كان من الدوران.. لم يبق على وجه الأرض جني ولا شيطان، وليس المعنى على ذلك، وإنما المعنى: أهلك كل ساكن دار من الكفّار، أي: كل إنسي منهم.

يقول الفقير: جوابه سهل فإن المراد كل من يدور على الأرض من أمة الدعوة، وليس الجن والشيطان منها؛ إذ لم يكن نوح مبعوثاً إلى الثقلين. وليس ﴿دَيَّارًا﴾ فعالاً من الدار وإلا قيل: دوّار، لأن أصل دار دور، فقلبت واوه ألفاً فلما ضعّفت عينه كان دواراً بالواو الصحيحة المشدّدة؛ إذ لا وجه لقلبها ألفاً.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

والمعنى: أي وقال نوح: ربّ لا تدع على وجه الأرض منهم أحداً إلا أهلكته.

ثم بين علة هذا الدعاء بشيئين:

١ ـ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾؛ أي: إن تتركهم على الأرض كلًّا أو بعضاً ولم تهلكهم ﴿يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ الذين آمنوا بك عن طريق الحقّ. روي: أنّه كان الرجل منهم ينطلق بابنه إلى نوح، فيقول له: احذر هذا، فإنّه كذّاب وإنّ أبي حذّر بنيه وأوصاني بمثل هذه الوصيّة، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك. وهذا بيان لوجه دعائه عليهم وإظهار بأنه كان من الغيرة في الدين، لا لغلبة غضب النفس لهواها.

٢ ـ ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا﴾ يترك طاعتك ﴿كَفَّارًا﴾؛ أي: كثير الكفران لنعمتك. والمعنى: إلا من سيفجر ويكفر، فالوجه ارتفاعهم عن وجه الأرض، والعلم لك. فوصفهم بما يصيرون إليه بعد البلوغ، فهو من مجاز الأول، وكأنه اعتفارٌ مما عسى يرد عليه من أنّ الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن منكر، وإنما قاله بالوحي لقوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ قال بعضهم: لا يلد الحيّة إلا الحيّة، وذلك في الأغلب. ومن هناك قيل: إذا طاب أصل للمرء طابت فروعه، ونحوه: الولد سرّ أبيه. قال بعضهم في توجيهه: إن الولد إذا كبر إنما يتعلم من أوصاف أبيه، أو يسرق من طباعه بل قد يصحب المرء رجلاً، فيسرق من طباعه الخير والشرّ.

واعلم: أنه لا يجوز أن يدعى على كافر معيّن؛ لأنّا لا نعلم خاتمته. ويجوز على الكفار والفجار مطلقاً، وقد دعا عليه السلام على من تحزب على المؤمنين. وهذا هو الأصل في الدعاء على الكافرين.

ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه، ووالديه والمؤمنين، فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ذنوبي، وهي ما صدر منه من ترك الأولى. ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ ذنوبهما، وكانا[١] مسلمين على ملّة إدريس عليه السلام، وأبوه: لامك بن متوشلخ بصيغ اسم

(١) روح البيان.

الفاعل على وزن متدحرج أو هو بضم الميم، والتاء المشدّدة المضمومة وفتح الشين المعجمة وسكون اللام، وروى بعضهم الفتح في الميم. وأمّه سمحاء بنت أنوش. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفر لنوح أب ما بينه وبين آدم. وفي «إشراق التواريخ» أمه قسوس بنت كابيل، وفي «كشف الأسرار»: هيجل بنت لاموس بن متوشلخ بنت عمّه. وقيل: المراد بوالديه آدم وحوّاء عليهما السلام، وقال سعيد بن جبير: أراد بوالديه أباه وجدّه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ بالتثنية. وقرأ سعيد بن جبير، والجحدري ﴿ولوالدي﴾ بكسر الدال وتخفيف الياء بالإفراد، فإما أن يكون خصّ أباه الأقرب، أو أراد جميع من ولدوه إلى آدم عليه السلام. وقرأ الحسين بن علي ويحيى بن يعمر والنخعي والزهري وزيد بن علي ﴿ولولديّ﴾ تثنية ولد. يعني: ساماً وحاماً.

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾؛ أي: منزلي، وقيل: مسجدي، فإنّه بيت أهل الله، وإن كان بيت الله من وجه. وقيل: سفينتي، فإنها كالبيت في حرز الحوائج وحفظ النفوس عن الحرّ والبرد وغيرهما. وقيل: لمن دخل في ديني. وقوله: ﴿مُؤْمِنًا﴾ حال من فاعل ﴿دَخَلَ﴾؛ أي: حال كون الداخل مؤمناً. أي: متصفاً بصفة الإيمان بالله سبحانهُ. وبهذا القيد خرجت امرأته واعلة وابنه كنعان، ولكن لمْ يجزم عليه السلام بخروجه إلا بعد ما قيل له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾. ثم عمم الدعوة فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: ولكلّ متصف بالإيمان بي، أو من لدن آدم إلى يوم القيامة من الذكور والإناث.

ثمّ عاد إلى الدعاء على الكافرين فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المتصفين بالظلم ﴿إِلَّا تَبَارًۢا﴾؛ أي: إلاّ هلاكاً وخسراناً ودماراً، وقد شمل دعاؤه هذا كلّ ظالم إلى يوم القيامة كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة.

قال في الأول[2]: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ لأنه وقع بعد قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾، وفي الثاني: ﴿إِلَّا تَبَارًۢا﴾ لأنّه وقع بعد قوله: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ. فذكر

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

في كل مكان ما اقتضاه وما شاكل معناه. والظاهر: أنه عليه السلام أراد بالكافرين والظالمين الذين كانوا موجودين في زمانه متمكّنين في الأرض ما بين المشرق والمغرب، فمسؤوله أن يهلكهم الله، فاسْتُجيب دعاؤه، فعمّهم الطوفان بالغرق. وما نقل عن بعض المنجمين من أنه أراد جزيرة العرب، فوقع الطوفان عليهم دون غيرهم من الآفاق مخالف لظاهر الكلام وتفسير العلماء، وقول أصحاب التواريخ بأن الناس بعد الطوفان توالدوا وتناسلوا وانتشروا في الأطراف مغاربها ومشارقها من أهل السفينة.

ودل الكلام هنا على أنّ الظالم إذا ظهر ظلمه وأصر عليه ولم ينفعه النصح استحق أن يُدعى عليه وعلى أعوانه وأنصاره. قيل: غرق معهم صبيانهم أيضاً، لكن لا على وجه العقاب لهم بل لتشديد عذاب آبائهم وأمّهاتهم بإراءة إهلاك أطفالهم الذين كانوا أعزَّ عليهم من أنفسهم. قال النبيّ ﷺ: «يهلكون مهلكاً واحداً، ويصدرون مصادر شتّى».

ومعنى الآية: أي ربّ استر عليّ ذنوبي وعلى والديّ وعلى من دخل مسجدي ومصلاّي مصدقاً بنبوّتي، وبما فرضته عليّ وعلى المصدّقين بوحدانيتك والمصدّقات بذلك من كلّ أمة إلى يوم القيامة، ولا تزد الذين ظلموا أنفسهم بك إلاّ خسراناً وبعداً من رحمتك.

الإعراب

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾.

﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿نُوحًا﴾ مفعول به ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ﴿أَنۡ﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿أَنذِرۡ﴾ فعل أمر في محل النصب بـ ﴿أَنْ﴾ المصدرية مبنيّ على السكون، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى نوح، ﴿قَوۡمَكَ﴾ مفعول به، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، تقديره: إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه بإنذار قومه. والجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ويجوز أن تكون أن مفسّرة كما مرّ؛ لأنّ الإرسال في معنى القول؛ أي: قلنا له: أنذر قومك. ﴿مِن قَبۡلِ﴾ جار ومجرور

متعلق بـ ﴿أَنذِرْ﴾، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾ فعل مضارع ومفعول به منصوب بـ ﴿أن﴾، ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل، ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه؛ أي: من قبل إتيان عذاب أليم إياهم. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، والجملة في محل النصب مقول قال، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾، و﴿نَذِيرٌ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة نذير، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿أَنِ﴾ مصدرية ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، ﴿والواو﴾: فاعل، ولفظ الجلالة مفعول به، والجملة في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: إنّي لكم نذير بعبادة الله. ويجوز أن تكون مفسرةً لأنّ الإنذار في معنى القول؛ أي: بـ ﴿أن﴾ أقول لكم: أعبدوا الله. ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ معطوفان على ﴿ٱعْبُدُواْ﴾، وحذفت ياء المتكلم من ﴿أطيعون﴾ لمناسبة رؤوس الآي، والأصل: أطيعوني.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾.

﴿يَغْفِرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿لَكُم﴾ متعلق بـ ﴿يَغْفِرْ﴾، ﴿مِّن﴾ اسم بمعنى بعض، في محل النصب مفعول به، و﴿ذُنُوبِكُمْ﴾ مضاف إليه؛ أي: بعض ذنوبكم. أو ﴿مِّن﴾ زائدة على رأي الأخفش المجيز زيادتها في الإثبات وغيره، وأمّا البصريّون ومعظم الكوفيّين يشترطون لزيادتها أن يسبقها نفي أو نهي، أو استفهام، وأن تدخل على النكرة. ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿يَغْفِرْ﴾. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ متعلق بـ ﴿يؤخر﴾، ﴿مُّسَمًّىۚ﴾ صفة أجل، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمّن معنى الشرط، متعلق بالجواب الآتي، وجملة ﴿جَآءَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾ على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿لَا يُؤَخَّرُۖ﴾ من الفعل المغيّر ونائبه جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: إن أجل الله غير مؤخّر وقت مجيئه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول قال على كونها معللة لما قبلها. ﴿لَوْ﴾ حرف شرط، ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾

خبره وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ ﴿لَوۡ﴾، وجوابها محذوف تقديره: لو كنتم تعلمون ذلك.. لآمنتم. وجملة ﴿لَوۡ﴾ في محل النصب، مقول قال. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، حذف منه حرف النداء وجملة النداء في محل النصب مقول قال، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿دَعَوۡتُ قَوۡمِي﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ ظرفان متعلقان بـ ﴿دَعَوۡتُ﴾، وجملة ﴿دَعَوۡتُ﴾ في محل الرفع خبر إنّ، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿يَزِدۡهُمۡ﴾ فعل ومفعول به، مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿دُعَآءِيٓ﴾ فاعل، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فِرَارٗا﴾ مفعول به ثان، والجملة الفعليّة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿دَعَوۡتُ﴾.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩﴾.

﴿وَإِنِّي﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿كُلَّمَا﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانيّة مبنيّ على السكون، والظرف متعلّق بالجواب الآتي، ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لِتَغۡفِرَ﴾ اللام حرف جرّ وتعليل، ﴿تغفر﴾ فعل مضارع، منصوب بأن مضمرةً بعد لام كي، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لغفرانك لهم، الجار والمجرور متعلّق بـ ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾، ﴿لَهُمۡ﴾ متعلّق بـ ﴿تغفر﴾، ﴿جَعَلُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، ﴿أَصَٰبِعَهُمۡ﴾ مفعول أوّل لـ ﴿جَعَلُوٓاْ﴾، ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ في موضع المفعول الثاني، وجملة ﴿جَعَلُوٓاْ﴾ جواب كلّما، وجملة ﴿كُلَّمَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إِنِّي﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي﴾. ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿جَعَلُوٓاْ﴾، ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿جَعَلُوٓاْ﴾، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ معطوف عليه أيضاً، ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ مفعول مطلق، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع التراخي، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، وجملة ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على جملة

﴿إنّ﴾ في قوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾. ﴿جِهَارًا﴾ مفعول مطلق على أنّه مصدر من المعنى؛ لأنّ الدعاء يكون جهاراً وغيره، فهو من باب رجع القهقرى. ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال؛ أي: مجاهراً أو ذا جهار، وجعل نفس المصدر مبالغة، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَعْلَنتُ﴾ خبرهُ، وجملة ﴿إنّ﴾ معطوفة على ما قبلها ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَعْلَنتُ﴾، ﴿وَأَسْرَرْتُ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿أَعْلَنتُ﴾، ﴿لَهُمْ﴾ متعلّق بـ ﴿أسررت﴾، ﴿إِسْرَارًا﴾ مفعول مطلق.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقُلْتُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قلت﴾ معطوف على ﴿أَعْلَنتُ﴾، ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾ فعل أمر، مبنيّ على حذف النون، ﴿والواو﴾: فاعل، ﴿رَبَّكُمْ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قلت﴾، ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ غَفَّارًا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب على كونها معلّلة للأمر بالاستغفار، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، مجزوم بالطلب السابق أعني: ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾، ﴿عَلَيْكُم﴾ متعلق بـ ﴿يُرْسِلِ﴾، ﴿مِّدْرَارًا﴾ حال من ﴿السَّمَاءَ﴾، ﴿وَيُمْدِدْكُم﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿يُرْسِلِ﴾، ﴿بِأَمْوَالٍ﴾ متعلق بـ ﴿يمددكم﴾، ﴿وَبَنِينَ﴾ معطوف على ﴿بِأَمْوَالٍ﴾، ﴿وَيَجْعَل﴾ معطوف على ﴿يُرْسِلِ﴾ أيضاً، ﴿لَّكُمْ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ ﴿جَعَلَ﴾، ﴿جَنَّاتٍ﴾ مفعول به أوّل، ﴿وَيَجْعَل﴾ معطوف على يرسل، ﴿لَّكُمْ﴾ في موضع المفعول الثاني، ﴿أَنْهَارًا﴾ مفعول به أوّل.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَّا﴾ اسم استفهام للاستفهام التوبيخي في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَكُمْ﴾ خبر لـ ﴿مَّا﴾ الاستفهامية، والجملة في محل النصب مقول قلت، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تَرْجُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿الكاف﴾ في ﴿لَكُمْ﴾، ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿وَقَارًا﴾؛ لأنّه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿وَقَارًا﴾ مفعول به لـ ﴿تَرْجُونَ﴾، ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾ حرف

تحقيق، ﴿خَلَقَكُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَرْجُونَ﴾، ﴿أَطْوَارًا﴾ حال من الكاف في ﴿خَلَقَكُمْ﴾، ولكنها في تأويل مشتقّ تقديره: حال كونكم متنقلين من حال إلى حال. ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿تَرَوْا﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لم﴾، ﴿والواو﴾: فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قلت﴾، والرؤية علمية؛ أي: لم تعتبروا، ولم تتفكّروا، ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجّبيّ في محل النصب على الحال من ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، والعامل فيها ﴿خَلَقَ﴾، و﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ مفعول به، ﴿طِبَاقًا﴾ نعت لـ ﴿سَبْعَ﴾، وجملة خلق في محل النصب، سدّت مسدّ مفعولي ﴿تَرَوْا﴾ المعلّقة عن العمل بالاستفهام.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)﴾.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به أوّل، معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، ﴿فِيهِنَّ﴾ حال من ﴿نُورًا﴾، و﴿نُورًا﴾ مفعول به ثان لـ ﴿جعل﴾، ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعولان، معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾ خبره، والجملة في محل النصب معطوفة على قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾، على كونها مقول ﴿قلت﴾، ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾ فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾. ﴿نَبَاتًا﴾ مفعول مطلق، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يُعِيدُكُمْ﴾، ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يُعِيدُكُمْ﴾، ﴿إِخْرَاجًا﴾ مفعول مطلق. ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿جَعَلَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ﴾. ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿لَكُمُ﴾ حال من ﴿بِسَاطًا﴾، ﴿الْأَرْضَ﴾ مفعول أوّل، ﴿بِسَاطًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿جَعَلَ﴾، ﴿لِتَسْلُكُوا﴾ اللام حرف جرّ وتعليل ﴿تسلكوا﴾ فعل مضارع، منصوب بـ(أن) مضمرة بعد لام كي، والواو: فاعل، ﴿مِنْهَا﴾ حال من ﴿سُبُلًا﴾؛ أي: كائنة من الأرض، ولو تأخّر.. لكان صفة لها، ﴿سُبُلًا﴾ مفعول به، ﴿فِجَاجًا﴾ نعت لـ ﴿سُبُلًا﴾، وجملة ﴿تسلكوا﴾ مع ﴿أن﴾ المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لسلوككم سبلاً

فجاجاً منها، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو بدل من ﴿قَالَ﴾ الأول. ﴿رَّبِّ﴾ منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿عَصَوْنِي﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ونون وقاية، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿عَصَوْنِي﴾، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم، ﴿يَزِدْهُ﴾ فعل ومفعول به مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، ﴿مَالُهُۥ﴾ فاعل، ﴿وَوَلَدُهُۥٓ﴾ معطوف على ﴿مَالُهُۥ﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿خَسَارًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿يَزِدْهُ﴾، ﴿وَمَكَرُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿عَصَوْنِي﴾، ﴿مَكْرًا﴾ مفعول مطلق ﴿كُبَّارًا﴾ نعت لـ ﴿مَكْرًا﴾، ﴿وَقَالُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿عَصَوْنِي﴾، ﴿لَا﴾ ناهية جازمة، ﴿تَذَرُنَّ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والنون المشدّدة نون التوكيد. ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾ معطوف على ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾ الأولى، ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ ﴿وَدًّا﴾ وما عطف عليه مفعول ﴿تَذَرُنَّ﴾، ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ ممنوعان من الصرف للعلمية ووزن الفعل إن كانا عربيّين، وللعلمية والعجمة إن كانا عجميّين. وقرىء ﴿ولا يغوثا ويعوقا﴾ مصروفين لأمرين: أحدهما: أنّ صرفهما للتناسب، إذ قبلهما اسمان منصرفان وبعدهما اسم منصرف، الثاني أنّه جاء على لغة من يصرف غير المنصرف مطلقاً، وهي لغة حكاها الكسائيّ. ﴿وَنَسْرًا﴾ معطوف على ﴿وَدًّا﴾ أيضاً. ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على قوله: ﴿عَصَوْنِي﴾، على كونه خبر ﴿إِنَّهُمْ﴾ أو حال من فاعل ﴿عَصَوْنِي﴾، أو مقول لقول محذوف، معطوف على ﴿قَالَ﴾ الأول؛ أي: ﴿قال إنهم عصوني﴾ وقال ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾. ﴿كَثِيرًا﴾ مفعول به لـ ﴿أَضَلُّواْ﴾، ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة، ﴿لا﴾ دعائية سلوكاً مسلك الأدب مع الباریء سبحانه، ﴿تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الدعائية، والجملة في محل النصب،

معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ضَلَٰلًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿تَزِدِ﴾.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿مِّمَّا﴾ ﴿مِنْ﴾ حرف جرّ، ﴿ما﴾ زائدة، ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ مجرور بـ ﴿مِّن﴾ التعليلية، والجار والمجرور متعلّق بـ ﴿أُغْرِقُوا۟﴾، و﴿أُغْرِقُوا۟﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعل، والجملة مستأنفة من كلام الربّ سبحانه. ﴿فَأُدْخِلُوا۟﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿أُغْرِقُوا۟﴾، ﴿نَارًا﴾ مفعول به ثان على السعة، ﴿فَلَمْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿لَمْ﴾ حرف جزم، ﴿يَجِدُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أدخلوا﴾، ﴿لَهُمْ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ ﴿يَجِدُوا۟﴾، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حال من أنصارا، و﴿أَنصَارًا﴾ مفعول أوّل لـ ﴿يَجِدُوا۟﴾، ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالَ﴾ الأول، ﴿رَّبِّ﴾ منادى مضاف، ﴿لَا﴾ دعائية جازمة، ﴿تَذَرْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الدعائية، والجملة في محل النصب مقول قال، ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلّق بـ ﴿تَذَرْ﴾، ﴿مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ حال من ﴿دَيَّارًا﴾، لأنّه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿دَيَّارًا﴾ مفعول به لـ ﴿تَذَرْ﴾، ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه، ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم، ﴿تَذَرْهُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿يُضِلُّوا۟﴾ فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿عِبَادَكَ﴾ مفعول به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية من فِعْلِ شرطها وجوابها في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها معلّلة للنهي المذكور قبلها. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿لا﴾ نافية، ﴿يَلِدُوٓا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يُضِلُّوا۟﴾ على كونه جواب الشرط، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فَاجِرًا﴾ مفعول ﴿يَلِدُوٓا۟﴾، ﴿كَفَّارًا﴾ نعت ﴿فَاجِرًا﴾.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿رَّبِّ﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب

مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱغْفِرْ﴾ فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على اللَّهَ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء، ﴿لِي﴾ متعلق بـ ﴿ٱغْفِرْ﴾، ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ معطوف على ﴿لِي﴾، ﴿وَلِمَن﴾ معطوف أيضا على ﴿لِي﴾، وجملة ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿دَخَلَ﴾ فعل وفاعل مستتر، ﴿بَيْتِيَ﴾ مفعول به على السعة، ﴿مُؤْمِنًا﴾ حال من فاعل ﴿دَخَلَ﴾، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ معطوفان أيضاً على ﴿لِي﴾. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾ دعائية جازمة، ﴿تَزِدِ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿لا﴾ الدعائية، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفعول به أوّل، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿تَبَارًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿تَزِدِ﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱغْفِرْ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ الأصل: اوتقيوه، استثقلت الضمة على الياء فحذفت.. فلما سكنت التقى ساكنان؛ فحذفت الياء، وضمَّت القاف لمناسبة الواو، ثم أبدلت الواو فاء الكلمة تاء، وأدغمت في تاء الافتعال. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: معيّن مقدر عند الله، والأجل: المدة المضروبة للشيء.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾، أصله: يزيدهم بوزن يفعل، نقلت حركة الياء إلى الزاي فسكنت فدخل الجازم ﴿لم﴾ فسكن آخر الفعل فالتقى ساكنان فحذفت الياء لذلك، فوزنه يفلهم. وقوله: ﴿دُعَآءِىٓ﴾ الهمزة في مادّة الدعاء مبدلة من واو لتطرّف الواو إثر ألف زائدة، وهذا مطرود في الواو والياء. ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ والآذان: جمع أذن، أصله: أأذان على وزن أفعال، أبدلت الهمزة الساكنة ألفاً حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى. ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أصله: استغشيوا بوزن استفعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة. وقوله: ﴿ثِيَابَهُمْ﴾ الياء فيه مبدلة من واو، أصله: ثوابهم أعل هذا الإعلال بإبدال الواو ياء لوقوعها بعد كسرة، وقبل ألف في جمع معتل العين في المفرد.

﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أصله: أصرروا بوزن أفعلوا، نقلت حركة الواو الأولى إلى الصاد فسكنت، فأدغمت في الراء الثانية. وقوله أيضاً: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ والاستغشاء مأخوذ من الغشاء، وهو الغطاء، وهو في الأصل اشتمال من فوق، ولما كان فيه

معنى الستر استعمل بمعناه، وأصل الاستغشاء: طلب الغشي؛ أي: الستر، لكن معنى الطلب هنا ليس بمقصود بل هو بمعنى التغطّي والستر، وإنما جيء بصيغته التي هي السين للمبالغة. ﴿والثياب﴾ جمع ثوب، سمّي به لثوب الغزل؛ أي: رجوعه إلى الحالة التي قدّر لها اهـ من الروح. وقوله أيضا: ﴿وَأَصَرُّواْ﴾؛ أي: أكبوا وأقاموا على الكفر والمعاصي يقال: أصر الحمار على الأتانة إذا ضم أذنيه إلى رأسه، وأقبل عليها يكدمها ويطردها طلباً للسفاد، استعير للإقبال على الكفر والمعاصي، والإكباب عليهما بتشبيه الإقبال المذكور بإصرار الحمار على الأتانة يكدمها ويطردها للسفاد، ولو لم يكن في ارتكاب المعاصي إلا التشبيه بالحمار.. لكفى به مزجرةً، فكيف والتشبيه في أسوأ حاله؟ وهو حال الكدم والطرد للسفاد. ﴿جِهَارًا﴾ والجهر: ظهور الشيء بإفراط لحاسة السمع أو لحاسة البصر. والإعلان ضدّ الإسرار. ﴿مِّدْرَارًا﴾؛ أي: كثير الدرور، وهو حال من ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، ولم يؤنّث؛ لأنّه على زنة مفعال ومفعال يستوي فيه المذكر والمؤنث، يقال: رجل مذكار وامرأة مئناث، وهو من أوزان المبالغة، كقولهم: وإنه لمنحار بوائكها. ﴿وَقَارًا﴾ والوقار في الأصل: السكون والحلم، وهو ههنا بمعنى العظمة؛ لأنّه يتسبب عنها في الأغلب. ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ جمع طور، وهو الحال والتارة. وفي «المصباح»: والطور بالفتح: التارة مثل: ثوب وأثواب، وتعدى طوره؛ أي: حاله التي تليق به انتهى.

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أصل تروا: ترأيوا بوزن تفعلوا، نقلت حركة الهمزة إلى الراء ثم حذفت للتخفيف ثم أبدلت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾؛ أي: إنباتاً عجيباً، وأنشأكم منها إنشاء غريباً على أن ﴿نَبَاتًا﴾ وضع موضع إنباتاً على أنه مصدر مؤكد؛ لـ ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ بحذف الزوائد، ويسمى اسم مصدر. ﴿فِجَاجًا﴾؛ أي: واسعة جمع فج، وهو الطريق الواسع. وقيل: هو المسلك بين الجبلين، قال في «المفردات»: الفج: طريق يكتنفها جبلان، ويستعمل في الطريق الواسع.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ أصله: عصيوني قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ فيه إدغام التاء فاء الفعل في تاء الافتعال. ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: عظيماً. والمكر: الحيلة الخفية. وفي «كشف

الأسرار»: المكر في اللغة: غاية الحيلة، وهو من فعل الله تعالى إخفاء التدبير. ﴿كُبَّارًا﴾ بضمّ الكاف وتشديد الباء وهو بناء مبالغة، وهو أبلغ من ﴿كباراً﴾ بالضمّ والتخفيف. ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ﴾ أصله: تذرونن، الأولى نون الرفع والثانية نون التوكيد الثقيلة، فتحذف نون الرفع للجازم ﴿لا﴾ الناهية، فصار اللفظ تذرون فاجتمع ساكنان فحذفت الواو. ﴿يَغُوثَ﴾ أصله: يغوث إن كان عربياً، نقلت حركة الواو إلى الغين فسكّنت فصارت حرف مدّ، فهو على وزن الفعل، وكذلك القول في قوله: ﴿يعوق﴾ لا يختلف. ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ﴾ أصله: أضللوا، نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد، فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أصله: تزيد بوزن تفعل نقلت حركة الياء إلى الزاي، فسكنت ثم جزم الفعل بـ ﴿لا﴾ الناهية فسكن آخره فالتقى ساكنان فحذفت الياء، فوزنه تفل.

﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿رَبِّ﴾ أصله: ربي حذفت منه ياء الإضافة اكتفاء عنها بالكسرة. ﴿دَيَّارًا﴾ قال الزمخشري: هو من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال: ما بالدار ديّار وديّور كقيام وقيوم، وهو فيعال من الدوار أو من الدار، وأصله: ديوار، ففعل به ما فعل بأصل سيد وميت، ولو كان فعالاً.. لكان دوّاراً. وعبارة أبي حيان: ﴿دَيَّارًا﴾ من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي، وما أشبهه، ووزنه فيعال، أصله: ديوار، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت. وفي «القاموس»: «وما داري وديار ودوري وديور» أي: أحد.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ هذا الفعل حذفت فاؤه في جميع التصاريف، فأصل المادة: وذر، لكن الماضي منه مهجور، والمضارع والأمر حذفت منهما الفاء. وقوله: ﴿يُضِلُّواْ﴾ أصله: يضللوا بوزن يفعلوا، نقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ﴾ فيه إعلال بالحذف أصله: يولدوا بوزن يفعلوا، حذفت الواو فاء الكلمة لوقوعها بين عدوتيها الياء المفتوحة والكسرة. ﴿إِلَّا فَاجِرًا﴾ من الفجر، وهو شق الشي شقًّا واسعاً كفجر الإنسان السكر وهو بالكسر اسم لسد النهر وما سد به النهر. والفجور: شق ستر الديانة. ﴿كَفَّارًا﴾ قال الراغب: الكفار أبلغ من الكفور، وهو المبالغ في كفران النعمة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: إفراد الإنذار في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مع كونه بشيراً أيضاً؛ لأن الإنذار أقوى في تأثير الدعوة، لما أن أكثر الناس يطيعون أوّلاً بالخوف من القهر وثانياً بالطمع في العطاء كما مرّ.

ومنها: إسناد الزيادة إلى الدعاء في قوله ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ مع أنها فعل الله تعالى لسببيته لها.

ومنها: الطباق بين ﴿لَيْلًا﴾ و﴿نهارا﴾، وبين ﴿أَعْلَنتُ﴾ و﴿أسررت﴾ وبين ﴿جِهَارًا﴾ و﴿إِسْرَارًا﴾، وبين ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ و﴿يخرجكم﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ المراد رؤوس الأصابع من إطلاق الكلّ وإرادة الجزء.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ لأنّه كناية عن المبالغة في إعراضهم عمّا دعاهم إليه، فهم بمثابة من سدّ سمعه وغشى بصره كيلا يسمع ولا يرى. وقيل: الكلام حقيقي كما مرّ.

ومنها: تكرار الدعاء في قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾ تأكيداً ومبالغة في الدعاء.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ علاقته المحلية، فقد أراد بالسماء المطر؛ لأنّ المطر ينزل من السماء، كما قال الشاعر:

إذا نَـزَلَ ٱلـسَّـمَـاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ رَعَـيْـنَـاه وَإِنْ كَـانُـوْا غِـضَـابَـا

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾، لأنّه شبّههم بالنبات، فقد استعار الإنبات للإنشاء، فاشتق من الإنبات بمعنى الإنشاء أنبت بمعنى أنشأ على طريقة الاستعارة التصريحيّة التبعيّة، وكانت هذه الاستعارة ذات فائدة؛ لأنها دلت على الحدوث، فإنهم إذا كانوا نباتاً كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة أيضاً في قوله: ﴿وَأَصَرُّواْ﴾، شبه إقبالهم على الكفر والمعاصي بإقبال الحمار على الأتانة للسفاد بجامع كون كلّ منهما إقبالاً سيّئاً.

ومنها: التأكيد بالمصدر للمبالغة في قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ ﴿نَبَاتًا﴾ و﴿يخرجكم﴾، ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارًا﴾، و﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارًا﴾، ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا﴾. ويسمى هذا في علم المعاني بالإطناب.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجًا﴾؛ أي: كالسراج، وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا﴾ كالبساط والفراش.

ومنها: تكرار لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا ١٩﴾ بعد قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم﴾ للتعظيم والتيّمن والتبرّك.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ ﴿نَبَاتًا﴾ ﴿يخرجكم إخراجاً﴾.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا﴾ الآية، مع اندراجها فيما قبلها؛ لأنّها كانت أكبر أصنامهم وأعظم ما عندهم، وهو عند أرباب المعاني نوع من الإطناب.

ومنها: عكسه الذي هو ذكر العام بعد الخاص في قوله: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ﴾ تكريراً للدعاء للخاص.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ علاقته ما يؤول إليه؛ لأنّه لم يفجروا وقت الولادة بل بعدها بزمن طويل.

ومنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾ على عامله إفادة للحصر، فإنه يدل على أنّ إغراقهم بالطوفان لم يكن إلا من أجل خطيئاتهم تكذيباً لقول المنجمين كما مرّ.

ومنها: زيادة ﴿ما﴾ الإبهامية بين الجار والمجرور لتأكيد الحصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور.

ومنها: تنكير ﴿نَارٗا﴾ في قوله: ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ للدلالة على تعظيمها؛ أي: ناراً عظيمة وإفادة للتهويل منها.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾؛ لأنّ فيه تعريضاً باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾، لأنّه وسّط بذلك بين دعائه عليه السلام أوّلاً ودعائه عليهم فيما بعد للإيذان من أوّل الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيئاتهم التي عدّدها نوح عليه السلام.

ومنها: التهكم بهم في قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة على مقصدين.

الأوّل: دعوة نوح قومه إلى الإيمان وقد حوت تلك الدعوة أموراً:

١ ـ طلب تركهم للذنوب وأنّهم إذا فعلوا ذلك أكثر الله لهم الأموال والبنين.

٢ ـ النظر في خلق السموات والأرض والأنهار والبحار.

٣ ـ النظر في خلق الإنسان، وأنّه يخلق من الأرض كما يخلق النبات منها، وأنَّ الأرض مسخرة لهم يتصرّفون فيها كما يشاؤون.

والثاني: كفر قومه وعقابهم في الدنيا والآخرة[1].

فائدة: سورة نوح ثمان وعشرون آية. (ثمان) بكسر النون إن أعلَّ إعلال قاض فيكون منقوصاً، وإعرابه على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين كقولهم: جاء قاض. وبرفع النون إن حذفت الياء اعتباطاً وتخفيفاً لا لعلة تصريفية، فيكون كـ: يد ودم اهـ شيخنا.

والله أعلم

* * *

(١) إلى هنا تمّ تفسير هذه السورة في اليوم العشرين في الساعة الرابعة يوم الأربعاء من ربيع الأول من شهور سنة ٢٠/٣/١٤١٦ ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيّة، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً، والحمد لله ربّ العالمين آمين.

سورة الجن

سورة الجنّ مكيّة، قال القرطبيّ في قول الجميع: نزلت بعد سورة الأعراف. وأخرج ابن الضريس والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الجن بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة، وابن الزبير مثله.

وهي ثمان وعشرون آية. وكلماتها[١]: مئتان وخمس وثمانون كلمة. وحروفها: ثمان مئة وسبعون حرفا.

ومناسبتها لما قبلها من وجوه[٢]:

١ ـ أنّه جاء في السورة السابقة ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وجاء في هذه السورة ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾.

٢ ـ أنه ذكر في هذه السورة شيء يتعلق بالسماء كالسورة التي قبلها.

٣ ـ أنه ذكر عذاب من يعصي الله سبحانه في قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وذكر هناك مثله في قوله: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾.

وقال أبو حيان[٣]: مناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه لما حكى تمادي قوم نوح في الكفر وعكوفهم على عبادة الأصنام، وكان عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض كما أن محمداً ﷺ آخر رسول إلى أهل الأرض. والعرب الذين هو منهم كانوا عباد أصنام كقوم نوح حتى إنهم عبدوا أصناماً مثل أصنام أولئك في الأسماء، وكان ما جاء به محمد ﷺ من القرآن هادياً إلى الرشد، وقد سمعته العرب، وتوقّف عن الإيمان به أكثرهم. أنزل الله تعالى سورة الجن إثر سورة نوح تبكيتاً لقريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان؛ إذ كانت الجن خيراً منهم، وأقبل للإيمان بهذا، وهم من غير جنس الرسول ﷺ، ومع ذلك فبنفس ما سمعوا القرآن استعظموه

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

وآمنوا به للوقت، وعرفوا أنه ليس من نمط كلام الناس، بخلاف العرب؛ فإنه نزل بلسانهم، وعرفوا كونه معجزاً وهم مع ذلك مكذّبون له، ولمن جاء به حسداً وبغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده.

التسميه: وسميت سورة الجن لذكر قصة استماع الجن للقرآن فيها.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم: سورة الجن كلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم بيان المناسبة بين هذه السورة، والتي قبلها آنفاً، وأمّا المناسبة بين آياتها فليست معتبرة، لأنّها نزلت في مقصد واحد.

واعلم: أنَّ الله سبحانه سمى سور كتابه بأسماء تبعث على النظر والاعتبار

وتوجب التفكير. فسمّى[1] بالأنعام وبالحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت، وبما هو ألطف من ذلك كالنور، كما سمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود وببعض الأخلاق كالتوبة، وببعض الكواكب العلوية كالشمس والقمر والنجم، وببعض الأوقات كالليل والفجر والضحى، وببعض المعادن كالحديد، وببعض الأماكن كالبلد، وببعض النبات كالتين، وكل ذلك مما نراه. وهنا سمى هذه السورة بعالم لا نراه، وهو عالم الجن، وهو عالم لم يعرف في الإسلام إلا من طريق الوحي، وليس للعقل دليلٌ عليه، ولقد أصبحت هذه العوالم المستترة عنا الشغل الشاغل اليوم للعلماء والباحثين، فصار علماء أوربا يدرسون عالم الملائكة، وعالم الجن وعالم الأرواح، ويطلعون على غوامض هذه العوالم، فتحدث الناس مع أرواح أصحابهم الذين ماتوا، واتصل العالم الإنسي بالعالم الجنّي، وبعالم الأرواح الطاهرة وهم الملائكة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ . . .﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات: ما أخرجه[2] البخاري، والترمذي وغيرهما عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، ولكنه انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: ما هذا إلا لشيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا هذا الذي حدث، فانطلقوا فانصرف النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا إنّا سمعنا قرآناً عجباً. فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾، وإنما أوحي إليه قول الجنّ.

وأخرج ابن الجوزي في كتاب «صفوة الصفوة» بسنده عن سهل بن عبد الله قال: كنت في ناحية ديار عاد؛ إذ رأيت مدينة من حجر منقور في وسطها قصر من

---

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول.

حجارة تأويه الجن، فدخلت فإذا شيخ عظيم الخلق يصلي نحو الكعبة، وعليه جبة صوف فيها طراوة؛ فلم أتعجب من عظم خلقته كتعجبي من طراوة جبته، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام وقال: يا سهل: إنّ الأبدان لا تخلق الثياب، وإنما تخلقها روائح الذنوب ومطاعم السحت، وإنَّ هذه الجبة عليّ من سبع مئة سنة، لقيت فيها عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام، فآمنت بهما. فقلت له: ومن أنت؟ قال: من الذين نزلت فيهم ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن كردم عن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة، وذلك أوّل ما ذكر رسول الله ﷺ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب، فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي، فقال: عامر الوادي جارك، فنادى مناد «لا نراه يا سرحان»، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم، فأنزل الله على رسوله بمكة ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآية.

وأخرج[1] ابن سعد عن أبي رجاء العطارديّ من بني تميم قال: بعث رسول الله ﷺ، وقد رعيت على أهلي وكفيت مهنتهم، فلما بعث النبي ﷺ خرجنا هراباً، فأتينا على فلاة من الأرض، وكنا إذا أمسينا بمثلها قال شيخنا: إنا نعوذ بعزيز هذا الوادي من الجن الليلة، فقلنا ذلك، فقيل لنا: إنما سبيل هذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، من أقر بها أمن على دمه وماله، فرجعنا فدخلنا في الإسلام، قال أبو رجاء: إني لأرى هذه الآية نزلت فيَّ وفي أصحابي: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ الآية.

وروي عن مقاتل في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا....﴾ قال: نزلت في كفّار قريش حين منع المطر سبع سنين.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قالت الجن للنبيّ ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤون عنك؟ أو كيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت

---

(١) لباب النقول.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ. . .﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن حضرميّ: أنه ذكر له أنّ جنيًّا من الجن من أشرافهم ذا تبع قال: إنما يريد محمد أن يجيره الله وأنا أجيره، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ. . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك ليعرفوا بذلك أنّك مبعوث إلى الجنّ كالإنس ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾؛ أي: ألقي عليّ بطريق الوحي، وأخبرت بإعلام من الله تعالى. والإيحاء: إعلام في خفاء. وفائدة[1] إخباره بهذه الأخبار بيان أنه رسول الثقلين، والنهي عن الشرك والحث على التوحيد، فإن الجن مع تمردهم وعدم مجانستهم إذا آمنوا فكيف لا يؤمن البشر مع سهولة طبعهم ومجانستهم؟. ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الهمزة، لأنّه نائب فاعل لـ ﴿أُوحِىَ﴾. وعند الكوفيين والأخفش يجوز نيابة الجار والمجرور مع غيره، والضمير للشأن والحديث؛ أي: إنَّ الشأن والحديث ﴿ٱسْتَمَعَ﴾؛ أي: أصغى القرآن أو طه أو اقرأ وقد حذف لدلالة ما بعده عليه. والاستماع: الإصغاء، والمستمع من كان قاصداً للسماع مصغياً إليه، والسامع: من اتفق سماعه من غير قصد إليه، فكل مستمتع سامع من غير عكس. ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: جماعة منهم ما بين الثلاثة والعشرة. قال في «القاموس»: النفر: ما دون العشرة من الرجال كالنفير، والجمع أنفار. وفي «المفردات»: النفر: عدة رجال يمكنهم النفر إلى الحرب. والجن واحده جني كروم ورومي ونحوه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ رباعياً. وقرأ ابن أبي عبلة، وأبو إياس جوبة بن عائد الأسدي، والعتكي عن أبي عمرو ﴿وحي﴾ ثلاثياً، يقال: وحي وأوحي بمعنى واحد، وهما لغتان. وقرأ زيد بن عليّ، وجوبة فيما روى عن الكسائي، وابن أبي عبلة أيضاً ﴿أحي﴾ بإبدال الواو همزة، كما قالوا في وعد: أعد. وقال الزمخشري: وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة انتهى. وليس كما ذكر بل في

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

ذلك تفصيل، وذلك أنَّ الواو المضمومة قد تكون أوّلاً وحشوا وآخراً، ولكل منها أحكام، وفي بعضها تفصيل، وخلاف مذكور في كتب النحو. قال الزمخشري: وقد أطلقه المازني في المكسور أيضاً كإشاح وإسادة وإعاء أخيه انتهى.

واختلف[١] هل رآهم النبي ﷺ أو لم يرهم؟ فظاهر القرآن: أنّه لم يرهم لأنّ المعنى: قل يا محمد لأمّتك أوحي إليَّ علي لسان جبريل ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾. ويؤيّد هذا ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم. وقال عكرمة: والسورة التي كان يقرؤها رسول الله وهي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾. وقيل غير ذلك، كما مرّ آنفاً؛ إذ لو رآهم[٢] لما أسند معرفة هذه الواقعة إلى الوحي، فإن ما عرف بالمشاهدة لا يستند إثباته إلى الوحي، وكذا لم يشعر بحضورهم وباستماعهم، ولم يقرأ عليهم. وإنّما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته، فسمعوها فأخبره الله تعالى بذلك، وقد مضى ما فيه من التفصيل في سورة الأحقاف فلا نعيده. وقال الضحاك: والجنّ ولد الجانّ وليسوا شياطين. وقال الحسن: إنهم ولد إبليس. وقيل: هم أجسام رقاق في صورة تخالف صورة الملك والإنس عاقلة كالإنس خفيّة عن أبصارهم لا يظهرون لهم، ولا يكلّمونهم إلا صاحب معجزة بل يوسوسون سائر الناس يغلب عليهم النارية أو الهوائية، ويدل على الأوّل مثل قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ⑮﴾، فإن المشهور أنَّ المركبات كلها من العناصر، فما يغلب فيه النار فناري كالجن، وما يغلب فيه الهواء فهوائي كالطير، وما يغلب فيه الماء فمائي كالسمك، وما يغلب فيه التراب فترابي كالإنسان، وسائر الحيوانات الأرضية. وقيل: هي نوع من الأرواح المجردة؛ أي: الملائكة. وقيل: هي النفوس البشرية المفارقة لأبدانها.

وأكثر الفلاسفة ينكرون وجود الجن في الخارج، واعترف به جمع عظيم من قدمائهم، وكذا جمهور أرباب الملل المصدّقين بالأنبياء. قال الفاشانيّ: إنّ في الوجود نفوساً أرضيّة قوية لا في غلظ النفوس السبعية والبهيمة وكثافتها وقلة إدراكها، ولا على هيئات النفوس الإنسانية واستعدادها ليلزم تعلقها بالأجرام الكثيفة

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

الغالب عليها الأرضية، ولا في صفاء النفوس المجردة ولطافتها لتتصل بالعالم العلوي، وتتجرد، أو تتعلق ببعض الأجرام السماويّة متعلقة بأجرام لطيفة غلبت عليها الهوائية، أو النارية أو الدخانية على اختلاف أحوالها. سماها بعض الحكماء الصور المعلقة، ولها علوم وإدراكات من جنس علومنا وإدراكاتنا، ولما كانت قريبة الطبع إلى الملكوت السماوي أمكنها أن تتلقي من عالمها بعض الغيب، فلا يستبعد أن ترتقي أفق السماء فتسترق السمع من كلام الملائكة؛ أي: النفوس المجردة. ولما كانت أرضيّة ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية تأثرت تلك القوى، فرجمت بتأثيرها عن بلوغ شأوها وإدراك مداها من العلوم، ولا ينكر أن تشتعل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق، وتهلك أو تنزجر عن الارتقاء إلى الأفق السماوي، فتتسفل فإنها أمور ليست بخارجة عن الإمكان.

وقد اختلف[1] أهل العلم في دخول مؤمني الجن الجنة كما يدخل عصاتهم النار لقوله في سورة تبارك: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وقول الجنّ فيما سيأتي في هذه السورة: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ وغير ذلك من الآيات. فقال الحسن: يدخلون الجنة، وقال مجاهد: لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار. والأول أولى لقوله في سورة الرحمن: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ وفي سورة الرحمن آيات غير هذه تدل على ذلك، فراجعها. وقد قدمنا أن الحق أنه لم يرسل الله إليهم رسلاً منهم بل الرسل جميعاً من الإنس، وإن أشعر قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ بخلاف هذا فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة في الكتاب العزيز دالة على أنّ الله سبحانه لم يرسل الرسل إلاّ من بني آدم. وهذه الأبحاث يطول الكلام فيها. والمراد هنا الإشارة إليها بأخصر عبارة وأوجز إشارة.

والحاصل[2]: من الكتاب والسنة: العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون متعبّدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم، وأن النبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن، فمن دخل في دينه فهو من المؤمنين، ومعهم في الدنيا والآخرة والجنة، ومن كفر به فهو من الشياطين المبعدين المعذبين فيها والنار مستقره.

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

والمعنى[1]: أمر الله رسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى به إليه من قصص الجن لما في علمه من فوائد ومنافع للناس منها:

١ ـ أن يعلموا أنه ﷺ كما بعث إلى الإنس بعث إلى الجن.

٢ ـ أن يعلموا أنّ الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا.

٣ ـ أن يعلموا أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان.

٤ ـ أن يعلموا أن الجن مكلفون كالإنس.

٥ ـ أن تعلم قريش أنَّ الجن على تمردها، لما سمعت القرآن عرفت إعجازه وآمنت به.

وكان استماعهم للنبي ﷺ قبل الهجرة بثلاث سنين، والذين استمعوه هم جن نصيبين قرية باليمن، وذلك في صلاة الصبح يقرأ سورة الرحمن، أو سورة اقرأ ببطن نخل موضع بين مكة والطائف. وذكر الخطيب في سورة الأحقاف أنّ صلاته ببطن نخل كانت حين رجوعه من الطائف، فإن النبي ﷺ في السنة الحادية عشرة من النبوة لما أيس من أهل مكة خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، فانصرف راجعاً إلى مكة، فأقام ببطن نخل، بينه وبين مكة مسيرة ليلة، يقرأ القرآن فمرّ به نفر من جنّ نصيبين اهـ. وعن عكرمة: أنهم كانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل.

وقد حكى سبحانه عن الجن أشياء:

١ ـ ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ لقومهم عند رجوعهم إليهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾؛ أي: كتاباً مقروءاً على لسان الرسول ﴿عَجَبًا﴾؛ أي: عجيباً؛ أي: معجباً في فصاحته وبلاغته، وقيل: في مواعظه، وقيل: في بركته. وهو مصدر بمعنى العجيب وضع موضعه للمبالغة، والعجيب ما خرج عن حدّ أشكاله ونظائره. والمعنى: كتاباً بديعاً مبايناً لكلام الناس في حسن النظم ودقّة المعنى. وقال البقليّ: كتاباً عجيباً تركبه، وفيه إشارة إلى أنهم كانوا من أهل اللسان. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾؛ أي: إلى الحق والصواب وصلاح الدنيا والدين، كما قال عليه السلام: «اللهم ألهمني رشدي»؛ أي: الاهتداء إلى مصالح الدين والدنيا، فيدخل فيه التوحيد والتنزيه. وحقيقة الرشد هو الوصول إلى الله تعالى. والجملة صفة أخرى للقرآن.

---

(١) المراغي.

وقرأ الجمهور: ﴿الرُّشد﴾ بضم الراء وسكون الشين، وعيسى بضمّهما، وعنه أيضاً فتحهما. ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك القرآن، ومن ضرورة الإيمان به الإيمان بمن جاء به، أي: صدّقنا به بأنّه من عند الله تعالى. ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ﴾ بعد اليوم البتة؛ أي: بعد علمنا بالحق ﴿بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ حسبما نطق به ما فيه من دلائل التوحيد؛ أي: لا نجعل أحداً من المعبودات شريكاً له سبحانه اعتقاداً، ولا نعبد غيره. فإن تمام الإيمان إنما يكون بالبراءة من الشرك والكفر كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾. فلكونه قرآناً معجزاً بديعاً وجب الإيمان به، ولكونه يهدي إلى الرشد وجب قطع الشرك من أصله. والدخول في دين الله كله فمجموع قوله: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ مسبب عن مجموع قوله: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾، ولذا عطف ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ﴾ بالواو مع أنّ الظاهر الفاء، وفي هذا توبيخ للكفّار من بني آدم حيث آمنت الجنّ بسماع القرآن مرّةً واحدةً، وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه، وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به، ولم ينتفع كفّار الإنس لا سيّما رؤوساؤهم وعظماؤهم بسماعه مرّات متعددة وتلاوته عليهم في أوقات مختلفة مع كون الرسول منهم يتلوه عليهم بلغاتهم لا جرم صرعهم الله أذل مصرع وقتلهم أقبح مقتل، ولعذاب الآخرة أشد لو كانوا يعلمون.

والمعنى[1]: أي قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم كما جاء في قولهم: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾: إنا سمعنا كتاباً بديعاً يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، فصدّقنا به، ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك بالله.

٢ - ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ بفتح الهمزة[2] وكذا ما بعده من الجمل المصدرة بـ ﴿أنّ﴾ في أحد عشر موضعاً معطوف على ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾، فيكون من جملة الكلام الموحى به على أنَّ المُوحى عين عبارة الجن بطريق الحكاية كأنّه قيل: قل أوحي إليّ كيت وكيت. وهذه العبارات فاندفع ما قيل من أنّك لو عطفت ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ و﴿إِنَّا سَمِعۡنَا﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا﴾ وشبه ذلك على أنّه استمع لم يجز، لأنّه ليس مما أوحي إليه، وإنّما هو أمر أخبروا به عن أنفسهم انتهى. قلت: والذي يظهر لي أنّ ﴿أنّ﴾ المفتوحة في مواضعها كلها مستعملة استعمال إنّ المكسورة

---

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

توسعة لدائرة الكلام إلا في قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ فتكون فيه على بابها، وفي سائر المواضع بمعنى ﴿إن﴾ المكسورة فتكون مقولا لقوله: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾. ومن قرأ بالكسر عطف على المحكي بعد القول، وهو الأظهرلوضوح اندراج الكلّ تحت القول. وقيل: في الفتح والكسر غير ذلك، والأقرب ما قلناه.

والمعنى: وأنّ الشأن ارتفع عظمة ربّنا كما تقول في الثناء على الله: وتعالى جدّك؛ أي: ارتفع عظمتك. وفي إسناد التعالي إلى العظمة مبالغة لا تخفى من قولهم: جدّ فلان في عيني؛ أي: عظم تمكّنه أو سلطانه، لأن الملك والسلطنة غاية العظمة. أو غناه على أنه مستعار من الجد الذي هو البخت والدولة والحظوظ الدنيوية سواء استعمل بمعنى الملك والسلطان أو بمعنى الغنى، فإن الجد في اللغة كما يكون بمعنى العظمة، وبمعنى أب الأب وأب الأم يكون بمعنى الحظ والبخت، يقال: رجل مجدود؛ أي: محظوظ. شبه سلطان الله وغناه الذاتيان الأزليان ببخت الملوك والأغنياء، فأطلق اسم الجد عليه استعارة.

وقرأ الحرميّان[1]: نافع وابن كثير، والأبوان: أبو عمرو وأبو بكر بفتح الهمزة من قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ وما بعده، وهي اثنتا عشرة آية، آخرها: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾. وباقي السبعة بالكسر، فأما الكسر فواضح؛ لأنها معطوفات على قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾، فهي داخلة في معموم القول. وأما الفتح فقال أبو حاتم: هو معطوف على مرفوع ﴿أُوحِىَ﴾، فهو كله في موضع رفع على ما لم يسم فاعله انتهى. وهذا لا يصح؛ لأن من المعطوفات ما لا يصح دخوله تحت ﴿أُوحِىَ﴾، وهو كل ما كان فيه ضمير المتكلم كقوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾، ألا ترى أنه لا يلائم ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾، وكذلك باقيها. وقال الزمخشري: ومن فتح كلهن فعطفاً على محل الجار والمجرور في ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، كأنه قيل: صدقناه وصدّقنا بأنه تعالى جد ربنا، وبأنه كان يقول سفيهنا، وكذلك البواقي انتهى. ولم يتفطن لما تفطن له الفراء من أن بعضها لا يحسن أن يعمل فيه ﴿ءَامَنَّا﴾.

وتلخيص ما في هذا المقام[2]: أن ﴿إنّ﴾ المشددة في هذه السورة على قسمين:

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

القسم الأول: ليس معه واو العطف، فهذا لا خلاف بين القرّاء في فتحه أو كسره على حسب ما جاءت به التلاوة واقتضته العربية كقوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾، لا خلاف في فتحه لوقوعه موضع المصدر، وكقوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ لا خلاف في كسره، لأنه محكي بالقول.

والقسم الثاني: أن يقترن بالواو وهو أربع عشرة كلمة: إحداها لا خلاف في فتحها، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾. والثانية: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾ كسرها ابن عامر وأبو بكر، وفتحها الباقون. والاثنتا عشرة الباقية فتحها الأخوان، وابن عامر وحفص، وكسرها الباقون كما تقدم تحرير ذلك كله. والاثنتا عشرة هي قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ﴾، ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا﴾، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ﴾ اهـ سمين.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ بفتح الجيم ورفع الدال مضافاً إلى ﴿ربنا﴾؛ أي: عظمته، قاله الجمهور، وقال أنس والحسن: غناه، وقال مجاهد: ذكره، وقال ابن عباس: قدره وأمره. وقرأ عكرمة ﴿جد﴾ منوناً، ﴿ربنا﴾ مرفوع الباء كأنه قال: عظيم هو ربنا فربنا بدل، والجد في اللغة العظيم. وقرأ حميد بن قيس ﴿جدّ﴾ بضم الجيم مضافاً، ومعناه: العظيم، حكاه سيبويه، وهو من الإضافة إلى الموصوف.

والمعنى: تعالى ربنا العظيم. وقرأ عكرمة ﴿جدّا ربّنا﴾ بفتح الجيم والدال منوناً ورفع ﴿ربنا﴾، وانتصب ﴿جدّا﴾ على التمييز المحول من الفاعل، أصله: تعالى جدّ ربنا. وقرأ قتادة وعكرمة أيضاً ﴿جدّا﴾ بكسر الجيم والتنوين نصباً ﴿ربّنا﴾ رفعاً. قال ابن عطية: نصب ﴿جدّا﴾ على الحال، ومعناه: تعالى حقيقة ومتمكناً، وقال غيره: هو صفة لمصدر محذوف تقديره: تعالياً جدّاً، و﴿ربنا﴾ مرفوع بـ ﴿تعالى﴾. وقرأ ابن السميفع ﴿جَدَى ربنا﴾؛ أي: جدواه ونفعه.

وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً...﴾ أي: زوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾؛ أي: ابناً ولا بنتاً. بيان[2] لحكم (تعالى جده)، كأنه قيل: ما الذي تعالى عنه؟ فقيل: ما اتخذ؛ أي:

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

لم يختر لنفسه لكمال تعاليه زوجة ولا بنتاً ولا ابناً كما يقول الظالمون: عيسى ابن الله، ومريم صاحبته، والملائكة بنات الله، وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والإيمان تنبهوا للخطأ في ما اعتقده كفرة الجن من تشبيه الله بخلقه في اتخاذ الصاحبة والولد، فاستعظموه ونزهوه تعالى عنه لعظمته وسلطانه أو لغناه، فإن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها. والولد للتكثير وإبقاء النسل بعد فوته، وهذه من لوازم الإمكان والحدوث، وأيضاً هو خارج عن دائرة التصور، والإدراك، فكيف يكيفه أحد؟ فيدخله تحت جنس حتى يتخذ صاحبة من صنف تحته أو ولداً من نوع يماثله. وقد قالت النصارى أيضاً: المسيح ابن الله واليهود عزير ابن الله، وبعض مشركي العرب الملائكة بنات الله. ويلزم من كون المسيح ابن الله على ما زعموا أن تكون مريم صاحبة له، ولذا ذكر الصاحبة. يعني: أنّ الولد يقتضي الأمّ التي هي صاحبة الأب الوالد.

والمعنى[1]: أي وإنهم كما نفوا عن أنفسهم الإشراك بالله نزّهوا ربهم عن الزوجة والولد؛ لأن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها، ولأنها من جنس الزوج، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾. والولد للتكثّر، والاستئناس به، والحاجة إليه حين الكبر وبقاء الذكر والشهرة، كما قال:

وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلا بِابْنٍ ذُرَا شَرَفٍ ... كَمَا عَلَتْ بِرَسُوْلِ اللَّه عَدْنَانُ

والله سبحانه منزه عن ذلك، تعالى ربنا علواً كبيراً.

والخلاصة: علا ملك ربنا وسلطانه أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة أو ملامسة يكون منها الولد.

٣ - ﴿وَأَنَّهُۥ﴾؛ أي: وأن الشأن ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾؛ أي: جاهلنا، وهو إبليس أو مردة الجن. فقوله: ﴿سَفِيهُنَا﴾ للجنس. والظاهر[2] أن يكون إبليس من الجنّ كما قال تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾. والسفه: خفّة النفس لنقصان العقل، ويكون في الأمور الدنيوية والأخروية، والمراد به في الآية هو السفه في الدين الذي هو السفه الأخروي، كذا في «المفرادت». ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

﴿يَقُولُ﴾، عبر بـ ﴿عَلَى﴾ لأنّ ما قالوه عليه تعالى لا له ﴿شَطَطًا﴾؛ أي: كذباً وبهتاناً وظلماً، والمراد به نسبة الصاحبة والولد إليه تعالى. وفي «المفردات»: الشطط: الإفراط في البعد عن الحق، أي: قولاً ذا شطط؛ أي: بعد عن القصد ومجاوزة الحدّ.

والمعنى: أي وقالوا: إن جهالنا كانوا يقولون ويفترون على الله قولاً بعيداً عن الحق والصواب بنسبة الولد والصاحبة إليه تعالى. وفي الآية إشارة إلى أن العالم غير العامل في حكم الجاهل، فإن إبليس كان من أهل العلم، فلما لم يعمل بمقتضى علمه جعل سفيهاً جاهلاً لا يجوز التقليد له. فالاتباع للجاهل، ومن في حكمه اتباع للشيطان، والشيطان يدعو إلى النار، لأنّه خلق منها.

٤ - ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن﴾ مخففة من الثقيلة؛ أي: أنّ الشأن ﴿لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ اعتذار عن تقليدهم لسفيههم؛ أي: وقالوا: إنا كنا نظن أن الشأن والحديث لن يكذب على الله أحد أبداً، ولذلك اتبعنا قول سفيهنا وصدّقناه في أنَّ لله تعالى صاحبة وولداً، فلما سمعنا القرآن، وتبين لنا الحق بسببه علمنا قد يكذبون عليه تعالى. و﴿كَذِبًا﴾ مصدر مؤكد لـ﴿تَقُولَ﴾، لأنه نوع من القول، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: قولاً كذباً. وقرأ الجمهور[1] ﴿أَن لَّن تَقُولَ﴾ مضارع قال. وقرأ الحسن، والجحدري، وعبد الرحمن بن أبي بكرة، ويعقوب، وابن مقسم ﴿تقوّل﴾ من التقول مضارع تقوّل من باب تفعّل، أصله: تتقول حذفت منه إحدى التاءين، فيكون ﴿كَذِبًا﴾ على هذه القراءة الشاذّة مفعولاً به.

والمعنى: أي وقالوا: إنّا كنّا نظن[2] أن لن يكذب أحد على الله تعالى، فينسب إليه الصاحبة والولد، ومن ثم اعتقدنا صحة قول السفيه، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم كانوا كاذبين، وهذا منهم إقرار بأنهم إنما وقعوا في تلك الجهالات بسبب التقليد، وأنهم إنما تخلصوا منها بالاستدلال والبحث.

٥ - ﴿وَأَنَّهُۥ﴾؛ أي: وأوحي إلي أن الشأن والحال ﴿كَانَ﴾ في الجاهلية ﴿رِجَالٌ﴾ كائنون ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ صفة لـ﴿رِجَالٌ﴾ ﴿يَعُوذُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾؛ أي: يلتجئون ويتحصّنون ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: يعوذون بهم من شرّ الجن. قال أبو حيان: وهذا

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

والذي بعده هما من الموحى به لا من كلام الجن، فهما معطوفان على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾، و﴿أن﴾ فيهما على معناها. وفيه دلالة على أن للجن نساء كالإنس، لأن لهم رجالاً، ولذا قيل في حقهم: إنهم يتوالدون، لكنهم[1] ليسوا بمنظرين كإبليس وذريّته. قال الحسن وابن زيد وغيرهما: كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه، فيبيت في جواره حتى يصبح، فنزلت هذه الآية. قال مقاتل: كان أوّل من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة ثم فشا ذلك في العرب. فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم.

وكان رجال الجن إذا سمعوا عوذ الإنس بهم استكبروا، وقالوا: سدنا الإنس والجن. وذلك قوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ عطف على ﴿يَعُوذُونَ﴾، والماضي للتحقّق؛ أي: فزاد الرجال العائذون الإنسيّون الجن ﴿رَهَقًا﴾ مفعول به ثان لـ ﴿زاد﴾؛ أي: تكبّراً وعتوّاً وسفهاً، فإن الرهق يجيء لمعان منها: السفه وركوب الشر والظلم. قال في آكام المرجان: وبهذا يجيبون المعزم والراقي بأسمائهم وأسماء ملوكهم، فإنه يقسم عليهم بأسماء من يعظمونه فيحصل لهم بذلك من الرياسة والشرف على الإنس ما يحملهم على أن يعطوهم بعض سؤلهم وهم يعلمون أن الإنس أشرف منهم وأعظم قدراً، فإذا خضعت الإنس لهم، واستعاذت بهم كان بمنزلة أكابر الناس إذا خضع لهم أصاغرهم يقضون لهم حاجاتهم. أو المعنى: فزاد الجن الإنس العائذين بهم غيًّا بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم، فإذا استعاذوا بهم فأمنوا ظنوا أن ذلك من الجن، فازدادوا رغبة في طاعة الشياطين وقبول وساوسهم. والفاء حينئذٍ لترتيب الإخبار، وإسناد الزيادة إلى الإنس أو الجن باعتبار السببية.

والمعنى: أي وأوحِي إلي أن رجالاً من الإنس كانوا يستعيذون في القفر برجال من الجن، فزادوا الجن بذلك طغياناً وغيًّا بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم.

وخلاصة ذلك: أنهم لما استعاذوا بالجن خوفاً منهم، ولم يستعيذوا بالله استذلوهم واجترؤوا عليهم وزادوهم ظلماً.

٦ - ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ الضمير فيه راجع إلى الجن إن قلنا: إنه من كلام الله الموحي

---

(١) روح البيان.

به، فهو معطوف على ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾؛ أي: وأوحي إلي أن الجن ﴿ظَنُّوا﴾ أن لن يبعث الله أحداً من الرسل إلى خلقه بالتكاليف، أو أن لن يبعث الله الخلق بعد الموت للجزاء ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ من الرسل أو أحداً من الخلق للجزاء يوم القيامة. أو إلى الإنس إن قلنا: إنه من كلام مؤمني الجن لكفّارهم حين رجعوا إلى قومهم منذرين، فيكون مقولاً لـ﴿قالوا﴾، على أنّ ﴿أنّ﴾ المفتوحة مستعملة استعمال إن المكسورة، أي: فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، وقالوا لكفّارهم حين رجعوا إليهم منذرين: إن الإنس الذين اتبعتموهم ظنوا أن لن يبعث الله أحداً من الرسل أو أحداً من الخلق للجزاء، كما ظننتم كذلك. و﴿أن﴾ في قوله: ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ مخفّفة من الثقيلة، والجملة[1] سادة مسد مفعولي ﴿ظَنُّوا﴾، وأعمل الأول على مذهب الكوفيين؛ لأنّ ﴿ما﴾ في ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ مصدرية فكان الفعل بعدها في تأويل المصدر، والفعل أقوى من المصدر في العمل. والظاهر: أن المراد بعثة الرسالة؛ أي: لن يبعث الله أحداً بالرسالة بعد عيسى، أو بعد موسى يقيم به الحجة على الخلق. ثم إنه بعث محمداً ﷺ خاتم النبيين، فآمنوا به. فافعلوا أنتم يا معشر الجن مثل ما فعل الإنس. وقيل: بعد القيامة؛ أي: لن يبعث الله أحداً بعد الموت للحساب والجزاء.

٧ - ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾؛ أي: وقال الجنّ بعضهم لبعض: إنّا طلبنا بلوغ السماء لاستماع ما يقول الملائكة من الحوادث أو خبرها للإفشاء، بين الكهنة. واللمس مستعار من المسّ للطلب، شبه الطلب بالمسّ واللمس باليد في كون كل واحد منهما وسيلة إلى تعرّف حال الشيء، فعبر عنه بالمس واللمس، واللمس: إدارك بظاهر البشرة كالمس، ويعبر به عن الطلب. قال في «كشف الأسرار»: ومنه حديث: إنّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إنّ امرأتي لا تدع عنها يد لامس؛ أي: لا ترد يد طالب حاجة صفراً، يشكو تضييعها ماله. ﴿فَوَجَدْنَٰهَا﴾؛ أي: السماء اليوم ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا﴾؛ أي: حرّاساً وحفظة من الملائكة يمنعون الجن عنها. و﴿حَرَسًا﴾ محرَّكاً اسم جمع لحارس بمعنى حافظ كخدم لخادم مفرد اللفظ ولذلك قيل: ﴿شَدِيدًا﴾ بالإفراد؛ أي: قويّاً، ولو كان جمعاً لقيل:

(١) روح البيان.

شدّادا. وقوله: ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ حال من مفعول ﴿وجدناها﴾ بتقدير قد إن كان وجدنا بمعنى أصبنا وصادفنا، ومفعول ثان إن كان من أفعال القلوب؛ أي: فعلمناها مملوءة و﴿حَرَسًا﴾ تمييز. ﴿وَشُهُبًا﴾ عطف على ﴿حَرَسًا﴾، وحكمه في الإعراب حكمه. جمع شهاب، وهي الشعلة المقتبسة من نار الكواكب، هكذا قالوا، وقد مرّ تحقيقه في تفسير قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

والمراد من الآية: إخبار[1] الله سبحانه عن مقال الجنّ حين بعث محمّداً ﷺ، وأنزل عليه القرآن، وحفظ منهم إنّ السماء ملئت حرّاساً شدّاداً وشهباً تحرسها من سائر أرجائها، وتمنعنا من استراق السمع كما كنّا نفعل أوّلاً.

أخرج أحمد والترمذي والنسائي عن ابن عباس قال: كان للشياطين مقاعد في السماء، يسمعون فيها الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأمّا الكلمة فتكون ﴿حقّاً﴾ وأمّا ما زادوا فيكون باطلاً. فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين بمكة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا هو الحدث الذي حدث في الأرض.

٨ ـ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾؛ أي: وقالوا: إنّا كنا نقعد قبل هذا ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من السماء ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾؛ أي:[2] مقاعد وأماكن خالية عن الحرس والشهب، يحصل منها مقاصدنا من استماع الأخبار للإلقاء إلى الكهنة أو صالحة للترصّد والاستماع. وقوله: ﴿لِلسَّمْعِ﴾ متعلق بـ﴿نَقْعُدُ﴾؛ أي: على الوجه الأول؛ أي: نقعد أماكن خالية عن الحرس لأجل السمع، أو بمضمر هو صفة لـ﴿مَقَٰعِدَ﴾؛ أي: على الثاني؛ أي: مقاعد كائنة للسمع. وفي «كشف الأسرار»؛ أي: مواضع لاستماع الأخبار من السماء، وكان لكل حيّ من الجنّ باب في السماء يستمعون فيه. والمقاعد: جمع مقعد اسم مكان، وذلك أنّ مردة الجن كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله ﷺ بالشهب المحرقة، وهو معنى قوله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وأخرج البخاري عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الملائكة تنزل في العنان ـ وهو بالفتح: السحاب ـ فتذكر الأمر الذي قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معه مائة كذبة من عند أنفسهم».

يقول الفقير: وجه التوفيق بين الاستراق من السماء ومن السحاب أن الملائكة مرة ينزلون في العنان فيتحدثون هناك، وأخرى يتذاكرون في السماء، ولا مانع من عروج الشياطين إلى السماء في مدة قليلة للطافة أجسامهم، وحيث كانت نارية أو هوائية أو دخانية لا يتأثرون من النار أو الهواء حين المرور بكرتهما، ولو سلم.. فعروجهم من قبيل الاستدراج. ولله في كل شيء حكمة وأسرار.

﴿فَمَن﴾ شرطية ﴿يَسْتَمِعِ﴾ في مقعد من المقاعد، ويطلب الاستماع ﴿ٱلْآنَ﴾؛ أي: في الزمان المستقبل بعد المبعث. وهو ظرف حالي استعير للاستقبال. ﴿يَجِدْ لَهُۥ﴾ جواب الشرط، والضمير لـ ﴿مَنْ﴾؛ أي: يجد لنفسه ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾؛ أي: شهاباً رصداً له أو أرصد لأجله يصده عن الاستماع بالرجم. والرصد في الأصل: الاستعداد للترقّب أو يجد له ملائكة ذوي شهاب راصدين له؛ ليرجموه بما معهم من الشهب على أنه اسم مفرد في معنى الجمع كالحرس، فيكون المراد بالشهاب الملائكة بتقدير المضاف. ويجوز نصب ﴿رَّصَدًا﴾ على المفعول له.

والمعنى[1]: أي وقالوا إنّا كنّا نقعد قبل ذلك فيها مقاعد خالية من الحرس والشهب لنسترق السمع، فطردنا منها حتى لا نسترق شيئا من القرآن، ونلقيه على ألسنة الكهان، فيلتبس الأمر ولا يدرى الصادق، فكان ذلك من لطف الله سبحانه بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز، فمن يستمع ويرم أن يسترق السمع اليوم.. يجد له شهاباً مرصداً لا يتخطاه ولا يتعدّاه، بل يهلكه ويمحقه. وإنا لنؤمن بما جاء في الكتاب الكريم من أنّ الجن كانوا يسترقون السمع، ومنعوا من ذلك بعد بعثة النبي ﷺ، ولكن لا نعرف كيف كانوا يسترقون السمع، ولا نعرف كنه الحرس الذين منعوهم ولا المراد بالشهب التي كانت رصداً لهم. والجن أجسام نارية، فكيف تحترق من الشهب؟ والله أعلم بحقيقة الحال.

---

(١) المراغي.

وقد اختلفوا[1]: هل كانت الجنّ والشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا؟ فقال قوم: لم يكن ذلك، وحكى الواحدي عن معمر قال: قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ الآية؟ قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ. قال ابن قتيبة: إنّ الرجم قد كان قبل مبعثه ﷺ، ولكنه لم يكن مثله في شدة الحراسة بعد مبعثه، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال، فلما بعث منعوا من ذلك أصلاً. وقال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء ورميت الشياطين بالشهب، ومنعت من الدنو إلى السماء. وقال نافع بن جبير: كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا تُرمى، فلما بعث رسول الله ﷺ.. رميت بالشهب.

٩ ـ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾؛ أي: وقالوا: إنا لا ندري؛ أي: قالت الجن بعضهم لبعض: لا ندري ولا نعرف ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء منّا ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؛ أي: خيراً وإصلاحاً أوفق لمصالحهم. والاستفهام لإظهار العجز عن الاطلاع على الحكمة، وارتفاع ﴿أَشَرٌّ﴾ على الاشتغال أو على الابتداء، وخبره ما بعده، والأول أولى، والجملة سادّة مسدّ مفعولي ﴿نَدْرِىٓ﴾. والأصح: أنَّ هذا من قول الجنّ فيما بينهم، وليس من قول إبليس، كما قاله ابن زيد.

والمعنى: أي إن السماء لم تحرس إلا لأحد الأمرين[2]:

الأول: إمّا لعذاب يريد الله أن ينزله على أهل الأرض بغتة.

الثاني: وإما لنبي مرشد مصلح. وكأنهم يقولون: أعذاباً أراد الله أن ينزله بأهل الأرض بمنعه إيَّانا السمع من السماء ورجمه من استمع منّا بالشهب، أم أراد بهم ربهم الهدى بأن يبعث منهم رسولاً مرشداً يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

١٠ ـ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾؛ أي: وقال الجن بعضهم لبعض لما دعوا أصحابهم

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

إلى الإيمان بمحمد ﷺ: وإنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بصلاح الحال في شأن أنفسهم، وفي معاملتهم مع غيرهم، أو بما يكون إلى الخير والصلاح حسبما تقتضيه الفطرة السليمة لا إلى الشرّ والفساد، كما هو مقتضى النفوس الشريرة. والقصر ادّعائي كأنهم لم يعتدوا بصلاح غير ذلك البعض، فـ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ مبتدأ و﴿مِنَّا﴾ خبره المقدم، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، ويجوز أن يكون ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ فاعل الجار والمجرور الجاري مجرى الظرف لاعتماده على المبتدأ. ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قوم دون ذلك في الصلاح؛ أي: دون الموصوفين بالصلاح، فحذف الموصوف، لأنّه يجوز حذف هذا الموصوف في التفصيل بـ ﴿مِنْ﴾ حتى قالوا: مِنّا ظعن ومنّا أقام، يريدون منّا فريق ظعن ومنا فريق أقام. و﴿دُونَ﴾ ظرف، وهم المقتصدون في صلاح الحال على الوجه المذكور غير الكاملين فيه لا في الإيمان والتقوى كما توهّم، فإن هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن كما يعرب به عنه قوله تعالى: ﴿كُنَّا﴾ قبل استماع القرآن ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾؛ أي: جماعات متفرقة وفرقاً مختلفة أهواؤها. وقد تعددوا قالوا: في الجن قدرية، ومرجئة، وخوارج، وروافض، وشيعية وسنية.

وأما حالهم بعد استماع القرآن فيحكى بقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾؛ أي: كنا قبل هذا طرائق في اختلاف الأحوال، فهو بيان للقسمة المذكورة، ولا بدّ من تقدير مضاف؛ أي: كنّا ذوي طرائق لامتناع كون الذوات طرائق. قال في «المفردات»: الطرائق جمع طرق، والطرق جمع طريق، فهو جمع الجمع. والظاهر: أن الطرائق جمع طريقة كقصائد جمع قصيدة، والطريق في الأصل: المكان الذي يطرق؛ أي: يضرب بالأرجل، ومنه استعير كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل محموداً كان أو مذموماً والقدد: جمع قد، وهو قطع الشيء طولاً، والقدّ أيضاً المقدود، ومنه قيل لقامة الإنسان: قدّ، والقدّة: القطعة. يعني: أنها من القد كالقطعة من القطع، وصفت الطرائق بالقدد لدلالتها على معنى التقطع والتفرق، يقال: صار القوم قدداً إذا تفرقت أحوالهم.

وقال بعض المفسرين: المراد بالصالحين السابقون بالخيرات، وبما دون ذلك؛ أي: أدنى مكان منهم المقتصدون الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، وأمّا الظالمون لأنفسهم فمندرج في قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، فيكون تعميماً

بعد تخصيص على الاستئناف، ويحتمل أن يكون ﴿دُونَ﴾ بمعنى غير، فيندرج القسمان الأخيران فيه.

وقيل المعنى: أي وقالوا: إنّا منا المسلمون العاملون بطاعة الله ومنّا قوم دون ذلك، وأنّا كنا أهواء مختلفة وفرقاً شتى، فمنا المؤمن والفاسق والكافر، كما هي الحال في الإنس، والأول أولى.

١١ - ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾؛ أي: وقالوا: إنّا ظننا وعلمنا الآن بالاستدلال والتفكر في آيات الله. فالظن هنا بمعنى اليقين؛ لأن الإيمان لا يحصل بالظن، ولأن مقصودهم ترغيب أصحابهم وترهيبهم، وذلك بالعلم لا بالظن كما قال ﷺ: «أنا النذير العريان». ﴿أَن﴾؛ أي: أنَّ الشأن ﴿لَن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه عن إمضاء ما أراد بنا، كائنين ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أينما كنّا من أقطارها، فقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من فاعل ﴿نُّعْجِزَ﴾، ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ﴾ سبحانه، وقوله: ﴿هَرَبًا﴾ حال من فاعل ﴿لن نعجز﴾؛ أي: هاربين من الأرض إلى السماء وإلى البحار وإلى جبل قاف، أو لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً، ولن نعجزه هرباً إن طلبنا. فالفرار من موضع إلى موضع وعدمه سيّان في أنّ شيئاً منهما لا يفيد فواتنا منه، ولعل الفائدة في ذكر الأرض حينئذٍ الإشارة إلى أنها مع سعتها، وانبساطها ليست منجى منه تعالى ولا مهرباً.

والمعنى: أي وقالوا: إنا علمنا أن الشأن لن نعجز الله في الأرض أينما كنا في أقطارها، ولن نفوته إن أراد بنا أمراً، ولن نعجزه هاربين منها إن طلبنا فلا نفوته بحال.

والخلاصة: أنّ الله قادر علينا حيث كنا، فلا نفوته هرباً.

١٢ - ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ أي: وقالوا: إنّا لمّا سمعنا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ من غير تأخّر ولا تردّد، وصدّقنا أنّه من عند الله، ولم نكذب به كما كذبت به كفرة الإنس. ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ وبما أنزله من الهدى ﴿فَلَا يَخَافُ﴾؛ أي: فهو لا يخاف. فالكلام على تقدير مبتدإ، ولذلك دخلت الفاء، ولولا ذلك لقيل: لا يخف. وفائدة رفع الفعل ووجوب إدخال الفاء أنه دال على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة، وأنه المختص بذلك دون غيره. ﴿بَخْسًا﴾؛ أي: نقصاً في جزاء حسناته ﴿وَلَا رَهَقًا﴾؛ أي: ظلماً بزيادة في جزاء سيئاته، أو جزاء بخس

ولا رهق؛ أي: ظلم إذا لم يبخس أحداً حقّاً ولا رهقاً؛ أي: ظلم أحداً فلا يخاف جزاءهما، وفيه دلالة على أنّ من حق من آمن بالله أن يجتنب المظالم، ومنه قوله ﷺ: «المؤمن من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم». قال الواسطي رحمه الله: حقيقة الإيمان: ما أوجب الأمان، فمن بقي في مخاوف المرتابين لم يبلغ إلى حقيقة الإيمان.

والمعنى: أي وقالوا إنّا لمّا سمعنا القرآن الذي يهدي إلى الصراط المستقيم صدّقنا به، وأقررنا بأنه من عند الله تعالى، واتبعناه، ومن يصدّق بوحدانية الله، وبما أنزله على رسله فلا يخاف نقصاً من حسناته، ولا ذنباً يحمل عليه من سيئات غيره، قاله قتادة. وقصارى ذلك: أنّه ينال جزاء وافراً كاملاً.

وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش[1]: ﴿فلا يخف﴾ بالجزم على أنه جواب الشرط ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء. وقرأ الجمهور ﴿بَخْسًا﴾ بسكون الخاء. وقرأ يحيى بن وثّاب بفتحها.

١٣ - ﴿و﴾ قالوا ﴿أنا منا المسلمون﴾ بعد استماع القرآن ﴿وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾؛ أي: الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحقّ والهدى الذي هو الإيمان والطاعة إلى طريق الباطل والفساد الذي هو الكفر والمخالفة لأمر الله تعالى. فالقاسط هو الجائر؛ لأنّه عادل عن الحق، والمقسط: العادل، لأنه عادل إلى الحقّ، يقال: قسط إذا جار، وأقسط إذا عدل. وقد غلب[2] هذا الاسم؛ أي: القاسط على فرقة معاوية رضي الله عنه، ومنه الحديث خطاباً لعليّ رضي الله عنه: «تقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين». فالناكثون أصحاب عائشة رضي الله عنها، فإنهم الذين نكثوا البيعة مع عليّ؛ أي: نقضوها واستنزلوا عائشة، وساروا بها إلى البصرة على جمل اسمه عسكر، ولذا سميت الواقعة يوم الجمل. والقاسطون: أصحاب معاوية رضي الله عنه، لأنهم قسطوا، أي: جاروا حين حاربوا الإمام الحقّ. والوقعة تعرف بيوم صفين، والمارقون الخوارج فإنّهم الذين مرقوا، أي: خرجوا من دين الله واستحلّوا القتال مع خليفة رسول الله ﷺ، وهم عبد الله بن وهب الراسبي وحرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثدية، وتعرف تلك الواقعة

---

(١) الشوكاني.　　(٢) روح البيان.

بيوم النهروان هي من أرض العراق على أربعة فراسخ من بغداد.

والمعنى: أي وإنّا بعد سماع القرآن مختلفون، فمنّا المخلصون في صفة الإسلام، ومنّا المائلون عن طريق الحقّ.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾؛ أي: أخلص بالتوحيد. قال سعدي المفتي: يجوز أن يكون من كلام الجنّ، ويجوز أن يكون من كلام الله مخاطبة لرسوله، ويؤيده ما بعده من الآيات. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من أسلم، والجمع باعتبار المعنى ﴿تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾؛ أي: قصدوا طريق حقّ وصواب. والتحرّي في الأصل: طلب الأحرى والأليق قولاً أو فعلاً؛ أي: طلبوا وقصدوا رشداً وصواباً وحقاً، يقال: رشد كنصر وفرح رشدا ورشداً ورشاداً: اهتدى اهتداء عظيماً إلى طريق الحقّ والصواب يبلغهم إلى دار الثواب، فتحري الرشد مجاز عن ذلك بعلاقة السببية. وقرأ الأعرج ﴿رشدا﴾ بضمّ الراء وسكون الشين، والجمهور بفتحهما.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾؛ أي: الجائرون عن سنن الهدى ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾؛ أي: وقوداً توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس.

فإن قيل: الجنّ مخلوقون من النار فكيف يكونون حطباً لها؟

أجيب: بأنهم وإن خلقوا منها.. لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية، فصاروا لحماً ودماً، هكذا قيل اهـ خطيب. وأيضاً قويها قد يأكل ضعيفها، فيكون الضعيف حطباً للقوي.

والمعنى(1): أي وأنا منا المؤمنون الذين أطاعوا الله وأخبتوا إليه وعملوا صالح الأعمال، ومنا الجائرون عن النهج القويم، وهو الإيمان بالله وطاعته، ومن آمن بالله وأطاعه فقد سلك الطريق الموصل إلى السعادة، وقصد ما ينجيه من العذاب. ثم ذمّ الكافرين منهم فقالوا: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾؛ أي: وأمّا الجائرون عن سنن الإسلام، فكانوا حطباً لجهنم توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس، وقد ذكر ثواب المؤمنين منهم بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾. وإلى هنا انتهى كلام الجن.

ثم عاد إلى ذكر الموحى به إلى رسوله فقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ هذا

---

(1) المراغي.

ليس من كلام الجنّ بل هو من جملة الموحى به قطعاً، فهو معطوف على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾. و«أن» مخففة من الثقيلة، والمعنى: وأوحي إليَّ أنَّ الشأن والحال لو استقام وتمسّك وثبت واستقر الجن أو الإنس أو كلاهما على الطريقة المستقيمة التي هي طريقة دين الإسلام. ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾؛ أي: ماء كثيراً واسعاً. وقرأ الأعمش وابن وثّاب بضم واو ﴿لو﴾. وقرأ الجمهور بكسرها لالتقاء الساكنين. والإسقاء والسقي بمعنى واحد. وقال الراغب: السقي والسقيا: هو أن تعطيه ماء ليشربه والإسقاء: أن تجعل له ذلك حتى يتناوله كيف يشاء، يقال: غدق الماء من باب علم إذا غزر، وصف به للمبالغة في غزارته كرجل عدل، وتخصيص الماء الكثير بالذكر؛ لأنّه أصل السعة، وإن كان أصل المعاش هو أصل الماء لا كثرته ولعزّة وجوده بين العرب قال عمر رضي الله عنه: «أينما كان الماء.. كان العشب، وأينما كان العشب كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة».

والمعنى: لأعطيناهم مالاً كثيراً وعيشاً رغداً، ووسّعنا عليهم الرزق في الدنيا. وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين. وفيه دلالة على أن الجن يأكلون ويشربون. وقال بعضهم: وضرب الماء الغدق مثلاً؛ لأنّ الخير كلّه، والرزق بالمطر.

وقيل المعنى: وأن لو استقام أبوهم على عبادته وسجد لآدم، ولم يكفر وتبعه أولاده على الإسلام.. لأنعمنا عليهم. واختار الزجاج هذا القول.

والخلاصة: وأوحي إليّ أنّه لو استقام الإنس والجنّ على ملة الإسلام.. لوسعنا عليهم أرزاقهم، ولبسطنا لهم في الدنيا. وإنما خص الماء الغدق بالذكر؛ لأنه أصل المعاش وكثرته أصل السعة، ولندرة وجوده بين العرب. ومن ثم امتن الله سبحانه على نبيه بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ على تفسير الكوثر بالنهر الجاري. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وسر هذا: ما عرفت غير مرّة من أن الخصب والسعة لا يوجدان إلا حيث توجد الطمأنينة والعدل، ويزول الظلم، وتكون الناس سواسية في نيل الحقوق، فلا ظلم ولا إرهاق ولا محاباة، ولا رُشاً في الأحكام.

ثم ذكر سبب البسط حينئذٍ فقال: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: لنختبرهم في ذلك الإسقاء والتوسيع كيف يشكرونه، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ﴾ أو في ذلك الماء الغدق، والمآل واحد.

وقال الكلبيّ: المعنى وأن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر، فكانوا كلهم كفّاراً.. لأوسعنا أرزاقهم مكراً بهم واستدراجاً حتى يفتنوا بها، فنعذّبهم في الدنيا والآخرة، وبه قال الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، وكيسان، وأبو مجلز وغيرهم، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ الآية، والأول أولى.

وفي الآية: إشارة إلى أن المرزوق بالرزق الروحانيّ والغذاء المعنوي يجب عليه القيام بشكره أيضاً، وذلك بوظائف الطاعات وصنوف العبادات وضروب الخدمات.

والمعنى[1]: أي لنختبرهم فيه؛ أي: لنعاملهم معاملة المختبر لنرى هل يشكروننا على هذه النعم، فإن وفوها حقَّها كان لهم من الجزاء الأوفى، وإن نكصوا على أعقابهم استدرجناهم وأمهلناهم، ثم أخذناهم أخذ عزيز مقتدر، كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ﴾؛ أي: عن عبادة ربّه أو عن موعظته أو وحيه أو عن القرآن، أو عن جميع ذلك. ﴿يَسْلُكْهُ﴾؛ أي: يدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾؛ أي: عذاباً شاقّاً صعباً يتصعد عليه؛ أي: يعلو المعذب ويغلبه، فلا يطيقه على أنه مصدر وصف به للمبالغة.

أي: ومن يعرض عن القرآن وعظاته فلا يتبع أوامره ولا ينتهي عن نواهيه ندخله في العذاب الشاقّ الذي يعلوه ويغلبه، ولا يطيق له حملاً. يقال: سلكت الخيط في الإبرة إذا أدخلته فيها؛ أي: نسلكه في عذاب صعد كما قال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: أدخلهم فيها. فحذف الجار، وأوصل الفعل ثم إن كان

---

(١) المراغي.

إعراضه بعدم التصديق.. فعذابه بالتأبيد، وإلا فبقدر جريمته إن لم يغفر له.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نسلكه﴾ بالنون مفتوحة من سلكه الثلاثي. وقرأ الكوفيّون وأبو عمرو في رواية عنه بالياء التحتية من سلك الثلاثي أيضاً. واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾، ولم يقل: عن ذكرنا. وقرأ مسلم بن جندب، وطلحة بن مصرف، والأعرج ﴿نسلكه﴾ بالنون المضمومة من أسلكه الرباعي، وبعض التابعين بالياء من أسلك أيضاً. وهما لغتان سلك وأسلك. وقرأ الجمهور[2]: ﴿صَعَدًا﴾ بفتحتين، وهو مصدر صعد المكسور، يقال: صعد صعداً وصعوداً، فوصف به العذاب مبالغةً؛ لأنّه يتصعّد المعذّب؛ أي: يعلوه ويغلبه فلا يطيقه. قال أبو عبيد: الصعد مصدر؛ أي: عذاباً ذا صعد؛ أي: مشقّة. وقال عكرمة: الصعد هو صخرة ملساء في جهنم، يكلّف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم كما في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾. والصعود العقبة الكؤود. وروي: أنّ ﴿صَعَدًا﴾ جبل في النار إذا وضع عليه يديه أو رجليه ذابتا، وإذا رفعهما عادتا. وقرأ قوم[3] ﴿صعدا﴾ بضمّتين. وقرأ ابن عباس والحسن بضمّ الصاد وفتح العين، قال الحسن: معناه: لا راحة فيه.

وقرأ الجمهور: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ بفتح الهمزة عطفاً على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾؛ أي: وأوحي إليّ أن المساجد مختصة بالله تعالى وبعبادته خصوصاً المسجد الحرام، ولذلك قيل: بيت الله. فالمراد بالمساجد[4]: المواضع التي بنيت للصلاة فيها وذكر الله، ويدخل فيها البيوت التي يبنيها أهل الملل للعبادة نحو: الكنائس والبيع ومساجد المسلمين. ثم هذا لا ينافي أن تضاف المساجد وتنسب إلى غيره تعالى بوجه آخر إما لبانيها كمسجد رسول الله ﷺ، أو لمكانها كمسجد بيت المقدس إلى غير ذلك من الاعتبارات. وأعظم المساجد حرمة المسجد الحرام، ثم مسجد المدينة، ثم مسجد بيت المقدس، ثم الجوامع، ثم مساجد المحال، ثم مساجد الشوارع، ثم مساجد البيوت. وقال الحسن: أراد بها كل البقاع؛ لأنَّ الأرض كلها مسجد، وكأنه أخذ مما في الحديث الصحيح: «جُعلت لي

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

الأرض مسجداً وطهوراً».

وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي: القدمان، والركبتان، واليدان، والجبهة. يقول: هذه أعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله، وكذا قال عطاء. وقيل: المساجد هي الصلاة؛ لأنّ السجود من جملة أركانها، قاله الحسن أيضاً. وقال الخليل: معنى الآية؛ ولأنّ المساجد لله فلا تدعوا الخ، أي: لهذا السبب، وكذلك عنده ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ولأنّ هذه.

وقرأ ابن هرمز وطلحة[1]: ﴿وإن المساجد﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف وعلى تقدير الخليل فالمعنى: فلا تدعوا مع الله أحداً في المساجد؛ لأنها لله خاصة ولعبادته.

والفاء: في قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟﴾؛ أي: لا تعبدوا فيها. ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ للسببية؛ أي: لا تجعلوا أحداً غير الله شريكاً لله في العبادة، فإذا كان الإشراك مذموماً فكيف يكون حال تخصيص العبادة بالغير.

والمعنى: أي قل أوحي إليَّ أنّه استمتع نفر من الجنّ، وأن المساجد لله، فلا تعبدوا فيها أحداً غير الله تعالى كائناً ما كان، ولا تشركوا به فيها شيئاً. وعن قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله معبودات أخرى لهم، فأمرنا بهذه الآية أن نخلص لله تعالى الدعوة إذا دخلنا المساجد.

قال بعض أهل المعرفة[2]: إنما تبرأ الله سبحانه عن الشريك؛ لأنّه عدم والله وجود، فتبرّأ من العدم الذي لا يلحقه؛ إذ هو واجب الوجود لذاته، والله تعالى مع الخلق، وما الخلق مع الله، لأنّه تعالى يعلمهم وهم لا يعلمونه فهو تعالى معهم أينما كانوا في ظرفية أمكنتهم وأزمنتهم وأحوالهم، وما الخلق معه تعالى فإنهم لا يعرفونه حتى يكونوا معه، ولو عرفوه من طريق الإيمان وهم كانوا كالأعمى يعلم أنه جليس زيد، ولكن لا يراه فهو كأنّه يراه انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ بفتح الهمزة عطفاً على قوله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾. وقرأ ابن هرمز، وطلحة، ونافع، وأبو بكر بكسرها على الاستئناف. وعبد الله هو رسول الله ﷺ؛ أي: وأوحي إليَّ أن الشأن لما قام عبد الله، وهو النبي ﷺ حال كونه ﴿يَدْعُوهُ﴾ حال من فاعل قام؛ أي: حال كون عبد الله يعبد الله ويذكره. وذلك ببطن نخلة حين قام رسول الله ﷺ يصلي صلاة الفجر بأصحابه، ويتلو القرآن ﴿كَادُوا﴾؛ أي: قرب الجن ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾ ﷺ ﴿لِبَدًا﴾؛ أي: مزدحمين على استماع قراءته ﷺ. جمع لبدة بالكسر نحو: قربة وقرب، وهي ما تلبد بعضه على بعض؛ أي: تراكب وتلاصق، ومنها: لبدة الأسد، وهي الشعر المتراكب بين كتفيه.

والمعنى: متراكمين يركب بعضهم بعضاً، ويقع من ازدحامهم على النبي ﷺ تعجباً مما شاهدوا من عبادته، وما سمعوا من قراءته واقتداء أصحابه به قياماً وقعوداً وسجوداً؛ لأنّهم رأوا ما لم يروا مثله قبله، وسمعوا مما لم يسمعوا بنظيره. وعلى قراءة الكسر إذا جعل من مقول الجن فضمير ﴿كَادُوا﴾ لأصحابه ﷺ الذين كانوا مقتدين به في الصلاة. أي: وقالوا: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ كاد أصحابه يكونون مزدحمين عليه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لِبَدًا﴾ بكسر اللام وفتح الباء، جمع لبدة نحو كسرة وكسر، وهي الجماعات، شبّهت بالشيء المتلبّد بعضه فوق بعض. وقرأ مجاهد وابن محيصن وابن عامر بخلاف عنه بضمّ اللام وفتح الباء، جمع لبدة كزبرة وزبر، وعن ابن محيصن أيضاً تسكين الباء وضمّ اللام. وقرأ الحسن، والجحدري وأبو حيوة، ومحمد بن السمفيع، والعقيليّ، وجماعة عن أبي عمرو بضمّتين جمع لبد كرهن ورهن، أو جمع لبود كصبور وصبر. وقرأ الحسن والجحدري بخلاف عنهما، وأبو العالية والأعرج بضمّ اللام وتشديد الباء مفتوحة. فعلى القراءة الأولى المعنى ما ذكرناه، وعلى القراءة الثانية يكون المعنى: كثيراً كما في قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

والمعنى[1]: وأوحيَ إليَّ أنه لما قام رسول الله ﷺ يعبد الله، ويذكره ببطن نخلة في صلاة الصبح كاد الجنّ، وقربوا يكونون جماعات متراكمات بعضها فوق بعض تعجّباً مما شاهدوا من عبادته، وسمعوا من قراءته واقتداء أصحابه به قياماً وركوعاً وسجوداً؛ إذ رأوا ما لم يروا مثله قطّ، وسمعوا ما لم يسمعوا مثله. وقال الحسن وقتادة: إنّه لما قام عبد الله بالرسالة يدعو الله وحده مخالفاً للمشركين في عبادتهم الأوثان كاد الكفّار لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون متراكمين جماعات جماعات.

فإن قلت:[2] لِمَ قيل: ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وهلاّ قيل: رسول الله أو النبي؟

قلتُ: لأن تقديره: وأوحي إليَّ أنه لما قام عبد الله، فلما كان واقعاً في كلام رسول الله ﷺ عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل. قال مقاتل: إن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلّهم، فارجع عن هذا، فأنزل الله قوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ﴾ وأعبد ﴿رَبِّي﴾ ومالك أمري ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ﴾ أي: بربّي في العبادة ﴿أَحَدًا﴾ فليس ذلك ببدع، فلا مستنكر يوجب التعجب أو الإطباق على عدواتي، وهذا حالي فليكن حالكم أيضاً كذلك. وقرأ الجمهور ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾؛ أي: قال عبد الله: إنما أدعو ربي وأعبده ولا أشرك به أحداً من خلقه».

أي: قال للمتظاهرين عليه من الكفّار: إنما أدعو ربي؛ أي: لم آتِكم بأمر ينكر إنما أدعو ربي وحده، وليس ذلك مما يوجب إطباقكم على عدواتي، أو قال للجن عند ازدحامهم متعجبين ليس ما ترون من عبادة الله أمراً يتعجّب منه، إنما يتعجب ممن يعبد غيره تعالى، أو قال الجن لقومهم ذلك حكاية عن رسول الله ﷺ، وهذا كله مرتب على الخلاف في عود الضمير في ﴿كادوا﴾. وقرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو بخلاف عنه ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المزدحمين عليك وهم إما الجن، وإما المشركون على اختلاف القولين في ضمير ﴿كَادُواْ﴾.

ثم بين أنه لا يملك من الأمر شيئاً فهو لا يستطيع هدايتهم ولا جلب الخير لهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ﴾؛ أي: لا أستطيع

(١) المراغي. (٢) الكشاف.

﴿لَكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿ضَرًّا﴾ ولا نفعاً، ولا أملك لكم غيّا ﴿وَلَا رَشَدًا﴾؛ أي: هدايةً، أي: ليس هذا كله بيدي بل بيد الله تعالى، فإنه هو الضارّ النافع الهادي المضلّ، فترك من كلا المتقابلين ما ذكر في الآخر فالآية فيها من المحسنات البديعية الاحتباك، وهو الحذف من كل متقابلين ما يدل عليه الآخر.

والمعنى: أي قل أيها الرسول لأولئك المشركين الذين ردّوا عليك ما جئتهم به من النصيحة: إنّي لا أملك لكم ضرّاً في دينكم ولا دنياكم، ولا نفعاً أجلبه لكم، وإنما الذي يملك ذلك كله هو الله الذي له ملك كلّ شيء، وهو القادر على ذلك وحده، وكأنّه عليه السلام أمر أن يقول ما أردت إلا نفعكم فقابلتموني بالإساءة، وليس في استطاعتي النفع الذي أردت، ولا الضر الذي أكافئكم به إنّما ذان لله تعالى. وفي هذا تهديد عظيم لهم، وتوكل على الله عزّ وجلّ، وإنه هو الذي يجزيه بحسن صنيعه، ويجزيهم بسوء صنيعهم. وفيه إيماء إلى أنه لا يدع التبليغ لتظاهرهم عليه.

ثم بين عجزه عن شؤون نفسه بعد عجزه عن شؤون غيره، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾؛ أي: لن ينقذني، ويخلّصني ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من قهره وعذابه.. إن خالفت أمره وأشركت به ﴿أَحَدٌ﴾ من المخلوقات إن استنقذته، أو لن ينجيني منه أحد إن أرادني بسوء قدره عليّ من مرض أو موت أو غيرهما.

قال بعضهم: هذه لفظة تدلّ على الإخلاص في التوحيد؛ إذ التوحيد هو صرف النظر إلى الحقّ لا غير، وهذا لا يصح إلا بالإقبال على الله، والإعراض عمّا سواه والاعتماد عليه دون ما عداه.

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مُلْتَحَدًا﴾؛ أي: ملجأً ومعدلاً وحرزاً وممالاً. ويقال للملجأ: ملتحد لأن اللاجيء يميل إليه، والمعنى: ولن أجد عن الشدائد ملجأً غيره تعالى وموئلاً ومعدلاً فلا ملجأ ولا موئل ولا معدل إلا هو سبحانه وتعالى. وهذا بيان لعجزه عن شؤون نفسه بعد بيان عجزه عن شؤون غيره؛ أي: وإذ لا أملك لنفسي شيئاً، وكيف أملك لكم شيئاً؟.

وقوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناء متصل[1] من قوله: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ﴾؛ أي: من مفعوله، فإن التبليغ إرشاد ونفع؛ أي: لا أملك لكم إرشاداً ولا هداية إلا تبليغاً كائناً من الله سبحانه إليكم، فإنَّ الإرشاد والإضلال بيده تعالى، وما بينهما اعتراض مؤكّد لنفي الاستطاعة عن نفسه فلا يضرّ طول الفصل بينهما وفائدة الاستثناء المبالغة في توصيف نفسه بالتبليغ لدلالته على أنه لا يدع التبليغ الذي يستطيعه لتظاهرهم على عداوته. وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة بلاغاً؛ أي: بلاغاً كائناً منه تعالى، وليس متعلّقاً بقوله: ﴿بَلَٰغًا﴾؛ لأنّ صلة التبليغ في المشهور إنما هي كلمة عن دون من، و﴿بَلَٰغًا﴾ واقع موقع التبليغ كما يقع السلام والكلام موقع التسليم والتكليم. أو استثناء منقطع من قوله: ﴿مُلۡتَحَدًا﴾؛ أي: لن أجد من دونه تعالى ملتحداً وملجأً إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به، فهو يجيرني؛ لأنّ البلاغ ليس ملتحداً من دون الله؛ لأنه من الله وبإعانته وتوفيقه. وقوله: ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ معطوف على ﴿بَلَٰغًا﴾ بتقدير مضاف، وهو البلاغ؛ أي: لا أملك لكم إلاّ تبليغاً كائناً منه تعالى وتبليغ رسالاته التي أرسلني بها. يعني: إلا أن أبلغ عن الله فأقول: قال الله كذا ناسباً للمقالة إليه تعالى، وإلا أن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان. وقال سعدي المفتي: لعلّ المراد من ﴿بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو ما يأخذه منه تعالى بلا واسطة، ومن رسالاته ما هو انتهى إليه بواسطة. والمراد بالرسالة هو ما أرسل به الرسول من الأمور والأحكام والأحوال، لا معنى المصدر. والظاهر أنّ المعنى: إلا التبليغ والرسالة من الله تعالى. وجمع الرسالة باعتبار تعدّد ما أرسل هو به.

والمعنى: أي قل إني لن يجيرني من الله أحد من خلقه إن أراد بي سوءاً، ولم ينصرني منه ناصر، ولا أجد من دونه ملجأً ولا معيناً، لكن إن بلغت رسالته وأطعته أجارني.

والخلاصة: أني لن يجيرني من الله أحد إن لم أبلغ رسالاته.

ثم بين جزاء العاصين لله ورسوله، فقال: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر بالتوحيد؛ لأنّ السياق فيه؛ لأنّ الكلام في تبليغ الرسالة بأن لا يمتثل أمرهما

---

(١) روح البيان.

به ودعوتهما إليه فيشرك به. وهذا يصلح أن يكون مخصصا من العموم، فلا متمسك للمعتزلة في الآية على تخليد عصاة المؤمنين في النار. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: في النار أو في جهنم. والإفراد في ﴿له﴾ باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، والجمع في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ باعتبار المعنى؛ أي: حال كونهم ماكثين فيها ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: أمداً طويلاً لا نهاية له. أتي به دفعاً لأن يراد بالخلود المكث الطويل.

وقرأ الجمهور[1]: بكسر همزة ﴿إنّ﴾ على أنها جملة مستأنفة. وقرأ طلحة بفتحها؛ لأنّ ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء، والتقدير: فجزاؤه أنَّ له نار جهنم أو فحكمه أنّ له نار جهنم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الدنيا، أو في الآخرة، غاية لمحذوف دل عليه حالهم من استضعاف الكفّار لأنصاره ﷺ واستقلالهم لعددهم حتى قالوا: هم بالنسبة إلينا كالحصاة من جبال. تقديره: ولا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبيّ ﷺ والمؤمنين حتى إذا رأوا الذي يوعدون به من العذاب. ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينئذٍ عند حلوله بهم ﴿مَنۡ﴾ هو ﴿أَضۡعَفُ نَاصِرًا﴾ ينتصر به وجنداً يستعين به. ﴿و﴾ من هو ﴿أقل عددا﴾ ومدداً، أهم أم المؤمنون؟ فـ﴿مَن﴾ موصولة، و﴿أَضۡعَفُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن تكون استفهامية مرفوعة بالابتداء، و﴿أَضۡعَفُ﴾ خبره، والجملة في موضع نصب سدّت مسدّ مفعولي العلم، و﴿نَاصِرًا﴾ و﴿عَدَدًا﴾ منصوبان على التمييز.

وحمل بعضهم[2] ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ على ما رأوه يوم بدر، وأيًا ما كان.. ففيه دلالة على أنَّ الكفار مخذولون في الدنيا والآخرة، وإن كثروا عدداً وقووا جسداً؛ لأنّ الكافرين لا مولى لهم، وأنّ المؤمنين منصورون في الدارين وإن قلّوا عدداً وضعفوا جسداً؛ لأنّ الله مولاهم. والواحد على الحقّ هو السواد الأعظم، فإنّ نصره ينزل من العرش.

والمعنى[3]: أي ومن يعص الله فيما أمر به ونهى عنه، ويكذّب برسوله فإنّ له ناراً يصلاها ماكثاً فيها أبداً إلى غير نهاية، ولا محيد عنها ولا خروج منها، ولا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

يزالون يستضعفون المؤمنين ويستهزئون بهم حتى إذارأوا ما يوعدون من فنون العذاب، فيتبين لهم من المستضعفون أهم أم المؤمنون الموحّدون لله تعالى.

وقصارى ذلك: أنّ المشركين لا ناصر لهم، وهم أقل عدداً من جنود الله عزّ وجلّ، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ﴾؛ أي: ما أدري وما أعلم؛ لأنّ ﴿إِنۡ﴾ نافية. ﴿أَقَرِيبٞ﴾ خبر مقدم لقوله: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: ما أدري أقريب حصول ما توعدون من العذاب؟ ﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾؛ أي: غاية تطول مدّتها. ويجوز أن يكون ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ فاعلاً لـ ﴿قريب﴾ سادًّا مسدَّ الخبر لوقوعه بعد همزة الاستفهام، و﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف؛ أي: أقريب الذي توعدونه، نحو: أقائم الزيدان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿رَبِّيٓ﴾ بإسكان الياء. وقرأ الحرميّان، وأبو عمرو بفتحها. والأمد، وإن كان يطلق على القريب أيضاً إلا أن المقابلة تخصّصه بالبعيد. والفرق بين الزمان والأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عامّ في المبدأ والغاية.

والمعنى: أن الموعود كائن لا محالة، وأما وقته فما أدري متى يكون؟ لأن الله لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة، وهو ردّ لما قاله المشركون عند سماعهم ذلك متى يكون الموعود إنكاراً له واستهزاءً.

فإن قيل[2]: أليس قال ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، فكان عالماً بقرب قيام الساعة، فكيف قال ههنا: لا أدري أقريب أم بعيد؟.

والجواب: أنّ المراد بقرب وقوعه هو أنّ ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى، فهذا القدر من القرب معلوم، وأما قربه بمعنى كونه بحيث يتوقّع في كل ساعة فغير معلوم على أن كل آت قريب، ولذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، وقال: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾.

والمعنى[3]: أنّ الله سبحانه أمر رسوله أن يقول للناس: إن الساعة آتية لا ريب فيها، ولكن وقتها غير معلوم، ولا يدرى أقريب أم يجعل له ربي أمداً بعيداً؟.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

«وقد كان ﷺ يسأل عن الساعة فلا يجيب عنها ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابيّ كان فيما سأله أن قال يا محمّد أخبرني عن الساعة قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل؟ ولمّا ناداه ذلك الأعرابيّ بصوت جهوري فقال: يا محمد متى الساعة؟ قال: «ويحك إنّها كائنة فما أعددت لها» قال: أما إني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، قال ﷺ: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ قرأه الجمهور[1] بالرفع على أنه بدل من ﴿رَبِّي﴾ أو بيان له، أو خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من عدم الدراية؛ أي: هو سبحانه عالم لجميع ما غاب عن الحسّ على أنّ اللام للاستغراق. وقرىء بالنصب على المدح. وقرأ السدّي ﴿عَلِمَ الغيبَ﴾ بصيغة الفعل، ونصب الغيب. والفاء في قوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من خلقه لترتيب عدم الإظهار على تفرّده تعالى بعلم الغيب على الإطلاق؛ أي: لا يطلع على الغيب الذي يعلمه وهو ما غاب عن العباد أحداً منهم.

ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾؛ أي: إلا من ارتضاه واصطفاه واختاره من خلقه لإظهاره على بعض غيوبه حالة كون ذلك المرتضى ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ أرسله إلى خلقه أي رسول كان المتعلقة تلك الغيوب برسالته كما يعرب عنه بيان من ارتضى بالرسول تعلّقاً ما إما لكونه من مبادي رسالته بأن يكون معجزة دالة على صحتها، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامّة التكاليف الشرعية التي أمر بها المكلّفون وكيّفيات أعمالهم وأجزيتها المترتّبة عليها في الآخرة، وما تتوقّف هي عليه من أحوال الآخرة التي من جملتها قيام الساعة، والبعث والحشر، والحساب، والميزان وغير ذلك من الأمور الغيبية التي بيانها من وظائف الرسالة. وأمّا ما لا يتعلق بها[2] على أحد الوجهين من الغيوب التي من جملتها وقت قيام الساعة، فلا يظهر عليه أحداً أبداً على أن بيان وقته مخلّ بالحكمة التشريعية التي يدور عليها فلك الرسالة.

قال القرطبي: قال العلماء: لما تمدح الله سبحانه بعلم الغيب، واستأثر به دون خلقه. . . كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه. ثم استثنى من

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ارتضى من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزةً لهم ودلالةً صادقةً على نبوتهم، وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى، وينظر في الكفّ وفي المسبحة، ويزجر بالطير ويخبر عن الجنّ، فيطلعه على ما يشاء من غيبه، فهو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه، وكذبه انتهى مع بعض زيادة، ولا تغتر بما ذكره الإمام الرازي في «تفسيره» هنا، كما رد عليه الإمام الشوكاني.

فإن قلت[1]: إذن قد تقرَّر بهذا الدليل القرآني أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه، فهل للرسول الذي أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته؟

قلت: نعم، ولا مانع من ذلك. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة، فمن ذلك ما صحَّ أنه قام مقاماً أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة، وما ترك شيئاً مما يتعلق بالفتن ونحوها. حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه. وكذلك ما ثبت: من أن حذيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول الله ﷺ بما يحدث من الفتن بعده حتى سأله عن ذلك أكابر الصحابة، ورجعوا إليه.

وثبت في «الصحيح» وغيره: أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التي تموج كموج البحر، فقال: إن بينك وبينها باباً مغلقاً، فقال عمر: هل يفتح أو يكسر؟ فقال: بل يكسر. فعلم عمر أنّه الباب، وأن كسره قتله كما في الحديث الصحيح: أنه قيل لحذيفة: هل كان عمر يعلم ذلك؟ فقال: نعم كان يعلم كما يعلم أن دون غد الليلة، وكذلك ما ثبت من إخباره لأبي ذر بما يحدث له، وإخباره لعليّ بن أبي طالب خبر ذي الثدية، ونحو هذا مما يكثر تعداده. وإذا تقرر. فلا مانع من أن يختص بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التي أظهرها الله تعالى لرسوله، وأظهرها رسوله لبعض أمته، وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل، والكل من الفيض الرباني بواسطة الجناب.

ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذي يطلع عليه الرسول، فقال: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿يَسْلُكُ﴾ ويجعل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، أي: من قدّام الرسول المرتضى ﴿وَمِنْ

---

(١) الشوكاني.

﴿خَلْفِهِۦ﴾؛ أي: ومن ورائه وسائر جوانبه ﴿رَصَدًا﴾؛ أي: حرساً وحفظةً من الملائكة، يحفظونه من تعرض الشيطان لما أظهره عليه من الغيب المتعلق برسالته. أو يجعل بين يدي الوحي وخلفه حرساً من الملائكة، يحوطونه من أن تسترقه الشياطين فتلقيه إلى الكهنة، والمراد من جميع الجوانب. يعني: أنَّ جبريل كان إذا نزل بالرسالة.. نزل معه ملائكة يحفظونه من أن يسمع الجن الوحي، فيلقونه إلى كهنتهم، فتخبر به الكهنة قبل الرسول، فيختلط على الناس أمر الرسالة.

والجملة[1]: تقرير وتحقيق للإظهار المستفاد من الاستثناء، وبيان لكيفيته. قال الضحاك: ما بعث الله نبيًّا إلا ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك، فإذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا: هذا شيطان فاحذره، وإن جاءه الملك قالوا: هذا رسول ربك. قال ابن زيد: ﴿رَصَدًا﴾؛ أي: حفظة يحفظون النبي ﷺ من أمامه وورائه من الجنّ والشياطين. قال قتادة وسعيد بن المسيّب: هم أربعة من الملائكة حفظة. والرصد كالحرس وزناً ومعنىً، فهو جمع راصد بمعنى حارس حافظ، والمراد بهم هنا الملائكة الحفظة؛ أي: فإنه يجعل بين يدي من ارتضى من رسله ومن خلفهم حفظة من الملائكة، يحفظونهم من وساوس شياطين الجنّ وتخاليطهم حتى يبلغوا ما أوحي به إليهم، ومن زحمة شياطين الإنس حتى لا يؤذونهم ولا يضرّونهم.

والخلاصة: أنه يجعل حفظة من الملائكة يحفظون قواه الظاهرة والباطنة من الشياطين، ويعصمونه من وساوسهم.

ثم علل هذا الحفظ بقوله: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ واللام[2] متعلقة بـ﴿يَسْلُكُ﴾، وضمير ﴿أَبْلَغُوا۟﴾ إما للرصد فالمعنى: أنّه يسلك الرصد ويجعلهم من جميع جوانب المرتضى ليعلم الله سبحانه أنَّ الشأن قد أبلغ الرصد والملائكة رسالات ربهم إلى الرسول المرتضى سالمة عن الاختطاف والتخليط علماً حاصلاً بالفعل، وإما لمن ارتضى والمعنى: ليعلم الله أن الشأن قد أبلغ الرسل الموحى إليهم رسالات ربهم إلى أممهم، كما هي من غير اختطاف ولا تخليط بعد ما أبلغها الرصد إليهم كذلك. أو اللام[3] متعلقة بمحذوف تقديره: إنه سبحانه يحفظ رسله

---

(١) روح البيان. (٢) المراح. (٣) المراغي.

بملائكته ليتمكّنوا من أداء رسالته، ويحفظوا ما ينزله إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا الرسالات، والمراد ليعلم الله ذلك منهم علم وقوع في الخارج، كما جاء نحو هذا في قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟...﴾ الخ، متعلق بـ ﴿يَسْلُكُ﴾، غاية له من حيث إنّه مترتّب على الإبلاغ المترتّب عليه؛ إذ المراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل. و﴿أن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوف، والجملة خبرها. والإبلاغ: الإيصال. و﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ عبارة عن الغيب الذي أريد إظهار المرتضى عليه، والجمع باعتبار تعدد أفراده. وضمير ﴿أَبْلَغُوا۟﴾ إما للرصد فالمعنى: أنه تعالى يسلكهم من جميع جوانب المرتضى؛ ليعلم الله أن الشأن قد أبلغوه رسالات ربهم سالمة عن الاختطاف والتخليط علماً مستتبعاً للجزاء، وهو أن يعلمه موجوداً حاصلاً بالفعل كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾. والغاية في الحقيقة هو الإبلاغ، وإيراد علمه تعالى لإبراز اعتنائه تعالى بأمر الإبلاغ، وللإشعار بترتيب الجزاء عليه والمبالغة في الحثّ عليه والتحذير عن التفريط فيه. وإما لمن ارتضى، والجمع باعتبار معنى ﴿من﴾ كما أنّ الإفراد في الضميرين السابقين باعتبار لفظها، فالمعنى عليه: ليعلم الله أنه قد أبلغ الرسل الموحى إليهم رسالات ربهم إلى أممهم كما هي من غير اختطاف، ولا تخليط بعد ما أبلغها الرصد إليهم كذلك.

وجملة قوله: ﴿و﴾ قد ﴿أحاط بما لديهم﴾؛ أي: بما عند الرصد أو بما عند الرسل، حال من فاعل ﴿يَسْلُكُ﴾ بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور في محله، جيء بها لتحقيق استغنائه تعالى؛ أي: وقد أحاط بما لديهم من الأحوال جميعاً. وقوله: ﴿وَأَحْصَىٰ﴾ معطوف على أحاط؛ أي: وعلم علماً بالغاً إلى حدّ الإحصاء تفصيلاً. ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مما كان وما سيكون ﴿عَدَدًۢا﴾؛ أي: فرداً فرداً، فكيف لا يحيط بما لديهم؟. قال القاسم: هو أوجدها فأحصاها عدداً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أحصى ما خلق وعرف عدد ما خلق لم يفته علم شيء حتى مثاقيل الذرّ والخردل. وقوله: ﴿عَدَدًۢا﴾ تمييز محوّل عن المفعول به كقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾. والأصل: أحصى عدد كل شيء، وفائدته بيان أن علمه تعالى بالأشياء ليس على وجه كلّيّ إجمالي، بل على وجه جزئيّ تفصيليّ، فإن الإحصاء

قد يراد به الإحاطة الإجمالية كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ أي: لا تقدروا على حصرها إجمالاً فضلاً عن التفصيل؛ وذلك لأنّ أصل الإحصاء، أنَّ الحاسب إذا بلغ عقداً معيّناً من عقود الأعداد كالعشرة والمئة والألف وضع حصاة ليحفظ بها كمية ذلك العقد فيبني على ذلك حسابه.

وهذه الآية مما يستدلّ به على أن المعدوم ليس بشيء، لأنّه لو كان شيئاً.. لكانت الأشياء غير متناهية، وكونه أحصى عددها يقتضي كونها متناهيةً؛ لأنّ إحصاء العدد إنما يكون في المتناهي، فيلزم الجمع بين كونها متناهية وغير متناهية، وذلك محال، فوجب القطع بأن المعدوم ليس بشيء حتى يندفع هذا التناقض والتنافي، كذا في «حواشي» ابن الشيخ رحمه الله.

والمعنى[1]: أي وهو سبحانه قد أحاط علماً بما عند الرصد من الملائكة، وأحصى ما كان، وما سيكون فرداً فرداً، فهو عالم بجميع الأشياء منفرد بذلك على أتمّ وجه، فلا يشاركه في ذلك الملائكة الذين هم وسائط العلم.

والخلاصة: أنّ الرسول المرتضى يعلِّمه بوساطة الملائكة بعض الغيوب مما له تعلق برسالته، وهو سبحانه محيط علما بجميع أحوال أولئك الوسائط، وعالم بجميع الأشياء على وجه تفصيلي، فأين علم الوسائط من علمه تعالى؟.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ بفتح الياء مبنيّاً للفاعل. وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وحميد، ويعقوب، وزيد بن علي بضمّها مبنيًّا للمفعول. وقرأ الزهري وابن أبي عبلة بضمّ الياء وكسر اللام؛ أي: ليعلم الله من شاء أن يعلمه أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم. وقرأ الجمهور ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ على الجمع، وأبو حيوة على الإفراد. وقرأ الجمهور ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ مبنيًّا للفاعل، وكذا ﴿أحصى﴾ مبنيًّا للفاعل؛ أي: الله، ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بالنصب. وقر ابن أبي عبلة ﴿وأحيط﴾ ﴿وأحصي﴾ مبنيًّا للمفعول، ﴿كلُّ شيء﴾ بالرفع.

والمعنى: وأحاط بما عند الرسل من الحكم والشرائع، لا يفوته منها شيء، وأحصى كلّ شيء عدداً، أي: معدوداً محصوراً، وانتصابه على الحال من ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾،

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وإن كان نكرةً لاندراج المعرفة في العموم.

ويجوز أن ينتصب نصب المصدر لـ ﴿أحصى﴾؛ لأنّه في معنى إحصاء. قال أبو البقاء: ويجوز أن يكون تمييزاً انتهى، كما مرّ. وفي ثبوته من كلام العرب خلاف.

الإعراب

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنت. والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿أُوحِيَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿إِلَيَّ﴾ جار ومجرور، متعلق به، ﴿أَنَّهُ﴾ ناصب واسمه، ﴿اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿أُوحِيَ﴾، وجملة ﴿أُوحِيَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ جار ومجرور متعلقان: بـ ﴿اسْتَمَعَ﴾ ﴿فَقَالُوا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة، ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿استمع﴾، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿سَمِعْنَا قُرْآنًا﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿عَجَبًا﴾ صفة ﴿قُرْآنًا﴾، وجملة سمع في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿يَهْدِي﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على القرآن، ﴿إِلَى الرُّشْدِ﴾ متعلق بـ ﴿يَهْدِي﴾، والجملة في محل النصب صفة ثانية لـ ﴿قُرْآنًا﴾. ﴿فَآمَنَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿آمنا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿سَمِعْنَا﴾، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ ﴿آمنا﴾، ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لن﴾ حرف نصب، ﴿نُّشْرِكَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿لن﴾، وفاعل مستتر، ﴿بِرَبِّنَا﴾ متعلق بـ ﴿نُّشْرِكَ﴾، ﴿أَحَدًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ﴿آمنا﴾.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾.

﴿وَأَنَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أنّهُ﴾ ناصب واسمه، ﴿تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية معترضة بين اسم ﴿أنّ﴾ وخبرها. ﴿مَا﴾ نافية، ﴿اتَّخَذَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿صَاحِبَةً﴾ مفعول به، ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ معطوف

على ﴿صَٰحِبَةً﴾ والجملة الفعلية، في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنَّ﴾ المفتوحة وكذا جميع الجمل المصدّرة بـ ﴿أنّ﴾ المفتوحة، وهي أحد عشر موضعاً في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، على كونها نائب فاعل، لـ ﴿أُوحِيَ﴾، فتكون من جملة الكلام الموحى به على أن الموحى عين عبارة الجن بطريق الحكاية، كأنّه قيل: أوحي إليّ استماع نفر من الجنّ، وأوحي إليّ قول الجنّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③﴾، وقولهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾، وقولهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾، وقولهم: كيت وكيت كما تقدم لك بسطه في مبحث التفسير نقلاً عن «روح البيان»، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ على أنها مقول لقالوا إجراء؛ لـ﴿أنَّ﴾ المفتوحة مجرى إنّ المكسورة على سبيل الاستقراض والاستعارة، كما مرّ أيضاً ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها ضمير الشأن، وتسمّى هي شأنية، ﴿يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ فعل وفاعل، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَقُولُ﴾، ﴿شَطَطًا﴾ صفة لمصدر محذوف تقديره: قولاً شططاً؛ أي: كذباً. وذلك بوصفه بالصاحبة والولد وجملة ﴿يَقُولُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾، أو في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ على التفصيل المارّ آنفاً، وكذا تقول في عطف ما سيأتي من مواضع أنَّ المفتوحة.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ⑤ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ⑦﴾.

﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿ظَنَنَّآ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾، وجملة ﴿أَن﴾ معطوفة على ما تقدم، ﴿ظَنَنَّآ﴾ فعل وفاعل من أفعال القلوب، ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ﴿لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ﴾ ناصب وفعل وفاعل، ﴿وَٱلْجِنُّ﴾ معطوفة على ﴿ٱلْإِنسُ﴾، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَقُولَ﴾، ﴿كَذِبًا﴾ صفة لمصدر محذوف تقديره: قولاً كذباً، وجملة ﴿تَقُولَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في محل النصب سادّة مسد مفعولي ﴿ظَنَنَّآ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿كَانَ رِجَالٌ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ صفة لـ﴿رِجَالٍ﴾، ﴿يَعُوذُونَ﴾ فعل وفاعل، ﴿بِرِجَالٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَعُوذُونَ﴾، ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ صفة لـ﴿رِجَالٍ﴾، وجملة

﴿يَعُوذُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في محل الرفع، أو في محل النصب، معطوفة على ما تقدم على التفصيل المار. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿رَهَقًا﴾ مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿كَانَ رِجَالٌ﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿ظَنُّوا﴾ خبره، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم، ﴿كَمَا﴾ الكاف حرف جرّ وتشبيه، ﴿ما﴾ مصدرية، وجملة ﴿ظَنَنتُمْ﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف تقديره: وأنهم ظنّوا ظنّاً كائناً كظنّكم. ﴿أَن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أي: وظنّوا أنّه ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة سادّة مسدّ مفعولي ﴿ظَنُّوا﴾، وأمّا مفعولا ﴿ظَنَنتُمْ﴾ فمحذوفان لدلالة مفعولي ﴿ظَنُّوا﴾ عليهما تقديره: كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم على التفصيل المار، ﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، وجملة ﴿مُلِئَتْ﴾ مفعول به ثان، وجملة وجدنا معطوفة على جملة ﴿لَمَسْنَا﴾، ﴿مُلِئَتْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿السَّمَاءَ﴾، والتاء: علامة تأنيث نائب الفاعل، ﴿حَرَسًا﴾ تمييز محوّل عن نائب الفاعل، ﴿شَدِيدًا﴾ صفة ﴿حَرَسًا﴾، ﴿وَشُهُبًا﴾ معطوف على ﴿حَرَسًا﴾. وقيل: ﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ هنا متعدّية لواحد، فجملة ﴿مُلِئَتْ﴾ حال من السماء؛ لأنّ معناها: صادفناها. ﴿وَأَنَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أنا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كُنَّا﴾ خبره، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم، وجملة ﴿نَقْعُدُ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿مِنْهَا﴾ حال من ﴿مَقَاعِدَ﴾، لأنه صفة نكرة تقدمت عليها، أو متعلق بـ ﴿مَقَاعِدَ﴾، ﴿مَقَاعِدَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية متعلق بـ ﴿نَقْعُدُ﴾، ﴿لِلسَّمْعِ﴾ متعلق بـ ﴿نَقْعُدُ﴾؛ أي: نقعد لأجل السمع أو صفة لـ ﴿مَقَاعِدَ﴾؛ أي: مقاعد كائنة للسمع. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر

تقديره: إذا عرفت أنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع أوّلاً، وأردت بيان حالها، وحالنا الآن فأقول لك: من يستمع. ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَسْتَمِعِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على من، ﴿ٱلْـَٔانَ﴾ ظرف للزمن الحاضر، ولكنه مستعار للمستقبل في محل النصب على الظرفية مبنيّ على الفتح، والظرف متعلق بـ ﴿يستمع﴾، ﴿يَجِدْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿يَجِدْ﴾ على أنه مفعول ثان له، ﴿شِهَابًا﴾ مفعول أول لـ ﴿يَجِدْ﴾، ﴿رَّصَدًا﴾ صفة لـ ﴿شِهَابًا﴾، وهو مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: شهابا أرصد وهيّء له، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة معترضة لاعتراضها بين المتعاطفين.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا نَدْرِىٓ﴾ خبره، وجملة ﴿أَن﴾ معطوفة على ما تقدم، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿نَدْرِىٓ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على الجنّ؛ أي: نحن. ﴿أَشَرٌّ﴾ الهمزة للاستفهام الاستخباري، ﴿شرٌّ﴾ نائب فاعل لفعل محذوف يفسّره المذكور بعده؛ أي: أأريد شرٌّ. وجملة ﴿أُرِيدَ﴾ جملة مفسّرة لا محل لها من الإعراب، وقيل: ﴿شرّ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿أُرِيدَ﴾ خبره، ﴿بِمَن﴾ متعلق بـ ﴿أُرِيدَ﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صلة لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿أَمْ﴾ حرف عطف معادلة للهمزة، ﴿أَرَادَ﴾ فعل ماض، ﴿بِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرَادَ﴾، ﴿رَبُّهُمْ﴾ فاعل، ﴿رَشَدًا﴾ مفعول به، وجملة ﴿أَرَادَ﴾ معطوفة على جملة الاستفهام، وجملة الاستفهام مع ما عطف عليها سادّة مسدّ مفعولي ﴿نَدْرِىٓ﴾، علقت عنها بالاستفهام. ﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مِنَّا﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم، ﴿وَمِنَّا﴾ خبر مقدم، ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لمبتدأ محذوف، تقديره: ومنا فريق كائن دون ذلك، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾. وأجاز الأخفش وغيره أن تكون ﴿دُونَ﴾ بمعنى غير؛ أي: ومنّا غير الصالحين، وهو حينئذٍ مبتدأ، وإنّما فتح لإضافته إلى غير متمكّن.

والأول أرجح. وحذف الموصوف مع من التبعيضية كثير كقولهم: منّا ظعن ومنّا أقام. ﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿طَرَآئِقَ﴾ خبره، ﴿قِدَدًا﴾ صفة لـ ﴿طَرَآئِقَ﴾، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: وكنا ذوي طرائق قدداً، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾. ﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿ظَنَنَّآ﴾ خبره، وجملة ﴿أَن﴾ معطوفة على ما تقدم، ﴿أَن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. أي: أنّه. ﴿لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ ناصب وفعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من فاعل ﴿نُّعْجِزَ﴾؛ أي: كائناً في الأرض. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة سادّة مسدّ مفعولي ﴿ظَنَنَّآ﴾. ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ﴾ ناصب وفعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ما قبله، ﴿هَرَبًا﴾ حال من فاعل ﴿نُّعْجِزَهُۥ﴾، ولكنه في تأويل مشتقّ؛ أي: هاربين إلى السماء، أو إلى البحار مثلاً.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَمَّا﴾ اسم شرط غير جازم، ﴿سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فعل وفاعل ومفعول، فعل شرط لـ﴿لَمَّا﴾، في محل جر بالإضافة. ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنَّا﴾، والجملة جواب ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَمَّا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قلت لك: وأردت بيان جزاء من آمن بربّه فأقول لك: ﴿مَنْ يؤمن﴾. ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُؤْمِنۢ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فلا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَخَافُ﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ﴿بَخْسًا﴾ مفعول به، ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ معطوف على ﴿بَخْسًا﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم جواب مَنْ الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة معترضة. ﴿وَأَنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مِنَّا﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ﴾

مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على ما تقدم. ﴿وَمِنَّا﴾ خبر مقدم، ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة معطوفة على ما تقدم، ﴿فَمَنْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك وأردت بيان جزاءِ من أسلم فأقول لك: ﴿مَنْ أسلم﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم شرط مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب، ﴿أَسْلَمَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فِعْل شرط لها. ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿أولئك﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَحَرَّوْاْ﴾ خبره، ﴿رَشَدًا﴾ مفعول به، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة معترضة. ﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أمّا﴾ حرف شرط وتفصيل، ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ مبتدأ، ﴿فَكَانُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أمّا﴾ الشرطية واقعة في غير موضعها، ﴿كانوا﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ حال من ﴿حَطَبًا﴾، لأنّه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿حَطَبًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب أمّا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أمّا﴾ معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَأَلَّوِ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أنْ﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: وأنّه لو استقاموا. ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم، ﴿ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ فعل وفاعل، فعل شرط لـ ﴿لو﴾ ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾، ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿أسقيناهم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مَّآءً﴾ مفعول ثان، ﴿غَدَقًا﴾ صفة ﴿مَّآءً﴾، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل الرفع خبر ﴿أنْ﴾ المخفّفة وجملة ﴿أنْ﴾ المخففة في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾؛ أي: وأوحى إليّ أن لو استقاموا. ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل، ﴿نفتنهم﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام ﴿كي﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المضمرة في تأويل

مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أسقيناهم﴾، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿نفتنهم﴾، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يُعْرِضْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها، ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُعْرِضْ﴾، ﴿يَسْلُكْهُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿عَذَابًا﴾ منصوب بنزع الخافض؛ أي: في عذاب، ﴿صَعَدًا﴾ صفة ﴿عَذَابًا﴾. ﴿وَأَنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أن المساجد﴾ ناصب واسمه، ﴿لِلَّهِ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿لا﴾ ناهية جازمة، ﴿تَدْعُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَدْعُواْ﴾، ﴿أَحَدًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة مفرّعة على جملة ﴿أنّ﴾. ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿لَمَّا﴾ اسم شرط غير جازم ﴿قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فعل وفاعل فعل شرط لـ﴿لَمَّا﴾ وجملة ﴿يَدْعُوهُ﴾ من الفعل والفاعل المستتر والمفعول في محل النصب حال من فاعل ﴿قَامَ﴾، ﴿كَادُواْ﴾ فعل ناقص واسمه جواب ﴿لمّا﴾، وجملة ﴿لما﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ معطوفة على جملة ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، ﴿يَكُونُونَ﴾ فعل ناقص واسمه مرفوع بالنون، ﴿عَلَيْهِ﴾ حال من ﴿لِبَدًا﴾، و﴿لِبَدًا﴾ خبر ﴿يكون﴾، وجملة ﴿يكون﴾ في محل النصب خبر ﴿كاد﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة مسوقة للردّ على الكفار المتظاهرين عليه ﷺ. ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر، ﴿أَدْعُواْ رَبِّى﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَلَآ أُشْرِكُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿أُشْرِكُ﴾، ﴿أَحَدًا﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَدْعُواْ﴾. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة أو معطوفة بعاطف مقدر على ﴿قُلْ﴾ الأول. ﴿إِنِّى﴾ ناصب واسمه، ﴿لَآ﴾ نافية ﴿أَمْلِكُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿ضَرًّا﴾، و﴿ضَرًّا﴾ مفعول ﴿أَمْلِكُ﴾، ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ معطوف على ﴿ضَرًّا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة

﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر مستأنفة أو معطوفة، ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، ﴿لَن يُجِيرَنِي﴾ ناصب وفعل مضارع، ونون وقاية، ومفعول به ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُجِيرَنِي﴾، ﴿أَحَدٌ﴾، فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لن﴾ حرف نصب، ﴿أَجِدَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، منصوب بـ ﴿لن﴾، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَن يُجِيرَنِي﴾، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ جار ومجرور في موضع المفعول الثاني لـ ﴿أَجِدَ﴾، ﴿مُلْتَحَدًا﴾ مفعول أول لـ ﴿أَجِدَ﴾.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿بَلَٰغًا﴾ استثناء من مفعول ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾؛ أي: من مجموع الأمرين، وهما: ﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾ بعد تأويلهما بـ(شيئا) كأنّه قال: لا أملك لكم شيئاً إلاّ بلاغاً، فهو استثناء متصل، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾ جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة، هكذا قرّر بعض «حواشي البيضاوي»، وفيه أوجه أخر، ومنها قيل: إنّه استثناء منقطع من ﴿مُلْتَحَدًا﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ ﴿بَلَٰغًا﴾، ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ معطوف على ﴿بَلَٰغًا﴾، ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، ﴿يَعْصِ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف على الجلالة، ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم لـ ﴿أنّ﴾، ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ اسمها مؤخر، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿لَهُۥ﴾، والعامل فيه الاستقرار الذي تعلّق به الجار والمجرور، ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ﴿أَبَدًا﴾ ظرف متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أيضاً، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم جواب ﴿مَنْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف ابتداء وغاية لمحذوف تقديره: ولا يزالون على ما هم عليه من الكفر والتكذيب، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿رَأَوْا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿رَأَوْا۟﴾، لأنّ رأى بصرية، وجملة ﴿يُوعَدُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما يوعدونه. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة

الجواب وجوبا، والسين حرف استقبال، ﴿يعلمون﴾ فعل وفاعل مرفوع، والجملة جواب ﴿إذا﴾ الشرطية، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ولكنّها غاية لمحذوف كما قدّرنا، ﴿مَن﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَضْعَفُ﴾ خبره، والجملة الاستفهامية في محل النصب سادّة مسدّ مفعولي ﴿يعلمون﴾؛ لأنّها معلّقة للعلم قبلها، ويجوز أن تكون ﴿مَن﴾ موصولة في محل النصب مفعول به لـ ﴿يعلمون﴾؛ لأنّ العلم حينئذٍ بمعنى العرفان، ﴿أَضْعَفُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الذي هو ﴿أَضْعَفُ﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿نَاصِرًا﴾ تمييز محوّل عن المبتدأ أو عن المفعول، منصوب باسم التفضيل، ﴿وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ معطوف على ﴿أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿أَدْرِىٓ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿أَقَرِيبٌ﴾ الهمزة للاستفهام يطلب به، وبـ(أم) التعيين، ﴿قريب﴾ خبر مقدم، ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخّر، وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾ صلته، والعائد محذوف؛ أي: توعدونه. ويجوز أن يكون ﴿قريب﴾ مبتدأ لاعتماده على الاستفهام، و﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ فاعل سدّ مسدّ الخبر، نحو: أقائم أبواك. والجملة الاسمية في محل النصب سادّة مسدّ مفعولي ﴿أَدْرِىٓ﴾، معلّقة عنها بالاستفهام، ﴿أَمْ﴾ عاطفة متصلة، ﴿يَجْعَلُ﴾ فعل مضارع، ﴿لَهُۥ﴾ في موضع المفعول الثاني، ﴿رَبِّىٓ﴾ فاعل، ﴿أَمَدًا﴾ مفعول أول لـ ﴿جعل﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على ﴿قريب﴾، لأنّه في تأويل أقريب ما توعدون أم بعيد يجعل له ربي أمدا. ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو عالم الغيب أو بدل من ﴿ربّي﴾، ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنّه تعالى عالم الغيب، وأردت بيان أنّه يظهر على غيبه أم لا فأقول لك: لا يظهر. ﴿لا﴾ نافية، ﴿يُظْهِرُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ متعلق بـ ﴿يُظْهِرُ﴾، ﴿أَحَدًا﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ويجوز أن تكون الفاء عاطفة.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، والاستثناء منقطع؛ أي: لكن من ارتضاه، فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه بالوحي، أو متصل؛ أي: إلاّ رسولاً ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلّقة برسالته. ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، ﴿ٱرۡتَضَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿مِن رَّسُولٖ﴾ حال من ﴿مَنِ﴾ الموصولة أو مِنْ ضمير العائد، والجملة صلة الموصول. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية ﴿إنّه﴾ ناصب واسمه، ﴿يَسۡلُكُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَسۡلُكُ﴾، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ معطوف على ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾، ﴿رَصَدٗا﴾ مفعول به، وجملة ﴿يُظۡهِرُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، لأنّها سيقت لتعليل الاستثناء، ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ اللام: حرف جرّ وتعليل، ﴿يعلم﴾ فعل مضارع منصوب بـ: أن مضمرة بعد لام ﴿كي﴾، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة (أن) المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَسۡلُكُ﴾، غاية له من حيث إنّه مترتّب على الإبلاغ المترتّب عليه، ﴿أَن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ﴿قَدۡ﴾ حرف تحقيق، ﴿أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أنْ﴾ المخفّفة، وجملة ﴿أنْ﴾ المخفّفة في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿يعلم﴾؛ أي: ليعلم إبلاغهم رسلات ربّهم. ﴿وَأَحَاطَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة على مقدر معلوم من السياق تقديره: فعلم ذلك، وأحاط بما لديهم. ﴿أحاط﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على ذلك المقدر، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿أحاط﴾، ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَأَحۡصَىٰ﴾ معطوف على ﴿أحاط﴾، ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ مفعول به ﴿عَدَدَۢا﴾ تمييز محول عن المفعول؛ أي: أحصى عدد كل شيء، أو منصوب على الحال من كل شيء؛ أي: حال كونه معدوداً، وإن كان نكرة لاندراج المعرفة في العموم أو على المصدر؛ لأنّه في معنى إحصاء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ الإيحاء: إعلام في خفاء. وأصل أوحي أأحي، أبدلت الهمزة

الثانية واواً حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى.

﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ والاستماع: الإصغاء إلى الكلام مع قصد السماع له، والسماع: اتفاق سماعه من غير قصد إليه فكلّ مستمع سامع من غير عكس كما مرّ. ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ والنفر: الجماعة بين الثلاثة إلى العشرة، وفي «القاموس»: النفر: ما دون العشرة من الرجال كالنفير والجمع أنفار. وفي «المفردات»: النفر: عدّة رجال يمكنهم النفر إلى الحرب. وفي «شرح القاموس» قال أبو العباس: النفر والرهط والقوم هؤلاء معناها الجمع لا واحد لها من لفظها، والنسب إليه نفريّ. قال الزجاج: النفير جمع نفر كالعبيد. ﴿وَٱلْجِنُّ﴾ اسم جنس، واحده جنيّ كروم وروميّ، سمّوا بذلك لاجتنانهم عن بني آدم.

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ والسماع: حصول السمع اتفاقاً، كما مرّ آنفاً. ﴿عَجَبًا﴾ مصدر بمعنى العجيب، وضع موضعه للمبالغة؛ أي: عجيباً بديعاً مبايناً لكلام الناس في حسن النظم ودقّة المعنى. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ وحقيقة الرشد الاهتداء إلى مصالح الدين والدنيا. قال بعضهم: الرشد كالقفل خلاف الغيّ، يقال في الأمور الدنيوية والأخروية، والرشد كالذهب يقال في الأمور الأخروية فقط. ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾؛ أي: تنزّه جلاله وعظمته عمّا نسب إليه من الصاحبة والولد. وفي «القرطبيّ»: الجد في اللغة: العظمة والجلال، ومنه قول أنس رضي الله عنه: كان الرجل إذا حَفِظ البقرة، وآل عمران جدّ في عيوننا؛ أي: عظم وجلّ. ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾؛ أي: جاهلنا، وهو إبليس أو مردة الجنّ. والسفه: خفّة الحلم، أو نقيضه أو الجهل كما في «القاموس». وقال الراغب: السفه: خفّة في البدن، واستعمل في خفّة النفس لنقصان العقل، وفي الأمور الدنيوية والأخروية. والمراد في الآية هو السفه في الدين الذي هو السفه الأخرويّ، كذا في «المفردات».

﴿شَطَطًا﴾ هو مجاوزة الحد في الظلم وغيره. وفي «المفردات»: الشطط: الإفراط في البعد؛ أي: قولاً ذا شطط؛ أي: بعد عن القصد ومجاوزة الحد، أو هو شطط في نفسه لفرط بعده عن الحقّ، فوصف بالمصدر للمبالغة، والمراد به نسبة الصاحبة والولد إليه تعالى. ﴿كَذِبًا﴾ مصدر مؤكّد لـ﴿نَّقُولَ﴾، لأنّه نوع من القول. ﴿يَعُوذُونَ﴾ العوذ: الالتجاء إلى الغير والتعلق به. أصله: يعوذون بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى العين فسكنت بعد ضمة فصارت حرف مدّ. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أصله:

زيدوهم، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً. ﴿رَهَقًا﴾؛ أي: تكبرا وعتواً وسفهاً، فإن الرهق محركاً يجيء لمعان.

منها: السفه وركوب الشر والظلم، كما مر. وفي «المختار»: رهقه: غشيه، وبابه: طرف. ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ واللمس: إدراك بظاهر البشرة كالمس. ﴿حَرَسًا﴾ اسم جمع لحارس من الحراسة، بمعنى حافظ كخدم لخادم، مفرد اللفظ، ولذلك وصفه بقوله: ﴿شَدِيدًا﴾؛ أي: قوياً، ولو كان جمعاً.. لقال: شداداً. ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب ككتب وكتاب، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكواكب، كذا قالوا. والله أعلم.

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ﴾ والآن ظرف للزمان الحاضر، استعير هنا للمستقبل. ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: مرصداً مهيأً له. ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ قال في «المفردات»: جمع الطريق طرق، وجمع الطرق طرائق، فالطرائق: جمع الجمع، والظاهر: أن الطرائق جمع طريقة كقصائد جمع قصيدة. والطريق هو المكان يطرق بالأرجل؛ أي: يضرب. ومنه: استعير كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل شيء محموداً كان أو مذموماً. والهمزة في ﴿الطرائق﴾ مبدلة من الياء الموجودة في الاسم المؤنث لما وقعت ثالثة زائدة حرف مد فيه. ﴿قِدَدًا﴾: جمع قد، وهو قطع الشيء طولاً، وصفت الطرائق بالقدد لدلالتها على معنى التقطع والتفرق. وفي «القاموس»: القدة: الفرقة من الناس هوى كل واحد على حدة، ومنه: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾؛ أي: فرقاً مختلفة أهواؤها، يجمع على قدد كسدرة وسدر. ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أصله: أأمنّا، أبدلت الهمزة الثانية الساكنة ألفاً حرف مد مجانساً لحركة الأولى. ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أصله: يخوف مضارع خوف بكسر الواو، يخوف بفتحها نقلت حركة الواو إلى الخاء فسكنت لكنها أبدلت الفاء لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿بَخْسًا﴾؛ أي: نقصاً عن ثواب الحسنات. ﴿وَلَا رَهَقًا﴾؛ أي: ظلماً بزيادة عقاب السيئات. ﴿وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ﴾؛ أي: الجائرون العادلون عن الحق، من قسط بمعنى جار، وأما المقسطون فهم العادلون إلى الحق من أقسط بمعنى عدل إلى الحق واتبعه.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾؛ أي: قصدوا هداية وطلبوها باجتهاد، ومنه: التحري في الشيء؛ أي: الاجتهاد فيه، يقال: حرى الشيء يحريه؛ أي: قصد حراه؛ أي:

جانبه، وتحرّاه كذلك. وأصله: تحريوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثمّ حذفت الألف لالتقاء الساكنين. والتحرّي في الأصل: طلب الأحرى والأليق قولاً أو فعلاً، كما مرّ. ﴿رَشَدًا﴾ يقال: رشد كنصر وفرح رشداً رُشْدا ورشاداً: اهتدى كما في «القاموس»؛ أي: اهتداء عظيماً إلى طريق الحقّ والصواب. ﴿حَطَبًا﴾؛ أي: وقوداً للنار. والحطب: ما يعد للإيقاد.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ أصله: استقوموا بوزن استفعلوا نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت لكنّها أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ الغدق بفتح الدال وكسرها لغتان في الماء الغزير، ومنه: الغيداق للماء الكثير وللرجل الكثير العدوّ والكثير النطق. وفي «المصباح»: غدقت العين غدقاً من باب تعب: كثر ماؤها، فهي غدقة، وفي التنزيل: ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾؛ أي: كثيراً، وأغدقت إغداقاً كذلك، وغدق المطر غدقاً، وأغدق إغداقاً مثله، وغدقت الأرض تغدق ـ من باب ضرب ـ إذا ابتلت بالغدق. ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم﴾ الإسقاء والسقي بمعنى واحد. وقال الراغب: السقي والسقيا: هو أن تعطيه ماء ليشرب، والإسقاء: أن تجعل ذلك له حتى يتناوله كيف شاء، كما يقال: أسقيته نهراً، فالإسقاء أبلغ. وغدق من باب علم إذا غزر. ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ يقال: سلكت الخيط في الإبرة إذا أدخلته فيها، أي: يسلكه في عذاب صعد؛ أي: شاقٌ. ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أصله: قوم بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ جمع لبدة بالكسر نحو: قربة وقرب، وهي ما تلبَّد بعضه على بعض؛ أي: تراكب وتلاصق. ومنها: لبدة الأسد، وهي الشعر المتراكب بين كتفيه.

﴿كَادُوا۟﴾ أصله: كودوا، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿يَكُونُونَ﴾ أصله يكونون بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى الكاف فسكنت الواو إثر ضمّة، فصارت حرف مدّ. ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ والفرق بين الزمان والأمد: أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عامّ في المبدأ والغاية. ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أصله: ارتضى بوزن افتعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. وأصل الارتضاء: تناول مرضيّ الشيء: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ قال في «القاموس»: الرصد محرّكاً: الراصدون؛ أي: الراقبون، يقال للواحد والجماعة كما في «المفردات».

﴿وَأَحَاطَ﴾ أصله: أحوط بوزن أفعل، نقلت حركة الواو إلى الحاء فسكنت ثم أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أصله: أحصي بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحرّكها بعد فتح. وأصل الإحصاء: أن المحاسب إذا بلغ عقداً معيّناً من عقود الأعداد كالعشرة والمئة والألف وضع حصاة ليحفظ بها كمية ذلك العدد، فيبني على ذلك حسابه. ﴿عَدَدًا﴾ والعدد لغة: مطلق الكمّية، فيدخل فيه الواحد، واصطلاحاً: ما ساوى نصف حاشيتيه السفلى والعليا القريبتين أو البعيدتين مثلاً الأربعة له حاشية قريبة عليا، وهي خمسة، وله حاشية سفلى قريبة وهي ثلاثة. فإذا جمعت ثلاثة مع خمسة يكون ثمانية، فالأربعة حينئذٍ نصف ثمانية، وقس على ذلك غيره. فيخرج بذلك الواحد، لأنّه ليس عدداً عند الحساب بل مبدأ عدد لفقد الحاشية السفلى له.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: وصف القرآن بالمصدر في قوله: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ للمبالغة في مدحه، أي: عجيباً في رصانة اللفظ وغزراة المعنى مباينا لكلام الناس في حسن النظم ودقّة المعنى.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ لأنّ الإيمان نفي الشرك.

ومنها: عطف المسبّب على السبب في قوله: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾، فإنَّ مجموع هذ الكلام معطوف مسبّب عن مجموع قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، حيث شبه سلطان الله وغناه الذاتيان الأزليان ببخت الملوك ودولتهم وغنى الأغنياء، فأطلق اسم الجد عليه استعارة، كذا في «الروح».

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ إفادة للتحقق والوقوع،

وفيه أيضاً إسناد الزيادة إلى الإنس والجنّ باعتبار السببية.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيّة في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي: طلبنا خبر السماء باستراقه، حيث شبه الطلب باللمس باليد في كون كلّ واحد منهما وسيلة إلى تعرّف حال الشي، فاشتقّ منه ﴿لَمَسْنَا﴾ بمعنى طلبنا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية. ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لما بين اللفظين من الاشتقاق اللطيف.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصليّة في قوله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾، لأنّه ظرف حالي استعير للمستقبل.

ومنها: حسن رعاية الأدب مع الخالق في قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾، حيث نسبوا الخير إلى الله تعالى دون الشر سلوكاً مسلك الأدب مع الباريء بأسلوب بديع.

ومنها: القصر الادّعائيّ في قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾، حيث قصروا الصلاح فيهم، كأنّهم لم يعتدوا بصلاح غيرهم.

ومنها: حذف الموصوف في التفصيل بـ ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: قوم دون أولئك الصالحين.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾، وبين ﴿ضَرًّا ورَشَدًا﴾، وبين ﴿ٱلْمُسْلِمُونَ و ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، حيث استعار الطرائق للمذاهب المختلفة، فإنه حقيقة في المكان الذي يطرق بالأرجل؛ أي: يضرب ثم استعير في كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل محموداً كان أو مذموماً، كما مرّ.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾، فهذا لف نشر عليه على ترتيبه قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١﴾، وهو

الحذف من أحد المتقابلين نظير ما أثبته في الآخر، كأنّه قال: لا أملك لكم ضرّاً ولا نفعاً ولا رشداً وغيًّا.

ومنها: إيراد علمه تعالى في قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لإبراز اعتنائه تعالى بأمر الإبلاغ ولإشعار ترتب الجزاء عليه والمبالغة في الحث عليه والتحذير من التفريط فيه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

خلاصة ما تضمَّنته هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على مقصدين:

١ ـ حكاية أقوال صدرت من الجن حين سمعوا القرآن كوصفهم له بأنّه كتاب يهدي إلى الرشد، وأن الرب سبحانه تنزه عن الصاحبة والولد، وأنهم ما كانوا يظنون أن أحداً يكذب على الله تعالى، وأن رجالاً من الإنس كانوا يستعيذون في القفر برجال مِنَ الجن، وأن الجن طلبوا خبر العالم العلويّ فمنعوا، وأن الجن لا يدرون ماذا يحل بالأرض من هذا المنع، وأنّ الجن منهم الأبرار، ومنهم الفجّار، ومنهم مسلمون وجائرون عادلون عن الحق.

٢ ـ ما أمر النبي ﷺ بتبليغه إلى الخلق ككونه لا يشرك بربّه أحداً، وأنّه لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، وأنه لا يمنعه أحد من الله إن عصاه، وأنه ﷺ لا يدري متى يكون وقت تعذيبهم، فالعلم لله وحده[١].

والله أعلم

* * *

(١) إلى هنا تمّ تفسير هذه السورة أوائل ليلة الجمعة ليلة التاسع والعشرين من شهر ربيع الأوّل من شهور سنة ١٤١٦/٣/٢٩ ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، آمين يا رب.

سورة المزمل

سورة المزمل مكية، نزلت بعد سورة القلم. قال الماورديّ[1]: كلها مكية في قول الحسن، وعكرمة، وجابر، قال: وقال ابن عباس وقتادة: مكية إلاّ آيتين منها قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾، وقوله: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

وقال الثعلبيّ: وإلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ...﴾ إلى آخر السورة، فمدنيّات. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وعدد آياتها[2]: تسع عشرة أو عشرون آية. وعدد كلماتها: مئتان وخمس وثمانون كلمة. وحروفها: ثمان مئة وثمانية وثلاثون حرفا.

التسمية: وسبب تسميتها بذلك: ما أخرجه[3] البزّار والطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الدلائل» عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سمّوا هذا الرجل اسماً تصدّون الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر. فتفرّق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ، فتزمّل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾. قال البزّار بعد إخراجه من طريق معلّى بن عبد الرحمن: إنّ معلى قد حدث عنه جماعة من أهل العلم، واحتملوا حديثه لكنه إذا تفرد بالأحاديث لا يتابع عليها. وأخرج أبو داود والبيهقي في «السنن» عن ابن عباس قال: بتّ عند خالتي ميمونة، فقام النبيّ ﷺ يصلي من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة، منها: ركعتا الفجر، فحزرت قيامه في كل ركعة بقدر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾.

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن. (٣) الشوكاني.

مناسبتها ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه[1]:

١ ـ أنه سبحانه ختم سورة الجن بذكر الرسل عليهم السلام، وافتتح هذه بما يتعلق بخاتمهم عليه السلام.

٢ ـ أنه قال في السورة السابقة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، وقال في هذه: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾.

وقال أبو حيان[2]: مناسبتها لما قبلها: في آخر ما قبلها ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ...﴾ الآيات، فأتبعه بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ إعلاماً بأنه ﷺ ممن ارتضاه من الرسل، وخصه بخصائص، وكفاه شرّ أعدائه.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم في الناسخ والمنسوخ: سورة المزّمل فيها ستّ آيات منسوخات.

أولاهنّ: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيـلًا﴾.

الثانية: القليل بالنصف والنصف بقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾؛ أي: إلى الثلث.

الثالثة: قوله: ﴿ثَقِيلًا﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ...﴾ الآية.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ نسخت بآية السيف.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ نسخت بآية السيف.

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية (٣٠) من سورة الإنسان، وقيل: نسخت بآية السيف.

والله أعلم

* * *

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين أوّل هذه السورة وآخر ما قبلها، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنّ الله سبحانه لما ذكر[1] معاملة العباد ببارئهم وخالقهم من العدم.. أردف ذلك بمعاملة بعضهم بعضاً، فبين أن ذلك يكون بأحد أمرين:

١ - مخالطة فصبر جميل على الإيذاء والإيحاش.

٢ - هجرٍ جميلٍ بالمجانبة بالقلب والهوى والمخالفة في الأفعال مع المداراة

---

(١) المراغي.

والإغضاء وترك المكافأة. ثم أمر رسوله أن يترك أمر المشركين إليه، فهو الكفيل بمجازاتهم. ثم ذكر أنه سيعذبم بالأنكال والنار المستعرة والطعام ذي الغصة في يوم القيامة حتى تكون الجبال كثيبا مهيلاً.

وبعد أن خوفهم عذاب يوم القيامة خوفهم أحوال الدنيا، وأنه سيكون لهم فيها مثل ما كان للأمم المكذّبة قبلهم كقوم فرعون حين عصوا موسى، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر. ثم عاد إلى تخويفهم بالآخرة مرةً أخرى، وأبان لهم أن أهوالها بلغت حدّاً تشيب من هوله الولدان، وأن السماء تنشق منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا...﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بدأ السورة بشرح أحوال السعداء، وبين معاملتهم للمولى، ثم معاملتهم للخلق، ثم هدد الأشقياء بأنواع من العذاب في الآخرة، ثم توعدهم بعذاب الدنيا، وبعدئذٍ وصف شدة يوم القيامة. ختم السورة بتذكيرات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد، فمن شاء أن يسلك سبيل ربه بالطاعة والبعد عن المعصية، فليفعل. ثم أخبره بما يقوم به هو والمؤمنون للعبادة من ساعات الليل ثلثيه أو نصفه أو ثلثه. ثم خفف ذلك عنهم للأعذار التي تحيط بهم من مرض أو سفر للتجارة ونحوها أو جهاد للعدوّ، فليصلوا قدر ما يستطيعون، وليؤتوا زكاة أموالهم، ولسيتغفروا الله في جميع أحوالهم، فهو الغفور الرحيم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما[1] أخرجه البزار والطبراني بسند واهٍ عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالت: سموا هذا الرجل اسماً يصدر الناس عنه، قالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ، فتزمل في ثيابه فتدثر فيها، فأتاه جبريل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾.

---

(١) لباب النقول.

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعيّ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ قال: نزلت وهو في قطيفة.

قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ سبب نزولها: ما أخرجه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ قاموا سنة حتى ورمت أقدامهم، فأنزلت: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ أي: المتزمل؛ أي[1]: المتلفّف بثيابه، من تزمّل بثيابه إذا: تلفّف بها وتغطى، فأدغم التاء في الزاي، فقيل: المزمّل بتشديدين. كان ﷺ نائماً بالليل متزمّلاً في قطيفة؛ أي: دثار مخمل، فأمر أن يترك التزمل إلى التشمر للعبادة، ويختار التهجد على الهجود. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما جاءه جبريل خافه، فظن أن به مسّاً من الجن، فرجع من جبل حراء إلى بيت خديجة مرتعداً، وقال: زملوني. فبينما هو كذلك إذ جاءه جبريل، وناداه وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.

وعن عكرمة أن المعنى: يا أيها الذي زمل أمراً عظيماً؛ أي: حُمِّلَهُ. يعني: النبوة والرسالة. والزمل: الحمل، وازدمله: تحمّله، وكان يقرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ بتخفيف الزاي، وفتح الميم المشددة اسم مفعول.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ بتشديد الزاي وكسر الميم المشدّدة، أصله: المتزمل، فأدغمت التاء في الزاي. وقرأ أبي بن كعب، وأبو العالية، وأبو مجلز وأبو عمران، والأعمش ﴿يا أيها المتزمّل﴾ على الأصل. وقرأ عكرمة وابن يعمر ﴿المُزَمَّلُ﴾ بتخفيف الزاي وفتح الميم المشدّدة على صيغة اسم المفعول من زمّل المضعّف. ومثل هذه القراءة قول امرىء القيس:

كَأَنَّ بَشِيْراً فِيْ أَفَانِيْنِ وَبْلِهِ ... كَبِيْرُ أُنَاسٍ فِي لِحَادٍ مُزَمَّلِ

قال السهيليّ: ليس المزمل من أسمائه ﷺ التي يعرف بها كما ذهب إليه بعض

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط وزاد المسير.

الناس وعده في أسمائه، وإنما المزمل مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب، وكذا المدّثر. وفي خطابه[1] ﷺ بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعليّ رضي الله عنه حين غاضب فاطمة رضي الله عنها، أي: أغضبها وأغضبته، فأتاه وهو نائم قد لصق بجنبه التراب، فقال له: قم يا أبا تراب إشعاراً بأنه غير عاتب عليه، وملاطفة له، وكذلك قوله ﷺ لحذيفة رضي الله عنه: قم يا نومان، وكان نائماً ملاطفة وإشعاراً بترك العتب والتأديب. فقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ تأنيس وملاطفة له، ليستشعر أنه غير عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله لينتبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى؛ لأنّ الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل بذلك العمل، واتصف بتلك الصفة انتهى.

وفي «فتح الرحمن»: الخطاب الخاص بالنبي ﷺ كـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ ونحوه عام للأمة إلا بدليل يخصه. وهذا قول أحمد، والحنفية، والمالكية. وقال أكثر الشافعية: لا يعمهم إلا بدليل. وخطابه ﷺ لواحد من الأمة هل يعم غيره؟ قال الشافعي والحنفية والأكثر: لا يعم. وقال أبو الخطاب من أئمة الحنابلة: إن وقع جواباً عم، وإلا فلا.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ ولا تتزمل ولا ترقد، ودع هذه الحال لما هو أفضل منها، وقم إلى الصلاة في الليل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ بكسر الميم على أصل التقاء الساكنين. وقرأ أبو السمال بضمها إتباعاً لحركة القاف. وقرىء بفتحها طلباً للتخفيف. قال عثمان بن جنيّ: الغرض بالحركة الهرب من التقاء الساكنين، فبأي حركة تحرك الحرف حصل الغرض.

فانتصاب[3] ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على الظرفية، وإن كان الحدث الواقع فيه أعني: القيام المأمور به يستغرق جميع الليل، ولذلك صحّ الاستثناء منه؛ إذ لو كان غير مستغرق

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

لم يصح الاستثناء منه، واستغراق جميعه بالقيام على الدوام غير ممكن، فلذلك استثني منه لراحة الجسد، فحذف (في) وأوصل الفعل إليه فنصب؛ لأن عمل الجر لا يكون في الفعل، والنصب أقرب إليه من الرفع، ومن ذلك قال بعضهم: هو مفعول نظراً إلى الظاهر في الاستعمال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ في أحد الوجهين كما سبق.

وحد الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. قال بعضهم: إنّ الله اشتاق إلى مناجاة حبيبه، فناداه أن يقوم في جوف الليل. وقد قالوا: إنّ القيام والمناجاة ليسا من الدنيا بل من الجنة لما يجده أهل الذوق من الحلاوة. وقيل: معنى[1] ﴿قُمِ﴾ صل، عبر به عنه تجوزاً.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من الليل. أي: صل الليل كله إلا يسيراً منه، والقليل من الشيء هو ما دون النصف، وقيل: ما دون السدس، وقيل: ما دون العشر. وقال مقاتل والكلبي: المراد بالقليل هنا الثلث. وقد أغنانا عن هذا الاختلاف.

قوله: ﴿نِّصْفَهُ﴾ بالنصب بدل من الليل الباقي بعد الاستثناء بدل الكل. والنصف[2] أحد شقي الشيء. أي: قم نصفه. والتعبير عن النصف المخرج بالقليل لإظهار كمال الاعتداد بشأن الجزء المقارن للقيام والإيذان بفضله وكون القيام فيه بمنزلة القيام في أكثره في كثرة الثواب. يعني: أنه يجوز أن يوصف النصف المستثنى بكونه قليلاً بالنسبة إلى النصف المشغول بالعبادة مع أنهما متساويان في المقدار من حيث إن النصف الفارغ لا يساويه بحسب الفضيلة والشرف، فالاعتبار بالكيفية لا بالكمية. وقال بعضهم: إن القلة في النصف بالنسبة إلى الكل لا إلى العديل الآخر، وإلا لزم أن يكون أحد النصفين المتساويين أقل من الآخر، وفيه أنه من عرائه عن الفائدة خلاف الظاهر، كما في الإرشاد.

﴿أَوِ انقُصْ مِنْهُ﴾ أي: أو انقص القيام من النصف المقارن له إلى الثلث ﴿قَلِيلًا﴾ أي نقصاناً قليلاً أو مقداراً قليلاً بحيث لا ينحط إلى نصف الليل ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي زد القيام على النصف المقارن له إلى الثلثين. فالمعنى: تخييره ﷺ بين أن يقوم نصفه أو أقل منه أو أكثر. أي: قم إلى الصلاة في الزمان المحدود المسمى بالليل إلا في

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

الجزء القليل منه، وهو نصفه أو انقص القيام من نصفه أو زد عليه، فكأنّه قال: قم ثلثي اللّيل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل من قوله: ﴿قَلِيلًا﴾، ويكون الضميران في ﴿مِنۡهُ﴾ و﴿عَلَيۡهِ﴾ راجعين إلى النصف المبدل من ﴿قَلِيلًا﴾: فيكون المعنى ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ إلا نصفه أو أقل من نصفه أو أكثر من نصفه. قال الواحدي: وهذا المعنى هو الظاهر.

قيل: وهذا التخيير[1] بحسب طول الليالي وقصرها، فالنصف إذا استوى الليل والنهار، والنقص منه إذا قصر الليل، والزيادة عليه.. إذا طال الليل. فكان[2] النبيّ ﷺ وأصحابه يقومون على هذه المقادير، وكان الرجل منهم لا يدري متى ثلث الليل أو متى نصفه أو متى ثلثاه؟ فكان يقوم الليل كله حتى يصبح، مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب. واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم، فرحمهم الله تعالى، وخفف عنهم ونسخها عنهم بقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾. قيل: ليس في القرآن سورة نسخ آخرها أوّلها إلا هذه السورة، وكان بين نزول أولها ونزول آخرها سنة، وقيل: ستة عشر شهراً. وكان قيام الليل فرضاً ثم نسخ بعد ذلك في حق الأمة بالصلوات الخمس، وثبتت فريضته على النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

والمعنى: يا أيها النبي المتزمل بثيابه المتهيّىء للصلاة دم عليها الليل كله إلا قليلاً. ثم فسر هذا القليل: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ إلخ؛ أي إلا قليلاً وهو النصف أو انقص من النصف، أو زد على النصف إلى الثلثين، فهو ﷺ قد خير بين الثلث والنصف والثلثين.

وقصارى ذلك: أنه أمر أن يقوم نصف الليل، أو يزيد عليه قليلاً أو ينقص منه قليلاً، ولا حرج عليه في واحد من الثلاثة.

أخرج مسلم عن سعد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة، فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. فقلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين؟ قالت: ألست تقرأ المزّمّل؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض القيام في

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

أوّل هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة. فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة.

واختلف في الناسخ لهذا الأمر، فقيل: هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى آخر السورة. وقيل: هو قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ وقيل: هو قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، وقيل غير ذلك.

وبعد أن أمره بقيام الليل للصلاة أمره بترتيل القرآن فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾ في أثناء ما ذكر من قيام الليل؛ أي: اقرأه على تؤدةٍ وتمهلٍ وتبيين حروف. ﴿تَرْتِيلًا﴾ بليغاً وتبييناً واضحاً بحيث يتمكن السامع من عدها، ولذا نهى ابن مسعود رضي الله عنه عن التعجل، وقال: ولا يكن هم أحدكم آخر السورة. يعني: لا بد للقارىء من الترتيل ليتمكن هو ومن حضره من التأمل في حقائق الآيات. فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلاله، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يقع في الرجاء والخوف، وليسلم نظم القرآن من الخلل والزلل.

قال في «الكشاف»: ترتيل القرآن قراءته على ترسّل وتؤدة بتبيين الحروف، وإشباع الحركات حتى يجيء المتلوّ منه شبيهاً بالثغر المرتّل، وهو المفلّج المشبه بنور الأقحوان، وأن لا يهزّه هزّاً، ولا يسرده سرداً. والأمر بترتيل القرآن يشعر بأنّ الأمر بقيام الليل نزل بعد ما تعلم ﷺ مقداراً منه وإن قلّ.

وقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ على الاستقبال بالنسبة إلى بقيّة القرآن. ثم الظاهر أن الأمر به يعم الأمة، لأنه أمر مهم للكل، والأمر للوجوب، كما دل عليه التأكيد بالمصدر أو للندب.

والمعنى: واقرأ القرآن على تمهّل، فإنه أعون على فهمه وتدبّره، وكذلك كان ﷺ. قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها. وجاء في الحديث: «زيّنوا القرآن بأصواتكم» ولقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود». يعني: أبا موسى الأشعريّ، فقال أبو موسى: لو كنت أعلم أنّك كنت تسمع قراءتي لحبّرته لك تحبيراً». «وعن عبد الله بن مغفّل قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح، فرجع في قراءته»، أخرجه

الشيخان. وعن جابر: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا العربي والعجمي فقال: «اقرؤوا وكلٌّ حسن، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح - السهم - يتعجلونه ولا يتأجلونه، لا يجاوز تراقيهم». رواه أبو داوُد.

قال في «فتح البيان»:[1] والمقصود من الترتيل إنّما هو حضور القلب عند القراءة، لا مجرد إخراج الحروف من الحلقوم بتعويج الوجه والفم وألحان الغناء، كما يعتاده قرّاء هذا الزمان من أهل مصر وغيرها في مكة المكرّمة، وغيرها، بل هو بدعة أحدثها البطالون الأكالون والحمقى الجاهلون بالشرائع، وأدلتها الصادقة، وليس هذا أول قارورة كسرت في الإسلام اهـ.

والحكمة في ترتيل القرآن: التمكن من التأمل في حقائق الآيات ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلاله، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاءِ والخوف ويستنير القلب بنور الله. فإن الإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني، والنفس تبتهج بذكر الأمور الروحية، ومن سرّ بشيء أحب ذكره كما أن من أحب شيئاً لا يحب أن يمر عليه مسرعاً.

وكان ﷺ مجوّداً للقرآن كما أنزل[2]، وتجويده تحسين ألفاظه بإخراج الحروف من مخارجها وإعطاء حقوقها من صفاتها، كالجهر والهمس واللين ونحوها، وذلك بغير تكلف، وهو ارتكاب المشقّة في قراءته بالزيادة على أداء مخرجه، والمبالغة في بيان صفته، فينبغي أن يتحفظ في الترتيل عن التمطيط، وهو التجاوز عن الحد، وفي الحد. عن الإدماج والتخليط بأن تكون قراءته بحال كأنه يلف بعض الحروف والكلمات في بعض آخر لزيادة السرعة.

واعلم: أن التجويد على ثلاث مراتب: ترتيل وحدر وتدوير:

أما الترتيل: فهو تؤدة وتأن وتمهل، وهو مختار ورش وعاصم وحمزة، ويؤيده قوله ﷺ: «من قرأ القرآن» أي ختمة «أقل من ثلاث» أي في أقل من ثلاث ليالٍ «لم يفهمه». وفي «قوت القلوب»: أفضل القراءة الترتيل، لأن فيه التدبر والتفكر، وأفضل الترتيل والتدبر للقرآن ما كان في صلاة.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لأن أقرأ البقرة أرتلها وأتدبرها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذرمةً؛ أي: سرعة.

وأما الحدر: فهو الإسراع في القراءة، كما روي: أنه ختم القرآن في ركعة واحدة أربعة من الأمة: عثمان بن عفّان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير، وأبو حنيفة رضي الله عنهم. وهذا؛ أي: الحدر مختار ابن كثير وأبي عمرو وقالون.

وأمّا التدوير: فهو التوسط بين الترتيل والحدر، وهو مختار ابن عامر والكسائي. وهذا كله إنما يتصور في مراتب الممدود.

وفي الحديث: «رب قارىء للقرآن والقرآن يلعنه». وهو[1] متناول لمن يخل بمبانيه، أو معانيه أو بالعمل بما فيه، وذلك موقوف على بيان اللحن.

وهو قسمان: جلي وخفيّ:

فالجليّ: خطأ يعرض للفظ، ويخلّ بالمعنى بأن بَدَّلَ حرفاً مكان حرف بأن يقول مثلاً: الطالحات بدل الصالحات، وبالإعراب كرفع المجرور ونصبه سواء تغيَّر المعنى به أم لا، كما إذا قرأ ﴿أَنَّ الله بريء من المشركين ورسوله﴾ بجرّ ﴿رسوله﴾.

والخفي: خطأ يخل باصطلاحات القراء المعروفة لديهم كترك الإخفاء والإدغام والإظهار والقلب، وكترقيق المفخّم عكسه ومد المقصور وقصر الممدود، وأمثال ذلك. ولا شك أن هذا النوع مما ليس بفرض عين يترتب عليه العقاب الشديد، وإنما فيه التهديد وخوف العقاب. قال بعضهم: اللحن الخفي هو الذي لا يعرفه إلا مهرة القراء من تكرير الراءات وتطنين النونات وتغليظ اللامات وترقيق الراءات في غير محلّها لا يتصور أن يكون من فرض العين يترتب عليه العقاب على فاعلها، لما فيه من حرج، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وقال بعض أهل العلم: ومن الفتنة أن يقول لأهل القرى والبوادي والعجائز والعبيد والإماء لا تجوز الصلاة بدون التجويد، وهم لا يقدرون على التجويد، فيتركون الصلاة رأساً. فالواجب أن يعلم مقدار ما يصح به النظم والمعنى ويتوغل في الإخلاص وحضور القلب.

---

(١) روح البيان.

ثم أتى بجملة معترضة بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي، ليبين سهولة ما كلفه من القيام، فقال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾؛ أي: سنوحي إليك. وإيثار الإلقاء عليه لقوله تعالى: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ بانطوائه على التكاليف الشاقّة، وهو القرآن العظيم المنطوي على تكاليف شاقّة ثقيلة على المكلّفين، وأيضاً إنّ القرآن قديم غير مخلوق، والحادث يذوب تحت سطوة القديم إلاّ من كان مؤيّداً كالنبيّ ﷺ.

وهذه الجملة اعتراض بين الأمر وهو ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾، وبين تعليله وهو ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ إلخ، لتسهيل ما كلفه ﷺ من القيام. يعني: أنّ في توصيف ما سيلقي عليه بالثقل إيماءً إلى أنَّ ثقل هذا التكليف بالنسبة إليه كالعدم، فإذا كان ما سيكلف أصعب وأشقّ، فقد سهل هذا التكليف.

وفي «الكشاف»: أراد بهذا الاعتراض أنَّ ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الصعبة التي ورد بها القرآن؛ لأن الليل وقت السبات والراحة والهدوء فلا بد لمن أحياه من مضادّة لطبعه ومجاهدة لنفسه، فمن استأنس بهذا التكليف لا يثقل عليه أمثاله.

والمعنى: أي إنا سننزل عليك القرآن، وفيه الأمور الشاقة عليك وعلى أتباعك من أوامر ونواه، فلا تبال بهذه المشقّة، وامْرُنْ عليها لما بعدها. وقال الحسن بن الفضل: ثقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيَّدٌ بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد. وقال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة. وفي «فتح الرحمن»: وصف القرآن بالثقل لثقله بنزول الوحي على نبيه حتى كان يعرف في اليوم الثاني أو لثقل العمل بما فيه أو لثقله في الميزان أو لثقله على المنافقين.

وقد يكون[1] المراد أنّه ثقيل في الوحي، فقد جاء في حديث البخاري ومسلم: «إنّ الوحي كان يأتيه ﷺ أحياناً في مثل صلصلة الجرس، وهذا أشدّه عليه، فيفصم عنه ـ يفارقه ـ وقد وعى ما قال، وأحياناً يتمثّل له الملك رجلاً، فيكلّمه فيعي ما يقول، وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإنّ جبينه ليتفصّد عرقاً» يجري عرقه كما يجري الدم من الفاصد.

---

(١) المراغي.

ثم علّل الأمر بقيام الليل فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: إنَّ قيام الليل وعبادته التي تنشأ، وتحدث فيه على أنّ الناشئة مصدر من نشأ بمعنى: نهض وقام كالعافية بمعنى العفو. وهذا وافق لسان الحبشة، حيث يقولون: نشأ إذا قام. ﴿أَشَدُّ﴾؛ أي: أشقّ ﴿وَطۡـًٔا﴾؛ أي: تعباً وضرراً؛ أي: أثقل وأغلظ على المصلّي من صلاة النهار، فيكون أفضل وأكثر أجراً، فإن كل واحد من قيام الليل ومن العبادة التي تحدث فيه ثقيلان على العابد من قيام النهار والعبادة فيه.

ويحتمل[1] أن يكون المراد بناشئة الليل ساعاته، فإنها تحدث واحدة بعد واحدة، أي: ساعات الليل الناشئة؛ أي: الحادثة شيئاً فشيئاً، فتكون الناشئة صفة ساعات الليل أشدّ وطئاً؛ أي: بملاحظة القيام منها؛ أي: إن ساعات الليل أشد مواطأة؛ أي: أكثر موافقة بين السمع والبصر والقلب واللسان لانقطاع الحركات والأصوات فيها، وأثبت للعبادة؛ لأن الليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش وعبادته تدوم ولا تنقطع. وقال الكلبيّ: أشدّ نشاطاً وأكثر فراغاً.

ويحتمل أن يكون المعنى: إن النفس التي تنشأ وتنهض وتقوم في الليل من مضجعها إلى العبادة، من نشأ من مكانه إذا نهض. فالموصوف محذوف، والإضافة للملابسة بمعنى النفس الناشئة القائمة للصلاة في الليل. ﴿هِيَ﴾ خاصة ﴿أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾؛ أي: كلفة وثقلاً. مصدر قولك: وطىء الشيء؛ أي: داسه برجله أو جعل عليه ثقله، فإن النفس القائمة بالليل إلى العبادة أشد وطئاً وكلفةً ومشقّةً من التي تقوم بالنهار، فلا بد من قيام الليل، فإن أفضل العبادات أشقها. ويجوز أن يكون معنى ﴿أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾: أشد ثبات قدمٍ واستقرارها، فيكون المقصود بيان وجه اختيار الليل وتخصيصه بالأمر بالقيام فيه من حيث إنه تعالى جعل الليل لباساً يستر الناس، ويمنعهم عن الاضطراب والانقلاب في اكتساب المعاش، وجعل النهار معاشا يباشرون فيه أمور معاشهم، فلا تثبت فيه أقدامهم للعبادة. ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾؛ أي:[2] أصوب قراءة، وأصح قولاً من النهار لهدأة الناس وسكون الأصوات. وقيل: معناه أبين قولاً للقرآن.

والحاصل: أن عبادة الليل أشد نشاطاً، وأتم إخلاصاً، وأبعد عن الرياء،

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.

وأكثر بركة، وأبلغ في الثواب، وأدخل في القبول.

قرأ الجمهور[1]: بفتح الواو وسكون الطاء مقصوراً، واختار هذه القراءة أبو حاتم. والمعنى: إنّ الصلاة في ناشئة الليل وساعاته أثقل على المصلّي من الصلاة في ساعات النهار، لأنّ الليل وقت الراحة والنوم. وقرأ أبو العالية وابن أبي إسحاق، ومجاهد، وأبو عمرو، وابن عامر، وحميد، وابن محيصن، والمغيرة، وأبو حيوة بكسر الواو وفتح الطاء ممدوداً، واختار هذه القراءة أبو عبيد. والمعنى عليها: أنها أشد مواطأة؛ أي: موافقة بين اللسان والقلب والسمع والبصر لانقطاع الأصوات والحركات فيها من واطأت فلاناً إذا وافقته، ومنه: قوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ليوافقوا.

﴿إِنَّ لَكَ﴾ يا محمد ﴿فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾؛ أي: تقلّباً كثيراً وتصرّفاً في مهماتك كتردد السابح في الماء، واشتغالاً كثيراً بشواغلك، فلا تستطيع أن تتفرّغ للعبادة، فعليك بها في الليل، فعليك بها في الليل. وهذا بيان للداعي الخارجيّ إلى قيام الليل بعد بيان ما في نفسه من الداعي.

وقيل معنى الآية: إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه حتى لا ينقص شيء من حظك من المناجاة لربك، ويناسبه قوله ﷺ: «من نام عن حزبه، أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنّما قرأه من الليل». وقيل: سبحاً سبحةً؛ أي: نافلةً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَبْحًا﴾ بالحاء المهملة؛ أي: تصرفا في حوائجك وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً في أشغالك كما يتردد السابح في الماء يقلب يديه ورجليه. قال الشاعر:

أَبَاحُوْا لَكُمْ شَرْقَ ٱلْبِلَادِ وَغَرْبَهَا ... فَفِيْهَا لَكُمْ يَا صَاحِ سَبْحٌ مِنَ ٱلسَّبْحِ

وقرأ يحيى بن يعمر، وعكرمة، وابن أبي عبلة، وأبو وائل ﴿سبخا﴾ بالخاء المعجمة. ومعناه: خِفَّةً من التكاليف وسعةً واستراحةً، يقال: سبخ الله عنك الحمى؛ أي: خففها. وقيل معنى ﴿سبخا﴾؛ أي: فراغاً وسعة لنومك وتصرّفك في

---

(1) الشوكاني. (2) البحر المحيط.

حوائجك، ويقال: سبخ الحر: فتر وخف، ومنه قول الشاعر:

فَسبِّخْ عَلَيْكَ ٱلهَمَّ وَٱعْلَمْ بِأَنَّهُ إذا قَدَّرَ ٱلرَّحْمَنُ شَيْئاً فَكَائِنُ

أي: خفف عنك الهم.

ومعنى الآية[1]: أي إن لك في النهار تقلباً وتصرُّفاً في مهام أمورك واشتغالاً بشواغلك، فلا تستطيع أن تتفرغ فيه للعبادة، فعليك بالتهجد، فإن مناجاة الرب يعوزها الفراغ والتخلي عن العمل.

ثم أمر رسوله بمداومة الذكر والإخلاص له، فقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾؛ أي: ودم على ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أي وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم، خصوصاً بعد صلاة الغداة وصلاة العصر، لأنه وقت يتعاقب فيه ملائكة الليل والنهار. وقيل: ادعه بأسمائه الحسنى. وقيل: اقرأ باسم ربك في ابتداء صلاتك. وقيل: اذكر اسم ربك في وعده ووعيده لتوفر على طاعته وتبعد عن معصيته. وقال الكلبيّ: المعنى: صل لربك. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾؛ أي: وانقطع إليه تعالى انقطاعاً بالاشتغال بعبادته من تبتل إلى الشيء إذا انقطع إليه؛ أي: وانقطع إلى ربك انقطاعاً تامّاً بالعبادة وإخلاص النية والتوجه الكلّيّ. وليس[2] هذا يعارض قوله ﷺ: «لا رهبانية ولا تبتّل في الإسلام»؛ لأنّ ما هنا هو الانقطاع عن الشواغل إلى العبادة، والمنفيّ في الحديث هو الانقطاع عن النكاح. ومنه قيل لمريم العذراء: البتول؛ أي: المنقطعة عن الرجال. ووضع ﴿تَبْتِيلًا﴾ مكان تبتلا لرعاية الفواصل. قال الواحدي: والتبتّل: رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله تعالى.

والمعنى: أي ودم على ذكره ليلاً ونهاراً بالتسبيح والتهليل والتحميد والصلاة وقراءة القرآن، وانقطع إليه بالعبادة، وجرّد إليه نفسك، وأعرض عمّا سواه. ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾؛ أي؛ فإذا فرغت من شؤونك فانصب في طاعته وعبادته، لتكون فارغ القلب خالياً من الهواجس والوساوس الدنيوية.

ثم بين السبب في الأمر بالذكر والتبتّل فقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

هو ربهما وخالقهما ومالكهما وما بينهما من كل شيء. قال في «كشف الأسرار»: يريد به جنس المشارقِ والمغارب في الشتاء والصيف.

قرأ[1] حمزة، والكسائيّ، وأبو بكر، وابن عامر، ويعقوب بجر ﴿رَّبُّ﴾ على النعت لـ﴿رَبِّكَ﴾ أو البدل منه أو البيان له. وقرأ باقي السبعة برفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. وقرأ زيد بن عليّ بالنصب على المدح. وقرأ الجمهور ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ بإفرادهما. وقرأ عبد الله وأصحابه وابن عباس بجمعهما. وقال الزمخشري: وعن ابن عباس على القسم يعني: خفض ﴿رَّبُّ﴾ بإضمار حرف القسم كقولك: الله لأفعلنّ، وجوابه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، كما تقول: والله لا أحد في الدار إلا زيداً انتهى. ولعل هذا التخريج لا يصح عن ابن عباس.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئناف لبيان ربوبيته بنفي الألوهية عما سواه. والفاء: في قوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ﴾ لمصالح دينك ودنياك ﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: موكولاً ومفوّضاً إليه لإصلاحها وإتمامها، واسترح أنت. ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنه المختص بالربوبية، وأردت بيان ما هو الأصلح لك فأقول لك: اتخذه وكيلاً؛ أي: قائماً بأمورك، وعول عليه في جميعها. وقيل: كفيلاً بما وعدك من الجزاء والنصر. ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني: قريشاً مما لا خير فيه من الخرافات والهذيانات في حق الله تعالى من الشريك والصاحبة والولد، وفي حقك من الساحر والشاعر والكاهن والمجنون، وفي حق القرآن من أنّه أساطير الأوّلين، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ تأكيد للأمر بالصبر؛ أي: واتركهم تركاً حسناً بأن تجانبهم بقلبك وهواك، وتداريهم ولا تكافئهم، وتكل أمورهم إلى ربهم، كما أعرب به ما بعد الآية. قال الحكماء: تسلح على الأعداء بحسن المداراة حتى تبصر فرصة. وقيل: الهجر الجميل الذي لا جزع فيه، وهذا كان قبل الأمر بالقتال. ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بك وبالقرآن؛ أي: دعني وإياهم، ولا تهتم بهم، فإنّي أكفيك أمرهم وأنتقم لك منهم. قيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، وهم عشرة، وقد تقدم

(١) البحر المحيط.

ذكرهم في سورة ﴿نٓ﴾. وقال يحيى بن سلام: هم بنو المغيرة، وقال سعيد بن جبير: أخبرت أنهم اثنا عشر.

وقال بعضهم[1]: يجوز نصب ﴿المكذبين﴾ على المعيّة؛ أي: دعني معهم وهو الظاهر. ويجوز على العطف؛ أي: دعني على أمري مما تقتضيه الحكمة ودع المكذّبين بك وبالقرآن، وهو أوفق للصناعة؛ لأن النصب إنّما يكون نصّاً في الدلالة على المصاحبة؛ إذا كان الفعل لازماً، وهنا الفعل متعد. ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ صفة لـ ﴿المكذبين﴾، وهم صناديد قريش؛ أي: أرباب الغنى والسعة والترفّه واللذة في الدنيا. ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾؛ أي: تمهيلاً قليلاً على أنه صفة لمصدر محذوف أو زماناً قليلاً على أنّه صفة لزمان محذوف. والمعنى: أمهلهم إلى انقضاء آجالهم، وقيل: إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر. والأوّل أولى لقوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ وما بعده، فإنّه وعيد لهم بعذاب الآخرة.

والمعنى: ودعني والمكذّبين المترفين أصحاب الأموال، فإنّي أكفيك أمرهم، وأجازيهم بما هم له أهل، وتمهل عليهم قليلاً حتى يبلغ الكتاب أجله، وسيذوقون العذاب الذي أعددته لهم. ونحو الآية: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

والخلاصة: خل بيني وبينهم فسأجازيهم بما يستحقون. روي: أنها نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين، وقالت عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسير حتى كانت وقعة بدر.

ثم ذكر من ألوان العذاب التي أعدها لهم أموراً أربعة:

١ - ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ في الآخرة وفيما هيّأناه للعصاة من آلات العذاب وأسبابه، وهو أولى من قول بعضهم: في علمنا وتقديرنا؛ لأنّ المقام مقام تهديد العصاة، فوجود آلات العذاب بالفعل أشد تأثيراً على أن تلك الآلات صور الأعمال القبيحة. ولا شك أن معاصري النبي ﷺ من الكفار قد قدموا تلك الآلات بما فعلوا من السيئات ﴿أَنكَالًا﴾؛ أي: قيوداً ثقالاً، يقيد بها أرجل المجرمين إهانة لهم وتعذيبا لا

---

(١) روح البيان.

خوفاً من فرارهم. جمع نكل بالكسر، وهو القيد الثقيل. والجملة تعليل[1] للأمر قبلها من حيث إنّ تعداد ما عنده من أسباب التعذيب الشديد في حكم بيان اقتداره على الانتقام منهم، فهم يتنعمون في الدنيا ولا يبالون، وعند الله العزيز المنتقم في الآخرة أمور مضادّة لتنعمهم.

٢ ـ ﴿وَجَحِيمًا﴾؛ أي: ناراً مؤجّجة مستعرة تشوي الوجوه، وقيل: كلّ نار عظيمة في مهواة. وفي «الكشاف»: هي النار الشديدة الحر والاتقاد.

٣ ـ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾؛ أي: لا يسوغ في الحلق بل ينشب فيه، فلا ينزل ولا يخرج. قال مجاهد: هو الزقّوم. وقال الزجاج: وهو الضريع. وفي «الروح»: والغصّة هو كلّ ما ينشب في الحلق، ويعلق من عظم وغيره فلا ينساغ؛ أي: طعاماً غير سائغ يأخذ بالحلق، لا هو نازل ولا هو خارج كالضريع والزقّوم، وهما في الدنيا من النباتات والأشجار سمّان قاتلان للحيوان الذي يأكلهما مستكرهان عند الناس، فما ظنّك بضريع جهنم وزقومها. وهو في مقابلة الهنيء والمريء لأهل الجنة، وإنّما ابتلوا بهما لأنّهم أكلوا نعمة الله وكفروا بها.

٤ ـ ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: نوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يقادر قدره، ولا يدرك كنهه. كما يدل عليه التنكير، كل ذلك معد لهم ومرصد، فالمراد بالعذاب سائر أنواع العذاب.

والمعنى[2]: أي إنّ لدينا لهؤلاء المكذّبين بآياتنا قيوداً ثقيلة توضع في أرجلهم، كما يفعل بالمجرمين في الدنيا إذلالاً لهم. قال الشعبيّ: أترون أن الله جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا؟ لا والله ولكنّهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استقلت بهم، وناراً مستعرة تشوي الوجوه، وطعاماً لا يستساغ، فلا هو نازل في الحلق ولا هو خارج منه كالزقوم والضريع، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾، وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤﴾. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: ألواناً أخرى من العذاب المؤلم الموجع الذي لا يعلم كنهه إلا علام الغيوب.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والخلاصة: أنّ لدنيا في الآخرة ما يضادّ تنعمهم في الدنيا، وهو النكال والجحيم والطعام الذي يغصون به، والعذاب الأليم. وعن الحسن: أنه أمسي صائماً فأتي بطعام، فعرضت له هذه الآية، فقال: ارفعه، ووضع عنده الليلة الثانية، فعرضت له، فقال: ارفعه، وكذلك الليلة الثالثة، فأخبر ثابت البنانيّ ويزيد الضبّيّ ويحيى البكاء، فجاؤوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق.

وبعد أن وصف العذاب ذكر زمانه فقال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ وتضطرب وتتحرك ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ وانتصاب[1] الظرف إمّا بـ ﴿ذرني﴾ أو بالاستقرار المتعلق به لدينا أو صفة لـ ﴿عذابا﴾، فيتعلق بمحذوف؛ أي: عذاباً واقعاً يوم ترجف الأرض، أو متعلق بـ ﴿أَلِيمًا﴾. وقرأ الجمهور ﴿تَرْجُفُ﴾ بفتح التاء وضم الجيم مبنيًّا للفاعل. وقرأ زيد بن علي بضمها مبنياً للمفعول، مأخوذ من أرجفها؛ أي: إنَّ لدينا أنكالاً وجحيماً وعذاباً أليماً يوم تتحرك وتضطرب الأرض والجبال بمن عليها، وتتزلزل زلزلةً شديدة بهيبة الله وجلاله؛ ليكون علامة لمجيء القيامة وأمارة لجريان حكم الله في مؤاخذة العاصين. والرجفة: الزلزلة، والزعزعة الشديدة. وأفرد[2] الجبال بالذكر مع كونها من الأرض لكونها أجساماً عظاماً أوتاداً لها، فإذا تزلزلت الأوتاد لم يبق للأرض قرار، وأيضاً إنّ زلزلة العلويّات أظهر من زلزلة السفليات، ومن زلزلتها تبلغ القلوب الحناجر خوفاً من الوقوع..

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ من شدّة الرجفة مع صلابتها وارتفاعها ﴿كَثِيبًا﴾؛ أي: رملا مجتمعا ﴿مَّهِيلًا﴾؛ أي: رخواً ليّناً سائلاً. وفي «القاموس»: الكثيب: التل من الرمل انتهى، من كثب الشيء إذا جمعه، كأنه فعيل بمعنى مفعول في أصله، ثم صار اسماً بالغلبة للرمل المجتمع؛ أي: صارت مثل رمل مجتمع هيل هيلاً؛ أي: نثر وأسيل بحيث لو حرك من أسفله انهال من أعلاه وسال، لتفرق أجزائه كالعهن المنفوش، ومثله هذا الرمل يمر تحت الرجل ولا يتماسك، فكونه متفرق الأجزاء منثوراً سائلاً لا ينافي كونه رملاً مجتمعاً. فـ ﴿مَّهِيلًا﴾ اسم مفعول من هال يهيل هيلا كباع يبيع بيعاً ومبيعاً، لا فعيل من مهل يمهل. وخص[3] الجبال بالتشبيه بالكثيب المهيل؛ لأنّ ذلك خاصة لها، فإن الأرض تكون مقررة في مكانها بعد الرجفة، دل عليه قوله

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

والحاصل: أنّ الأرض والجبال يدق بعضها ببعض، كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾. فترجع الجبال كثيباً مهيلاً، ثم ينسفها الريح فتصير هباء منبثاً وتبقى الأرض مكانها ثم تبدل، كما مر. وإنما عبر بالماضي في الجبال لتحقق وقوعه.

والمعنى[1]: أي ذلك العذاب في يوم تضطرب فيه الأرض، وتزلزل الجبال، وتتفرق أجزاؤها وتصير كالعهن المنفوش وكالكثيب المهيل بعد أن كانت حجارة صماء، ثم ينسفها ربي نسفاً، فلا يبقى منها شيء.

وبعد أن خوف المكذبين أولى النعمة بأهوال القيامة خوفهم بأهوال الدنيا وما لاقته الأمم المكذبة من قبلهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿رَسُولًا﴾ هو محمد ﷺ وكونه مرسلاً إليهم لا ينافي إرساله إلى من عداهم، فإن مكة أم القرى، فمن أرسل إلى أهل مكة فقد أرسل إلى أهل الدنيا جميعاً، ولذا نص الله تعالى عليه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، ليندفع أوهام أهل الوهم. ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بما صدر منكم من الكفر والعصيان، وكذا يشهد على غيركم، كما قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾. ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ هو موسى عليه السلام؛ لأنَّ هارون عليه السلام ردء له وتابع، وعدم تعيينه لعدم دخله في التشبيه، وتخصيص فرعون لأنه من رؤساء أولى النعمة المترفهين المتكبرين، فبينه وبين قريش جهة جامعة ومشابهة حال ومناسبة سريرة. قيل: إنما خص موسى وفرعون بالذكر؛ لأن أخبارهما كانت منتشرة بمكة. ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: فعصى[2] فرعون المعلوم حاله كبراً وتنعماً الرسول الذي أرسلناه إليه. ومحل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر محذوف؛ أي: إنا أرسلنا إليكم رسولاً فعصيتموه، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ إرسالاً كائناً كإرسالنا إلى فرعون رسولاً، فعصاه بأن جحد رسالته، ولم يؤمن به. وفي إعادة فرعون والرسول مُظْهرين تفظيع لشأن عصيانه، وإن ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

عصيان موسى. وفي ترك ذكر أملاء فرعون إشارة إلى أن كل واحد منهم كأنه فرعون في نفسه لتمرده.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ بسبب عصيانه ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾؛ أي: ثقيلاً شديداً. والوبيل: الثقيل الغليظ، ومنه: الوابل للمطر العظيم، والكلام خارج عن التشبيه، جيء به للتنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة.

والمعنى[1]: أي إنّا أرسلنا إليكم رسولاً يشهد عليكم بإجابة من أجاب منكم دعوتي، وامتناع من امتنع من الإجابة يوم تلقونني في القيامة، كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً يدعوه إلى الحق، فعصى فرعون الرسول الذي أرسلناه إليه، فأخذناه أخذاً شديداً، فأهلكناه ومن معه بالغرق، فاحذروا أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم مثل ما أصابه.

وقصارى ذلك: كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه، فأخذناه أخذاً وبيلاً أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم، فاحذروا أن تعصوه، فيصيبكم مثل ما أصابه.

وبعد أن هددهم بعذاب الدنيا أعاد الكرّة بتخويفهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أي: كيف تتقون وتحفظون أنفسكم ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾؛ أي: إن بقيتم على كفركم ﴿يَوْمًا﴾، أي: عذاب يوم ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ والصبيان ﴿شِيبًا﴾؛ أي: شيوخاً لشدة هوله. وقرأ الجمهور ﴿يَوْمًا﴾ منونا ﴿يَجْعَلُ﴾ بالياء، والجملة صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾. وقرأ زيد بن عليّ ﴿يَوْمَ﴾ بغير تنوين، و﴿نجعل﴾ بالنون، فالظرف مضاف إلى الجملة. والشيب: جمع أشيب، وهذا يجوز أن يكون حقيقة وأنهم يصيرون كذلك أو تمثيلاً لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه، وضعفت أعضاؤه وصار كالشيخ في الضعف وسقوط القوة. وفي هذا تقريع لهم شديد وتوبيخ عظيم. و﴿يَوْمًا﴾ مفعول به لتتقون. قال ابن الأنباري: ومنهم من نصب اليوم بـ ﴿كفرتم﴾، وهذا قبيح انتهى.

قال ابن الشيخ: قوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ مرتب على الإرسال، فالعصيان، وكان الظاهر أن يقدم على قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ﴾ إلا أنه أخر زيادة في التهويل؛ إذ علم من

(١) المراغي.

قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ أنهم مأخوذون مثله وأشد، فإذا قيل بعده: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ كان ذلك زيادة كأنه قيل: هبوا أنكم لا تؤخذون في الدنيا أخذة فرعون وأمثاله، فكيف تتقون؟ أي: تقون أنفسكم عذاب يوم إلخ. فاتَّقى هنا بمعنى وقى المتعدي إلى مفعولين؛ لأن افتعل يجيء بمعنى فعل الثلاثي. نص عليه الزمخشري في «المفصل».

ويجوز[1] أن يكون ﴿يَوْمًا﴾ ظرفاً؛ أي: فكيف لكم بالتقوى، والتوحيد في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا؟ أي: لا سبيل إليه لفوات وقته، فاتقى على حاله، وكذا ﴿إذا﴾ انتصب بـ﴿كَفَرْتُمْ﴾ على تأويل جحدتم؛ أي: فكيف تتقون الله وتخشون عقابه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ من شدة هوله وفظاعة ما فيه من الدّواهي، وهو صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾، نسب الجعل إلى اليوم للمبالغة في شدته، وإلا فنفس اليوم لا تأثير له ألبتة. و﴿ٱلْوِلْدَٰنَ﴾: جمع وليد، يقال لمن قرب عهده بالولادة، وإن كان في الأصل يصح إطلاقه على من قرب عهده بها ومن بعد. ﴿شِيبًا﴾؛ أي: شيوخاً جمع أشيب، والشيب: بياض الشعر كبيض جمع أبيض، وسيأتي تمام البحث فيه في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى، وقد سبق لك قريباً أن جعلهم شيوخاً إما محمول على الحقيقة كما ذهب إليه بعضهم.

فإن قلت: إيصال الألم والضرر إلى الصبيان يوم القيامة غير جائز بل هم لكونهم غير مكلفين معصومون محفوظون عن كل خطر.

قلت: قد يكون في القيامة من هيبة المقام ما يجثوا به الأنبياء عليهم السلام على الركب، فما ظنك بغيرهم من الأولياء والشيوخ والشبان والصبيان؟ وفي الآية مبالغة، وهي أنه إذا كان ذلك اليوم يجعل الولدان شيباً، وهم أبعد الناس من الشيخوخة لقرب عهدهم بالولادة، فغيرهم أولى بذلك. وإما محمول على التمثيل بأن شبه اليوم في شدة هوله بالزمان الذي يشيب الشبان لكثرة همومه وأهواله.

وأصله: أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على المرء.. ضعفت قواه، وأسرع فيه الشيب؛ لأنّ كثرة الهموم توجب انعصار الروح إلى داخل القلب، وذلك الانعصار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية وضعفها وانطفاؤها يوجب بقاء الأجزاء

---

(١) روح البيان.

الغذائية غير تامة النضج، وذلك يوجب بياض الشعر ومسارعة الشيب بتقدير العزيز العليم، كما يوجب تغير القلب تغير البشرة، فتحصل الصفرة من الوجل والحمرة من الخجل والسواد من بعض الآلام، وما على البدن من الشعر تابع للبدن فتغيره يوجب تغيره. فثبت أن كثرة الهموم توجب مسارعة الشيب، كما قال المتنبي:

وَٱلْـهَـمُّ يَـخْـتَـرِمُ ٱلْـجَـسِـيْـمَ نَـحَـافَـةً وَيُـشِـيـبُ نـاصِـيَـةَ ٱلـصَّـبِـيِّ وَيُـهْـرِمُ

وقال الآخرُ:

دَهَـتْـنـا أُمُـوْرٌ تُـشِـيـبُ الـوَلِـيـدَ وَيَـخْـذِلُ فِـيـهَـا الـصَّـدِيـقُ الـصَّـدِيـقْ

فلما كان حصول الشيب من لوازم كثرة الهموم جعلوه كناية عن الشدّة، فجعل اليوم المذكور الولدان شيباً عبارة عن كونه يوماً شديداً غاية الشدّة.

ثم زاد في وصف ذلك اليوم بالشدّة، فقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾؛ أي: منشق بسبب ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى مسبب الأسباب، فيجوز أن يجعل شدة ذلك اليوم سبباً للانفطار، والجملة صفة أخرى لـ ﴿يَوۡمًا﴾؛ والباء سببية؛ أي: متشقّقة بسببه لشدّته وعظيم هوله. وقيل: هي بمعنى في؛ أي: منفطر فيه، وقيل: بمعنى اللام؛ أي: منفطر له. وإنما قال: ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ ولم يقل: منفطرة لتنزيل السماء منزلة الشيء، لكونها قد تغيّرت، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء. وقال الفراء: السماء تذكر وتؤنث. وقيل: غير ذلك. وقيل: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد إلى الله؛ أي: منفطر بالله، والمراد منفطر بأمره تعالى. والأول أولى.

واعلم: أن الله ذكر من هول ذلك اليوم أمرين:

الأول: قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾.

والثاني: قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾؛ لأن السماء على عظمتها وقوتها إذا انشقت بسبب ذلك اليوم، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟ فالباء للسببية، وهو الظاهر. وتذكير الخبر لإجرائه على موصوف مذكر؛ أي: شيء منفطر، عبر عنها بذلك للتنبيه على أنه تبدلت سقيفتها، وزال عنها اسمها ورسمها، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء.

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ﴾ سبحانه وتعالى. فالضمير إمّا لله وإن لم يجر له ذكر للعلم به،

والمصدر مضاف إلى فاعله؛ أي: كان وعده سبحانه وتعالى بكون يوم القيامة على ما وصف به من الشدائد. ﴿مَفْعُولًا﴾ أي: كائناً متحقّقاً، لأنه لا يخلف الميعاد، فلا يجوز لعاقل أن يرتاب فيه. أو الضمير لـ﴿يوم﴾، والمصدر مضاف إلى مفعوله، والفاعل وهو الله مقدر؛ أي: كان وعد الله ذلك اليوم مفعولاً؛ أي: واجب الوقوع؛ لأن حكمته تعالى وعلمه يقتضيان إيقاعه.

والمعنى: كيف يحصل لكم أمان من يوم يحصل فيه هذا الفزع العظيم الذي تشيب من هوله الولدان، وتنشق السماء، وتنفطر بسبب شدائده وأهواله إن كفرتم.

والعرب تضرب المثل في الشدّة، فتقول: هذا يوم تشيب من هوله الولدان، وهذا يوم يشيب نواصي الأطفال. ذاك أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب، فجعلوا الشيب كناية عن الشدّة والمحنة فاحذروا هذا اليوم، فإنه كائن لا محالة كما وعد.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة، وهي من قوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ إلى هنا. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: موعظة لمن يريد الخير لنفسه، والاستعداد لربه. أو إشارة إلى جميع الآيات القرآنية، لأن القرآن موعظة للمتقين وطريق للسالكين، ونجاة للهالكين، وبيان للمستبصرين، وشفاء للمتحبرين، وأمان للخائفين، وأنس للمريدين، ونور لقلوب العارفين، وهدى لمن أراد الطريق إلى رب العالمين.

﴿فَمَن شَآءَ﴾ من المتكلفين الوصول إلى مرضاة الله سبحانه والقرب إليه ﴿ٱتَّخَذَ﴾ لنفسه ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ أي: جعل لنفسه طريقاً موصلاً إلى مرضاته تعالى بالتقرب إليه بالإيمان والطاعات، فإنه المنهاج الموصل إلى مرضاته ومقام قربه والاستقرار في دار كرامته.

والمعنى[1]: أي إن ما تقدم من الآيات التي ذكر فيها يوم القيامة وأهوالها، وما هو فاعل فيها بأهل الكفر عبرة لمن اعتبر وادكر، فمن شاء.. اتعظ بها واتخذ سبيلاً إلى ربه، فآمن به وعمل بطاعته، وأخبت إليه. وذلك هو النهج القويم،

---

(١) المراغي.

والطريق الموصل إلى مرضاته.

ثم رخص لأمته في ترك قيام الليل كله للمشقة التي تلحقهم إذا هم فعلوا ذلك، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾؛ أي: تصلي كقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾، لما كان أكثر أحوال الصلاة القيام عبر به عنها. ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: أقل منهما. فإطلاق الأدنى على الأقل مجاز[1] مرسل من قبيل إطلاق الملزوم على اللازم، لما أن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز والحدود، وإذا بعدت كثر ذلك.

روي: أنه تعالى افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام النبي ﷺ وأصحابه حولاً مع مشقة عظيمة من حيث إنه يعسر عليهم تمييز القدر الواجب حتى قام أكثر الصحابة الليل كله خوفاً من الخطأ في إصابة القدر المفروض، وصاروا بحيث انتفخت أقدامهم، واصفرت ألوانهم، وأمسك الله خاتمة السورة من قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إلخ، اثني عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله في آخر السورة التخفيف، فنسخ تقدير القيام بالمقادير المذكورة مع بقاء فرضية أصل التهجد حسبما تيسر، ثم نسخ نفس الوجوب أيضاً بالصلوات الخمس، لما روي: أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوع.

﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿أَدْنَىٰ﴾. والثلث: أحد الأجزاء الثلاثة، والجمع أثلاث؛ أي: أنك تقوم أقل من ثلثي الليل، وتقوم نصفه وثلثه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ بضمّ اللام. وقرأ الحسن، وشيبة، وأبو حيوة، وابن السميفع، وهشام، وابن مجاهد عن قنبل فيما ذكر صاحب «الكامل» بإسكانها، وجاء ذلك عن نافع، وابن عامر فيما ذكر «صاحب اللوامح». وقرأ العربيّان: أبو عمرو وابن عامر، ونافع ﴿ونصفه وثلثه﴾ بجرهما عطفاً على ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾. وقرأ باقي السبعة، وزيد بن علي بالنصب عطفاً على ﴿أَدْنَىٰ﴾؛ لأنه منصوب على الظرف؛ أي: وقتاً أدنى من ثلثي الليل، فقراءة النصب مناسبة للتقسيم الذي في أوّل السورة؛ لأنه إذا قام الليل إلا قليلاً صدق عليه أدنى من ثلثي الليل؛ لأنّ الزمان

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الذي لم يقم فيه يكون الثلث وشيئاً من الثلثين، فيصدق عليه قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾. وأما قوله: ﴿وَنِصْفَهُ﴾ فهو مطابق لقوله أولاً: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾، وأما ثلثه فإن قوله: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾، قد ينتهي النقص في القليل إلى أن يكون الوقت ثلث الليل. وأما قوله: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ فإنه إذا زاد على النصف قليلاً كان الوقت أقل من الثلثين، فيكون قد طابق قوله: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ شرحاً لمبهم ما دل عليه قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾. والمعنى على النصب: إن ربك يعلم أنك تقوم أقل من ثلثي الليل وتقوم نصفه وتقوم ثلثه. قال الفراء: وقراءة النصب أشبه بالصواب.

وأما قراءة الجرّ فالمعنى[1]: أنه قيام مختلف مرّة أدنى من الثلثين، ومرة أدنى من النصف، ومرة أدنى من الثلث. وذلك لتعذر معرفة البشر مقادير الزمان مع عذر النوم، وتقدير الزمان حقيقة إنّما هو لله تعالى، والبشر لا يطيقون ذلك.

والمعنى عليه: أنّ ربك يعلم أنك تقوم أقل من ثلثي الليل وأقل من نصفه وأقل من ثلثه.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ مرفوع معطوف[2] على الضمير في ﴿تَقُومُ﴾ وجاز ذلك للفصل بينهما؛ أي: ويقوم معك طائفة من أصحابك الذين آمنوا معك حين فرضية قيام الليل. و﴿مِّنَ﴾ تبيينية فلا دلالة فيه على أن قيام الليل لم يكن فرضاً على الجميع.

وحاصل المعنى: يتابعك طائفة في قيام الليل، وهم أصحابك. وفيه وعد لهم بالإحسان إليهم. وفي «قوت القلوب»: قد قرن الله تعالى قوام الليل برسوله المصطفى ﷺ، وجمعهم معه في شكر المعاملة وحسن الجزاء.

والمعنى: أي إنّ ربك يا محمد لعليم بأنك تقوم أقل من ثلثي الليل، وأكثر من النصف، وتقوم النصف وتقوم الثلث أنت وطائفة من صحبك المؤمنين حين فرض عليكم قيام الليل.

﴿وَٱللَّهُ﴾ وحده ﴿يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ أي[3]: يعلم مقادير الليل والنهار على

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

حقائقها، ويحصي بذلك دون غيره، وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة. قال عطاء: لا يفوته علم ما تفعلون؛ أي: إنه يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم القدر الذي تقومونه من الليل.

والمعنى: لا يقدر على تقديرهما ومعرفة مقادير ساعاتهما وأوقاتهما أحد أصلاً، فإن تقديم الاسم الجليل مبتدأ وبناء ﴿يُقَدِّرُ﴾ عليه موجب للاختصاص قطعاً. قال الراغب: التقدير: تبيين كميّة الشيء. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾ إلخ. إشارة إلى[1] ما أجرى من تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل. أي: إدخال هذا في هذا إلخ. وأن ليس أحد يمكنه معرفة ساعاتهما، وتوفية حق العبادة منهما في وقت معلوم.

والحاصل: أن العالم بمقادير ساعات الليل والنهار على حقائقها هو الله، وأنتم تعلمون بالتحري والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ، فربما يقع منكم الخطأ في إصابتها، فتقومون أقل من المقادير المذكورة. ولذا قال: ﴿عَلِمَ﴾ الله سبحانه ﴿أَن﴾ أي: أن الشأن ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ أي: لن تقدروا على تقدير الأوقات على حقائقها، ولن تستطيعوا ضبط الساعات أبداً. فالضمير[2] عائد على المصدر المفهوم من ﴿يُقَدِّرُ﴾؛ أي: علم أنّه لا يمكنكم إحصاء مقدار كل واحد من أجزاء الليل والنهار على الحقيقة، ولا يمكنكم تحصيل تلك المقادير على سبيل الظن إلا مع المشقة التامة. واحتج بعضهم بهذه الآية على وقوع التلكيف بما لا يطاق، فإنه تعالى قال: ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ أي: لن تطيقوه، ثم إنه كلفهم بتقدير الساعات والقيام فيها حيث قال. ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ . . .﴾ إلخ. ويمكن أن يجاب عنه: بأنّ المراد صعوبته لا أنهم لا يقدرون عليه أصلاً، كما يقال: لا أطيق أن أنظر إلى فلان إذا استثقل النظر إليه.

أي[3]: علم أنه لن تطيقوا قيامه على هذه المقادير؛ إلا بشدة ومشقة، وفي ذلك حرج. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فخفف عليكم، وأسقط عنكم فرض قيام الليل. ﴿فَٱقْرَءُواْ﴾؛ أي: فصلوا ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ لكم ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أي: من صلاة الليل؛ أي: فصلوا ما تيسر وسهل عليكم من صلاة الليل غير مقدرة بكونها في ثلث الليل أو نحوه، ولو قدر حلب شاة، فهذا إنما يكون أربع ركعات وقد يكون ركعتين. عبّر

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) النسفي.

عن[1] الصلاة بالقراءة كما عبّر عنها بسائر أركانها على طريق إطلاق اسم الجزء على الكل مجازاً مرسلاً، فتبين أن التهجد كان واجباً على التخيير المذكور، فعسر عليهم القيام به فنسخ بهذه الآية، ثم نسخ نفس الوجوب المفهوم منها بالصلوات الخمس. وقيل: إنه نسخ في حق الأمة وبقي فرضاً في حقه ﷺ. والأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم في حقه ﷺ، وفي حق الأمة. وفيه تفضيل صلاة الليل على سائر التطوعات، فإن التطوع بما كان فرضاً في وقت ثمّ نسخ أفضل من التطوّع بما لم يكن فرضاً أصلاً، كما قالوا: صوم يوم عاشوراء أفضل لكونه فرضاً قبل فرضيّة رمضان. وفي الحديث: «فليصلّ أحدكم من الليل، فإذا غلب عليه النوم فليرقد».

ومعنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ...﴾ إلخ؛ أي:[2] ولا يعلم مقادير الليل والنهار إلاّ الله، وأما أنتم.. فلن تستطيعوا ضبط الأوقات ولا إحصاء الساعات، فتاب عليكم بالترخيص في ترك القيام المقدّر، وعفا عنكم ورفع هذه المشقّة. قال مقاتل وغيره: لمّا نزلت: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ إلخ، شق ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه؟ فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطىء، فانتفخت أقدامهم وامتقعت ألوانهم، فرحمهم الله، وخفف عنهم فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾.

والخلاصة: الله يعلم أنكم لن تحصوا ساعات الليل إحصاء تامًّا، فإذا زدتم على المفروض.. ثقل ذلك عليكم وكلفتم ما ليس بفرض، وإن نقصتم.. شق هذا عليكم. فتاب عليكم، ورجع بكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عسر إلى يسر، وطلب إليكم أن تصلوا ما تيسر بالليل، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾؛ أي: فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل. قال الحسن: هو ما يقرأ في صلاة المغرب والعشاء. وقال السدّي: ما تيسّر منه هو مئة آية. وفي بعض الآثار: من قرأ مئة آية في ليلة.. لم يحاجه القرآن. وعن قيس بن حازم قال: صليت خلف ابن عباس فقرأ في أول ركعة بالحمد لله رب العالمين، وأول آية من البقرة، ثم ركع، فلما انصرفنا أقبل علينا فقال: إنّ الله يقول: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾، أخرجه

(1) روح البيان. (2) المراغي.

الدارقطني، والبيهقي في «سننه».

ثم ذكر أعذاراً أخرى تسوغ هذا التخفيف، فقال: ﴿عَلِمَ﴾ الله سبحانه ﴿أَن﴾ أي: أنّ الشأن ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ استئناف مبيّن لحكمة أخرى داعية إلى الترخيص والتخفيف؛ أي: علم الله سبحانه أنّه سيوجد منكم مرضى لا يستطيعون الصلاة بالليل ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على ﴿مَّرْضَىٰ﴾؛ أي: وسيوجد منكم أقوام آخرون ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يسافرون في نواحي الأرض وأرجائها للتجارة حال كونهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾؛ أي: يطلبون في سفرهم ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ ورزقه. وهو الربح ما يحتاجون إليه في معاشهم، فلا يطيقون قيام الليل. وفيه[1] تصريح بما علم التزاماً، وبيان أن ما حصلوه من الرزق من فضل الله. ومحل ﴿يَبْتَغُونَ﴾ النصب على أنه حال من ﴿يَضْرِبُونَ﴾. وقد عمّ ابتغاء الفضل تحصيل العلم، فإنه من أفضل المكاسب، وفيه أن معلم الخير وهو رسول الله ﷺ كان حاضراً عندهم وقت نزول الآية، فأين يذهبون؟ إلا أن يجعل آخر السورة مدنيًّا، فقد كانوا يهاجرون من مكة إلى المدينة لطلب العلم، وأيضاً إنَّ هذا بالنسبة إلى خصوص الخطاب. وأمّا بالنسبة إلى أهل القرن الثاني، ومن بعدهم فبقاء الحكم بلا نسخ يوقعهم في الحرج. وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: أنّه قال: حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة، وأفضل من شهود ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض. قيل: ومن قراءة القرآن؟ قيل: وهل تنفع قراءة القرآن بلا علم؟.

﴿و﴾ علم أن سيوجد أقوام ﴿آخرون﴾ منكم عطف على ﴿مَّرْضَىٰ﴾ أيضاً ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ الأعداء ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويجاهدونهم لإعلاء كلمة الله، فلا يطيقون قيام اللّيل. وسبيل الله هو ما يوصل إلى الأجر عند الله كالجهاد. وفيه تنبيه على أنه سيؤذن لهم في القتال مع الأعداء.

والمعنى[2]: أي علم سبحانه أنه سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار لا يستطيعون معها القيام بالليل كمرض وضرب في الأرض ابتغاء الرزق من فضل الله، وغزو في سبيل الله، فهؤلاء إذا لم يناموا في الليل تتوالى عليهم أسباب المشقّة، ويظهر عليهم آثار الجهد. وفي هذا إيماء إلى أنّه لا فرق بين الجهاد في قتال العدوّ

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والجهاد في التجارة لنفع المسلمين. قال ابن مسعود: أيّما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن الإسلام صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن عمر رضي الله عنه قال: ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحب إلي من أن يأتيني، وأنا بين شعبتي جبل ألتمس من فضل الله، وتلا: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

ولما ذكر سبحانه ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص، ورفع وجوب القيام عن هذه الأمّة ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص، فقال: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ والفاء: فاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان الأمر كما ذكر من الأعذار، وتعاضدت الدواعي إلى الترخيص، وأردتم بيان ما هو الأسهل عليكم.. فأقول لكم: اقرؤوا ما تيسّر منه؛ أي: صلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، أو فاقرؤوا في صلاة الليل ما خف عليكم وتيسر لكم منه من غير تحمل المشاقّ. وهذا[1] تأكيد للأوّل، فالأوّل مفرع على قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ إلخ، وهذا مفرع على قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ إلخ. فكل من المؤكّد والمؤكّد مفرع على حكمة.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: صلوا الصلاة المفروضة، وأدّوها في أوقاتها، وقوموها بأركانها وشروطها وآدابها، فلا تكون قلوبكم غافلةً، ولا أفعالكم خارجةً عمّا رسمه الدين. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: أعطوا الزكاة الواجبة في أموالكم لمستحقيها. وقيل[2]: هي زكاة الفطر، إذ لم يكن بمكة زكاة غيرها، وإنما وجبت بعدها. ومن فسّرها بالزكاة المفروضة في الأموال جعل آخر السورة مدنيًّا. وذلك إن لم نجعلها من باب ما تأخر حكمه عن نزوله ففيه دلالة على أنه سينجز وعده لرسوله، ويقيم دينه، ويظهر حتى تفرض الزكاة وتؤدي.

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ أي: أنفقوا إنفاقاً حسناً لا منّ فيه، ولا أذى من أموالكم في سبيل الخير، والتطوع للإفراد والجماعات مما هو نافع لها في رقيّها

(١) المراح. (٢) روح البيان.

المدنيّ والاجتماعيّ وسيبقى لكم جزاء ذلك عند ربكم. والقرضِ ضرب من القطع، وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضاً، لأنه مقروض مقطوع من ماله، أريد به الإنفاقات في سبيل الخيرات غير المفروض، فإنها كالقرض الذي لا خلف في أدائه. وفيه حث على التطوع، كما قال ﷺ «إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة». على أحسن وجه، وهو إخراجها من أطيب الأموال وأكثرها نفعاً للفقراء بحسن النية وصفاء القلب إلى أحوج الصلحاء. ونحو الآية قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

ثم حبب في الصدقة وفعل الخيرات، فقال: ﴿وَمَا﴾ شرطية ﴿تُقَدِّمُوا۟﴾ في الدنيا ذخرا ﴿لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي خير كان مما ذكر ومما لم يذكر ﴿تَجِدُوهُ﴾ جواب الشرط، ولذا جزم؛ أي: تجدوا ثوابه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه في الآخرة ﴿هُوَ﴾ تأكيد للضمير ﴿خَيْرًا﴾ وأنفع لكم من متاع الدنيا ﴿و﴾ تجدوه هو ﴿أعظم﴾؛ أي: أكثر ﴿أَجْرًا﴾ وثواباً من الذي تؤخّرونه إلى الوصية عند الموت، أي: ما تنفقونه في حال الصحة أكثر ثواباً مما تنفقونه بالوصية بعد الموت. وقوله: ﴿خَيْرًا﴾[1]، ثاني مفعولي ﴿تَجِدُوهُ﴾ و﴿هُوَ﴾ تأكيد للمفعول الأول لـ ﴿تَجِدُوهُ﴾ وفصل بينه وبين الفعول الثاني وإن لم يقع بين معرفتين فإنّ أفعل في حكم المعرفة. وذلك يمتنع من حرف التعريف وقوله: ﴿وَأَعْظَمَ﴾ عطف على ﴿خَيْرًا﴾ و﴿أَجْرًا﴾ تمييز عن نسبة الفاعل. والأجر: ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً.

وقال بعضهم: المشهور أنّ وجد إذا كان بمعنى.صادف يتعدى إلى مفعول واحد، وهو ههنا بمعناه لا بمعنى علم، فلا بُدَّ أن يكون ﴿خَيْرًا﴾ حالاً من الضمير. وفي الحديث: «اعلموا أنَّ كل امرىء على ما قدم قادم، وعلى ما خلف نادم». وعنه ﷺ: «إنّ العبد إذا مات. . قال الناس: ما خلف وقالت الملائكة: ما قدم». ومر عمر ببقيع الغرقد؛ أي: مقبرة المدينة، سمّيت بذلك لأنها كانت منبت الغرقد، وهو بالغين المعجمة اسم شجر. فقال: السلام عليكم أهل القبور أخبار ما عندنا أنّ نساءكم قد تزوجن، ودوركم قد سكنت، وأموالكم قد قسمت، فأجابه هاتف يا ابن الخطاب أخبار ما عندنا أن ما قدمناه وجدناه، وما أنفقناه فقد ربحناه، وما خلفنا

---

(١) روح البيان.

فقد خسرنا.

قَـدِّمْ لِـنَـفْـسِـكَ قَـبْـلَ مَـوتِـكَ صَـالِـحَـاً   وَٱعْـمَـلْ فَـلَـيْـسَ إلَـىٰ ٱلْـخُـلُـوْدِ سَـبِـيْـلُ

وقرأ الجمهور[١]: ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ بنصبهما، واحتمل هو أن يكون فصلاً، وأن يكون تأكيداً لضمير النصب في ﴿تَجِدُوهُ﴾. وقرأ أبو السمال، وابن السميفع ﴿هو خير وأعظم﴾ برفعهما على أن يكون ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، و﴿خيرٌ﴾ خبره، و﴿أَعْظَمُ﴾ معطوف عليه، والجملة في محل نصب على أنها ثاني مفعولي ﴿تَجِدُوهُ﴾، إن كان بمعنى علم، أو على الحال إن كان بمعنى صادف، كما مرّ آنفاً.

والمعنى: أي وما تقدّموا لأنفسكم في دار الدنيا من صدقة أو نفقة تنفقونها في سبيل الله، أو فعلِ طاعة من صلاة أو صيام أو حج، أو غير ذلك تجدوا ثوابه عند الله يوم القيامة خيراً مما أبقيتم في دار الدنيا، وأعظم منه عائدة لكم.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: سلوا الله المغفرة لذنوبكم في جميع أوقاتكم. وكافّة أحوالكم، فإن الإنسان قلما يخلو عن تفريط، وكان السلف الصالح يصلون إلى طلوع الفجر، ثم يجلسون للاستغفار إلى صلاة الصبح. واستحب[٢] الاستغفار على الأسماء من القرآن مثل أن يقول: أستغفر الله إنه كان توّاباً، أستغفر الله إنّ الله غفور رحيم، أستغفرُ الله إنه كان غفّاراً، رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين، واغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة لمن استغفره يغفرما دون أن يشرك به. ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ أي؛ كثير الرحمة لمن استرحمه، فيبدل السيئات حسنات.

وفي «عين المعاني»:[٣] غفور يستر على أهل الجهل والتقصير، رحيم يخفف عن أهل الجهل والتوقير. ومن عرف أنّه الغفور الذي لا يتعاظمه ذنب يغفر له أكثر من الاستغفار، وهو طلب المغفرة. ثم إن كان مع الانكسار.. فهو صحيح، وإن كان مع التوبة.. فهو كامل، وإن كان عريًّا عنهما.. فهو باطل. ومن كتب سيد الاستغفار وجرعه لمن صعب عليه الموت انطلق لسانه وسهل عليه الموت، وقد جرب مراراً. وسيد الاستغفار قوله: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا

---

(١) البحر المحيط.   (٢) روح البيان.   (٣) روح البيان.

عبدك، وأنا على عهدك، ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، مبني على الضمّ، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عمّا فات ﴿أيُّ﴾ من الإضافة، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ نعت لـ ﴿أيُّ﴾ أو بدل منه، ﴿قُمِ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ منصوب على الظرف، متعلق بـ ﴿قُمِ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿قَلِيلٗا﴾ منصوب على الاستثناء، وفيه دليل على أنَّ المستثنى قد يكون مبهم المقدار. ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل من ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، أو من ﴿قَلِيلٗا﴾، فإذا كان بدلاً من ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ كان الاستثناء منه، وكان المأمور بقيامه نصف الليل إلا قليلاً. ﴿أَوِ﴾ حرف عطف وتخيير ﴿ٱنقُصۡ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿قُمِ﴾ ﴿مِنۡهُ﴾ متعلق بـ ﴿ٱنقُصۡ﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ مفعول به، ﴿أَوۡ﴾ حرف عطف وتخيير، ﴿زِدۡ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿ٱنقُصۡ﴾، ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق بـ ﴿زِدۡ﴾، والضمير في ﴿مِنۡهُ﴾ و﴿عَلَيۡهِ﴾ عائدان على النصف. ﴿وَرَتِّلِ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾، ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ مفعول به، ﴿تَرۡتِيلًا﴾ مفعول مطلق، ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿سَنُلۡقِي﴾ السين حرف استقبال، ﴿نلقي﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿عَلَيۡكَ﴾ متعلق بـ ﴿نلقي﴾، ﴿قَوۡلٗا﴾ مفعول به، ﴿ثَقِيلًا﴾ صفة ﴿قَوۡلٗا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين الأمر بقيام الليل وبين تعليله بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ...﴾ إلخ. ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه، ﴿هِيَ﴾ ضمير فصل أو مبتدأ، ﴿أَشَدُّ﴾ خبر ﴿إنّ﴾ أو خبر المبتدأ، والجملة خبر ﴿إنّ﴾، ﴿وَطۡـٔٗا﴾ تمييز، ﴿وَأَقۡوَمُ﴾ معطوف على أشدّ ﴿قِيلًا﴾ تمييز، وجملة إنّ مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بقيام الليل.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ

وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لَكَ﴾ خبرها مقدم، ﴿فِى ٱلنَّهَارِ﴾ حال من ﴿سَبْحًا﴾؛ لأنّه كان صفة نكرة قدمت عليها، ﴿سَبْحًا﴾ اسمها مؤخّر، ﴿طَوِيلًا﴾ صفة ﴿سَبْحًا﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معترضة أيضاً. ﴿وَٱذْكُرِ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾. ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ مفعول به، ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿اذكر﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿تبتل﴾، ﴿تَبْتِيلًا﴾ مفعول مطلق، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ بالرفع خبر لمبتدأ محذوف ومضاف إليه؛ أي: هو ربّ المشرق، ويقرأ بالجرّ على أنه بدل من ﴿رَبِّكَ﴾. ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾ معطوف على المشرق. ﴿لَآ﴾ نافية تعمل عمل ﴿إنّ﴾ المكسورة، ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبر ﴿لا﴾ محذوف تقديره: موجود، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزَّه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع بدل من الضمير المستتر في خبر ﴿لا﴾ المحذوف، وجملة ﴿لَآ﴾ في محل النصب حال من رب الشمرق، أو معطوفة على جملته بعاطف مقدر. ﴿فَٱتَّخِذْهُ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت انفراده بالربوبية والألوهيّة، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك: اتخذه يا محمد وكيلا. ﴿اتخذه وكيلا﴾ فعل أمر وفاعل مستتر ومفعولان، لأنّ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ من أخوات ظنّ، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ فعل وفاعل مستتر، معطوف على اتخذه، ﴿عَلَىٰ مَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿اصبر﴾، وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾، والعائد محذوف؛ أي: على ما يقولونه. ﴿وَٱهْجُرْهُمْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿اصبر﴾، ﴿هَجْرًا﴾ مفعول مطلق، ﴿جَمِيلًا﴾ صفة هجرا، ﴿وَذَرْنِى﴾ الواو: عاطفة، ﴿ذر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، والنون للوقاية، والياء: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة اصبر، ﴿وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ معطوف على الياء أو مفعول معه، ﴿أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ صفة لـ ﴿المكذبين﴾، منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾ فعل

أمر، ومفعول به وفاعل مستتر، معطوف على ﴿ذرني﴾، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: إمهالاً قليلاً أو ظرف محذوف؛ أي: زماناً قليلاً. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿لَدَيْنَآ﴾ خبرها مقدم على اسمها، ﴿أَنكَالًا﴾ اسمها مؤخّر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب مسوقة لتعليل الأمر بالإمهال. ﴿وَجَحِيمًا﴾ معطوف على ﴿أَنكَالًا﴾، ﴿وَطَعَامًا﴾ معطوف عليه أيضاً، ﴿ذَا غُصَّةٍ﴾ صفة لـ ﴿طعاما﴾، منصوب بالألف، لأنّه من الأسماء الستة، ﴿وَعَذَابًا﴾ معطوف على ﴿أَنكَالًا﴾ أيضاً، ﴿أَلِيمًا﴾ صفة ﴿عذاباً﴾، ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به ﴿لَدَيْنَآ﴾ أو بمحذوف صفة لـ ﴿عذاباً﴾؛ أي: عذابا واقعاً يوم ترجف، وجملة ﴿تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿وَٱلْجِبَالُ﴾ معطوف على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿كَثِيبًا﴾ خبره، ﴿مَّهِيلًا﴾ صفة ﴿كَثِيبًا﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿تَرْجُفُ﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾.

﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة. ﴿إِلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، ﴿رَسُولًا﴾ مفعول به، ﴿شَٰهِدًا﴾ صفة ﴿رَسُولًا﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿شَٰهِدًا﴾، ﴿كَمَآ﴾ جار ومجرور، صفة لمصدر محذوف تقديره: أرسلنا إليكم رسولاً إرسالاً كائنا كإرسالنا موسى إلى فرعون. و﴿ما﴾ مصدرية، وجملة ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ صلتها، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، ﴿رَسُولًا﴾ مفعول به، ﴿فَعَصَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿عصى فرعون الرسول﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾. ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أخذناه﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿فَعَصَىٰ﴾، ﴿أَخْذًا﴾ مفعول مطلق، ﴿وَبِيلًا﴾ صفة ﴿أَخْذًا﴾، ﴿فَكَيْفَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿كيف﴾ اسم استفهام في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تَتَّقُونَ﴾، ﴿تَتَّقُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع بالنون، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِن﴾ حرف شرط، ﴿كَفَرْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم على كونه فعل شرط لها، والجواب محذوف دل عليه ما قبلها؛ أي:

إن دمتم على كفركم. . فكيف تتقون؟ وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة لاعتراضها بين الفعل ومفعوله، ﴿يَوْمًا﴾ مفعول به لـ ﴿تَتَّقُونَ﴾، ﴿يَجْعَلُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿يَوْمًا﴾، ﴿الْوِلْدَانَ﴾ مفعول به أوّل لـ ﴿جعل﴾، ﴿شِيبًا﴾ مفعول ثان، وجملة ﴿يَجْعَلُ﴾ في محل النصب صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾.

﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿السَّمَاءُ﴾ مبتدأ، ﴿مُنفَطِرٌ﴾ خبره ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿مُنفَطِرٌ﴾، والجملة في محل النصب صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾، ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿شَاءَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، ومفعول ﴿شَاءَ﴾ محذوف تقديره: فمن شاء النجاة. ﴿اتَّخَذَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إنَّ﴾، ﴿إِلَى رَبِّهِ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ ﴿اتَّخَذَ﴾، ﴿سَبِيلًا﴾ مفعول أوّل له. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿أَنَّكَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَقُومُ﴾ خبر ﴿أنّ﴾، وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسدّ مفعولي ﴿يَعْلَمُ﴾، ﴿أَدْنَى﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿تَقُومُ﴾ أي: وقتاً أدنى، ﴿مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ متعلق بـ ﴿أَدْنَى﴾، ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ معطوفان على ﴿أَدْنَى﴾، ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ معطوف على فاعل ﴿تقوم﴾ المستتر لوجود الفاصل، ﴿مِّنَ الَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿طائفة﴾، ﴿مَعَكَ﴾ صلة الموصول. ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿يُقَدِّرُ اللَّيْلَ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿وَالنَّهَارَ﴾ معطوف على ﴿اللَّيْلَ﴾، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿عَلِمَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾

مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن؛ أي: علم أنه. ﴿لَّن﴾ حرف نصب واستقبال، ﴿تُحۡصُوهُ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿عَلِمَ أَن لَّن﴾، والواو: فاعل، والهاء: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر؛ لـ ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿عَلِمَ﴾. ﴿فَتَابَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿تابَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على ﴿علم﴾، ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿تاب﴾، ﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿اقرؤوا﴾ فعل أمر، وفاعل معطوف على ﴿تاب﴾، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿تَيَسَّرَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ حال من فاعل ﴿تَيَسَّرَ﴾ أو متعلق به، ﴿عَلِمَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، مستأنف، ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. أي: علم أنه. ﴿سَيَكُونُ﴾ فعل مضارع ناقص، والسين حرف استقبال، ﴿مِنكُم﴾ خبر يكون مقدم، ﴿مَّرۡضَىٰ﴾ اسمها مؤخّر، وجملة ﴿يكون﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخفّفة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿عَلِمَ﴾، ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ معطوف على ﴿مرضى﴾، وجملة ﴿يَضۡرِبُونَ﴾ صفة ﴿آخرون﴾، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلق بـ ﴿يَضۡرِبُونَ﴾، وجملة ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يَضۡرِبُونَ﴾، ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ معطوف على ﴿آخرون﴾ الأول، وجملة ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ صفة لـ ﴿آخرون﴾، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ متعلق بـ ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾.

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾.

﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على علم أن ﴿سَيَكُونُ﴾. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به، وجملة ﴿تَيَسَّرَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾، ﴿مِنۡهُ﴾ متعلق بـ ﴿تَيَسَّرَ﴾ أو حال من فاعل ﴿تَيَسَّرَ﴾. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿اقرؤوا﴾، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوف عليه أيضاً، ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف عليه أيضاً، ﴿قَرۡضًا﴾ مفعول مطلق، ﴿حَسَنٗاۚ﴾ صفة ﴿قَرۡضًا﴾ ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية، ﴿مَا﴾ اسم شرط جازم في محل النصب، مفعول مقدم لـ ﴿تُقَدِّمُواْ﴾، ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿مَا﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿والواو﴾: فاعل، ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ متعلق بـ ﴿تُقَدِّمُواْ﴾، ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ حال من الضمير المحذوف في ﴿تُقَدِّمُواْ﴾، ﴿تَجِدُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، مجزوم بـ ﴿مَا﴾ على

كونه جواب الشرط، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿تَجِدُوهُ﴾، ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل أو تأكيد للضمير، ﴿خَيْرًا﴾ مفعول به ثان لـ ﴿تَجِدُوهُ﴾، ﴿وَأَعْظَمَ﴾ معطوف على ﴿خَيْرًا﴾، ﴿أَجْرًا﴾ تمييز، وجاز أن يكون ﴿هُوَ﴾ فصلاً، وإن لم يقع بين معرفتين؛ لأنّه وقع بين معرفة ونكرة، ولكن النكرة تشبه المعرفة لامتناعه من التعريف بأداة التعريف إذا كان معه من لفظاً أو تقديراً، وهنا من مقدرة؛ أي: خيراً مِمّا خلّفتم في الدنيا، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية معترضة. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿فَٱقْرَءُوا۟﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثان، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب مسوقة لتعليل الأمر بالاستغفار.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ①﴾ أصله: المتزمّل، وهو الذي تزمّل في ثيابه؛ أي: تلفّف بها، فأبدلت التاءزاياً، وأدغمت الزاي في الزاي. وفي «المصباح»: زمّلته بثوبه تزميلاً فتزمّل مثل: لفّفته فتلفّف، وزملت الشيء: حملته، ومنه قيل للبعير: زاملة بالهاء للمبالغة، لأنّه يحمل متاع المسافر. ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ أمر من قام يقوم؛ لأن الأمر قطعة من المضارع المجزوم الذي حذف منه حرف المضارعة، والجازم؛ لأنّ مضارعه المجزوم لم يقم، فإذا حذفت منه الجازم وحرف المضارعة يكون الباقي منه قم، فهو أمر ﴿ٱلَّيْلَ﴾ هو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أمر مأخوذ من لم يزد، لأنه الباقي من المضارع بعد حذف الجازم وحرف المضارعة. ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أمر من رتل يرتل ترتيلاً من باب فعل المضعف. قال في «الكشاف»: ترتيل القرآن: قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات حتى يجيء المتلو منه شبيهاً بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، وأن لا يهزه هزا ولا يسرده سرداً، كما مرّ.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وناشئة الليل: القيام بعد النوم، فهي صفة لمحذوف؛ أي: إن النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها للعبادة؛ أي: ترتفع وتنهض، من نشأت السحابة إذا ارتفعت. وقيل: إنها مصدر بمعنى القيام من نشأ إذا قام ونهض، فتكون كالعافية. وفي «المختار»: وناشئة الليل أول ساعاته. وقيل: ما ينشأ فيه من الطاعات. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: انقطع إليه. و﴿تَبْتِيلًا﴾ مصدر على غير القياس، وهو

واقع موقع التبتّل؛ لأن مصدر تفعل تفعلاً نحو: تصرف تصرفاً وتكرم تكرّماً، وأما التبتيل فمصدر بتَّلَ، نحو: صرَّف تصريفاً. قال في «الخلاصة»:

وغَـيْـرُ ذي ثَـلاثَـةٍ مَـقِـيْـسُ   مَـصْـدرُهُ كَـقُـدِّسَ ٱلـتَّـقْـدِيْـسُ

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ القيل: اسم مصدر من القول بمعناه بقلب الواو ياء أي أزيد من جهة السداد والاستقامة في المقال، ومن جهة الثبات والاستقرار على الصواب. ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ قال الراغب: السبح: المر السريع في الماء، أو في الهواء، استعير لمر النجوم في الفلك كقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، ولجرى الفرس كقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾، ولسرعة الذهاب في العمل كقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾. والمعنى هنا: إنَّ لك في النهار تقلباً وتصرفاً في مهام أمورك واشتغالاً بشواغلك، فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة فعليكها في الليل. ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ والنعمة بفتح النون: التنعم وبكسرها: الإنعام وما أنعم به عليك، وبالضم: السرور. والتنعُّم: استعمال ما فيه النعومة واللين من المأكولات والملبوسات. ﴿هَجْرًا جَمِيلًا﴾ الهجر الجميل: ما لا عتاب معه. ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾؛ أي: اتركهم برفق وتأنٍّ، ولا تهتم بشأنهم. ﴿أَنكَالًا﴾ والأنكال: جمع نكل، والنكل بكسر النون وفتحها: القيد الثقيل. قالت الخنساء:

دعــاك فَـقَـطَّـعْـتَ أَنْـكَـالَـهَ   وقَـدْ كُـنَّ قَـبْـلَـكَ لاَ تُـقْـطَـعُ

﴿وَجَحِيمًا﴾ والجحيم: النار الشديدة الإيقاد. ﴿كَثِيبًا﴾؛ أي: رملاً مجتمعاً. ﴿مَّهِيلًا﴾؛ أي: سائلاً اجتماعه. أصله: مهيول اسم مفعول من هال الثلاثي يهيل هيلا نظير: باع يبيع بيعاً فهو مبيع، نقلت حركة الياء إلى الهاء فسكنت الياء فالتقى ساكنان: الياء وواو مفعول، فحذفت واو مفعول على الصحيح ثم كسرت الهاء لمناسبة الياء الساكنة، كما قالوا: مبيع. هذا على رأي سيبويه والجمهور. أما الأخفش فإنه يرى أن المحذوف عين الكلمة، ولما حذفت كسرت الفاء وقلبت الواو ياء فرقاً بين ذوات الواو وذوات الياء. والأول أولى. وفي «المختار»: هال الدقيق في الجراب: صبه من غير كيل، وكل شيء أرسله إرسالاً من رمل أو تراب أو طعام ونحوه فقد هاله فانهار؛ أي: جرى وانصبَّ، وبابه: باع، وأهال لغة فيه فهو مهال ومهيل. ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أعاده بالألف واللام ليعلم أنه الأول، فكأنّه قال:

فعصاه فرعون جرياً على القاعدة المشهورة عندهم المذكورة في قول بعضهم:

ثُمَّ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُشْتَهَرَه   إِذَا أَتَتْ نَكِرَةٌ مُكَرَّرَه

تَغَايَرَتْ وَإِنْ يُعَرَّفْ ثَانِي   تَوَافَقَا كَذَا ٱلْمُعَرَّفَانِ

﴿وَبِيلًا﴾؛ أي: ثقيلاً شديداً لا يطاق، من قولهم: كلأٌ وبيلٌ، وضيمٌ لا يستمرأ لثقله، والوبيل: العصا الضخمة، ومنه: الوابل للمطر العظيم. وفي «المصباح»: وبلت السماء وبلا من باب وعد، ووبولاً: اشتد مطرها، وكان الأصل: وبل مطر السماء، فحذف للعلم به، ولهذا يقال للمطر: وابل، والوبيل: الوضيم وزنا ومعنى. ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ﴾ والولدان: جمع وليد، يقال لمن قرب عهده: بالولادة، وإن كان في الأصل يصح إطلاقه على من قرب عهده بها، ومن بَعُدَ. ﴿شِيبًا﴾ جمع أشيب، والشيب: بياض الشعر، وأصله: أن يكون بضم الشين كحمر في جمع أحمر؛ لأن الضم يقتضي الواو فكسرت لأجل صيانة الياء فرقاً بين مثل سود وبين مثل بيض. ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ قال في «الصحاح»: الوعد يستعمل في الخير والشر، فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا في الخير: الوعد والعدة، وفي الشر: الإيعاد والوعيد، انتهى. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ بوزن تفعلة، ووزن التفعلة غير مقيس في فعل الصحيح، بل هو مقيس في معتل اللام منه كزكّى تزكية وعزَّى تعزية، وقياسه هنا التذكير ولكنه جاء على سبيل النيابة كفرَّق تفرقة والقياس التفريق.

﴿تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أصله: أدنى بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَثُلُثَهُۥ﴾ والثلث: أحد أجزاء الثلاثة، والجمع أثلاث. ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: طاوفة؛ لأنّه من طاف يطوف، قلبت الواو همزة حملاً للوصف على فعله طاف في الإعلال. ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ﴾ قال الراغب: التقدير: تبيين كمية الشيء، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ﴾... إلخ، إشارة إلى ما أجرى من تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل؛ أي: إدخال هذا في هذا، كما مرّ. ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أصله: تحصيوه، استثقلت الضمة على الياء فحذفت فلما سكنت حذفت لإلتقاء الساكنين، وضمت الصاد لمناسبة الياء. قال الراغب: الإحصاء: التحصيل بالعدد. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أصله: توب بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ جمع مريض كقتلى جمع قتيل، والمرض: الخروج عن الاعتدال الخاصّ بالإنسان. ﴿يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من ضرب في الأرض إذ سافر فيها ابتغاء الرزق. قال الراغب: الضرب في الأرض: الذهاب فيها، وهو بالأرجل. ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يطلبون من رزق الله، أصله: يبتغيون استثقلت الضمة على الياء، فحذفت فسكنت فحذفت لالتقاء الساكنين، وضمت الغين لمناسبة الواو. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ والقرض: ضرب من القطع، وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط ردّ بدله قرضاً، لأنّه مقروض مقطوع من ماله. ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تجدوه فيه إعلال بالحذف، أصله: توجدونه، حذفت نون الرفع للجازم حيث وقع جواباً لـ ﴿ما﴾ الشرطية، وحذفت فاء الكلمة من المضارع اطراداً لوقوع الواو بين عدوتيها الياء المفتوحة والكسرة. ﴿أَجْرًا﴾ الأجر: ما يعود من ثواب العلم دنيويًّا كان أو أخرويًّا، كما مرّ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾ و﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾، وبين ﴿ٱلْمَشْرِقِ﴾ ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾، وبين ﴿ٱلَّيْلِ﴾ ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾.

ومنها: تأكيد الفعل بالمصدر في قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، وفي قوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، وفي قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾. زيادة في البيان والإيضاح وفي هذه الأمثلة أيضاً جناس الاشتقاق.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصليّة في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾، حيث استعير السبح الذي هو المر السريع في الماء لسرعة الذهاب في طلب المعاش، وقضاء حوائج الناس بجامع التردّد في كل منهما؛ أي: إن لك في النهار تصرّفاً وتقلّباً في المهمّات كما يتردّد السابح في الماء.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إشارة إلى هوله وشدّته، بحيث لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه.

ومنها: إفرد الجبال بالذكر في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ مع كونها من الأرض لكونها أجساماً عظاماً طوالاً، تظهر فيها الزلزلة أكثر من الأرض، ومن زلزلتها تبلغ القلوب الحناجر خوفاً من الوقوع.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ إشعاراً بتحقّق وقوعه، وفيه أيضاً التشبيه البليغ؛ أي: وكانت الجبال كالثيب المهيل؛ أي: كالرمل السائل في عدم التماسك.

ومنها: تخصيص هذا التشبيه بالجبال دون الأرض؛ لأنَّ ذلك خاصة لها، فإن الأرض تكون مقررة في مكانها بعد الرجفة حتى تبدل بغيرها، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ الآية.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾. ولو جرى على مقتضى السياق.. لقال: إنا أرسلنا إليهم. والغرض من هذا الالتفات التقريع والتوبيخ على عدم الإيمان.

ومنها: عدم تعيين الرسول فيه لعدم دخله في التشبيه.

ومنها: تخصيص فرعون دون ملئِهِ؛ لأنه من رؤساء أولى النعمة المترفهين المتكبرين، فبينه وبين قريش جهة جامعة ومشابهة حال ومناسبة سريرة.

ومنها: إعادة فرعون والرسول مظهرين تفظيعا لشأن عصيانه، وأن ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه عصيان موسى.

ومنها: ترك ذكر أملاء فرعون إشارةً إلى أن كل واحد منهم كأنه فرعون في نفسه لتمرده.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾، حيث أسند الجعل إلى اليوم للمبالغة في شدّته، وإلا فنفس اليوم لا تأثير له ألبتة.

وفيه أيضاً الاستعارة التمثيلية بأن شبه اليوم في شّدة هوله بالزمان الذي يشيب الشبّان لكثرة همومه وأهواله.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: أقل منهما، فإطلاق الأدنى معنى الأقرب على الأقل مجاز مرسل من قبيل إطلاق الملزوم على اللازم، لما أن المسافة بين الشيئين إذا دنت.. قل ما بينهما من الأحياز والحدود، وإذا بعدت.. كثر ذلك، ذكره في «روح البيان».

ومنها: تقدم الاسم الجليل وبناء الخبر الفعليّ عليه في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ لإفادة الاختصاص قطعاً.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، حيث استعار التوبة بمعنى رفع الحرج عن التائب للتخفيف والترخيص، فاشتقّ منه تاب بمعنى: خفّف ورخّص على طريقة الاستعارة التبعية.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أي: صلوا ما تيسّر من صلاة الليل، حيث أطلق الجزء على الكلّ، لأنّ القراءة أحد أجزاء الصلاة؛ أي: أركانها.

ومنها: تصريح ما علم التزاماً في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، لأنّه معلوم من قوله: ﴿يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن السفر لا يكون إلا لحاجة.

ومنها: التكرار بقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، تأكيداً للحث على قيام الليل بما تيسر.

ومنها: الاستعارة التبعية في قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ حيث شبه الإنفاق لوجه الله تعالى بالإقراض المعروف من حيث إن ما أنفقه يعود إليه مع زيادة، فاستعار له اسم المشبّه به، فاشتق من الإقراض بمعنى الإنفاق في سبيل الله ﴿أقرضوا﴾ بمعنى أنفقوا في سبيل الله على طريق الاستعارة التصريحية التبعية. وفيه أيضاً جناس الاشتقاق.

ومنها: ذكر العام بعد الخاصّ في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، حيث عمم بذكره بعد أن خصص بذكر الصلاة والزكاة والإقراض الحسن.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

خلاصة ما جاء في هذه السورة من أوامر ونواه

أمر النبي ﷺ بأشياء:

١ ـ أن يقوم من الليل ثلثه أو نصفه أو ثلثيه.

٢ ـ أن يقرأ القرآن بتؤدة وتمهل.

٣ ـ أن يذكر ربه ليلاً ونهاراً بالتحميد والتسبيح والصلاة، وأن يجرد نفسه عما سواه.

٤ ـ أن يتخذه وكيلاً يكل إليه أموره متى فعل ما يجب عليه.

٥ ـ أن يصبر على ما يقولون فيه من أنه ساحر أو شاعر، وفي ربه من أن له صاحبة وولداً، وأن يهجرهم هجراً جميلاً بمجانبتهم ومداراتهم، وأن يكل أمرهم إلى ربهم، فهو الذي يكافئهم، وسيرى عاقبة أمرهم وأمره.

٦ ـ أن يخفف القيام للصلاة بالليل بعد أن شق ذلك عليهم لأعذار كثيرة، والاكتفاء بما تيسّر من صلاة الليل، ففي الصلاة غنية للأمة مع إيتاء الزكاة ودوام الاستغفار[١].

والله أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير هذه السورة الكريمة ليلة السبت بين العشائين الليلة السابعة من شهر الربيع الآخر من شهور سنة ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة ٧/ ٤/ ١٤١٦ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيّة، وصلى الله وسلم على سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين.

سورة المدثر

سورة المدثر كلها مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة المزمل. وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة المدّثر بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وقيل[1]: هي مكية إلا آية من آخرها.

وآياتها: ست وخمسون آية. وكلماتها: مئتان وخمس وخمسون كلمة. وحروفها: ألف حرف وعشرة أحرف.

الناسخ والمنسوخ: وقال محمد بن حزم: سورة المدّثّر كلها محكمة إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ⑪﴾، نسخت بآية السيف.

مناسبتها لما قبلها[2]:

١ ـ أنّها متواخية مع السّورة قبلها في الافتتاح بنداء النبيّ ﷺ.

٢ ـ أن صدر كلتيهما نازل في قصة واحدة.

٣ ـ أن السابقة بدئت بالأمر بقيام الليل، وهو تكميل لنفسه ﷺ بعبادة خاصة، وهذه بدئت بالإنذار لغيره، وهو تكميل لسواه.

وقال أبو خيان[3]: مناسبتها لما قبلها: أن ما في قبلها ﴿ذرني والمكذّبين﴾ وفيه أيضاً ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾، فناسب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ① قُمۡ فَأَنذِرۡ ②﴾، وناسب ذكر يوم القيامة بعد، وذكر بعض المكذبين في قوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ⑪﴾.

والله أعلم

* * *

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

المناسبة

قد تقدم بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، وأمّا آياتها فنزلت في قصة واحدة، فلا حاجة إلى البحث عن المناسبة بينها، فتأمل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ سبب نزوله[1]: ما أخرجه الشيخان عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري نزلت، فاستبطنت الوادي، فنوديت، فلم أر أحداً، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، ففزعت فرجعت إلى أهلي، فقلت: دثّروني دثروني، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾... الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه الحاكم وغيره عن ابن عباس وصححه أن النبي ﷺ قام في المسجد يصلي، والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، وهو يقرأ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤﴾، فلما فطن النبي ﷺ إلى استماعه.. أعاد القراءة، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه. ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: صبأ والله الوليد، ولتصبونّ قريش كلهم، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً، فقال الوليد: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ فقال: وما يمنعني أن أحزن، وهذه قريش يجمعون لك نفعة يعينونك على كبر سنّك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وأنك تدخل على ابن أبي كبشة، وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم، فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أنّي من أكثرهم مالاً وولداً؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام، ثم أتى مجلس قومه مع أبي جهل، فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قطّ؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهّن قطّ؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنّه كذّاب، فهل جربتم عليه شئيا من الكذب؟ قالوا: اللهم لا وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه. ثم قالوا: فما هو؟ قال: ما

---

(١) لباب النقول.

هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله، وولده ومواليه، فهو ساحر، وما يقوله سحر يأثره عن مسيلمة وأهل بابل، فارتجّ النادي فرحاً، وتفرّقوا معجبين بقوله، متعجبين منه. فنزلت هذه الآيات.

وقد كان الوليد يسمّى الوحيد، لأنه وحيد في قومه، فماله كثير فيه الزرع والضرع والتجارة، وكان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم وعبيد وجوار، وله عشرة أبناء يشهدون المحامل والمجامع أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعمارة، وقد بسط الله له الرزق، وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة في قومه، وكان يسمى ريحانة قريش.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن البراء رضي الله عنه: أن رهطاً من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم؟ فقال: الله ورسوله أعلم، فجاء جبريل، فأخبر النبي ﷺ، فنزل عليه ساعتئذٍ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما رواه ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع أن ابن أبي كبشة يعني: «محمداً ﷺ يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدهم ـ الشجعان ـ أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟ فقال له أبو الأشدّ بن كلدة الجمحيّ وكان شديد البطش: أيهولنكم التسعة عشر أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنّة، يقول ذلك مستهزئاً. وفي رواية: أن الحارث بن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين، فنزل قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ أي: لم نجعلهم رجالاً فيتعاطون مغالبتهم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر عن السدي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالوا: لئن كان محمد صادقاً.. فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة

---

(١) لباب النقول.

وأمنة من النار، فنزلت: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾.

وروي: أنّ أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان، ونؤمر فيه باتباعك.

التفسير وأوجه القراءة

قال الواحدي: قال المفسّرون: لما بدىء رسول الله ﷺ بالوحي أتاه جبريل، فرآه رسول الله ﷺ على كرسيّ بين السماء والأرض كالنور المتلألىء، ففزع ووقع مغشياً عليه، فلمّا أفاق دخل على خديجة ودعا بماء، فصبه عليه وقال: «دثّروني دثّروني، فدثّروه بقطيفة». فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾؛ أي: يا أيها المتلفف بالدثار، وهو ما يلبس فوق الشعار الذي يلي الجسد، لأنه تدثّر فوق شعاره بقطيفة.

قرأ الجمهور[1] بتشديد الدال والثاء، أصله: المتدثّر فأدغم التاء في الدال. وقرأ أبيّ ﴿المتدثّر﴾ على الأصل. وقرأ عكرمة بتخفيف الدال، كما قرأ بتخفيف الزاي في المزمل، أي: الذي دثر نفسه. وعن عكرمة أيضاً فتح الثاء المثلثة اسم مفعول، قال عكرمة: والمعنى: يا أيها المدثّر بالنبوة وأثقالها. قال ابن العربيّ: وهذا مجاز بعيد، لأنّه لم يكن نبيّاً إذ ذاك.

أي: يا أيها المتلفّف المتغشّي بدثاره ﴿قُمْ﴾ من مضجعك ﴿فَأَنذِرْ﴾؛ أي: خوّف الناس كافّةً من عذاب الله ووقائعه إن لم يؤمنوا، أو خوف أهل مكة من عذاب الله إن لم يسلموا. وقيل: قم قيام عزم وتصميم، وأعلم الناس بعذاب الله وانتقامه إن لم يوحّدوه ويصدّقوك، لأنّه ﷺ مرسل إلى الناس كافة، فلم تكن ملة من الملل إلا وقد بلغتها دعوته وقرعها إنذاره. وأفرد[2] الإنذار بالذكر مع أنه أرسل بشيراً أيضاً؛ لأن التخلية بالمعجمة قبل التحلية بالمهملة، وكان الناس وقتئذٍ عاصين مستحقّين للتخويف، فكان أوّل الأمر بالإنذار.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾؛ أي: وخصّص ربك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء اعتقاداً وقولاً وعظمةً عمّا يقول فيه عبدة الأوثان وسائر الظالمين. وروي: أنّه لمّا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

نزل قال رسول الله ﷺ: الله أكبر، فكبّرت خديجة أيضاً وفرحت، وأيقنت أنّه الوحي؛ لأن الشيطان لا يأمر بالتكبير ونحوه. ودخل فيه تكبير الصلاة وإن لم يكن في أوائل النبوة صلاة.

والفاء لمعنى الشرط كأنّه قيل: مهما يكن من شيء.. فلا تدع تكبيره ووصفه بالكبرياء، أو للدلالة على أن المقصود الأول من الأمر بالقيام أن يكبر ربه وينزهه عن الشرك، فإن أول ما يجب معرفة الصانع، ثم تنزيهه عما لا يليق بجنابه. فالفاء على هذا تعقيبية لا جزائية، وقال ابن جنيّ: الفاء: فيه زائدة كما في قولك: زيداً فاضرب؛ أي: زيداً اضرب.

وقال ابن العربي[1]: المراد به تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأضداد والأنداد، والأصنام، ولا يتخذ وليًّا غيره ولا يعبد سواه، ولا يرى لغيره فعلاً إلاّ له ولا نعمة إلا منه.

والمعنى: أي وخصّ ربك وسيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقده الكفّار وأعظم من أن يكون له صاحبةٌ أو ولدٌ.

وحاصل المعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾؛ أي:[2] يا أيّها الذي تدثّر بثيابه رعباً وفرقاً من رؤية الملك عند نزول الوحي أوّل مرّة شمر عن ساعد الجد، وأنذر أهل مكة عذاب يوم عظيم، وادعهم إلى معرفة الحق لينجوا من هول ذلك اليوم الذي تذهل فيه كلّ مرضعة عمّا أرضعت، والداعي إلى ربّه الكبير المتعالي لا يتم له ذلك إلا إذا كان متخلّقاً بجميل الخلال وحميد الصفات، ومن ثم قال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾؛ أي: عظم ربك ومالك أمورك بعبادته والرغبة إليه دون غيره من الآلهة والأنداد. ونحو الآية قوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ مما ليس بطاهر بحفظها وصيانتها من النجاسات وغسلها بالماء الطاهر بعد تلطّخها، فإنّه قبيح بالمؤمن الطيّب أن يحمل خبيثاً سواء كان في حال الصلاة أو في غيرها، وبتقصيرها أيضاً فإنّ طولها يؤدي إلى جرّ الذيول على

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

القاذورات، فيكون التطهير كناية عن التقصير، لأنّه من لوازمه.

ومعنى التقصير[1]: أن تكون إلى أنصاف الساقين، أو إلى الكعب، فإنه ﷺ جعل غاية طول الإزار إلى أعلى الكعب، وتوعّد على ما تحته بالنار، فإنّه أتقىٰ وأنقى وأبقى، وهو أوّل ما أمر به ﷺ من رفض العادات المذمومة، فإنّ المشركين ما كانوا يصونون ثيابهم من النجاسات. وفيه انتقال من تطهير الباطن إلى تطهير الظاهر؛ لأن الغالب أن من نقى باطنه أبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهارة في كل شيء، فإن الدين مبنيّ على النظافة، ولا يدخل الجنة إلا نظيف، والله يحب الناسك النظيف.

قال الراغب: الطهارة ضربان: طهارة جسم وطهارة نفس، وقد حمل عليهما عامّة الآيات. وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قيل معناه: نفسك نزهها عن المعايب انتهى. أو طهر قلبك كما في «القاموس» أو أخلاقك فحسّن، قاله الحسن. وفي الحديث: حسّن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار، أو عملك فأصلح كما في «الكواشي». ومنه: الحديث «يحشر المرء في ثوبيه اللذين مات فيهما». أي: عمليه الخبيث والطيب، كما في «عين المعاني». وإنه ليبعث في ثيابه؛ أي: أعماله كما في «القاموس». أو أهلك فطهّرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب. والعرب تسمّي الأهل ثوباً ولباساً، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، كما في «كشف الأسرار».

وسئل[2] ابن عباس عن ذلك؟ فقال: لا تلبسها على معصية، ولا عن غدرة ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن مسلمة الثقفي؟

فَإِنِّي بِحَمْدِ الله لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ ... لَبِسْتُ وَلاَ مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

والعرب تقول عن الرجل إذا نكث العهد، ولم يف به: إنه لدنس الثياب، وإذا وفى ولم يغدر إنه لطاهر الثوب. قال السموءل بن عاديا اليهودي:

إِذَا ٱلْمَرءُ لَمْ يَدْنسْ مِنَ ٱللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

ولا تزال هذه المعاني مستعملة في ديار مصر وغيرها، فيقولون: فلان طاهر

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الذيل يريدون أنّه لا يلامس أجنبية. ويرى جمع من الأئمة أن المراد بطهارة الثياب غسلها بالماء، إن كانت نجسة، وروي عن كثير من الصحابة والتابعين، وإليه ذهب الشافعيّ، فأوجب غسل النجاسة من ثياب المصلّي.

وقد استبان للمشتغلين[1] بأصول التشريع، وعلماء الاجتماع من الأوربيّين أن أكثر الناس قذراً في أجسامهم وثيابهم أكثرهم ذنوباً وأطهرهم أبداناً وثياباً أبعدهم من الذنوب. ومن ثم أمروا المسجونين بكثرة الاستحمام، ونظافة الثياب فحسنت أخلاقهم، وخرجوا من السجون، وهم أقرب إلى الأخلاق الفاضلة منهم إلى الرذائل. وقال الاستاذ: «بِنْتَامُ» في كتابه «أصول الشرائع»: إنَّ كثرة الطهارة في دين الإسلام من ما تدعو معتنقيه إلى رقيّ الأخلاق والفضيلة إذا قاموا باتّباع أوامره خير قيلهم، ومن هذا تعلم السرّ في قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾.

﴿وَالرُّجْزَ﴾؛ أي: الأوثان ﴿فَاهْجُرْ﴾؛ أي: اترك؛ أي: وارفض عبادة الأوثان واتركها، ولا تقربها، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾. وقيل: الرجز: العذاب، أي: واهجر العذاب بالثبات على هجر ما يؤدّي إليه من المآثم، سمّي ما يؤدّي إلى العذاب رجزاً على تسمية المسبّب باسم سببه، والمراد الدوام على الهجر؛ لأنّه كان بريئاً من عبادة الأوثان ونحوها.

وقرأ الجمهور[2] ﴿والرجز﴾ بكسر الراء، وهي لغة قريش. وقرأ الحسن، ومجاهد، والسلميّ، وأبو جعفر، وأبو شيبة، وابن محيصن، وابن وثّاب، وقتادة، والنخعيّ، وابن أبي إسحاق، والأعرج، وحفص بضمّها. فقيل: هما بمعنى واحد يراد بهما الأصنام والأوثان. وقيل: الكسر للبين والنقائص والفجور، والضمّ لصنمين إساف ونائلة. وقال عكرمة ومجاهد والزهري: للأصنام عموماً، وقال ابن عباس: الرجز: السخط؛ أي: اهجر ما يؤدي إليه. وقال الحسن: كلّ معصية، والمعنى في الأمر: أثبت ودم على هجره؛ لأنّه ﷺ كان بريئاً منه، كما مرّ آنفاً.

والمعنى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ أي: اهجر المعاصي والآثام الموصلة إلى العذاب في الدنيا والآخرة، فإن النفس متى طهرت منها كانت مستعدة للإفاضة على

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

غيرها، وأقبلت بإصغاء وشوق إلى سماع ما يقول الداعي، وقد جرت العادة أن الداعي تصادفه عقبتان:

١ ـ الغرور والفخر والعظمة، فيقول: أنا مسد للنعم إليكم ومفيض للخير عليكم.

٢ ـ الأعداء وهؤلاء يؤذونه، ويتربصون به الدوائر، ويتتبعونه في كل مكان، ويتألبون عليه ليل نهار، وذلك من أكبر العوامل المثبطة للدعاة التي تجعلهم يكرّون راجعين، ويقولون: ما لنا ولقوم لا يسمعون قولنا، ولنبتعد عن الناس، فإنهم لا يعرفون قدر النعم، ولا يشكرون المنعمين.

ومن ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ برفع[1] ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾، لأنّه مستقبل في معنى الحال؛ أي: ولا تعط حال كونك مستكثراً؛ أي: رائياً لما تعطيه كثيراً أو طالباً للكثير على أنه نهي عن الاستغزار، وهو أن يهب شيئاً وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر مما أعطاه، وهو جائز، ومنه الحديث: «المستغزر يثاب من هبته»؛ أي: يعوض منها. والغزارة بالغين المعجمة وتقديم الزاي: الكثرة، فالنهي إمّا للتحريم، وهو خاص برسول الله ﷺ لعلوّ منصبه في الأخلاق الحسنة، ومن ذلك حلت الزكاة لفقراء أمته، ولم تحل له، ولأهله لشرفه أو للتنزيه للكلّ؛ أي: له ولأمّته.

قرأ الجمهور[2]: ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ بفكّ الإدغام. وقرأ الحسن، وأبو السمال والأشهب العقيليّ بالإدغام. قال ابن عباس وغيره: لا تعط عطاء لتعطى أكثر منه كأنّه من قولهم: منْ إذا أعطى. قال الضحاك: هذا خاص به ﷺ ومباح ذلك لأمته، لكنه لا أجر لهم. وعن ابن عباس أيضاً: لا تقل دعوت فلم أجب. وقرأ الجمهور[3]: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ بالرفع على أنه حال؛ أي: ولا تمنن حال كونك مستكثراً؛ أي: رائياً ما أعطيته كثيراً. وقيل: على حذف (أن)، والأصل: ولا تمنن أن تستكثر؛ أي: ولا تعط لأجل أن تأخذ كثيراً من الموهوب له بدل هبتك، فلما حذفت (أن) رفع الفعل، قال الكسائي: فإذا حذف (أن) رفع الفعل. وقرأ يحيى بن

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) الشوكاني.

وثاب، والحسن، والأعمش ﴿تستكثر﴾ بالنصب على حذف (أن) وبقاء عملها، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود ﴿ولا تمنن أن تستكثر﴾ بزيادة (أن). وقرأ الحسن أيضاً، وابن أبي عبلة ﴿تَسْتَكْثِرْ﴾ بالجزم على أنه بدل من ﴿تَمْنُن﴾ كما في قوله تعالى: ﴿يلق أثاما يضاعف له العذاب﴾، وقول الشاعر:

مَتَى تَأْتِنَا تَلْمُمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا

أو بالجزم على إجراء الوصل مجرى الوقف، كما في قول امرىء القيس:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ إِثْمَاً مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلِ

بتسكين أشرب. وقد اعترض على هذه القراءة؛ لأن قوله: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ لا يصح أن يكون بدلاً من ﴿تَمْنُن﴾؛ لأنّ المنَّ غير الاستكثار، ولا يصح أن يكون جواباً للنهي. واختلف السلف في معنى الآية، فقيل المعنى: لا تمنن على ربك بما تتحمله من أعباء النبوة كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير. وقيل: ولا تمنن على أصحابك بما علمتهم وبلغتهم من الوحي مستكثراً ذلك عليهم. وقيل: لا تعط عطيّة تلتمس فيها أفضل منها، قاله عكرمة وقتادة. وقال مجاهد: لا تضعف أن تستكثر من الخير من قولهم: حبل متين إذا كان ضعيفاً. وقال الربيع بن أنس: لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير. وقال ابن كيسان: لا تستكثر عملاً فتراه من نفسك إنما عملك منة من الله عليك، إذ جعل لك سبيلاً إلى عبادته. وقيل: لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس، فتأخذ منهم أجراً تستكثره. وقال محمد بن كعب: لا تعط مالك مصانعة. وقال زيد بن أسلم: إذا أعطيت عطيّة فأعطها لربك.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾؛ أي: ولوجه ربك فاصبر على طاعته وعبادته. وقيل: فاصبر لحكم ربك، ولا تتألم من أذية المشركين، فإن المأمور بالتبليغ لا يخلو عن أذى الناس، ولكن بالصبر يستحيل المر حلواً وبالتمرن يحصل الذوق. وقال ابن زيد: حملت أمراً عظيماً، فحاربتك العرب والعجم فاصبر عليه لله. وقيل: اصبر تحت موارد القضاء لله، وقيل: اصبر على البلوى، وقيل: على الأوامر والنواهي.

والخلاصة: لا تجزع من أذى من خالفك.

ولما أتم إرشاد رسوله أردفه بوعيد الأشقياء، فقال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ ونفخ ﴿فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ والصور نفخة البعث ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الوقت؛ أي: وقت نقر الناقور ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بدل

من اسم الإشارة؛ أي: يوم إذ نقر في الناقور ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾؛ أي: شديد على الكل من المؤمنين والكافرين، كما روي: أن الأنبياء يفزعون يومئذٍ، وأن الولدان يشيبون إلا أنه يكون هول الكفار فيه أشد. وذلك قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠﴾ وعلى المؤمنين يسير.

والناقور[1]: فاعول بمعنى ما ينقر وينفخ فيه، والمراد به الصور، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل مرة للإصعاق، وأخرى للإحياء. فالناقور فاعول من النقر بمعنى التصويت، وأصله: القرع الذي هو سبب الصوت. يعني: جعل الشيء بحيث يظهر منه الصوت بنوع قرع. والمراد هنا: النفخ؛ إذ هو نوع ضرب للهواء الخارج من الحلقوم، والمعنى؛ أي: فإذا نفخ في الصور. والفاء للسببية؛ أي: سببية ما بعدها لما قبلها دون العكس، فهي بمعنى اللام السببيّة كأنّه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك عليه حين ينفخ في الصور ويومئذٍ تنال الجزاء الحسن والنعيم المقيم.

والعامل في ﴿إذا﴾ ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الوقت الذي هو ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ نقر في الناقور ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: يوم عسر فيه الأمر على الكافرين من جهة العذاب وسوء الحساب. وذلك إشارة إلى وقت النقر. وهو مبتدأ، و﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بدل منه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن، وهو ﴿إذ﴾ والتقدير: إذ نقر في، والخبر يوم عسير، و﴿عَلَى﴾ متعلقة بـ ﴿عَسِيرٌ﴾، دل عليه قول تعالى: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾، كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسر عليهم.

﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ خبر بعد خبر وتأكيد لعسره عليهم لقطع احتمال يسره بوجه دون وجه مشعر بيسره على المؤمنين. ثم المراد به يوم النفخة الثانية التي يحيى الناس عندها، إذ هي التي يخص عسرها بالكافرين جميعاً، وأما النفخة الأولى فهي مختصّة بمن كان حيّاً عند وقوعها، وقد جاء في «الأخبار»: «إنّ في الصور ثقباً بعدد الأرواح كلّها، وإنها تجمع في تلك الثقب في النفخة الثانية، فيخرج عند النفخ من كل ثقبة روح إلى الجسد الذي نزع منه، فيعود الجسد حيّاً بإذن الله». وفي

(١) روح البيان.

الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم قرنه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر أن ينفخ فيه، فقالوا: كيف نصنع؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا».

ومعنى ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ⑩﴾؛ أي: يومهم عسير لا يسر فيه، ولا فيما بعده على خلاف ما جرت به العادة من أن كل عسر بعده يسر، وعسره عليهم أنهم يناقشون الحساب ويعطون كتبهم بشمائلهم وتسود وجوههم، وتتكلم جوارحهم فيفتضحون على رؤوس الأشهاد. وأمّا المؤمنون فإنه عليهم يسير، لا يناقشون فيه حساباً، ويمشون بيض الوجوه.

وقوله: ﴿ذَرْنِى﴾؛ أي: دعني واتركني ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ ـه حالة كونه ﴿وَحِيدًا﴾؛ أي: منفرداً لا مال له ولا ولد. تهديد ووعيد؛ أي: دعني والذي خلقته حال كونه وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد، وهذا المعنى على أن ﴿وَحِيدًا﴾ حال من ﴿مَنْ﴾ الموصولة أو من الضمير العائد إليها المحذوف، ويحتمل أن يكون حالاً من الياء في ﴿ذَرْنِى﴾؛ أي: ذرني وحدي معه، فإني أكفيكه في الانتقام منه أو من التاء في ﴿خَلَقْتُ﴾؛ أي: خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد. والأوّل أولى. قال مقاتل: يقول الله: خلّ بيني وبينه فأنا أنفرد بهلكته. قال المفسرون: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، وإنّما خصّ بالذكر لمزيد كفره وعظيم جحوده لنعم الله عليه، وكان يلقّب في قومه بالوحيد زعماً منهم أنّه لا نظير له في وجاهته، ولا في ماله، وكان يفتخر بنفسه، ويقول: أنا الوحيد بن الوحيد ليس لي في العرب نظير، لا لأبي المغيرة نظير أيضاً. فسمّاه الله بالوحيد تهكّماً به واستهزاء بلقبه كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ㊾﴾، وصرفاً له عن الغرض الذي يؤمونه من مدحه إلى جهة ذمّه بكونه وحيداً من المال والولد، أو وحيداً من أبيه ونسبه، لأنّه كان زنيماً، وهو من ألحق بالقوم وليس منهم، كما مرّ. أو وحيداً في الشرارة والخيانة والدناءة.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ⑫﴾؛ أي: مبسوطاً كثيراً، فكان له زرع وضرع وتجارة كثيرة. قال مقاتل: كان له بستان لا ينقطع ثمره شتاءً ولا صيفاً. وقال ابن عباس: كان له مال ممدود بين مكة والطائف من الإبل والخيل، والغنم والبساتين

الكثيرة التي لا تنقطع ثمارها صيفاً ولا شتاءً. وقال الزجاج[1]: مالاً غير منقطع عنه.

وقد كان الوليد بن المغيرة مشهوراً بكثرة المال على اختلاف أنواعه. قيل: كان يحصل له من غلّة أمواله ألف ألف دينار، وقيل: أربعة آلاف دينار، وقيل: ألف دينار. ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: وجعلت له بنين حضوراً بمكة معه يسافرون، ولا يحتاجون إلى التفرق لطلب الرزق لكثرة مال أبيهم، فكان مستأنساً بهم طيّب القلب بشهودهم، لا يفارقونه للتصرّف في عمل أو تجارة لكونهم مكفيّين لوفور نعمهم وكثرة خدمهم أو حضوراً معه في الأندية والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم. وقيل معنى ﴿شُهُودًا﴾ إذا ذكر ذكروا معه. قال الضحاك: كانوا سبعة ولدوا بمكة، وخمسة ولدوا بالطائف. وقال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر ولداً. وقيل: كان له عشر بنين أسلم منهم ثلاثة. قال السهيليّ: هم: هشام بن الوليد، والوليد بن الوليد، وخالد بن الوليد الذي يقال له: سيف الله، وسيف رسوله. وأمّا غير هؤلاء ممن مات منهم على دين الجاهلية، فلم نسمّه انتهى. فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك، وهو فقير.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا ﴿١٤﴾﴾؛ أي: بسطت له بسطاً، ووسعت له توسيعاً في العيش وطول العمر والرياسة في قريش والجاه العريض، فأتممت[2] عليه النعمة، فإنّ اجتماع المال والجاه هو الكمال عند أهل الدنيا، ولذا كان يلقب ريحانة قريش، والريحان: نبت طيب الرائحة، والولد والرزق. والتمهيد عند العرب: التوطئة، ومنه: مهد الصبيّ. وقال مجاهد: إنه المال بعضه فوق بعض، كما يمهد الفراش. ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ﴾ ويرجو ﴿أَنۡ أَزِيدَ﴾ له على ما أوتيه من المال والولد. و﴿ثُمَّ﴾ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه، إمّا لأنّه لا مزيد على ما أوتيه سعة كثرة. يعني: أنه أوتي غاية ما أوتي عادة لأمثاله، أو لأنه مناف لما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم؛ أي: لا يجمع له بعد اليوم بين الكفر والمزيد من النعم.

والمعنى: أي ثم بعد هذا كله يرجو الزيادة في ماله وولده لكثرة حرصه، وشدّة طمعه مع كفرانه للنعم وإشراكه بالله. وفي هذا استنكار لشديد حرصه وتكالبه

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

على جمع حطام الدنيا، كما هو شأن الإنسان، فقد جاء في الحديث: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب.. لتمنى لهما ثالثاً»، وجاء في الخبر: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال». وروي عن الحسن: أنّه كان يقول: إن كان محمد صادقاً.. فما خلقت الجنة إلا لي.

ثم أيأسه تعالى وقطع رجاءه، فقال: ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر له عن طمعه الفارغ، وقطع لرجائه الخائب، فيكون متصلاً بما قبله أو لا أفعل ولا أزيده. ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾؛ أي: معانداً دافعاً منكراً لآياتنا القرآنية كافراً بما أنزلناه منها على رسولنا، يقال: عند إذا خالف الحق، ورده عارفاً به فهو عنيد وعاند؛ أي: منكر. والعنيد هنا بمعنى المعاند كالجليس والأكيل والعشير بمعنى المجالس والمؤاكل والمعاشر، وهو تعليل لما قبله على وجه الاستئناف التحقيقيّ، فإن معاندة آياتِ المنعم، وهي الآيات القرآنية مع وضوحها وكفران نعمه مع سبوغها مما يوجب حرمانه بالكلية، وإنما أوتي ما أوتي استدراجاً له.

وتقديم[1] ﴿لِآيَٰتِنَا﴾ على متعلقه، وهو ﴿عَنِيدًا﴾ يدلُّ على التخصيص، فتخصيص العناد بها مع كونه تاركاً للعناد في سائر الأشياء يدل على غاية الخسران. وفي الآية إيماء إلى أن كفره كفر عناد، فهو يعرف الحقَّ بقلبه وينكره بلسانه. وهذا أقبح أنواع الكفر.

ثم بين ما يفعله به يوم القيامة، فقال: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾؛ أي: سأكلف ذلك العنيد يوم القيامة بدل ما يطمعه من الزيادة ﴿صَعُودًا﴾؛ أي: ارتقاء عقبة شاقّة المصعد، بحيث تغشاه شدّة ومشقّة من جميع الجوانب. فالكلام على حذف مضاف كما قدّرناه على أن يكون الإرهاق معناه: تكليف الشيء العظيم المشقّة بحيث تغشى المكلف شدّته ومشقته من جميع الجوانب. قال الغزالي رحمه الله: معناه: سأكلفه حالة تصعد فيها نفسه للنزع، وإن لم يتعقبه موت انتهى. وهو مثال لما يلقى من العذاب الصعب الذي لا يطاق، ويجوز أن يحمل على حقيقته كما قال ﷺ: «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوى كذا أبداً»؛ أي؛ سبعين عاماً؛ لأنّ الخريف آخر السنة، فيه تتمّ الثمار وتدرك، فصار بذلك كأنّه العام كلّه.

---

(١) روح البيان.

قال في «القاموس»: الخريف كأمير: ثلاثة أشهر بين القيظ والشتاء، تخترف فيها الثمار؛ أي: تجنى. وعنه ﷺ: «يكلف أن يصعد عقبة في النار، كلما وضع يده عليها ذابت، فإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجله ذابت، فإذا رفعها عادت».

والمراد أنه سيلقى العذاب الشديد الذي لا يطاق، وقد جعل الله ما يسوق إليه من المصائب وأنواع المشاق شبيهاً بمن يكلّف صعود الجبال الوعرة الشاقّة. قال قتادة: سيكلّف عذاباً لا راحة فيه.

ثم حكى كيفية عناده فقال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨﴾ تعليل لما تقدم من الوعيد؛ أي: إنه فكر في شأن النبي ﷺ، وفي شأن ما أنزل عليه من القرآن، وقدّر في نفسه واختلق ما يقول في طعنهما من المقال، وهيأه مما يوافق غرض قريش.

والخلاصة: أنه فكر وتروى ماذا يقول فيه، وبماذا يصفه به حين سئل عن ذلك؟

ثم عجب من تقديره وإصابته غرضهم، فقال: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩﴾؛ أي: لعن وعذب كيف قدر؛ أي: على أيّ حال قدر ما قدر من الكلام فيه مما لا يصح تقديره، وما لا يسوغ أن يقدره عاقل، كما يقال في الكلام: لأضربنه كيف صنع؛ أي: لعن على أيّ حال كانت منه؛ أي: فلعن في الدنيا على أيّ كيفية أوقع تقديره. والتكرير في قوله: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ للتأكيد والمبالغة في التشنيع؛ أي: ثم لعن فيما بعد الموت في البرزخ والقيامة على أيّ حال كانت تقديره، والمراد من اللعن: الدعاء عليه بالطرد والإبعاد بسبب ما قدّره، وقاله في النبيّ ﷺ من أنه ساحر، كما مرّ في أسباب النزول.

وهذا أسلوب يراد به التعجيب والثناء على المحدَّث عنه. تقول العرب: فلان قاتله الله ما أشجعه وأخزاه الله ما أشعره، يريدون أنّه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد، ويدعو عليه حاسده بذلك. وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

وقصارى ذلك: أنّ هذا تعجيب من قوة خاطره وإصابته الغرض الذي كانت ترمي إليه قريش من الطعن الشديد في القرآن، فقوله جاء وفق ما كانوا يريدون وطبق ما كانوا يتمنون من القدح فيه، وفيمن جاء به. ثم كرر هذا الدعاء للتأكيد والمبالغة

في التشنيع، فقال: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾؛ أي: ثم لعن وعذب بسبب ما قدره واختلقه من الكلام فيه. و﴿ثمّ﴾ هنا للدلالة على أن الكرة الثانية في التعجيب أبلغ من الأولى؛ أي: للتراخي بحسب الرتبة، وأن اللائق في شأنه ليس إلا هذا القول دعاء عليه، وفيما بعد على أصلها من التراخي الزمانيّ.

﴿ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١﴾ في أمر القرآن مرة بعد أخرى، وتأمل فيه لعله يجول بخاطره ما يحبون ويصل إلى ما يرجون. وهو معطوف على ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، وما بينهما اعتراض. يعني: الدعاء بينهما. ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾؛ أي: قطب وغير وجهه عبوسة حين ضاقت به الحيل، ولم يجد فيه مطعناً، ولم يدر ماذا يقول. ثم أكد ما قبله فقال: ﴿وَبَسَرَ﴾؛ أي: كلح واسود وجهه، وزاد في العبوسة. قال سعد بن عبادة: لمّا أسلمت راغمتني أمي، فكانت تلقاني مرة بالبشر ومرة بالبسر. وإيراد ﴿ثُمَّ﴾ في المعطوفات لبيان أن بين الأفعال المعطوفة تراخياً. وفي هذا إيماء إلى أنه كان بقلبه صدق محمد ﷺ، وكان ينكره عناداً، فإنه لو كان يعتقد صدق ما يقول. . لفرح باستنباط ما استنبط وإدراك ما أدرك، وما ظهرت العبوسة على وجهه. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق؛ أي: صرف وجهه عن الحق ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عن اتباعه؛ أي: رجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد له والإقرار به. ثم ذكر ما استنبطه من الترهات والأباطيل بقوله: ﴿فَقَالَ﴾ عقيب توليه عن الحق: ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى ما، ولذا أورد ﴿إِلَّآ﴾ بعدها؛ أي: ما ﴿هَٰذَآ﴾ الذي يقوله محمد ﷺ. يعني: القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾؛ أي: أمور تخييلية لا حقائق لها، يروى ويتعلم وينقل من الغير، وليس هو من سحره بنفسه. قال أبو حيان: ومعنى ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾؛ أي: إلا شبيه بالسحر انتهى. يقال: أثرت الحديث آثره أثراً إذا حدّثت به عن قوم في آثارهم؛ أي: بعد ما ماتوا هذا هو الأصل، ثم كان بمعنى الرواية عمن كان، وحديث مأثور؛ أي: منقول ينقله خلف عن سلف، وأدعية مأثورة؛ أي: مروية عن الأكابر. وفي[1] تعلم السحر لحكمة رخصة، واعتقاد حقِّيتِهِ والعمل به كفر، كما قيل:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لـلشَرِّ لَكِنّي لِتَوقِّيهِ ... ومَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ الناسِ يَقَعْ فِيهِ

والمعنى: أي فقال ما هذا القرآن إلا سحر ينقله محمد عن غيره ممن كان قبله

---

(١) روح البيان.

من السحرة كمسيلمة وأهل بابل، ويحكيه عنهم.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا الذي يقوله محمد ﴿إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ تأكيد لما قبله، ولذا أخليَ عن العاطف. قاله تمرّداً وعناداً لا على سبيل الاعتقاد، لما روي قبل: أنّه أقر بأن القرآن ليس من كلام الإنس والجن، وأراد بالبشر يساراً وجبراً وأبا فكيهة. أما الأولان فكانا عبدين من بلاد فارس، وكانا بمكة، وكان النبي ﷺ يجلس عندهما. وأما أبو فكيهة فكان غلاماً روميًّا، يتردد إلى مكة من طرف مسيلمة الكذّاب في اليمامة.

والمعنى[1]: أي إنه ملتقط من كلام غيره، وليس من كلام الله كما يدعي. ولو صح ما قال لأمكن غيره أن يقول مثله أو يعارضه بأحسن منه، ففي العرب ذوو فصاحة وذرابة لسان، وفيهم الخطباء والمقاويل الذين لا يجارون ولا يبارون، ولم يعلم أن أحداً من أهل الزكانة والمعرفة سولت له نفسه أن يعارضه بل التجؤوا إلى السيف والسنان دون المعارضة بالحجة والبرهان. وقد رووا في هذا البال مضحكات أغلبها لا يصح؛ لأنهم وهم المقاويل ذوو اللسن وقوة العارضة لا ينبغي أن ينسب إلى أحدهم مثل هذا الهذر، كقول من نسب إليه أنه عارض سورة الفيل، فقال: الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب طويل ومشفر وتيل إلخ.

قال أبو حيان[2]: وقيل: ثم نظر فيما يحتج به للقرآن، فرأى ما فيه من الإعجاز والإعلام بمرتبة الرسول ﷺ، ودام نظره في ذلك ثم عبس وبسر دلالة على تأنيه وتمهله في تأمله، إذ بين ذلك تراخ وتباعد. وكان العطف في ﴿وَبَسَرَ﴾ وفي ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ بالواو؛ لأن البسور قريب من العبوس فهو كأنّه على سبيل التوكيد، والاستكبار يظهر أنه سبب للإدبار؛ إذ الاستكبار معنى في القلب، والإدبار حقيقة من فعل الجسم، فهما سبب ومسبِّب فلا يعطف بـ ﴿ثم﴾، وقدم المسبَّب على السبب؛ لأنّه الظاهر للعين، وناسب العطف بالواو. وكان العطف في ﴿فَقَالَ﴾ بالفاء: دلالة على التعقيب، لأنه لما خطر بباله هذا القول بعد تطلبه لم يتمالك أن نطق به من غير تمهل. ومعنى ﴿يُؤْثَرُ﴾: يروى وينقل. قال الشاعر:

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

لَـقُـلْـتُ مِـنَ ٱلْـقَـوْلِ مَـا لاَ يَـزَا   لُ يُـؤْثَـرُ عَـنِّـيْ بِـهِ ٱلْـمُـسْـنَـدُ

وقيل: ﴿يُؤْثَرُ﴾؛ أي: يختار ويرجّح على غيره من السحر، فيكون من الإيثار. ومعنى ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾؛ أي: شبيه بالسحر. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ تأكيد لما قبله؛ أي: يلتقط من أقوال الناس، ويظهر أن كفر الوليد إنما هو عناد، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون. وقصته مع رسول الله ﷺ حين قرأ أوائل سورة ﴿فصلت﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾. وناشده الله بالرحم أن يسكت انتهى.

ثم ذكر ما يلقاه من الجزاء على سوء صنيعه وفظيع عمله، فقال: ﴿سَأُصْلِيهِ﴾؛ أي: سأدخل ذلك العنيد يوم القيامة نار سقر، وأغمره فيها من جميع جهاته. قال في «الصّحاح»: سقر اسم من أسماء النار. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: اسم للطبقة السادسة من جهنم، يقال: سقرته الشمس إذا آذته وآلمته، وسميت سقر لإيلامها. وقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ بدل من ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ بدل الاشتمال سواء جعل مثلاً لما يلقى من الشدائد، أو اسم جبل من نار؛ لأنّ سقر تشتمل على كل منهما.

ثم بالغ في وصف النار وتعظيم شأنها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ ما[1] الأولى مبتدأ وجملة ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره، و﴿ما﴾ الثانية خبر مقدم لقوله: ﴿سَقَرُ﴾ لأنّها المفيدة لما قصد إفادته من التهويل والتفظيع دون العكس، كما سبق في الحاقّة.

والمعنى: وأيّ شيء أعلمك يا محمد جواب ﴿مَا سَقَرُ﴾ في وصفها، لأنّها قد بلغت في الوصف حدّاً لا يمكن معرفته، ولا يتوصّل إلى إدراك حقيقته. يعني: أنه خارج عن دائرة إدراك العقول، ففيه تعظيم لشأنه.

ثم بين وصفها بقوله: ﴿لَا تُبْقِى﴾ لهم لحما ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ لهم عظماً، فإذا أعيد أهلها خلقاً جديداً فلا تذرهم بل تعيد إحراقهم كرّة أخرى، وهكذا أبداً كما جاء في الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ بيان لوصفها وحالها، وإنجاز

(١) روح البيان.

للوعد الضمني الذي يلوح به. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لا تبقي شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته بالإحراق، وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يعاد خلقاً جديداً، فتهلكه إهلاكاً ثانياً، وهكذا أبداً، كما في قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ﴾ إلخ. أو المعنى: لا تبقي على شيء؛ أي: لا تترحّم عليه ولا تدعه من الهلاك، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة، لأنها خلقت من غضب الجبّار. وقيل: لا تبقي حيًّا ولا تذر ميّتاً كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: محرقة لظاهر البشرة، وأعلى الجلد، ومغيّرة لها مسوِّدة لونَها مشوّهةً لها؛ أي: تلفح الجلد لفحة تدعه أشد سواداً من الليل. قال ابن عباس: تلوح الجلد فتحرقه، وتغيّر لونه، يقال[1]: لاحت النار الشيء إذا أحرقته وسوّدته، ولاحه السقر أو العطش إذا غيّره. وذلك أنّ الشيء إذا كان فيه دسومة نضر، فإذا أحرق أسودّ. والبشر: جمع بشرة، وهي ظاهر جلد الإنسان. فإن قلت: لا يمكن وصفها بتسويد البشرة مع قوله: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

قلت: ليس في الآية دلالة على أنها تفني بالكلية مع أنه يجوز أن يكون الإفناء بعد التسويد. وقيل: لامحة للناس على أنّ ﴿لَوَّاحَةٞ﴾ بناء مبالغة من لاح يلوح؛ أي: ظهر، وأن البشر بمعنى الناس. قيل: إنها تلوح للبشر من مسيرة خمس مئة عام، فهو كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾. فيصل إلى الكافر سمومها وحرورها، كما يصل إلى المؤمن ريح الجنة نسيمها من مسيرة خمس مئة عام.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَوَّاحَةٞ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي لوّاحة، وقيل: على أنه نعت لـ ﴿سَقَرَ﴾، والأول أولى. وقرأ الحسن، وعطية العوفيّ، وزيد بن علي، وابن أبي عبلة، ونصر بن عاصم، وعيسى بن عمر ﴿لواحةً﴾ بالنصب على الحال، أو الاختصاص للتهويل، فتكون حالاً مؤكّدة؛ لأنّ النار التي لا تبقي ولا تذر لا تكون إلاّ مغيّرة للأبشار.

﴿عَلَيۡهَا﴾؛ أي: على سقر ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾؛ أي: ملكاً يتولّون أمرها، ويتسلّطون على أهلها. وهم مالك وثمانية عشر معه. قال المفسرون: يقول الله سبحانه: على

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، وقيل: تسعة عشر صنفاً من أصناف الملائكة، وقيل: تسعة عشر صفّاً من صفوفهم، وقيل: تسعة عشر نقيباً مع كلّ نقيب جماعة من الملائكة، والأول أولى. قال الثعلبيّ: ولا ينكر هذا، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ مبنيّين على الفتح على مشهور اللغة في هذا العدد. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة بن سليمان بإسكان الشين من ﴿عَشْرَ﴾، كراهة توالي الحركات. وقرأ الجمهور بفتحها. وقرأ أنس بن مالك، وابن عباس، وابن قطيب، وإبراهيم بن قنّة بضمّ التاء، وهي حركة بناء عدل إليها عن الفتح لتوالي خمس فتحات، ولا يتوهم أنها حركة إعراب، لأنّها لو كانت حركة إعراب لأعرب ﴿عشر﴾. وقرأ أنس أيضاً ﴿تسعةُ﴾ بالضم ﴿أعشرَ﴾ بالفتح. وقال صاحب «اللوامح»: فيجوز أنه جمع العشرة على أعشر، ثم أجراه مجرى تسعة عشر. وعنه أيضاً: ﴿تسعة وعشر﴾ بالضم وقلب الهمزة من أعشر واواً خالصة تخفيفاً والتاء فيهما مضمومة ضمّة بناء؛ لأنها معاقبة للفتحة فراراً من الجمع بين خمس حركات على جهة واحدة. وعن سليمان بن قنة وهو أخو إبراهيم: أنه قرأ ﴿تسعةُ أعشرٍ﴾ بضم التاء ضمة إعراب، وإضافته إلى أعشرٍ، وأعشرٍ مجرور منون، وذلك على فك التركيب. قال صاحب «اللوامح»: ويجيء على هذه القراءة وهي قراءة من قرأ ﴿أعشرَ﴾ مبنيًّا، أو معرباً من حيث هو جمع أن الملائكة الذين هم على النار تسعون ملكاً انتهى. وفيه بعض تلخيص. قال الزمخشري: وقرىء ﴿تسعةُ أعشرٍ﴾ جمع عشير مثل: يمين وأيمن انتهى.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾ قال أبو جهل: أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر يخوفكم محمد بتسعة عشر، وأنتم الدهم، أفيعجز كل مئة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجون من النار، فقال أبو الأشد وهو رجل من بني جمح: يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة، فأنا أمشي بين أيديكم، فادفع عشرة بمنكبي، الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر، ونمضي ندخل الجنة. فأنزل الله

(١) البحر المحيط.

سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: المدبرين لأمرها، القائمين بتعذيب أهلها. فأصحاب النار هنا غير أصحاب النار في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ ليخالفوا جنس المعذبين من الثقلين، فلا يرقوا لهم ولا يميلوا إليهم، فإن المجانسة مظنة الرأفة، فلذا بعث الرسول من جنسنا ليرحم بنا، ولأنهم أقوى الخلق وأقومهم بحق الله، وبالغضب له تعالى وأشدهم بأساً. وعن النبي ﷺ: «لقوة أحدهم مثل قوة الثقلين، يسوق أحدهم الأمّة، وعلى رقبته جبل فيرمي بهم في النار ويرمي بالجبل عليهم».

والمعنى: أي وما جعلنا المدبّرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم، وهؤلاء هم النقباء والمدبرون لأمرها. وإنما كانوا ملائكة لأنهم أقوى الخلق وأشدهم بأساً، وأقومهم بحق الله تعالى وبالغضب له سبحانه»، وليكونوا من غير جنس المعذّبين حتى لا يرقوا لهم، ويرحموهم.

ثم ذكر الحكمة في اختيار هذا العدد القليل، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾؛ أي: وما جعلنا في القرآن عددهم هذا العدد القليل ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾؛ أي: محنة وضلالة ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذين استقلوا عددهم؛ أي: ما جعلنا تلك العدّة، وهي تسعة عشر إلا سبب فتنة وضلالة للذين كفروا حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم، ويكثر غضب الله عليهم. وفتنتهم به أنهم استقلوه واستهزؤوا به واستبعدوه، وقالوا: كيف يتولّى هذا العدد القليل تعذيب الثقلين. وقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ مفعول لـ ﴿جعل﴾ على حذف مضاف؛ أي: إلا سبب فتنة وللذين صفة لـ﴿فِتْنَةً﴾، وليست ﴿فِتْنَةً﴾ مفعولاً له اهـ «سمين».

أي[1]: وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي تسبّب لافتتانهم ووقوعهم في الكفر، وهو التسعة عشر، فعبّر بالأثر عن المؤثّر؛ أي: عبّر بالفتنة عن العدد المخصوص تنبيهاً على التلازم بينهما، وحمل الكلام على هذا؛ لأن ﴿جعل﴾ من دواخل المبتدأ والخبر، فوجب حمل مفعوله الثاني على الأول، ولا يصح حمل افتتان الكفّار على عدد الزبانية إلا بالتوجيه المذكور، فإن عدتهم سبب للفتنة لا فتنة

---

(١) روح البيان.

نفسها. ثم ليس المراد مجرد جعل عددهم ذلك العدد المعيّن في نفس الأمر، بل جعله في القرآن أيضاً كذلك، وهو الحكم بأن عليها تسعة عشر، إذ بذلك يتحقق افتتانهم باستقلالهم له واستبعادهم لتولي هذا العدد القليل أمر الجم الغفير، واستهزائهم به حسبما ذكر، وعليه يدور ما سيأتي من استيقان أهل الكتاب وازدياد المؤمنين إيماناً.

قال الإمام الرازّي[1]: إنما صار هذا العدد سبباً لفتنة الكفّار من وجهين:

الأول: أن الكفار يستهزئون ويقولون: لم لا يكونون عشرين مثلاً، وما المقتضي لتخصيص هذا العدد؟

والثاني: أنّ الكفار يقولون: هذا العدد القليل كيف يكون وافياً بتعذيب أكثر العالم من الجن والإنس من أول ما خلق الله تعالى إلى قيام الساعة؟

وأجيب عن الأول: بأن هذا السؤال لازم عن كل عدد يفرض، وبأن أفعال الله لا تعلل فلا يقال فيها: لِمَ، وتخصيص هذا العدد لحكمة اختص الله بها.

وعن الثاني: بأنه لا يبعد أن الله تعالى يعطي ذلك العدد القليل قوة تفي بذلك، فقد اقتلع جبريل عليه السلام مدائن قوم لوط على أحد جناحيه ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء صياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها. وأيضاً فأحوال القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا، ولا للعقل فيها مجال اهـ «خازن» و«خطيب».

وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ متعلق بالجعل الثاني على المعنى المذكور. والسين[2] للطلب؛ أي: وجعلنا عدتهم العدد المذكور القليل الذي تسبَّب لضلال الكفار ليكتسب الذين أوتوا الكتاب اليقين بنبوته ﷺ وصدق القرآن لما شاهدوا ما فيه موافقاً لما في كتابهم. وفي «عين المعاني»: سأل اليهود رسول الله ﷺ عن خزنة النار وعددهم؟ «فأجاب عليه السلام: بأنهم تسعة عشر؛ أي: إنه سبحانه جعل عدة خزنة جهنم هذه العدّة، ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوّة محمد ﷺ لموافقة ما في القرآن لكتبهم، قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد، وغيرهم. وقيل: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) روح البيان.

متعلق بفعل مضمر؛ أي: فعلنا ذلك ليستيقن الذين أوتوا الكتاب. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾؛ أي: وليزداد إيمانهم كيفيةً بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك أو كميةً بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل. وقيل[1]: المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام. وقيل: أراد المؤمنين من أمة محمد ﷺ.

والمعنى: ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم، لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان، فإن نفي ضد الشيء بعد إثبات وقوعه أبلغ في الإثبات، ونفي لما قد يعتري المستيقن والمؤمن من شبهة ما، فيحصل له يقين جازم بحيث لا شك بعده. وإنما لم ينظم المؤمنين في سلك أهل الكتاب في نفي الارتياب حيث لم يقل: ولا يرتابوا للتنبيه على تباين النفيين حالاً، فإن انتفاء الارتياب من أهل الكتاب مقارن لما ينافيه من الجحود، ومن المؤمنين مقارن لما يقتضيه من الإيمان وكم بينهما.

والتعبير[2] عنهم باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة عن الحدوث للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده، ورسوخهم في ذلك. والمراد نفي الارتياب عنهم في الدين، أو في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر، ولا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك من المنافقين.

والمعنى: أي ولا يشك أهل التوراة والإنجيل والمؤمنون بالله من أمّة محمد ﷺ في حقّية ذلك العدد.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك أو نفاق، فإن كلًّا منهما من الأمراض الباطنة، فيكون إخباراً بما سيكون في المدينة بعد الهجرة، إذ الاتّفاق إنما حدث بالمدينة، وكان أهل مكة إما مؤمناً حقّاً وإما مكذّباً وإمّا شاكّاً. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المصرّون على التكذيب من أهل مكة وغيرهم. فإن قلت: كيف يجوز أن يكون قولهم هذا مقصوداً لله تعالى؟.

(١) الشوكاني.　　(٢) روح البيان.

قلت: اللام ليست على حقيقتها بل للعاقبة، فلا إشكال. ﴿مَاذَآ﴾ مجموع الكلمتين، اسم استفهام، ف ﴿ذا﴾ ملغاة؛ أي: أي شيء ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه. وهذا الاسم المركب مفعول مقدم؛ أي: أي شيء أراد الله ﴿بِهَٰذَا﴾ العدد القليل ﴿مَثَلًا﴾ حال من هذا؛ أي: أي شيء أراد الله بهذا العدد القليل المستغرب حال كونه مشابهاً للمثل في غرابته، ويصح أن تكون ﴿ما﴾ مبتدأ، و﴿ذا﴾ موصولاً خبره، و﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ صلة الموصول، و﴿مَثَلًا﴾ تمييز لهذا؛ أي: ما الذي أراده الله سبحانه بهذا العدد القليل، من جهة كونه مثلاً؛ أي: شبيهاً بالمثل في غرابته. فإطلاق المثل على هذا العدد على سبيل الاستعارة، حيث شبهوه بالمثل المضروب، وهو القول السائر في الغرابة، حيث لم يكن عقداً تامّاً كعشرين أو ثلاثين. والاستفهام لإنكار أنّه من عند الله بناءً على أنّه لو كان من عنده تعالى لما جاء ناقصاً. وإفراد قولهم هذا بالتعليل مع كونه من باب فتنتهم للإشعار باستقلاله في الشناعة.

والمعنى[1]: أي وليقول الذين في قلوبهم شك في صدق الرسول ﷺ والقاطعون بكذبه: ما الذي أراد الله بهذا العدد القليل المستغرب استغراب المثل؟.

ثم بين أن الاختلاف في الدين سنة من سنن الله تعالى، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما أضل الله سبحانه هؤلاء المنافقين والمشركين القائلين عن عدّة خزنة جهنم: أيّ شيء أراد الله بهذا الخبر حتى يخوفنا بعدتهم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه من خلقه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله، فيخذله عن إصابة الحق. ﴿و﴾ كما هدى الله سبحانه المؤمنين من أصحاب محمد ﷺ، ومن أهل الكتاب إلى هذا المثل ﴿يهدي﴾ من عباده ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته، فيوفقه لإصابة الصواب.

واسم الإشارة إلى ما تقدم ذكره، وهو قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. والكاف نعت لمصدر محذوف، والمعنى: يضل الله من خلقه من يشاء إضلاله إضلالاً كائناً كإضلال هؤلاء المنكرين لخزنة جهنم وعددهم من أبي جهل وأصحابه، ويهدي من خلقه من يشاء هدايته هداية كائنة كهداية المصدّقين لخزنة جهنم، وعددهم من أصحاب محمد ﷺ وأهل الكتاب.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أنّ مثل هذا الإضلال يضل من يشاء إضلاله لسوء استعداده وتدسيته نفسه، وتوجيهها إلى سيّء الأعمال واجتراح السيئات حين مشاهدة الآيات الناطقة بالهدى، ويهدي من يشاء لتوجيه اختياره إلى الحسن من الأعمال وتزكيته نفسه، كلما لاح له سبيل الهدى. وقيل المعنى: كذلك يضلّ الله عن الجنة من يشاء، ويهدي إليها من يشاء.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ يا محمد؛ أي: جموع خلقه التي من جملتها الملائكة المذكورون. والجنود[1]: جمع جند بالضمّ، وهو العسكر، وكل مجتمع، وكل صنف من الخلق على حدة. وفي الحديث: «إنّ لله جنوداً منها العسل». ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى لفرط كثرتها. وفي حديث موسى عليه السلام: «أنه سأل ربه عن عدد أهل السماء؟ فقال تعالى: اثنا عشر سبطاً عدد كل سبط عدد التراب». وفي «الأسرار المحمدية»: ليس في العالم موضع بيت ولا زاوية إلا وهو معمور بما لا يعلمه إلا الله، والدليل على ذلك أمر النبي ﷺ بالتستر في الخلوة، وأن لا يجامع الرجل امرأته عريانين. وفيه إشارة إلى أنَّ لله في اختيار عدد الزبانية حكمةً، وإلا فجنوده خارجة عن دائرة العدّ والضبط. قال الفاشاني: وما يعلم عدد الجنود وكمّيتها وكيفيتها وحقيقتها إلا هو لإحاطة علمه بالماهيّات وأحوالها.

والمعنى: وما يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم إلا هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد. وقال عطاء: يعني: من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار، لا يعلم عدّتهم إلا الله. والمعنى: أن خزنة النار، وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه. وهذا رد على استهزائهم بكون الخزنة تسعة عشر جهلاً منهم وجه الحكمة في ذلك.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر، فقلا: ﴿وَمَا هِيَ﴾؛ أي: وما سقر، وما ذكر معها من عدد خزنتها ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾؛ أي: إلا تذكرة وموعظة وإنذاراً للبشر والإنس بسوء عاقبة الكفر والضلال. وتخصيص[2] الإنس مع أنها تذكرة للجن أيضاً، لأنهم هم الأصل في القصد بالتذكرة. أو المعنى: وما عدة الخزنة إلا تذكرة لهم ليتذكروا، ويعلموا أن الله سبحانه قادر على أن يعذب الكثير غير المحصور من

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

كفّار الثقلين، وعصاتهم بهذا العدد القليل بل هو لا يحتاج في ذلك إلى أعوان وأنصار أصلاً، فإنّه لو قلب شعرةً واحدةً في عين ابن آدم، أو سلّط الألم على عرق واحد من عروق بدنه.. لكفاه ذلك بلاء ومحنة. وإنما عيّن العدد وخلق الجنود لحكمة لا لاحتياجٍ. ويجوز أن يعود الضمير إلى الآيات الناطقة بأحوال سقر، فإنّها تذكرة لاشتمالها على الإنذار.

ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم، فقال: ﴿كَلَّا﴾ ردع لمن أنكر سقر؛ أي: ارتدعوا وانزجروا عن إنكار سقر، فإنها حق لا سبيل لكم إلى إنكارها لتظاهر الأدلة عليها. أو إنكار ونفي لكونها تذكرة لهم، فإن كونها ذكرى للبشر لا ينافي أن بعضهم لا يتذكرون، بل يعرضون عنها بسوء اختيارهم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾؟ قال الفرّاء: ﴿كلا﴾[1] صلة للقسم التقدير أي: والقمر، وقيل المعنى: حقّاً والقمر. وقال ابن جرير: المعنى: رد زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم؛ أي: ليس الأمر كما يقول. ثم أقسم على ذلك بالقمر وبما بعده، وهذا هو الظاهر من معنى الآية. ﴿وَالْقَمَرِ﴾ مقسم به، مجرور بواو القسم. وفي «فتح الرحمن»: وهذا تخصيص تشريف، وتنبيه على النظر في عجائبه وقدرته في حركاته المختلفة التي هي مع كثرتها واختلافها على نظام واحد لا يختلّ. وقال أبو الليث: وخالق القمر يعني: الهلال بعد ثالثه. ﴿وَاللَّيْلِ﴾ معطوف على ﴿القمر﴾، وكذا ﴿الصبح﴾ ﴿إِذْ﴾ بسكون الذال، وهو ظرف لما مضى من الزمان. ﴿أَدْبَرَ﴾ على وزن أفعل؛ أي: انصرف وذهب فإنّ الإدبار ضدّ الإقبال.

وقرأ[2] ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وعطاء، وابن يعمر، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو الزناد، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز، والحسن، وطلحة، والنحويّان والابنان، وأبو بكر ﴿إذا﴾ على أنّه ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿دبر﴾ بفتح الدال بزنة ضرب. وقرأ ابن جبير، والسلميّ، والحسن بخلاف عنهم، وابن سيرين، والأعرج، وزيد بن عليّ، وأبو شيخ، وابن مُحَيّصن، ونافع، وحمزة، وحفص ﴿إذْ﴾ بسكون الذال على أنه ظرف لما مضى من الزمان. ﴿أدبر﴾ بوزن أكرم. ودبر وأدبر لغتان، كما يقال: أقبل الزمان، وقبل الزمان، ويقال دبر الليل، وأدبر الليل

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

إذا تولى ذاهباً. وقرأ الحسن أيضاً، وأبو رزين، وأبو رجاء، وابن يعمر أيضاً، والسلميّ، وطلحة أيضاً، والأعمش، ويونس بن عبيد، ومطر ﴿إذا﴾ بالألف، ﴿أدبر﴾ بالهمز، وكذا هو في مصحف عبد الله وأبيّ، وهو مناسب لقوله: ﴿إِذَآ أَسْفَرَ﴾. ويقال: كأمس الدابر، وأمس المدبر بمعنى واحد. وقال يونس بن حبيب: ﴿دبر﴾: انقضى، وأدبر: تولّى.

﴿وَٱلصُّبْحِ﴾؛ أي: الفجر أو أوّل النهار ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. واتفقوا على ﴿إِذَآ﴾ ههنا نظراً إلى تأخره عن الليل من وجه. ﴿أَسْفَرَ﴾؛ أي: أضاء، وانكشف، وظهر. وقرأ الجمهور[1] ﴿أَسْفَرَ﴾ رباعياً. وقرأ ابن السميفع وعيسى بن الفضل ﴿سفر﴾ ثلاثيًّا، والمعنى: طرح الظلمة عن وجهه.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ جواب للقسم. و﴿ٱلْكُبَرِ﴾[2]: جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كتائه، وألحقت بها، فكما جمعت فعلة على فعل كركبة وركب جمعت فعلى عليها، وإلا ففعلى لا تجمع على فعل بل على فعالى كحبلى وحبالى.

والظاهر: أن الضمير عائد على سقر؛ أي: إن سقر لإحدى البلايا، أو لإحدى الدواهي الكبر الكثيرة، وهي؛ أي: سقر واحدة في العظم لا نظير لها كقولك: إنه أحد الرجال. هذا إذا كان منكراً لـ ﴿سَقَرَ﴾، وإن كان منكراً لعدة الخزنة فالمعنى: أنها من إحدى الحجج ﴿ٱلْكُبَرِ﴾، ﴿نَذِيرًا﴾ من قدرة الله على قهر العصاة من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة من الجنّ والإنس، حيث استعمل على تعذيبهم هذا العدد القليل. وإن كان منكر الآيات فالمعنى: أنها لإحدى الآيات الكبر.

وقرأ الجمهور ﴿لَإِحْدَى﴾ بالهمزة، وهي منقلبة عن واو، أصله: لوحدى، وهو بدل لازم. وقرأ نصر بن عاصم، وابن محيصن، ووهب بن جرير عن ابن كثير بحذف الهمزة، وهو لا ينقاس، وتخفيف هذه الهمزة أن تجعل بين بين.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ حال من الضمير في ﴿إِنَّهَا﴾، قاله الزجاج. وروى عنه عن الكسائي، وأبي علي الفارسيّ: أنّه حال من قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾؛ أي: قم يا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

محمد فأنذر حال كونك نذيراً للبشر. وقال الفراء: هو مصدر بمعنى الإنذار، منصوب بفعل مقدر. وقيل: إنه منتصب على التمييز من نسبة إحدى الكبر إلى اسم ﴿إنّ﴾، لأنّ معناه: أنها من معظمات الدواهي التي خلقها الله للتعذيب، فيصح أن ينتصب منه التمييز، كما تقول: هي إحدى النساء عفافاً. والنذير[1] مصدر بمعنى الإنذار كالنكير بمعنى الإنكار، والمعنى: لإحدى الكبر إنذارا: أي: من جهة الإنذار أول مما دلت عليه الجملة؛ أي: معنى قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: كبرت منذرة، وحذف التاء مع أن فعيلاً بمعنى فاعل، يفرق فيه بين المذكر والمؤنث لكون ضمير ﴿إِنَّهَا﴾ في تأويل العذاب أو لكون النذير بمعنى ذات إنذار على معنى النسب كقولهم: امرأة طاهر؛ أي: ذات طهارة. وقيل: إنّه مفعول لأجله؛ أي: وإنها لإحدى الكبر لأجل إنذار البشر. وقرأ الجمهور بالنصب. وقرأ أبي بن كعب، وابن أبي عبلة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو نذير أو هي نذير.

ومعنى الآيات: أقسم بالقمر الوضّاح والليل إذا ولى، وذهب والصبح إذا أشرق إنّ جهنم لإحدى البلايا الكبار، والدواهي العظام لإنذار البشر.

ثم بين أصحاب النذارة، فقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ بدل من قوله: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ بإعادة الجار، و﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ مفعول ﴿شَآءَ﴾، و﴿مِنكُمْ﴾ حال مِنْ ﴿مَنْ﴾ الموصولة؛ أي: نذيراً لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير والجنة والطاعة، فيهديه الله. أو لم يشأ ذلك، ويتأخّر بالمعصية، فيضله. وفيه إشارة إلى أنَّ لكسب العبد دخلاً في حصول المرحومية والمحروميّة. وقال السدي: لمن شاء منكم أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها، أو يتأخر إلى الجنة. أو المعنى[2]: لمن شاء أن يقبل النذارة أو يتولى عنها، ويردها. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وخلاصة ما سلف: ها أنتم أولاء قد علمتم سقر وعذابها وملائكتها، فمن تقدم إلى الخير أطلقناه، ومن تأخر عنه سلكناه فيها. قال ابن عباس: هذا تهديد وإعلام بأنّ من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزي بثواب لا ينقطع أبداً، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمداً ﷺ عوقب عقاباً لا ينقطع أبداً. وقال الحسن:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

هذا وعيد وتهديد وإن أخرج مخرج الخبر، كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من نفوس الإنس والجنّ المكلّفين ﴿بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؛ أي: مرهونة عند الله بكسبها محبوسة ثابتة. وفي بعض التفاسير: بسبب ما كسبت من الأعمال السيئة. وقيل: مأخوذة بعملها، ومرتهنة إما خلّصها أو أوبقها. من[1] رهن الشيء إذا دام وثبت، وارتهنته؛ أي: تركته مقيماً عنده وثابتاً. والرهن: ما وضع عندك لينوب مناب ما أخذ منك، والمرتهن: هو الذي يأخذ المرهون، ونفس المكلّف محبوسة ثابتة عند الله بما أوجبه عليه من التكاليف التي هي حق خالص له تعالى، فإن أدّاها المكلّف كما وجبت عليه فك رقبته وخلص نفسه، وإلا بقيت نفسه مرهونة محبوسة عنده. وقال بعضهم: الرهينة: اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم على أن تكون التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية. وفي فتح الرحمن: التاء للمبالغة أو على تأنيث اللفظ لا على معنى الإنسان ونحوه، وليس أي: الرهينة صفة وإلا لقيل: رهين، لأنّ فعيلاً بمعنى مفعول لا تدخله التاء، بل يستوي فيه المذكر والمؤنث، إلا أن يحمل على ما هو بمعنى الفاعل، فإنه يؤتى في مؤنثه بالتاء كما في عكسه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ استثناء متصل[2] من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ لكثرتها في المعنى. و﴿أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾: أهل الأعمال الصالحة من المؤمنين. أي: فإنهم فاكّون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم كما يفك الراهن رهنه بأداء الدين.

والمعنى: أي كل نفس مرتهنة بكسبها عند الله غير مفكوكة عنه كافرة كانت أو مؤمنة عاصية أو طائعة إلا أصحاب اليمين، فإنّهم فكوا رقابهم بحسن أعمالهم كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق الذي وجب عليه.

واختلف[3] في تعيين أصحاب اليمين. فقيل: هم الملائكة، وقيل: هم المؤمنون، وقيل: أولاد المسلمين، وقيل: الذين كانوا عن يمين آدم، وقيل: أصحاب الحق، وقيل: هم المعتمدون على الفضل دون العمل، وقيل: هم الذين

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

اختارهم الله لخدمته.

﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ في محل رفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هم في جنّات لا يكتنه كنهها، ولا يوصف وصفها، كما دل عليه التنكير. والمراد أن كلا منهم ينال جنة منها. والجملة مستأنفة استئنافاً بيانيًّا واقعاً في جواب سؤال نشأ مما قبله، كأنّه قيل: ما بال أصحاب اليمين؟ فقيل: هم في جنات. ويجوز أن يكون ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ حالاً من ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾، وأن يكون حالاً من فاعل ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، وأن يكون ظرفا لـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾. وقوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يجوز أن يكون على بابه فيكون قوله: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ متعلقاً بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي: يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين. ويجوز[1] أن يكون تفاعل هنا بمعنى فعل، و﴿عَنِ﴾ في قوله: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ زائدة؛ أي: يسألون المجرمين عن أحوالهم. وقد حذف المسؤول لكونه عين المسؤول عنه ولدلالة ما بعده عليه. ويروى: «أنّ الله يطلع أهل الجنة، وهم في الجنة حتى يروا أهل النار، فيسألونهم.

وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ مقول لقول مقدر وقع حالاً مقدرة من فاعل يتساءلون؛ أي: يسألون المجرمين عن أحوالهم حال كونهم قائلين لهم أي شيء أدخلكم في سقر؟ وأيُّ شيء كان سبباً لدخولكم فيها؟. من سلكت الخيط في الإبرة سلكاً، أي: أدخلته فيها، فهو من السلك بمعنى الإدخال لا من السلوك بمعنى الذهاب. فإن قلت: لم يسألونهم وهم عالمون بذلك؟

قلت: توبيخاً لهم وتحسيراً ولتكون حكاية الله سبحانه ذلك في كتابه تذكرة للسامعين. وقرأ أبو عمرو «سلكّم» بإدغام الكاف في الكاف، والباقون بالفكّ.

والمعنى: أي[2] هم في غرفات الجنات يسألون المجرمين، وهم في الدركات قائلين لهم: ما الذي أدخلكم في سقر؟ فأجابوهم: بأنّ هذا العذاب كان لأمور أربعة:

١ - ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال المجرمون مجيبين للسائلين ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ للصلوات الواجبة، فعدم إقرارنا بفرضيّة الصلاة وعدم أدائها سلكنا فيها. أصله:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

نكن، حذف النون للتخفيف مع كثرة الاستعمال.

والمعنى: أي لم نكن في الدنيا من المؤمنين الذين يصلّون لله، لأنّا لم نكن نعتقد بفرضيّتها.

٢ ـ ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: ولم نكن من المحسنين إلى خلقه الفقراء بفضل أموالنا المتصدّقين عليهم بما تجود به نفوسنا، وهو على معنى استمرار نفي الإطعام لا على نفي استمرار الإطعام. والمراد أيضاً الإطعام للواجب كالزكاة والكفّارة والنذر، وإلاّ فما ليس بواجب من الصلاة والإطعام لا عذاب على تركه، وكانوا يقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾. فكانوا لا يرحمون المساكين بالإطعام، ولا يحضّون عليه أيضاً. ففيه[1] ذمّ للبخل، ودلالة على أنّ الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة في الآخرة. قال في «التوضيح»: الكفار مخاطبون بالإيمان والعقوبات والمعاملات إجماعاً، أمّا العبادات فهم مخاطبون بها في حق المؤاخذة في الآخرة اتفاقاً أيضاً لقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ الآيات، أمّا في حق وجوب الأداء فمختلف فيه. قال العراقيّون من مشايخنا: نعم، وقال مشايخ ديارنا: لا. وفي بعض التفاسير: وللحنفيّ أن يقول: هذا إنما هو تأسّف منهم على تفريطهم في كسب الخير وحرمانهم مما ناله المصلّون، والمزكّون من المؤمنين، ولا يلزم من ذلك أن يكونوا مأمورين بالعمل قبل الإيمان.

٣ ـ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ ونشرع في الباطل ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾؛ أي: مع الشارعين فيه. والمراد بالباطل ذمّ النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وغيبتهم، وقولهم: بأنه شاعر أو ساحر أو كاهن أو غير ذلك، والطعن في القرآن وقولهم هو سحر أو شعر أو كهانة إلى نحو أولئك من الأباطيل. والخوض في الأصل: الشروع مطلقاً في أيّ شيء كان، ثم غلب في العرف بمعنى الشروع في الباطل والقبيح وما لا ينبغي. وفي الحديث: «أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً في معصية الله».

٤ ـ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: بيوم الجزاء. أضافوه إلى الجزاء مع أنّ فيه من الدواهي والأهوال ما لا غاية له، لأنه أدهاها وأنهم ملابسوه، وقد مضت

---

(١) روح البيان.

بقية الدواهي، وتأخير جنايتهم هذه مع كونها أعظم من الكل؛ إذ هو تكذيب القيامة وإنكارها كفر، والأمور الثلاثة المتقدمة فسق لتفخيمها، وللترقّي من القبيح إلى الأقبح، كأنهم قالوا: وكنّا بعد ذلك كله مكذبين بيوم الدين، ولبيان كون تكذيبهم به مقارناً لسائر جناياتهم المعدودة مستمرًّا إلى آخر عمرهم، حسبما ينطق به قولهم: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي: الموت ومقدّماته، فإنه أمر متيقن لا شك في إتيانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾. أو حتى علمنا صحة ذلك عياناً بالرجوع إلى الله في الدار الآخرة.

فإن قلت: أيريدون أن كل واحد منهم بمجموع هذه الأربع دخل النار أم دخلها بعضهم بهذه وبعضهم بهذه؟

قلت: يحتمل الأمران جميعاً كما في «الكشاف».

﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: لا تنالهم شفاعة الملائكة والأنبياء والصالحين كما تنفع المؤمنين؛ أي: لو قدّر اجتماعهم على شفاعتهم على سبيل فرض المحال لا تنفعهم تلك الشفاعة، فليس المراد أنّهم يشفعون لهم فلا تنفعهم شفاعتهم؛ إذ الشفاعة يوم القيامة موقوفة على الإذن، وقابليّة المحل، فلو وقعت من المأذون للقابل قبلت، والكافر ليس بقابل لها، فلا إذن في الشفاعة له فلا شفاعة، ولا نفع في الحقيقة. وفيه دليل على صحة الشفاعة ونفعها يومئذٍ لعصاة المؤمنين، وإلا لما كان لتخصيصهم بعدم منفعة الشفاعة وجه. قال ابن مسعود رضي الله عنه: تشفع الملائكة والنبيّون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلا قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾؛ أي: فأيّ شي حصل لهم معرضين عن القرآن. والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلها من موجبات الإقبال عليه والاتعاظ به من سوء حال المكذبين. و﴿مُعۡرِضِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور الواقع خبراً لـ ﴿ما﴾ الاستفهامية، و﴿عَنِ﴾ متعلّقة به؛ أي: فإذا كان حال المكذبين به على ما ذكر فأيّ شيء حصل لهم معرضين عن القرآن مع تعاضد موجبات الإقبال عليه، وتأكد الدواعي للإيمان به.

والمعنى: أي أيّ شيء حصل لأهل مكة حال كونهم معرضين عن القرآن

الذي هو مشتمل على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى. قال مقاتل: إعراضهم عن القرآن من وجهين: (١) جحودهم وإنكارهم له، (٢) ترك العمل بما فيه.

ثمّ شبّههم في نفورهم عن القرآن بالحمر، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾؛ أي: كأنّ هؤلاء المشركين في إعراضهم عن القرآن ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾؛ أي: حمر وحشية هاربة مما يفزعها. والجملة حال من الضمير المستكن في ﴿مُعْرِضِينَ﴾ على التداخل. والحمر: جمع حمار، وهو معروف، ويكون وحشياً، وهو المراد هنا.

وقرأ الجمهور ﴿حُمُرٌ﴾ بضمّ الميم، والأعمش بإسكانها. ومستنفرة بمعنى نافرة هاربةً، من نفرت الدابّة إذا هربت، لا من نفر الحاج، يقال: نفر واستنفر بمعنى هرب، مثل: استعجب بمعنى عجب. وقرأ الجمهور[١] ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ بكسر الفاء؛ أي: نافرة، ويناسب الكسر قوله ﴿فَرَّتْ﴾. وقرأ نافع وابن عامر بفتحها؛ أي: منفّرة مذعورة، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد. قال في «الكشاف»: المستنفرة: الشديدة النفار والهرب كأنّها تطلب النفار من نفوسها بسبب أنّهم جمعوا نفوسهم للنفار، وحملوها عليه. فأبقى السين على بابها من الطلب.

والمعنى: حال كونهم مشبهين في إعراضهم عن القرآن بحمر نافرة ﴿فَرَّتْ﴾ وهربت ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: من أسد أو من الرماة لها للاصطياد، لأنّ الوحشة إذا عاينت الأسد تهرب أشدّ الهرب، ومثل القسورة الحيدرة وزنا ومعنى وهي فَعْولَةٌ من القسر، وهو القهر والغلبة، لأنه يغلب السباع ويقهرها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: القسورة هو الأسد بلسان الحبشة، كذا قاله عطاء والكلبي. وقيل: القسورة هي جماعة الرماة الذين يتصيّدونها، ويرمونها، وهو جمع قسور، وهو الرمي، قاله سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وابن كيسان. وقيل: القسورة: أصوات الناس. وقيل: القسورة أوّل الليل؛ أي: فرت من ظلمة الليل، وبه قال عكرمة وابن الأعرابي. والتفسير الثاني أولى.

شبهوا[٢] في إعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشرادهم عنه بحمرٍ جدّت في نفارها مما أفزعها، وفيه من ذمهم وتهجين حالهم، ما لا يخفى.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

يعني: أن في تشبيههم بالحمر شهادة عليهم بالبله، ولا ترى مثل نفار حمر الوحش واطّرادها في العدّو إذا خافت من شيء، ومن أراد إهانة غليظة لأحد والتشنيع عليه بأشنع شيء شبهه بالحمار.

والمعنى: كأن هؤلاء المشركين في فرارهم من محمد ﷺ ومن استماع القرآن حمر وحشية هاربة من رماة يرمونها ويعقرونها لصيدها وافتراسها.

ثم بين أنهم بلغوا في العناد حدّا لا يقبله عقل ولا يستسيغه ذو نفس حاسّة، فقال: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ معطوف على مقدّر يقتضيه المقام، كأنّه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة، ولا يرضون بها عناداً ومكابرةً، بل يريد كل واحد منهم أن يؤتى قراطيس تنشر وتقرأ، وذلك أنهم؛ أي: أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أمية، وأصحابهما قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء، أو يصبح عند رأس كل رجل منا أوراق منشورة عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان، نؤمر فيها باتباعك؛ أي: بأن يقال: اتبع محمداً فإنه رسول من قبلي إليك، كما قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾. والمرء: الإنسان أو الرجل، ولا يجمع من لفظه. والصحف: جمع صحيفة، وهي الكتاب. والمنشّرة: المنشورة المفتوحة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿صُحُفًا﴾ بضم الصاد والحاء. وقرأ سعيد بن جبير بإسكان الحاء. وقرأ الجمهور ﴿مُّنَشَّرَةً﴾ بالتشديد، وقرأ سعيد بن جبير بالتخفيف، من نشر وأنشر، مثل: نزَّل وأنزل.

والمعنى: أي هم قد بلغوا في العناد حدّاً لا تجدي معهم فيه التذكرة، فكل واحد منهم يريد أن ينزل عليه كتاب مفتوح من السماء كما أنزل على نبيّه ﷺ.

ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة، وزجرهم فقال: ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم وزجر عن اقتراحهم الآيات وإرادتهم ما أرادوه، فإنهم إنما اقترحوها تعنّتاً وعناداً لا هدى ورشاداً؛ أي: فهم لا يؤتونها. وقيل: ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقًّا. ثم بين سبحانه سبب هذا التعنت والاقتراح، فقال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾؛ أي: عذاب الآخرة

(١) البحر المحيط.

لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات، فلعدم خوفهم منها أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف.

والمعنى[1]: أي إنما دسّاهم وطبع على قلوبهم، وأعمى أبصارهم أنهم كانوا لا يصدّقون بالآخرة، ولا يخافون أهوالها. ومن ثم أعرضوا عن التأمل في تلك المعجزات الكثيرة، وقد كانت كافية لهم جدّ الكفاية في الدلالة على صدق دعوى محمد ﷺ للنبوة، فطلب الزيادة يكون من التعنت الذي لا مسوغ له. وقرأ الجمهور ﴿يَخَافُونَ﴾ بياء الغيبة، وأبو حيوة بتاء الخطاب التفاتاً.

ثم وبّخهم على إعراضهم عن التذكرة فقال: ﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن إعراضهم عن التذكرة ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ وفي ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ للتذكرة، لأنها بمعنى الذكر أو القرآن كالموعظة بمعنى الوعظ والصيحة بمعنى الصوت. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ بليغة كافية. فالتنوين فيه للتعظيم. وفي «برهان القرآن» أي: تذكير للحق، وعدل إليها للفاصلة؛ أي: ليس الأمر كما يقول المشركون في هذا القرآن من أنه سحر يؤثر، بل هو تذكرة من الله لخلقه، ذكّرهم به، فليس لأحد أن يعتذر بأنه لم يجد مذكراً ولا معرفاً.

ثم ما ذكر هو كالنتيجة لما سلف، فقال: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ من عباده أن يذكره، ولا ينساه، ويتعظ به قبل حلوله في رمسه. ﴿ذَكَرَهُۥ﴾؛ أي: جعله نصب عينيه، وحاز بسببه سعادة الدارين، فإنه ممكن من ذلك.

ثم ردّ سبحانه المشيئة إلى نفسه، فقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بمجرد مشيئتهم للذكر، كما هو المفهوم من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾، إذ لا تأثير لمشيئة العبد وإرادته في أفعاله. وضمير[2] الجمع إمّا أن يعود إلى الكفرة؛ لأنّ الكلام فيهم أو إلى ﴿مَن﴾ الموصولة نظراً إلى عموم المعنى لشموله لكلّ من المكلّفين.

وقرأ نافع وسلام ويعقوب ﴿تذكرون﴾ بتاء الخطاب ساكنة الذال، وباقي السبعة وأبو جعفر والأعمش وطلحة وعيسى والأعرج ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بالياء. وروي عن

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

أبي جعفر ﴿تذكرون﴾ بالتاء وإدغام التاء في الذال. وروي عن أبي حيوة ﴿يذكرون﴾ بياء الغيبة وشدّ الذال.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أو من أعم الأحوال؛ أي: وما يذكرون لعلة من العلل، أو في حال من الأحوال إلا بأن يشاء الله أو حال أن يشاء الله ذكرهم. وهذا تصريح بأنّ أفعال العبد بمشيئة الله لا بإرادة نفسه.

والمعنى[1]: أي وما يذكرون هذا القرآن، ولا يتعظون بعظاته، ويعملون بما فيه، إلا أن يشاء الله أن يذكروه، فلا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً إلا أن يعطيه الله القدرة على فعله؛ إذ لا يقع في ملكه سبحانه إلا ما يشاء، كما قال سبحانه: وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.

ثم ذكر ما هو كالعلة لما سلف، فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾؛ أي: هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه، والعمل بطاعاته؛ أي: حقيق بأن يتّقى عقابه ويؤمن به ويطاع. فالتقوى مصدر من المبنيّ للمفعول. ﴿وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾؛ أي: وهو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة، فيغفر ذنوبهم. وقيل: هو أهل أن تُتَّقى محارمه، وأهل أن يغفر لمن اتقاه.

وعن أنس رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية، فقال: «قال ربكم: أنا أهل أن أُتّقى فلا يجعل معي إله، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً، فأنا أهل أن أغفر له». أخرجه أحمد، والدارميّ، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي، وقال: حديث غريب، وفي إسناده سهيل بن عبد الله القطيعي، وليس بالقوي في الحديث، وقد تفرّد به عن ثابت، والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾.

---

(١) الشوكاني.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيّ﴾ منادى نكرة مقصودة، والهاء: حرف تنبيه، ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ صفة لأيّ، وجملة النداء مستأنفة. ﴿قُمْ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمّد، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿فَأَنذِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أنذر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿قُمْ﴾، ﴿وَرَبَّكَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ربَّك﴾ مفعول مقدم لـ ﴿كبّر﴾، ﴿فَكَبِّرْ﴾ ﴿الفاء﴾: زائدة، ﴿كبر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿قُمْ﴾. وقال ابن جنّي: ﴿الفاء﴾: في ﴿فَكَبِّرْ﴾ زائدة كالفاء في قولك: زيداً فاضرب؛ أي: زيداً اضرب. وقال الزجاج: الفاء واقعة في جواب شرط مقدر يقتضيه السياق كأنّه قيل: مهما يكن من شيء فلا تدع تكبيره. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ثيابك﴾ مفعول مقدم، ومضاف إليه و﴿الفاء﴾: إما زائدة؛ أو رابطة كما تقدم آنفاً، ﴿طهر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ﴿كبر﴾. ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿الرجزَ﴾ مفعول مقدم، ﴿فَٱهْجُرْ﴾ ﴿الفاء﴾: تقدم الكلام فيها، ﴿اهجر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ما قبله، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ ناهية، ﴿تَمْنُن﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ فعل مضارع، مجزوم بالطلب السابق، أو على البدليّة من ﴿تَمْنُن﴾، والتقدير على جعله جواباً للنهي؛ أي: إنك إن لا تمنن بعطائك تجد ثواباً كثيراً على عطيّتك لسلامة ذلك من الإبطال بالمنّ على حدّ قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾. ووجه الإبدال أنه نظير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩﴾. وقُرىء بالرفع، والجملة حينئذٍ في محل النصب حال من فاعل ﴿تَمْنُن﴾. ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لربك﴾ متعلق بـ ﴿اصبر﴾، ﴿فاصبر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ما قبله، والفاء الكلام فيها مثل ما تقدم.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، وفيها معنى التسبّب والعلّة، كأنّه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه مغبّة أذاهم وتلقى فيه عاقبة صبرك. ﴿إذا﴾

ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿نُقِرَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بما يدل عليه الجواب الآتي، والتقدير: فإذا نقر في الناقور اشتدّ الأمر وعسر على الكافرين. ﴿فَذَٰلِكَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً، ﴿ذلك﴾ مبتدأ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يوم﴾ ظرف زمان في محل الرفع، بدل من اسم الإشارة، مبنيّ على الفتح لإضافته إلى المبني، ﴿يَوْمٌ﴾ مضاف، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل الجرّ مضاف إليه، مبني بسكون مقدّر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلّص من التقاء الساكنين، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة؛ أي: يوم إذ نفخ في الصور. ﴿يَوْمٌ﴾ خبر المبتدأ، ﴿عَسِيرٌ﴾ صفة لـ ﴿يَوْمٌ﴾، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق بـ ﴿عَسِيرٌ﴾، ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ نعت ثان لـ ﴿يَوْمٌ﴾، والجملة الاسميّة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها ما الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة.
﴿ذَرْنِي﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، ونون وقاية ومفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ ﴿الواو﴾: واو المعيّة و﴿من﴾ مفعول معه، ويجوز أن تكون الواو عاطفة، و﴿من﴾ معطوفة على المفعول في ﴿ذَرْنِي﴾، وجملة ﴿خَلَقْتُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: خلقته، ﴿وَحِيدًا﴾ حال من العائد المحذوف، أو من الضمير المنصوب في ﴿ذَرْنِي﴾ أو من الضمير في ﴿خلقت﴾، والأول أولى؛ لأنّ المراد به الوليد بن المغيرة؛ لأنّه كان يزعم أنه وحيد قومه كما مر. ﴿وَجَعَلْتُ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿خَلَقْتُ﴾، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿جعلتُ﴾، وهو في محل المفعول الثاني لـ ﴿جعل﴾، ﴿مَالًا﴾ هو المفعول الأول، ﴿مَّمْدُودًا﴾ صفة ﴿مَالًا﴾، ﴿وَبَنِينَ﴾ معطوف على ﴿مَالًا﴾، ﴿شُهُودًا﴾ نعت لـ ﴿بنين﴾، ﴿وَمَهَّدتُّ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿جعلتُ﴾، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿مهدت﴾، ﴿تَمْهِيدًا﴾ مفعول مطلق لـ ﴿مهدت﴾، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿يَطْمَعُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿جعلت﴾، ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿أَزِيدَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، منصوب بـ ﴿أن﴾ المصدرية، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، تقديره: ثم يطمع في الزيادة، والجار والمجرور المحذوف متعلق بـ ﴿يطمع﴾.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ

﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع وزجر له لقطع رجائه وطمعه وتهالكه، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الردع والزجر، واسم ﴿كَانَ﴾ ضمير يعود على الوليد بن المغيرة، ﴿لِأَيَٰتِنَا﴾ متعلق بـ ﴿عَنِيدًا﴾، و﴿عَنِيدًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ السين: حرف استقبال، ﴿أرهقه﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول، ﴿صَعُودًا﴾ مفعول ثاني لتضمين ﴿أرهقه﴾ معنى أكلّفه. والصعود في اللغة: العقبة الشاقّة. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿فَكَّرَ﴾ خبره، ﴿وَقَدَّرَ﴾ معطوف على ﴿فَكَّرَ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الإرهاق، ﴿فَقُتِلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قتل﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعل مستتر، تقديره: هو، معناه: لعن. والجملة معطوفة على ﴿فَكَّرَ﴾. ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام في محل النصب على الحال من فاعل ﴿قَدَّرَ﴾، ﴿قَدَّرَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة جملة تعجبية لا محل لها من الإعراب، والمقصود من هذا الاستفهام توبيخه والاستهزاء به والتعجيب من تقديره. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، وأتى بها للدلالة على أنَّ هذه الجملة أبلغ من الجملة الأولى، فهي للتفاوت في الرتبة، وهي مؤكّدة لنظيرتها المتقدمة، فالتكرار للتأكيد، ﴿قُتِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل مستتر معطوف على نظيرتها المتقدمة، وجملة ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ مؤكدة أيضاً لنظيرتها المتقدمة، فتلخص أن جملتي ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ متحدتان، وإنما كرر للتأكيد.

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿نَظَرَ﴾ فعل ماض وفاعل مستر، معطوف على ما قبله، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، ﴿عَبَسَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على ما قبله، ﴿وَبَسَرَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على ﴿عَبَسَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب، ﴿أَدْبَرَ﴾ فعل ماض، معطوف على ﴿عَبَسَ﴾، ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ معطوف على ﴿أَدْبَرَ﴾، ﴿فَقَالَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿قال﴾ فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿هَٰذَآ﴾ مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿سِحْرٌ﴾ خبر، وجملة ﴿يُؤْثَرُ﴾ صفة لـ ﴿سِحْرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿هَٰذَآ﴾

مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ خبر والجملة أيضاً في محل النصب مقول قال ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ السين حرف استقبال، ﴿أصليه﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، ﴿سَقَرَ﴾ مفعول ثان، والجملة بدل من قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَآ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر تقديره: ﴿هو﴾ يعود على ﴿مَآ﴾، ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر لـ ﴿ما﴾ الاستفهامية؛ أي: أي شيء أعلمك والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿مَا سَقَرُ﴾ ﴿ما﴾ اسم استفهام مبتدأ، و﴿سَقَرَ﴾ خبره، والجملة سادّة مسدّ المفعول الثاني لـ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ المعلقة عن العمل بالاستفهام، وقد مرّ نظيره في الحاقة. ﴿لَا﴾ نافية، ﴿تُبْقِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿سَقَرَ﴾، ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ معطوف على ﴿لا تبقى﴾، ومفعولاهما محذوفان تقديرهما: لا تبقي لحماً ولا تذر عظماً أو غير ذلك من التقادير التي مرت لك، وجملة ﴿لا تبقي﴾ مستأنفة، أو في محل النصب حال من ﴿سَقَرَ﴾، والعامل فيها معنى التهويل والتعظيم لأمرها، لأن الاستفهام بقوله: ﴿مَا سَقَرُ﴾ للتعظيم، فالمعنى: استعظموا ﴿سَقَرَ﴾ حال كونها ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾. ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي لوّاحة، ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ متعلق بـ ﴿لَوَّاحَةٌ﴾، والجملة حال ثانية من ﴿سَقَرَ﴾، وقرىء ﴿لواحةً﴾ بالنصب على أنه حال من ﴿سَقَرَ﴾ أو من الضمير المستكن في ﴿لَا تُبْقِى﴾ أو من الضمير في ﴿لا تذر﴾. واختار الزمخشري نصبه على الاختصاص. ﴿عَلَيْهَا﴾ خبر مقدم، ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ مبتدأ مؤخر في محل الرفع مبني على فتح الجزئين، بني الجزء الأول لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً لافتقاره إلى الجزء الثاني، وبني الجزء الثاني لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً لتضمّنه معنى حرف العطف، وإنما حركا ليعلم أن لهما أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة فتحة للخفة مع ثقل التركيب. والجملة الاسمية في محل النصب حال ثالثة أو مستأنفة.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾ نافية، ﴿جَعَلْنَآ﴾ فعل وفاعل، ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ مفعول أول ومضاف إليه، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾ مفعول ثان، والجملة مستأنفة، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول

أوّل، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿فِتْنَةً﴾ مفعول ثان على حذف مضاف؛ أي: سبب فتنة. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق بـ ﴿فِتْنَةً﴾، أو صفة لها، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل، ﴿يستيقن﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام ﴿كي﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جَعَلْنَآ﴾ الثاني، وقيل: متعلق بمحذوف تقديره: فعلنا ذلك ليستيقن الذين أوتوا الكتاب. ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ فعل ماض ونائب فاعل ومفعول ثان، والجملة صلة الموصول، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ صلة الموصول، ﴿إِيمَـٰنًا﴾ مفعول به، ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يزداد﴾، ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ فعل ونائب فاعل ومفعول ثان، صلة الموصول، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام كي، معطوف على ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾، ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾ خبر مقدم، ﴿مَّرَضٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول، ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ معطوف على الموصول، ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿ذا﴾ اسم موصول في محل الرفع خبر، وجملة ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف؛ أي: أراده الله. والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ ﴿يقول﴾، ﴿بِهَـٰذَا﴾ متعلق بـ ﴿أَرَادَ﴾، ﴿مَثَلًا﴾ تمييز لـ ﴿هذا﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف، والتقدير: يضلّ الله إضلالاً مثل ذلك، ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف؛ أي: من يشاء إضلاله، ﴿وَيَهْدِى﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُضِلُّ﴾، ﴿مَن﴾ مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلته، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾ نافية، ﴿يَعْلَمُ﴾ فعل

مضارع، ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾ مفعول به، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة في محل الرفع فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿هِيَ﴾ ضمير منفصل في محل الرفع مبتدأ، والضمير يعود إلى ﴿سَقَرَ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ﴿ذِكْرَىٰ﴾ خبر ﴿للبشر﴾ متعلق بـ ﴿ذِكْرَىٰ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يعلم﴾، ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر، ﴿وَالْقَمَرِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جرّ وقسم، ﴿القمرِ﴾ مقسم به مجرور بواو القسم الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالقمر، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَاللَّيْلِ﴾ جار ومجرور متعلق بفعل قسم محذوف، والتقدير: وأقسم بالليل، ﴿إذ﴾ ظرف لما مضي متعلق بفعل القسم المحذوف، وجملة ﴿أَدْبَرَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿وَالصُّبْحِ﴾ مجرور بواو القسم، متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالصبح، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بفعل القسم، وجملة ﴿أَسْفَرَ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾. ﴿إِنَّهَا﴾ ناصب واسمه، ﴿لَإِحْدَى﴾ اللام: حرف ابتداء، ﴿إحدىٰ الكبرِ﴾ خبر ﴿إنّ﴾ والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿نَذِيرًا﴾ حال من ﴿إحدىٰ الكبر﴾، ﴿لِلْبَشَرِ﴾ متعلق بـ ﴿نَذِيرًا﴾، ﴿لِمَن شَاءَ﴾ جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿لِلْبَشَرِ﴾، وجملة ﴿شَاءَ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿مِنكُمْ﴾ حال من فاعل ﴿شَاءَ﴾، ﴿أَنْ﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَنْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ معطوف على ﴿يَتَقَدَّمَ﴾، وجملة ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿شَاءَ﴾. أي: لمن شاء منكم تقدّمه إلى الخير أو تأخره عنه.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مبتدأ ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿رَهِينَةٌ﴾، وجملة ﴿كَسَبَتْ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿رَهِينَةٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ مستثنى متصل، أو منقطع على الخلاف المذكور عندهم، منصوب، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ حال من ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم كائنون في جنات، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة إما حال

ثانية، أو خبر ثان للمبتدأ المحذوف، ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ متعلق بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، وجملة قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، تقديره: يتساءلون عن المجرمين حال كونهم قائلين لهم: ما سلككم أيّها المجرمون في نار سقر؟ ﴿مَا﴾ اسم استفهام للاستفهام التوبيخيّ المضمّن للتعجب من حالهم في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿سَلَكَكُمْ﴾ من الفعل والفاعل المستتر والمفعول في محل الرفع خبر عن ﴿ما﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية في محل النصب مقول للقول المحذوف ﴿فِى سَقَرَ﴾ متعلق بـ ﴿سَلَكَكُمْ﴾.

﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لَمْ نَكُ﴾ ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم، ﴿نَكُ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، وعلامة جزمه السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف، لأنّها تحذف من مضارع كان المجزوم لكثرة استعمالها إذا لم يلها ساكن، واسمها ضمير مستتر تقديره: نحن. ﴿مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ خبرها، والجملة الناسخة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿وَلَمْ نَكُ﴾ جازم وفعل ناقص واسمه المستتر، وجملة ﴿نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ من الفعل والفاعل المستتر والمفعول في محل النصب خبر ﴿نكون﴾، وجملة ﴿نكون﴾ في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿وَكُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿نَخُوضُ﴾ خبره، والجملة الناقصة معطوفة على ما قبلها أيضاً، ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ مع ظرف زمان باعتبار التكلم متعلق بـ ﴿نَخُوضُ﴾، ﴿ٱلْخَآئِضِينَ﴾ مضاف إليه، ﴿وَكُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه، معطوف على ما تقدم، وجملة ﴿نُكَذِّبُ﴾ خبره، ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ متعلق بـ ﴿نُكَذِّبُ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جرّ وغاية، والغاية للأمور الأربعة الآنفة، ﴿أَتَىٰنَا﴾ فعل ماض ومفعول به مقدم في محل النصب بأن المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الجارة، ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية مع أنْ المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بمعنى إلى، تقديره: إلى إتيان اليقين والموت إيّانا، الجار والمجرور تنازع فيه كل من الأكوان الأربعة السابقة. ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿تَنفَعُهُمْ﴾ فعل مضارع ومفعول به، ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ فاعل، ومضاف إليه والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالُواْ﴾.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿ما﴾ اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، ﴿لَهُمْ﴾ خبر لـ ﴿ما﴾ الاستفهامية، ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾ متعلق بـ ﴿مُعْرِضِينَ﴾، و﴿مُعْرِضِينَ﴾ حال من ضمير ﴿لهم﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، ﴿حُمُرٌ﴾ خبره، ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ صفة لـ ﴿حُمُرٌ﴾، والجملة التشبيهية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿مُعْرِضِينَ﴾ فهي حال متداخلة، ﴿فَرَّتْ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿حُمُرٌ﴾، ﴿مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ متعلق بـ ﴿فَرَّتْ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لـ ﴿حُمُرٌ﴾. ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وانتقال عن محذوف، هو جواب الاستفهام السابق، كأنّه قيل: فلا جواب لهم عن هذا السؤال؛ أي: لا سبب لهم في الإعراض بل يريد إلخ. ﴿يُرِيدُ﴾ فعل مضارع، ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ﴾ فاعل، ومضاف إليه، ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة ﴿ٱمْرِئٍ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿أَن﴾ حرف نصب، ﴿يُؤْتَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بـ ﴿أَن﴾، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ﴾، ﴿صُحُفًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿يُؤْتَىٰ﴾، ﴿مُّنَشَّرَةً﴾ صفة ﴿صُحُفًا﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب، على أنه مفعول به لـ ﴿يُرِيدُ﴾، تقديره: بل يريد كلّ امرىء منهم إيتاء صحف منشرة.

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر عن الإرادة المذكورة، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وانتقال لبيان سبب هذا التعنّت، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به والجملة الإضرابية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع وزجر عن الإعراض، ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه؛ أي: القرآن. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما ﴿شَآءَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، ومفعول ﴿شَآءَ﴾ محذوف تقديره: فمن شاء أن

يذكره، ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ فعل وفاعل مستتر ومفعول به في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ على كونه جواب شرط لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿يَذْكُرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الشرطية، ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء من أعمّ العلل، أو من أعمّ الأحوال، كما مرّ. ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ناصب وفعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء، ولكنه على تقدير مضاف، والتقدير: وما يذكرون في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله ذكرهم، أو لعلة من العلل إلا لعلة مشيئة الله ذكرهم. ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة، والغيبة في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ خبره ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ معطوف على ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾؛ أي: يا أيها الذي لبس الدثار، وهو ما فوق الشعار الذي يلي الجسد، وأصله: المتدثّر، أدغمت التاء بعد قلبها دالاً في الدال، كما مر في المزمل. ﴿قُمْ﴾ من مضجعك واترك التدثّر بالثياب، واشتغل بهذا المنصب الذي نصبك الله له، وهو الإنذار اهـ خطيب.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③﴾؛ أي: خصّص ربك بالتكبير والتعظيم عما لا يليق به من النقائص والشركاء. ﴿وَثِيَابَكَ﴾ الياء في ﴿ثيابك﴾ مبدلة من واو؛ لأنّ أصله: ثواب، فأبدلت الواو ياء لوقوعها إثر كسرة. ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ بكسر الراء وضمّها بمعنى وحد، يراد بهما الأصنام والأوثان. ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ فاعول من النقر، وهو الصوت كالجاسوس من التجسّس، والمراد به هنا الصور، وهو القرن. ﴿شُهُودًا﴾ جمع شاهد، مثل: قاعد وقعود، وشهده كسمعه: حضره؛ أي: بنين حضوراً معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم، لا يفارقونه للتصرّف في عمل أو تجارة، كما مرّ.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ⑭﴾ التمهيد في الأصل: التسوية والتهيئة، ويتجوز به عن بسط المال والجاه. ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ⑮﴾ أصله: أزيد بوزن أفعل، نقلت حركة الياء إلى الزاي فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مدّ. ﴿لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ يقال: عند إذا

خالف الحق ورده عارفاً به، فهو عنيد وعاند، يعني: منكراً. والمعاندة: المفارية والمجانبة والمعارضة بالخلاف كالعناد. والعنيد هنا بمعنى المعاند كالجليس والأكيل والعشير بمعنى المجالس والمؤاكل والمعاشر. ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ قال الراغب: رهقه الأمر إذا غشيه بقهر، يقال: رهقته وأرهقته مثل: ردفته وأردفته وتبعته وأتبعته، ومنه: أرهقت الصلاة؛ أي: أخرتها حتى غشي وقت الأخرى. والصعود: العقبة الشاقّة، ويستعار لكلّ مشاق. والمعنى: سأكلّفه كرهاً بدل ما يطمعه من الزيادة ارتقاء عقبة شاقّة المصعد، كما مرّ. ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ من التفكير بمعنى التفكر والتأمل.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿عَبَسَ﴾ من باب جلس، وبسر من باب دخل كما في «المختار» فيهما. وفي «السمين»: قوله: ثمّ عبس يعبس عبسا وعبوساً؛ أي: قطب وجهه، «يقال: قطب بين عينيه إذا جمع، وبابه: ضرب وجلس». والعبس: ما يبس في أذناب الإبل من البعر والبول، ويقال: بسر يبسر بسراً وبسوراً إذا قبض ما بين عينيه كراهية للشيء، واسودّ وجهه، منه يقال: وجه باسر؛ أي: منقبض أسود، وأهل اليمن يقولون: بسر المراكب، وأبسر إذا وقف، وأبسرنا؛ أي: صرنا إلى البسور. وقال الراغب: البسر استعجال الشيء قبل أوانه، نحو: بسر الرجل حاجته طلبها في غير أوانها، وماء بسر؛ أي: متناول من غدير قبل سكونه، ومنه: قيل للذي لم يدرك من الثمر بسر.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يقال: أثرت الحديث أثره أثراً إذا حدّث به عن قوم في آثارهم؛ أي: بعد ما ماتوا، هذا هو الأصل ثمّ كان بمعنى الرواية عمّن كان، وحديث مأثور؛ أي: منقول ينقله خلف عن سلف، وأدعية مأثورة؛ أي: مروية عن الأكابر. ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: أدخله جهنم، لما قال في «الصحاح»: سقر اسم من أسماء النار، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث. ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: محرقة لظاهر الجلد، وهي بناء مبالغة، وفيها معنيان، كما مرّ أحدهما من لاح يلوح؛ أي: ظهر؛ أي: إنها تظهر للبشر، وثانيهما وهو الأرجح أنّها من لوّحه؛ أي: غيّره وسوّده. والبشر: جمع بشرة كثمر وثمرة، وهو ظاهر الجلد. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أصله: يزتيد بوزن يفتعل، أبدلت تاء الافتعال دالاً وأبدلت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أصله: يرتَيبْ بوزن يفتعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها

بعد فتح. ﴿أُوتُوا﴾ أصله: أؤتيوا بوزن أفعلوا، استثقلت الضمّة على الياء فحذفت، فلما سكنت حذفت لالتقاء الساكنين. ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾؛ أي: جموع خلقه، جمع جند بالضمّ، وهو العسكر، وكلّ مجتمع وكلّ صنف من الخلق على حدة. ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. ﴿وَٱلصُّبْحِ﴾ قال في «القاموس»: الصبح: الفجر أو أوّل النهار، والجمع أصباح. وفي «المفردات»: الصبح والصباح: أوّل النهار، وهو وقت ما أحمرّ الأفق بحاجب الشمس. ﴿إِذَآ أَسْفَرَ﴾؛ أي: ضاء وانكشف. قال الراغب: السفر: كشف الغطاء، ويختصّ ذلك بالأعيان، نحو: سفر العمامة عن الرأس والخمار عن الوجه، والأسفار يختص باللون، نحو: والصبح إذا أسفر؛ أي: أشرق لونه ووجهه. وفي «قوت القلوب»: الفجر الثاني هو انشقاق شفق الشمس، وهو بريق بياضها الذي تحت الحمرة، وهو الشفق الثاني على ضدّ غروبها؛ لأن شفقها الأول من العشاء هو الحمرة بعد الغروب وبعد الحمرة البياض، وهو الشفق الثاني من أوّل الليل، وهو آخر سلطان شعاع الشمس، وبعد البياض سواد الليل وغسقه، ثم ينقلب ذلك على الضدّ، فيكون بدء طلوعها الشفق الأول وهو البياض، وبعده الحمرة وهو شفقها الثاني، وهو أوّل سلطانها من آخر الليل وبعده طلوع قرص الشمس. فالفجر هو انفجار شعاع الشمس من الفلك الأسفل إذا ظهرت على وجه أرض الدنيا يستر عينها الجبال والبحار والأقاليم المشرفة العالية، ويظهر شعاعها منتشراً إلى وسط الدنيا عرضاً مستطيراً انتهى.

﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ والكبر: جمع الكبرى، جعلت ألف التأنيث كتائه وألحقت بها، فكما جمعت فعلة على فعل كركبة وركب جمعت فعلى عليها، وإلا ففعلىٰ لا تجمع على فعل، بل على فعالىٰ كحبلىٰ وحبالىٰ. ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: لبني آدم، سمّوا بشراً لبدوّ بشرتهم؛ أي: خلوّها عن الشعر. ﴿بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ قال الراغب: ﴿رَهِينَةٌ﴾ إنّه فعيل بمعنى فاعل؛ أي: ثابتة مقيمة. وقيل بمعنى مفعول؛ أي: كلّ نفس مقامة في جزاء ما قدّم من عملها، ولما كان الرهن يتصور من حبسه أستعير ذلك للمحتبس أي شيء كان. ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ سمّوا بهم، لأنهم يأخذون كتبهم بأيمانهم. ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ من سلكت الخيط في الإبرة سلكاً؛ أي: أدخلته فيها، فهو من السلك بمعنى الإدخال، لا من السلوك بمعنى الذهاب. ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أصله: نكون، هذا قبل نقل حركة الواو إلى الكاف؛ لأنّ الأصل:

نكون بوزن نفعل، فلما جزم الفعل المضارع الصحيح الآخر سكّن آخره، فصار نكون فالتقى ساكنان، فحذفت الواو، فصار نكن بوزن نفل، ثم حذفت النون حذفاً غير مطرد، فقيل: ﴿نَكُ﴾. وهذه النون يجوز حذفها إلا إذا اتصل بها ضمير نصب، أو كان بعدها ساكن، نحو: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. قال ابن مالك:

وَمِـنْ مُـضَـارِعٍ لِـكَـانَ مُـنْـجَـزِمْ تُـحْـذَفُ نُـونٌ وَهْـوَ حَـذْفٌ مَـا ٱلْـتُـزِمْ

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: نخالط أهل الباطل في باطلهم، فكلما غوى غاوٍ غوينا معه. ﴿كنّا﴾ أصل كان: كون بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح فصار كان ثم أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك «نا» فسكن آخره لذلك فالتقى ساكنان الألف والنون آخر الفعل فحذفت الألف ثم ألغيت حركة فاء الكلمة، وعوض عنها حركة مناسبة لعين الفعل المحذوفة لتدل على العين المحذوفة، هل هي واو أو ياء، فلمّا ضمّت الفاء التي هي الكاف علم أن العين المحذوفة واو لمناسبة الضمّة للواو، وهكذا كلّ أجوف واويّ العين أسند إلى ضمير رفع متحرك. ﴿نَخُوضُ﴾ أصله: ﴿نخوض﴾ بوزن نفعل، نقلت حركة الواو إلى الخاء فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مدّ. ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ فيه إعلال بالإبدال، أصله: الخاوضين من خاض يخوض، أبدلت الواو همزة في الوصف حملاً له على فعله خاض في الإعلال، حيث قلبت واوه ألفا لتحركها بعد فتح. ﴿أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أصله: أتينا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾؛ أي: من أسد، وهي فعولة من القسر، وهو القهر والغلبة، لأنّه يغلب السباع ويقهرها. ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ قال في «القاموس»: المرء مثلثة الميم: لا الإنسان أو الرجل، ولا يجمع من لفظه، ومع ألف الوصل ثلاث لغات: فتح الراء دائماً وضمها دائماً وكسرها دائماً. ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة بمعنى الكتاب. ﴿مُّنَشَّرَةً﴾؛ أي: منشورة؛ أي: غير مطوية؛ أي: طرية لم تطو بل تأتينا وقت كتابتها، وهذا من زيادة تعنّتهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

منها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾ لإفادة الاختصاص؛ أي: وخصّص ﴿ربّك﴾ بالتكبير، وفيه رعاية الفواصل، كما في نظائره من الآي.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿عَسِيرٌ﴾ و﴿يَسِيرٍ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا ﴿١٤﴾﴾.

ومنها: تقديم الجارّ على متعلقه في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ للدلالة على التخصيص، فتخصيص العناد بها مع كونه تاركاً للعناد في سائر الأشياء يدل على غاية الخسران.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصليّة في قوله: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾؛ لأن الصعود حقيقة في العقبة الشاقّة المصعد فاستعير لكل مشاق.

ومنها: الإطناب بتكرار الجملة في قوله: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ لإفادة التأكيد والمبالغة في التشنيع.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾، لأنه تأكيد لما قبله، ولذلك خلي من العاطف.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ لإفادة التهويل والتفظيع منها.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، لأنّه تأكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان، فإن نفي ضد الشيء بعد إثبات وقوعه أبلغ في الإثبات كما مرّ.

ومنها: التعبير عن الذين آمنوا باسم الفاعل في قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة من الحدوث للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم في ذلك.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، وبين ﴿يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾.

ومنها: تخصيص الإنس في قوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ مع أنها تذكرة للجن أيضاً، لأنهم هم الأصل في القصد بالتذكرة.

ومنها: المقابلة بين ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾، وبين ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ تفخيماً لشأنها بأنها بلغت غاية لا يكتنه كنهها ولا يوصف وصفها.

ومنها: تأخير قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ عمّا قبله مع كونه أعظم جناياتهم؛ إذ هو تكذيب بالقيامة وإنكارها كفر، والأمور الثلاثة المتقدمّة فسق لتفخيم هذه الجناية، وللترقّي من القبيح إلى الأقبح، ولبيان كون تكذيبهم به مقارناً لسائر جناياتهم المعدودة قبله مستمرًّا إلى آخر عمرهم، كما مرّ.

ومنها: أسلوب التقريع والتوبيخ بطريق الاستفهام في قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾، حيث شبههم بالحمر المستنفرة في إعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشرادهم عنه.

وفي ذلك مذمّة ظاهرة وتهجين لحالهم وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل، ولا ترى مثل نفار حمار الوحش وإطرادها في العدو إذا خافت من شيء.

ومنها: الإيجاز بحذف بعض الجمل في قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: قائلين لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾، فحذف اعتماداً على فهم المخاطبين.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ تعظيماً لشأنه وتفخيماً له؛ أي: كلّا إن هذا القرآن تذكرةٌ بليغةٌ كافيةٌ.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما في هذه السورة من الموضوعات

١ ـ وصفه ﷺ بالتدثّر، وأمره بالإنذار والتكبير والطهارة واجتناب الأوثان والصبر.

٢ ـ التصريح بعسر يوم القيامة على الكافرين، والتعريض بيسره على المؤمنين.

٣ ـ ذكر قصة الوليد بن المغيرة مع النبي ﷺ وتهديده بعذاب سقر.

٤ ـ ذكر كون أصحاب النار المدبرين لها ملائكة وبيان عدتهم.

٥ ـ جعل عدتهم فتنة للكافرين وزيادة لإيمان المؤمنين.

٦ ـ بيان كون الإضلال والهداية بيد الله سبحانه وتعالى.

٧ ـ بيان كثرة جنود الله تعالى حتى لا يعلم عدّتهم أحد إلا الله سبحانه.

٨ ـ بيان قسمه سبحانه بما شاء من مخلوقاته.

٩ ـ بيان كون كلّ نفس مرهونة بعملها.

١٠ ـ بيان تساؤل أصحاب اليمين عن أحوال المجرمين توبيخاً لهم مع بيان جواب المجرمين عن سؤالهم.

١١ ـ تشبيه المجرمين بالحمر المستنفرة في إعراضهم عن القرآن وشرادهم عن استماعه.

١٢ ـ بيان أن الشفاعة لا تنفع الكافرين.

١٣ ـ بيان أن القرآن تذكرة لمن ذكره[١].

والله أعلم

* * *

---

(١) تمّ الفراغ من تفسير هذه السورة في الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء الثامن عشر من شهر الربيع الآخر من شهور سنة ١٨/ ٤/ ١٤١٦ هـ ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة القيامة

سورة القيامة مكّية بلا خلاف، نزلت بعد سورة القارعة. وأخرج[1] ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة القيامة وفي لفظ سورة لا أقسم بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: أنزلت سورة لا أقسم بمكة.

وآيها: تسع وثلاثون أو أربعون آية. وكلماتها[2]: مئة وتسع وتسعون كلمة. وحروفها: ستّ مئة واثنان وخمسون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها[3]: أنه ذكر في السورة السابقة قوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾، وكان عدم خوفهم منها لإنكارهم للبعث، وذكر هنا الدليل عليه بأتمّ وجه، فوصف يوم القيامة وأهواله وأحواله. ثم ما قبل ذلك من خروج الروح من البدن، ثمّ ما قبل ذلك من مبدأ الخلق.

عبارة أبي حيان[4]: مناسبتها لما قبلها: أنَّ في ما قبلها ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾، وفيها كثير من أحوال القيامة، فذكر هنا يوم القيامة وجملاً من أحوالها انتهى.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال ابن حزم: سورة القيامة جميعها محكم إلا قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾، نسخ معناها لا لفظها بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ الآية (٦) من سورة الأعلى اهـ.

والله أعلم

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

(٤) البحر المحيط.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ (٤) بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ (٥) يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (٣٥) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾.

المناسبة

تقدم لك آنفاً بيان المناسبة بين هذه السورة، والتي قبلها، ثم اعْلمْ أن الله سبحانه أقسم بعظمة القيامة، وبالنفس الطموحة إلى الرقي الجانحة إلى العلوّ التي لا تصل إلى مرتبة إلا طلبت ما فوقها، ولا إلى حال إلا أحبّت ما تلاها. إن هناك حالاً أخرى للنفس تنال فيها رغائبها في عالم أكمل من هذا العالم عالم السعادة الروحية للمطيعين، وعالم الشقاء للجاحدين المعاندين. وهذا القسم، وأمثاله لم يطرق آذان العرب من قبل، فهم كانوا يقسمون بالأب والقمر والكعبة ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أن المنكر للقيامة والبعث معرض عن

---

(١) المراغي.

آيات الله منكر لعظيم قدرته، وأنه سائر في غلوائه غير مكترث بما يصدر منه، أردفه بذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقنها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها ليظهر بذلك تباين حال الفريقين من يرغب في تحصيل آيات الله، ومن يرغب عنها، وبضدّها تتبين الأشياء.

ثم عاد إلى ذكر السبب في إنكار البعث، وهو حب بني آدم للعاجلة وتركهم للآخرة، ثم ذكر ما يكون في ذلك اليوم من استبشار المؤمنين، وبسور المشركين، وملاقاتهم للشدائد والأهوال، وظنّهم أن ستتراكم عليهم الدواهي التي تكسر فقار ظهورهم.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ. . .﴾ إلى آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه لمّا ذكر أحوال يوم القيامة، وما يرى فيها من عظيم الأهوال، ووصف سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء. بين أن الدنيا لها نهاية ونفاد، ثم تكون مرارة الموت وآلامه، وأن الكافر قد أضاع الفرصة في الدنيا، فلا هو صدق بأوامر دينه، ولا هو أدّى فرائضه، ثم أقام الدليل على صحة البعث من وجهين:

١ ـ أنه لا بد من الجزاء على صالح الأعمال وسيّئها، وثواب كل عامل بما يستحق، وإلا تساوى المطيع والعاصي، وذلك لا يليق بالحكيم العادل جلّ وعلا.

٢ ـ أنّه كما قدر على الخلق الأول وأوجد الإنسان من مني يمنى فأهون عليه أن يعيده خلقاً آخر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ. . .﴾ الآيات، سبب نزولها: ما روي أن عدي بن أبي ربيعة سأل رسول الله ﷺ عن يوم القيامة متى يكون؟ وما حاله وما أمره؟. فأخبره به فقال: لو عاينت ذلك اليوم. . لم أصدّقك، ولم أومن بك، أو يجمع الله هذه العظام. فنزلت هذه الآيات، ولهذا كان النبيّ ﷺ يقول: «اللهم اكفني شر جاري السوء» يعني: عديَّ بن ربيعة والأخنس بن شريق».

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري بسنده قال: حدثنا سعيد بن جبير عن ابن

عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدّةً، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركها لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرّك شفتيه. فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾، قال: جمعه له في صدره ويقرؤه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه. والحديث أخرجه مسلم والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي، وأحمد، وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه النسائي بسنده عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ أشيءٌ قاله رسول الله ﷺ من قبل نفسه أم أمره الله به؟ قال: بل قاله رسول الله لأبي جهل من قبل نفسه، ثم أنزله الله عزّ وجلّ. وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم، أفيعجز كلّ عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى الله تعالى إلى رسوله أن يأتي أبا جهل فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ ﴿لا﴾ صلة[1] لتوكيد القسم، وما كان لتوكيد مدخوله لا يدل على النفي، وإن كان في الأصل للنفي، قال الشاعر:

تَـذَكَّـرْتُ لَـيْـلَـىٰ فَـاْعْـتَـرَتْـنِـيْ صَـبَـابَـةٌ   وَكَـادَ ضَـمِـيْـرُ ٱلْـقَـلْـبِ لا يَـتَـقَـطَّـعُ

أي: يتقطع. وزيادتها في كلام العرب كثير كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ يعني: أن تسجد. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. وقيل: هي للنفي لكن لا لنفي نفس الإقسام بل لنفي ما ينبىء هو عنه من إعظامه المقسم به وتفخيمه، كأن معنى لا أقسم بكذا لا أعظمه بإقسامي به حق إعظام، فإنه حقيق بأكثر من ذلك

---

(١) روح البيان.

وأكثر. أو لنفي كلام معهود قبل القسم ورده، كأنهم أنكروا البعث فقيل: لا؛ أي: ليس الأمر كذلك ثم قيل: أقسم بيوم القيامة كقولك: لا والله إن البعث حق. وأما ما قيل: من أن المعنى نفي الإقسام لوضوح الأمر، فيأباه تعيين المقسم به وتفخيم شأن القسم به. والقول الأول هو أرجح الأقوال هنا.

قال المغيرة بن شعبة: يقولون: القيامة القيامة، وإنما قيامة أحدهم موته. وشهد علقمة جنازة فلما دفن قال: أمّا هذا فقد قامت قيامته. ونظمه بعضهم:

خَرَجْتُ مِنَ الدُّنيا وقامَتْ قِيَامَتِي غَداةَ أَقَلَّ الحَامِلُونَ جِنَازَتِي

وقرأ الحسن[1] وابن كثير في رواية عنه، والزهري، وابن هرمز «لأقسم» بدون ألف على أن اللام لام الابتداء، وإقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللوامة، كما أقسم بيوم القيامة، فيكون الكلام في ﴿لا﴾ هذه كالكلام في الأولى، وهذا قول الجمهور. وقال الحسن: أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوّامة. قال الثعلبي: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً. وقال في «عين المعاني»: القسم[2] بالشيء تنبيه على تعظيمه، أو على ما فيه من لطف الصنع وعظم النعمة، وتكرير ذكر القسم تنبيه على أن كلا من المقسم به مقصود مستقل بالقسم. لما أن له نوع فضل يقتضي ذلك. واللوم: عذل الإنسان بنسبة ما فيه لوم، ومعنى ﴿النفس اللوامة﴾ النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره أو تلوم جميع النفس على تقصيرها.

قال الحسن[3]: هي والله نفس المؤمن، لا يُرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا ما أردت بكذا، والفاجر لا يعاتب نفسه. وقال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم فتلوم نفسها على الشر لم فعلته وعلى الخير لم تركته. وقال الفرّاء: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا، وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً قالت: هلا ازددت، وإن كانت عملت سوءاً قالت: ليتني لم أفعل. وعلى هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس، فيكون الإقسام بها حسناً سائغاً. وقيل: اللوامة

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

هي الملومة المذمومة، فهي صفة ذمّ. وبهذا احتج من نفى أن يكون قسماً، إذ ليس لنفس العاصي خطر يقسم به. وقال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله، والأول أولى.

قال الفاشاني[1]: جمع بين القيامة والنفس اللوامة في القسم بهما تعظيماً لشأنهما وتناسباً بينهما؛ إذ النفس اللوامة هي المصدّقة بها المقرة بوقوعها المهيئة لأسبابها، لأنها تلوم نفسها أبداً في التقصير والتقاعد عن الخيرات، وإن أحسنت لحرصها على الزيادة في الخير وأعمال البر تيقنا بالجزاء، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت من بادرة غفلة ونسياناً انتهى. هذا، ودع عنك القيل والقال هنا.

وجواب القسم محذوف دل عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ وهو ليبعثن.

والمعنى: أقسم لك يا محمد بقيام القيامة ولوم النفس اللوامة ليبعثن الخلائق للمجازاة على أعمالهم. والاستفهام في قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ لإنكار الحساب الواقع من الإنسان واستقباحه. والحسبان: الظن، والمراد بالإنسان الجنس، والإسناد إلى الكل بحسب البعض كثير. وقيل: الكافر. و﴿أنّ﴾ مخففة من الثقيلة، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف. والعظام: جمع عظم، وهو قصب الحيوان الذي عليه اللحم. وخص العظام بالذكر؛ لأنها قالب النفس لا يستوي الخلق إلا باستوائها.

والمعنى[2]: أيحسب الإنسان الذي ينكر البعث أن الشأن والحال لن نجمع عظامه البالية، فإن ذلك حسبان باطل، فإنّا نجمعها بعد تشتتها ورجوعها رميماً ورفاتاً مختلطاً بالتراب، وبعد ما نسفتها الرياح وطيرتها في أقطار الأرض وألقتها في البحار لمجازاته بما عمل في الدنيا. وقرأ الجمهور[3] ﴿نَّجۡمَعَ﴾ بالنون، ﴿عِظَامَهُۥ﴾ بالنصب. وقرأ قتادة بالتاء مبنياً للمفعول، و﴿عظامه﴾ بالرفع.

وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما ذكر بعد النفي السابق بقوله: ﴿لن نجمع﴾ وهو الجمع؛ أي: نجمعها حال كوننا ﴿قَٰدِرِينَ﴾ فهو حال مؤكدة من الضمير المستكن في ﴿نَّجۡمَعَ﴾ المقدر بعد بلى. ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ﴾ ونركب ﴿بَنَانَهُۥ﴾؛ أي: أصابعه ومفاصله؛

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

أي: نجمع سلامياته، ونضم بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها، فكيف بكبار العظام؟ وهو جمع سلامى كحبارى، وهي العظام الصغار في اليد والرجل. وقيل: البنان: الأصابع، وهي أكثر العظام تفرقاً وأدقها أجزاء، وهي العظام التي في الأنامل ومفاصلها. وهذا عند البعث.

وقرأ الجمهور: ﴿قَٰدِرِينَ﴾ بالنصب على الحال من الضمير المستكن في الفعل المقدر، أو على أنّه خبر كان المحذوفة؛ أي: بلى كنا قادرين. وقرأ ابن أبي عبلة، وابن السميفع ﴿قادرون﴾ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: بلى نحن قادرون على أن نسوي بنانه.

ومعنى[1]: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾؛ أي: على أن نجمع بعضها إلى بعض، فنردها كما كانت مع لطافتها وصغرها، فكيف بكبار الأعضاء؟ فنبه سبحانه بالبنان، وهي الأصابع على بقية الأعضاء، وأن الاقتدار على بعثها وإرجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق. فهذا وجه تخصيصها بالذكر، وبهذا قال الزجاج وابن قتيبة. وقال جمهور المفسرين: إن معنى الآية: أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار صفيحة واحدة لا شقوق فيها، فلا يقدر على أن ينتفع بها في الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة والحياكة ونحوها، ولكنا فرقنا أصابعه لينتفع بها. وقيل: المعنى بلى نقدر على أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها؟ والأول أولى.

وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾ معطوف[2] على قوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾، إمّا على أنه استفهام مثله وأضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا، أو على أنّه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام، وهذا أبلغ وأولى.

والمعنى: بل يريد الإنسان ليدوم على فجوره وذنبه فيما بين يديه من الأوقات، وفيما يستقبله من الزمان، لا يرعوي عنه. فالأمام هنا مستعار للزمان من المكان، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة. وقال ابن الأنباري: يريد أن يفجر ما امتد

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

عمره، وليس في نيّته أن يرجع عن ذنب يرتكبه. قال مجاهد، والحسن، وعكرمة، والسدّي، وسعيد بن جبير: يقول: سوف أتوب، ولا يتوب حتى يأتيه الموت، وهو على أشر أحواله. وقال الضحاك: هو الأمل، يقول: سوف أعيش وأصيب من الدنيا، ولا يذكر الموت. واللام في قوله: ﴿لِيَفْجُرَ﴾ للتأكيد مثل قوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ في أنصحكم. و﴿أن يفجر﴾ مفعول ﴿يُرِيدُ﴾. والفجور أصله: الميل عن الحق، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل، ومنه: قول الأعرابي في حق عمر:

أَقْسَمَ بِاللَّهِ أَبُوْ حَفْصٍ عُمَرْ ... مَا مَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلاَ دَبَرْ

فَاغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ فَجَرْ

وحاصل معنى قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ...﴾ إلخ؛ أي:[1] أيظن ابن آدم أنه لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرّقها بلى نحن قادرون على ذلك، وأعظم منه، فنحن قادرون على أن نسوي بنانه وأطراف يديه ورجليه، ونجعلهما شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار، فلا يستطيع أن يعمل بها شيئاً مما يعمله بأصابعه المفرّقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال التي تحتاج إلى القبض والبسط والتأني في عمل ما يراد من الشؤون كالغزل والنسج والضرب على الأوتار والعيدان إلى نحو أولئك..

والخلاصة: إنا لقادرون على جمع العظام وتأليفها وإعادتها إلى مثل التركيب الأول بعد تفرقها وصيرورتها عظاماً ورفاتاً في بطون البحار وفسيح القفار، وحيثما كانت، وعلى أن نسوي أطراف يديه ورجليه ونجعلهما شيئاً واحداً، فيكون كالجمل والحمار ونحوهما، فيأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب. وفي ذلك خسران كبير له، وتشويه لخلقه، وإفساد لوظيفته التي أعد لها في الحياة. ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥﴾؛ أي: لا يجهل ابن آدم أن ربه قادر على أن يجمع عظامه، لكنه يريد أن يمضي قدماً في المعاصي لا يثنيه عنها شيء ولا يتوب منها، بل يسّوف بالتوبة، فيقول: أعمل ثم أتوب بعد ذلك.

والخلاصة: أنه انتقل من إنكار الحسبان إلى الإخبار عن حال الإنسان

---

(١) المراغي.

الحاسب ليكون ذلك أشد في لومه وتوبيخه، كأنه قيل: دع تعنيفه على ذلك، فإنه قد بلغ من أمره أنه يريد أن يداوم على فجوره فيما يستأنف من الزمان، ولا يتخلى عنه.

ثم علل إرادته دوام الفجور بقوله: ﴿يَسْئَلُ﴾؛ أي: الإنسان سؤال استبعاد واستهزاء ﴿أَيَّانَ﴾ أصله؛ أي آن، وهو خبر مقدم لقوله: ﴿يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: متى يكون يوم القيامة؟ والجملة[1] استئناف تعليلي، كأنه قيل: ما يفعل حين يريد أن يفجر ويميل عن الحق؟ فقيل: يستهزىء ويقول: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾. أو حال من الإنسان في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ﴾؛ أي: ليس إنكاره للبعث لاشتباه الأمر وعدم قيام الدليل على صحة البعث بل يريد أن يستمر على فجوره في حال كونه سائلاً متى تكون القيامة؟. فدل هذا الإنكار على أن الإنسان يميل بطبعه إلى الشهوات، والفكرة في البعث تنغّصها عليه، فلا جرم ينكره ويأبى عن الإقرار به. فقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ الخ، دل على الشبهة والجهل، وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ﴾... إلخ، على الشهوة والتجاهل. فالآيتان بحسب الشخصين.

والمعنى: أي يسأل سؤال متعنت مستبعد متى يكون هذا اليوم؟. ومن أنكر البعث أشد الإنكار.. ارتكب أعظم الآثام، وخب فيها، ووضع غير عابىء بعاقبة ما يصنع ولا مقدر نتائج ما يكتسب. ونحو الآية قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)﴾، وقوله: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾.

وقصارى ما سلف: أنهم أنكروا البعث لوجهين:

١ - شبهة تعترض لخاطر كقولهم: إن أجزاء الجسم إذا تفرقت واختلطت بالتراب، وصارت في مشارق الأرض ومغاربها كيف يمكن تمييزها وإعادتها على النحو الذي كانت عليه أوّلاً؟. ولهؤلاء جاء الرد بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾.

٢ - حب الاسترسال في اللذات والاستكثار من الشهوات فلا يود أن يقر

---

(١) روح البيان.

بحشر ولا بعث حتى لا تتنغص عليه لذاته ولمثل هؤلاء قال ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾.

وقد ذكر سبحانه من علامات يوم القيامة أموراً ثلاثة:

١ ـ فقال ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾؛ أي: تحير واضطرب وجال فزعاً من أهوال يوم القيامة. من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش، ثم استعمل في كل حيرة وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق، وهو واحد بروق السحاب ولمعانه. قال الفرّاء: تقول العرب للإنسان المتحير المبهوت: قد برق. وأنشد:

فَـنَـفْـسَـكَ فَـٱنْـعِ وَلاَ تَـنْـعَـنِـيْ وَدَاوِ ٱلْـكُـلُـومَ ولا تَـبْـرَقِ

أي: لا تفزع من كثرة الكلوم والجروح التي أصابتك. ونحو الآية قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾؛ أي: فإذا تحير البصر ودهش فلم يطرف من شدة الهول، ومن عظم ما يشاهد. وجواب إذا قوله الآتي: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾ الخ.

وقرأ الجمهور[1] ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء. قال عمرو بن العلاء والزجاج وغيرهما: المعنى تحير فلم يطرف. وقال الخليل والفرّاء ﴿بَرِقَ﴾ بالكسر: فزع وبهت وتحير. وقرأ زيد بن ثابت، ونصر بن عاصم، وعبد الله بن أبي إسحاق، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، والزعفراني، وابن مقسم، ونافع، وزيد بن علي، وأبان عن عاصم، وهارون، ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو، والحسن، والجحدري بخلاف عنهما بفتحها؛ أي: لمع بصره من شدة شخوصه للموت. وقال أبو عبيدة: فتح الراء وكسرها لغتان بمعنى. وقرأ أبو السمال ﴿بَلِقَ﴾ باللام بدل الراء؛ أي: انفتح وانفرج، يقال: بلق الباب وأبلقه إذا فتحه.

٢ ـ ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾؛ أي: ذهب ضوءه، فإن خسف يستعمل لازماً ومتعديًا، يقال: خسف القمر وخسفه الله، أو ذهب نفسه من خسف المكان؛ أي: ذهب في الأرض، ولكن هذا المعنى لا يناسب ما بعد الآية، أي: ذهب ضوءه كما نعقله من حاله في الدنيا إلا أن الخسوف في الدنيا إلى انجلاء، وفي الآخرة لا يعود ضوءه.

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَخَسَفَ﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة، ويزيد بن قطيب، وزيد بن علي مبنياً للمفعول، يقال: خسف القمر وكسف الشمس قال أبو عبيدة وجماعة من أهل اللغة: الخسوف والكسوف بمعنى واحد. وقال ابن أبي أويس: الكسوف: ذهاب بعض الضوء، والخسوف جميعه.

٣ ـ ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾. أي: جمع بينهما في الطلوع من المغرب أو في الإلقاء في النار، ليكون حسرة على من يعبدهما. وجاز[2] تكرار القمر، لأنه أخبر عنه بغير الخبر الأول، ولم يقل: وجمعت؛ لأنّ تأنيث الشمس مجازيّ قاله المبرد. وقال أبو عبيدة: هو لتغليب المذكر على المؤنث. وقال الكسائيّ: حمل على معنى جمع النيران. وقال الزجاج والفرّاء: ولم يقل: جمعت؛ لأنّ المعنى: جمع بينهما في ذهاب نورهما. وقيل: جمع بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين على ما رويَ عن ابن مسعود، وقد كان هذا مستحيلاً في الدنيا، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾. وقال عطاء بن يسار: يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر، فيكونان نار الله الكبرى. وقيل: تجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار. وقرأ ابن مسعود ﴿وجمع بين الشمس والقمر﴾.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المنكر للقيامة، وهو العامل في ﴿إذا﴾. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تقع هذه الأمور قول الآيس من حيث إنه لا يرى شيئاً من علامات ممكنة للفرار، كما يقول من أيس من وجدان زيد: أين زيد حيث لم يجد علامة إصابته. ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؛ أي: أين الفرار، والمفر مصدر بمعنى الفرار. قال الفرّاء: يجوز أن يكون موضع الفرار. قال الماوردي: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أين المفر من الله سبحانه استحياء منه.

والثاني: أين المفر من جهنم حذراً منهما.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ بفتح الميم والفاء مصدراً؛ أي: أين الفرار. وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب، والحسن بن زيد، وابن عباس، والحسن،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

وعكرمة، وأيوب السختياني، وكلثوم بن عياض، ومجاهد، وابن يعمر، وحماد بن سلمة، وأبو رجاء، وعيسى، وابن أبي إسحاق، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، والزهريّ بفتح الميم وكسر الفاء على أنه اسم مكان؛ أي: أين مكان الفرار. وقال الكسائيّ: هما لغتان مثل: مَدَبٌّ وَمدِبٌّ وَمَصَحّ ومِصَحٌّ. وقرأ الزهريّ أيضاً والحسن بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار، وأكثر ما يستعمل هذا الوزن في الآلات، وفي صفات الخيل، كقول امرىء القيس:

مِـكَـرٍّ مِـفِـرٍّ مُـقْـبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مَـعًـا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ ٱلسَّيْلُ مِنْ عَلِ

أي: جيد الفر والكر.

والمعنى[1]: أي يقول الإنسان حينئذٍ لدهشته وحيرته: أين المفر من جهنم؟ وهل من ملجأ منها؟.

فأجيبوا حينئذ ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم من طلب المفر وتمنيه. ﴿لَا وَزَرَ﴾؛ أي: لا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله سبحانه. وقال ابن جبير: لا محيص ولا منعة. والظاهر: أنّ قوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ من قول الله تعالى. وجوّز[2] أن يكون من قول الإنسان لنفسه، وهو بعيد. وخبر ﴿لا﴾ محذوف؛ أي: لا ملجأ ثمة أو في الوجود. والوزر في اللغة: ما يلجأ إليه الإنسان من جبل أو حصن أو غيرهما، ومنه قول طرفة:

وَلَـقَـدْ تَـعْـلَـمُ بَـكْـرٌ أَنَّـنَـا فَـاضِـلُـوا ٱلـرَّأْيِ وَفِـي ٱلـرَّوْعِ وَزَرْ

وقال الآخر:

لَـعَـمْـرِيَ مَـا لِـلْـفَـتَـى مِـنْ وَزَرْ مِـنَ الْـمَـوْتِ يُـدْرِكُـهُ وَالْـكِـبَـرْ

أي: لا ملجأ للفار من الموت والكبر؛ إذ كل منهما من الأمر الإلهي والأمر المحكم القضاء المبرم يدرك الإنسان لا محالة. قال السدي: كانوا إذا فزعوا في الدنيا تحصنوا بالجبال، فقال الله لهم: لا وزر يعصمكم مني يومئذٍ. و﴿كَلَّا﴾ للردع أو لنفي ما قبلها أو بمعنى حقاً. ونحو الآية قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ثم كشف عن حقيقة الحال، وبينها بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ أي[1]: إلى ربك وحده استقرار العباد ورجوعهم ومصيرهم يوم إذ تقع تلك الأمور الهائلة. أي: لا يتوجهون إلا إلى حيث أمرهم الله تعالى من مقام حسابه، أو إلى حكمه استقرار أمرهم، فإن الملك يومئذٍ لله تعالى، فهو كقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: إلى حيث لا حاكم ولا مالك سواه تعالى. أو إلى مشيئته موضع قرارهم يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار، فيكون ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ اسم مكان، وهو مرفوع بالابتداء، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خبره، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ معمول ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ولا يجوز أن يكون معمول ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾؛ لأنه إن كان مصدراً بمعنى الاستقرار.. فلا يتقدم معموله عليه، وإن كان اسم مكان.. فلا عمل له البتة، وكذا الكلام في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ ونحوه.

والخلاصة: أي إلى ربك مرجعك في جنة أو نار، وأمر ذلك مفوض إلى مشيئته فمن شاء أدخله الجنة ومن شاء أدخله النار.

ثم ذكر أن مآله رهن بما عمل، فقال: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ أي[2]: يخبر كل امرىء برًّا كان أو فاجراً عند وزن الأعمال وحال العرض والمحاسبة. والمخبر هو الله سبحانه أو الملك بأمره أو كتابه بنشره. ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾؛ أي: بما عمل من عمل خيراً كان أو شرّاً، فيثاب بالأول، ويعاقب بالثاني. ﴿و﴾ بما ﴿أخر﴾؛ أي: وبما لم يعمل خيراً كان أو شرّاً، فيعاقب بالأول ويثاب بالثاني. أو بما قدم من حسنة أو سيّئة، وبما أخر من حسنة أو سيئة، فعمل بها بعده. أو بما قدم من مال تصدق به في حياته، وبما أخر فخلفه، أو وقفه أو أوصى به أو بأوّل عمله وآخره.

والمعنى: أي يخبر الإنسان حين العرض والحساب ووزن الأعمال بجميع أعماله قديمها وحديثها أولها وآخرها صغيرها وكبيرها، كما قال: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

قال القشيّري: وهذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبْع يَجْرِي أجْرها للعبد بعد موته وهو في قبره:

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

من علم علماً أو أجرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس ظلاً أو بنى مسجداً أو ورّق مصحفاً أو ترك وليًّا يستغفر له بعد موته». وفي الحديث: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، ولا حجاب يحجبه، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشقّ تمرة».

ثم بين أن أعظم شاهد على المرء نفسه، فهي نعم الشاهد عليه، فقال: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مبتدأ، و﴿بَصِيرَةٌ﴾ خبره، و﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ بتقدير على أعمال نفسه، والموصوف محذوف؛ أي: بل هو حجّةٌ بصيرة وبيّنة واضحة على أعمال نفسه، شاهدة جوارحه وأعضاؤه بما صدر عنه من الأفعال السيئة، كما يعرب عنه كلمة ﴿عَلَىٰ﴾، وما سيأتي من الجملة الحالية. ووصفت الجوارح بالبصارة والشهادة مجازاً في الإسناد، كما وصفت الآيات بالإبصار في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾. أو عين بصيرة أو ذو بصيرة أو التاء للمبالغة كما في علّامة ونسّابة؛ أي: بصير شاهد على أعمال نفسه. ومعنى ﴿بَلْ﴾[1] هنا الترقي؛ أي: ينبّأ الإنسان بأعماله بل هو لا يحتاج إلى أن يخبره غيره، فإنه يومئذٍ عالم بتفاصيل أعماله وأحواله، شاهد على نفسه؛ لأنَّ جوارحه تنطق بذلك.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ حال[2] من المستكن في ﴿بَصِيرَةٌ﴾ أو من مرفوع ﴿يُنَبَّؤُا﴾؛ أي: هو بصيرة على نفسه تشهد عليه جوارحه، وتقبل شهادتها ولو جاء بكلّ معذرة يمكن أن يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها بأن يقول مثلاً: لم أفعل أو فعلت لأجل كذا، أو لم أعمل، أو وجد مانع أو كنت فقيراً ذا عيال أو خفت فلاناً أو طمعت في عطائه إلى غير ذلك من المعاذير غير النافعة. أو ينبأ بأعماله، ولو اعتذر بكلّ عذر في الذبّ عنها، فإنّ الذبَّ والدفع لا رواج له يومئذٍ، لأنّه يوم ظهور الحق بحقيقته. والمعاذير اسم جمع للمعذرة كالمناكير اسم جمع للمنكر. وقيل: جمع معذار، وهو الستر بلغة أهل اليمن؛ أي: ولو أرخى ستوره. يعني: أن احتجابه واستتاره عن المخلوقات في حال مباشرة المعصية في الدنيا لا يغني عنه شيئاً؛ لأنَّ عليه من نفسه بصيرةً، ومن الحفظة شهوداً. وفي «الكشاف»: لأنّه يمنع

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب. وقيل: المعاذير جمع معذرة على غير قياس كملاقيح ومذاكير جمع لقحة وذكرٍ.

والمعنى[1]: بل الإنسان حجة بينة على نفسه، فلا يحتاج إلى أن ينبئه غيره؛ لأنّ نفسه شاهدة على ما فعل، فسمعه وبصره ويداه ورجلاه وجوارحه شاهدة عليه، وسيحاسب عليه مهما أتى بالمعاذير، وجادل عنها كما قال سبحانه: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾. وقال الفراء في الآية: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾، وأنشد:

كَأَنَّ عَلَىٰ ذِي ٱلْعَقْلِ عَيْنَاً بَصِيْرَة بِمَجْلِسِهِ أَوْ مَنْظَرٍ هُوَ نَاظِرُهْ
يُحَاذِرُ حَتَّى يَحْسَبُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمْ مِنَ ٱلْخَوْفِ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ سَرَائِرُهُ

ثم علّم الله سبحانه رسوله ﷺ كيف يتلقى الوحي من الملك؟ إذ كان يسابقه في قراءته، فأمره أن يستمع إليه إذا جاء، وقد كفل له.

١ ـ أن يحفظه له.

٢ ـ أن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه.

٣ ـ أن يبينه ويفسره له. وقد أشار إلى الأول بقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ ما دام جبريل يقرأ ويلقي عليك ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾؛ أي: بأخذه؛ أي: لتأخذه على عجلة مخافة أن يتفلت. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك بحكم الوعد، بحيث لا يخفى عليك شيء من معانيه. ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ بتقدير المضاف؛ أي: إثبات قراءته بلسانك بحيث تقرأه متى شئت. فالقرآن هنا مصدر بمعنى القراءة كالغفران بمعنى المغفرة مضاف إلى مفعوله. والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وليس يقال ذلك لكل جمع، لا يقال: قرأت القوم إذا جمعتهم. قال الواسطي: جمعه في السر، وقرآنه في العلانية.

والمعنى: أي لا تحرك أيها الرسول الكريم بالقرآن لسانك وشفتيك لتأخذه على عجلة مخافة أن يتفلت منك، فإن علينا أن نجمعه لك حتى نثبته في قلبك. وقد كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي يحرك به لسانه وشفتيه، فيشتد عليه ويعرف ذلك

---

(١) المراغي.

في تحريكه شفتيه حتى نزلت هذه الآية، فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما أمره الله.

وأشار إلى الثاني بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾؛ أي: أتممنا قراءته بلسان جبريل. وإسناد القراءة إلى نون العظمة للمبالغة في إيجاب التأني. ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾؛ أي: فاشرع فيه بعد فراغ جبريل منه بلا مهلة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فإذا جمعناه وأثبتناه في صدرك فاعمل به.

والمعنى: أي فإذا تلاه عليك الملك فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك. وقد يكون المراد فإذا تلي عليك فاعمل بما فيه من شرائع وأحكام.

وأشار إلى الثالث بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: بيان ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه. وسمّي ما يشرح المجمل والمبهم من الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره. وفي[1] ﴿ثم﴾ دليل على أنه يجوز تأخير البيان عن وقت الخطاب لا عن وقت الحاجة إلى العمل؛ لأنّه تكليف بما لا يطاق.

والمعنى: أي ثم إنا بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونلهمك معناه على ما أردنا وشرحنا.

وفي كتاب ابن عطية: وقرأ أبو العالية ﴿إنّ علينا جَمْعَه وقرتَه. فإذا قرته فاتبع قرته﴾ بفتح القاف والراء والتاء من غير همز ولا ألف في الثلاثة، ولم يتكلم على توجيه هذه القراءة الشاذة. ووجه اللفظ الأول: إنّه مصدر؛ أي: إنّ علينا جمعه وقراءته، فنقل حركة الهمزة إلى الراء الساكنة وحذفها، فبقي ﴿قرته﴾، كما ترى.

وأما الثاني فإنّه فعل ماض، أصله: فإذا قرأته؛ أي: أردت قراءته، فسكن الهمزة فصار قرأته ثم حذف الألف على جهة الشذوذ كما حذفت في قول العرب: ولو تر ما الصبيان يريدون، ولو ترى ما الصبيان، و(ما) زائدة. وأما اللفظ الثالث فتوجيهه توجيه اللفظ الأول؛ أي: فإذا قرأته؛ أي: أردت قراءته فاتبع قراءته بالدرس أو بالعمل.

وذكر أبو عبد الله الرازي في «تفسيره»: أن جماعةً من قدماء الروافض زعموا أنَّ القرآن قد غيّر، وبدل، وزيد فيه، ونقص منه، وأنهم احتجوا بأنه لا مناسبة بين

---

(١) روح البيان.

هذه الآيات وما قبلها، ولو كان التركيب من الله تعالى ما كان الأمر كذلك. ثمّ ذكر الرازي مناسبات على زعمه يوقف عليها في كتابه، ويظهر أن المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنه تعالى لما ذكرَ منكر القيامة والبعث معرضاً عن آيات الله تعالى ومعجزاته، وأنه قاصر شهواته على الفجور غير مكترث بما يصدر منه ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقفها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها، فظهر بذلك تباين من يرغب في تحصيل آيات الله، ومن يرغب عنها، وبضدها تتميز الأشياء. ولما كان ﷺ لمثابرته على ذلك كان يبادر للتحفظ بتحريك لسانه أخبره تعالى بأنّه يجمعه له ويوضحه.

ولما فرغ من خطابه ﷺ رجع إلى حال الإنسان السابق ذكره المنكر للبعث، وأنَّ همه إنما هو في تحصيل حطام الدنيا الفاني لا في تحصيل ثواب الآخرة الباقي؛ إذ هو منكر لذلك. فقال: ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان السابق عن الاغترار بالعاجل. ﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ أيها الناس ﴿الْعَاجِلَةَ﴾؛ أي: تحصيل حطام الدنيا العاجلة، وترغبون في جمعها. ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: وتتركون الاستعداد لها بالإيمان بالله ورسوله وبالإكثار من العبادات.

قرأ الجمهور[1]: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ بتاء الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث، و﴿كلا﴾ رد عليهم وعلى أقوالهم، أي ليس الأمر كما زعمتم وإنما أنتم قوم غلبت عليكم محبة شهوات الدنيا حتى تتركوا معه الآخرة، والنظر في أمرها. وقرأ مجاهد والحسن وقتادة والجحدري وابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة فيهما.

والمعنى: أي[2] ليس الأمر كما تقولون أيها المشركون من أنكم لا تبعثون بعد مماتكم ولا تجازون بأعمالكم، ولكن الذي دعاكم إلى قيل ذلك محبتكم للدنيا العاجلة وإيثاركم شهواتها على آجل الآخرة ونعيمها، فأنتم تؤمنون بالعاجلة وتكذّبون بالآجلة. قال قتادة: اختار أكثر الناس العاجلة إلا من رحم الله وعصم.

والخلاصة: أنكم يا بني آدم خلقتم من عجل، وطبعتم عليه متعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة وتذرون الآخرة.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

ثم بين ما يكون من أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين، فقال: (١) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: ناعمة غضة حسنة، يقال: شجر ناضر وروض ناضر؛ أي: حسن ناعم، ونضارة العيش حسنه وبهجته. وقال الواحدي: يقول المفسّرون: مضيئة مسفرة مشرقة. وقوله: ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ، و﴿نَّاضِرَةٌ﴾ خبره، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بـ ﴿ناضرة﴾، وسوّغ وقوع النكرة مبتدأ وقوعه في معرض التفصيل. وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ متعلق بقوله: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ وهو خبر ثان للمبتدأ. والنظر: تقليب البصر، أو البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، والمراد بنظر الوجوه نظر العيون التي فيها بطريق ذكر المحل وإرادة الحال؛ أي: فوجوه المؤمنين المخلصين حين تقوم القيامة مضيئة مشرقة تشاهد عليها نضرة النعيم إلى ربها، ومالك أمرها، وخالقها ﴿نَاظِرَةٌ﴾؛ أي: تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب. قال جمهور أهل العلم: المراد بذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أنَّ العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر. قال ابن كثير: وهذا بحمد الله مجمع عليه من الصحابة والتابعين، وسلف هذه الأمّة كما هو متفق عليه بين أئمّة الإسلام وهداة الأنام اهـ.

وروى البخاري في «صحيحه»: «إنّكم سترون ربكم عياناً». وروى الشيخان عن أبي سعيد وأبي هريرة «أنّ ناساً قالوا يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنّكم سترون ربكم كذلك». وروى ابن جرير عن مجاهد أنّه قال: إنَّ النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب. قال الأزهري: قد أخطأ مجاهد، لأنّه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى انتظر، فإنّ قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلاّ رؤية عين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا: نظرته. وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جدّاً اهـ. قال الشاعر:

فَإِنَّكُمَا إِنْ تَنْظُرَانِيَ سَاعَةً ... مِنَ ٱلدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

أراد به معنى الانتظار. وقال الآخر:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَٱلنُّجُومُ كَأَنَّهَا ... مَصَابِيحُ رُهْبَانٍ تَشُبُّ لِقِفَالِ

أراد به نظر العين. وقال الآخر أيضاً:

إِنِّي إِلَيْكَ لِمَا وَعَدْتَ لَنَاظِرٌ ... نَظَرَ ٱلْفَقِيرِ إِلَىٰ ٱلْغَنِيِّ ٱلْمُوسِرِ

أراد به أيضاً نظر العين؛ أي: أنظر إليك نظر ذل كما ينظر الفقير إلى الغني.

٢ ـ ﴿وَوُجُوهٌ﴾ من الكفرة والمنافقين. مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿بَاسِرَةٌ﴾ وهو خبر المبتدأ؛ أي: كالحة عابسة كئيبة؛ أي: شديدة العبوس مظلمة ليس عليها أثر السرور أصلاً. ﴿تَظُنُّ﴾؛ أي: تتوقع أربابها بحسب الأمارات، والجملة خبر بعد خبر. ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؛ أي: داهية عظيمة تقصم فقار الظهر، ومنه: سمي[1] الفقير، فإنَّ الفقر: كسر فقار ظهره، فجعله فقيراً؛ أي: مفقوراً. وهو كناية عن غاية الشدّة وعدم القدرة على التحمل، فهي تتوقع ذلك كما تتوقع الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير بناء على أنَّ قضية المقابلة بين الآيتين تقتضي ذلك. والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر سادّ مسدَّ مفعول ظن، كما سيأتي.

ورجح أبو حيّان، والطيبيّ، تفسير الظن بمعنى اليقين، ولا ينافيه أن المصدرية كما توهم، فإنها إنّما لا تقع بعد فعل لتحقق الصرف، أما بعد فعل الظن، أو ما يؤدي معنى العلم فتجيء المصدرية والمشدّدة والمخففة، نص عليه الرضيّ.

والمعنى: أي ووجوه الكفار تكون يوم القيامة عابسةً كالحةً مستيقنةً أنها ستصاب بداهيةٍ عظيمة تقصم فقار ظهرها وتهلكها. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر عن إيثار العاجلة على الآخرة؛ أي: ارتدعوا وانزجروا عن ذلك، وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذي ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة، فأقلعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة، فستنقطع الصلة بينكم وبينها، وتنتقلون إلى الدار الآخرة التي ستكونون فيها مخلدين أبداً.

ثم استأنف ببيان الحال التي تفارق فيها الروح الجسد، فقال: ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾؛ أي: إذا بلغت الروح أعالي الصدر، وأشرفت النفس على الموت. قال دريد بن الصمّة:

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دافَعْتُ عَنْهَا ... وَقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ ٱلتَّراقِيْ

وضمير[2] الفاعل للنفس وإن لم يجر لها ذكر، لأن الكلام الذي وقعت فيه

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

يدل عليها، والعرب تحذف من الكلام ما يدل عليه، يقولون: أرسلت يريدون أرسلت السماء المطر، ولا تكاد تسمعهم يقولون: أرسلت السماء. قال حاتم يخاطب زوجه:

أَمَاوِيُّ مَا يُغْنِيْ ٱلثَّرَاءُ عَنِ ٱلْفَتَى   إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمَاً وَضَاقَ بِهَا ٱلصَّدْرُ

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

والمعنى: أي إذا بلغت النفس الناطقة، وهي الروح الإنساني أعالي الصدر، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال، فإذا بلغت إليها يكون وقت الغرغرة. والتراقي: جمع ترقوة بفتح التاء، والواو وسكون الراء، وضمّ القاف. قال في «القاموس»: الترقوه ولا تضم تاؤه: العظم بين ثغرة النحر والعاتق انتهى. والعاتق موضع الرداء من المنكب. قال بعضهم: لكل أحد ترقوتان، ولكن جمع التراقي باعتبار الأفراد. وبلوغ النفس التراقي كناية عن عدم الإشفاء. والعامل في ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ معنى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: إذا بلغت النفس الحلقوم رفعت وسيقت إلى الله؛ أي: إلى موضع أمر الله أن ترفع إليه.

وقوله: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ معطوف على ﴿بَلَغَتِ﴾؛ أي: وقال أهله: من يرقيه ليشفيه مما نزل به. قال قتادة: التمسوا له الأطباء، فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً. وقال أبو قلابة: ومنه قول الشاعر:

هَلْ لِلْفَتَىٰ مِنْ بَنَاتِ ٱلْمَوْتِ مِنْ وَاقِي   أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمامِ ٱلْمَوْتِ مِنْ رَاقِي

ووقف حفص على ﴿مَنْ﴾ وقفة يسيرة من غير تنفس. قال بعضهم: لعل وجهه استثقال الراء المشددة التي بعدها قاف غليظة التلفظ في الإدغام، واستكراه القطع التام بين المبتدأ والخبر، وبين الاستفهام والمستفهم عنه في النفس، والفرار من الإظهار دون سكتة، لأنه يعد من اللحن عند اتصال النون الساكنة بالراء بين أهل القراءة.

أي: [1] وقال من حضر صاحبها: من يرقيه وينجيه مما هو فيه من الرقية؟ وهو التعويذ بما به يحصل الشفاء، كما يقال: بسم الله أرقيك. وفعله من باب

---

(١) روح البيان.

ضرب. والاستفهام على هذا يحتمل أن يكون بمعنى الطلب كأنّ الذين حول ذلك الإنسان طلبوا له طبيباً يعالجه وراقياً يرقيه، ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار كما يقال عند اليأس: من الذي يقدر أن يرقي هذا الإنسان المشرف على الموت، وهو الظاهر، كما قال الراغب: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾؛ أي: من يرقيه تنبيهاً على أنّه لا راقي يرقيه فينجيه. وذلك إشارة إلى نحو ما قال:

وإذا ٱلْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

والتميمة: خرزات، كان العرب يعلقونها على أولادهم خوفاً من العين، وهو باطل لقوله ﷺ: «مَنْ علق تميمة فقد أشرك»، وإيّاها أراد صاحب هذا البيت المذكور.

وقيل: هو من كلام ملائكة الموت، يقولون: أيكم يرقى بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ من الرقيّ بمعنى الصعود، وفعله من باب علم، وقولنا: ملائكة الرحمة لا يمانعه قوله الآتي: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ الآيات، لأنّ الضمير فيه لجنس الإنسان فلا يتعين كون المحتضر من أهل النار. وقال الكلبيّ: يحضر العبد عند الموت سبعة أملاك من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب مع ملك الموت، فإذا بلغت نفس العبد التراقي نظر بعضهم إلى بعض أيهم يرقى بروحه إلى السماء؟، . فهو قوله: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ الملائكة يكرهون القرب من الكافر، فيقول ملك الموت: من يرقى بروح هذا الكافر.

﴿وَظَنَّ﴾ معطوف أيضاً على ﴿بَلَغَتِ﴾؛ أي: وأيقن المحتضر الذي بلغت روحه التراقي حين عاين ملائكة الموت ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾؛ أي: أن ما نزل به هو الفراق من الدنيا المحبوبة ونعيمها التي ضيع العمر النفيس في كسب متاعها الخسيس. وعبر عما حصل له من المعرفة حينئذٍ بالظن؛ لأن الإنسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه، فإنه يطمع في الحياة لشدّة حبه لهذه الحياة العاجلة، ولا ينقطع رجاؤه عنها، فلا يحصل له يقين الموت بل ظنه الغالب على رجاء الحياة.

قال الإمام: هذه الآية تدل على أن الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت المعدن؛ لأنَّ الله تعالى سمى الموت فراقاً، والفراق إنّما يكون إذا كانت الروح باقيةً، فإن الفراق والوصال صفة، وهي تستدعي وجود الموصوف. قال المزنيّ:

دخلت على الشافعي في مرض موته، فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولسوءِ عملي مُلاقياً ولكأس المنية شارباً وعلى الله وارداً، فلا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها؟. ثم أنشأ يقول:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِيْ وَضَاقَتْ مَذَاهِبِيْ ... جَعَلْتُ رَجَائِي نَحْوَ عَفْوِك سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِيْ ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

وقال بعضهم:

فِرَاقٌ لَيْسَ يُشْبِهُهُ فِرَاقٌ ... قَدْ تَقَطَّعَ الرَّجَاءَ عَنِ التَّلَاقِ

وقوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾ معطوف أيضاً على ﴿بَلَغَتِ﴾؛ أي: والتفّت ساقه بساقه والْتَوت عليها عند قلق الموت. والساق: العضو المعروف، وهي ما بين الركبة والقدم، والتفافهما: اجتماعهما والتواء إحداهما بالأخرى. وعن سعيد بن المسيّب: هما ساقاه حين تلفّان في أكفانه. وقال زَيْدُ بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت. وقيل: ماتت رجلاه، ويبست ساقاه، ولم تحملاه وقد كان جوَّالاً عليهما؛ إذ هما أول ما تخرج الروح منهما، فتبردان قبل سائر الأعضاء. وقال الضحاك: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، وبه قال ابن زيد. وقيل: التفت شدة فراق الدنيا بشدّة إقبال الآخرة على أن الساق مثل في الشدّة. وجه المجاز[1] أنَّ الإنسان إذا دهمته شدّة شمر لها عن ساقيه، فقيل للأمر الشديد: ساق مِنْ حيث إن ظهورها لازم لظهور ذلك الأمر، وقد سبق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال النابغة الجعدي:

أَخُو الحَرْبِ إنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّها ... وإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِها الحَرْبُ شَمَّرا

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وخالقك أيها الإنسان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تقوم القيامة ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾؛ أي: المرجع والمآب، والمراد أنّك إما صائر إلى جنة أو نار. وهذا دالٌّ على جواب إذا، وعلى ما تتم به الجملة كما مرّ، تقديره: إذا بلغت التراقي وقيل من راق، والتفت الساق بالساق يحصل المساق يومئذٍ إلى ربك، ويجد كل

(١) روح البيان.

إنسان ما عمله من خير أو شر حاضراً بين يديه.

أي: إلى الله، وإلى حكمه يساق الإنسان يومئذٍ، لا إلى غيره؛ أي: يساق إلى حيث لا حكم هناك إلا الله. فالمساق مصدر ميميّ بمعنى السوق، والألف واللام عوض عن المضاف إليه؛ أي: إلى ربك سوق الإنسان للمجازاة على عمله.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ عطفت[1] هذه الجملة على جملة قوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ تعجيباً من حال الإنسان الكافر. يعني: يسأل عن يوم القيامة فلا صدق، ولا صلى ولكن كذّب وتولى؛ أي: يسأل وما استعد له إلا بما يوجب دماره وهلاكه. وأما قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ فجواب عن السؤال. وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ تخلص إلى ما استطرد من أحوال النبي ﷺ أقحم الجواب بين المعطوف والمعطوف عليه لشدّة الاهتمام به.

أي: فلا صدق الإنسان المذكور ما يجب تصديقه من الرسول، والقرآن الذي نزل عليه؛ أي: لم يصدق، فـ ﴿لا﴾ ههنا بمعنى ﴿لم﴾، وإنما[2] دخلت على الماضي لقوّة التكرار. يعني: حسن دخول ﴿لا﴾ على الماضي تكراره كما تقول: لا قام زيد ولا قعد، وقلما تقول العرب: لا وحدها حتى تتبعها بأخرى، تقول: لا زيد في الدار ولا عمرو، أو فلا صدق ماله بمعنى لا زكاه، فحيئنذٍ يطلب وجه لترجيح الزكاة على الصلاة مع أن دأب القرآن تقديم الصلاة على الزكاة، ولعل وجهه ما كان كفّار مكة عليه من منع المساكين وعدم الحضّ على طعامهم في وقت الضرورة القوية، وأيضاً في تأخير ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ مراعاة الفواصل، كما لا يخفى.

﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ ما فرض عليه. وفيه دلالة على أنَّ الكفار مخاطبون بالفروع في حقّ المؤاخذة. يعني: أنَّ الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة كما يستحقها بترك الإيمان، وإن لم يجب أداؤها عليه في الدنيا.

ولما كان عدم التصديق يصدق بالشك والسكوت والتكذيب استدرك على عمومه، وبين أن المراد منه خصوص التكذيب، فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ ما ذكر من الرسول والقرآن. والاستدراك لدفع احتمال الشك، فإن نفي التصديق لا يستلزم

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

إثبات التكذيب لكون الشك بين التصديق والتكذيب، فإذاً لا تكرار في الآية. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن الطاعة لله ولرسوله.

والمعنى: أي فما صدق بالله ووحدانيته بل اتخذ الشركاء والأنداد وجحد كتبه التي أنزلها على أنبيائه، وما صلى وأدى فرائضه التي أوجبها عليه بل أعرض، وتولى عن الطاعة.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: أهل بيته أو إلى أصحابه حال كونه ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾؛ أي: يتبختر ويختال في مشيته افتخاراً بذلك من المطّ، وهو المد، فإن المتبختر يمد خطاه. يعني: أن التمدد في المشي من لوازم التبختر، فجعل كناية عنه، فيكون أصله: يتمطط بمعنى يتمدد، أبدلت الطاء الأخيرة ياء كراهة اجتماع الأمثال، أو من المطا مقصوراً، وهو الظهر، فإنه يلويه ويحركه في تبختره، فألفه مبدلة من واو. و﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿ذَهَبَ﴾. وفي الحديث: «إذا مشت أمتي المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم» والمطيطاء كحميراء: التبختر ومد اليدين في المشي، والبأس شدّة الحرب.

والمعنى؛ أي[1] ليته اقتصر على الإعراض، والتولي عن الطاعة بل هو قد ذهب إلى أهله جذلان فرحاً يمشي الخيلاء متبختراً.

والخلاصة: أنَّ هذا الكافر كان في الدنيا مكذّباً للحق بقلبه متولّياً عن العمل بجوارحه، معجباً بما فعل، فلا خير فيه لا باطناً ولا ظاهراً.

ثم هدده وتوعده، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: ويل لك مرّةً بعد أخرى، وأهلكك الله هلاكاً أقرب لك من كل شر وهلاك.

ففي الكلام التفات[2] عن الغيبة إلى الخطاب، فالكلمة الأولى اسم فعل ماض مبنيّة على السكون، والفاعل ضمير مستتر يعود على ما يفهم من السياق، وهو كون هذه الكلمة تستعمل في الدعاء بالمكروه، واللام للتبيين؛ أي؛ لتبيين المفعول، وهي في المعنى زائدة على حدّ سقياً لك؛ أي: سقاك الله، والكاف مفعول به.

والمعنى: وليك ما تكرهه وقرب إليك، والكلمة الثانية اسم تفضيل، وهي

---

(١) المراغي.

(٢) الجلالين مع حاشية الجمل بتصرف.

خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: فهو أولى بك؛ أي: فالمكروه المدعو به عليك أولى، وأحقّ وأحرى بك من غيرك. فدلت الكلمة الأولى على الدعاء عليه بقرب المكروه منه، ودلت الثانية على الدعاء عليه بأن يكون أقرب إليه من غيره.

ثم كرر هذا الوعيد مبالغة في التهديد والوعيد، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ﴾؛ أي: ثمّ بعد المرّة الأولى وليك المكروه مرّة ثانيةً. ﴿فَأَوْلَىٰ﴾؛ أي: فهو أحق وأحرى بك من غيرك، فهو تهديد بعد تهديد ووعيد بعد وعيد. فالكلمة الأولى من الأخيرتين تأكيد للأول من الأوليين، والثانية للثانية. وهذا ما سلكه شارح «الجلالين» في تقرير هذا المقام، وانفرد به عن غيره من المفسرين، وهو حسن جدّاً اهـ شيخنا. والخلاصة: يتكرر عليك هذا الدعاء مرةً بعد أخرى فأنت جدير بهذا.

قال الواحديّ[1]: قال المفسرون: أخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل ثم قال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾، فقال أبو جهل: بأيّ شيء تهددني؟ لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً، وإنّي لأعز أهل هذا الوادي، فنزلت هذه الآية. وقيل معنى تكرار هذا اللفظ أربع مرّات: الويل لك حيًّا، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار. وقيل: إنّ المعنى: إنّ الذمّ لك أولى لك من تركه، وقيل: غير ذلك مما يطول الكلام بذكره.

ثم أقام الدليل على البعث من وجهين:

١ - فقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: أيظن الكافر ﴿أَن يُتْرَكَ﴾ ويحيا في الدنيا والآخرة حال كونه ﴿سدى﴾؛ أي: مهملاً عن التكاليف والمجازاة، فلا يكلّف في الدنيا، ولا يجزى في الآخرة.

٢ - وقيل: أن يترك في قبره فلا يبعث. والسدى: المهمل، والاستفهام للإنكار.

والمعنى[2]: أي لا يترك الإنسان في الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره مهملاً لا يحاسب بل هو مأمور منهي محشور إلى ربه، فخالق الخلق لا يساوي الصالح المزكّي نفسه بصالح الأعمال والطالح المدسي نفسه باجتراح

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

السيئات والآثام، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾. وإذاً فلا بُدَّ من دارٍ للثواب والعقاب والبعث والقيامة.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ استئناف[1] وارد لإبطال الحسبان المذكور، فإنّ مداره.. لما كان استبعادهم للإعادة استدل على تحققها ببدء الخلق. وقال ابن الشيخ: هو استدلال على صحة البعث بدليل ثان والاستفهام للتوبيخ والنطفة بالضم: الماء الصافي قلَّ أو كثر. والمني: ماء الرجل والمرأة؛ أي: ما خلق منه حيوان، فالحبل لا يكون إلا من الماءين. وقوله: ﴿يُمْنَىٰ﴾ بالياء صفة ﴿مَّنِىٍّ﴾، وبالتاء صفة ﴿نُطْفَةً﴾ بمعنى يصب ويراق في الرحم. سميت منى كإلى وهي قرية بمكة لما يمنى فيها من دماء القرابين.

والمعنى: ألم يكن ذلك الإنسان ماء قليلاً - كائناً من ماء معروف بخسَّة القدر واستقذار الطبع، ولذا نكرَّهما - يمنى ويصب في الرحم، نبه سبحانه بهذا على خسة قدر الإنسان أوّلاً وكمال قدرته ثانياً، حيث صيَّر مثل هذا الشيء الدنيء بشراً سويًّا. وقال بعضهم: فائدة قوله: ﴿يُمْنَىٰ﴾ للإشارة إلى حقارة حاله، كأنّه قيل: إنّه مخلوق من المنيّ الذي يجري على مخرج النجاسة، فكيف يليق بمثل هذا أن يتمرد عن طاعة الله فيما أمر به ونهى؟ إلاّ أنه تعالى عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز، كما في قوله تعالى في عيسى ومريم عليهما السلام: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾، والمراد منه قضاء الحاجة كنايةً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَلَمْ يَكُ﴾ بياء الغيبة، والحسن بتاء الخطاب على سبيل الالتفات. وقرأ الجمهور «تمنى» بالتاء؛ أي: النطفة يمنيها الرجل. وقرأ ابن محيصن، والجحدري، وسلام، ويعقوب، وحفص، وأبو عمرو بخلاف عنه ﴿يُمْنَىٰ﴾ بالياء؛ أي: يمنى المنيّ.

﴿ثُمَّ كَانَ﴾ المنيُّ بعد أربعين يوماً ﴿عَلَقَةً﴾؛ أي: قطعة دم جامد غليظ أحمر بقدرة الله تعالى بعد ما كان ماء أبيض، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ وهو

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

معطوف[1] على قوله: ﴿أَلَمْ يَكُ﴾؛ لأنّ إنكار عدم الكون يفيد ثبوت المكون، فالتقدير: كان الإنسان نطفة ثم كان علقة ﴿فَخَلَقَ﴾؛ أي: فقدر بأن جعلها مضغة مخلقة بعد أربعين أخرى؛ أي: قطعة لحم قابل لتفريق الأعضاء، وتمييز بعضها من بعض وجعل المضغة عظاماً تتميز بها الأعضاء بأن صلبها، فكسا العظام لحماً يحسن به خلقه وتصويره، ويستعد لإفاضة القوى ونفخ الروح.

﴿فَسَوَّىٰ﴾؛ أي: فعدَّله وكمل نشأته. وقال بعضهم: معنى التسوية والتعديل: جعل كل عضو من أعضائه الزوج معادلاً لزوجه. ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾؛ أي: من الإنسان باعتبار الجنس أو من المنيّ. وجعل بمعنى خلق، ولذا اكتفى بمفعول واحد، وهو قوله: ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾؛ أي: الصنفين من نوع الإنسان، وقد يجتمعان تارةً، وينفرد كل منهما عن الآخر تارةً، لا خصوص الفردين وإلاّ فقد تحمل المرأة بذكرين وأنثى أو بالعكس اهـ شيخنا. ثم بين ذلك بقوله: ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ بدل من الزوجين، ويجوز أن يكونا منصوبين بإضمار أعني. ولا يخفى[2] أنَّ الفاء تفيد التعقيب، فلا بدّ من مغايرةٍ بين المتعاقبين، فلعل قوله: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ محمول على مقدار مقدر من الخلق يصلح به للتفرقة بين الزوجين، وقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾ على التفرقة الواقعة.

والمعنى[3]: أي أما كان هذا المنكر قدرة الله على إحيائه بعد مماته وإيجاده بعد فنائه نطفة في صلب أبيه ثم كان علقة ثم سواه بشراً ناطقاً سميعاً بصيراً ثم جعل منه أولاداً ذكوراً وإناثاً بإذنه وتقديره.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ العظيم الشأن الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: على أن يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا، فإنَّ الإعادة أهون من الابتداء وأيسر مؤنة منه في قياس العقل لوجود المادة، وهو عجب الذنب والعناصر الأصلية. والاستفهام في ﴿أَلَيْسَ﴾ للتقرير المضمن للتوبيخ لمنكر البعث.

وفي قراءة زيد بن عليّ ﴿الزوجان﴾ بالألف، وكأنه على لغة بني الحارث بن كعب ومن وافقهم من العرب من كون المثنى بالألف في جميع أحواله. وقرأ

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

الجمهور[1]: ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ اسم فاعل مجروراً بالباء الزائدة. وقرأ زيد بن علي ﴿يَقْدِرُ﴾ فعلاً مضارعاً. وقرأ طلحة بن سليمان والفيّاض بن غزوان ﴿على أن يحيي﴾ بسكون الياء تخفيفاً أو على إجراء الوصل مجرى الوقف. وقرأ الجمهور بفتحها، وهي حركة إعراب لا تنحذف إلا في الوقف، وقد جاء في الشعر حذفها، وجاء عن بعضهم ﴿يحيي﴾ بنقل حركة الياء إلى الحاء وإدغام الياء في الياء. قال ابن خالويه: لا يجيز أهل البصرة سيبويه وأصحابه إدغام ﴿يحيى﴾، قالوا لسكون الياء الثانية، ولا يعتدون بالفتحة في الياء؛ لأنّها حركة إعراب غير لازمة.

والخلاصة: أي ليس الذي أنشأ هذا الخلق السويّ من هذه النطفة المذرة بقادر على أن يعيده كما بدأه، فذلك أهون من البدء في قياس العقل كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وقد جاء من عدّة طرق: أنّ النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم وبلى». وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن مردويه، والحاكم وصحّحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾ وانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ المرسلات فبلغ ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ فليقل: آمنا بالله».

الإعراب

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿٦﴾﴾.

﴿لَآ﴾ زائدة زيدت لتأكيد معنى القسم، ﴿أُقْسِمُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر، تقديره: أنا يعود على الله سبحانه، ﴿بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ متعلق بـ ﴿أُقْسِمُ﴾، وجملة القسم مستأنفة استئنافاً نحوياً، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَآ أُقْسِمُ﴾ معطوف على الجملة السابقة، فهو نظيرها في الإعراب، وكرّر فعل القسم تنبيهاً على أن كلا من

(١) البحر المحيط.

المقسم به مقصود مستقل. ﴿بِٱلنَّفۡسِ﴾ متعلق بـ ﴿أُقۡسِمُ﴾، ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾ صفة لـ ﴿النفس﴾، وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثن دل عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ كما مرّ. ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي، ﴿يحسب الإنسان﴾ فعل وفاعل والجملة جملة إنشائية دالة على جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ﴿لن﴾ حرف نصب، ﴿نَّجۡمَعَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، منصوب بـ ﴿لن﴾، ﴿عِظَامَهُۥ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر أن المخففة، وجملة ﴿أنْ﴾ المخففة في محل النصب سادة مسدّ مفعولي ﴿يحسب﴾. ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب لإثبات ما بعد النفي المنسحب عليه الاستفهام، ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من فاعل الفعل المقدّر المدلول عليه بحرف الجواب، تقديره: بل نجمعها حال كوننا قادرين، والجملة المحذوفة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب أو خبر لـ ﴿كان﴾ المحذوفة؛ أي: بلى كنّا قادرين. ﴿عَلَىٰٓ﴾ حرف جرّ، ﴿أَن﴾ حرف نصب، ﴿نُّسَوِّيَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر منصوب بـ ﴿أن﴾، ﴿بَنَانَهُۥ﴾ مفعول به ومضاف إليه والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾؛ أي: على تسويتنا بنانه، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، ﴿بَلۡ﴾ حرف عطف وإضراب للإضراب الانتقالي، ﴿يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، فيجوز أن تكون استفهاماً مثله، وأن تكون إيجاباً اهـ سمين. ﴿لِيَفۡجُرَ﴾ اللام حرف جرّ وتعليل، ﴿يفجر﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام ﴿كي﴾، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، ﴿أَمَامَهُۥ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿يفجر﴾، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدرُ مجرور باللام، واللام زائدة في المعنى، والتقدير: بل يريد الإنسان الفجور في مستقبله والاستمرار فيه. ﴿يَسۡـَٔلُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، والجملة مستأنفة أو بدل من الجملة التي قبلها، أو في محل النصب حال من ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ أي: يريد أن يستمر في فجوره في حال كونه سائلاً على سبيل الاستهزاء أيّان يوم القيامة؟ ﴿أَيَّانَ﴾ اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ مبتدأ مؤخّر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مفعول به لـ ﴿يسأل﴾.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، متعلق بالجواب الآتي وهو ﴿يَقُولُ﴾، ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجرّ مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾، على كونها فعل شرط لها. ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾. ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ فعل مغيّر، ونائب فاعل، معطوف عليه، ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف مضاف لمثله، متعلّق بـ ﴿يَقُولُ﴾، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة؛ أي: يوم إذ برق البصر إلخ. ﴿أَيْنَ﴾ اسم استفهام في محل النصب على الظرفية المكانية، مبنيّ على الفتح، والظرف متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدّماً، ﴿ٱلْمَفَرُّ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُ﴾. ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر عن طلب الفرار، ﴿لَآ﴾ نافية للجنس، ﴿وَزَرَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبرها محذوف؛ أي: موجود. والجملة مستأنفة. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خبر مقدم، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف أضيف إلى مثله، متعلق بفعل محذوف، دل عليه ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، تقديره: يستقر الأمر، ويرجع إلى ربك يوم إذ كانت هذه الأمور المذكورة، ولا يجوز أن يتعلق بـ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، لأنّه إن كان مصدراً فلتقدّمه، وإن كان مكاناً فلا عمل له ألبتة كما مرّ. ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ نائب فاعل، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف أضيف إلى مثله، متعلق بـ ﴿يُنَبَّؤُا۟﴾، والجملة مستأنفة، ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿يُنَبَّؤُا۟﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، وجملة ﴿قَدَّمَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَأَخَّرَ﴾ معطوف على ﴿قَدَّمَ﴾، ﴿بَلِ﴾ حرف عطف وإضراب انتقاليّ، ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿بَصِيرَةٌ﴾، و﴿بَصِيرَةٌ﴾؛ أي: شاهد خبر المبتدأ، والتاء فيه للمبالغة لا للتأنيث، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُنَبَّؤُا۟﴾، ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية، ﴿لو﴾ حرف شرط، ﴿أَلْقَىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ مفعول به، وجواب الشرط محذوف تقديره: ما قبلت منه، والجملة الشرطية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿بَصِيرَةٌ﴾، والتقدير: بل الإنسان شاهد على نفسه

حال كونه ملقياً معاذيره أو غير ملقٍ إياها.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

﴿لَا﴾ ناهية جازمة، ﴿تُحَرِّكْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تُحَرِّكْ﴾، ﴿لِسَانَكَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿لِتَعْجَلَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ وتعليل، ﴿تعجل﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرةً بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تعجل﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المضمرة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل؛ أي: لعجلتك بأخذه، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُحَرِّكْ﴾. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿عَلَيْنَا﴾ خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾ ﴿جَمْعَهُۥ﴾ اسم إن مؤخر ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ ومعطوف على ﴿جَمْعَهُۥ﴾ جملة ﴿إن﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، سيقت لتعليل النهي عن العجلة. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت النهي عن العجلة وأردت بيان ما هو الأصلح لك فأقول لك: إذا قرأناه. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قَرَأْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٱتَّبِعْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة، ﴿اتبع﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، ﴿قُرْءَانَهُۥ﴾ مفعول به، ومضاف إليه والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف مع تراخ، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿عَلَيْنَا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم، ﴿بَيَانَهُۥ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخّر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب للإضراب الانتقالي، ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الإضرابية معطوفة على محذوف، تقديره: ليس الأمر كما تزعمون أيها المشركون بل تحبّون العاجلة. ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿تُحِبُّونَ﴾، ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف مضاف لمثله، والتنوين عوض عن

الجملة المحذوفة، تقديرها: يوم إذ تقوم القيامة، والظرف متعلّق بـ ﴿نَّاضِرَةٌ﴾، و﴿نَّاضِرَةٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ متعلق بـ ﴿نَاظِرَةٌ﴾، و﴿نَاظِرَةٌ﴾ خبر ثان له. ﴿وَوُجُوهٌ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بـ ﴿بَاسِرَةٌ﴾، و﴿بَاسِرَةٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿تَظُنُّ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة في محل الرفع خبر ثان للمبتدأ، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يُفْعَلَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ ﴿يُفعلَ﴾، ﴿فَاقِرَةٌ﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿ظنّ﴾. وفي الجملتين أوجه أُخَرُ من الإعراب.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿بَلَغَتِ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على الروح، ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذَا﴾ على كونها فِعْلَ شرط لها. ﴿وَقِيلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، معطوف على ﴿بَلَغَتِ﴾، ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ نائب فاعل، محكي لـ ﴿قيل﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿رَاقٍ﴾ خبر مرفوع، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، والجملة الاسمية في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قيل﴾. ﴿وَظَنَّ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على المحتضر، ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿ظَنَّ﴾، وجملة ﴿ظَنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿بَلَغَتِ﴾. ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ﴾ فعل وفاعل، معطوف أيضاً على ﴿بَلَغَتِ﴾، ﴿بِٱلسَّاقِ﴾ متعلق بـ ﴿التَفَّتْ﴾، وجواب ﴿إذا﴾ محذوف دل عليه قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ تقديره: تساق النفس إلى حكم ربك يومئذٍ، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خبر مقدم، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾، وهو ظرف مضاف إلى مثله، والتنوين عوض عن الجمل الأربع، تقديره: إذا بلغت الروح الحلقوم، وقيل من ﴿رَاقٍ﴾ وظن أنه الفراق، والتفت الساق بالساق تساق إلى حكم ربها.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ

﴿فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿صَدَّقَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وقيل: معطوف على جملة ﴿يسأل أيّان يوم القيامة﴾. ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ معطوف على ﴿لا صدق﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لكن﴾ حرف استدراك، ﴿كَذَّبَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، والجملة معطوفة على قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على ﴿كَذَّبَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿ذَهَبَ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبَ﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿ذَهَبَ﴾، وجملة ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿ذَهَبَ﴾، ﴿أَوْلَىٰ﴾ اسم فعل ماض بمعنى وليك المكروه، مبنيّ على السكون لشبهه بالحرف شبهاً استعمالياً، وفاعله ضمير يعود على ما يفهم من السياق، تقديره: وليك المكروه لك. ﴿لَكَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جرّ زائد للتبيين؛ أي: لتبيين المفعول به، والكاف: ضمير متصل في محل النصب مفعول به لاسم الفعل، وجملة اسم الفعل جملة دعائية لا محل لها من الإعراب. ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أَوْلَىٰ﴾ اسم تفضيل من الولي بمعنى القرب خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو؛ أي: المكروه أولى وأحرى، وأحقّ بك. والجملة الاسمية معطوفة على جملة اسم الفعل، ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ معطوف على قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾، والتكرير للتأكيد.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَيَحْسَبُ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿يحسب الإنسان﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يُتْرَكَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿سُدًى﴾ حال من الضمير في ﴿يُتْرَكَ﴾، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع ما في حيّزها في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي ﴿يحسب﴾. ﴿أَلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريريّ، ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿يَكُ﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بـ ﴿لم﴾، وعلامة جزمه السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف، واسم ﴿يكن﴾ ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾. ﴿نُطْفَةً﴾ خبرها، ﴿مِّن مَّنِيٍّ﴾

صفة لـ ﴿نُّطۡفَةٗ﴾، وجملة ﴿يُمۡنَىٰ﴾ من الفعل المغيّر ونائب فاعله في محل الجرّ صفة لـ ﴿مَّنِيّٖ﴾، وجملة ﴿يكن﴾ الناقصة جملة استفهامية لا محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، ﴿عَلَقَةٗ﴾ خبرها، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة الاستفهام، ﴿فَخَلَقَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿خلق﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة كان، والرابط بين الجملتين محذوف، تقديره: ﴿فخلقه﴾ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على خلق، والتقدير: فسوّاه.

﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾.

﴿فَجَعَلَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿مِنۡهُ﴾ في موضع المفعول الثاني، ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ مفعول أوّل، ﴿ٱلذَّكَرَ﴾ بدل من الزوجين، ﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ معطوف على ﴿ٱلذَّكَرَ﴾، وجملة ﴿جعل﴾ معطوف على جملة ﴿سوّى﴾. ﴿أَلَيۡسَ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ﴿ليسَ﴾ فعل ماض ناقص، ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسمها؛ أي: أليس ذلك الفعّال ما ذكر، ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ خبرها، والباء زائدة في خبر ﴿ليسَ﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ﴾ متعلق ﴿بِقَٰدِرٍ﴾، وجملة ﴿ليس﴾ جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يُحۡـِۧيَ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ مفعول به، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع ما في حيّزها في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾، تقديره: على إحيائِهِ الموتى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ والإقسام لغة: مطلق الحلف سواء كان بالخالق أو بالمخلوق أيًّا كان، وشرعاً: الحلف بالله تعالى سواء كان بالذات أو باسم من أسمائه أو صفة من صفات ذاته، يقال: أقسم بالله من باب أفعل، ولا يقال: قسم بالله من باب فعل. ﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ القيامة فيه إعلال بالقلب، أصله: القوامة، قلبت الواو ياء لوقوعها إثر كسرة وقبل ألف. ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ والعظام: جمع عظم، وهو قصب الحيوان الذي عليه اللحم، ويجيء جمع عظيم أيضاً ككرام، وكريم وككبار وكبير، ومنه: الموالي العظام. ﴿بَلَىٰ﴾ كلمة يجاب بها إذا كان الكلام منفيًّا، فالمراد بها هنا نعم نجمعها بعد تفرّقها. ﴿بَنَانَهُۥ﴾ والبنان مفرد اللفظ مجموع المعنى كالثمر،

وفي «القاموس»: البنان: الأصابع أو أطرافها. قال الراغب: البنان: الأصابع، قيل: سُمِّيت بذلك؛ لأن بها إصلاح الأحوال التي يمكن للإنسان أن يُبِنَّ بها ما يريد؛ أي: يقيم. يقال: أبَنَّ بالمكان يَبِنُّ، لذلك خص بالذكر في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ④﴾، وقوله: ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾. خصه لأجل أنها يقاتل بها ويدافع.

﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ الفجر: شق الشيء شقًّا واسعاً، والفجور: شق ستر الديانة. وقال بعضهم: الفجور الميل، فالكاذب والمكذّب والفاسق فاجر؛ أي: مائل عن الحق، كما مرّ. ﴿أَمَامَهُۥ﴾ الأمام في الأصل ظرف مكان استعير هنا للزمان فالمعنى: بل يريد الإنسان ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا يرعوي عنه. ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيّان ظرف زمان بمعنى متى، مركب من أيٍّ وآن؛ أي: أيّ آنٍ يوم القيامة. ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ⑦﴾ يقال: برق بكسر الراء: إذا فزع ودهش، وأصله من برِق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره، ومنه قول ذي الرمة:

وَلَوْ أَنَّ لُقْمَانَ الحَكِيْمَ تَعرَّضَتْ   لِعَيْنَيْهِ ميٌّ سَافِراً كاد يَبْرَقُ

وقول الأعشى:

وَكُنْتُ أَرَىٰ فِيْ وَجْهِ مَيَّةَ لُمْحَةً   فَأَبْرَقُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ مَكَانِيَا

وبرق بفتح الراء: شق بصره، وهو من البريق؛ أي: لمع بصره من شدّة شخوصه. والبرق واحد بروق السحاب ولمعانه. ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ⑧﴾ قال في «فتح الرحمن»: الخسوف والكسوف معناهما واحد، وهو ذهاب ضوء أحد النيرين أو بعضه. ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ المفر مصدر ميمي بمعنى الفرار أو اسم مكان بمعنى الفرار، وأصله: مفرر بوزن مفعل بفتح الميم والعين، نقلت حركة الراء الأولى إلى الفاء فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ⑪﴾ والوزر بفتحتين: كل ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو غيرهما. قال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا لِلْفَتَى مِنْ وَزَرْ   مِنَ ٱلْمَوْتِ يُدْرِكُهُ وَٱلْكِبَرْ

﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ المستقر إما مصدر ميميّ بمعنى الاستقرار، أو اسم مكان بمعنى مكان الاستقرار. ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ⑮﴾ اسم جمع للمعذرة بمعنى الاعتذار

كالمناكير اسم جمع للمنكر. وقيل: جمع معذار، وهو الستر بلغة أهل اليمن؛ أي: أرخى ستوره. ﴿جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾؛ أي: جمعه في صدرك وإثبات قراءته في لسانك. فالقرآن مصدر بمعنى القراءة كالغفران بمعنى المغفرة مضاف إلى مفعوله، والقراءة: ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، كما مرّ. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ من النضرة، وهو طراوة البشرة وجمالها، وذلك من أثر التنعم، والناضر الغض الناعم من كل شيء، ومعنى ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة مضيئة، يقال: نَضُر يَنضُر من باب دخل، ونضر ينضر من باب تعب، ونضر ينضر من باب ظرف نضراً ونضرة ونضراً ونضوراً ونضارة، نضر الوجه أو اللون أو الشجر أو غيرها إذا نعم وحسن، وكان جميلاً، فهو ناضر ونضر ونضير وأنضر العود أيضاً. قال الكميت:

وَرَتْ بِكَ عِيدَانُ ٱلْمَكَارِمِ كُلِّهَا ... وَأَوْرَقَ عُودِيْ فِيْ ثَرَاكَ وَأَنْضَرَا

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ والنظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، والمراد بنظر الوجوه نظر العيون التي فيها بطريق ذكر المحل وإرادة الحال. ﴿بَاسِرَةٌ﴾؛ أي: شديدة العبوس مظلمة ليس عليها أثر السرور أصلاً. ﴿فَاقِرَةٌ﴾؛ أي: داهية عظيمة تكسر الظهر أو فقاره، والفقار بفتح الفاء كما في «القاموس»، وهو جمع فقارة بفتح الفاء، وفي «المصباح»: وفقرت الداهية الرجل فقرا من باب قتل: نزلت به، فهو فقير فعيل بمعنى مفعول، وفقارة الظهر بالفتح: الخرزة، والجمع فقار بحذف الهاء، مثل: سحابة وسحاب. قال ابن السكيت: ولا يقال: فقارة بالكسر، والفقرة لغة في الفقارة، وجمعها فقر وفقرات، مثل: سدرة وسدر وسدرات. وفي «القاموس»: والفقر بالكسر والفقرة والفقارة بفتحهما: ما يتصل من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب. ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ جمع الترقوة، وهي العظم الذي في أعلى الصدر بين ثغرة النحر، وهما ترقوتان، والجمع التراقي والترايق، ويقال: ترقاه ترقاةً؛ أي: أصاب ترقوته، وقد بلغت روحه التراقي إذا شارف الموت.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾ الألف فيه منقلبة عن واو لظهورها في التصغير سويق، وجمعه على سيقان لا ينافي ذلك، فالياء منقلبة عن واو لسكونها إثر كسرة. ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝٢٧﴾ اسم فاعل إما من رقي بالفتح في الماضي والكسر في المضارع من الرقية، وهو كلام معد للاستشفاء يرقى به المريض ليشفى. وفي الحديث: «وما أدراك أنها رقية» يعني: الفاتحة، وهي من أسمائها. وإما من رقي بالكسر في

الماضي والفتح في المضارع من الرّقيّ، وهو الصعود؛ أي: تقول الملائكة: من يصعد بهذا الروح. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ المساق مصدر ميمي، أصله: مسوق على وزن مفعل بفتح الميم والعين نقلت حركة الواو إلى السين فسكنت، لكنّها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال. ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ أصله: صلَّي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أصله: تولي بوزن تفعل، قلبت الياء ألفا لتحركها بعد فتح. ﴿يَتَمَطَّىٰ﴾ أصله: يتمطى بوزن يتفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. أو أصله: يتمطط، قلبت الطاء الثالثة ياء، فهو إمّا من المطا، وهو الظهر، ومعناه: يتبختر؛ أي: يمد مطاه ويلويه تبختراً في مشيته. أو من المط، وهو المد، لأنه يمد اليدين في مشيه، وإنما قلبت الطاء الثالثة ياءً لكراهة اجتماع الأمثال، ومادّة المطا (مَ طَ وَ) ومادّة الثاني: (مَ طَطَ). ﴿سُدًى﴾؛ أي: هملاً لا يكلف بالشرائع، يقال: إبلٌ سدى؛ أي: مهملةً، وأسديت حاجتي؛ أي: ضيعتها، ومعنى أسدى إليه معروفاً أنه جعله بمعنى الضائع عند المسدى إليه لا يذكره ولا يمن به عليه. وفي «المصباح»: والسدى: وزان الحصى من الثوب خلاف اللحمة، وهو ما يمد طولاً في النسج، وأسديت الثوب: أقمت سداه. والسدى أيضاً: ندى الليل، وبه يعيش الزرع، وسديت الأرض فهي سدية من باب تعب: كثر سداها، وسدا الرجل من باب غزا: مد يده نحو الشيء، وسدا البعير سدوا: مد يده في السير، وأسديته بالألف. تركته سدى؛ أي: مهملاً، وأسديت إليه معروفاً: اتخذته عنده. وأصله: سدي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ﴾ وأصل منيّ منيءٌ بوزن فعيل، أدغمت ياء فعيل في لام الكلمة. ﴿يُمْنَىٰ﴾ أصله: يمني بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿فَسَوَّىٰ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: فسوي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. والنطفة: الماء الصافي قل أو كثر، والمني: ماء الرجل والمرأة المختلط. فالحبل لا يكون إلا من الماءين، يمنى أي: يصب ويراق في الرحم، كما مرّ. والعلقة: قطعة دم جامد غليظ أحمر، سميت لتعلقه بما أصابه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع.

فمنها: فنّ التقسيم في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾، وسمّاه صاحب «المثل السائر» التناسب بين المعاني، لتناسب الأمرين المقسم بهما، فقد أقسم بيوم البعث أوّلاً ثمّ بالنفوس المجزية فيه على حقيّة البعث والجزاء، فسبحان المتكلم بهذا الكلام.

ومنها: الطباق بين ﴿قَدَّمَ﴾ و﴿أخر﴾ وبين ﴿صَدَّقَ﴾ و﴿كَذَّبَ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري لغرض التوبيخ في قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ ومثل قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾؛ لأنَّ غايته التوبيخ والتقريع.

ومنها: زيادة اللام للتأكيد مثل قوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ في أنصحكم.

ومنها: استبعاد تحقّق الأمر في قوله: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾، لأنّ الغرض من الاستفهام الاستبعاد والإنكار.

ومنها: الجناس غير التام بين قوله: ﴿بَنَانَهُۥ﴾ وقوله: ﴿بَيَانَهُۥ﴾ لاختلاف بعض الحروف.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين نضارة وجوه المؤمنين في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾، وبين عبوسة وجوه المجرمين في قوله: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ۝٢٤﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣﴾، لأنّ المراد بنظر الوجوه نظر العيون التي فيها بطريق ذكر المحلّ وإرادة الحال.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾، و﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ في قوله: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٢١﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ۝٢٥﴾؛ أي: داهية عظيمة؛ لأنّه كناية عن غاية الشدّة وعدم القدرة على التحمّل، فهي تتوقّع ذلك كما تتوقّع الوجوه الناضرة أن يفعل بها كلّ خير بناء على أنّ قضيّة المقابلة بين الآيتين تقتضي ذلك.

ومنها: الاستعارة التمثيليّة في قوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾، لأنّ فيه استعارةً تمثيلية لشدّة كرب الدنيا في آخر يوم منها، وشدة كرب الآخرة في أوّل يوم منها، لأنّهما يومان قد التفّا ببعضهما، واختلطا بالكرب كما تلتفّ الساق بالساق، كما يقال: شمّرت الحرب عن ساق استعارة لشدّتها.

ومنها: الجناس الناقص بين لفظي ﴿ٱلسَّاقُ﴾ و﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ ويسمّى أيضاً جناس التبديل، وهو الذي يوجد في إحدى كلمتيه حرف لا يوجد في الأخرى، وجميع حروف الأخرى يوجد في أختها على استقامتها، وهو ثلاثة أقسام: قسم تقع الزيادة منه أوّل الكلمة كزيادة الميم في ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾، وقسم تقع الزيادة وسط الكلمة كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾، وقسم تقع الزيادة منه في آخر الكلمة كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤﴾، لأنّ فيه التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب تقبيحاً له وتشنيعاً.

ومنها: التكرير للتأكيد في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة من الموضوعات

١ ـ إقسامه سبحانه بأمرين: القيامة والنفس اللوامة.

٢ ـ ذكر القيامة وأهوالها وأحوالها.

٣ ـ اهتمام النبي ﷺ بضبط القرآن عند تلاوة جبريل عليه.

٤ ـ انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين: سعدا وأشقياء. فالسعداء وجوههم ناضرة، والأشقياء وجوههم باسرة.

٥ ـ ذكر حال المرء عند الاحتضار، وما يلقاه في ذلك الوقت من الشدائد والدواهي.

٦ ـ إثبات الحشر والمعاد بالأدلّة والبراهين العقلية حيث قال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾...﴾ إلى آخر السورة[1].

والله أعلم

* * *

(١) تمّت سورة القيامة بعون من له الرحمة العامة والفيوضات الهاطلة قبيل الغروب من اليوم الثالث من شهر الجمادى الأولى من شهور سنة ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من الهجرة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحيّة، وصلى الله وسلم على سيّدنا وحبيبنا محمد ﷺ خاتم النبيّين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين. آمين.

سورة الإنسان

سورة الإنسان وتسمى[1] سورة هل أتى، وسورة الأمشاج، وسورة الدهر. نزلت بعد سورة الرحمن. وقال مقاتل والكلبي: وهي مكية. وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وقيل: فيها مكيّ من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ إلى آخر السورة، وما قبله مدنيٌّ.

وآيها: إحدى وثلاثون آية. **وكلماتها**: مئتان وأربعون كلمة. **وحروفها**: ألف وأربعة وخمسون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه ذكر في السابقة الأهوال التي يلقاها الفجّار يوم القيامة، وذكر في هذه ما يلقاه الأبرار من النعيم المقيم في تلك الدار.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها[2] ظاهرة جدّاً لا تحتاج إلى شرح انتهى.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم في «الناسخ والمنسوخ»: سورة الإنسان كلّها محكم إلاّ آيتين:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ نسخت بآية السيف.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ نسخ التخيير بآية السيف.

سبب نزول هذه السورة: ما أخرجه الطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «سل واستفهم، فقال: يا رسول الله فضلتم علينا بالألوان والصور والنبوة، أفرأيت إن آمنت بما آمنت به، وعملت بما عملت به أني كائن معك في الجنة؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام، ثم قال:

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

من قال: لا إله إلا الله كان له عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده كتب له مئة ألف حسنة وأربع وعشرون ألف حسنة، ونزلت هذه السورة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿ملكا كبيرا﴾. فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة، قال نعم، فاشتكى حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرته بيده».

وأخرج أحمد في الزهد عن محمد بن مطرف قال: حدثني الثقة: أن رجلاً أسود كان يسأل رسول الله ﷺ عن التسبيح والتهليل، فقال له عمر بن الخطاب: أكثرت على رسول الله ﷺ، فقال: مه يا عمر، وأنزلت على النبي ﷺ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ حتى أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرةً فخرجت نفسه، فقال النبي ﷺ: «مات شوقاً إلى الجنة». وأخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعاً مرسلاً.

وأخرج أحمد، والترمذي وحسّنه، وابن ماجه وابن منيع، وأبو الشيخ في العظمة والحاكم، وصحّحه، والضياء عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفراش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عزّ وجل».

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

المناسبة

أخبر سبحانه وتعالى أنّه قد جاء على الإنسان حين من الزمان لم يكن شيئاً يذكر، ويعرف، ثم ذكر أن أبناء آدم كانوا نطفاً في الأصلاب، ثم علقا، ثم مضغاً في الأرحام، ثم أوضح لهم السبيل، وبيّن لهم طريق الخير والشر، فمنهم الشاكر ومنهم الكفور.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما

قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمّا ذكر[1] أنه هدى الإنسان لطريق الخير وطريق الشرّ في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾، ثم أردفه ببيان أنّ الناس انقسموا في ذلك فريقين: فريق وفّقه الله، واهتدى وشكر، وفريق أضلّه الله وكفر. أعقب ذلك بما أعدّه لكل منهما يوم القيامة، فأعدّ للأوّلين جنات ونعيماً، فهم يشربون الخمر وهي ألذ شراب لديهم ممزوجة بماء عذب زلال طيب الرائحة، تأتيهم إلى غرفهم متى شاؤوا وكيف أرادوا، ويلبسون الحرير، ويجلسون على الأرائك لا يرون فيها حرّاً ولا قرّاً. ثم ذكر ما أعدوه في الدنيا لنيلهم هذا الثواب العظيم، فبين أنهم يطعمون الطعام للفقراء البائسين واليتامى والأسارى، ويؤدون ما وجب عليهم لربهم، ويخافون عذاب يوم القيامة. وأعد للآخرين سلاسل وقيوداً وناراً تشوي الوجوه والأجسام.

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر طعام أهل الجنة ولباسهم أردفه بوصف مساكنهم ثم وصف شرابهم وأوانيه وسقاته، ثم أعاد الكلام مرّةً أخرى بذكر ما تفضل به عليهم من فاخر اللباس والحليّ، ثم ألمع إلى أن هذا كان جزاء لهم على ما عملوا، وما زكوا به أنفسهم من جميل الخصال وبديع الخلال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها، أنَّ الله سبحانه لمّا ذكر أحوال الآخرة، وبيّن عذاب الكفار على سبيل الاختصار، وثواب المطيعين على سبيل الاستقصاء إرشاداً لنا إلى أن جانب الرحمة مقدم على جانب العقاب.. أردف ذلك بذكر أحوال الدنيا، وقدم أحوال المطيعين وهم: الرسول ﷺ وأمته على أحوال المتمردين والمشركين. وقبل الخوض فيما يتعلق بالرسول من الأمر والنهي أمره بالصبر على ما يناله من أذى قومه إزالةً لوحشته وتقويةً لقلبه حتى يتم فراغ قلبه، ويشتغل بطاعة ربّه، وهو على أتمّ ما يكون سروراً ونشاطاً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ سبب نزول هذه

(١) المراغي.

الآية: ما أخرجه[1] ابن المنذر عن ابن جرير قال: لم يكن النبيّ ﷺ يأسر أهل الإسلام، ولكنّها نزلت في أسارى أهل الشرك كانوا يأسرونهم في العذاب، فنزلت فيهم، فكان النبي ﷺ يأمرهم بالإصلاح إليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه ابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ، وهو راقد على حصير من جريد، وقد أثّر في جنبه، فبكى عمر، فقال ﷺ له: ما يبكيك؟ قال عمر: ذكرت كسرى وملكه، وهرمز وملكه، وصاحب الحبشة وملكه، وأنت رسول الله ﷺ على حصير من جريد، فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أنّ لهم الدنيا ولنا الآخرة، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ سبب نزولها: ما أخرجه عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة: أنه بلغه أن أبا جهل قال: لئن رأيت محمداً يصلي.. لأطأنَّ عنقه، فأنزل الله قوله عزّ وجلّ ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ حكى[2] الواحدي عن المفسرين: أنّ ﴿هَلْ﴾ هنا بمعنى قد فهي للتحقيق، وليست للاستفهام أصلاً؛ أي: قد أتى ومرّ على الإنسان... إلخ. وبه قال سيبويه، والكسائي، والفراء، وأبو عبيدة. قال الفرّاء ﴿هَلْ﴾ تكون جحداً وتكون خبراً، فهذا من الخبر، لأنّك تقول: هل أعطيتك، تقرّره بأنّك أعطيته، ومن الجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا، فتحمله على معنى لا يقدر أحد غيرك على مثله. وقيل: هي وإن كان بمعنى قد ففيها معنى الاستفهام التقريري. والأصل[3]: أهل أتى، والمعنى: أقد أتى ليستفاد التقرير من همزة الاستفهام والتقريب من قد، فإنها موضوعة لتقريب الماضي إلى الحال. والدليل على أن الاستفهام غير مراد أن الاستفهام على الله تعالى محال، فلا بد من حمله على الخبر، كقولك: هل وعظتك، ومقصودك أن تحمله على الإقرار بأنّك قد وعظته؛ أي: قد مرّ ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ قيل: المراد بالإنسان هنا آدم، قاله قتادة والثوري،

---

(١) لباب النقول. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

وعكرمة، والسدي، وغيرهم. ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ والحين: زمان مطلق ووقت مبهم يصلح لجميع الأزمان طال أو قصر، كما سيأتي. والدهر: الزمان الطويل.

والمعنى: مر على آدم طائفة محدودة كائنة من الزمان الممتد. قيل: أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح. وقيل[1]: إنه خلق من طين فألقي بين مكة والطائف، فأقام أربعين سنة ثم من حمأ مسنون، فأقام أربعين سنة أخرى، ثم من صلصال فأقام أربعين سنة أخرى. فتم خلقه في مئةٍ وعشرين سنة، فنفخ فيه الروح على ما جاء في رواية الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: فما كان سنين في آدم كان أيّاماً في أولاده. وقيل: المراد بالإنسان جنس الإنسان لقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾، لأنَّ آدم لم يخلق منها، ثم المراد بالجنس بنو آدم، والمراد بالحين مدة حمله؛ لأنه كان علقة في أربعين يوماً ومضغةً في ثمانين ومنفوخاً فيه الروح في مئة وعشرين يوماً على أن يكون الحين هو الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره. وهذا القول أعني: حمله على أولاده أظهر؛ لأنّ المقصود تذكير الإنسان كيفية الخلق بعد أن لم يكن ليتذكر أول أمره من عدم كونه شيئاً مذكوراً أو آخر أمره من كونه شيئاً مذكوراً مخلوقاً من ماء حقير، فلا يستبعد البعث. وقيل: المراد بالجنس ما يعم آدم وبنيه على التغليب أو نسبة حال البعض إلى الكل للملابسة على المجاز. وحمل بعضهم الإنسان هنا على آدم وفيما سيأتي على أولاده.

وجملة قوله: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ إما في محل نصب على الحال من الإنسان أو في محل رفع صفة أخرى لـ﴿حِينٌ﴾ بحذف الضمير الرابط؛ أي: حين لم يكن فيه شيئاً مذكوراً. قال الفرّاء وقطرب وثعلب[2]: المعنى: أنه كان جسداً مصوّراً تراباً وطيناً لا يذكر، ولا يعرف، ولا يدرى ما اسمه، ولا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً. وقال يحيى بن سلام: لم يكن شيئاً مذكوراً في الخلق، وإن كان عند الله شيئاً مذكوراً. وقيل: ليس المراد بالذكر هنا الإخبار، فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم بل هو الذكر بمعنى الخطر والشرف كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾. قال القشيريّ: ما كان مذكوراً للخلق وإن كان مذكوراً لله سبحانه. قال الفرّاء: كان شيئاً ولم يكن مذكوراً، فجعل النفي متوجهاً إلى القيد. وقيل المعنى:

---

(1) روح البيان.

(2) الشوكاني.

قد مضت أزمنة، وما كان آدم شيئاً مذكوراً، لأن خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق بعده حيوان.

والمعنى على القول الثاني ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ بل كان[1] شيئاً منسيًّا، غير مذكور بالإنسانية أصلاً نطفة في الأصلاب، فما بين كونه نطفة وكونه شيئاً مذكوراً بالإنسانية مقدار محدود من الزمان، وتقدم عالم الأرواح لا يوجب كونه شيئاً مذكوراً عند الخلق ما لم يتعلق بالبدن ولم يخرج إلى عالم الأجسام.

والمعنى[2]: أي قد أتى على هذا النوع الإنسانيّ زمن لم يكن موجوداً حتى يعرف ويذكر. وفي الآية ما يشير إلى ما قاله علماء طبقات الأرض «الجيولوجيا». من أن الإنسان لم يوجد على الأرض إلا بعد خلقها بأحقاب طوال، فقد كانت الأرض أوّلاً ملتهبةً بعد أن انفصلت من الشمس، ثم أخذت قشرتها تبرد بالتدريج، وأمكن أن ينبت فيها النبات، ثم بعض الطيور ثم بعض الحيوان الداجن ثم الإنسان.

ثم أتبع ذلك بذكر العناصر الداخلة في تكوين الإنسان، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: خلقنا جسمه، والإظهار لزيادة التقرير. ﴿مِن نُّطْفَـةٍ﴾ حتى كان علقةً في أربعين يوماً ومضغةً في ثمانين ومنفوخاً فيه الروح في مئة وعشرين يوماً، كما خلق أباهم آدم طوراً طيناً وطوراً حمأً مسنوناً وطوراً صلصالاً. والمراد بالإنسان هنا ابن آدم، قال القرطبي من غير خلاف. والنطفة: الماء الذي يقطر، وهو المنيّ وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة، وجمعها نطف. وقوله: ﴿أَمْشَاجٍ﴾؛ أي:[3] أخلاط، صفة لـ ﴿نُّطْفَةٍ﴾، وهي جمع مشج كسبب أو كتف على لغتيه، أو جمع مشيج من مشجت الشيء إذا خلطته. وصف النطفة بالجمع مع إفرادها، لما أن المراد بها مجموع الماءين يختلطان في الرحم، ولكل منهما أوصاف مختلفة من اللون والرقة والغلظ، وخواص متباينة، فإنّ ماء الرجل أبيض غليظٌ فيه قوة العقد، وماء المرأة أصفر رقيق فيه قوة الانعقاد. فيخلق منهما الولد، فأيهما علا صاحبه كان الشبه به، وما كان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر، فمن ماء المرأة، كما روي في المرفوع. وفي الخبر: «ما من مولود إلا وقد ذر على

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

نطفته من تربة حفرته، كل واحد منهما مشيج بالآخر». وقال الحسن رحمه الله: نطفة مشيجة بدم، وهو دم الحيض، فإذا حبلت ارتفع دم الحيض، وإليه ذهب صاحب القاموس حيث قال: ونطفة أمشاج؛ أي: مختلطة بماء المرأة ودمها انتهى. فيكون النطفتان ودمها جمعاً. وقال الفراء: أمشاجٌ: اختلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم. وقيل[1]: الأمشاج لفظ مفرد كبرد أكباش، ويؤيد هذا وقوعه نعتاً لـ ﴿نُّطْفَةٍ﴾. وقيل: أخلاط الدم والبلغم والصفراء والسوداء، والنطفة أريد بها الجنس فلذلك وصفت بالجمع كقوله: ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾. ذكره أبو حيان.

وجملة قوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾؛ أي: نختبره بالخير والشرّ. حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أي: خلقناه حال كوننا مريدين ابتلاءه واختباره بالتكاليف فيما سيأتي، ليتعلق علمنا بأحواله تفصيلاً في العين بعد تعلقه بها إجمالاً في العلم، وليظهر أحوال بعضهم لبعض من القبول والرد والسعادة والشقاوة.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: جعلنا الإنسان ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية ومشاهدة الآيات التكوينية. فهو[2] كالمسبب عن الابتلاء؛ أي: عن إرادته، فلذلك عطف على الخلق المقيد به بالفاء، كأنه قيل: إنا خلقناه مريدين تكليفه، فأعطيناه ما يصح معه التكليف والابتلاء، وهو السمع والبصر وسائر آلات التفهيم والتمييز. وطوى ذكر العقل؛ لأن المراد ذكر ما هو من أسبابه والآلة التي بها يستكمل، فطريقه الأول لأكثر الخلق من السعداء السمع ثم البصر ثم تفهم العقل.

وفي اختيار صيغة المبالغة فيهما إشارة إلى كمال إحسانه إليه وتمام إنعامه. و﴿بَصِيرًا﴾ مفعول ثان بعد ثان لـ ﴿جعلناه﴾، ويجوز[3] أن تكون جملة ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حالاً من الإنسان، والمعنى: مقدراً ابتلاءه بالخير والشر والتكاليف. قال الفراء: معناه: والله أعلم جعلناه سميعاً بصيراً نبتليه، وهي مقدمة لفظاً مؤخرة معنى، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة. وعلى هذا تكون الحال مقدرة، وقيل: مقارنة. وقيل: معنى الابتلاء: نقله من حال إلى حال على طريقة الاستعارة، والأولّ أولى.

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

والمعنى[1]: أي إنا خلقنا الإنسان من نطفة مختلطة من ماء الرجل، وماء المرأة مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد، إذا شب وبلغ الحلم. قال الحسن: نختبر شكره في السرّاء وصبره في الضرّاء. ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء والامتحان، وهو السمع والبصر، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؛ أي: جعلناه كذلك ليتمكن من استماع الآيات ومشاهدة الدلائل والتعقل والتفكر. وهذه من عالم أشرف من عالم المادّة التي هي في أسفل درجات النقص والكمال إنّما نزل إليه من عالم أرقى منها، وهو العالم الروحي الإلهيّ. فهو إما يرجع إلى حب المادة والاستكانة لهذه المشاهدات، وإمّا أن يتفكر ويجد بالعلم والعمل، ليصل إلى عالم الكمال والجمال. وهذا ما عناه سبحانه بقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

والخلاصة: نحن نعامله معاملة المختبر له أيميل إلى أصله الأرضي، فيكون حيواناً نباتيًّا معدنياً شهوانيًّا، أم يكون إلهيًّا معتبراً بالسمع والبصر والفكر، وهي من عوالم أرقى من عالم المادة التي تكون منها.

ثم ذكر أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة، والباطنة بين له سبيل الهدى وسبيل الضلال، فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ﴾؛ أي: هدينا الإنسان المذكور وبينا له ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي: سبيل الهدى والضلال بإنزال الآيات ونصب الدلائل، ليكون ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾؛ أي: ليكون[2] الإنسان إما مؤمناً وإما كافراً. قيل المعنى: إنا هديناه السبيل ثم جعلناه تارة شاكراً وتارةً كفوراً. وعبارة الروح: قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ مرتّب[3] على ما قبله من إعطاء الحواسّ، فإنه استئناف تعليل لـ ﴿جعله﴾ سميعاً بصيراً. يعني: أن إعطاء الحواس الظاهرة والباطنة والتحلي بها مقدم على الهداية.

والمعنى: أريناه وعرّفناه طريق الخير والشرّ والنجاة والهلاك بإنزال الآيات ونصب الدلائل، كما قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ⑩﴾؛ أي: بينا له طريق الخير والشر، فإن النجد الطريق الواضح المرتفع، فالمراد بالهداية مجرد الدلالة، لا الدلالة الموصلة إلى البُغية، كما في بعض التفاسير. وقوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان من مفعول ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾.

---

(١) المراغي. (٢) المراح. (٣) روح البيان.

قال في «الإرشاد»؛ أي: مكنّاه وأقدرناه على سلوك الطريق الموصل إلى البغية في حالتيه جميعاً، فأما لتفصيل ذي الحال، فإنه مجمل من حيث الدلالة على الأحوال، لا يعلم أن المراد هدايته في حال كفره، أو في حال إيمانه، وبالتفصيل تبيّن أنها تعلقت به في كل واحدة من الحالين. فالشاكر: الموحد، والكفور: الجاحد؛ لأن الشكر الإقرار بالمنعم، ورأس الكفر جحوده، ويقال: شاكر النعمة وكفورها. وإيراد الكفور دون الكافر لمراعاة الفواصل؛ أي: رؤوس الآي والإشعار بأن الإنسان قلما يخلو من كفران ما، وإنما المؤاخذ عليه الكفر المفرط والشكور قليل منهم، ولذا لم يقل: إما شكوراً وإما كفوراً أو إما شاكراً أو كافراً.

والحاصل: أن الشاكر والكفور كنايتان عن المثاب والمعاقب، ولما يكن مجرد الكفران مستلزماً للمؤاخذة لم يصح أن يجعل كناية عنها، بخلاف مجرد الشكر، فإنه ملزوم الإثابة بمقتضى وعد الكريم، فأدير أمر الإثابة على مطلق الشكر لا على المبالغة فيه كما أدير أمر المؤاخذة على المبالغة في الكفران لا على أصله. وكل ذلك بمقتضىٰ سعة رحمة الله وسبقها على غضبه انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ بكسر الهمزة فيهما. وقرأ أبو السمّال وأبو العجاج وهو كثير بن عبد الله السلمي شامي ولي البصرة لهشام بن عبد الملك بفتحها فيهما، وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب، وهي التي عدها بعض النحاة في حروف العطف، وقيل: هي التفصيلية وجوابها مقدر.

وقال الزمخشري: وهي قراءة حسنة، والمعنى: إما شاكراً فبتوفيقنا وإما كفوراً فبسوء اختياره انتهى. فجعلها أما التفصيلية المتضمنة معنى الشرط، فلذلك تلقاها بفاء الجواب، فصار كقول العرب: أما صديقاً فصديق.

وحاصل معنى الآية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ أي:[2] فأعطيناه السمع والبصر والفؤاد، ونصبنا له الدلائل في الأنفس والآفاق لتكون مسرحاً لشكره، ومغنماً لعقله. ثم بين أن الناس انقسموا في ذلك فريقين، فقال: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾؛ أي: فبعض اهتدى، وعرف حق النعمة فشكر، وبعض أعرض فكفر. وإجمال ذلك إنا هديناه السبيل ليتميز شكره من كفره وطاعته من معصيته. ونحو الآية قوله:

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾.

روى مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو معتقها». وحكى[١] مكيٌّ عن الكوفيين أن قوله: ﴿إِمَّا﴾ هي ﴿إنْ﴾ الشرطية زيدت بعدها ما؛ أي: بينا له الطريق إن شكر أو كفر، واختار هذا الفراء. ولا يجيزه البصريون؛ لأن ﴿إن﴾ الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل، ولا يجوز هنا إضمار الفعل، لأنّه كان يلزم رفع ﴿شَاكِرًا﴾ و﴿كَفُورًا﴾، ويمكن أن يضمر فعل ينصب ﴿شَاكِرًا﴾ و﴿كَفُورًا﴾، تقديره: إن خلقناه شاكراً فشكور، وإن خلقناه كفوراً فكفور. وهذا على قراءة الجمهور ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ بكسر همزة إمّا.

ولما ذكر الفريقين أتبعهما بالوعيد والوعد، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾؛ أي: هيّأنا في الآخرة، فإن الاعتداد إعداد الشيء حتى يكون عتيداً حاضراً متى احتيج إليه. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ من أفراد الإنسان الذي هديناه السبيل ﴿سَلَاسِلَا﴾ بها[٢] يقادرن إلى جهنم. وفي «كشف الأسرار»: أعتدنا للكافرين في جهم سلاسل، كل سلسلة سبعون ذراعاً، وهو بغير تنوين في قراءة حفص، وأمّا الوقف فبالألف تارةً وبدونها أخرى. يقال: تسلسل الشيء: اضطرب كأنه تصور منه تسلسل وتردد، فتردد لفظه تنبيه على تردد معناه، ومنه: السلسلة وفي «القاموس»: السلسلة بالفتح: إيصال الشيء بالشيء، وبالكسر: دائرة من حديد ونحوه. وقرأ[٣] طلحة، وعمرو بن عبيد، وابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة ﴿سلاسل﴾ ممنوع الصرف وقفاً ووصلاً، وقيل: عن حمزة وأبي عمرو الوقف بالألف، وقرأ حفص وابن ذكوان بمنع الصرف، واختلف عنهم في الوقف، وكذا عن البزي. وقرأ باقي السبعة بالتنوين وصلاً، وبالألف المبدلة منه وقفاً، وهي قراءة الأعمش. قيل؛ وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما لا يصرف إلا أفعل من، وهي لغة الشعراء ثم كثر حتى جرى في كلامهم، وعلل ذلك بأن هذا الجمع لما كان يجمع فقالوا: صواحبات يوسف، ونواكسي الأبصار أشبه المفرد فجرى فيه الصرف. وقال بعض الرجاز:

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

وَٱلـصَّـرْفُ فِـي ٱلْـجَـمْـعِ أَتَـىٰ كَـثِـيْـرَاً   حَـتَّـىٰ ٱدَّعَـىٰ قَـوْمٌ بِـهِ ٱلـتَّـخْـيِـيْـرَا

والصرف ثابت في مصاحف المدينة، ومكة، والكوفة، والبصرة، وفي مصحف أبي وعبد الله، كذا ﴿قوارير﴾. وروى هشام عن ابن عامر ﴿سلاسل﴾ في الوصل، و﴿سلاسلا﴾ بألف دون تنوين في الوقف. وروي: أن من العرب من يقول: رأيت عمراً بالألف في الوقف.

﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ بها يقيدون إهانة وتعذيباً لا خوفاً من الفرار. جمع غل بالضم، وهو ما تطوق به الرقبة للتعذيب، وقد سبق في الحاقة مفصلاً. ﴿وَسَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً مسعرة متقدة بها يحرقون.

وإنما[1] يجرون إلى جهنم بالسلاسل لعدم انقيادهم للحق، ويحقرون بأن يقيدوا بالأغلال لعدم تواضعهم لله، ويحرقون بالنار لعدم احتراقهم بنار الخوف من الله تعالى.

والمعنى: أي إنّا هيأنا لمن كفروا بنعمتنا، وخالفوا أمرنا سلاسل بها يقادون إلى الجحيم وأغلالاً بها تشد أيديهم إلى أعناقهم كما يفعل بالمجرمين في الدنيا، وناراً بها يحرقون. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وبعد أن ذكر ما أعده للكافرين بين ما أعده للشاكرين من شراب شهي، ولباس بهيّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾؛ أي: إن أهل البر والطاعة والإخلاص والصدق. جمع بر كرب وأرباب أو جمع بار كشاهد وأشهاد، وهو من يبر خالقه؛ أي: يطيعه. يقال: بررته أبره كعلمته وضربته. وعن الحسن رحمه الله: البر: من لا يؤذي الذر ولا يضمر الشر، كما قيل:

ولاَ تُـؤْذِ نَـمْـلاً إنْ أَرَدْتَ كَـمَـالَـكَـا   فـإنَّ لَـهَـا نَـفْـسَـاً تَـطِـيْـبُ كَـمَـالَـكَـا

وفي «المفردات»: البر خلاف البحر، وتصور منه التوسع، فاشتق منه البر؛ أي: المتوسع من فعل الخير، وبر العبد ربه: توسع في طاعته، ويشمل الاعتقاد والأعمال الفرائض والنوافل. وفي «الصحاح» جمع البر: الأبرار، وجمع البار:

---

(١) روح البيان.

البررة. ﴿يَشْرَبُونَ﴾ في الجنة. والشرب: تناول كل مائع ماء كان أو غيره؛ أي: يشربون ابتداء كالمطيعين، أو انتهاء كالمعذّبين من المؤمنين بحكم العدل ﴿مِن كَأْسٍ﴾؛ أي: من خمر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾؛ أي: ما تمزج به ﴿كَافُورًا﴾؛ أي: ماء عين تسمى بالكافور، وهي من أنهار الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده دون طعمه، وإلا فنفس الكافور لا يشرب. ونظيره: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾؛ أي: كنار. والجملة صفة لـ ﴿كَأْسٍ﴾، وقيل: إنّ كان هنا زائدة؛ أي: من كأس مزاجها كافوراً. والكأس[1] في اللغة: هو الإناء الذي فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسمّ كأساً، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة بل يكون من الزجاج، ومن الذهب والفضة والصينيّ وغير ذلك. وقد كانت كأسات العرب من أجناس مختلفة، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر، كما في قول الشاعر:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ وَأُخْرَىٰ تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾؛ أي: ما يمازج تلك الكأس وتخلط به، يقال: مزج الشراب يمزجه مزجاً؛ أي: خلطه يخلطه خلطاً، ومنه قول الشاعر:

كَأَنَّ سَبِيَّةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ كَأَنَّ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

ومنه: مزاج البدن، وهو ما يمازجه من الأخلاط من الصفراء والسوداء والبلغم والدم والكيفيات المناسبة لكلّ منها. ﴿كَافُورًا﴾ وهو اسم[2] عين في الجنة في المقام المحمدي، وكذا سائر العيون في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته دون طعمه. والكافور: طيب معروف يطيب به الأكفان والأموات لحسن رائحته. واشتقاقه من الكفر، وهو الستر، لأنه يغطي الأشياء برائحته كما سيأتي. وقال الكلبي: ﴿كَافُورًا﴾ اسم عين في الجنة، وصرفت لتوافق الآي. وقرأ عبد الله[3] ﴿قافورا﴾ بالقاف بدل الكاف، وهما كثيراً ما يتعاقبان في الكلمة كقولهم: عربيٌّ قح وكح.

﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿كَافُورًا﴾؛ أي: من كأس كان مزاجها عيناً. أو مفعول به ليشربون؛ أي: ماء عين يشرب بها عباد الله. أو بدل من محل كأس على حذف

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

مضاف؛ أي: يشربون خمراً خمر عين. أو منصوب على الاختصاص. والأول أولى. ولما كانت الكأس مبدأ شرابهم أتى فيها بـ ﴿من﴾. وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ صفة عين. وعباد الله هنا[1]: الأبرار من المؤمنين؛ لأن إضافة التكريم إلى اسمه الأعظم مختصة بالمؤمن في الغالب كالإضافة إلى ضمير المتكلم كقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ لرعايتهم حق الربوبية، فمن لم يراعه فكأنه ليس بعبد له؛ أي: يشربون بها الخمر لكونها ممزوجةً بها، كما تقول: شربت الماء بالعسل، فيكون كناية عن قوتها في لذّتها.

والظاهر: يشرب منها عباد الله، فالباء بمعنى من، فإنّ حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض، ونظيره: قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾؛ أي: أنزلنا من السحاب الماء، صرح به الشيخ المكي رحمه الله. ويعضده قراءة ابن أبي عبلة ﴿يشربها عباد الله﴾. وقيل: إنّ ﴿يَشْرَبُ﴾ مضمن معنى يلتذّ، وقيل: هي متعلقة بـ ﴿يَشْرَبُ﴾، والضمير يعود إلى الكأس.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾؛ أي: يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم، كما يفيده بناء التفعيل؛ إذ التشديد للكثرة إجراءً سهلاً لا تمنع عليهم بل تجري جرياً بقوّة واندفاع، ولأن الأنهار منقادة لأهل الجنة كالأشجار وغيرها، فتفجيراً مصدر مؤكد للفعل المتضمن معنى السهولة. والجملة صفة أخرى لـ ﴿عَيْنًا﴾. يقال: فجرت العين فانفجرت، وفجرتها فتفجرت إذا أجريتها.

والمعنى: أي إنّ الذين بروا بطاعتهم ربهم فأدوا فرائضه واجتنبوا معاصيه يشربون من خمر كان مزاج ما فيها من الشراب كالكافور طيب رائحة وبرداً وبياضاً. وهذا المزاج من عين يشرب منها عباد الله المتقون، وهم في غرف الجنّات يسوقونها إليهم سوقاً سهلاً، حيث شاؤوا، وينتفعون بها كما يشاؤون، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يحبّون وصوله إليه. قال مجاهد: يقودونها حيث شاؤوا وتتبعهم حيث مالوا وجملة قوله:

١ - ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر، وكذا ما عطف عليها كأنّه قيل: ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية؟ فقيل: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بما أوجبه الله عليهم من الصلاة والزكاة والصيام

---

(١) روح البيان.

والحجّ وغيرها. فهو مبالغة في وصفهم بالتوفّر على أداء الواجبات. والإيفاء بالشيء: هو الإتيان به تامًّا وافياً. و﴿النذر﴾: إيجاب الفعل المباح على نفسه تعظيماً لله تعالى بأن يقول: لله عليّ كذا من الصدقة وغيرها. والنذر: قربة مشروعة، ولا يصحّ إلا في الطاعة. وفي الحديث: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»؛ أي: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم، ومن أوفى بما أوجبه على نفسه فهو على الوفاء بما أوجبه الله عليه أولى.

وقصارى ذلك: أنهم يؤدون ما أوجبه الله عليهم بأصل الشرع، وبما أوجبوه على أنفسهم بالنذر. قال الفرّاء: في الكلام إضمار؛ أي: كانوا يوفون بالنذر في الدنيا.

٢ - ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿كَانَ شَرُّهُۥ﴾؛ أي: هوله وشدته وعذابه ﴿مُسْتَطِيرًا﴾؛ أي: فاشياً منتشراً في الأقطار غاية الانتشار بالغاً أقصى المبالغ من استطار الفجر إذا انتشر ضوءه، وهو أبلغ من طار بمنزلة استنفر من نفر. وأطلق الشر على أهوال القيامة، وشدائدها المنتشرة غاية الانتشار حتى ملأت السماوات والأرض مع أنها عين حكمة وصواب لكونها مضرّة بالنسبة إلى من تنزل عليه، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون خبره ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أيضاً، فإن ليوم القيامة أموراً سارّةً كما أن له أموراً ضارّةً.

ثم ﴿يُوفُونَ...﴾ إلخ، بيان لأعمالهم وإتيانهم بجميع الواجبات، وقوله: ﴿يخافون﴾ إلخ، بيان لنياتهم حيث اعتقدوا بيوم البعث والجزاء، فخافوا منه، فإن الطاعات إنما تتم بالنيّات، وبمجموع هذين الأمرين سمّاهم الله تعالى بالأبرار. قال مقاتل: كان شره فاشياً في السماوات، فانشقت وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة. وفي الأرض نسفت الجبال وغارت المياه.

والمعنى: أي ويتركون المحرمات التي نهاهم ربهم عنها خيفة سوء الحساب يوم المعاد حين يستطير العذاب، ويفشو بين الناس إلا من رحم الله تعالى.

٣ - ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ أي: كائنين على حب الطعام والحاجة إليه، ونحوه قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. أو كائنين[1] على حب

---

(١) روح البيان.

الإطعام، فيطعمون بطيب النفس، فالضمير إلى مصدر الفعل كما في قوله تعالى: ﴿اَعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. أو كائنين على حب الله؛ أي: إطعاماً كائناً على حبه تعالى، وهو الأنسب لما سيأتي من قوله: ﴿لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ فالمصدر مضاف إلى المفعول، والفاعل متروك؛ أي: على حبهم لله تعالى، ويجوز أن يضاف إلى الفاعل والمفعول متروك؛ أي: على حبّ الله الإطعام. والطعام خلاف الشراب، وقد يطلق على الشراب أيضاً؛ لأن طعم الشيء: ذوقه مأكولاً أو مشروباً. والظاهر: الخصوص وإن جاز العموم، والأظهر: أن المراد من إطعام الطعام الإحسان إلى المحتاجين ومواساتهم بأيّ وجه كان، وإنما خص الطعام لكونه أشرف أنواع الإحسان لا جرم أن عبر به عن جميع وجوه المنافع.

واعلم[1]: أنّ مجامع الطاعات محصورة في أمرين الطاعة لأمر الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، والشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾. فإن الطعام وهو جعل الغير طاعماً كناية عن الإحسان إلى المحتاجين والمواساة إليهم بأي وجهٍ كان، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه إلا أن الإحسان بالطعام لما كان أشرف أنواع الإحسان.. عبر عن جنس الإحسان باسم هذا النوع، كما في «حواشي ابن الشيخ».

﴿مِسْكِينًا﴾؛ أي: فقيراً لا شيء له أصلاً عاجزاً عن الكسب. ﴿وَيَتِيمًا﴾؛ أي: طفلاً لا أب له ﴿وَأَسِيرًا﴾ مأخوذاً لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة، أي أسير كان فإنه ﷺ كان يؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين، فيقول: أحسن إليه، لأنه يجب إطعام الأسير الكافر والإحسان إليه في دار الإسلام عند عامّة العلماء إلى أن يرى الإمام رأيه فيه من قتل أو منّ أو فداء أو استرقاق. وفي «الخطيب»: خصّ هؤلاء الثلاثة بالذكر، لأن المسكين عاجز عن الاكتساب بنفسه لما يكفيه، واليتيم مات من يكتسب له، وبقي عاجزاً عن الكسب لصغره، والأسير لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة انتهى.

والمعنى[2]: أي ويطعمون الطعام وهم في محبة له، وشغف المسكين العاجز عن الاكتساب واليتيم الذي مات أبوه، والأسير المأخوذ من قومه المملوكة رقبته

---

(١) روح البيان.	(٢) المراغي.

الذي لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلةً. ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر أن الأبرار يحسنون إلى هؤلاء المحتاجين بين أن لهم في ذلك غرضين:

١ - رضي الله عنهم، أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ والجملة في موضع الحال من فاعل ﴿يطعمون﴾ على تقدير القول؛ أي: قائلين ذلك بلسان الحال، أو بلسان المقال إزاحة لتوهم المنّ المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للأجر؛ أي: يقولون: إنما نطعمكم. أو قائلين: إنّما نطعمكم يعني: أنهم لا يتوقعون المكافأة، ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك. قال المفسرون: لم يتكلموا بهذا، ولكن علمه الله من قلوبهم، فأثنى عليهم، وعلم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه. وعن الصديقة رضي الله عنها: أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل الرسول ما قالوا؟ فإذ ذكر دعاءهم دعت لهم بمثله ليبقى لها ثواب الصدقة خالصاً عند الله. والوجه: الجارحة[1] عبر به عن الذات لكونه أشرف الأعضاء. وقال بعضهم: الوجه مجاز عن الرضى، لأنّ الرضى معلوم في الوجه، وكذا السخط.

وجملة قوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ لنا بالمال ﴿وَلَا شُكُورًا﴾؛ أي: شكراً باللسان ومدحاً ودعاءً. مقررة مؤكدة لما قبلها، لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة، ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه، أي: لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام، ولا نريد منكم الشكر لنا بل هو خالص لوجه الله تعالى.

والفرق بين الجزاء والأجر[2]: أن الأجر ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً، ويقال فيما كان عن عقد، وما يجري مجرى العقد، ولا يقال إلا في النافع. وأمّا الجزاء فيقال فيما كان عن عقد وغير عقد، ويقال في النافع والضارّ. والمجازاة: المكافأة، وهي مقابلة نعمة بنعمة هي كفؤها. والشكور: مصدر على وزن الدخول. قال القاشانيّ: لا نريد منكم مكافأة وثناء لعدم الاحتجاب بالأغراض والأعواض. وفي «التأويلات النجمية»: لا نريد منكم جزاء بالذكر الجميل في

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الدنيا، ولا شكوراً عن عذاب الآخرة؛ إذ كل عمل يعمله العامل لثواب الآخرة لا يكون لوجه الله تعالى، بل يكون لحظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾. وقال ﷺ حكايةً عن الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».

والحاصل: أن معاملة العبد المخلص إنما هي مع الله، فلا حق له على الغير، فكيف يريد ذلك؟ وفيه نصح لمن أراد النصيحة، فإن الإطعام ونحوه حرام بملاحظة الغير، وحظ النفس، فيجب أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى من غير شوب بالرياء وبحظ المنعم.

والمعنى(١): إنّما نطعمكم لوجه الله تعالى، فلا نمن عليكم، ولا نتوقع منكم مكافأةً ولا غيرها مما ينقص الأجر. ثم أكد هذا ووضحه بقوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً...﴾ إلخ؛ أي: لا نطلب منكم مجازاةً تكافئوننا بها، ولا أن تشكرونا لدى الناس. قال مجاهد، وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله من قلوبهم، فأثنى به ليرغب في ذلك راغب.

٢ ـ خوف يوم القيامة، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: عذاب يوم متّصف بهاتين الصفتين، فلذلك نفعل بكم ما نفعل، رجاء أن يقينا ربنا بذلك الإطعام شره، لا لإرادة مكافأتكم. فقوله(٢): ﴿إِنَّا نَخَافُ...﴾ إلخ، بدل من قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ...﴾ إلخ، في معرض التعليل لإطعامهم، فقوله: ﴿يَوْمًا﴾ مفعول ﴿نَخَافُ﴾ على تقدير مضاف، كما ذكرنا، فـ ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ حال مقدمة منه، ولو أخر.. لكان صفة له. أو مفعوله قوله: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ بواسطة حرف الجر على ما هو الأصل في تعديته، لأنّه يقال: خاف منه، فيكون ﴿يَوْمًا﴾ بدلاً من محله بدون تقدير، بناءً على التعدية بنفسه أو بتقدير ﴿نَخَافُ﴾ آخر. وقوله: ﴿عَبُوسًا﴾ من قبيل إسناد الفعل إلى زمانه.

والمعنى: يوماً تعبس فيه الوجوه كما روي: «أنَّ الكافر يعبس يومئذٍ حتى

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران». والعبوس: قطوب الوجه وتغيره من ضيق الصدر. أو معنى ﴿عَبُوسًا﴾ يشبه الأسد العبوس في الشدّة والضراوة. أي السطوة والإقدام على إيصال الضرر بالعنف والحدة بكل من رآه فهو من المبالغة في التشبيه، فإن العبوس الأسد كالعباس. ﴿قَمْطَرِيرًا﴾؛ أي: شديد العبوس. وقال مجاهد[1]: إن العبوس بالشفتين، والقَمْطَرير بالجبهة والحاجبين.

والخلاصة: أي إنا نفعل ذلك ليرحمنا ربنا، ويتلقانا بلطفه في ذلك اليوم العبوس القمطرير.

وبعد أن حكى عنهم أنهم أتوا بالطاعة لغرضين: طلب رضا الله، والخوف من يوم القيامة بين أنه أعطاهم الغرضين. فأشار إلى الثاني بقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه، وحفظهم ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾؛ أي: ضرره بسبب خوفهم وتحفظهم منه. فـ﴿شَرَّ﴾ مفعول ثان لوقى المتعدي إلى اثنين. وقرأ الجمهور ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ بتخفيف القاف، وأبو جعفر بشدّها.

والمعنى: أي فدفع الله عنهم ما كانوا في الدنيا يحذرون من شرّ ذلك اليوم العبوس بما كانوا يعملون مما يرضي ربهم عنهم من الإطعام لوجه الله تعالى.

وأشار إلى الأوّل بقوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أي: أعطاهم بدل العبوس في الكفار ﴿نَضْرَةً﴾ وحسناً وإضاءة في الوجوه ﴿وَسُرُورًا﴾ وفرحاً في قلوبهم بدل حزن الفجار. وقال الضحاك: النضرة: البياض والنقاء في وجوههم. وقال سعيد بن جبير: الحسن والبهاء، وقيل: النضرة: أثر النعمة. وهما مفعولان ثانيان لـ ﴿لقاهم﴾. ونحو الآية قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾. وقد جرت العادة: أن القلب إذا سر.. استنار الوجه. قال كعب بن مالك: وكان رسول الله ﷺ إذا سرّ.. استنار وجهه كأنه فلقة قمر. وقالت عائشة رضي الله عنها: «دخل عليّ رسول الله ﷺ مسروراً تبرق أسارير وجهه...» الحديث.

﴿وَجَزَىٰهُم﴾؛ أي: أعطى كلَّ واحدٍ منهم بطريق الأجر والعوض ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على مشاق التكاليف ومخالفة الشهوات. فـ ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: بسبب صبرهم

(١) الشوكاني.

على مشاقّ الطاعات ومهاجرة هوى النفس في اجتناب المحرمات وإيثار الأموال ﴿جَنَّةً﴾ مفعول ثان لـ ﴿جزاهم﴾؛ أي: بستاناً يأكلون منه ما شاؤوا. ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه ويتزيّنون به. وقرأ الجمهور ﴿وَجَزَىٰهُم﴾، وعليٌّ ﴿وجازاهم﴾ على وزن فاعل. فالمراد بالجنة هنا[1] ليس دار السعادة المشتملة على جميع العطايا والكرامات، وإلا لما احتيج إلى ذكر الحرير بعد ذكر الجنة بل البستان كما ذكرنا، فذكرها لا يغني عن ذكر الملبس. ثم إن البستان في مقابلة الإطعام والصبر على الجوع، والحرير في مقابلة الصبر على العري. لأن اجتناب إيثار الأموال يؤدي إلى الجوع والعري.

والخلاصة: أي وجزاهم بصبرهم على الإيثار، وما يؤدّي إليه من الجوع والعري بستاناً فيه مأكول هنيٌّ، وحريراً منه ملبس بهيٌّ. ونحو الآية قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾؛ أي: على السرر منصوب على الحال من مفعول ﴿جزاهم﴾، والعامل فيها جزى. وجوز أبو البقاء أن يكون صفة لـ ﴿جَنَّةً﴾، ولكنها سببية، كأنه قال: جنة متكئين فيها على الآرائك.

وقيَّد المجازاة[2] بتلك الحال؛ لأنه أرفه الأحوال، فكأن غيرها لا يدخل في الجزاء. والأرائك: هي السرر في الحجال، تكون في الجنة من الدر والياقوت مزينة بقضبان الذهب والفضة وألوان الجواهر. جمع أريكة كسفينة، ولا تكون أريكة حتى تكون في حجلة، وهي بالتحريك واحدة حجال العروس، وهي بيت مزين بالثياب والستور. والظاهر أن ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلق بـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، لأن الاتكاء يتعدى بـ (على)؛ أي: مستقرين متمكنين على الأرائك كقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ﴾. ولا يبعد أن يتعلق بمقدر، ويكون حالاً من ضمير متكئين. أي: متكئين فيها على الوسائد أو غيرها مستقرين على الأرائك، فيكون الاتكاء بمعنى الاعتماد.

وجملة قوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ في محل النصب على الحال من مفعول ﴿جزاهم﴾، فتكون من الحال المترادفة، أو من الضمير في ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، فتكون من الحال المتداخلة. أو صفة أخرى لـ ﴿جَنَّةً﴾. والزمهرير: أشد البرد.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

والمعنى: إنهم لا يرون في الجنة حر الشمس، ولا برد الزمهرير. وقال ثعلب: الزمهرير: القمر بلغة طيّيء.

والمعنى[1]: أي لا يرون في الجنة حرارةً ولا برودةً، كما يرون في الدنيا. لأنّ الحرارة غالبة على أرض العرب، والبرودة على أرض العجم والروم؛ **أي**: **يمرّ** عليهم هواء معتدل لا حارّ، ولا بارد مؤذ، بل جوّ واحد معتدل دائم سرمديّ **فهم** لا يبغون عنها حولاً. يعني: أنّ قوله: ﴿لَا يَرَوْنَ...﴾ إلخ، كناية عن هذا المعنى. وفي الحديث: «هواء الجنة سجسج لا حر فيه ولا قر». أي: معتدل لا حر فيه ولا برد، فإن القر بالضم: البرد.

وقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: قريبة إليهم ﴿ظِلَالُهَا﴾؛ أي: ظلال **أشجار** الجنة. والظلال: جمع ظلّ بالكسر نقيض الضح، و﴿ظِلَالُهَا﴾ فاعل ﴿وَدَانِيَةً﴾ من الدنو بمعنى القرب، إمّا بحسب الجانب أو بحسب السمك. والضمير إلى الجنّة أو إلى أشجارها.

والمعنى: إنّ ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار من جوانبهم حتى صارت الأشجار بمنزلة المظلّة عليهم، وإن كان لا شمس فيها مؤذية لتظلهم منها بمعنى أنه لو كان هناك شمس مؤذية.. لكانت أشجارها مظلة عليهم. ففيه بيان لزيادة نعيمهم، وكمال راحتهم، فإن الظل في الدنيا للراحة، ويقال: إنّ في الجنّة من الضياء ما لا يحتاجون معه إلى شمس ولا قمر، ونور الجنة من نور العرش.

وقرأ الجمور[2]: ﴿وَدَانِيَةً﴾ بالنصب عطفاً على محل ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ أو على ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ أو صفة لمحذوف؛ أي: وجنة دانية، كأنّه قال: وجزاهم جنة دانية. وقال الزجاج: هو صفة لـ ﴿جَنَّةً﴾ المتقدم ذكرها. وقال الفرّاء: هو منصوب على المدح. وقرأ أبو حيوة ﴿وَدَانيةٌ﴾ بالرفع على أنه خبر مقدم، و﴿ظِلَالُهَا﴾ مبتدأ مؤخّر، والجملة في موضع النصب على الحال. وقرأ ابن مسعود والأعمش ﴿ودانيا عليهم﴾ وهو كقول: ﴿خاشعا أبصارهم﴾. وقرأ أبيّ ﴿ودان﴾ مرفوعاً.

وقوله: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا﴾؛ أي: سخّرت ثمارها، وسهّل تناولها لهم. ﴿تَذْلِيلًا﴾؛

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

أي: تسخيراً وتسهيلاً تامّاً. معطوف على ﴿دانية﴾، كأنّه قال: ومذلّلة، ويجوز أن تكون الجملة في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ويجوز أن تكون مستأنفة.

والمعنى: أنّها سخّرت ثمارها لمتناولها تسخيراً كثيراً بحيث يتناولها القائم والقاعد والمضطجع، لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك. قال النحاس: المذلل: القريب المتناول، ومنه قولهم حائط ذليل؛ أي: قصير. قال ابن قتيبة: ذللت: أدنيت من قولهم: حائط ذليل أي: كان قصير السمك. وقيل: ﴿ذللت﴾؛ أي: جعلت منقادة لا تمتنع على قطافها كيف شاؤوا.

﴿وَيُطَافُ﴾؛ أي: يدور الخدم من طافه بمعنى دار، والطواف والإطافة كلاهما لازم، وإنّما[1] جاءت التعدية هنا من الباء في قوله: ﴿بِآنِيَةٍ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الأبرار إذا أرادوا الشرب. والطائف: الدائر، وهو الخدم كما يجيء. ﴿بِآنِيَةٍ﴾؛ أي: بأوعية، جمع إناء، نحو: كساء وأكسية، والأواني جمع الجمع كما في «المفردات». وفي بعض التفاسير: الباء فيها إن كانت للتعدية فهي قائمة مقام الفاعل؛ لأنّها مفعول له معنى، وإلا فالظاهر أن يكون القائم مقامه عليهم. ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ صفة لـ ﴿آنية﴾ ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب، وهو الكوز العظيم المدوّر الرأس لا أذن له ولا عروة، فيسهل الشرب منه من كلّ موضع، ولا يحتاج عند التناول إلى إدارته، وهو مستعمل الآن في بلاد العرب.

والحاصل: أنه لما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف شرابهم، وقدم عليه وصف الأواني التي يشرب بها، وذكره بلفظ المجهول، لأنّ المقصود ما يطاف به لا الطائفون. ثم ذكر الطائفين بقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ . . .﴾ إلخ، وجملة قوله: ﴿كَانَتْ﴾؛ أي: تلك الأكواب ﴿قَوَارِيرَا۠﴾؛ أي: كالقوارير في صفائها وشفافتها، جمع قارورة، وهو كل ما قر فيه الشراب ونحوه وكان شفّافاً. وحسن التكرير في قوله: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ لما اتصل به من بيان أصلها؛ أي: تكونت، وحدثت تلك الأكواب جامعة بين صفاء الزجاجة وشفافتها، ولين الفضة وبياضها يرى ما في داخلها من خارجها، فـ ﴿كان﴾ تامة. و﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الأول حال من فاعل ﴿كَانَتْ﴾ على المبالغة في

(١) روح البيان.

التشبيه، وليس المعنى: أنها قوارير زجاجية متخذة من الفضة بل الحكم عليها بأنها قوارير، وأنها من فضة من باب التشبيه البليغ، لأنها في نفسها ليست زجاجاً ولا فضة. لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن أرض الجنة من فضة، وأواني كل أرض من تربة تلك الأرض». ويستفاد من هذا الكلام وجهٌ آخر لكون تلك الأكواب من فضة، ومن قوارير، وهو أن أصل القوارير في الدنيا: الرمل، وهي سريعة الانكسار. وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة، فكما أنَّ الله قادر على أن يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية، فكذلك قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة صافية.

والغرض[1] من ذكر هذه الآية التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة الفضة إلى الرمل، فكما أنّه لا نسبة بين هذين الأصلين، فكذا لا نسبة بين القارورتين، كذا في «حواشي ابن الشيخ».

قال بعضهم: لعل الوجه في اختيار كون ﴿كَانَتْ﴾ تامة مع إمكان جعلها ناقصة، و﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الأول خبراًلها الإعظام بتكوين الله تعالى، فيكون فيه تفخيم الآنية بكونها أثر قدرة الله تعالى. و﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الثاني بدل من الأول على سبيل الإيضاح والتعيين. أي: قوارير مخلوقةً من فضة. ولا منافاة[2] بين كون الأواني من الفضة وبين كونها من الذهب، كما ذكر في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ لأنّهم تارة يسقون بهذه وتارة يسقون بتلك.

وقرأ نافع، والكسائيّ، وأبو بكر[3]: ﴿قواريراً قواريراً﴾ بالتنوين فيهما مع الوصل وبالوقف عليهما بالألف، وقد تقدم وجه هذه القراءة في تفسير قوله: ﴿سَلَاسِلَاْ﴾ من هذه السورة، وبيَّنّا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع، فارجع إليه. وقرأ حمزة بعدم التنوين فيهما، وعدم الوقف بالألف، ووجه هذه القراءة ظاهر، لأنّهما ممنوعان من الصرف لصيغة متنهى الجموع. وقرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف. وقرأ ابن كثير بتنوين الأول دون الثاني، والوقف على الأول بالألف دون الثاني. وقال الزمخشري[4]: وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق، لأنّه فاصلة، وفي الثاني لإتباعه الأول انتهى.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

وكذا قال في قراءة من قرأ ﴿سلاسلا﴾ بالتنوين إنه بدل من حرف الإطلاق، أجري الفواصل مجرى أبيات الشعر، فكما أنّه يدخل التنوين في القوافي المطلقة إشعاراً بترك الترنم، كما قال الرّاجز:

يَا صَاحِ مَا هَاجَ ٱلدُّمُوْعَ ٱلذُّرَّ فَنْ

فهذه النون بدل من الألف، إذ لو ترنم لوقف بألف الإطلاق. قال ابن الجزري: وكلهم وقفوا عليه بالألف، إلا حمزة وورشاً، وإنما صرفه من صرفه، لأنه وقع في مصحف الإمام بالألف، وإنما كتب في المصحف بالألف، لأنه رأس آيةٍ، فتشابه القوافي والفواصل التي تزاد فيها الألف للوقف انتهى. وقرىء الثاني بالرفع على معنى هي قوارير اهـ «روح البيان».

وجملة: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ صفة لـ﴿قَوَارِيرَاْ﴾. قرأ الجمهور[1] ﴿قَدَّرُوهَا﴾ بفتح القاف على البناء للفاعل؛ أي: قدّرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون زيادة ولا نقصان.

وقال مجاهد وغيره: أتوا بها على قدرريهم بغير زيادة ولا نقصان. قال الكلبي: وذلك ألذ وأشهى. وقيل: قدرها الملائكة، وقيل: قدرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهواتهم وحاجتهم، فجاءت كما يريدون في الشكل لا تزيد ولا تنقص.

وقرأ علي، وابن عباس، والسلميّ، والشعبيّ، وزيد بن علي، وعبيد بن عمير، وأبو عمرو في رواية عنه، وابن أبزى، وقتادة، والجحدري وأبو حيوة، وعباس عن أبان، والأصمعي عن أبي عمرو، وابن عبد الخالق عن يعقوب ﴿قُدِّروها﴾ بضمّ القاف وكسر الدال مبنياً للمفعول؛ أي: جعلت لهم على قدر إرادتهم. قال أبو عليّ الفارسي: كأنَّ اللفظ قدروا عليها، وفي المعنى قلب؛ لأن حقيقة المعنى أن يقال: قدرت عليهم، فهي مثل قوله: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾. ومثل قول العرب إذا طلعت الجوزاء ألقي العود على الحرباء. وقال الزمخشري: ووجهه أن يكون قدر منقولاً من قدر، تقول: قدرت الشيء وقدرنيه فلان إذا جعلت قادراً عليه، ومعناه: وجعلوا قادرين لها كما شاؤوا، وأطلق لهم أن

---

(١) الشوكاني.

يقدروا على حسب ما اشتهوا انتهى.

وقال أبو حاتم: قدرت الأواني على قدر ريهم.

وقال أبو حيان[1]: والأقرب في تخريج هذه القراءة الشاذّة أن يكون الأصل: قدر ريهم منها تقديراً، فحذف المضاف، وهو الريّ، وأقيم الضمير مقامه، فصار التقدير: قدّروا منها، ثم اتسع في الفعل فحذف ﴿مِنْ﴾، ووصل الفعل إلى الضمير بنفسه، فصار قدروها تقديراً، فلم يكن فيه إلا حذف مضاف واتساع في المجرور انتهى.

وبعد أن وصف أواني مشروبهم وصف المشروب نفسه، فقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾؛ أي: الأبرار ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة بسقي الله، أو بسقي الطائفين بأمر الله. وفيه زيادة تعظيم لهم ليست في قوله: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ بصيغة المعلوم. ﴿كَأْسًا﴾؛ أي: خمراً. وقد تقدم أنّ الكأس هو الإناء فيه الخمر، وإذا كان خالياً من الخمر فلا يقال له: كأس. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾؛ أي: ما تمزج به، وتخلط ﴿زَنجَبِيلًا﴾ والزنجبيل[2]: عرق يسري في الأرض ونباته كالقصب والبردي، وعلم منه أن ما كان مزاجها زنجبيلا غير ما كان مزاجها كافوراً.

والمعنى: أنّ أهل الجنة يسقون في الجنة كأساً من الخمر ممزوجة بماء يشبه الزنجبيل في الطعم، وكان الشراب الممزوج به أطيب ما يستطيب العرب، وألذ ما تستلذ به. لأنه يحذو اللسان، ويهضم الطعام، كما في «عين المعاني».

ولما كان في تسمية تلك العين بالزنجبيل توهم أن ليس فيها سلاسة الانحدار في الحلق وسهولة مساغها كما هو مقتضى اللذع والإحراق أزال ذلك الوهم بقوله: ﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿زَنجَبِيلًا﴾ أو من ﴿كَأْسًا﴾ أو بفعل مقدر؛ أي: يسقون عينا ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها، فكأنَّ العين سميت بصفاتها. والسلسبيل: الشراب اللذيذ. قال بعضهم: يطلق عليها ذلك، وتوصف به لا أنه علم لها. يعني: أن ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ صفة لا اسم، وإلاّ لامتنع من الصرف للعلمية والتأنيث، ولم يقرأ به واحد من العشرة. ويقال: إنما صرف مع أنه اسم عين، وهي مؤنث معنوي لرعاية رأس الآية. وقال ابن المبارك: من طريق

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

الإشارة معنى السلسبيل سل من الله إليه سبيلاً. قال ابن الشيخ:[1] جعل الله مزاج شراب الأبرار أوّلا كافوراً وثانياً زنجبيلاً، لأنّ المقصود الأهم حال الدخول البرودة لهجوم العطش عليهم من حر العرصات، وعبور الصراط، وبعد استيفاء حظوظهم من أنواع نعيمها ومطعوماتها تميل طباعهم إلى الأشربة التي تهيج الاشتهاء وتعين على تهنئة ما تناولوه من المطعومات، ويلتذ الطبع بشربها. فلعل الوجه في تأخير ذكر ما يمزج به الزنجبيل عما يمزج به الكافور ذلك.

والخلاصة[2]: ويسقى الأبرار في الجنة خمراً ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانوا في الدنيا يحبون ذلك، ويستطيبونه، ويسقون من عينٍ في الجنة غاية في السلاسة وسهولة الانحدار في الحلق. قال ابن الأعرابي: لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن، وكأن العين إنما سميت بذلك لسلاستها وسهولة مساغها اهـ. وهذا كله ما هو إلا أسماء لما هو شبيه بما في الدنيا، وهناك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. فالمعاني غير ما نعهد، والألفاظ لمجرد تخيل شيء مما نراه، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

ثم ذكر أوصاف السقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب، فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يدور على الأبرار ﴿وِلْدَانٌ﴾ فإنهم أخف في الخدمة. جمع وليد، وهو من قرب عهده بالولادة. ﴿مُخَلَّدُونَ﴾؛ أي: دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء، لا يتغيرون أبداً.

والمعنى: أي ويطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة، يأتون على ما هم عليه من الشباب والطراوة والنضارة، لا يهرمون، ولا يتغيرون، ولا تضعف أجسامهم عن الخدمة.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها المخاطب؛ أي: إذا رأيت هؤلاء الولدان ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾؛ أي: خلتهم لحسن ألوانهم ونضارة وجوههم وانتشارهم في قضاء حوائج سادتهم ﴿لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾؛ أي: متفرّقاً؛ أي: كأنهم اللؤلؤ المنثور؛ أي: المفرق. واللؤلؤ المنثور أجمل في النظر من اللؤلؤ المنظوم، ولأنّهم إذا كانوا كذلك كانوا سراعاً في

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الخدمة. واللؤلؤ: الجوهر المعروف، يجمع على اللآلىء، يقال: تلألأ الشيء إذا لمع لمعان اللؤلؤ.

قال أهل المعاني[1]: إنما شبهوا بالمنثور لانتشارهم في الخدمة، ولو كان صفًّا.. لشبهوا بالمنظوم. وقيل: إنما شبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون، لأنهن لا يمتهن بالخدمة. وقال بعضهم: منثوراً من صدفه. يعني: أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه، وهو غير مثقوب لأنّه أحسن وأكثر ماء.

ولما ذكر نعيم أهل الجنة مما تقدم ذكر أن هناك أموراً أعلى وأعظم من ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أيها المخاطب ببصرك ﴿ثَمَّ﴾؛ أي: ما هنالك. يعني: الجنة. قال في «الإرشاد»: ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر ولا معنوي. ومآل المعنى: أينما وقع بصرك في الجنة. ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ كثيراً لا يوصف، وهو ما يتنعم به. ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ أي: عظيماً واسعاً، لا يقادر قدره، كما في الحديث: «أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه». والآية من باب[2] الترقّي والتعميم. يعني: أنّ هناك أموراً أخر أعلى وأعظم من القدر المذكور. و﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان بمعنى هنالك والعامل فيها ﴿رَأَيْتَ﴾. قال الفراء: في الكلام ﴿ما﴾ مضمرة؛ أي: وإذا رأيت ما ثمّ كقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: ما بينكم. وهذا فاسد، لأنّه من حيث جعله معمولاً لـ ﴿رَأَيْتَ﴾ لا يكون صلةً لـ ﴿ما﴾، لأنّ العامل فيه إذ ذاك محذوف؛ أي: ما استقرّ ثمّ. وقال الزجاج معترضاً على الفرّاء: إنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، ولكن ﴿رَأَيْتَ﴾ يتعدى في المعنى إلى ﴿ثمّ﴾، والمعنى: إذا رأيت ببصرك ثمّ، ويعني: بـ ﴿ثمّ﴾ الجنة. قال السديّ: النعيم: ما يتنعّم به. والملك الكبير استئذان الملائكة عليهم، وكذا قال مقاتل والكلبي. وفي بعض التفاسير: الملك بالضمّ: هو التصرف في المأمورين بالأمر والنهي، ومنه: الملك. وأما الملك بالكسر فهو التصرف في الأعيان المملوكة بحسب المشيئة، ومنه: المالك. والأوّل جامع للثاني، لأنّ كل ملك مالك، ولا عكس اهـ.

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ ظرف على أنه خبر مقدم ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ مبتدأ مؤخّر. والجملة حال من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يطوف على الأبرار ولدان عالياً على المطوف عليهم ثياب سندس؛ أي: فوقهم وعلى ظهوره ثياب سندس. والسندس: هو الديباج الرقيق الفاخر الحسن. وإضافة الثياب إلى السندس كإضافة الخاتم إلى الفضة. وقوله: ﴿خُضْرٌ﴾ بالرفع صفة ﴿ثِيَابُ﴾. وهو جمع أخضر كحمر جمع أحمر. والضمير في ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ للأبرار المطوف عليهم كما مرّ آنفاً، لأنّ المقام مقام تعداد نعيمهم وكرامتهم، فالمناسب أن تكون الثياب الموصوفة لهم لا للولدان الطائفين. وعن الإمام: أنَّ المراد فوق خيامهم المضروبة عليهم، والمعنى: أن حجالهم من الحرير والديباج، وهذا من علامات الملك. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ثِيَابُ﴾ بحذف المضاف؛ أي: ثياب استبرق، وهو معرَّب استبره بمعنى الغليظ، وهو بقطع الهمزة لكونه اسما للديباج الغليظ الذي له بريق.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ثَمَّ﴾ بفتح المثلثة. وقرأ حميد والأعرج ﴿ثُمَّ﴾ بضمها حرف عطف، وجواب ﴿إذا﴾ على هذا محذوف؛ أي: وإذا رميت ببصرك ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ترى عجباً عجيباً وصنعاً بديعاً، لا يقادر قدره، ولا يدرك كنهه. وقرأ عمر[2] وابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجحدريّ، وأهل مكة، وجمهور السبعة ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ بفتح الياء وضم الهاء، على أنه ظرف في محل رفع على أنّه خبر مقدم، و﴿ثِيَابُ﴾ مبتدأ مؤخّر كأنه قيل: فوقهم ثياب سندس. قال الفرّاء: إن عاليهم بمعنى فوقهم، وكذا قال ابن عطية. قال أبو حيان: عالٍ وعالية اسم فاعل، فيحتاج في كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب، وقد تقدمه إلى هذا الزجاج كما مرّ. وقال: هذا مما لا نعرفه في الظروف، ولو كان ظرفاً.. لم يجز إسكان الياء، ولكنّه نصب على الحال من شيئين. أحدهما: الهاء والميم في قوله: ﴿يطوف عليهم﴾؛ أي: على الأبرار ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ عالياً الأبرار ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾؛ أي: يطوف عليهم في هذه الحال. والثاني: أن يكون حالاً من الولدان؛ أي: إذا رأيتهم.. حسبتهم لؤلؤاً منثوراً في حال علو الثياب أبدانهم. وقال أبو علي الفارسي: العامل في الحال إما ﴿لقاهم نضرة وسروراً﴾، وإما ﴿وَجَزَٰهُم بِمَا صَبَرُوا﴾، وقال: ويجوز أن

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط والشوكاني.

يكون ظرفاً. وقرأ ابن عباس بخلاف عنه، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وابن محيصن، ونافع، وحمزة ﴿عاليْهِم﴾ بسكون الياء وكسر الهاء على أنه خبر مقدم، و﴿ثِيَابُ﴾ مبتدأ مؤخر، أو على أنّ ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ مبتدأ و﴿ثِيَابُ﴾ مرتفع بالفاعلية، وإن لم يعتمد الوصف، كما هو مذهب الأخفش. وقال الفرّاء: هو مرفوع بالابتداء وخبره ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾، واسم الفاعل مراد به الجمع، واختار أبو عبيد هذه القراءة لقراءة ابن مسعود ﴿عاليتهم﴾. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وطلحة، وزيد بن عليّ بالتاء مضمومة. وعن الأعمش وأبان أيضاً عن عاصم بفتح الياء. وقرأ ابن سيرين، ومجاهد، وقتادة، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، والزعفرانيّ، وأبان أيضاً ﴿عَلَيْهم﴾ حرف جرّ، وهي قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة. وقرأت عائشة رضي الله عنها ﴿عَلَتْهم﴾ بتاء التأنيث فعلاً ماضياً، فثياب فاعل.

وقرأ الجمهور بإضافة ﴿ثِيَابُ﴾ إلى ﴿سُندُسٍ﴾. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة بتنوين ﴿ثياب﴾ وقطعها عن الإضافة، ورفع ﴿سُندُسٍ﴾ و﴿خُضْرٌ﴾ و﴿استبرق﴾ على أنّ السندس نعت للثياب، لأن السندس نوع من الثياب، وعلي أن ﴿خُضْرٌ﴾ نعت لـ ﴿سُندُسٍ﴾، لأنّه يكون أخضر وغير أخضر، وعلى أنّ ﴿إستبرق﴾ معطوف على سندس؛ أي: وثِيَابُ استبرق والجمهور من القرّاء اختلفوا في ﴿خُضْرٌ﴾ و﴿استبرق﴾ مع اتفاقهم على جرّ ﴿سُندُسٍ﴾ بإضافة ﴿ثِيَابُ﴾ إليه وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن محيصن بجرّ ﴿خُضْرٌ﴾ نعتاً لـ﴿سُندُسٍ﴾ ورفع ﴿استبرق﴾ عطفاً على ﴿ثِيَابُ﴾ أي عليهم ثياب سندس ﴿سُندُسٍ﴾ وعليهم ﴿استبرق﴾ وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع ﴿خُضْرٌ﴾ نعتاً لـ ﴿ثِيَابُ﴾ وجرّ ﴿استبرق﴾ عطفاً على ﴿سُندُسٍ﴾. واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد، لأنّ الخضر أحسن ما كانت نعتاً لـ ﴿ثِيَابُ﴾، فهي مرفوعة، والاستبرق من جنس السندس. وقرأ نافع وحفص برفع ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾، لأنّ خضر نعت لـ ﴿ثِيَابُ﴾، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ معطوف على الثياب. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي بجرّ ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ على أن خضر نعت لـ ﴿سُندُسٍ﴾ ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ معطوف على ﴿سُندُسٍ﴾. وقرؤوا كلهم بصرف ﴿إستبرق﴾ إلا ابن محيصن، فإنّه لم يصرفه، قال: لأنّه أعجميّ، ولا وجه لهذا، لأنّه نكرة إلا أن يقول: إنه علم لهذا الجنس من الثياب. وقرىء ﴿استبرق﴾ بوصل الهمزة على أنَّ أصله استفعل من البريق، تقول: برق واستبرق كعجب واستعجب، والصواب قطع الهمزة وإجراؤه على قراءة

الجماهير؛ لأنّه معرّب مشهور تعريبه، وأن أصله: استبره كما مرّ.

وقوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ معطوف[1] على قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهو ماض لفظاً مستقبل معنى، و﴿أَسَاوِرَ﴾ مفعول ثان لـ ﴿حلوا﴾؛ أي: ويحلّون أساور من فضّة؛ أي: يلبسونها، ويزيّنون بها. وفيه تعظيم لهم بالنسبة إلى أن يقال: وتحلّوا. وأساور جمع أسورة في جمع سوار، وسوار المرأة أصله: دستوار. وكان الملوك في الزمان الأوّل يحلون بها، ويسورون من يكرمونه. ولا معارضة بين ما في هذه الآية من قوله: ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، وما في سورة الكهف وفاطر حيث قال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، وما في سورة الحج حيث قال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤۡلُؤٗا﴾ لإمكان الجمع بينها بأنهم يجمعون في أيديهم سوار الذهب وسوار الفضة وسوار اللؤلؤ، كما تجمع نساء الدنيا بين أنواع الحليّ، وما أحسن المعصم؛ إذ يكون فيه سواران من جنسين وزيادة كالذهب والفضّة واللؤلؤ. أو بإمكان المعاقبة في الأوقات تارةً يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضة وأخرى لؤلؤاً. أو بإمكان التبعيض في السوار بأن يكون بعضه ذهباً وبعضه فضّة وبعضه لؤلؤاً. أو بأنَّ حليّ أهل الجنة يختلف بحسب اختلاف أعمالهم، فللمقرّبين الذهب وللأبرار الفضة. أو بأن كل واحد منهم يعطى ما ترغب فيه نفسه ويميل إليه طبعه، فإن الطباع مختلفة، فربّ إنسان يكون استحسانه لبياض الفضة فوق استحسانه لصفرة الذهب. ويجوز[2] أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال من ضمير ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ بتقدير قد.

ثم ذكر أنهم يسقون شراباً آخر يفوق النوعين السابقين، وهما ما يمزج بالكافور وما يمزج بالجزنبيل، فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ هو أيضاً معطوف على قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾. فهو ماض اللفظ مستقبل المعنى إشعاراً بتحقّقه ووقوعه؛ أي: ويسقيهم ربهم ﴿شَرَابٗا﴾ وهو ما يشرب ﴿طَهُورًا﴾؛ أي: طاهراً، ليس بنجس كخمر الدنيا، أو مطهر لبواطنهم من الغش والغل والحسد. وهذا[3] الشراب الطهور نوع آخر يفوق النوعين السالفين كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى ربّ العالمين، وصفه بالطهورية. لأنه يطهر باطنهم عن الأخلاق الذميمة، والأشياء المؤذية كالغشّ والغلّ

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

والحسد، وينزع ما كان في أجوافهم من قذر وأذى، وبه تحصل الصفوة المهيئة لانعكاس نور الجمال الإلهيّ في قلوبهم، وهي الغاية القاصية من منازل الصدّيقين، فلذا ختم مقاله ثواب الأبرار به. فالطهور بمعنى المطهّر صيغة اسم الفاعل. وقيل: مبالغة الطاهر من حيث إنه ليس بنجس كخمر الدنيا، وما مسته الأيدي القذرة والأقدام الدنسة، ولا يؤول إلى أن يكون نجساً بل يرشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك.

والمعنى[1]: أي وسقاهم ربهم غير ما سلف شراباً يطهّر شاربه من الميل إلى اللذّات الحسّية والركون إلى ما سوى الحقّ فيتجرد لمطالعة جماله والتلذذ بلقائه، وهذا منتهى درجات الصديقين. قال أبو قلابة: يؤتون بالطعام والشراب، فإذا كان في آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور، فيشربون، فتطهّر بذلك بطونهم، ويفيض عرق من جلودهم مثل عرق المسك، ولم يذكر الكتاب ما يبين نوع ذلك الشراب، فلندع أمره إلى الله، ونؤمن به كما أخبر به في كتابه.

وبعد أن شرح أحوال السعداء وما يلقونه من وافر النعيم الذي يتجلى في مشربهم وملبسهم ومسكنهم.. بين أنّ هذا جزاء لهم على ما قدّموا من صالح الأعمال، وما زكّوا به أنفسهم من صفات الكمال، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ على[2] إضمار القول؛ أي: يقال لهم: إنّ هذا الذي ترونه من فنون الكرامات، ويجوز أن يكون خطاباً من الله تعالى في الدنيا للأبرار؛ أي: إنّ هذا الذي ذكر من أنواع العطايا ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾؛ أي: عوضاً وثواباً بمقابلة أعمالكم الحسنة. فإن قيل؛ كيف يكون جزاء لأعمالهم وهي مخلوقة لله عند أهل السنة؟

أجيب: بأنّها لهم كسباً عنده ولله خلقاً. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ وعملكم في الدنيا بطاعة الله سبحانه ﴿مَّشْكُورًا﴾؛ أي: مرضيًّا مقبولاً مقابلاً بالثواب لخلوص نيّتكم، فيزداد بذلك فرحهم وسرورهم، كما أنَّ المعاقب يزداد غمّه إذا قيل له: هذا جزاء عملك الرديء. فالشكر مجازٌ عن هذا المعنى تشبيهاً له بالشكر من حيث إنّه مقابل للعمل، كما أنَّ الشكر مقابل للنعم. قال بعضهم: أدنى الدرجات أن يكون العبد راضياً عن ربه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾. وأعلاها كونه مرضيًّا له،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾. ولما كان كونه مرضيّاً أعلى الدرجات.. ختم به ذكر مراتب الأبرار.

والمعنى[1]: أي ويقال لهؤلاء الأبرار حينئذٍ: إنّ هذا الذي أعطيناكم من الكرامة كان لكم ثواباً على ما كنتم تعملون من الصالحات، وكان عملكم فيها مشكوراً، حمدكم عليه ربكم ورضيه لكم، فأثابكم بما أثابكم به من الكرامة. ومعنى شكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته. والغرض من ذكر هذا القول لهم كما مرّ زيادة سرورهم، فإنّه إذا قيل للمعاقب: هذا بعملك الرديء ازداد غمّه وألم قلبه، وإذا قيل للمثاب: هذا بطاعتك وعملك الحسن ازداد سروره، وكان تهنئة له. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾، وقوله: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْقُرْآنَ﴾ الكريم ﴿تَنزِيلًا﴾ متكرراً متفرّقاً آية بعد آية منجّماً لحكم بالغة مقتضية تخصيص كلّ شيء بوقت معيّن، لا غيرنا كما يعرب عنه تكرير الضمير مع ﴿إنّ﴾، فكأنه تعالى يقول: إنّ هؤلاء الكفّار يقولون: إنّ ذلك كهانة وسحر، فأنا الملك الحقّ أقول على سبيل التأكيد: إنّ ذلك وحي حقّ وتنزيل صدق من عندي، فلا تكترث بطعنهم، فإنّك أنت النبيّ الصادق المصدّق.

والمقصود من ذلك[2]: تثبيت قلب الرسول ﷺ وشرح صدره، وإنّ الذي أنزله إليه وحي منه لا كهانة، ولاسحر لتزول تلك الوحشة التي حصلت له من قول الكفار: إنه سحر أو كهانة أو شعر.

والمعنى[3]: أي إنا أنزلنا عليك القرآن مفرّقاً منجماً في مدى ثلاث وعشرين سنة، ليكون أسهل لحفظه وتفهمه ودراسته، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التي تجد في الكون، فتكون تثبيتاً لإيمان المؤمنين، وزيادة في تقوى المتقين. وقد يكون المعنى: نزّلنا عليك، ولم تأت به من عندك كما يدّعيه المشركون، ويراد من ذلك تثبيت قلب رسوله ﷺ وشرح صدره، وأن الذي أنزل عليه وحي لا كهانة كما مرّ.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾؛ أي: فاصبر لما ابتلاك به ربّك وامتحنك به من تأخير

---

(١) المراغي. (٢) الخازن. (٣) المراغي.

نصرك على المشركين، ومقاساة الشدائد في تبليغ رسالته ووحيه الذي أنزله عليك، فإن لذلك عاقبة حميدة وغاية يثلج لها فؤادك، ولا تستعجل في أمر المقابلة والانتقام، فإن الأمور مرهونة بأوقاتها، وكل آت قريب.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من الكفّار ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾؛ أي:[1] لا تطع كلا من مرتكب الإثم والمتجاوز الحد في الكفر، فإذا قال لك الآثم كعتبة بن ربيعة: اترك الصلاة، وأنا أزوّجك ابنتي وأسوقها إليك بلا مهر، أو قال الكفور كالوليد بن المغيرة: أنا أعطيك من المال حتى ترضى إذا رجعت عن هذا الأمر. فلا تطع واحداً منهما ولا من غيرهما، فقد وعدناك النصر في الدنيا والجنة في الآخرة.

وقصارى ذلك: لا تتبع أحداً من الآثمين إذا دعاك إلى الإثم، ولا أحداً من الكافرين إذا دعاك إلى الكفر. وهذا ما يفهم من قولك: لا تطع الظالم من أنّ المعنى: لا تتبعه في الظلم إذا دعاك إليه.

وقد روي: أنّ عتبة بن ربيعة قال للنبيّ ﷺ: ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتي، وأسوقها إليك بلا مهر، فإني من أجمل قريش ولداً. وقال الوليد أنا أعطيك من مالي حتى ترضى، فإني من أكثرهم مالاً وارجع عن هذا الأمر؛ أي: عن ذكر النبوة. فقرأ عليهما رسول الله ﷺ عشر آيات من أول حم السجدة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾. فانصرفا عنه، وقال أحدهما: ظننت أنّ الكعبة ستقع عليّ.

ونهيه ﷺ عن طاعة الآثم والكفور، وهو لا يطيع واحداً منهما إشارة إلى أنّ الناس محتاجون إلى مواصلة الإرشاد، لما ركب في طباعهم من الشهوة الداعية إلى اجتراح السيئات، وأنّ أحداً لو استغنى عن توفيق الله وإرشاده لكان أحق الناس بذلك هو الرسول المعصوم، ومن ثم وجب على كل مسلم أن يرغب إلى الله، ويتضرع إليه في أن يصونه من اتّباع الشهوات، ويعصمه عن ارتكاب المحرمات لينجو من الآفات ويسلم من الزلات، ليلقى ربه أبيض الصحائف من السيئات.

و﴿أَوْ﴾[2] لأحد الشيئين والتسوية بينهما، فإذا قلت في الإثبات: جالس

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الحسن أو ابن سيرين كان المعنى: جالس أحدهما، فكذا إذا قلت في النهي: لا تكلم زيداً أو عمراً كان التقدير: لا تكلم أحدهما. والأحد عام لكل واحد منهما. فهو في المعنى لا تكلم واحداً منهماً. فمآل المعنى في الآية: ولا تطع كل واحد من مرتكب الإثم الداعي لك إليه، ومن الغالي في الكفر الداعي إليه. ف ﴿أو﴾ للإباحة؛ أي: للدلالة على أنّهما سيّان في استحقاق العصيان؛ أي: عصيان المخاطب للداعي إليهما، والاستقلال به. والتقسيم إلى الإثم والكفور مع أنّ الداعين يجمعهم الكفر باعتبار ما يدعونه إليه من الإثم والكفر، لا باعتبار انقسامهم في أنفسهم إلى الإثم والكفور، لأنّهم كانوا كفرةً، والكفر أخبث أنواع الإثم، فلا معنى للقسمة بحسب نفس كفرهم وإثمهم. وذلك أنَّ ترتب النهي على الوصفين مشعر بعليتهما له، فلا بد أن يكون النهي عن الإطاعة في الإثم والكفر لا فيما ليس بإثم ولا كفر، والمراد بالإثم ما عدا الكفر، إذ العام إذا قوبل بالخاصّ... يراد به ما عدا ذلك الخاص. وخص الكفر بالذكر تنبيهاً على غاية خبثه من بين أنواع الإثم، فكلّ كفور آثم وليس كلّ آثم كفورا، ولا بعد أن يراد بالآثم من هو تابع، وبالكفور من هو متبوع.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً﴾؛ أي: أوّل النهار، ﴿وَأَصِيلًا﴾؛ أي: عشيًّا، وهو آخر النهار؛ أي: وداوم على ذكره في جميع الأوقات، فالمراد بقوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الدوام، لأنّه ﷺ كان آتياً بنفس الذكر المأمور به. وقيل المعنى: صلّ لربّك أوّل النهار وآخره، فأوّل النهار صلاة الصبح، وآخره صلاة العصر. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: وفي بعض ساعات الليل ﴿فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾؛ أي: فصلّ له من غير تعيين للصلاة. وقيل: صلّ المغرب والعشاء. وتقديم[1] الظرف للاهتمام لما في صلاة الليل من مزيد كلفة وخلوص وأفضل الأعمال أشقّها وأخلصها من الرياء، فاستحقت الاهتمام بشأنها، وقدم وقتها لذلك. ثم الفاء لإفادة معنى الشرط، كأنّه قال: مهما يكن من شيء فاسجد له. ففيها وكادة أخرى لأمرها.

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾؛ أي: صلّ له صلاة التهجّد، لأنّه كان واجباً عليه في طائفة طويلة من الليل ثلثيه أو نصفه أو ثلثه. قال ابن زيد وغيره: إنّ هذه الآية

---

(١) روح البيان.

منسوخة بالصلوات الخمس. وقيل: الأمر للندب، وقيل: هو مخصوص بالنبيّ ﷺ. فقوله: ﴿لَيْلًا طَوِيلًا﴾ نصب على الظرفية. فإن قلت: انتصاب ﴿لَيْلًا﴾ على الظرفية، و﴿طَوِيلًا﴾ نعت له، ومعناه: سبّحه في الليل الطويل، فمن أين يفهم ما ذكرت من المعنى؟

قلت: ظاهر أن توصيف الليل بالطول ليس للاحتراز عن القصير، فإن الأمر بالتهجد يتناوله أيضاً، فهو لتطويل زمان التسبيح. وفي التعبير في التهجد بالتسبيح وتأخير ظرفه دلالة على أنه ليس في مرتبة ما قبله.

وقيل المعنى[1]: نزّهه عمّا لا يليق به، فيكون المراد الذكر بالتسبيح سواء كان في الصلاة أو في غيرها. وحاصل المعنى ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: ودم على ذكره في جميع الأوقات بقلبك ولسانك. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾؛ أي: وصل بعض الليل كصلاة المغرب والعشاء. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾؛ أي: وتهجّد له طائفة من الليل. ونحو هذا ما جاء في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾.

ثم قال منكراً على الكفّار وأشباههم حبّ الدنيا والإقبال عليها وترك الآخرة وراءهم ظهريًا بعد ما شرح صدره ﷺ بما ذكر من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ إلخ. ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾؛ أي: كفّار مكة ومن وافقهم في دينهم ﴿يُحِبُّونَ﴾ الدار ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ الفانية، وينهمكون في لذّاتها، يعني: الدنيا. فهو الحامل لهم على الكفر والإعراض عن الاتّباع، لا اشتباه الحال عليهم. ﴿وَيَذَرُونَ﴾؛ أي: يتركون ﴿وَرَاءَهُمْ﴾؛ أي: أمامهم لا يستعدّون. فهو[2] حال من ﴿يَوْمًا﴾ أو ينبذون وراء ظهورهم، فهو ظرف لـ ﴿يذرون﴾، فـ ﴿وراء﴾ يستعمل في كلّ من أمام وخلف، والظاهر في وجه الاستعمالين: أن وراء اسم للجهة المتوارية؛ أي: المستترة المختفية عنك، واستتار جهة الخلف عنك ظاهر. وما في جهة الأمام قد يكون متوارياً عنك غير مشاهد ومعاين لك، فيشبه جهة الخلف في ذلك فيستعار له اسم الوراء. ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾؛ أي: شديداً؛ أي: يتركون ويدعون خلفهم، أو أمامهم يوماً شديداً عسيراً، وهو يوم

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

القيامة، فلا يستعدون له بالإيمان والطاعات، ولا يعبؤون به، فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاوناً به واستخفافاً بشأنه، وإن كانوا في الحقيقة مستقبلين له، وهو أمامهم. وسمي ثقيلاً لما فيه من الشدائد والأهوال. و﴿يَوْمًا﴾ مفعول ﴿يذرون﴾، و﴿ثَقِيلًا﴾ صفته. ووصفه بالثقل مع أنه من صفات الأعيان الجسمية لا الامتدادات الوهمية لتشبيه شدّته وهوله بثقل الحمل الثقيل. ففيه استعارة تخييليّة. وفي الآية وعيد لأهل الدنيا ونعيمها خصوصاً لأهل الظلم والرشوة.

والمعنى[1]: أنَّ هؤلاء المشركين بالله يحبون الدنيا وتعجبهم زينتها، وينهمكون في لذّاتها الفانية، ويدعون خلف ظهورهم العمل لليوم الآخر وما لهم فيه النجاة من أهواله وشدائده.

والخلاصة: لا تطع الكافرين، واشتغل بالعبادة؛ لأنّ هؤلاء تركوا الآخرة للدنيا، فاترك أنت الدنيا وأهلها للآخرة.

ثم نعى عليهم تركهم للعبادة وغفلتهم عن طاعة بارئهم وموجدهم من العدم فقال: ﴿نَّحْنُ﴾ لا غيرنا ﴿خَلَقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: ابتدأنا خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم، ولم يكن لغيرنا في ذلك عمل ولا سعي لا اشتراكاً ولا استقلالاً. ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾؛ أي: قوينا ربط مفاصلهم بالأعصاب؛ أي: شددنا أوصالهم ومفاصلهم، وربطنا بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب، ليتمكنوا بذلك من القيام والقعود والأخذ والدفع والحركة. وحق الخالق المنعم أن يشكر ولا يكفر. ففيه ترغيب. والأسر: الربط، ومنه: أسر الرجل إذا أوثق بالقد، وقدر المضاف وهو المفاصل. وقال الراغب: فيه إشارة إلى الحكمة في تركيب الإنسان المأمور بتدبر نفسه وتأملها في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾. وقيل المعنى: شددنا مخرج البول والغائط إذا خرج الأذى انقبض، أو معناه: أنه لا يسترخي قبل الإرادة.

والمعنى: أي كيف يغفلون عنّا، ونحن الذين خلقناهم، وأحكمنا ربط مفاصلهم بالعروق والأعصاب، أفبعد هذا نتركهم سدى؟.

---

(١) المراغي.

ثم توعدهم وهدَّدهم، فقال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ تبديلهم ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾؛ أي: بدلناهم بأمثالهم بعد إهلاكهم. وإذا شئنا أهلكناهم، وأتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾.

وقد جرت سنّة الله سبحانه بأن يزيل ما لا يصلح للرقي من خلقه، فهو يهلك هؤلاء ويبدل أمثالهم، فيجعلهم مكانهم كما هي قاعدة بقاء الصلاح والأصلح وإهلاك ما لا يصلح للبقاء. والتبديل[1] يتعدى إلى مفعولين غالباً كقوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾؛ أي: يذهب بها ويأتي بدلها بحسنات.

وقوله: ﴿تَبْدِيلًا﴾ مصدر مؤكّد لعامله.

والمعنى: أي وإذا شئنا.. بدّلنا غيرهم ممن يطيع كقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾. ففيه ترهيب، فالمثلية باعتبار الصورة، ولا ينافيها الغيريّة باعتبار العمل والطاعة. و﴿إِذَا﴾ للدلالة على تحقّق القدرة وقوة الداعية، وإلاّ فالمناسب (إن)، إذ لا تحقق لهذا التبديل. أو المعنى ﴿تَبْدِيلًا﴾ عجيباً لا ريب فيه، وهو البعث، كما ينبىء عنه كلمة ﴿إِذَا﴾، فالمثلية في النشأة الأخرى إنّما هي في شدّة الأسر وباعتبار الأجزاء الأصلية، ولا ينافيها الغيرية بحسب العوارض كاللطافة والكثافة.

وبعد أن ذكر أحوال السعداء والأشقياء أرشد إلى أنَّ في هذا الذكر تذكرةً وموعظةً للخلق وفوائد جمّة لمن ألقى سمعه وأحضر قلبه، وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى إليه سمعه. فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى السورة أو الآيات القريبة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: عظة مذكرة لما لا بد منه في تحصيل السعادة الأبديّة جعلت عين التذكرة مبالغة. وفي «عين المعاني»: تذكرة؛ أي: إذكار بما غفلت عنه عقولهم. ﴿فَمَن شَآءَ﴾ منكم ومن غيركم أن يتخذ إليه تعالى سبيلاً؛ أي: وسيلةً توصله إلى ثوابه. ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ أي: تقرب إليه تعالى بالعمل بما في تضاعيف هذه السورة أو الآيات القريبة. وقال ابن الشيخ: فمن شاء النجاة من ثقل ذلك اليوم وشدّته اختار سبيلاً مقرّباً إلى مرضاة ربّه، وهو الطاعة.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: أي إنَّ هذه السورة بما فيها من ترتيب بديع ونسق عجيب ووعد ووعيد وترغيب وترهيب.. تذكرة للمتأمّلين وتبصرة للمستبصرين، فمن شاء الخير لنفسه في الدنيا والآخرة.. فليتقرب إلى ربه بالطاعة ويتبع ما أمره به وينته عما نهاه عنه، ليحظى بثوابه ويبتعد عن عذابه.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ تحقيق[2] للحقّ ببيان أن مجرد مشيئتهم غير كافية في اتخاذ السبيل، كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية، و﴿أَن﴾ مع الفعل في حكم المصدر الصريح في قيامه مقام الظرف.

والمعنى: وما تشاؤون اتخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة، ولا تقدرون على تحصيلها في وقت من الأوقات إلاّ وقت مشيئته تعالى تحصيلها لكم؛ أي: إلا إذا وفّقكم الله سبحانه لاكتسابها، وأعدّكم لنيلها إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا في الكسب، وإنّما التأثير والخلق لمشيئة الله تعالى، فمشيئة العبد وحدها لا تأتي بخير ولا تدفع شرّاً، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة، ويؤجر على قصد الخير، كما في حديث «إنما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرىء ما نوى».

غاية ما في الباب أن المشيئة ليست من الأفعال الاختيارية للعبد، بل هي متوقّفة على أن يشاء الله إيّاها. وذلك لا ينافي كون الفعل الذي تعلقت به مشيئة العبد اختيارياً له واقعاً بمشيئته، وإن لم تكن مشيئته مستقلة فيه. قال في «عين المعاني»: قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ إلخ، حجة تكليف العبوديّة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ إلخ، إظهار قهر الألوهية.

وقرأ العربيان[3]: أبو عمرو وابن عامر، وابن كثير ﴿وما يشاءون﴾ بياء الغيبة. وباقي السبعة بتاء الخطاب. قال الزمخشري: فإن قلت: ما محل ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؟

قلت: النصب على الظرف، وأصله: إلا وقت مشيئة الله تعالى. وكذلك قرأ ابن مسعود ﴿إلا ما يشاء الله﴾ لأنَّ ﴿ما﴾ مع الفعل كأن معه انتهى، وفيه خلاف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: إنّ الله عليم بمن يستحقّ الهداية، فييسرها له ويقيض له أسبابها، ومن هو أهل للغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

البالغة، والحجة الدامغة. وهذا[1] بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة؛ أي: إنّه تعالى مبالغ في العلم والحكمة، فيفعل ما يستأهله كل أحد، فلا يشأ لهم إلا ما يستدعيه علمه وتقتضيه حكمته.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ فيهديه ويوفّقه للطاعة بحسب استعداده. وهذا بيان لأحكام مشيئته المرتبة على علمه وحكمته؛ أي: يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها، وهو الذي يصرّف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى حيث يوفقه لما يؤدّي إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذكر؛ أي: والذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، فماتوا على شركهم ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾؛ أي: هيّأ لهم في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾؛ أي: متناهياً غاية الإيلام؛ أي: عذاباً مؤلماً موجعاً، هو عذاب جهنم وبئس المصير.

قال الزجاج: نصب ﴿الظالمين﴾ لأنّ ما قبله منصوب؛ أي: يدخل من يشاء في رحمته ويعذّب الظالمين، ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيراً لهذا المضمر. وختم[2] الله سبحانه السورة بالعذاب المعدّ يوم البعث والحشر ففيه حسن الاختتام لموافقته الابتداء على ما لا يخفى على أهل العقل والفهم.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نصباً بإضمار فعل يفسّره قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تقديره: ويعذّب الظالمين، وهو من باب الاشتغال عطف جملة فعلية على جملة فعلية. وقرأ ابن الزبير، وأبان بن عثمان، وابن أبي عبلة ﴿والظالمون﴾ عطف جملة اسمية على فعلية، وهو جائز حسن. وقرأ عبد الله ﴿وللظالمين﴾ بلام الجرّ، وهو متعلق بـ ﴿أعدّ﴾ لهم توكيداً، ولا يجوز أن يكون من باب الاشتغال، ويقدّر فعل يفسره الفعل الذي بعده، فيكون التقدير: وأعدّ للظالمين، وأعدَّ لهم. وهذا مذهب الجمهور، وفيه خلاف ضعيف مذكور في النحو، فتقول: بزيد مررت به، ويكون التقدير: مررت بزيد مررت به، ويكون من باب الاشتغال، والمحفوظ المعروف عن العرب نصب الاسم وتفسير مررت المتأخّر، وما أشبهه من جهة المعنى فعلاً ماضياً.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

الإعراب

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

﴿هَلْ﴾ هنا بمعنى قد التحقيقية، فليست للاستفهام، لأنّ الاستفهام محال على الله تعالى. وقيل: للاستفهام التقريري، والجواب مقدّر، تقديره: نعم. ﴿أَتَىٰ﴾ فعل ماض، ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ متعلق به، ﴿حِينٌ﴾ فاعل، ﴿مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ صفة لـ ﴿حِينٌ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم، ﴿يَكُن﴾ فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾ خبرها، ﴿مَّذْكُورًا﴾ صفة ﴿شَيْـًٔا﴾، وجملة ﴿يَكُن﴾ في محل النصب حال من الإنسان، أي: حال كونه غير مذكور، أو في محلّ الرفع صفة لـ﴿حِينٌ﴾ كقوله: ﴿يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ﴾. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ متعلق بـ﴿خَلَقْنَا﴾، ﴿أَمْشَاجٍ﴾ نعت لـ ﴿نُّطْفَةٍ﴾، وجملة ﴿خَلَقْنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان كيفية خلق الإنسان ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾؛ أي: خلقناه حال كوننا مبتلين له، أو حال من ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾، وصحّ ذلك لأنّ في الجملة ضميرين كلّ منهما يعود على صاحب الحال. ثم هذه الحال يجوز أن تكون مقارنةً إن كان المعنى: نبتليه بتصريفه في بطن أمّه نطفةً ثم علقةً، وأن تكون مقدرة إن كان المعنى ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ نختبره بالتكليف، لأنّه وقت خلقه غير مكلف. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ الفاء: عاطفة للترتيب مع التعقيب، ﴿جعلناه﴾ فعل وفاعل ومفعول أوّل، معطوف على ﴿خَلَقْنَا﴾، ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ مفعول به ثان وقد نزلت الكلمتان منزلة الكلمة الواحدة، لأنّهما كناية عن التمييز والفهم، إذ آلتهما سبب لذلك، وهما أشرف الحواس تدرك بهما أعظم المدركات. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الابتلاء، ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ مفعول به ثان لـ ﴿هدينا﴾، أو في محل نصب بنزع الخافض، والجار والمجرور متعلق بـ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾. ﴿إِمَّا﴾ حرف تفصيل، ﴿شَاكِرًا﴾ حال من الهاء في ﴿هَدَيْنَٰهُ﴾،

﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِمَّا﴾ على ﴿إِمَّا﴾ الأولى، ﴿إِمَّا﴾ حرف عطف وتفصيل، ﴿كَفُورًا﴾ معطوف على ﴿شَاكِرًا﴾. أي: مكّنّاه وأقدرناه على حالتيه جميعاً.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿أَعْتَدْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إنّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، مسوقة لتعليل ما قبلها أيضاً، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أَعْتَدْنَا﴾، ﴿سَلَٰسِلَا۟﴾ مفعول به، ومنع من الصرف، لأنّه على صيغة مفاعل، وقرىء بالصرف للمناسبة مع ﴿أغلالا﴾، وهما قراءتان سبعيتان، كما سبق. ﴿وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ معطوفان على ﴿سَلَٰسِلَا۟﴾. ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَشْرَبُونَ﴾ خبرها، ﴿مِن كَأْسٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَشْرَبُونَ﴾، ومفعول ﴿يَشْرَبُونَ﴾ محذوف؛ أي: خمراً من كأس، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الجرّ صفة لـ ﴿كَأْسٍ﴾، ﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿كَافُورًا﴾، أو من محل ﴿مِن كَأْسٍ﴾، أو مفعول ﴿يَشْرَبُونَ﴾ أو منصوب على الاختصاص، وقيل: غير ذلك. وجملة ﴿يَشْرَبُ﴾ صفة لـ ﴿عَيْنًا﴾، ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَشْرَبُ﴾، ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ فاعل ﴿يَشْرَبُ﴾ ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿تَفْجِيرًا﴾ مفعول مطلق والجملة في محل النصب حال من ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿يُوفُونَ﴾ فعل وفاعل، ﴿بِٱلنَّذْرِ﴾ متعلق بـ﴿يُوفُونَ﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل: بم استحقوا ذلك النعيم؟ فقيل: ﴿يُوفُونَ﴾ إلخ. ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ فعل وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿يُوفُونَ﴾، ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة في محل النصب صفة لـ ﴿يَوْمًا﴾. ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يُوفُونَ﴾، ﴿عَلَىٰ﴾ حرف جر بمعنى مع، ﴿حُبِّهِۦ﴾ مجرور بـ﴿عَلَىٰ﴾ الجار والمجرور حال من فاعل ﴿يطعمون﴾؛ أي: حال كونهم محبين له، وهو مصدر مضاف إلى المفعول، والضمير لـ﴿ٱلطَّعَامَ﴾ كما مرّ. ﴿مِسْكِينًا﴾ مفعول

ثان لـ ﴿يطعمون﴾، ﴿وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ معطوفان على ﴿مِسْكِينًا﴾.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ كافّ ومكفوف، ﴿نُطْعِمُكُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿نُطْعِمُكُمْ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الإطعام، ﴿لَا﴾ نافية، ﴿نُرِيدُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿مِنكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نُرِيدُ﴾، ﴿جَزَآءً﴾ مفعول به، ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ معطوف عليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نُطْعِمُكُمْ﴾. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿نَخَافُ﴾ خبره، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾. ﴿مِن رَّبِّنَا﴾ متعلق بـ ﴿نَخَافُ﴾، ﴿يَوْمًا﴾ مفعول به، ﴿عَبُوسًا﴾ نعت ﴿يَوْمًا﴾، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ نعت ثان لـ ﴿يَوْمًا﴾، ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ الفاء: عاطفة سببية، ﴿وقاهم الله﴾ فعل ماض ومفعول مقدم، وفاعل مؤخر، ﴿شَرَّ﴾ مفعول ثان، ﴿ذَٰلِكَ﴾ مضاف إليه، ﴿ٱلْيَوْمِ﴾ بدل من اسم الإشارة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ عطف مسبب على سبب؛ أي: فبسبب خوفهم وقاهم الله إلخ. ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿وقاهم﴾، ﴿نَضْرَةً﴾ مفعول به ثان، ﴿وَسُرُورًا﴾ معطوف على ﴿نَضْرَةً﴾، ﴿وَجَزَىٰهُم﴾ فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿وقاهم﴾ أيضاً، ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿جزاهم﴾، و﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: بسبب صبرهم، ﴿صَبَرُوا۟﴾ فعل وفاعل و﴿ما﴾ وما بعدها في محل جر بالإضافة ﴿جَنَّةً﴾ مفعول به ثان، ﴿وَحَرِيرًا﴾ معطوف على ﴿جَنَّةً﴾.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من مفعول ﴿جزاهم﴾، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلق بـ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، وجملة ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ حال ثانية من مفعول ﴿جزاهم﴾، ولك أن تجعلها حالاً من الضمير في ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يَرَوْنَ﴾، ﴿شَمْسًا﴾ مفعول به لـ ﴿يَرَوْنَ﴾، والرؤية بصرية تتعدّى إلى مفعول واحد، ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ معطوف على ﴿شَمْسًا﴾، ﴿وَدَانِيَةً﴾ معطوف على ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾، ودخلت الواو للدلالة على أنّ الأمرين يجتمعان

لهم كأنّه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين السلامة من الحرّ والقرّ، وبين دنوّ الظلال عليهم. و﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿دانية﴾، ولا بد من تضمين على معنى ﴿من﴾، لأنّ الدنوّ لا يتعدى بـ ﴿على﴾، وإنما لم يقل منهم لأن الظلال عالية عليهم، ﴿ظِلَالُهَا﴾ فاعل ﴿دانية﴾، ومضاف إليه ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿قُطُوفُهَا﴾ نائب فاعل، ومضاف إليه ﴿تَذْلِيلًا﴾ مفعول مطلق، والجملة معطوفة على ﴿دانية﴾، لأنّه في تأويل الفعل؛ أي: وأدنيت عليهم، فهي في محل نصب على الحال؛ أي: مذلّلة. وإنما خولف بعطف الفعلية على الاسمية للإشارة إلى أن التظليل أمر دائم لا يزول، لأنها لا شمس فيها بخلاف التذليل، فإنه أمر متجدّد طارىء. ﴿وَيُطَافُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، معطوف على ﴿ذللت﴾، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يطاف﴾، ﴿بِآنِيَةٍ﴾ في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿يطاف﴾، لأنّه هو المفعول به في المعنى، ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ صفة لـ ﴿آنية﴾، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ معطوف على ﴿آنية﴾ من عطف الخاصّ على العامّ، ﴿كَانَتْ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿الأكواب﴾، ﴿وقواريرا﴾ خبرها، وجملة ﴿كَانَتْ﴾ في محل الجرّ صفة لـ ﴿أكواب﴾، ويجوز أن تكون كان تامّة، فيكون ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ حالاً، ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الثاني بدل من ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الأول، ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ نعت لـ ﴿قَوَارِيرَا۠﴾، وجملة ﴿قَدَّرُوهَا﴾ نعت ثان لـ ﴿قَوَارِيرَا۠﴾، ﴿تَقْدِيرًا﴾ مفعول مطلق.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، والواو: نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يطاف﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿يسقون﴾، ﴿كَأْسًا﴾ مفعول به ثان، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صفة لـ ﴿كَأْسًا﴾، ﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿كَأْسًا﴾ أو منصوب على الاختصاص، ﴿فِيهَا﴾ صفة لـ ﴿عَيْنًا﴾ وجملة ﴿تُسَمَّىٰ﴾ نعت ثان لـ ﴿عَيْنًا﴾، ﴿تُسَمَّىٰ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ونائب فاعل مستتر، تقديره: هي، يعود على ﴿عَيْنًا﴾، ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ مفعول به ثان لـ ﴿تُسَمَّىٰ﴾. ﴿وَيَطُوفُ﴾ فعل مضارع معلوم، معطوف على ما قبله، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يطوف﴾، ﴿وِلْدَانٌ﴾ فاعل، ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ نعت لـ ﴿وِلْدَانٌ﴾، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، متعلق بالجواب الآتي، ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجرّ بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول

أول، ﴿لُؤْلُؤًا﴾ مفعول ثان، ﴿مَّنثُورًا﴾ صفة لـ ﴿لُؤْلُؤًا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، أو صفة ثانية لـ ﴿وِلْدَٰنٌ﴾. ﴿وإذا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمّن معنى الشرط، ﴿رَأَيْتَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان مختصّ بالمكان البعيد، متعلق بـ ﴿رَأَيْتَ﴾، وليس لـ ﴿رَأَيْتَ﴾ مفعول ظاهر ولا مقدر لإشاعة الرؤية وتعميمها كأنه قيل: وإذا أوجدت الرؤية ثمّ، والمعنى: وإذا صدرت منك الرؤية في ذلك المكان رأيت، وجملة ﴿رَأَيْتَ﴾ جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى أو مستأنفة. ﴿نَعِيمًا﴾ مفعول به لـ ﴿رَأَيْتَ﴾ الثانية، ﴿وَمُلْكًا﴾ معطوف على ﴿نَعِيمًا﴾، ﴿كَبِيرًا﴾ صفة ﴿ملكا﴾.

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ ظرف مكان بمعنى فوقهم، منصوب على الظرفية، متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ مبتدأ مؤخّر، ومضاف إليه، ﴿خُضْرٌ﴾ صفة لـ ﴿ثِيَابُ﴾، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ معطوف على ﴿ثِيَابُ﴾ على حذف مضاف؛ أي: ثياب استبرق. والجملة في محل النصب صفة بعد صفة لـ ﴿وِلْدَٰنٌ﴾. وقيل: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ فاعل لـ ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾؛ أي: ويطوف عليهم ولدان حال كونهم عالياً للمطوف عليهم ثياب سندس. أو حال من الهاء في ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾؛ أي: حسبتهم لؤلؤاً عالياً لهم ثياب سندس إلخ. وهنا أوجه واختلاف بين المعربين فراجع المطولات. ﴿وَحُلُّوٓا۟﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿حلوا﴾ فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾. وجاز عطف الماضي على المضارع، لأنّه مستقبل المعنى، وللإيذان بتحقّقه، لأنه بمعنى يحلون. ﴿أَسَاوِرَ﴾ مفعول به، ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ صفة لـ ﴿أَسَاوِرَ﴾، ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾ فعل ومفعول به، معطوف على ﴿حلوا﴾، ﴿رَبُّهُمْ﴾ فاعل، ﴿شَرَابًا﴾ مفعول به ثان لـ ﴿سقاهم﴾، و﴿طَهُورًا﴾ نعت ﴿شَرَابًا﴾. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مقول لقول محذوف تقديره: ويقال لأهل الجنة: إنّ هذا كان لكم جزاءً إلخ. واسم ﴿كَانَ﴾ ضمير يعود على ﴿هَٰذَا﴾ تقديره: هو ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿جَزَآءً﴾،

و﴿جَزَآءً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، معطوف على ﴿كَانَ﴾ الأولى.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿نَحْنُ﴾ تأكيد لاسم ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿نَزَّلْنَا﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر ﴿إِنَّا﴾، ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بـ ﴿نَزَّلْنَا﴾، و﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ مفعول به، ﴿تَنزِيلًا﴾ مفعول مطلق، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ولك أن تجعل ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿نَزَّلْنَا﴾ خبره، والجملة خبر ﴿إنّ﴾. ﴿فَٱصْبِرْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما ذكرته لك وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك. اصبر. ﴿اصبر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ ﴿اصبر﴾. ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لَا﴾ ناهية جازمة، ﴿تُطِعْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿اصبر﴾، ﴿مِنْهُمْ﴾ حال من ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، ﴿ءَاثِمًا﴾ مفعول به، ﴿أَوْ﴾ حرف عطف، ﴿كَفُورًا﴾ معطوف على ﴿ءَاثِمًا﴾. وإنما جنح إلى ﴿أو﴾ دون الواو لإفهام النهي عن طاعتهما معاً. ﴿وَٱذْكُرِ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر، معطوف على ف ﴿اصبر﴾، ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ظرفان متعلقان بـ ﴿اذكر﴾، والمراد الدوام على الصلاة في أوقاتها. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ متعلق بـ ﴿اسجد﴾، و﴿مِنْ﴾ للتبعيض؛ أي: اسجد وصلّ له بعض الليل، ﴿فَٱسْجُدْ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط المقدر تقديره: ومهما يكن من شيء فاسجد له. ﴿اسجد﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿اسجد﴾، وجملة ﴿اسجد﴾ في محل الجزم جواب الشرط المقدر، وجملة الشرط معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾. ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿فَٱصْبِرْ﴾، ﴿لَيْلًا﴾ ظرف متعلق بـ ﴿سبحه﴾، ﴿طَوِيلًا﴾ صفة ﴿لَيْلًا﴾.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا

﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسمها، ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها من الأمر والنهي. ﴿وَيَذَرُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يُحِبُّونَ﴾، ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ ظرف مكان بمعنى قدّام وأمام، متعلق بمحذوف حال من ﴿يَوْمًا﴾، و﴿يَوْمًا﴾ مفعول به ﴿ثَقِيلًا﴾ صفة ﴿يَوْمًا﴾، ﴿نَّحْنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقْنَٰهُمْ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْۖ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿خَلَقْنَٰهُمْ﴾. ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿شِئْنَا﴾ فعل وفاعل، والمفعول محذوف تقديره: تبديلهم، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه، ﴿تَبْدِيلًا﴾ مفعول مطلق، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ﴾ ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة. ﴿فَمَن﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿شَآءَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿ٱتَّخَذَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب الشرط لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إنّ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، وهو في موضع المفعول الثاني لـ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، ﴿سَبِيلًا﴾ مفعول أول لـ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾ نافية، ﴿تَشَآءُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية، ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: وما تشاؤون الطاعة. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء من أعمّ الظروف، أو أعمّ الأحوال، ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿أَنْ﴾ المصدرية، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع ما في حيّزها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه، والتقدير: وما تشاؤون في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله، أو بإضافة الحال إليه؛ أي: وما تشاؤون في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿كَانَ﴾ فعل

ناقص واسمها ضمير مستتر فيها، ﴿عَلِيمًا﴾ خبرها، ﴿حَكِيمًا﴾ خبر ثان لها، ﴿يُدْخِلُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة أو في محل النصب حال من اسم ﴿كَانَ﴾، ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء هدايته، ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يُدْخِلُ﴾، ﴿وَالظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿الظالمين﴾ منصوب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسّره المذكور بعده، قدّره أبو البقاء: ويعذّب الظالمين. والجملة معطوفة على جملة ﴿يُدْخِلُ﴾، وجملة ﴿أَعَدَّ﴾ جملة مفسرة، لا محل لها من الإعراب، ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿عَذَابًا﴾ مفعول به، ﴿أَلِيمًا﴾ صفة لـ ﴿عَذَابًا﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ الحين: زمان مطلق، ووقت مبهم يصلح لجميع الأزمان طال أو قصر. وفي «المفردات»: الحين: وقت بلوغ الشيء وحصوله، وهو مبهم، ويتخصّص بالمضاف إليه نحو: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾. ﴿ٱلدَّهْرِ﴾ الزمان الطويل. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: من مادّة، هي شيء يسير جداً من الرجل والمرأة، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة اهـ خطيب. وفي «المصباح»: نطف الماء ينطف من باب قتل: سال. وقال أبو زيد: نطفت القربة وتنطف وتنطف من بابي: ضرب ونصر نطيفاً إذا قطرت من وهي. والنطفة: ماء الرجل والمرأة، وجمعها نطف ونطاف، مثل: برمةٍ وبرم وبرام. والنطفة أيضاً: الماء الصافي قل أو كثر، ولا فعل للنطفة؛ أي: لا يستعمل لها فعل من لفظها اهـ.

﴿أَمْشَاجٍ﴾؛ أي: أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين. جمع مشج كسبب وأسباب أو ككتف وأكتاف أو كعدلٍ وأعدال. أو جمع مشيج كشريف وأشراف. ووقع الجمع صفة لمفرد، لأنّه في معنى الجمع، أو جعل كل جزء من النطفة نطفة فاعتبر ذلك، فوصف بالجمع. وفي «المختار»: مشج بينهما: خلط، وبابه: ضرب، والشيء مشيج، والجمع أمشاج كيتيم وأيتام، ويقال: نطفة أمشاج لماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها، وعبارة الزمخشري: نطفة أمشاج كبرمة أعشار وبرد أكباشٍ، وهي ألفاظ مفردة غير جموع، ولذلك وقعت صفة للأفراد اهـ. وفي «القرطبي»: والمعنى من نطفة قد امتزج فيها الماءان، وكل منهما

مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في الرقة والثخن والقوام والخواص، تجتمع من الأخلاط، وهي العناصر الأربعة. ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، أيّهما علا كان الشبه له اهـ.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ قال الراغب: الكفور يقال في كافر النعمة وكافر الدين. ﴿سَلَٰسِلَا۟﴾ جمع سلسلة بكسر أوّله، وفي «القاموس». السلسلة بالفتح: إيصال الشيء بالشيء، وبالكسر: دائرة من حديد ونحوه ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ جمع غلّ بالضمّ، وهو ما تطوق به الرقبة للتعذيب. ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع برّ كربّ وأرباب، أو جمع بارّ كشاهد وأشهاد، وهو من يبر خالقه؛ أي: يطيعه، يقال: بررته أبره كعلمته وضربته. وفي «المفردات»: البر خلاف البحر، وتصور منه التوسع، فاشتقّ منه البر؛ أي: التوسع في فعل الخير، وبر العبد ربه: توسع في طاعته. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ يقال: مزج الشراب: خلطه، ومزاج البدن: ما يمازجه من الصفراء والسوداء والبلغم والدم والكيفيات المناسبة لكلّ منها. ﴿كَافُورًا﴾ والكافور: طيب معروف يطيب به الأكفان والأموات لطيب رائحته. واشتقاقه من الكفر، وهو الستر، لأنّه يغطي الأشياء برائحته، وفي «القاموس»: الكافور: طيب معروف يكون من شجر بجبال بحر الهند والصين، يظل خلقاً كثيراً، وتألفه النمورة، وخشبه أبيض انتهى. والكافور أيضاً: كمام الشجر التي تغطي ثمرتها. ﴿عَيْنًا﴾ والعين الجارية، ويقال لمنبع الماء تشبيهاً بها في الهيئة وفي سيلان الماء فيها. ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ والإيفاء بالشيء: هو الإتيان به تامّاً وافياً. والنذر: التزام قربة ليست واجبة في أصل الشرع تقرّباً إلى الله تعالى. وأصل ﴿يُوفُونَ﴾ يوفيون بوزن يفعلون، استثقلت الضمّة على الياء، فحذفت فلما سكنت التقى ساكنان فحذفت الياء وضمّت الفاء لمناسبة الواو.

﴿وَيَخَافُونَ﴾ أصله: يخوفون بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى الخاء فسكنت، لكنّها أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ قال في «القاموس» المستطير: الساطع المنتشر، يقال: استطار الفجر إذا انتشر، وهو أبلغ من طار كاستغفر من غفر، وأصله: مستطير بوزن مستفعل، نقلت حركة الياء إلى الطاء، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مدّ. وفي السمين: قوله: ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ المستطير: المنتشر، يقال: استطار يستطير استطارة فهو مستطير، وهو استفعل من الطيران.

﴿وَأَسِيرًا﴾ من الأسر، وهو الشد بالقد بكسر القاف، وهو من السير مِنَ الجلد، سمي الأسير بذلك ثمّ قيل لكل مأخوذ: مقيد؛ وإن لم يكن مشدوداً بذلك. ﴿عَبُوسًا﴾؛ أي: يوماً تعبس فيه، وتكلح وجوه أهله من طوله وشدّته، فوصف اليوم بالعبوس مجازٌ في الإسناد، كما يقال: نهاره صائم ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ القمطرير: الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه. قال الزجاج: يقال: قمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها، وجمعت قطربها وزقت بأنفها، فاشتقه من القطر، وجعل الميم زائدة. وفي «القاموس»: يوم قمطرير شديد، وأقمطر: اشتد. ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أصله: وقيهم بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أصله: لقيهم بوزن فعل قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أصله جزيهم بوزن فعل. قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة، والهمزة فيه مبدلة من الياء الموجودة في المفرد المؤنث حيث وقعت حرف مدٍّ ثالثاً زائداً. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ أصله: يرأيون، نقلت حركة الهمزة إلى الراء ثم حذفت وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت لالتقاء الساكنين الألف وواو الجماعة. ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ والزمهرير: شدّة البرد، وازمهر اليوم: اشتد برده. ﴿وَدَانِيَةً﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: دانوة من الدنوّ، قلبت الواو ياء لتطرّفها إثر كسرة. ﴿ظِلَٰلُهَا﴾ والظلال جمع ظل بالكسر، نقيض الضّحّ. ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ جمع قطف بكسر القاف وسكون الطاء بمعنى العنقود، يقال: قطفت العنب إذا قطعت عنقوده، وسمي العنقود قطفاً لأنّه يقطف ويقطع وقت الإدراك.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ من طاف يطوف طوفاً وطوافاً وطوفاناً إذا دار. أصله: يطوف بوزن يفعل مبنيّاً للمجهول، نقلت حركة الواو إلى الطاء، فسكنت لكنها أبدلت ألفاً لتحركها في الأصل وفتح ما قبلها في الحال. ﴿بِـَٔانِيَةٍ﴾؛ أي: بأوعية، جمع إناء، والأواني جمع الجمع. وأصل ﴿آنية﴾ أأنية بوزن أفعلة بهمزتين، الأولى منهما مزيدة للجمع، والثانية فاء الكلمة، فقلبت الثانية ألفاً وجوباً، نظيره من معتل اللام: كساء وأكسية وغطاء وأغطية، ومن صحيح اللام: حمار وأحمرة اهـ سمين. ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب، وهو الكوز العظيم المدور الذي لا أذن له ولا عروة كما مرّ. ﴿كَانَتْ

﴿قَوَارِيرَا۟﴾ جمع قارورة، وهي ما أقر فيه الشراب ونحوه من كل إناء رقيق صاف. وقيل: هو خاص بالزجاج. ولما كان رأس آية، وكان التعبير بالقوارير مما أفهم أنها من الزجاج، وكان في الزجاج من النقص سرعة الانكسار لإفراط الصلابة قال تعالى معيداً للفظ أول الآية الثانية للاتصاف بالصالح من أوصاف الزجاج، وبياناً لنوعها: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾؛ أي: فجمعت صفتي الجوهرين المتباينين صفاء الزجاج وشفوفه وبريقه وبياض الفضة وشرفها ولينها اهـ خطيب.

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أصلها: يسقيون، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين. ﴿زَنجَبِيلًا﴾ والزنجبيل عرق يسري في الأرض، ونباته كالقصب كما مر. ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أصل ﴿تُسَمَّىٰ﴾ تسمي بوزن تفعل قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. والسلسبيل: ما سهل انحداره في الحلق للذة طعمه وطيب رائحته وصفاء لونه. قال في «الكواشي»: هو لفظ مفرد بوزن فعلليل كدردبيس، وقيل: وزنه فعفليل، لأن الفاء مكررة، وهو اسم أعجمي نكرة، فلذلك صرف. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أصله: يطوف بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى الطاء فسكنت إثر ضمّة فصارت حرف مدّ. ﴿وِلْدَانٌ﴾ جمع وليد، وهو من قرب عهده بالولادة كما مرّ. ﴿لُؤْلُؤًا﴾ يجمع على اللآلىء يقال: تلألأ الشيء إذا لمع لمعان اللؤلؤ. ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ والملك بالضمّ: هو التصرف في المأمورين بالأمر والنهي، ومنه: الملك. وأمّا الملك بالكسر فهو التصرف في الأعيان المملوكة بحسب المشيئة، ومنه: المالك.

﴿عَالِيَهُمْ﴾ قرىء بفتح الياء على أنّه ظرف بمعنى فوقهم، والياء فيه منقلبة عن واو لتطرّفها إثر كسرة. وقرىء ﴿عاليهم﴾ بإسكان الياء، ويقال فيه أيضاً قلبت الواو ياء، لأنّه من العلو، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة ثم سكنت وصارت حرف مدّ. ﴿ثِيَابُ﴾ الياء فيه مبدلة من واو لوقوعها إثر كسرة. ﴿سُندُسٍ﴾ وهو ما رق من الحرير، فهو البطائن جمع بطانة. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وهو ما غلظ من الحرير، وهو الظهائر جمع ظهارة. ﴿وَحُلُّوٓا۟﴾ أصله: وحليوا بوزن فعلوا، استثقلت الضمّة على الياء فحذفت فلمّا سكنت حذفت لالتقاء الساكنين، وضمّت اللام لمناسبة الواو. ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: سقيهم بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ الهمزة فيه مبدلة من ياء، أصله: جزاي أبدلت الياء همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ أصله: تطوع بوزن تفعل، نقلت حركة الواو إلى

الطاء فسكنت الواو، ثم دخل الجازم، وهو ﴿لا﴾ الناهية فسكنت آخر الفعل فالتقى ساكنان فحذفت الواو، فصار ﴿تطع﴾. ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾؛ أي: قوينا أسرهم. والأسر كما في «القاموس»: الشدّة والغضب وشدّة الخلق والخلق، وشددنا أسرهم؛ أي: مفاصلهم. وفي «المختار»: وأسره من باب ضرب؛ أي: شده بالإسار بوزن الإزار، وهو القد بالكسر، وهو سير يقد من جلد غير مدبوغ، ومنه سمي الأسير؛ لأنهم كانوا يشدونه بالقد، فسمي كل مأخوذ أسيراً وإن لم يشبد به، وأسره الله: خلقه، وبابه: ضرب، ومنه: وشددنا أسرهم؛ أي: خلقهم. والأسر بالضم: احتباس البول كالحصر في الغائط، وأسرة الرجل: أهله لأنه يتقوى بهم.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ لزيادة التقرير.

ومنها: وصف المفرد بالجمع في قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ فإنه وصف النطفة مع كونه مفرداً بالجمع، وهو أمشاج، لأن المراد بها مجموع الماءين: ماء الرجل وماء المرأة.

ومنها: الطباق بين ﴿شَاكِرًا﴾ و﴿كَفُورًا﴾ وبين ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وبين ﴿شَمْسًا﴾ و﴿زَمْهَرِيرًا﴾.

ومنها: التعبير بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾، وبصيغة المبالغة في قوله: ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حيث لم يقل: إما شاكراً وإما كافراً أو لم يقل: إما شكوراً وإما كفوراً. للدلالة على قلة من يتصف بالشكر وكثرة من يتصف بالكفر، ولرعاية الفاصلة أيضاً.

ومنها: التعبير بصيغة المبالغة في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ إشارة إلى كمال إحسانه إليه وتمام إنعامه عليه.

ومنها: اللفُّ والنشر المشوش في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟﴾ إلخ،

حيث قدّم أوّلاً ذكر الشاكر ثم الكفور في قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ثم عاد بالذكر على الثاني دون الأول. ففيه لف ونشر غير مرتب.

ومنها: إيراد الشاكرين بعنوان البر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ للإشعار بما استحقوا به ما نالوه من الكرامة السَّنِيّة.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾، وفي قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

ومنها: الجناس الناقص بين قوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ وقوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾.

ومنها: المجاز العقليّ في قوله: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾ حيث أسند العبوس إلى اليوم مع كونه من صفة أهله، فهو من إسناد الشيء إلى زمانه كنهاره صائم وليله قائم. والمعنى هنا: تعبس فيه الوجوه من طوله وشدّته، كما في «الخازن».

ومنها: الإتيان بصيغة المبالغة في قوله: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ للدلالة على المبالغة في طهارته ونظافته.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾؛ أي: كاللؤلؤ المفرق المنتشر.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾؛ أي: يقال لهم: إنّ هذا إلخ.

ومنها: الطباق بين ﴿يُحِبُّونَ﴾ و﴿يذرون﴾.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، قابل بين المحبة والتّرك، وبين العاجلة والباقية.

ومنها: إيراد صيغة الماضي مراداً به المستقبل في قوله: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾؛ أي: يحلون منها إشارة لتحقق وقوعه.

ومنها: التعبير عن المجازاة بالشكر في قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾، لأنّ الشكر مجاز عن المجازاة.

ومنها: تقديم الظرف على متعلقه في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ للاهتمام به، لما في صلاة الليل من مزيد كلفةٍ وإخلاص.

ومنها: الإتيان بالفاء في هذا التركيب لإفادة معنى الشرط، كأنّه قال: مهما يكن من شيء فاسجد له، ففيها وكادة أخرى لأمرها.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾، لأنّ الوراء هنا مستعار لمعنى الأمام.

ومنها: الاستعارة التصريحية التخييلية في قوله: ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، فقد استعير الثقل لشدّة ذلك اليوم وهو له من الشيء الثقيل الباهظ لحامله، مثله: قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

خطأ وقياس في غير محله: هذا ومن المضحك: أن بعضهم علق على قوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾، فقال: هذه الآية رد على عدم ما قاله أهل علم المعاني والبيان: إن الجمع بين الحاء والهاء مثلاً يخرج الكلمة من فصاحتها، وجعلوا من ذلك قول أبي تمام:

كَـرِيْـمٌ مَـتَـىٰ أَمْـدَحْـهُ أَمْـدَحْـهُ وَٱلْـوَرَىٰ مَـعَـيْ وَإِذَا مَـا لُـمْـتُـهُ لُـمْـتُـهُ وَحْـدِيْ

وهذا خطأ من الناقد الذي ظن أنه يبرىء القرآن الكريم من العيوب المخلة بالفصاحة بشجبه، لما قرره علماء البلاغة. وقياس في غير محله، فالفرق بين الآية والبيت واضح، وهو أن تكرار أمدحه هو الذي أخرجه عن مهيع الفصاحة لا مجرد اجتماع الحاء والهاء، وإذن فالآية سليمة من تنافر الحروف. قال الشيخ مخلوف الميناوي في «حاشيته» على شرح الشيخ أحمد الدمنهوري لمتن الإمام الأخضري: فإن منشأ الثقل هو تكرار أمدحه لا مجرد الجمع لوقوعه بين الحاء والهاء في التنزيل، نحو: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من الموضوعات

اشتملت هذه السورة الكريمة على أربعة مقاصد:

١ ـ خلق الإنسان.

٢ ـ جزاء الشاكرين والجاحدين.

٣ ـ وصف الجنة والنار.

٤ ـ أمر النبي ﷺ بالصبر، وذكر الله تعالى، والتهجد بالليل[١].

والله أعلم

* * *

---

(١) وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، آمين. تمت سورة الإنسان بعون الله ذي الإحسان أوائل ليلة الخميس الخامسة والعشرين من شهر الجمادى الأولى من شهور سنة ألف وأربع مئة وستّ عشرة سنة من سني الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التحيات.

بعد أن عاقني منها عوائق التدريس في المدارس، لأنّي لم يصبني في هذه السنة مطر المساعدة بالتفرغ الأسبوعي له يوم الأربعاء، لأنه لما تغير المدير تغيرت الأمور، و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾. فسبحان المستعان في كل الأمور، وعليه التكلان في تقلّبات الدهور. وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين آمين آمين ألف آمين يا ربّ العالمين.

سورة المرسلات

سورة المرسلات مكية في[1] قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. قال قتادة: إلاّ آية منها، وهي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فإنّها مدنيّة. وروي هذا عن ابن عباس، وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ بمكة. وأخرج البخاري؛ ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: بينما نحن مع النبيّ ﷺ في غار بمنى إذ نزلت سورة المرسلات عرفاً، فإنّهُ ليتلوها، وإنيّ لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية، فقال النبيّ ﷺ: اقتلوها، فابتدرناه فذهبت، فقال النبي ﷺ: وقيت شركم كما وقيتم شرها. وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن ابن عباس؛ أن أم الفضل سمعته وهو يقرأ والمرسلات عرفاً، فقالت: يا بني لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها آخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب.

وعدد **آيها**[2]: خمسون آية، نزلت بعد سورة الهمزة، ومئة وثمانون **كلمة**، وثمان مئة وستّة عشر **حرفاً**.

ومناسبتها لما قبلها[3]: أنه هنا أقسم على تحقيق ما تضمنته السورة قبلها من وعيد الفجّار ووعد المؤمنين الأبرار.

وقال أبو حيان: مناسبتها لما قبلها ظاهرة جدّاً، وهو أنه تعالى يرحم من يشاء ويعذّب الظالمين، فهذا وعد منه صادق، فأقسم على وقوعه في هذه فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ انتهى. وقال محمد بن حزم: سورة المرسلات كلّها محكم اهـ.

* * *

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾.

المناسبة

ابتدأت[١] السورة الكريمة بقسم الله سبحانه بطوائف من الملائكة، منهم المرسلون إلى الأنبياء بالإحسان، والمعروف ليبلغوه للناس، ومنهم الذين يعصفون ما سوى الحق ويبعدونه كما تبعد العواصف التراب وغيره، ومنهم الذين ينشرون آثار رحمته في النفوس الحيّة، ومنهم الذين يفرقون بين الحق والباطل، ومنهم الملقون العلم والحكمة للإعذار والإنذار من الله. على أن يوم القيامة لا ريب فيه، وحين تمحق أنوار النجوم وتشقق السماء، وتنسف الجبال، ويعين للرسل الوقت الذي يشهدون فيه على أممهم، ويفصل بين الخلائق إبّانَ العرض والحساب يكون

(١) المراغي.

الخزي والعذاب على الكافرين المكذّبين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لمّا حذر الكافرين، وخوّفهم بأن يوم الفصل كائن لا محالة، وأقسم لهم بملائكته المقرّبين ورسله الطاهرين بأنه يوم سيكون، وأن فيه من الأهوال ما لا يدرك كنهه إلا علام الغيوب.. أردف ذلك بتخويفهم بأنه أهلك الكفار قبلهم بكفرهم، فإذا سلكتم سبيلهم فستكون عاقبتكم كعاقبتهم، وستعذبون في الدنيا والآخرة. ثم أعقبه بتخويفهم بنكران إحسانه إليهم، فإنه قد خلقهم من ماء مهين في قرار مكين إلى زمن معلوم، ثم أنشأهم خلقاً آخر، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ليشكروا نعم الله عليهم، فكفروا بها، وأنكروا وحدانيته، وعبدوا الأصنام والأوثان. ثم ذكرهم بنعمه في الآفاق؛ إذ خلق لهم الأرض، وجعلها تضمهم أحياء وأمواتاً، وجعل فيها الجبال لئلا تميد بهم، وجعل فيها الأنهار والعيون، ليشربوا منها ماءً عذباً زلالاً. فويل لمن كفر بهذه النعم العظام.

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن للمكذّبين بالله وأنبيائه واليوم الآخر العذاب في يوم الفصل والجزاء.. بيَّن هنا نوع العذاب بما يحار فيه أولو الألباب، ويخر من هوله كل مخبت أواب. فأخبر بأنهم يؤمرون بالانطلاق إلى ما كانوا يكذّبون به في الدنيا إلى ظل دخان جهنم المتشعب لكثرته وتفرقه إلى ثلاث شعب عظيمة، وهو لا يظلهم ولا يمنع عنهم حر اللهب المتكون من نار ترمي بشرر كأنه القصر المشيد علوّاً وارتفاعاً، وكأنه الجمال الصفر انبساطا وتفرّقاً عن غير أعداد محصورة وحركة غير معيّنة. ثم أخبر بأن الويل للمكذبين بهذا اليوم يوم لا ينطقون من شدّة الدهشة والحيرة، ولا يؤذَن لهم في الاعتذار فيعتذرون يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويقال لهم على سبيل التأنيب والتقريع: إن كنتم تستطيعون أن تدفعوا عن أنفسكم شيئاً من العذاب فهلموا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين[1] ما يحل بالكفار من الخزي والنكال

---

(١) المراغي.

يوم القيامة.. أردفه بذكر ما يكون للمؤمنين من السعادة والكرامة حينئذٍ، فهم يكونون في ترفٍ ونعيم، ويأكلون فواكه مما يشتهون، ويقال لهم: كلوا واشربوا هنيئاً بما قدمتم في الأيام الخالية، وهذا جزاء كل محسن لعمله. ثم خاطب المكذّبين مهدِّداً لهم، فقال: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾، ولا نصيب لكم في الآخرة لأنكم كافرون. ثم ذكر أن الكفار إذا أمروا بطاعة الله والخشوع له أبوا، وأصروا على ما هم عليه من الاستكبار، فويل لهم مما يعملون، وإذا لم يؤمنوا بالقرآن والنبيّ الذي جاء به مع تظاهر الأدلة على صدقه، فبأي كلام بعده يصدّقون.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ سبب نزولها[١]: ما أخرجه ابن المنذر عن مجاهد قال: هذه الآية نزلت في ثقيف.

التفسير وأوجه القراءة

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾

اعلم[٢]: أن المفسرين ذكروا في هذه الكلمات الخمس وجوهاً:

الأول: أن المرادبأسرها الرياح، ومعنى ﴿المرسلات عرفا﴾ الرياح التي أرسلت إرسالاً عرفاً؛ أي: إرسالاً متتابعاً كعرف الفرس. وقيل: معنى ﴿عُرْفًا﴾؛ أي: كثيراً؛ أي: إرسالاً كثيراً. ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾؛ أي: الرياح الشديدة الهبوب؛ أي: فبالرياح التي تعصف عصفاً؛ أي: تهبّ هبوباً شديداً. ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾؛ أي: فبالرياح التي تنشر نشراً؛ أي: الرياح اللينة التي تهبّ هبوباً ليّناً. وقيل: الرياح التي أرسلها نشراً بين يدي رحمته. وقيل: الرياح التي تنشر السحاب، وتأتي بالمطر. ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾﴾؛ أي: فبالرياح التي تفرّق السحاب وتبدده عند انقطاع المطر. ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾؛ أي: فبالرياح التي تلقي في قلوب العباد ذكراً وخوفاً من الله تعالى. يعني: أن الرياح إذا أرسلت عاصفة شديدة.. قلعت

---

(١) لباب النقول. (٢) الخازن.

الأشجار، وخربت الديار، وغيرت الآثار، فيحصل بذلك خوف للعباد في القلوب، فيلجؤون إلى الله تعالى، ويذكرونه ذكراً، فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر، والمعرفة في القلوب عند هبوبها.

وقوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ بدل من ﴿ذِكْرًا﴾؛ أي: اللاتي يلقين ذكر الله تعالى في قلوب العباد إما يلقين ﴿عُذْرًا﴾؛ أي: اعتذاراً إلى الله وتوبة في حق الذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث، ويشكرونه. وإمّا يلقين ﴿نُذْرًا﴾؛ أي: إنذاراً وتخويفاً من الله في حق الذين ينسبون ذلك إلى الأنواء، ويشكرونها.

والمعنى عليه: أقسم لكم أيها العباد بالرياح المرسلة المطلقة إرسالاً عرفاً؛ أي: متتابعاً أو كثيراً كعرف الفرس، فبالرياح التي تعصف عصفاً؛ أي: تهب هبوباً شديداً، وبالرياح التي تنشر وتبسط السحاب نشراً بين يدي رحمته، فبالرياح اللاتي تفرق السحاب وتبدده وتعدمه فرقاً وإعداماً عند انقطاع المطر، فبالرياح التي تلقي في قلوب العباد ذكرا لله تعالى. إما تلقي ﴿عُذْرًا﴾؛ أي: اعتذاراً إليه تعالى بتوبتهم واستغفارهم في حق الشاكرين لنعمه، وإما تلقي ﴿نُذْرًا﴾؛ أي: إنذاراً وتخويفاً من عذابه في حق الكافرين لنعمه؛ أي: أقسم لك بصنوف هذه الرياح المذكورة إن الذي توعدون من البعث والجزاء الواقع لا محالة، وعلى هذا الوجه ذهب ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة.

والوجه الثاني: أن المراد بأسرها الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى، وبه قال ابن مسعود في رواية وأبو هريرة، وأبو صالح، ومقاتل، والفرّاء، وابن عباس في رواية. ومعنى ﴿المرسلات عرفا﴾ الملائكة الذين أرسلوا عرفاً؛ أي: بالمعروف من أمر الله ونهيه، ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢﴾ الملائكة تعصف في طيرانهم ونزولهم، وتسرع كعصف الرياح في السرعة، ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣﴾ الملائكة الذين ينشرون أجنحتهم، ويبسطونها إذا نزلوا إلى الأرض. وقيل: هم الذين ينشرون الكتب ودواوين الأعمال يوم القيامة. ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤﴾ الملائكة الذين يأتون بما يفرّق بين الحقّ والباطل، ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ الملائكة يلقون الذكر؛ أي: الوحي إلى الأنبياء إمّا بالاعتذار والتوبة، وإمّا بالإنذار والتخويف. وقيل: يجوز أن يكون الذكر هو القرآن خاصة، فعلى هذا يكون الملقي هو جبريل وحده، وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل

التعظيم.

والمعنى عليه: أقسم لكم أيها العباد بالملائكة الذين أرسلوا بعرف؛ أي: بمعروف؛ أي: الذين أرسلتهم بالإحسان والشرع والمعروف، ليبلّغوا أنبيائي ورسلي، وبالملائكة الذين يعصفون عصفاً كعصف الرياح في السرعة إلى إنفاذ أمر الله أو المبعدين للباطل بسرعة كما تعصف الرياح التراب والتّبْنَ والهباء، وبالملائكة الذين ينشرون أجنحتهم عند النزول إلى الأرض، أو الذين ينشرون دواوين الأعمال يوم القيامة ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾﴾؛ أي: فبالملائكة الذين يأتون بما يفرق بين الحقّ والباطل كإهلاك الكفرة وإنجاء المؤمنين، فبالملائكة الذين يلقون ذكراً ووحياً إلى الأنبياء إمّا ﴿عُذْرًا﴾ أو ﴿نُذْرًا﴾؛ أي: إمّا أمراً أو نهياً، ويقال: وعداً أو وعيداً، ويقال: تبشيراً بالجنة أو إنذاراً بالعذاب؛ أي: أقسم بهؤلاء الطوائف من الملائكة إنّ ما وعدتم به من قيام الساعة لكائن لا محالة.

والوجه الثالث: أنّ المراد بأسرها آيات القرآن. ومعنى ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ آيات القرآن المتتابعة في النزول على محمد ﷺ بكل عرف وخبر ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾ يعني آيات القرآن تعصف القلوب وتحركها وتلينها بذكر الوعيد حتى تجعلها كالعصف، وهو النبت المتكسر، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾ يعني: أنّ آيات القرآن تنشر أنوار الهداية والمعرفة في قلوب المؤمنين، ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾﴾ يعني: آيات القرآن تفرّق بين الحق والباطل، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾ يعني: آيات القرآن، وهي الذكر الحكيم الذي يلقي الإيمان والنور في قلوب المؤمنين.

والمعنى عليه: أقسم لكم يا عبادي بآيات القرآن التي أرسلت وأنزلت على محمد ﷺ بعرف وخير وهداية، فبالآيات التي تعصف وتدق وتلين القلوب بذكر الوعيد، وبالآيات التي تنشر أنوار الهداية والمعرفة في قلوب المؤمنين، فبالآيات الفارقة فرقاً؛ أي: تفرّق فرقاً بين الحق والباطل، فبالآيات التي تلقي ذكراً؛ أي: نوراً وإيماناً في قلوب المؤمنين، إما بذكر وعد أو وعيد. إنّما توعدون لواقع لا محالة.

والوجه الرابع: أنه ليس المراد من هذه الكلمات الخمس شيئاً واحداً بعينه، فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ

نَشْرًا ﴿٣﴾ الرياح، ويكون المراد بقوله: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾ الملائكة.

فإن قلت: وما المجانسة بين الرياح والملائكة جمع بينهما في القسم؟

قلت: الملائكة روحانيّون، فهم بسبب لطافتهم وسرعة حركاتهم شابهوا الرياح، فحصلت المجانسة بينهما من هذا الوجه، فحسن الجمع بينهما في القسم. وقوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾؛ أي: للإعذار والإنذار من الله تعالى. وقيل: عذرا من الله ونذراً منه إلى خلقه اهـ من «الخازن» بتصرف.

وعبارة «الروح» هنا: قوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ إلخ، ﴿الواو﴾: فيه للقسم والمرسلات بمعنى الطوائف المرسلات جمع مرسلة بمعنى طائفة مرسلة باعتبار أن ملائكة كل يوم أو كل عام أوكل حادثة طائفة. ﴿عُرْفًا﴾ بمعنى متتابعة من عرف الفرس، وهو الشعرات المتتابعة فوق عنقه، فهو من باب التشبيه البليغ بأن شبّهت الملائكة المرسلون في تتابعهم بشعر عرف الفرس. وانتصابه على الحالية؛ أي: وأقسم لكم بالطوائف المرسلة من الملائكة لتدبير العالم حالة كونهنّ جاريات بعضها إثر بعض كعرف الفرس. أو العرف بمعنى المعروف والإحسان، نقيض النكر بمعنى المنكر؛ أي: الشيء القبيح، فإنهم إن أرسلوا للرحمة فظاهر، وإن أرسلوا لعذاب الكفّار فذلك معروف للأنبياء والمؤمنين. يعني: أنَّ عذاب الأعداء إحسان للأولياء فانتصابه حينئذٍ على العلّية.

والمعنى: وأقسم لكم بالطوائف المرسلة من الملائكة إلى الأنبياء لأجل تبليغ العرف والخبر والشرع، وإيصاله إليهم. ويقال: عصفت الريح إذا اشتدّ هبوبها، و﴿عَصْفًا﴾ مصدر مؤكد، وكذا ﴿نَشْرًا﴾ ﴿فَرْقًا﴾. والفاء في قوله: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾ للدلالة على اتصال سرعة جريهنّ في نزولهنّ وهبوطهنّ بالإرسال من غير مهلة، وهي أعني: الفاء لعطف الصفة على الصفة؛ إذ الموصوف متحد. والنشر في قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾ بمعنى البسط، والعدول فيه إلى الواو، لأنّها غير المرسلات. فالقسم الأول وصفهم الله تعالى بوصفين يتعقّب أحدهما على الآخر، والقسم الثاني وصفهم بثلاثة أوصاف كذلك. والفرق والفصل والإلقاء هنا بمعنى الإيصال والإنزال لا الطرح. و﴿ذِكْرًا﴾ بمعنى الوحي مفعول ﴿الملقيات﴾،

وترتيب الإلقاء بالفاء ينبغي أن يكون لتأويله بإرادة النشر والفرق، وسيأتي تمامه نقلاً عن ابن الشيخ.

والحاصل: أنه سبحانه وتعالى أقسم بطوائف من الملائكة أرسلهنّ بأوامره بنحو التدبير وإيصال الأرزاق بالتصرّف في الأمطار والرياح وكتابة أعمال العباد بالليل والنهار وقبض الأرواح، فعصفهنّ في مضيّهنّ عصف الرياح مسارعة في الامتثال بالأمر. وبطوائف أخرى نشرن أجنحتهن في الجوّ عند انحطاطهنّ بالوحي؛ أو نشرن الشرائع في الأقطار؛ أي؛ فرَّقن وأشعنَ أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل أي أحيينَ بما أوحين ففرَّقن بين الحق والباطل، فألقين ذكراً إلى الأنبياء ﴿عُذْرًا﴾ لأهل الحق؛ أي: معذرة لهم في الدنيا والآخرة لاتباعهم الحقّ. ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ لأهل الباطل لعدم اتباعهم الحقّ. وعذراً مصدر من عذر إذا محا الإساءة، و﴿نُذْرًا﴾ اسم مصدر من أنذر إذا خوّف، لا مصدر، لأنه لم يسمع فعل مصدراً من أفعل. وانتصابهما على البدلية من ﴿ذِكْرًا﴾. قال ابن الشيخ: إذا كان الذكر المبدل منه بمعنى جميع الوحي يكون ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ بدل البعض من الكلّ، فإنّ ما يتعلق بمغفرة المطيعين، وتخويف المعاندين بعض من جملة الوحي. وإن أريد بالذكر المبدل منه ما يتعلق بسعادة المؤمن وشقاوة الكافر خاصّة يكون بدل الكل من الكل، فإن إلقاء ما يتعلق بسعادة المؤمن متحد بالذات مع إلقاء عذره ومحو إساءته، وكذا إلقاء ما يتعلق بشقاوة الكافر متحد مع إلقاء إنذاره على كفره انتهى. أو انتصابهما على العلية للصفات المذكورة أو للأخيرة وحدها، وهو الأولى بمعنى فاللائي ألقين ذكراً لمحو ذنوب المعتذرين إلى الله بالتوبة والاستغفار، ولتخويف المبطلين المصرّين. وفي «كشف الأسرار»: لأجل الإعذار من الله إلى خلقه لئلا يكون لأحد حجة، فيقول: لم يأتني رسول، ولأجل إنذارهم من عذاب الله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ قال: يقول الله: «يا ابن آدم إنّما أمرضكم لأذكّركم، وأمحص به ذنوبكم، وأكفر به خطاياكم، وربكم أعلم أن ذلك المرض يشتدّ عليكم، وأنا في ذلك معتذر إليكم». قال بعضهم: المعنى: ورب المرسلات إلخ.

وفي «الإرشاد»: لعل تقديم نشر الشرائع ونشر النفوس والفرق على الإلقاء؛ أي: مع أنّ الظاهر أن الفرق بين الحق والباطل يكون مع النشر لا بعده، وأنّ إلقاء

الذكر إلى الأنبياء متقدم على نشر الشرائع في الأرض وإحياء النفوس الموتى والفرق بين الحقّ والباطل، فلا يظهر التعقيب بينهما. للإيذان بكونها غاية للإلقاء حقيقةً بالاعتناء بها، أو للإشعار بأن كلا من الأوصاف المذكورة مستقل بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها للتفخيم والإجلال بالإقسام بهنّ، ولو جيء بها على ترتيب الوقوع لربّما فهم أن مجموع الإلقاء والنشر والفرق هو الموجب لما ذكر من الاستحقاق، هذا وقد قيل في هذا المقام غير ذلك كما مرّ عن «الخازن»، لكن الحمل على الملائكة أوجه وأسدّ، لما ذكرنا في المدثر أن المحققين على أنه من الملائكة المرسلات والناشرات والملقيات وغير ذلك انتهى من «روح البيان».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عُرْفًا﴾ بسكون الراء. وقرأ عيسى بن عمر بضمّها. وقرأ الجمهور ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ﴾ بسكون اللام وتخفيف القاف، اسم فاعل من الإلقاء. وقرأ ابن عباس بفتح اللام وتشديد القاف اسم فاعل من التلقية، وهي أيضاً إيصال الكلام إلى المخاطب، يقال: لقيته الذكر فتلقاه. وقرأ أيضاً ابن عباس فيما ذكره المهدويّ بفتح اللام والقاف مشدّدة، اسم مفعول؛ أي: تلقّته من قبل الله تعالى. وقرأ إبراهيم التيميّ، والنحويان: أبو عمرو والكسائي، وحفص ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ بسكون الذالين. وقرأ زيد بن ثابت، وابن خارجة بن زيد، وطلحة، وأبو جعفر، وأبو حيوة، وعيسى، والحسن بخلاف عنه، والأعشى عن أبي بكر بضمّهما. وقرأ أبو جعفر أيضاً، وشيبة، وزيد بن عليّ، والحرميّان. نافع وابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر بسكونها في ﴿عُذْرًا﴾، وضمها في ﴿نُذْرًا﴾. فالسكون على أنهما مصدران مفردان، أو مصدران جمعان، فـ﴿عُذْرًا﴾ جمع عذر بمعنى المعذرة، و﴿نُذْرًا﴾ جمع نذير بمعنى الإنذار، وانتصابهما على البدل من ﴿ذِكْرًا﴾، كأنّه قيل: فالملقيات ﴿عُذْرًا﴾ أو ﴿نُذْرًا﴾ أو على المفعول من أجله، أو على أنّهما مصدران في موضع الحال؛ أي: عاذرين، أو منذرين. ويجوز مع الإسكان أن يكونا جمعين على ما قرّرناه. وقرأ الجمهور[2]: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ على العطف بـ ﴿أو﴾ التفصيلية. وقرأ إبراهيم التيمي وقتادة على العطف بالواو بدون ألف.

ثم ذكر سبحانه جواب القسم، فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾؛ أي: إنّ الذي

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

توعدونه من مجيء الساعة والبعث كائن لا محالة. فـ﴿إِنَّمَا﴾[1] هذه ليست هي الحصرية بل (ما) فيها موصولة، وإن كتبت متصلةً في خط المصحف. والموعود هو مجيء القيامة؛ لأنّ المذكور عقيب هذه الآية علامات يوم القيامة. وقال الكلبيّ: المراد أن كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع نظراً إلى عموم لفظ الموصول.

ثم أخبر عن ظهور آثار يوم القيامة وحصول دلائلها لأهل الشقاوة بقوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾؛ أي: محيت ومحقت ذواتها، فإن الطمس: محو الأثر الدال على الشيء، وهو الموافق لقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾. أو محى نورها وأذهب ضوءها، فاستوت مع جرم السماء. والأوّل أولى، لأنّه لا حاجة فيه إلى الإضمار. والنجوم مرتفعة بفعل يفسره ما بعده أو بالابتداء، و﴿طُمِسَتْ﴾ خبره، والأوّل أولى، لأنّ ﴿إذا﴾ فيها معنى الشرط والشرط بالفعل أولى، ومحل الجملة على الإعرابين الجرّ بـ ﴿إذا﴾، وجواب ﴿إذا﴾ محذوف تقديره: فإذا طمست النجوم وقع ما توعدون، أو بعثتم أو جوزيتم على أعمالكم، وحذف لدلالة قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ عليه. وقرأ عمرو بن ميمون[2]: ﴿طمّست﴾ ﴿فرّجت﴾ بتشديد الميم والراء، والجمهور بتخفيفهما.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾؛ أي: فتحت وشقّت، فكانت أبواباً بالفرج، هو الشقّ، وكلّ مشقوق فرج، ومثله قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾، والمعنى؛ أي: صدعت من خوف الرحمن، وشقّقت ووقعت فيها الفروج التي نفاها بقوله: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ بسبب الإنفطار.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾؛ أي: قلعت من مكانها بسرعة، يقال: نسفت الشيء وأنسفته إذا أخذته بسرعة. وقال الكلبيّ: سويّت بالأرض، والعرب تقول: نسفت الناقة الكلأ إذا رعته، وقيل: جعلت كالحبّ الذي ينسف بالمنسف، وهو ما ينفض به الحب ويذرى، ومثله قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ فالبس والنسف معناهما واحد، وقيل: فرقتها الرياح، وذلك بعد التيسير، وقيل: كونها هباء.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١﴾؛ أي: عين لهم الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

أممهم. وذلك عند مجيء يوم القيامة وحضوره؛ إذ لا يتعين لهم قبل حصوله، فإن علم ذلك إلى الله تعالى. يعني: أن تبين وقت حضورهم لهم من جملة علامات القيامة من حيث إن ذلك التعيين والتبيين لم يكن حاصلاً في الدنيا لعدم حصول الوقت، فيقال لهم عند حصوله: أحضروا للشهادة فقد جاء وقتها. أو المعنى: وإذا الرسل بلغوا الميقات الذي ينتظرونه، وهو يوم القيامة، فإن التوقيت كما يجيء بمعنى تحديد الشيء وتعيين وقته فكذا يجيء بمعنى جعل الشيء منتهياً إلى وقته المحدود، وعلى المعنى الأول لا يقع على الذوات بدون إضمار، فإن الموقت هو الأحداث لا الجثث، فلا يقال: زيد موقت إلا أن يراد موقت حضوره، وكذا توقيت الرسل إنما هو بالنسبة إلى حضورهم لا بالنسبة إلى ذواتهم؛ لأنّ الذوات قارة لا يعتبر فيها تعيين، بخلاف الزمانيات المتجددة، هكذا قالوا.

والمعنى[1]: أي جعل لهم وقت للفصل والقضاء بنيهم وبين الأمم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾. وقيل: هذا في الدنيا؛ أي: جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذّبهم، والأوّل أولى. قال أبو علي الفارسي؛ أي: جعل يوم الفصل والدين لها وقتاً. وقيل: معنى ﴿أُقِتَتْ﴾ أرسلت لأوقات معلومة على ما علم الله به.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أُقِتَتْ﴾ بالهمز وشدّ القاف. وقرأ النخعيّ، والحسن، وعيسى، وخالد بتخفيف القاف والهمز. وقرأ أبو الأشهب، وعمرو بن عبيد، وعيسى أيضاً، وأبو عمرو بالواو وشدّ القاف، قال عيسى: وهي لغة سفلى مضر. وقرأ عبد الله، والحسن، وأبو جعفر بواو واحدة وتخفيف القاف. وقرأ الحسن أيضاً ﴿ووقتت﴾ بواوين على وزن فوعلت، والواو في هذا كله هي الأصل، والهمزة بدل عنها، لأنّه من الوقت.

وقوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾ مقول لقول مقدر تقديره؛ أي: ويقال يومئذٍ؛ لأيّ يوم أخرت الأمور المتعلقة بالرسل من تعذيب الكفار وإهانتهم وتنعيم المؤمنين ورعايتهم، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أمور الآخرة وأحوالها وفظاعة أهوالها. والمراد بهذا تهويل أمر هذا اليوم وتعظيم شأنه، كأنه قيل؛ أي: يوم هذا

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الذي أجل اجتماع الرسل إليه إنه ليوم عظيم. قال الفاشاني ﴿وإذا الرسل﴾؛ أي: ملائكة الثواب والعقاب ﴿أُقِّتَتْ﴾؛ أي: عيّنت وبلغت ميقاتها الذي عيّن لها إما لإيصال البشرى والروح والراحة، وإما لإيصال العذاب والكرب والذلّة، يقال: ليوم عظيم أخرت عن معاجلة الثواب والعقاب في وقت الأعمال، ورسل البشر وهم الأنبياء عينت وبلغت ميقاتها الذي عيّن لهم فيه الفرق بين المطيع والعاصي والسعيد والشقي، يقال: ليوم عظيم أخرت عن نزول العذاب بمن كذبهم، فإن الرسل يعرف كلا بسيماهم انتهى.

وقوله: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ بيان ليوم التأجيل؛ أي: أخّرت ليوم يفصل الله فيه بين الخلائق ويقضي بالحقوق، ويحكم بين المحسن والمسيء. وقال بعضهم: يفصل فيه بين الحبيب وحبيبه إلا من كان معاملته في الله تعالى، وبين المرء وأمه وأبيه وأخيه إلا أن يكونوا متفقين على الحق والعدل.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ﴿ما﴾[1] مبتدأ، وجملة ﴿أَدْرَاكَ﴾ خبره. وقوله: ﴿مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ إظهار في مقام الإضمار لزيادة تفظيع وتهويل، على أنّ ﴿ما﴾ خبر مقدم، و﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ مبتدأ مؤخّر، لا بالعكس، كما اختاره سيبويه؛ لأنّ محط الفائدة بيان كون يوم الفصل أمراً بديعاً هائلاً لا يقادر قدره ولا يكتنه كنهه كما يفيده خبرية ﴿ما﴾، لا بيان كون أمر بديع من الأمور يوم الفصل كما يفيده عكسه. والمعنى؛ أي: أيّ شيء جعلك دارياً وعالماً ما هو وما كنهه؟ إذ لم تر مثله، وكذا لم ير أحد قبلك شدّته حتى تسمع منه.

ثم صرح بالمراد وأبان من سيقع عليهم النكال والوبال حينئذٍ، فقال: ﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك عظيم ثابت ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: في ذلك اليوم الهائل كائن ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بيوم يفصل فيه الرحمن بين الخلائق؛ أي: الويل والهلاك ثابت فيه لهم. والويل في الأصل مصدر منصوب سادّ مسدَّ فعل لا من لفظه، فأصله: أهلكه الله إهلاكاً، أو هلك هو هلاكاً، عدل به إلى الرفع للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعوّ عليه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه أو صفته، ووضع الويل موضع الإهلاك، أو الهلاك، فجاز وقوعه مبتدأ مع كونه نكرة، فإنه لما كان مصدراً سادّاً مسدَّ فعله المتخصّص بصدوره عن

---

(١) روح البيان.

فاعل معيّن كانت النكرة المذكورة متخصصة بذلك الفاعل، فساغ الابتداء بها لذلك، كما قالوا: في سلام عليك. وقال بعضهم: الويل واد في جهنم، لو أرسلت الجبال لماعت من حرّه؛ أي: ذابت.

والمعنى: أي هلاك شديد وعذاب عظيم يومئذٍ كائن لمن كذب بالله ورسله وبكتبه، وبكل ما ورد على ألسنة أنبيائه وأخبروا به.

وكرّر هذه[1] الآية في هذه السورة لأنّه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، ورب شيء كذب به هو أعظم جرماً من التكذيب بغيره، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب.

ثم ذكر سبحانه ما فعل بالكفّار من الأمم الخالية، فقال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ممن أهلكوا قبل بعثة محمد ﷺ، وذلك لتكذيبهم بيوم الفصل. وهو[2] استئناف إنكار لعدم الإهلاك إثباتاً وتقريراً له، لأنّ نفي النفي يثبت الإثبات ويحقق الإهلاك، فكأنه قيل: لم يكن عدم الإهلاك بل قد أهلكناهم، وقرأ الجمهور ﴿نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بضم النون، وقتادة بفتحها، قال الزمخشري: من هلكه بمعنى أهلكه. ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ وهم الذين كانوا بعد بعثة محمد ﷺ.

وقرأ الجمهور ﴿نُتْبِعُهُمُ﴾ بالرفع على الاستئناف على معنى: ثم نحن نتبعهم الآخرين من نظرائهم السالكين مسلكهم في الكفر والتكذيب؛ أي: نجعلهم تابعين للأوّلين في الإهلاك. قال أبو البقاء: فليس بمعطوف على ما قبله، لأنّ العطف يوجب أن يكون المعنى: أهلكنا الأولين ثمّ أتبعناهم الآخرين في الإهلاك، وليس كذلك، لأنّ إهلاك الآخرين لم يقع بعد، فلذلك رفع ﴿نتبع﴾ على أن يكون مقطوعاً عمّا قبله، ويستأنف به الكلام على وجه الإخبار عمّا سيقع في المستقبل بإضمار المبتدأ. وفيه وعيد لكفّار مكة. ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود ﴿ثم سنتبعهم الآخرين﴾ بسين الاستقبال. وقرأ الأعرج والعبّاس عن أبي عمرو ﴿نتبعهم﴾ بالجزم عطفاً على ﴿نُهْلِكِ﴾ ويحتمل[3] تسكينه تخفيفاً، كما سكّن ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، فهو

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

استئناف، فعلى الاستئناف يكون ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الأمم التي تقدمت قريشاً أجمع، ويكون ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ من تأخّر من قريش وغيرهم، وعلى التشريك يكون ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ قوم نوح وإبراهيم عليهما السلام، ومن كان معهم، و﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ قوم فرعون، ومن تأخر وقرب من بعثة محمد ﷺ. والإهلاك هنا إهلاك العذاب والنكال في الدنيا، ولذلك جاء بعده ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فأتى بالصفة المقتضية لإهلاك العذاب، وهي الإجرام.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: فعلاً مثل ذلك الفعل الفظيع الذي هو الإهلاك، فمحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف. ﴿نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ أي: بكل من أجرم وأشرك بالله سبحانه إمّا في الدنيا أو في الآخرة. وفيه تحذير من عاقبة الجرم وسوء أثره.

﴿وَيۡلٞ﴾؛ أي: عذاب عظيم ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾؛ أي: يوم إذ أهلكناهم ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله وأنبيائه، وليس فيه تكرير، لما أن الويل الأول لعذاب الآخرة، وهذا لعذاب الدنيا.

ومعنى الآيات: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦﴾؛ أي: ألم نهلك من كذّب الرسل قبلكم ونعذّبهم في الدنيا بشتى أنواع العذاب، فتارة بالغرق كما حدث لقوم نوح، وأخرى بالزلزال كما كان لقوم لوط، إلى أشباه ذلك من المثلات التي حلت بالأمم قبلكم جزاء لهم على قبيح أعمالهم وسيء أعمالهم، وإن سنتنا في المكذبين لا تبديل فيها ولا تغيير، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم، وتندموا ولات ساعة مندم. ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧﴾؛ أي: ثم نحن نفعل بأمثالهم من الآخرين، ونسلك بهم سبيلهم، لأنّهم فعلوا مثل أفعالهم. ثم ذكر الحكمة في إلحاقهم بهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ أي: سنتنا في جميع المجرمين واحدة، فكما أهلكنا المتقدمين لإجرامهم وتكذيبهم نفعل بالمتأخّرين الذين حذوا حذوهم، واستنوا سنّتهم، فسنتنا تجري على وتيرة واحدة. ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾؛ أي: هؤلاء وإن عذبوا في الدنيا بأنواع من العذاب فالطامة الكبرى معدّة لهم يوم القيامة. والتكرير للتوكيد شائع في كلام العرب، كما تقدم في سورة الرحمن.

وفي «برهان القرآن»: كرّرها في هذه السورة عشر مرّات، لأن كل واحدة منها ذكرت عقيب آية غير الأولى، فلا يكون تكراراً مستهجناً، ولو لم يكرر كان متوعداً

على بعض دون بعض. وقيل: إن من عادة العرب التكرار والإطناب كما أن عادتهم الاقتصار والإيجاز، ولأن بسط الكلام في الترغيب والترهيب أدعى إلى إدراك البغية من الإيجاز، وقد يجد كل أحد في نفسه من تأثير التكرار ما لا خفاء. قال في «فتح الرحمن»: كرّر هنا عشر مرات، والتكرار في مقام الترغيب والترهيب مستحسن، لا سيما إذا تغايرت الآيات السابقة على المرّات المكرّرة كما هنا انتهى.

ثم ذكرهم بجزيل نعمه عليهم في خلقهم وإيجادهم مما يستدعي جزيل شكرانهم، فقال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾؛ أي: ألم نحدثكم. واتفق[1] القرّاء على إدغام القاف في الكاف في هذا الحرف. وذكر النقاش أنه في قراءة ابن كثير ونافع برواية قالون، وعاصم في رواية حفص بالإظهار، قاله في الإيضاح. ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ بهوان الحدوث والإمكان والابتذال؛ أي: من نطفة قذرة مهينة حقيرة، والميم فيه أصلية كما سيأتي، ومهانته: قلته وخسته، وكل شيء ابتذلته فلم تصنه فقد امتهنته؛ أي: خلقناكم منه، ولذا عطف عليه قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: الماء ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾؛ أي: في مكان حريز يحفظ فيه المني من الآفات المفسدة له كالهواء، وهو الرحم بكسر الحاء المهملة؛ أي وعاء الولد في بطن الأمّ. فالقرار موضع الاستقرار، والمكين: الحصين؛ أي[2]: جعلنا ذلك الماء في مقرٍّ حصينٍ يتمكن فيه الماء محفوظاً سالماً من التعرض له، فمكين من المكانة بمعنى التمكن لا منها بمعنى المنزلة والمرتبة من الكون، يقال: رجل مكين في مكة؛ أي: متمكن فيها، ومكين عند الأمير؛ أي: ذو منزلة ومرتبة عنده، فيكون فعيلا لا مفيلا. ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: مقدار معلوم من الوقت الذي قدّره الله تعالى للولادة تسعة أشهر أو أقل منها، أو أكثر، وهو في موضع الحال من الضمير المنصوب في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: مؤخراً إلى مقدار معلوم من الزمان، وقيل: إلى أن يصور.

﴿فَقَدَرْنَا﴾؛ أي: فقدرناه، والمراد تقدير خلقه وجوارحه وأعضائه وألوانه ومدة حمله وحياته. وقيل: المعنى: قدرناه قصيراً أو طويلاً، وقيل معنى ﴿قدرنا﴾ ملكنا. وقرأ الجمهور ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بالتخفيف. وقرأ علي بن أبي طالب ونافع والكسائي بالتشديد من التقدير، نظير[3] قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾. قال الكسائي

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

والفرّاء: هما لغتان بمعنى واحد، تقول: قدرت كذا وقدرته. ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾؛ أي: نعم المقدرون نحن، وإلى هذا المعنى ذهب ابن مسعود رضي الله عنه. ويجوز[1] أن يكون ﴿فَقَدَرْنَا﴾ من القدرة بمعنى فقدرنا على ذلك؛ أي: على خلقه وتصويره كيف شئنا وأردنا من مثل تلك المادة الحقيرة، على أن المراد بالقدرة ما يقارن وجود المقدور بالفعل، ويعضد هذا المعنى قوله: ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ حيث خلقناه بقدرتنا وجعلناه على أحسن الصور والهيئات.

والمعنى[2]: أي ألا تعترفون بأنكم خلقتم من نطفة مذرة منتنة وضعت في الأرحام إلى حين الولادة، ونحن قد قدرنا ذلك فنعم المقدرون، إذ خلقناكم في أحسن الصور والآيات، أفلا يستحق ذلك الخالق منكم الشكران لا الكفران والاعتراف بوحدانيته وإرساله للرسل والإقرار بالبعث، لكنكم كفرتم أنعمه، ونكلتم عن الاعتراف بوحدانيته، وعبدتم الأصنام والأوثان، وأنكرتم يوم الفصل والجزاء، فسترون في هذا اليوم عاقبة ما اجترحتم.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: خزي وعذاب عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: لمن كذب بهذه المنن العوالي، أو لمن كذب بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة. قال أبو الليث؛ أي: الشدة من العذاب لمن يرى الخلق الأول، فأنكر الخلق الثاني اهـ.

وبعد أن ذكرهم بالنعم التي أنعم بها عليهم في الأنفس ذكرهم بما أنعم عليهم في الآفاق، وأرشد إلى أمور ثلاثة:

١ - ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥)﴾؛ أي: مهاداً لكم، فتكفتكم وتجمعكم فيها ﴿أَحْيَاءً﴾ على ظهرها ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ في بطنها. فالأحياء يسكنون في منازلهم، والأموات يدفنون في قبورهم. عرفهم أوّلاً نعمه الأنفسية، لأنها كالأصل، ثم أتبعها النعم الآفاقية. والكفات[3] اسم ما يكفت؛ أي: يضم ويجمع، من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه كالضمام لما يضم، والجماع لما يجمع، نحو قولهم: التقوى جماع كل خير، والخمر جماع كل إثم. و﴿كِفَاتًا﴾ مفعول ثان لـ﴿نَجْعَلِ﴾، لأنّه بمعنى: ألم نصيّرها ﴿كِفَاتًا﴾ تكفت وتضم ﴿أَحْيَاءً﴾ كثيرة على ظهرها، فهو منصوب بفعل مضمر، يدل عليه كفاتاً، وهو تكفت وإلا فالأسماء الجامدة، وكذا أسماء الزمان

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

والمكان والآلة، وإن كانت مشتقة لا تعمل، وفي اسم المصدر خلاف، وأما المصدر وجمع اسم الفاعل فهما من الأسماء العاملة، فمن جعل الكفات مصدراً أو جمع اسم الفاعل، وهو كافت كصيام جمع صائم جعله عاملاً، ومن جعله اسما لما يكفت أو جمعاً للكفت بمعنى الوعاء منعه من العمل، غير الزمخشري فإنه جعل ﴿كِفَاتًا﴾ وهو اسم عاملاً، وقد طعن فيه. ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ غير محصورة في بطنها، ولهذا كانوا يسمون الأرض أمّاً تشبيهاً لها بالأم في ضمها للناس إلى نفسها أحياء وأمواتاً كالأم التي تضم أولادها إليها وتضبطهم.

واستدل بهذا القفّال على أن النباش يقطع، لأن بطن الأرض حرز للكفن، فإذا نبش وأخذ منه فهو سارق. ولما كانوا ينضمون إليها جعلت كأنها تضمهم، وأيضاً كما أن الأرض كفات الأحياء بمعنى أنهم يسكنون فيها كذلك أنها كفات لهم بمعنى أنها تكفت ما ينفصل من الأحياء من الأمور المستقذرة، وتنكيرهما في معنى التعريف الاستغراقي لا للأفراد والنوعية، ويجوز أن يقال: الأرض وإن كانت كفاتاً لجميع أحياء الإنس وأمواتهم، لكن الأحياء والأموات غير منحصرة فيها؛ لأن بعض الحيوان يكفته الهواء والبعض الآخر يكفته الماء، فلا تكون للجميع بل للبعض، فيصح التنكير.

٢ - ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت مستقرّات، فمفعول ﴿جعلنا﴾ مقدر، و﴿رَوَاسِيَ﴾ صفة له، من رسا الشيء يرسو إذا ثبت، والجبال ثوابت على ظهر الأرض، لا تزول ولا تزلزل. ﴿شَامِخَاتٍ﴾ صفة بعد صفة. والشامخ: العالي المرتفع؛ أي: طوالاً شواهق، ومنه: شمخ بأنفه عبارة عن الكبر. وفي عين المعاني: ﴿رَوَاسِيَ﴾؛ أي: ثوابت الأصول رواسخ العروق شامخات؛ أي: مرتفعات الفروع، ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث في غير العقلاء مطرد كأشهر معلومات ونحوه. والتنكير للتفخيم أو للإشعار بأن ما يرى على ظهر الأرض من الجبال بعض منها، وإن في عداد الجبال ما لم يعرف ولم ير، فإن السماء فيها جبال أيضاً بدلالة قوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ انتهى.

والمعنى[1]: أي وجعلنا جبالاً ثوابت عاليات على ظهرها، لئلا تميد بكم،

---

(١) المراغي.

وهذه الجبال متصلة بالطبقة الصوانية التي هي أبعد طبقات الأرض عن سطحها، وتلك الطبقة تضم في جوفها كرة النار المشتعلة التي في باطنها، وظاهرها هذه القشرة التي نحن عليها.

٣ - ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾؛ أي: عذباً جدّاً بأن خلقنا فيها أنهاراً ومنابع؛ أي: جعلناه سقياً لكم، ومكناكم من شربه، وكذا من سقيه دوابكم ومزارعكم، وسمي نهر الكوفة فراتاً للذته. وقال أبو الليث: ماء عذباً من السماء والأرض، ويقال: الفرات للواحد والجمع، وتاؤه أصل، والتنكير للتفخيم كما سيأتي، أو لإفادة التبعيض؛ لأنَّ في السماء ماء فراتاً أيضاً، بل هي معدنه ومصبه.

والمعنى[1]: أي وأسقيناكم ماء عذباً فراتاً تشربون منه، إمّا آتيا من السحاب الذي حفظته الجبال بارتفاعها، وإمّا من العيون النابعات منها، ويمدها الثلج الذي يذوب شيئاً فشيئاً فوق ظهر الأرض متنزلاً إلى بطنها متجهاً إلى عيونها الجارية.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: عذاب عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ وقع ما توعدون ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في الدنيا بامتثال هذه النعم العظيمة.

وقوله: ﴿انطَلِقُوٓا...﴾ إلخ، مقول لقول مقدر تقديره: يقال يومئذٍ للمكذّبين على سبيل التوبيخ والتقريع: انطلقوا واذهبوا، والقائلون هم خزنة النار وزبانية جهنم ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ من العذاب، و﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، قدّم عليه لرعاية رؤوس الآية.

والمعنى: أي تقول لهم خزنة جهنم حينئذٍ: اذهبوا إلى ما كنتم تكذّبون به من العذاب في الدنيا.

ثم بين هذا العذاب، ووصفه بجملة صفات:

١ - ﴿انطَلِقُوٓا﴾ واذهبوا خصوصاً ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾؛ أي: إلى ظل دخان نار جهنم كقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: دخان غليظ أسود. ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾؛ أي: ذي ثلاث ذوائب، جمع شعبة يتشعّب لعظمه ثلاث شعب كما هو شأن الدخان العظيم، تراه يتفرق ذوائب؛ أي: انطلقوا إلى ظل من دخان جهنم، قد سطع ثم

---

(١) المراغي.

افترق ثلاث فرق، وصار ثلاث شعب: شعبة عن يمينهم، وشعبة عن شمالهم، وشعبة من فوقهم حتى يفرغ من الحساب، والمراد أنّه أحاط بهم من كل جانب كما جاء في الآية الأخرى ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.

فقوله: ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ كناية[1] عن كون ذلك الدخان عظيماً بناءً على أن التشعب من لوازمه. وقيل: يخرج لسان من النار، فيحيط بالكفار كسرادق، وهو ما يمد فوق صحن البيت. ويتشعب من دخانها ثلاث شعب، فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم، والمؤمنون في ظل العرش.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ في الموضعين بكسر اللام على صيغة الأمر، وكرره بياناً للمنطلق إليه أو للتأكيد. وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضي في الثاني على معنى الخبر، فكأنهم لما أمروا بالإنطلاق امتثلوا ذلك فانطلقوا.

ثم وصف سبحانه هذا الظل تهكماً بهم، فقال:

٢ ـ ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾؛ أي: ليس بمظل، فلا يبقى من حر ذلك اليوم، فهو وصف أخذ من الظل للتأكيد كنوم نائم لأنه في تقدير: لا ظل ظليل؛ أي: ليس بظل مظل من الحر. وتوصيف[3] الظل بأنه لا يظل من حر ذلك اليوم، وهو حر النار، للدلالة على أن تسمية ما يغشاهم من العذاب بالظل استهزاء بهم، فإن شأن الظل أن يدفع عمن يستظل به مقاساة شدة الحر، وأن ينفعه ببرده ونسيمه، والذي أمروا بالانطلاق إليه يضاعف عليهم ما هم فيه من الحر والعذاب، فضلاً عن أن يستريحوا ببرده أو رد لما أوهمه لفظ الظل من الاسترواح.

٣ ـ ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: ولا يدفع من حرّ النار شيئاً، لأنّه في جهنم، فلا يظلهم من حرها، ولا يسترهم من لهيبها.

والمعنى: أي غير مغن لهم من حر اللهب كما يغني ظل الدنيا من الحر، فقوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ في موضع الجر على أنه صفة لـ ﴿ظِلٍّ﴾، ولفظ لا غير مانع للصفتية؛ أي: ظل غير ظليل، وغير مغن ومفعول ﴿يُغْنِى﴾ محذوف هو شيئاً، و﴿مِنَ﴾ لبيانه، ويغني من أغنى عني وجهه؛ أي؛ أبعده، لأن الغني عن الشيء

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

يباعده كما أن المحتاج إليه يقربه، فصح أن يعبر بإغناء شيء عن شيء عن إبعاده عنه، فكأن المعنى أن هذا الظل لا يظلكم من حرّ الشمس، ولا يدفع عنكم لهب النار. واللهب: ما يعلو على النار إذا اضطرمت من أحمر وأصفر وأخضر.

ثم وصف النار التي تحدث هذا الظل من الدخان، فقال: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: إنّ هذه النار، فالضمير للنار، وقيل: إنه عائد على الشعب، لأنها هي المذكورة لا النار. ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ كثيرة، كل واحدة منها ﴿كَالْقَصْرِ﴾؛ أي: كقصر من القصور في عظمها، كما يدل على هذا التفسير قوله: ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: إن هذه النار يتطاير منها شرر متفرقة في جهات كثيرة كأن كل واحدة منها القصر عظماً وارتفاعاً. والشرر: جمع شررة، وهي ما تطاير من النار في الجهات متفرّقاً كالنجوم، كما قال في «القاموس»: الشرار والشرر ككتاب وجبل ما يتطاير من النار، واحدتهما بهاء انتهى. وقوله: ﴿كَالْقَصْرِ﴾ في موضع الصفة للشرر، والقصر هو البناء العالي، ووصف به الجمع باعتبار كل واحد من آحاده، والقصر أيضاً: الحطب الجزل، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: هي الخشب العظام المقطعة، وكنا نعمد إلى الخشب فنقطعها ثلاثة أذرع، وفوق ذلك، ودونه ندخرها للشتاء، فكنا نسميها القصر؛ أي: لكونها مقصورة مقطوعة من الممدودة الطويلة، تأمل في أن ناراً دخانها وشررها هكذا، فما بالك بحال أهلها؟ وعلى هذا المعنى الأخير القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل: جمر وجمرة وتمر وتمرة، وهي الواحدة من جزل الحطب الغليظ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِشَرَرٍ﴾ وقرأ عيسى ﴿بشَرَار﴾ بألف بين الرائين. وقرأ ابن عباس وابن مقسم كذلك، إلا أنه كسر الشين، فاحتمل أن يكون جمع شرر؛ أي: بشرار من العذاب. وأن يكون صفة أقيمت مقام موصوفها؛ أي؛ بشرار من الناس كما تقول: قوم شرار جمع شر غير أفعل التفضيل، قوم خيار جمع خير غير أفعل التفضيل، ويؤنث هذا فيقال للمؤنث: شرة وخيرة، بخلافهما إذا كانا للتفضيل، فلهما أحكام مذكورة في النحو. وقرأ الجمهور ﴿كَالْقَصْرِ﴾ بإسكان الصاد وهو واحد القصور. وقرأ ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والحسن، وابن مقسم،

---

(١) البحر المحيط.

والسلمي، وحميد بفتح القاف والصاد. وقرأ ابن جبير أيضاً، والحسن أيضاً ﴿كالقصر﴾ بكسر القاف وفتح الصاد جمع قصرة، مثل: بدر وبدرة وقصع وقصعة. وبعض القرّاء بفتح القاف وكسر الصاد، وابن مسعود بضمهما، كأنه مقصور من القصور كما قصروا النجم والنمر من النجوم والنمور، كما قال الراجز:

فِـيْـهَـا عَـنَـابِـيْـلُ أُسُـوْدٌ ونُـمُـرْ

﴿كَأَنَّهُۥ﴾؛ أي:[1] كأن ذلك الشرر، وفي «فتح الرحمن»: ثم رد الضمير إلى لفظ النار دون معناها، فقال: كأنه؛ أي: النار ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ جمع جمل كحجارة في جمع حجر، والتاء لتأنيث الجمع أو اسم جمع كالحجارة. والجمل: ذكر الإبل، والناقة أنثاه، وإذا لم يكن في جماعة الإبل أنثى يقال: جمالة بالكسر. والصفر: جمع أصفر، والصفرة لون من الألوان التي بين السواد والبياض، وهي إلى البياض أقرب، ولذلك قد يعبر بها عن السواد. والمعنى: كان كل شررة جمل أصفر أو كجمل أسود؛ لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، ولأن صفر الإبل يشوب رؤوس أشعارها سواد، وفي الحديث: «شرار جنهم أسود كالقير». فالأول وهو التشبيه بالقصر تشبيه في العظم، والثاني وهو التشبيه بالجمل تشبيه في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط والحركة. وفي «المفردات»: قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ قيل: جمع أصفر،وقيل: بل أراد به الصفر المخرج من المعادن، ومنه قيل للنحاس: صفر.

وقرأ الجمهور ومنهم[2]: عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ﴿جمالات﴾ بكسر الجيم وبالألف والتاء، جمع جمال جمع جمل، وهي الإبل كقولهم: رجالات قريش. وقرأ ابن عباس[3] وقتادة، وابن جبير، والحسن، وأبو رجاء بخلاف عنهم كذلك، إلاّ أنهم ضموا الجيم، وهي جمال السفن الواحد منها جملة لكونه جملة من الطاقات، ثم جمع على جمل وجمال، ثم جمع جمال ثانياً جمع سلامة، فقالوا: جمالات. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص، وأبو عمرو في رواية الأصمعيّ، وهارون عنه ﴿جمالة﴾ بكسر الجيم، لحقت جمالاً التاء لتأنيث الجمع كحجر وحجارة كما مرّ. وقرأ ابن عباس، والسلمي، والأعمش، وأبو حيوة، وأبو

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) البحر المحيط.

بحرية، وابن أبي عبلة، ورويس كذلك إلا أنهم ضموا الجيم. قال ابن عباس وابن جبير: الجمالات قلوص السفن، وهي حبالها العظام إذا اجتمعت مستديرة بعضها إلى بعض، جاء منها أجرام عظام. وقال ابن عباس أيضاً: الجمالات: قطع النحاس الكبار، وكأن اشتقاق هذه من اسم الجملة. وقرأ الحسن ﴿صفر﴾ بضمّ الفاء، والجمهور بإسكانها. قال الواحدي[1]: والصفر معناها في قول المفسرين قال الفرّاء: الصفر: سواد الإبل لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرةً، ولذلك سمت العرب سود الإبل صفراً، قيل: والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود، ومنه قول الشاعر:

تِـلْـكَ خـيْـلِـيْ وَتِـلْـكَ رِكَـابِـيْ   هُـنَّ صُـفْـرٌ أَوْلاَدُهَـا كَـالـزَّبِـيْـبِ

أي: هن سود. هذا القول بعيد عند أهل اللغة والعجب لمن قال بهذا القول، وقد قال تعالى: ﴿جمالات صفر﴾.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: خزي عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ وقعت المجازاة بتلك النار ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا اليوم الذي لا يجدون فيه لدفع العذاب عنهم محيصاً.

ثم وصف اليوم الذي فيه العذاب، فقال: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى وقت دخولهم النار. و﴿يَوْمُ﴾ مرفوع عى أنه خبر ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: هذا يوم ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ فيه بشيء، لما[2] أن السؤال والجواب والحساب قد انقضت قبل ذلك، وأيضاً يوم القيامة يوم طويل له مواطن ومواقيت ينطقون في وقت دون وقت. فعبر عن كل وقت بيوم. أو لا ينطقون بشيء ينفعهم، فإن ذلك كلا نطق. قال الفاشاني: لا ينطقون لفقدان آلات النطق وعدم الإذن فيه بالختم على الأفواه. وقال بعضهم: لا ينطقون لشدّة تحيرهم وقوة دهشتهم. وقال أبو عثمان رحمه الله: أسكتهم هيبة الربوبية، وحياء الذنوب.

وقرأ الجمهور[3] برفع ﴿يَوْمُ﴾ على أنه خبر لاسم الإشارة. وقرأ الأعمش، والأعرج، وزيد بن عليّ، وعيسى، وأبو حيوة، وعاصم في رواية بفتحه على البناء لإضافته إلى الفعل، ومحله الرفع على الخبرية، والجملة المصدرة بمضارع مثبت أو

---

(١) الشوكاني.   (٢) روح البيان.   (٣) البحر المحيط.

منفيّ، لا يجيز البصريون في الظرف المضاف إليها البناء بوجه، وإنما هذا مذهب كوفيّ. وقيل: هو منصوب على الظرفية، والإشارة بهذا إلى ما تقدم من الوعيد، كأنّه قيل: هذا العذاب المذكور كائن يوم لا ينطقون.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ معطوف[1] على ﴿يُؤْذَنُ﴾ منتظم في سلك النفي؛ أي: لا يكون لهم إذن واعتذار، متعقّب له من غير أن يجعل الاعتذار مسبّباً عن الإذن، كما لو نصب فيقال: فيعتذروا، والنصب يوهم أنّ لهم عذراً وقد منعوا من ذكره، وهو خلاف الواقع، إذ لو كان لهم عذر لم يمنعوا. وأيّ عذر لمن أعرض عن منعمه، وكفر بأياديه ونعمه؟

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يُؤْذَنُ﴾ على البناء للمفعول. وقرأ زيد بن عليّ ﴿ولا يأذن﴾ على البناء للفاعل؛ أي: لا يأذن الله لهم؛ أي: لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار. قال الفرّاء: الفاء في ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عاطفة على ﴿يُؤْذَنُ﴾ وأجيز ذلك، لأنّ أواخر الكلام بالنون، ولو قال: فيعتذروا لم يوافق الآيات. وقد قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ بالنصب، والكل صواب.

والمعنى: أي هذا يوم لا يتكلمون من الحيرة والدهشة، ولا يؤذن لهم في الاعتذار، لأنه ليس لديهم عذر صحيح، ولا جواب مستقيم. وقد يكون المعنى: هذا يوم لا ينطقون بما يفيد فكأنّهم لا ينطقون. وتقول العرب لمن ذكر ما لا يفيد: ما قلت شيئاً.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: كرب عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بما دعتهم إليه الرسل، وأنذرتهم عاقبته.

وقال القاضي في كشف ما يلتبس في القرآن: إن قلت: نفي النطق عنهم يدل على انتفاء الاعتذار منهم؛ إذ الاعتذار لا يكون إلا بالنطق، فما فائدة قوله عقبه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟

قلت: معناه: لا ينطقون ابتداء بعذر مقبول، ولا بعد أن يؤذن لهم في الاعتذار.. لو أذن لهم فيه؛ إذ الخائف عادة قد لا ينطق لسانه بعذر وحجة لخوفه،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

لكن إذا أذن له فيه نطق. ففائدة ذلك نفي هذا المعنى؛ أي: لا ينطقون ابتداء بعذر ولا بعد الإذن.

فإن قلت: ما ذكر ينافيه ما دل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ من وقوع الاعتذار منهم.

قلت: لا ينافيه، لأنّ يوم القيامة يوم طويل، فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في آخر. والجواب: بأن المراد بتلك الآية الظالمون من المسلمين وبما هنا الكافرون ضعيف، لتعقيب تلك الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ انتهى.

﴿هَٰذَا﴾ اليوم الذي شاهدتم أهواله وأحواله ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين الحقّ والباطل. والجملة على تقدير القول؛ أي: يقال للمكذبين: هذا اليوم يوم يفصل فيه بين الخلائق، ويتميّز فيه الحقّ من الباطل، فيؤتى كل عامل جزاء عمله من ثواب وعقاب، ويفصل بين العباد بعضهم مع بعض، فيقتصّ من الظالم للمظلوم وتردّ له حقوقه. ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ يا أمّة محمد ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الماضية. وهذا تقرير وبيان للفصل؛ إذ الفصل بين المحقّ والمبطل والرسل لا يستحق إلا بجمع الكل، فلا بد من إحضارهم لا سيّما عند من لا يجوز القضاء على الغائب.

أي:[1] جمعنا بينكم وبين من تقدمكم من الأمم في صعيد واحد ليمكن الفصل بينكم، فيقضى لهذا على هذا، ولولا ذلك الجمع.. ما أمكن؛ إذ لا يقضى على غائب.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ أيّها المكذّبون ﴿كَيْدٌ﴾ في هذا اليوم، كما كان لكم في الدنيا ما تكيدون به دين الله وأولياءه؛ أي: حيلة تدفعون بها عنكم العذاب. والظاهر: أن هذا خطاب من الله للكفّار. ﴿فَكِيدُونِ﴾ اليوم، أصله: فيكيدوني حذف ياء المتكلم اجتزاء عنها بالكسرة والنون للوقاية، وهو أمر من كاد يكيد كيداً، وهو المكر والاحتيال والخديعة. والمعنى: واحتالوا لأنفكسم، وتخلصوا من عذابي إن قدرتم، فإن جميع من كنتم تقلّدونهم وتقتدون بهم حاضرون.

---

(١) المراغي.

وهذا أمر[1] إهانة وخطاب تعجيز، وتقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا، وتخجيل لهم بأنهم كانوا في الدنيا يدفعون الحقوق عن أنفسهم، ويبطلون حقوق الناس بضروب الحيل والمكايد والتلبيسات. فخاطبهم الله تعالى حين علموا أنّ الحيل منقطعة والتلبيسات غير ممكنة بقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾. لما ذكر من التقريع والتخجيل ولإظهار عجزهم عن الكيد، فإن لمثل هذا الكلام لا يتكلم به إلا من تيقن بعجز مخاطبه عما هو بصدده. وفي بعض التفاسير؛ أي: فإن وجد كيد نافع لكم، على أن ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿كَانَ﴾ أو نافعاً لكم على أنه حال من ﴿كَيْدٌ﴾. وقيل: المعنى فإن قدرتم على حرب فحاربون. وقيل: إنّ هذا من قول النبي ﷺ، فيكون كقول هود عليه السلام لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: غمّ وغصّة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يقال للكفّار ما ذكر ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث؛ لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا، فعلموا أنَّ لاحيلة لهم في الخلاص من العذاب.

ثم ذكر سبحانه المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من الكفر والتكذيب للرسل، لأنهم في مقابلة المكذّبين، ففيه رد على المعتزلة. وقال مقاتل والكلبيّ: المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك بالله، لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقريع الكفّار على كفرهم. ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ ظليلة على الحقيقة، كما يدل عليه الإطلاق؛ أي: في ظلال الأشجار وظلال القصور، لا كالظل الذي للكفّار من الدخان، أو من النار، كما تقدم. قال بعضهم: الظاهر أنه إخبار عن كونهم تحت أشجار مثمرة لهم في جنانهم. يقول الفقير: الأظهر كونهم في ظلال كناية عن راحتهم العظمى، لأن الظل للراحلة، وكذا قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ونحوه. وإنما ذكر الله سبحانه الظل تشويقاً للقلوب، لأنّ من البلاد ما هي حارّة قليلة المياه والأشجار والظلال. وقرأ الجمهور ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ جمع ظلّ، والأعمش ﴿في ظلل﴾ جمع ظلّة، وكذا وافقه الزهري، وطلحة، والأعرج. ﴿و﴾ في ﴿عيون﴾ عذبة دافعة عنهم العطش ﴿و﴾ في ﴿فواكه﴾ لذيذة متنوّعة ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ويتمنّون، فيتناولونها تلذّذاً لا

(١) روح البيان.

عن جوع، والمراد بالعيون الأنهار، وبالفواكه ما يتفكّه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم.

والحاصل: أنهم مستقرّون في فنون الترفّه وأنواع التنعم خلاف مما عليه مخالفوهم.

والمعنى[1]: أي إنّ المتقين في ظلال ظليلة وكن كنين وعيون عذبة وأنهار جارية، فلا يصيبهم أذى حرٍّ ولا قرٍّ، بخلاف الكافرين، فإنهم في ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل، ولا يغني من اللهب، كما تقدم، ولديهم فواكه يأكلون منها كلّما اشتهت نفوسهم، لا يخافون ضرَّها ولا عاقبة مكروهها.

وجملة قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ في الدنيا، مقدّرة بقول هو حال من ضمير المتقين في الخبر؛ أي: مقولاً لهم: كلوا أيّها الأبرار من نعم الجنة وثمراتها، واشربوا من مائها، وشرابها كلّما شئتم أكلاً وشرباً هنيئاً سائغاً رافهاً خالص اللذة، لا يشوبه سقم ولا تخم، ولا يكدّره تنغيص، وهو دائم لا يزول، ولا يورثكم أذىً في أبدانكم بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة خصوصاً الصيام كما مرّ في الحاقّة. وهذا أمر إكرام إظهاراً للرضى عنهم والمحبّة لهم. تمسّك[2] القائلون بإيجاب العمل للثواب بالباء السببية، والجواب: أنّ السببية إنما هي بفضل الله سبحانه ووعده الذي لا يخلف لا بالذات بحيث يمتنع عدمه أو يوجب النقص أو الظلم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء العظيم ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لطاعتنا بالإخلاص في عقائدهم وأعمالهم لا جزاء أدنى منه.

والمعنى: أي إنّا كما جزينا هؤلاء المتقين بما وصفنا من الجزاء على طاعتهم إيانا في الدنيا نجزي أهل الإحسان والإخلاص لطاعتهم وعبادتهم لنا، فلا نضيع لهم أجراً كما قال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: حسرةٌ وندامةٌ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ جوزي المتقون بما ذكر من الجزاء الأوفى ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بما أخبر الله تعالى به في كتابه من تكريم هؤلاء المتقين

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بما أكرمهم به يوم القيامة، حيث نال أعداؤهم هذا الثواب الجزيل، وهم بقوا في العذاب المخلّد الوبيل.

ثم خاطب المكذبين مهدّداً لهم، فقال: ﴿كُلُوا﴾ من نعيم الدنيا الفاني ﴿وَتَمَتَّعُوا﴾ بمتاعها تمتّعا ﴿قَلِيلًا﴾ أو زماناً قليلاً؛ أي: عيشوا مدّة قليلةً إلى منتهى آجالكم؛ لأنّ زمان الدنيا قليل كمتاعها. ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾؛ أي: كافرون مستحقّون للعذاب في الآخرة. وجملة ﴿كُلُوا﴾ في محل النصب مقول لقول مقدّر وقع حالاً من ﴿المكذبين﴾. قال في «الكواشي»: لا أحب الوقف على ﴿المكذبين﴾ إن نصبت ﴿كُلُوا﴾ إلخ، حالاً منه.

والمعنى[1]: الويل ثابت لهم مقولاً لهم ذلك في الآخرة تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا بما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع الفاني عن قريب على النعيم الخالد، فلا يرد كيف يقال لهم ذلك ولا تمتع لهم فيها؟ يعني: أنّ هذا القول لهم في الآخرة لا يكون لطلب الأكل والتمتع منهم بنعيم الدنيا حقيقةً لعدم إمكانه بل إنّما يقال لهم للتذكير المذكور، فيكون الأمر أمر توبيخ وتحسير وتحزين. وعلل ذلك بإجرامهم دلالةً على أن كل مجرم مآله هذا؛ أي: ليس له إلاّ الأكل والتمتع أيّاماً قلائل ثم البقاء في الهلاك الأبدي. أو يقال لهم هذا في الدنيا.

والمعنى عليه: أي كلوا بقية آجالكم وتمتعوا بقية أعماركم، وهي قليلة المدى، وسنستن بكم سنة من قبلكم من مجرمي الأمم الخالية التي متعت إلى حين ثم انتقمنا منهم بكفرهم وتكذيبهم لرسلنا. وهذا، وإن كان في اللفظ أمراً فهو في المعنى تهديد وزجر عظيم.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك أبديّ وحزن سرمدي ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ وقعت المجازاة على الأعمال ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين عرّضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل، وكذّبوا بما أخبرهم الله تعالى أنّه فعل بهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: للمكذبين: ﴿ارْكَعُوا﴾؛ أي: أطيعوا الله، واخشعوا، وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه، وارفضوا هذا الاستكبار والنخوة؛ لأنّ الركوع

---

(١) روح البيان.

والانحناء تواضع له وتعظيم، والسجود أبلغ منه في التواضع والتعظيم، ومن ذلك قالوا: إن السجود لغير الله كفر إن كان للعبادة، وخطر عظيم إن كان للتعظيم. وفي «حواشي ابن الشيخ»: الركوع في اللغة حقيقة في مطلق الانحناء الحسّيّ، وركوع الصلاة من جملة أفراده، وتفسيره بالإطاعة والخضوع مجاز لغويّ تشبيهاً له بالانحناء الحسّي. ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾؛ أي: لا يخضعون، ولا يقبلون ذلك، ويصرون على ما هم عليه من الاستكبار.

وقيل المعنى: إذا أمروا بالصلاة، أو بالركوع لا يفعلون، لما روى مقاتل: أنه نزل حين أمر رسول الله ﷺ ثقيفاً بالصلاة، فقالوا: إنّا لا نخرّ ولا نحني؛ أي: لا نقوم قيام الراكع، فإنها سبة علينا؛ أي: إنّ هيئة التجبية هيئة تظهر وترفع فيها السبّة، وهي الاست؛ أي: الدبر. وهو عار وعيب علينا، فقال ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود».

وفي بعض التفاسير: كانوا في الجاهلية يسجدون للأصنام ولا يركعون لها، فصار الركوع من أعلام صلاة المسلمين لله تعالى. وفيه دلالة على أنّ الكفّار مخاطبون بالفروع في حقّ المؤاخذة في الآخرة، كما مرّ مراراً. وفيه ذمّ عظيم لتارك الصلاة حيث لا يجيب داعي الله، أي: المؤذن. فإنه يدعو في الأوقات الخمسة المؤمنين إلى بيت الله وإقامة الصلاة، وقس عليه سائر الداعين.

والخلاصة[1]: أي وإذا قيل لهؤلاء المكذّبين: أعبدوا الله وأطيعوه واخشوا يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار استكبروا، وأصرّوا على عنادهم.

وروى ابن جرير عن ابن عباس: أنه قال: ما يقال هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود، فلا يستطيعون من جراء أنهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا.

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: توبيخ عظيم وعذاب شديد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يوبّخ المكذبين، ويُعنّفون على أعمالهم الخبيثة ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأوامر الله سبحانه ونواهيه.

وبعد أن بالغ في زجر الكفّار بما تقدم ذكره، وحثّ على الانقياد للدين الحقّ ختم السورة بالتعجيب من هؤلاء المشركين الذين لم يسمعوا نصيحة الداعي، ولم

---

(١) المراغي.

يتّبعوا عظاته وما فيه رشدهم وصلاحهم في آخرتهم ودنياهم، فقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾؛ أي:[1] فبأيّ خبر يخبر بالحقّ، وينطق بما كان وما يكون على الصدق؟ ﴿بَعۡدَهُۥ﴾؛ أي: بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين وأخبار النشأتين على نمط بديع معجز مؤسّس على حجج قاطعة وبراهين ساطعة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به؛ أي: بالقرآن الجامع لجميع الأحاديث والأخبار. فقوله: ﴿فَبِأَيِّ . . .﴾ إلخ، جواب شرط محذوف، وكلمة ﴿بعد﴾ بمنزلة ثمّ في إفادة التراخي الرتبي، أي: فإذا لم يؤمنوا به وهو موصوف بما ذكر فبأي كتاب يؤمنون؟ أي: إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل على تجلّيها ووضوحها فبأي كلام بعد هذا يصدقون؟

وقصارى ذلك: أنّ القرآن قد اشتمل على البيان الشافي، والحق الواضح، فما بالهم لا يبادرون إلى الإيمان به قبل الفوت وحلول الموت وعدم الانتفاع بعسى ولعل وليت؟. وقرأ الجمهور[2] ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بالتحتية على الغيبة. وقرأ ابن عامر في رواية عنه، ويعقوب بالفوقية على الخطاب.

وقد ختم سبحانه[3] السورة بالتعجيب من الكفّار، لأن الاستفهام للتعجيب وبين أنهم في أقصى درجات التمرد والعناد، حيث لم ينقادوا لمثل هذا البرهان الساطع والدليل القاطع على حقّيّة الدين القويم من حيث كونه في أرفع درجات الفصاحة والبلاغة، وفي أقصى طبقات الإعجاز. واستدل بعض المعتزلة على أنّ القرآن ليس بقديم بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعۡدَهُۥ﴾؛ إذ الحديث ضدّ القديم؛ لأنّ الحدوث والقدم لا يجتمعان في شيء واحد، ورد بأن الحديث هنا بمعنى الخبر لا بمعنى الحادث، ولو سلم فالعبارة لا تدل على أنّ القرآن محدث لاحتمال أن يكون المراد فبأيّ حديث بعد القديم يؤمنون؟ وروي: أنّ المرسلات نزلت في غار قرب مسجد الخيف بمنى، يسمّى غار والمرسلات.

خاتمة[4]: وجاء في هذه السورة بعد كل جملة قوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾، لأنّ كل جملة منها فيها إخبار الله تعالى عن أشياء من أحوال الآخرة، وتقريرات من أحوال الدنيا، فناسب أن يذكر الوعيد عقيب كلّ جملة منها للمكذّب

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

بالويل في يوم الآخرة.

ولما كان في سورة الإنسان ذكر نزراً من أحوال الكفّار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها جاء في هذه السورة الإطناب في وصف الكفّار والإيجاز في وصف المؤمنين، فوقع بذلك الاعتدال بين السورتين.

الإعراب

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ ﴿الواو﴾: حرف جرّ وقسم، ﴿المرسلات﴾ مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالمرسلات، وجملة القسم مستأنفة استئنافاً نحويّاً. و﴿عُرْفًا﴾ إما حال من الضمير المستكن في المرسلات إن كان مأخوذاً من عرف الفرس؛ أي: شعر عنق الفرس، والمعنى على التشبيه؛ أي: أقسم بالرياح المرسلات حال كونها شبيهة بعرف الفرس من حيث تلاحقها وتتابعها كما أنّه كذلك. أو منصوب على المصدرية؛ أي: والمرسلات إرسالاً عرفاً؛ أي: متتابعاً متلاحقاً. أو على أنّه مفعول لأجله إن كان بمعنى المعروف؛ أي: والمرسلات لأجل العرف؛ أي؛ أرسلت للإحسان والمعروف. وجواب القسم وما عطف عليه قوله الآتي: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾. ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة للتعقيب، ﴿العاصفات﴾ معطوف على ﴿المرسلات﴾، وهي اسم فاعل من العصف بمعنى الشدّة، ﴿عَصْفًا﴾ مصدر مؤكّد منصوب على المفعولية المطلقة بـ﴿العاصفات﴾، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ معطوف أيضاً على ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، ﴿نَشْرًا﴾ مفعول مطلق منصوب بـ﴿الناشرات﴾، ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ﴾ معطوف على ﴿الناشرات﴾، ﴿فَرْقًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بـ ﴿الفارقات﴾، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ﴾ معطوف على ﴿الفارقات﴾، ﴿ذِكْرًا﴾ مفعول به لـ﴿الملقيات﴾. ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ منصوبان على البدلية من ﴿ذِكْرًا﴾ أو على أنّهما مفعولان لأجله أو على الحال من الضمير المستكن في ﴿الملقيات﴾ أي: معذرين ومنذرين. ﴿إِنَّمَا﴾ إنّ حرف نصب وتوكيد، ﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى الذي في محل النصب اسمها، ولا تكون ﴿مَا﴾ هنا مصدرية ولا كافّة، وقد مرّ لك أنها كتبت هنا متصلة بـ﴿إن﴾ إتباعاً لرسم المصحف الإمام.

وجملة ﴿تُوعَدُونَ﴾ من الفعل المغيّر ونائب فعله صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: إنّ الذي توعدونه من البعث والحشر، ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، واللام المزحلقة حرف ابتداء، وجملة ﴿إنّ﴾ من اسمها وخبرها جواب القسم، لا محل لها من الإعراب.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمّن معنى الشرط، ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ نائب فاعل لفعل محذوف وجوباً يفسّره ما بعده، تقديره: فإذا طمست النجوم طمست. وجملة ﴿طُمِسَتۡ﴾ من الفعل المغيّر ونائب فاعله جملة مفسّرة لا محل لها من الإعراب.

وفي جواب ﴿إذا﴾ قولان:

أحدهما: أنّه محذوف تقديره: فإذا طمست النجوم وقع ما توعدون لدلالة قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ عليه.

والثاني: أنّ جوابها قوله: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾﴾ على إضمار القول؛ أي: يقال: لأيّ يوم أجّلت. فالفعل في الحقيقة هو الجواب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها على كلا القولين مستأنفة لا محل لها من الإعراب. وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾﴾ جمل معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾﴾، وجرى فيها ما جرى فيه من الإعراب من الاشتغال؛ أي: وإذا فرجت السماء فرجت، وإذا نسفت الجبال نسفت، وإذا أقتت الرسل أقتت وقع ما توعدون من البعث والمجازاة. ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُجِّلَتۡ﴾؛ أي: أجلت لأيّ يوم، والجملة مقول لقول محذوف في محل نصب على الحال من مرفوع ﴿أُقِّتَتۡ﴾؛ أي: وإذا أقتت الرسل مقولاً فيهم: لأيّ يوم أجلت وقع ما توعدون، أو مقول لقول محذوف وقع جواباً لـ ﴿إذا﴾، فلا محل لها من الإعراب كما تقدم؛ أي: يقال لأيّ يوم أجلت. ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾﴾ بإعادة

العامل، ولك أن تعلقه بفعل محذوف؛ أي: أجلت ليوم الفصل. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ فعل ماض ومفعول به أوّل، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، تقديره: وأي شيء مدر إياك جواب ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، والجملة الاسمية جملة إنشائية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾ استفهامية في محل الرفع مبتدأ، ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب سادّة مسد المفعول الثاني لـ﴿أَدْرَىٰكَ﴾؛ أي: شيء جعلك دارياً، جواب استفهام ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾، والاستفهام الأول معناه الاستبعاد والإنكار، والثاني للتهويل والتعظيم. ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ سوغ الابتداء به مع كونه نكرة ما فيه من معنى الدعاء، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف أضيف إلى مثله، متعلق بـ ﴿وَيْلٌ﴾، لأنّه بمعنى هلاك، أو صفة له، والتنوين عوض عن جمل محذوفة تقتبس من السياق.

والتقدير: يوم إذ طمست النجوم وفرجت السماء إلخ، ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ خبر عن ﴿وَيْلٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، لأنّ الاستفهام في الأصل إنكاري، وقد دخل على نفي، ونفي النفي إثبات، ويعبّر عنه بالاستفهام التقريري. ﴿لم نهلك﴾ جازم وفاعل مضارع، مجزوم بـ ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر تقديره: نحن، يعود على الله، ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مفعول به، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع التراخي ﴿نتبعهم﴾ فعل مضارع ومفعول به، مرفوع على الاستئناف لتجرّده عن الناصب والجازم، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ مفعول به ثان، أي: ثمّ نحن نتبعهم الآخرين. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: فعلا مثل ذلك الفعل الفظيع، ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾. ﴿نَفْعَلُ﴾ فعل مضارع وفعل مستتر يعود على الله، ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ متعلق بـ ﴿نَفْعَلُ﴾، والجملة مستأنفة. وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ تقدم إعرابه آنفاً فلا عود ولا إعادة، وسيأتي سر تكرارها في مبحث البلاغة.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري: ﴿لم﴾ حرف جزم، ﴿نَخْلُقكُّم﴾ فعل

مضارع مجزوم بـ ﴿لم﴾، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على الله، ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ متعلق بـ﴿نَخۡلُقكُّم﴾، ﴿مَّهِينٍ﴾ نعت لـ﴿مَّآءٍ﴾ ومن الابتدائية إشارة إلى أنه تعالى قادر على الابتداء، والقادر على الابتداء قادر على الإعادة، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أوّل، معطوف على الجملة الاستفهامية، ﴿فِي قَرَارٍ﴾ في موضع المفعول الثاني، ﴿مَّكِينٍ﴾ صفة لـ ﴿قَرَارٍ﴾، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من مفعول ﴿جعلناه﴾؛ أي: مؤخّراً إلى قدر معلوم، و﴿مَّعۡلُومٍ﴾ صفة لـ﴿قَدَرٍ﴾، ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿جعلناه﴾، ﴿فَنِعۡمَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿نعم﴾ فعل ماض جامد لإنشاء المدح، ﴿ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قدرنا﴾، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: نحن. ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ تقدم إعرابها. ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريريّ، ﴿لم نجعل الأرض كفاتاً﴾ جازم وفعل مضارع وفاعل مستتر ومفعولان، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾ مفعولان به لـ﴿كِفَاتًا﴾ إن قلنا: إنّه مصدر أو جمع كافت لأنّه اسم فاعل، و﴿جعلنا﴾ فعل وفاعل معطوف على الجملة الاستفهامية، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿جعلنا﴾ إن كان بمعنى ﴿خلقنا﴾، وفي موضع المفعول الثاني إن كان بمعنى صيرنا، ﴿رَوَٰسِيَ﴾ مفعول ﴿جعلنا﴾، ﴿شَٰمِخَٰتٖ﴾ صفة لـ ﴿رَوَٰسِيَ﴾، ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ﴾ فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على ﴿جعلنا﴾، ﴿فُرَاتٗا﴾ صفة لـ ﴿مَّآءٍ﴾. ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ تقدم إعرابها.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ٣٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٤﴾.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون، ﴿والواو﴾: فاعل، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ويقال لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ إلخ. وجملة القول مستأنفة، ﴿إِلَىٰ مَا﴾ متعلق بـ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كُنتُم﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد الضمير في ﴿به﴾. ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، توكيد لفظيّ لـ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ الأول، ﴿إِلَىٰ ظِلّٖ﴾ معلق بـ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، ﴿ذِي ثَلَٰثِ﴾ صفة لـ ﴿ظِلّٖ﴾،

﴿ذِي﴾ مضاف، ﴿ثَلَٰثِ﴾ مضاف إليه، ﴿ثَلَٰثِ﴾ مضاف، ﴿شُعَبٍ﴾ مضاف إليه، ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ صفة لـ ﴿ظِلٍّ﴾، و﴿لَّا﴾ متوسطة بين الصفة والموصوف لإفادة النفي؛ أي: إلى ظلّ غير ظليل. وجملة ﴿لا يغني من اللهب﴾ صفة ثانية لـ ﴿ظِلٍّ﴾؛ أي: إلى ظل غير ظليل غير مغنٍ من اللهب، و﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ متعلق بـ ﴿يغني﴾، وجيء بالصفة الأولى اسماً وبالثانية فعلاً دلالة على نفي ثبوت هذه الصفة ونفي التجدّد والحدوث للإغناء عن اللهب، كما في «السمين». ﴿إِنَّهَا﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَرْمِى﴾ خبره، وجملة إنّ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب مسوقة لتعليل عدم غناء الظلّ غير الظليل. ﴿بِشَرَرٍ﴾ متعلق بـ ﴿تَرْمِى﴾، ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ نعت لـ ﴿شرر﴾، ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ خبره، ﴿صُفْرٌ﴾ صفة لـ ﴿جمالة﴾، وجملة ﴿كأن﴾ في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿شرر﴾. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ تقدم إعرابها.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿يَوْمُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، وجملة ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ في محل جر بإضافة الظرف إليه، وقرىء بفتح الميم نصباً على الظرفية، وهو متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿وَلَا يُؤْذَنُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾ نافية، ﴿يُؤْذَنُ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿يُؤْذَنُ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾. ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿يعتذرون﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يُؤْذَنُ﴾، منتظم في سلك النفي من غير تسبّب عنه، ولهذا لم ينصب، لأنّه لو نصب لـ كان مسبّباً عنه لا محالة. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ معطوف على الكاف أو مفعول معه، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، لأنّها فسرت جملة قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾. ﴿فإن﴾ الفاء: عاطفة، ﴿إنْ﴾ حرف شرط، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿لَكُمْ﴾ خبرها مقدم، ﴿كَيْدٌ﴾ اسمها مؤخر، ﴿فَكِيدُونِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿كيدون﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون للوقاية،

وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة مفعول به، وجملة ﴿كيدون﴾ في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿جَمَعْنَكُمْ﴾. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾. تقدم إعرابها.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ناصب واسمه، ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لذكر أحوال المؤمنين على سبيل الإيجاز، ﴿وَعُيُونٍ﴾ معطوف على ﴿ظِلَٰلٍ﴾، ﴿وَفَوَٰكِهَ﴾ معطوف على ﴿ظلال﴾، مجرور بالفتحة، لأنّه على صيغة منتهى الجموع، ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور نعت لـ ﴿فواكه﴾، وجملة ﴿يَشْتَهُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما يشتهونه. ﴿كُلُوا۟﴾ فعل أمر وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من الضمير المستكن في خبر ﴿إنّ﴾ الذي هو قوله: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾؛ أي: مستقرّون في ظلال مقولا لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ إلخ. ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ معطوف على ﴿كُلُوا۟﴾، ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ صفة لمصدر محذوف؛ أي: أكلاً وشرباً هنيئين، أو منصوب على الحال من فاعل ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾، أي: حال كونكم متهنّئين. ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ ﴿كنتم﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف مقدم على عامله؛ أي: جزاء مثل ذلك الجزاء العظيم. ﴿نَجْزِى﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ جملة تعليليّة، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿كُلُوا۟﴾ فعل أمر وفاعل، ﴿وَتَمَتَّعُوا۟﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من ﴿المكذبين﴾، والتقدير: الويل ثابت للمكذبين حال كونهم مقولاً لهم: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾. ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لظرف محذوف تقديره: زماناً قليلاً، والظرف تنازع فيه ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾، أو صفة لمصدر محذوف أي: أكلاً قليلاً وتمتعاً قليلاً. ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ ناصب واسمه وخبره، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب مسوقة لتعليل التهديد المفهوم من الأمر

بالأكل والتمتع. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمُ﴾ متعلق بـ ﴿قِيلَ﴾، ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾ نائب فاعل محكيّ لـ ﴿قِيلَ﴾، وجملة ﴿قيل﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ تقدم إعرابها. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، الباء، حرف جر. ﴿أيّ﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجبي، مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يؤمنون﴾، ﴿أي﴾ مضاف، ﴿حَدِيثٍۭ﴾ مضاف إليه، ﴿بَعْدَهُۥ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صفة لحديث، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية جملة استفهامية مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عُرْفًا﴾ وفي «القاموس»: والعرف بالضمّ: شعر عنق الفرس اهـ. ثم قال: والمعرفة كمرحلة: موضع العرف من الفرس اهـ. ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ من العصف بمعنى الشدّة، وفي «المصباح»: عصفت الريح عصفاً من باب ضرب وعصوفاً أيضاً: اشتدت. ﴿نَشْرًا﴾ مصدر نشر من باب نصر، يقال: نشرت الريح المطر إذا فرقته حيث شاء الله تعالى، وفرق بين الحق والباطل فرقاً من باب نصر، كما في «المختار». ﴿عُذْرًا﴾ مصدر من عذر إذا محا الإساءة. ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ اسم من أنذر إذا خوّف، لا مصدر، لأنّه لم يسمع فعل مصدراً من أفعل. ﴿طُمِسَتْ﴾؛ أي: محيت ومحقت وذهب نورها. ﴿فُرِجَتْ﴾؛ أي: فتحت فكانت أبواباً. ﴿نُسِفَتْ﴾؛ أي: تفتتت فصارت كالرمل السائل، وفي «المصباح»: نسفت الريح التراب نسفاً من باب ضرب: اقتلعته وفرقته اهـ. ﴿أُقِّتَتْ﴾ قرأه أبو عمرو البصري ﴿وُقِّتَتْ﴾ بالواو من الوقت، فالواو هي الأصل فاء الكلمة. وقرأه الباقون ﴿أقتت﴾ بالهمزة، وفيه إبدال الواو همزة، لأن الضمة من جنس الواو، فالجمع بينهما يجري مجرى الجمع بين المثلين، فيكون ثقيلاً، ولهذا السبب تستثقل الكسرة على الياء، ولم تبدل في نحو: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، لأنّ ضمة الواو ليست بلازمةٍ فيه. وفي «كشف الأسرار»: الألف والواو لغتان، والعرب تبدل الألف من الواو، تقول: وسادة

وإسادة وكتاب مورخ ومؤرخ وقوس موتر ومؤتر. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فيه إعلال بقلب الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، أصله: أدريك بوزن أفعل. ﴿من ماء مهين﴾ والميم فيه أصلية، ومهانته قلته وخسته، وكل شيء ابتذلته فلم تصنه فقد امتهنته؛ أي: خلقناكم منه. ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ فالقرار موضع الاستقرار، والمكين: الحصين الحفيظ له مما يفسده كالهواء. ﴿كِفَاتًا﴾ والكفات اسم ما يكفت؛ أي: يضم ويجمع من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه كالضمام، لما يضم والجماع لما يجمع، نحو: التقوى جماع كل خير، والخمر جماع كل إثم. ﴿رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت من رسا الشيء يرسو؛ أي: ثبت. ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ جمع شامخة، والشامخ: العالي المرتفع؛ أي: مرتفعات. ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث في غير العقلاء مطرد كأشهر معلومات ونحوه.

﴿مَّآءً فُرَاتًا﴾ يقال: الفرات للواحد والجمع، وتاؤه أصلية ﴿ذي ثلاث شعب﴾ جمع شعبة بمعنى قطعة وفرقة. ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾؛ أي: لا يدفعه، واللهب: ما يعلو على النار إذا اضطرمت من أحمر وأصفر وأخضر. ترمي بشرر فالشرر جمع شررة، وهي ما تطاير من النار في الجهات متفرقاً كالنجوم. قال في «القاموس»: الشرر والشرار كجبلٍ وكتاب: ما يتطاير من النار، واحدتهما بهاء انتهى. ﴿كَٱلۡقَصۡرِ﴾ في العظم، مفرد جمعه قصور، وهو البناء العالي، ووصف به الجمع باعتبار كل واحد من أفراده، كما مرّ. ﴿جمالة صفر﴾ جمع جمل كحجارة في جمع حجر، ويقال: جمل وجمال وجمالة نحو: ذكر وذكارٍ وذكارة وحجر وحجار وحجارة. والتاء فيه لتأنيث الجمع أو اسم جمع كالحجارة. والجمل: ذكر الإبل، والناقة أنثاه. والصفر: جمع أصفر، والصفرة: لون من الألوان التي بين السواد والبياض، وهي إلى البياض أقرب، ولذلك قد يعبر بها عن السواد. ﴿فَكِيدُونِ﴾ أمر من كاد يكيد، وأصل يكيد يكيد بوزن يفعل، نقلت حركة الياء إلى الكاف فسكنت الياء إثر كسرة فصارت حرف مدّ، فلما بني منه الأمر حذف حرف المضارعة، وحذفت نون الرفع كما حذفت ياء المتكلم لرعاية الفواصل. والكيد: هو المكر والاحتيال والخديعة. ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظل كشعاب وشعب أو ظلة كقباب وقبة. ﴿يَشۡتَهُونَ﴾ أصله: يشتهيون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما حذفت حركتها سكنت فالتقى ساكنان فحذفت الياء، وضمت الهاء لمناسبة الواو.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع.

فمنها: التأكيد بذكر المصادر زيادة في البيان وتقوية للكلام في قوله: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾. وهو من المحسنات اللفظية.

ومنها: الطباق بين ﴿عُذْرًا﴾ و﴿نُذْرًا﴾ وبين ﴿أَحْيَآءً﴾ و﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ وبين ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر مع الإتيان بصيغة الاستفهام في قوله: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤﴾ لزيادة تفظيع الأمر وتهويله، وكان مقتضى السياق وما أدراك ما هو.

ومنها: تكرار آية ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ في عشر مواضع لزيادة الترهيب والتهديد، لأن التكرار في مقام الترغيب والترهيب مستساغ حسن، لا سيما إذا تغايرت الآيات السابقة على المرّات المكررة كما هنا.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾ وفي قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾.

ومنها: الجناس الناقص بين لفظي ﴿مَّهِينٍ﴾ و﴿مَّكِينٍ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ للتفخيم، أو للإشعار بأنّ ما يرى على ظهر الأرض من الجبال بعض منها، وإنّ في عداد الجبال ما لم يعرف ولم ير، فإن في السماء جبالاً أيضاً بدلالة قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مَّآءً فُرَاتًا﴾ للتفخيم أو لإفادة التبعيض، لأنّ في السماء ماء فراتاً أيضاً، بل هي معدنه ومصبه.

ومنها: تقديم الجار والمجرور على متعلق في قوله: ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ لرعاية رؤوس الفواصل.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، لأنّه كناية عن كون ذلك الدخان عظيماً بناءً على أن التشعب من لوازمه.

ومنها: وصف الظل بالظليل في قوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ للتأكيد كنومٍ نائمٍ، وللدلالة على أن تسمية ما يغشاهم من العذاب بالظل استهزاء بهم.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ والمرسل المفصّل في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ٣٣﴾. فالأول وهو التشبيه بالقصر تشبيه في العظم، والثاني وهو التشبيه بالجمل تشبيه في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط والحركة.

ومنها: الإهانة والتعجيز والتقريع في قوله: ﴿فَكِيدُونِ﴾، لأنّ الأمر فيه أمر إهانة، والخطاب فيه خطاب تعجيز وتقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠ لَّا ظَلِيلٖ﴾، سميّ العذاب ظلاًّ تهكّماً وسخرية بهم.

ومنها: المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجّار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ٤٢ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾، قابل ذلك بقوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ٤٦﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ٤١ وَفَوَٰكِهَ﴾ إلخ، من إطلاق الحال وإرادة المحل، وهو الجنة، علاقته المحلية، لأنّ الظلال تمتدّ فيها، والعيون تجري فيها، والفواكه تنضج فيها.

ومنها: المجاز المرسل أيضاً في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ﴾ علاقته البعضيّة، لأنّه سمى الصلاة باسم جزء من أجزائها، وهو الركوع، وإنما خص الركوع بالذكر مع أن الصلاة تشتمل على أفعال كثيرة، لأنّ العرب كانوا يأنفون من الركوع والسجود.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾، فقد نكّرهما مع أنها تكفت الأحياء والأموات جميعاً للتفخيم، كأنّه قيل: أحياء لا يعدون وأمواتاً لا يحصون على أنّ أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة من المقاصد

١ ـ الإخبار بأنّ يوم الفصل آتٍ لا شكّ فيه، وقد أكد ذلك بالقسم بملائكته الكرام.

٢ ـ وعيد الكافرين بأنه سيستن بهم سنة الأولين من المكذبين.

٣ ـ توبيخ المكذّبين على نكران نعم الله عليهم في الأنفس والآفاق.

٤ ـ وصف عذاب الكافرين بما تشيب من هوله الولدان.

٥ ـ وصف نعيم المتقين، وما يلقونه من الكرامة في جنات النعيم، ويتخلل ذلك وصف خلق الإنسان، والأرض والجبال وبيان عظمة الخالق وكمال قدرته[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تمت سورة المرسلات بعون خالق البريات، وصل اللهم على عبدك ورسولك محمدٍ النبيّ الأمّي، وعلى آله وصبحه وسلم.

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء في يوم الثلاثاء قبيل الغروب اليوم السابع من شهر الجمادى الأخيرة من شهورة سنة ألف وأربع مئة وستّ عشرة من الهجرة النبويّة، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيّة. بعد أن عاقني عن موالاته شواغل الدهر، فلله الحمد على كماله، والشكر له على نواله. وصلى الله تعالى على سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين آمين يا ربّ العالمين ألف ألف آمين.

شعرٌ

إِنِّـيْ إِذَا مَـا خَـتَـمْـتُ خَـتْـمَـاً   أَقُـوْلُ يـا ٱلـلَّـهُـمَّ يَـا ٱلـلَّـهُـمَّـا

لَـكَ ٱلْـحَـمْـدُ حَـمْـدَاً يُـوَافِـيْ   وَلَـكَ ٱلـشُّـكْـرُ شُـكْـرَاً يُـكَـافِـيْ

عَلَىٰ مَا بِهِ مِنَ ٱلتَّفْسِيْرِ أَكْرَمْتَنِيْ   وَمَـا بِـهِ مِـنَ ٱلْـفُـنُـوْنِ أَلْـهَـمْـتَـنِـيْ

آخرُ

يَا خَادِمَ ٱلْجِسْمِ كَمْ تَسْعَىٰ لِخِدْمَتِهِ   وَتَـطْـلُـبُ ٱلـرِّبْـحَ مِـمَّـا فِـيْـهِ خُـسْـرَانُ

عَلَيْكَ بِٱلنَّفْسِ فَٱسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا   فَـأَنْـتَ بِـٱلـنَّـفْـسِ لاَ بِـٱلْـجِـسْـمِ إِنْـسَـانُ

آخرُ

وَمِـنْ عَـجَـبِ ٱلأَيَّـامِ أَنَّـكَ قَـاعِـدٌ   عَلَىٰ ٱلأَرْضِ فِيْ ٱلدُّنْيَا وَأَنْتَ تَسِيْرُ

فَـسَـيْـرُكَ يَـا هَـذا كَـسَـيْـرِ سَـفِـيْـنَـةٍ   بِـقَـوْمٍ قُـعُـوْدٍ وَٱلْـقُـلُـوْبُ تَـطِـيْـرُ

آخرُ

كُـنْ مِـنَ ٱلْـخَـلْـقِ جَـانِـبَـا   وَٱرْضَ بِـٱلـلَّـهِ صَـاحِـبَـا

قَـلِّـبِ ٱلْـخَـلْـقَ كَـيْـفَ شِـئْـ   ـتَ تَـجِـدْهُ عَـقَـارِبَـا

الفهرس